التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة فصلت و سورة الشورى

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الحادي والثلاثون

الدرر السنية
www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة فصلت وسورة الشورى)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٣ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر
التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الحادي والثلاثون - سورة فصلت وسورة الشورى/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ
٦٥٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٧-٩٧-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن- سورة فصلت- تفسير ٢- القرآن- سورة الشورى - تفسير
أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/٩٧١

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩٧١
ردمك: ٧-٩٧-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدرر السنية
www.dorar.net
المملكة العربية السعودية
٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة فصلت وسورة الشورى)

إعدادُ

القِسمِ العِلميِّ بمُؤَسَّسةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشرافُ العامُّ

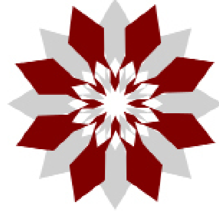
الشيخ عَلَوي بن عبد القادر السَّقَّاف

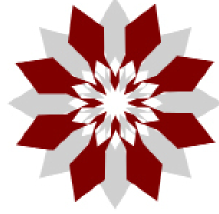
المجلد الحادي والثلاثون

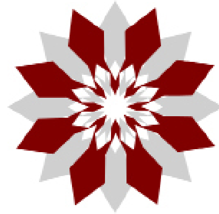
الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ فُصِّلَت







سورةُ فُصِّلَت

أسماءُ السُّورةِ:

مِمَّا سُمِّيَت به هذه السُّورةُ: سُورةُ (فُصِّلَت)[١]، و(حم السَّجْدةِ)[٢].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

هذه السُّورةُ اشتَمَلت على أحَدِ مَواضِعِ سُجودِ التِّلاوةِ[٣].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ فُصِّلَت مَكِّيَّةٌ، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٤].

---

(١) اشتَهَرت هذه السُّورةُ بهذا الاسمِ؛ لِوُقوعِ كَلِمةِ ﴿فُصِّلَتْ﴾ في أوَّلِها؛ فعُرِفَت بها تمييزًا لها مِن بينِ السُّوَرِ المُفتَتَحةِ بحروفِ (حم). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٣).

قال ابن عاشور: (تُسمَّى «حم السَّجدةِ» بإضافةِ «حم» إلى السَّجدةِ... وبذلك تُرجِمَتْ في «صحيحِ البُخاريِّ»، وفي «جامعِ التِّرمذيِّ»؛ لأنَّها تَمَيَّزَتْ عن السُّورِ المُفتَتَحةِ بحُروفِ «حم»؛ بأنَّ فيها سَجدةً من سُجودِ القرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٧). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٢٧)، ((سنن الترمذي)) (٥/ ٣٧٥).

(٣) وقد نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ. يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٥٥١).

وقد اختَلَفوا في مَوضِعِ هذه السَّجدةِ: هل هو قَولُه: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، أو قَولُه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، وسيأتي ذِكرُ الخِلافِ في مَوضِعِه مِن هذه السُّورةِ (ص: ٢١١).

(٤) ممَّن نَقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وأبو حيان، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٣)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٤٢).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، وأنَّ هذا القُرآنَ مِن عِندِه سُبحانَه تعالى[1].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلتْ عليها السُّورةُ:

١- مدْحُ القُرآنِ، وبيانُ شَرَفِه.

٢- بيانُ مَوقِفُ الكُفَّارِ مِن القرآنِ.

٣- ذِكرُ بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ الله تعالى؛ كتَخليقِ الأرضِ، وما جُعِل فيها مِن جِبالٍ، وما قُدِّر فيها مِن أقواتٍ، وتَخليقِ السَّمواتِ السَّبعِ، وتَزيينِ السَّماءِ الدُّنيا منها بالنُّجومِ.

٤- إنذارُ المُشرِكينَ المُعرِضينَ عن سَماعِ القُرآنِ بما حَلَّ بالأُمَمِ المكَذِّبةِ، وذِكرُ ما حَلَّ بعادٍ وثمودَ مِن العُقوبةِ في الدُّنيا.

٥- ذِكرُ بَعضِ مَشاهِدِ يومِ القيامةِ، وبَيانُ بَعضِ أحوالِ الكُفَّارِ السَّيِّئةِ في هذا اليَومِ؛ كشَهادةِ جَوارِحِهم عليهم.

٥- بيانُ حالِ المؤمنينَ وحُسنِ مَصيرِهم، وفَضلُ الدَّعوةِ إلى اللهِ والدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ، والأمرُ بالاستِعاذةِ باللهِ تعالى مِن نَزَغاتِ الشَّيطانِ.

٦- ذِكرُ عدَدٍ مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وقُدرتِه على كُلِّ

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٣٢٣).

شَيءٍ، ومِن ذلك قُدرتُه على إحياءِ الموتى.

٧- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٨- إقامةُ الأدِلَّةِ على أنَّ هذا القُرآنَ مِن عندِ اللهِ تعالى، وإبطالُ مَطاعِنِ المُشرِكينَ فيه.

٩- بيانُ سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى، وأنَّ مَرَدَّ عِلمِ قيامِ السَّاعةِ إليه.

١٠- ذِكرُ طَبيعةِ الإنسانِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ.

١١- خُتِمَت السُّورةُ بأنَّ حِكمةَ اللهِ اقتَضَت إطْلاعَ النَّاسِ في كُلِّ وَقتٍ على بَعضٍ مِن آياتِه -سُبحانَه- في الآفاقِ وفي أنفُسِهم؛ حتَّى يَتبَيَّنَ لهم أنَّ القُرآنَ حَقٌّ.



الآيات (١-٨)

﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ
يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ
مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥ قُلۡ
إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ
لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿فُصِّلَتۡ﴾: أي: بُيِّنَت، والتَّفصيلُ ضدُّ الإجمالِ، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ وإبانتِه[1].

﴿بَشِيرًا﴾: أي: مُبشِّرًا، وأصلُه: ظهورُ الشَّيءِ معَ حُسنٍ وجمالٍ، ومنه البِشارةُ، ولا تكونُ البِشارةُ عندَ إطلاقِ الكلامِ إلَّا بالخيرِ، وقد تُقيَّدُ وتُحمَلُ على الشَّرِّ[2].

﴿وَنَذِيرًا﴾: أي: مُنذِرًا، ومُحذِّرًا، ومُخوِّفًا، والإنذارُ: الإعلامُ بالشَّيءِ الَّذي حذَّر منه، وأصلُ الإنذارِ: الإعلامُ، وأصلُ (نذر): تخويفٌ أو تخوُّفٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٩)، ((أضواء البيان)) (٧/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٨٢٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

﴿أَكِنَّةٍ﴾: أي: أغطِيةٍ. وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[1].

﴿وَقْرٌ﴾: أي: ثِقْلٌ وصَمَمٌ، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقَلٍ في الشَّيءِ[2].

﴿حِجَابٌ﴾: أي: سِترٌ، وكُلُّ ما يَستُرُ المطلوبَ ويَمنَعُ مِن الوُصولِ إليه فهو حِجابٌ، وأصلُ (حجب): يدُلُّ على المَنعِ مِن الوُصولِ[3].

﴿مَمْنُونٍ﴾: أي: مَقطوعٍ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على قَطعٍ[4].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

قَولُه: ﴿قُرْءَانًا﴾ في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه حالٌ مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾ النَّكِرةِ؛ لِوَصفِه بـ﴿فُصِّلَتْ﴾، أو مِنْ ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾، و﴿عَرَبِيًّا﴾ صِفةٌ لـ﴿قُرْءَانًا﴾. الثَّاني: أنَّه حالٌ مُوَطِّئةٌ، والحالُ في الحقيقةِ ﴿عَرَبِيًّا﴾. الثَّالِثُ: أنَّه مَنصوبٌ على الاختِصاصِ والمَدحِ على إضمارِ (أمدَحُ) أو (أخُصُّ). وقيلَ غيرُ ذلك.

قَولُه: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ ﴿فُصِّلَتْ﴾، أي: فُصِّلَت لهؤلاءِ وبُيِّنَت لهم، أو بـ﴿تَنزِيلٌ﴾، أو مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ هو صفةٌ أُخْرى لـ﴿قُرْءَانًا﴾، أي: كائِنًا لِقَومٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢، ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

يَعلَمونَ[1].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكَريمةَ بِقَولِه تعالى: ﴿حمٓ ﴾، المشتمِلِ على حرفَينِ مِن الحُروفِ المُقَطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القُرآنِ؛ وذلك للإشارةِ إلى إعجازِه، ثمَّ ذَكَر اللهُ تعالى أنَّ هذا القُرآنَ مُنزَّلٌ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن عندِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم، وأنَّ هذا كِتابٌ فَصَّلَ اللهُ آياتِه وأوضَحَ معانيَه وأحكامَه باللُّغةِ العربيَّةِ، لِقَومٍ يَعلَمونَ اللِّسانَ العَربيَّ، فيَنتَفِعونَ ببيانِه ويَتدبَّرونَه، بشيرًا بحُصولِ الخَيرِ والرَّحمةِ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحًا، ونذيرًا بالشَّرِّ لِمَن كَفَر وعَمِلَ السَّيِّئاتِ.

فما كان مِن كفَّارِ قريشٍ إلَّا أنْ أعرَضَ أكثَرُهم عن سَماعِ القُرآنِ، فهم لا يَسمَعونَه سَماعَ قَبولٍ وانتِفاعٍ، وقالوا: قُلوبُنا في أغطِيةٍ تَمنَعُ عنَّا فَهْمَ القُرآنِ، وفي آذانِنا ثِقلٌ قد أصَمَّها عن السَّماعِ، ومِن بَيْنِنا وبَيْنِك حاجِزٌ يَحجُبُنا عنك وعن مُوافَقتِك؛ فاعمَلْ -يا مُحمَّدُ- بدينِك الَّذي ارتَضَيتَ، إنَّنا عامِلونَ بدِينِنا!

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالرَّدِّ على هؤلاءِ المشركينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لأولئك المُشرِكينَ: إنَّما أنا بَشَرٌ مِثلُكم، يُوحَى إلَيَّ أنَّ إلَهَكم إلهٌ واحِدٌ لا شَريكَ له؛ فاسلُكوا الطَّريقَ المُستقيمَ مُتوجِّهينَ إليه سُبحانَه، واستَغفِروه؛ وهَلاكٌ وعَذابٌ شَديدٌ للمُشرِكينَ الَّذين لا يُزَكُّونَ أنفُسَهم بالإيمانِ باللهِ وطاعتِه، والبُعدِ عن الإشراكِ به، وهم بالآخِرةِ جاحِدونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٠٥).

الصَّالحاتِ لهم أجرٌ دائِمٌ غيرُ مُنقَطِعٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

هذانِ الحرفانِ مِن الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ؛ لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها(١).

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾.

أي: هذا القُرآنُ مُنزَّلٌ على مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- مِن عندِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الَّذي وَسِعَتْ رَحمتُه كُلَّ شَيءٍ؛ ومِن رَحمتِه بعِبادِه إنزالُ القُرآنِ المُشتَمِلِ على العِلمِ والهُدى، والنُّورِ والشِّفاءِ، والرَّحمةِ والخَيرِ والسَّعادةِ(٢).

﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾.

أي: هذا كِتابٌ بيَّن اللهُ آياتِه بَيانًا تامًّا واضِحًا حالَ كونِه قرآنًا عربيًّا، لِقَومٍ يَعلَمونَ اللِّسانَ العَرَبيَّ، فيَتمَكَّنونَ مِن فَهمِه وتدَبُّرِه والانتِفاعِ ببَيانِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦-١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٩-٢٣١).

قال ابن عطية: (﴿فُصِّلَتۡ﴾ معناه: بُيِّنَت آياتُه، أي: فُسِّرَت معانيه، ففصل بيْنَ حلالِه وحرامِه، =

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

أي: يُبَشِّرُ القُرآنُ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ الصَّالحاتِ بحُصولِ الخَيرِ والرَّحمةِ، ويُنذِرُ مَنْ كَفَر وعَمِلَ السَّيِّئاتِ بالشَّرِّ والنِّقمةِ[1].

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

= وزَجْرِه وأمْرِه، ووَعْدِه ووَعيدِه. وقيل: ﴿فُصِّلَتْ﴾ في التَّنزيلِ، أي: نُزِّل نجومًا، لم يُنَزَّلْ مَرَّةً واحِدةً. وقيل: ﴿فُصِّلَتْ﴾ بالمواقِفِ وأنواعِ أواخِرِ الآيِ، ولم يكُنْ يَرجِعُ إلى قافيةٍ ونَحوِها، كالشِّعرِ والسَّجعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ: أنَّ آياتِ القُرآنِ واضِحةُ الأغراضِ، لا تَلتبِسُ إلَّا على مُكابرٍ في دَلالةِ كُلِّ آيةٍ على المقصودِ منها، وفي مَواقِعِها وتمييزِ بَعضِها عن بَعضٍ في المعنى، باختلافِ فُنونِ المعاني الَّتي تَشتمِلُ عليها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣١).

وقال الماوَرْدي: (﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: يَعلَمونَ أنَّه إلهٌ واحِدٌ في التَّوراةِ والإنجيلِ. قاله مجاهِدٌ. الثَّاني: أنَّ القُرآنَ مِن عندِ اللهِ نَزَل. قاله الضَّحَّاكُ. الثَّالثُ: يَعلَمونَ العَربيَّةَ فيَعجِزونَ عن مِثْلِه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٦٨).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي: اللُّغةَ العربيَّةَ: ابنُ جرير، والنحاس، والبغوي، والقرطبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٦)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٢٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٣).

وقال البقاعي: (﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي: فيهم قابليَّةُ العِلمِ، وتجَدُّدُ الفَهمِ، بما فيهم مِن سَلامةِ الطَّبعِ، وسَلاسةِ الانقيادِ لِبَراهينِ العَقلِ والسَّمعِ، وحِدَّةِ الأذهانِ، وفَصاحةِ اللِّسانِ، وصِحَّةِ الأفكارِ، وبُعْدِ الأغوارِ، وفي هذا تَبكيتٌ لهم في كَونِهم لا ينظرونَ مَحاسِنَه فيَهتَدوا بها، كما يَعتَنونَ بالنَّظَرِ في القَصائِدِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧).

أي: فأعرَضَ[(١)] أكثَرُ كفَّارِ قريشٍ[(٢)] عن سَماعِ القُرآنِ وتدَبُّرِه واتِّباعِه، فهم لا يَسمَعونَه سَماعَ قَبولٍ وانتِفاعٍ[(٣)].

---

(١) قال ابنُ عثيمين: (الفاءُ عاطِفةٌ، و«أَعْرَضَ» مَعطوفةٌ على ﴿فُصِّلَتْ﴾، يعني: كتابٌ فُصِّلَت آياتُه، ومعَ ذلك أعرَضَ أكثَرُهم، ويحتمِلُ أن تكونَ الفاءُ للاستئنافِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧).

(٢) ممَّن اختار القولَ المذكورَ؛ أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى كُفَّارِ قُرَيشٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١).

وقيل: يعودُ إلى القَومِ المذكورينَ في قَولِه تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: كانوا مِن أهلِ العِلمِ، ولكِنْ لم ينظروا النَّظَرَ التَّامَّ، بل أعرَضوا، فهم لا يَسمَعونَ؛ لإعراضِهم عمَّا احتوَى عليه من الحُجَجِ والبراهينِ، أو لَمَّا لم يَنتفِعْ به ولم يَقبَلْه، جُعِلَ كأنَّه لم يَسمَعْه. وممَّن ذهَب إلى أنَّه يعودُ إلى القومِ المذكورينَ: ابنُ عطية، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٥).

وردَّ هذا القولَ ابنُ عاشور، فذكر أنَّ الضَّميرَ (ليس عائِدًا إلى ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لِأنَّ الذين يَعلَمونَ لا يُعرِضُ أحَدٌ منهم). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٣).

وقيل: المرادُ: أكثَرُ الخَلقِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧، ٢٨).

قال السَّعدي: (أعرَضَ أكثَرُ الخَلقِ عنه إعراضَ المُستَكبِرينَ ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ له سَماعَ قَبولٍ وإجابةٍ، وإن كانوا قد سَمِعوه سماعًا تقومُ عليهم به الحُجَّةُ الشَّرعيَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤، ٧٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (أي: فهُم لا يُلقُونَ أسماعَهم للقُرآنِ، فَضلًا عن تدَبُّرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٣).

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف القُرآنَ بأنَّهم أعرَضوا عنه ولا يَسمَعونَه؛ بيَّنَ أنَّهم صَرَّحوا بهذه النَّفرةِ والمُباعَدةِ[(١)].

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾.

أي: وقال المُعرِضونَ عن القُرآنِ: قُلوبُنا الَّتي نَعقِلُ بها ونَفهمُ في أَغطِيةٍ مُحيطةٍ بها، تَمنَعُ عنَّا فَهْمَ ما تَدْعونا إليه، يا مُحمَّدُ[(٢)]!

﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾.

أي: وفي آذانِنا ثِقْلٌ قد أصَمَّها عن السَّماعِ؛ فنَحن لا نَسمَعُ ما تَدْعونا إليه[(٣)]!

﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾.

أي: ومِن بَيْنِنا وبَينِك حاجِزٌ يَحجُبُنا عنك؛ فنحن لا نراك[(٤)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥، ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦).

قال ابنُ جرير: (﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ وهو الثِّقْلُ، لا نَسمَعُ ما تَدْعونا إليه؛ استِثقالًا لِما يَدعو إليه، وكراهةً له). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾.

أي: فاعمَلْ -يا مُحمَّدُ- بدينِك، إنَّنا عامِلونَ بدينِنا الَّذي رَضِيناه لأنفُسِنا، فلن نتَّبِعَك(١).

= السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٠، ٣١).

قال البقاعي: (فنحن لا نراكَ لِنَفهَمَ عنك بالإشارةِ، فانسدَّت طُرُقُ الفَهمِ لِما تقولُ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٤٣).

وقال السعدي: (القَصدُ مِن ذلك: أنَّهم أظهَروا الإعراضَ عنه مِن كُلِّ وَجهٍ، وأظهَروا بُغْضَه، والرِّضا بما هم عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

وقال الشنقيطي: (أنَّ مِن بَيْنِهم وبينِه حِجابًا مانِعًا لهم مِنَ الاتِّصالِ والاتِّفاقِ؛ لأنَّ ذلك الحِجابَ يَحجُبُ كُلًّا منهما عن الآخَرِ، ويَحولُ بيْنَهم وبيْنَ رؤيةِ ما يُبديه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الحَقِّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٦).

وقال أيضًا: (اللهُ جَعَل لهم قلوبًا يَفهَمونَ بها، وآذانًا يَسمَعونَ بها، خِلافًا لِما زَعَموا، ولكنَّه سبَّب لهم الأكِنَّةَ والوَقْرَ والحِجابَ؛ بسَبَبِ مُبادرتِهم إلى الكُفرِ وتكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا المعنى أوضَحَه رَدُّه تعالى على اليهودِ في قَولِه عنهم: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٨).

وقيل: المرادُ بالحِجابِ: فُرقةٌ في الدِّينِ، وحاجزٌ في النِّحلةِ. وممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، والواحدي، وابن الجوزي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥).

وقال ابن عطية: (والحِجابُ الَّذي أشاروا إليه: هو مُخالَفتُه إيَّاهم، ودعوتُه إلى اللهِ دونَ أصنامِهم، أي: هذا أمرٌ يَحجُبُنا عنك، وهذه مقالةٌ تَحتمِلُ أن تكونَ معها قرينةُ الجِدِّ في المُحاوَرةِ وتتضَمَّنُ المباعَدةَ، ويحتمِلُ أن تكونَ معها قرينةُ الهَزلِ والاستخفافِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) =

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَروا بإعراضِهم، وعَلَّلوا بعَدَمِ فَهْمِهم بما يَدعو إليه؛ أمَرَ اللهُ سُبحانَه نبيَّه بجَوابٍ يُبَيِّنُ أنَّهم على مَحضِ العِنادِ[١].

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّما أنا مِثلُكم في الجِنسِ والهَيئةِ، والصُّورةِ والصِّفاتِ البَشَريَّةِ[٢].

= (ص: ٧٤٤).

قال ابن عطية: (يحتمِلُ أن يكونَ القَولُ تهديدًا، ويحتمِلُ أن يكونَ مُتارَكةً مَحضةً). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩).

قال السعدي: (﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: هذه صِفتي ووظيفتي، أنِّي بشرٌ مِثلُكم، ليس بيدي مِن الأمرِ شَيءٌ، ولا عندي ما تَستعجِلونَ به، وإنَّما فضَّلني اللهُ عليكم وميَّزني وخصَّني بالوحيِ الَّذي أوحاه إليَّ، وأمَرني باتِّباعِه، ودعوَتِكم إليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

وقال ابنُ عاشور: (كأنَّه يقولُ: وماذا أستطيعُ أن أعمَلَ معكم، فإنِّي رَسولٌ من اللهِ، فحِسابُكم على اللهِ،... أي: أنا مقصورٌ على البَشَريَّةِ، دونَ التصَرُّفِ في قُلوبِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٧).

وقال الشوكاني: (قيل: ومعنَى الآيةِ: أنِّي لا أقدِرُ على أنْ أحمِلَكم على الإيمانِ قَسْرًا؛ فإنِّي بشرٌ مِثلُكم، ولا امتيازَ لي عنكم إلَّا أنِّي أُوحِي إليَّ التَّوحيدُ والأمرُ به، فعلَيَّ البلاغُ وحْدَه، فإنْ قَبِلْتُم رَشَدْتُم، وإنْ أبَيْتُم هلَكْتُم. =

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

أي: يُوحَى إلَيَّ أنَّ مَعبودَكم مَعبودٌ واحِدٌ لا تَصلُحُ العبادةُ إلَّا له وَحْدَه سُبحانَه لا شَريكَ له(١).

﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾.

أي: فاسلُكوا الصِّراطَ المُستقيمَ المُوصِلَ إلى الله، مُتوَجِّهينَ إليه بإخلاصِ العبادةِ له، وسَلُوه سَتْرَ ذُنوبِكم، والتَّجاوُزَ عن مُؤاخَذتِكم بها(٢).

﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أي: وهَلاكٌ وعَذابٌ شديدٌ للَّذين يَجعَلونَ لله شَريكًا في عِبادتِه(٣).

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧﴾.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: الَّذين لا يُزَكُّونَ أنفُسَهم ولا يُطَهِّرونَها بالإيمانِ باللهِ، وطاعتِه وَحْدَه، والعملِ الصَّالحِ، والبُعدِ عن الإشراكِ بالله ومَعصيتِه(٤).

= وقيل: المعنَى: إنِّي لستُ بمَلَكٍ، وإنَّما أنا بشرٌ مِثلُكم، وقد أُوحِيَ إلَيَّ دونَكم، فصِرْتُ بالوحيِ نبيًّا، ووَجَب عليكم اتِّباعي. ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٥-٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٢٩)، ((مجموع =

= الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٣٣)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٧، ٣٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالزَّكاةِ هنا: التَّوحيدُ: ابن عطيَّةَ ونسَبَه للجمهورِ، وابنُ القيِّم -ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ-، والعُلَيمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٧، ٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٩).

قال ابن القيِّم: (قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال أكثرُ المفسِّرينَ مِن السَّلفِ ومَن بعدَهم: هي التَّوحيدُ: شَهادةُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، والإيمانُ الَّذي به يَزكو القلبُ). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٤٩).

وقال ابن عثيمين: (متى حقَّق الإنسانُ التَّوحيدَ فلا بدَّ أن يقومَ بشَرائعِ الإسلامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٥).

وقيل: المرادُ بالزَّكاةِ: زكاةُ المالِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والبيضاويُّ، وابن جُزَي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٦).

وقال السمعاني: (وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: لا يَرَوْنَ الزَّكاةَ واجبةً عليهم كما يَراه المسلمون. ويُقالُ: معنى الإيتاءِ هو على ظاهِرِه، والكافرُ يُعاقَبُ في الآخرةِ بتركِ إيتاءِ الزَّكاةِ؛ لأنَّهم مُخاطَبون بالشَّرائعِ. ذكره جماعةٌ مِن أهلِ العِلمِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٧).

واختار مقاتلٌ أنَّ المرادَ: لا يُعطون الصَّدقةَ، ولا يُطعِمون الطَّعامَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٦).

وقال ابنُ جُزَي: (قيل: يعني بالزَّكاةِ: التَّوحيدَ. وهذا بعيدٌ، وإنَّما حمَلَه على ذلك؛ لأنَّ الآياتِ مَكِّيَّةٌ، ولم تُفرَضِ الزَّكاةُ إلَّا بالمدينةِ، والجوابُ: أنَّ المرادَ: النَّفَقةُ في طاعةِ اللهِ مُطلقًا، وقد =

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: وهم مُنكِرونَ للآخرةِ، جاحِدونَ بها، فلا يُؤمِنونَ بالحياةِ الأُخرى بعدَ المَوتِ[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر عقوبةَ المشركينَ؛ بيَّن ثوابَ المؤمنينَ[2].

= كانت مأمورًا بها بمكَّةَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٧).

وقال ابنُ كثير: (هذا هو الظَّاهِرُ عندَ كثيرٍ مِن المفَسِّرينَ [أي أنَّ المرادَ منْعُ زكاةِ أموالِهم]، واختاره ابنُ جرير. وفيه نَظَرٌ؛ لأنَّ إيجابَ الزَّكاةِ إنَّما كان في السَّنةِ الثَّانيةِ مِن الهِجرةِ إلى المدينةِ، على ما ذكَرَه غيرُ واحدٍ، وهذه الآيةُ مَكِّيَّةٌ، اللَّهُمَّ إلَّا أن يُقالَ: لا يَبعُدُ أن يكونَ أصلُ الزَّكاةِ الصَّدَقةَ، وكان مأمورًا به في ابتداءِ البَعثةِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأمَّا الزَّكاةُ ذاتُ النُّصُبِ والمقادير فإنَّما بُيِّنَ أمْرُها بالمدينة، ويكونُ هذا جمعًا بيْن القولَينِ، كما أنَّ أصلَ الصَّلاةِ كان واجبًا قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها في ابتداءِ البَعثةِ، فلمَّا كان لَيلةُ الإسراءِ قبْلَ الهِجرةِ بسَنةٍ ونِصفٍ فَرَضَ اللهُ على رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم الصَّلَواتِ الخَمْسَ، وفَصَّل شُروطَها وأركانَها وما يَتعلَّقُ بها بعدَ ذلك شيئًا فشَيئًا. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤).

وممَّن جَمَع بيْن المعنيَين: السعدي، فقال: (لم يُزَكُّوها بتوحيدِ رَبِّهم والإخلاصِ له، ولم يُصَلُّوا ولا زكَّوا؛ فلا إخلاصَ للخالِقِ بالتَّوحيدِ والصَّلاةِ، ولا نَفْعَ للخَلقِ بالزَّكاةِ وغَيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٥، ١٤٦).

واختار ابنُ تيميَّةَ ما هو أعَمُّ مِن ذلك، فقال: (التَّحقيقُ أنَّ الآيةَ تتناوَلُ كُلَّ ما يَتزكَّى به الإنسانُ من التَّوحيدِ والأعمالِ الصَّالحة). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٦٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٧). =

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾.

أي: إنَّ الَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ لهم أجرٌ دائِمٌ، وثَوابٌ غيرُ مُنقَطِعٍ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فيه تنبيهٌ على الإخلاصِ، وأنَّ العامِلَ يَنبغي له أن يجعَلَ مَقصودَه وغايتَه الَّتي يَعمَلُ لأجْلِها الوُصولَ إلى اللهِ تعالى، وإلى دارِ كَرامتِه؛ فبذلك يكونُ عَمَلُه خالِصًا صالِحًا نافِعًا، وبفَواتِه يَكونُ عَمَلُه باطِلًا[(٢)]، فالآيةُ دلَّت على وُجوبِ الإخلاصِ للهِ، والاستِقامةِ على دينِه؛ فـ «استقيموا» هذا العَمَلُ، و «إليه» هذا الإخلاصُ[(٣)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ لَمَّا كان العَبدُ -ولو حَرَص

= وفي ذلك تحقيقُ أنَّ القُرآنَ مَثانٍ؛ تُثَنَّى فيه المعاني المُتقابلةُ، فإذا ذُكِرَ ثوابُ المجرِمينَ ذُكِرَ ثوابُ المتَّقينَ، وإذا ذُكِرَتِ الجنَّةُ ذُكِرتِ النَّارُ، وهَلُمَّ جرًّا؛ من أجْلِ أنْ يكونَ الإنسانُ سائِرًا إلى ربِّه بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ، وهكذا يَنبغي للإنسانِ في سَيرِه إلى ربِّه أن يكونَ خائفًا راجيًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١، ١٢).

قال ابن عثيمين: (وقيل: ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾: غَيرُ مَمنونٍ به، أي: يُعطَونَه بلا مِنَّةٍ، وهذا محتملٌ، وإذا كان محتمِلًا لا يُنافي المعنى الأوَّلَ كان المرادُ بالآيةِ المعنيَين جميعًا؛ إذ لدينا قاعِدةٌ ... وهي: إذا كان النَّصُّ يحتمِلُ معنيَينِ لا يُنافي أحَدُهما الآخَرَ، فإنَّ النَّصَّ يُحمَلُ عليهما جميعًا ... لكنْ إذا كان أحَدُهما أرجَحَ مِن الآخَرِ فإنَّه يُتبَعُ الأرجَحُ، إذَنْ قولُه تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي: ثوابٌ غيرُ مَقطوعٍ، وثوابٌ غَيرُ مَمنونٍ به). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٧).

على الاستِقامةِ- لا بُدَّ أن يَحصُلَ منه خَلَلٌ بتَقصيرٍ بمأمورٍ، أو ارتِكابِ مَنهيٍّ؛ أمَرَه بدواءِ ذلك بالاستِغفارِ المتضَمِّنِ للتَّوبةِ[(١)]، فالآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّه لا بُدَّ مِن تقصيرٍ في الاستِقامةِ المأمورِ بها، فيُجبَرُ ذلك بالاستغفارِ المُقتَضي للتَّوبةِ، والرُّجوعِ إلى الاستِقامةِ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أنَّ التَّوحيدَ تزكيةٌ للنَّفْسِ، ولا شكَّ أنَّ التَّوحيدَ تزكيةٌ للنَّفْسِ؛ لأنَّك تَقْطَعُ العَلائقَ مع غيرِ اللهِ إلَّا فيما يُحِبُّ اللهُ تعالى[(٣)]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ كلمةِ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إثباتُ العُلُوِّ للهِ تعالى؛ ووجْهُ ذلك: الإخبارُ بنزولِ الأشياءِ مِن عِندِه سبحانَه[(٤)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ...﴾ فيه إيماءٌ إلى استِحقاقِ الَّذين أعرَضوا عن الاهتِداءِ بهذا الكِتابِ بأنَّهم أعرَضوا عن رَحمةٍ، وأنَّ الَّذين اهتَدَوا به هم أهلُ المَرحَمةِ[(٥)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ فيه أنَّه يَجِبُ على المكَلَّفِ تَنزيلُ ألفاظِ القُرآنِ على المعاني الَّتي هي مَوضوعةٌ لها بحَسَبِ اللُّغةِ العَرَبيَّة، فأمَّا حَمْلُها على مَعانٍ أُخَرَ لا بهذا الطَّريقِ فهذا باطِلٌ قَطعًا، وذلك مِثلُ الوُجوهِ الَّتي يَذكُرُها أهلُ الباطِنِ، مِثلُ أنَّهم تارةً يَحمِلونَ الحُروفَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحِكَم)) لابن رجب (١/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٠).

على حِسابِ الجُمَّلِ[١]، وتارةً يَحمِلونَ كُلَّ حَرفٍ على شَيءٍ آخَرَ، وللصُّوفيَّةِ طُرُقٌ كَثيرةٌ في البابِ، ويُسَمُّونَها عِلمَ المكاشَفةِ! والَّذي يدُلُّ على فَسادِ تلك الوُجوهِ بأسْرِها قَولُه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، وإنَّما سمَّاه عربيًّا؛ لِكَونِه دالًّا على هذه المعاني المَخصوصةِ بوَضعِ العَرَبِ وباصطِلاحاتِهم، وذلك يدُلُّ على أنَّ دَلالةَ هذه الألفاظِ لم تَحصُلْ إلَّا على تلك المعاني المَخصوصةِ، وأنَّ ما سِواه فهو باطِلٌ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أنَّ القُرآنَ نَزَلَ باللُّغةِ العَرَبيَّةِ؛ ففيه مَنقَبةٌ للعَرَبِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ نَزَلَ بلُغتِهم، وفيه إحياءٌ للُّغةِ العَرَبيَّةِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ سيبقَى إلى أنْ يأذَنَ اللهُ بخَرابِ العالَمِ، ومِن المعلومِ أنَّه إذا بَقِيَ باللِّسانِ العربيِّ فسوف تَحيا اللُّغةُ العَرَبيَّةُ وتبقَى، وهذا مِن آثارِ القُرآنِ الكريمِ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، قولُه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ استُدِلَّ به على فسادِ ما ذهَب إليه قومٌ مِن أنَّه حصَل في القرآنِ مِن سائرِ اللُّغاتِ، كقولِه: ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، و: ﴿سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]، فقالوا: إنَّهما فارسيَّانِ، وقولِه: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥]، قالوا: إنَّها من لغةِ الحبشةِ، وقولِه ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ [الإسراء: ٣٥]، قالوا: إنَّه من لغةِ الرُّومِ[٤].

---

(١) حسابُ الجُمَّلِ: ضربٌ مِن الحسابِ يُجعَلُ فيه لكلِّ حرفٍ مِن الحروفِ الأبجديةِ عددٌ مِن الواحدِ إلى الألفِ على ترتيبٍ خاصٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٣٦)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (١/ ٣٩٩). ويُنظر أيضًا: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ٧٤، ٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٨٢) و (١٧/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٩). ويُنظر أيضًا: ((الاعتصام)) للشاطبي (٢/ ٤٧-٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤). =

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وَصَف اللهُ تعالى القُرآنَ بكَونِه ﴿عَرَبِيًّا﴾ في مَعرِضِ المَدحِ والتَّعظيمِ، وهذا المَطلوبُ لا يَتِمُّ إلَّا إذا ثَبَت أنَّ لُغةَ العَربِ أفضَلُ اللُّغاتِ[١].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ فيه جوازُ نفيِ السَّمعِ لِمَن لا يَنتَفِعُ به، وكذلك يُقالُ في بقيَّةِ الحَواسِّ لِمَن لم يَنتفِعْ بها، نقولُ: إنَّ وُجودَها كالعدمِ! فمَنْ لم يَنتفِعْ بما رأى نقولُ: هذا لا يُبصِرُ، ولو كان له عينانِ[٢]!

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ المَهديَّ مَن هداه اللهُ، وأنَّ الضَّالَّ مَن أضلَّه اللهُ، وتقريرُه: أنَّ الصِّفاتِ المذكورةَ للقُرآنِ في الآياتِ السَّابقةِ تُوجِبُ قُوَّةَ الاهتِمامِ بمَعرفتِه، والوُقوفَ على معانيه؛ فكَونُه نازِلًا مِن عندِ الإلهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ يدُلُّ على اشتِماله على أفضَلِ المنافِعِ، وأجَلِّ المَطالِبِ، وكَونُه قُرآنًا عَربيًّا مُفَصَّلًا يدُلُّ على أنَّه في غايةِ الكَشفِ والبَيانِ، وكَونُه بَشيرًا ونَذيرًا يدُلُّ على أنَّ الاحتياجَ إلى فَهمِ ما فيه مِن أهَمِّ المُهِمَّاتِ؛ لأنَّ سَعيَ الإنسانِ في مَعرفةِ ما يُوصِلُه إلى الثَّوابِ أو إلى العِقابِ مِن أهَمِّ المُهِمَّاتِ، وقد حَصَلتْ هذه المُوجِباتُ الثَّلاثةُ في تأكيدِ الرَّغبةِ في فَهمِ القُرآنِ، وفي شِدَّةِ المَيلِ إلى الإحاطةِ به، ثمَّ مع ذلك فقد أعرَضوا عنه، ولم يَلتَفِتوا إليه، ونَبَذوه وراءَ ظُهورِهم! وذلك يدُلُّ على أنَّه لا مَهديَّ إلَّا مَن هداه اللهُ، ولا ضالَّ إلَّا مَن أضَلَّه اللهُ[٣].

= ويُنظر الخلافُ في المسألةِ في: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ١٢٥)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٧٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٠).

٩- قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ الحِجابُ يَمنَعُ رُؤيةَ الحَقِّ، والأكِنَّةُ تَمنَعُ مِن فَهْمِه، والوَقرُ يَمنَعُ مِن سَماعِه[1].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ اللهَ تعالى ذكر ذلك عن الكُفَّارِ في مَعرِضِ الذَّمِّ، مع أنَّه تعالى صرَّح في آيات أُخرَى بأنَّه جعَل على قلوبهم الأكِنَّةَ، وفي آذانِهم الوَقْرَ، وجعَل بيْنَهم وبيْن رسولِه حِجابًا عندَ قراءته القُرآنَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا * وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦]، وقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكهف: ٥٧]، فذمَّهم على دعواهم الأكنةَ والوقرَ والحجابَ في هذه الآيةِ الكريمةِ مِن (فُصِّلت)، وبيَّن في الآياتِ الأُخرَى أنَّ ما ذمَّهم على ادِّعائه واقعٌ بهم فعلًا، وأنَّه تعالى هو الذي جعَله فيهم، فكيفَ يُذَمُّونَ على قَولِ شَيءٍ هو حَقٌّ في نَفْسِ الأمرِ؟

والجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى إنَّما جَعَل على قُلوبِهم الأكِنَّةَ، وطَبَع عليها، وخَتَم عليها، وجَعَل الوَقْرَ في آذانِهم، ونحوَ ذلك مِن الموانِعِ مِن الهُدى؛ بسَبَبِ أنَّهم بادَروا إلى الكُفرِ وتكذيبِ الرُّسُلِ طائعينَ مُختارينَ، فجزاهم اللهُ على ذلك الذَّنْبِ الأعظَمِ طَمْسَ البَصيرةِ، والعَمى عن الهُدى جزاءً وِفاقًا؛ فالأكِنَّةُ والوَقرُ والحِجابُ المذكورةُ إنَّما جعَلَها اللهُ عليهم مُجازاةً لكُفرِهم الأوَّلِ، ومن جَزاءِ السَّيِّئةِ تَمادي

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٤).

صاحِبِها في الضَّلالِ، ولله الحِكمةُ البالغةُ في ذلك. والآياتُ المصَرِّحةُ بمعنى هذا كثيرةٌ في القُرآنِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، فقَولُ اليَهودِ في هذه الآيةِ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ كقَولِ كُفَّارِ مكَّةَ: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾، وقد رَدَّ اللهُ على اليَهودِ دَعواهم بـ(بل) الَّتي هي للإضرابِ الإبطاليِّ، في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، فالباءُ في قَولِه: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ سَبَبيَّةٌ، وهي دالَّةٌ على أنَّ سَبَبَ الطَّبعِ على قُلوبِهم هو كُفرُهم، والأكِنَّةُ والوَقرُ والطَّبعُ كُلُّها مِن بابٍ واحِدٍ؛ وكقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، والفاءُ في قَولِه: ﴿فَطُبِعَ﴾ سَبَبيَّةٌ، أي: ثمَّ كَفَروا، فطُبِعَ على قُلوبِهم بسَبَبِ ذلك الكُفرِ[١].

١١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فيه الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم خُلِق مِن نورٍ، وأنَّه لا يكونُ له ظِلٌّ إذا مشَى في الشَّمسِ! وجْهُ ذلك: تحقيقُ البشريَّةِ بالمُماثَلةِ؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، فأيُّ أحاديثَ تأتي بمثلِ هذه الأمورِ الَّتي تُوجِبُ إخراجَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن نطاقِ البشريَّةِ فإنَّها موضوعةٌ مكذوبةٌ؛ لأنَّه بَشَرٌ مِثلُنا[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَجتهِدُ؛ ورُبَّما يُخطِئُ في اجتِهادِه؛ لأنَّ هذا مقتضَى البشريَّةِ، وكما هو الواقعُ في مِثلِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، وفي قَولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ *

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦، ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٠).

فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ * وَهُوَ يَخۡشَىٰ * فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١ - ١٠]، لكنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لا يمكِنُ أنْ يُقَرَّ على خطأٍ؛ ولا يمكنُ أنْ يُقَرَّ على نسيانِ ما يجبُ! بل لا بُدَّ أنْ يَتَنَبَّهَ أو يُنَبَّهَ[١].

١٣- في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أهمِّيَّةُ التَّوحيدِ؛ حيثُ حَصَرَ الوَحيَ بالتَّوحيدِ، قال تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ﴾، مع أنَّه يُوحَى إليه أشياءُ أُخرى؛ كالصَّلاةِ والزَّكاةِ وغيرِ ذلك، لكِنْ لَمَّا كان أهمَّ ما جاء به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم التَّوحيدُ، حَصَرَ الوحيَ به، فقال: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾[٢].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ فيه سُؤالٌ: المقصودُ من الاستِغفارِ والتَّوبةِ: إزالةُ ما لا ينبغي، وذلك مُقَدَّمٌ على فِعلِ ما يَنبغي، فلِمَ عَكَس هذا التَّرتيبَ هاهنا، وقدَّم ما ينبغي على إزالةِ ما لا ينبغي؟

الجوابُ: ليس المرادُ مِن هذا الاستِغفارِ الاستِغفارَ عن الكُفرِ، بل المرادُ منه أن يَعمَلَ ثمَّ يَستَغفِرَ بعدَه؛ لأجْلِ الخَوفِ مِن وُقوعِ التَّقصيرِ في العَمَلِ الَّذي أَتى به، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((وإنَّه لَيُغانُ[٣] على قَلبي، وإنِّي لأَستَغفِرُ اللهَ في اليَومِ واللَّيلةِ مئةَ مرَّةٍ))[٤].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ استَدَلَّ بَعضُ عُلَماءِ الأُصولِ بهذه الآيةِ الكَريمةِ على أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّريعةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٥).

(٣) أي: يُطبَقُ ويُستَرُ ويُغَطَّى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٢).

والحديث رواه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغَرِّ المُزَنيِّ رضيَ اللهُ عنه.

لأنَّه تعالى صَرَّح في هذه الآيةِ الكريمةِ بأنَّهم مُشرِكونَ، وأنَّهم كافِرونَ بالآخِرةِ، وقد تَوعَّدَهم بالوَيلِ على شِرْكِهم وكُفْرِهم بالآخِرةِ، وعَدَمِ إيتائِهم الزَّكاةَ، سواءٌ قيل: إنَّ الزَّكاةَ في الآيةِ هي زَكاةُ المالِ المَعروفةُ، أو زكاةُ الأبدانِ بفِعلِ الطَّاعاتِ واجتِنابِ المعاصي[١]؛ فعلى كُلِّ حالٍ فالآيةُ تدُلُّ على خِطابِ الكُفَّارِ بفُروعِ الإسلامِ[٢].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فيه بَعثٌ للمُؤمِنينَ على أداءِ الزَّكاةِ[٣]، وزِيادةُ التَّحذيرِ والتَّخويفِ عن مَنعِها -على قولٍ في التَّفسيرِ-، حيثُ جُعِلَ مِن أوصافِ المُشرِكينَ بَعدَ قَولِه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾، وقُرِنَ بالكُفرِ بالآخِرةِ حيثُ قيلَ: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٤]، فمانِعُ الزَّكاةِ مِن المُسلِمينَ له حَظٌّ مِنَ الوَيلِ الَّذي استحَقَّه المُشرِكونَ لِمَنعِهم الزَّكاةَ في ضِمنِ شِرْكِهم[٥].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنَّ الإيمانَ وَحْدَه لا يكفي حتَّى يَقترِنَ بعَمَلٍ، لكنْ إذا أُطلِقَ الإيمانُ شَمِل العمَلَ، وإنْ ذُكِرَ معه العَمَلُ صار العَمَلُ علانيةً والإيمانُ سِرًّا، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هنا جَمَعَ بيْنَ الإيمانِ والعَمَلِ، فيكونُ الإيمانُ في القلبِ، والعَمَلُ في الجَوارحِ[٦].

(١) بخِلافِ القولِ بأنَّ المرادَ بالزَّكاةِ: الزَّكاةُ بالتَّوحيدِ والإيمانِ؛ فلا دليلَ فيها على ذلك.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

- افتُتِحتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ بالحَرفَيْنِ المقطَّعَيْنِ مِن حُروفِ الهِجاءِ ﴿حمٓ﴾؛ لأنَّ أوَّلَ أغراضِها أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ ففي حَرفَيِ الهِجاءِ رَمزٌ إلى عَجزِهم عن مُعارَضَتِه بعدَ أنْ تَحَدَّاهم، لذلك لم يَفعَلوا، وفي ذلك الافتِتاحِ تَشويقٌ إلى تَطَلُّعِ ما يأتي بَعدَه؛ لِلاهتِمامِ به(١).

- ولَعَلَّ افتِتاحَ هذه السُّوَرِ الحَواميمِ السَّبعِ بـ﴿حمٓ﴾، وتَسميَتَها به؛ لِكَونِها مُصَدَّرةً ببَيانِ الكِتابِ، مُتَشاكِلةً في النَّظمِ والمَعنى(٢).

- وأيضًا افتُتِحَ الكَلامُ باسمٍ نَكِرةٍ ﴿تَنزِيلٌ﴾؛ لِمَا في التَّنكيرِ مِنَ التَّعظيمِ(٣).

- قولُه: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿تَنزِيلٌ﴾، مُؤكِّدٌ لِما أفادَه التَّنوينُ مِنَ الفَخامةِ الذَّاتيَّةِ بالفَخامةِ الإضافيَّةِ(٤).

- وإيثارُ الصِّفَتَيْنِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على غَيرِهما مِنَ الصِّفاتِ العَليَّةِ؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ هذا التَّنزيلَ رَحمةٌ مِنَ اللهِ بعِبادِه؛ لِيُخرِجَهم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، كقولِه تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢).

لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[١] [العنكبوت: ٥١].

- والجَمعُ بيْنَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فيه معنًى حَسَنٌ، وهو أنَّ الرَّحمنَ دالٌّ على الصِّفةِ القائِمةِ به سُبحانَه، والرَّحيمَ دالٌّ على تعَلُّقِها بالمرحومِ؛ فكان الأوَّلُ للوَصفِ، والثَّاني للفِعلِ؛ فالأوَّلُ دالٌّ أنَّ الرَّحمةَ صِفتُه، والثَّاني دالٌّ على أنَّه يَرحَمُ خَلْقَه برَحمتِه. وقيل: فائِدةُ الجَمعِ بيْن الصِّفتَينِ «الرَّحمنِ والرَّحيمِ»: الإنباءُ عن رَحمةٍ عاجِلةٍ وآجِلةٍ، وخاصَّةٍ وعامَّةٍ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿كِتَٰبٞ ﴾ بَدَلٌ من ﴿تَنزِيلٞ ﴾؛ فحُصِّلَ مِنَ المَعنى أنَّ التَّنزيلَ مِنَ اللهِ ﴿كِتَٰبٞ ﴾، وأنَّ صِفتَه ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾، مَوسومًا بكَونِه ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾. ويجوزُ جعْلُ قولِه: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في مَوضعِ الصِّفةِ للمُبتدأِ، وجعْلُ قولِه: ﴿كِتَٰبٞ ﴾ خبَرَ المُبتدأِ، وعلى كِلا التَّقديرينِ هو أُسلوبٌ فَخمٌ، والمُرادُ: أنَّه مُنزَّلٌ؛ فالمَصدرُ بمَعنى المَفعولِ، كقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]، وهو مُبالَغةٌ في كَونِه فَعَلَ اللهُ تنزيلَه؛ تَحقيقًا لِكَونِه مُوحًى به، وليس مَنقولًا مِن صُحُفِ الأوَّلينَ. وتَنكيرُ لَفظِ ﴿كِتَٰبٞ ﴾؛ لإفادةِ التَّعظيمِ[٣].

- قولُه: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾ ومِن كَمالِ تَفصيلِه أنَّه كان بلُغةٍ كَثيرةِ المَعاني، واسِعةِ الأفنانِ، فَصيحةِ الألفاظِ؛ فكانت سالِمةً مِن الْتِباسِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٩، ٢٣٠).

الدَّلالةِ، وانغلاقِ الألفاظِ، مع وَفرةِ المَعاني غيرِ المُتنافيةِ في قِلَّةِ التَّراكيبِ؛ فكان وَصْفُه بأنَّه عَربيٌّ مِن مُكَمِّلاتِ الإخبارِ عنه بالتَّفصيلِ، وقد تَكرَّرَ التَّنويهُ بالقُرآنِ مِن هذه الجِهةِ، كقَولِه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]؛ ولهذا فَرَّعَ عليه ذَمَّ الَّذين أعرَضوا عنه بقَولِه هنا: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤]، وقَولِه هُنالِكَ: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾(١) [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١].

- قَولُه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ القُرآنُ: الكَلامُ المَقروءُ المَتلُوُّ، وكَونُه قُرآنًا مِن صِفاتِ كَمالِه، وهو أنَّه سَهلُ الحِفظِ، سَهلُ التِّلاوةِ؛ ففيه امتِنانٌ بسُهولةِ قِراءَتِه وفَهمِه، كما قال تَعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، و﴿قُرْءَانًا﴾ انتَصَبَ على الحالِ، أيْ: فُصِّلتْ آياتُه في حالِ كَونِه قُرآنًا عَرَبيًّا وقيل: انتَصَبَ ﴿قُرْءَانًا﴾ على النَّعتِ المَقطوعِ لِلاختِصاصِ بالمَدحِ؛ فقَولُه: ﴿قُرْءَانًا﴾ مَقصودٌ بالذِّكرِ؛ لِلإشارةِ إلى هذه الخُصوصيَّةِ الَّتي اختُصَّ بها مِن بَينِ سائِرِ الكُتُبِ الدِّينيَّةِ، ولولا ذلك لَقال: كِتابٌ فُصِّلت آياتُه عَربيٌّ، كما قال في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(٢) [الآية: ١٩٥].

- قولُه: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ صِفةٌ لِقَولِه: ﴿قُرْءَانًا﴾ ظَرفٌ مُستَقَرٌّ(٣)، أيْ: كائنًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣١).

(٣) الظَّرف المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ من عامِلِه المحذوفِ ويَستقرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِفَ الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ =

لِقَومٍ، باعتِبارِ ما أفادَه قَولُه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ مِن مَعنى وُضوحِ الدَّلالةِ، وسُطوعِ الحُجَّةِ، أو يَتَعلَّقُ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بِقَولِه: ﴿تَنزِيلٌ﴾، أو بقَولِه: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، على مَعنى أنَّ فَوائِدَ تَنزيلِه وتَفصيلِه لِقَومٍ يَعلَمونَ دُونَ غَيرِهم؛ فكأنَّه لم يُنزَّلْ إلَّا لهم، أيْ: فلا بِدْعَ إذا أعرَضَ عن فَهمِه المُعانِدونَ؛ فإنَّهم قَومٌ لا يَعلَمونَ[١]. وقيل: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿فُصِّلَتْ﴾ أي: يَعلَمون الأشياءَ، ويَعقِلون الدَّلائلَ، فكأنَّه فُصِّلَ لهؤلاء؛ إذ هُمْ يَنتفِعون به، فخُصُّوا بالذِّكرِ تَشريفًا، ومَن لمْ يَنتفِعْ بالتَّفصيلِ، فكأنَّه لم يُفصَّلَ له[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

- انتَصَبَ ﴿بَشِيرًا﴾ على أنَّه حالٌ ثانيةٌ مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾، أو صِفةٌ لِلَفظِ ﴿قُرْءَانًا﴾، وصِفةُ الحالِ في مَعنى الحالِ؛ فالأَولَى كَونُه حالًا ثانيةً، وجيءَ بقَولِه: ﴿وَنَذِيرًا﴾ مَعطوفًا بالواوِ؛ لِلتَّنبيهِ على اختِلافِ مَوقِعِ كُلٍّ مِنَ الحالَيْنِ، فهو بَشيرٌ لِقَومٍ، وهمُ الَّذينَ اتَّبَعوه، ونَذيرٌ لِآخَرينَ، وهمُ المُعرِضونَ عنه، وليس هو جامِعًا بيْنَ البِشارةِ والنِّذارةِ لِطائِفةٍ واحِدةٍ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ تفريعٌ على ما ذُكِرَ مِن صِفاتِ القُرآنِ، وضَميرُ ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ عائِدٌ إلى مَعلومٍ مِنَ المَقامِ، وهمُ المُشرِكونَ، والمَعنى: فأعرَضَ

= للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢).

أكثَرُ هؤلاء عمَّا في القُرآنِ مِنَ الهُدى؛ فلم يَهتَدوا، ومِنَ البِشارةِ فلم يُعنَوْا بها، ومِنَ النِّذارةِ فلم يَحذَروها، فكانوا في أشَدِّ الحَماقةِ؛ إذْ لم يُعنَوْا بخَيرٍ، ولا حَذِروا الشَّرَّ، فلم يَأخُذوا بالحَيطةِ لِأنفُسِهم[١].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لِلتَّفريعِ على الإعراضِ، أيْ: فهمْ لا يُلْقونَ أسماعَهم لِلقُرآنِ، فَضلًا عن تَدَبُّرِه، وهذا إجمالٌ لِإعراضِهم. وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ دُونَ أنْ يَقولَ: (فلا يَسمَعونَ)؛ لِإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ وتأكيدِه، والمَعنى: أنَّهم لا يَقبَلونَ ولا يُطيعونَ، مِن قَولِكَ: تَشَفَّعتُ إلى فُلانٍ فلم يَسمَعْ قَولي، ولقد سَمِعَه، ولكِنَّه لَمَّا لم يَقبَلْه، ولم يَعمَلْ بمُقتَضاه؛ فكَأنَّه لم يَسمَعْه[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالُوا﴾ عطفٌ على ﴿فَأَعْرَضَ﴾، أو حالٌ مِن ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، أو عُطِفَ على ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ في الآيةِ السَّابقةِ، أو حالٌ مِن ضَميرِه، والمَعنى: أنَّهم أعرَضوا مُصَرِّحينَ بقِلَّةِ الاكتِراثِ، وبالانتِصابِ لِلجَفاءِ والعَداءِ. وهذا تَفصيلٌ لِلإعراضِ عمَّا وُصِفَ به القُرآنُ مِنَ الصِّفاتِ الَّتي شأنُها أنْ تُقَرِّبَهم إلى تَلَقِّيه، لا أنْ يَبعُدوا ويُعرِضوا، وقد جاءَ بالتَّفصيلِ بأقوالِهمُ الَّتي حَرَمَتْهم مِنَ الانتِفاعِ بالقُرآنِ واحِدًا واحِدًا[٣].

- قولُه: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ إنْ قِيل: هلَّا قِيل: (على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٣).

قُلوبنا أكِنَّةٌ)، كما قِيل: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾؛ لِيَكونَ الكلامُ على نَمطٍ واحدٍ؟

فالجوابُ: أنَّه على نمَطٍ واحدٍ؛ لأنَّه لا فرْقَ في المعنى بيْن قَولِك: قُلوبُنا في أكِنَّةٍ، وعلى قُلوبِنا أكِنَّةٌ، والدَّليلُ عليه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ [الكهف: ٥٧]. ولو قِيل: إنَّا جَعَلْنا قُلوبَهم في أكِنَّةٍ، لم يَختلِفِ المعنى؛ فالمَظروفُ كما هو مُستقِرٌّ في الظَّرْفِ، فإنَّ الظَّرْفَ أيضًا مُشتمِلٌ عليه. وقيل: بلْ إنَّ (في) أبلَغُ في هذا الموضعِ مِن (على)؛ لأنَّهم قَصَدوا إفراطَ عَدمِ القَبولِ؛ لِحُصولِ قُلوبِهم في أكِنَّةٍ احتوَت عليها احتواءَ الظَّرْفِ على المَظروفِ؛ فلا يُمكِنُ أنْ يَصِلَ إليها شَيءٌ، كما تقولُ: المالُ في الكِيسِ، بخلافِ قَولِك: على المالِ كِيسٌ؛ فإنَّه لا يدُلُّ على الحصْرِ وعَدَمِ الحُصولِ دَلالةَ الوِعاءِ. ولو قيل: (على قُلوبِنا أكِنَّةٌ) كما في تلك الآيةِ: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾، لم يَحصُلِ التَّطابُقُ في معنى الاستقرارِ وجَعْلِ أحدِهما ظَرْفًا والآخَرِ مَظروفًا. ولو قِيل: (على آذانِنا وَقْرٌ) لم يكُنْ بتلك المُبالَغةِ؛ لأنَّ المرادَ أنَّ الأصْمِخةَ[1] قد سُدَّت فلا يَدخُلُ فيها الهواءُ، فضْلًا عن الكلامِ. وأمَّا معنى (على) في آيةِ ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ [الكهف: ٥٧]، فلإرادةِ معنى الاستعلاءِ والقَهْرِ مِن اللهِ تعالى[2].

- قَولُه: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ وقَع الاقتِصارُ على هذه الأعضاءِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ القَلبَ مَحَلُّ المَعرِفةِ، والسَّمعَ والبَصَرَ مُعِينانِ على تحصيلِ المعارِفِ؛ لذا ذَكَروا أنَّ هذه

(١) الأصْمِخة: جمْع الصِّماخِ، وهو: خَرْقُ الأُذُنِ. وقيل: هو الأُذُنُ نفْسُها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٦٣، ٥٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٤).

الثَّلاثةَ مَحجوبةٌ عن أن يَصِلَ إليها مِمَّا يُلقيه الرَّسولُ شَيءٌ[١].

- وفي هذه الآيةِ مِن المُبالَغةِ والبلاغةِ ما لا يَليقُ أنْ يَنتظِمَ إلَّا في دُرَرِ الكِتابِ العزيزِ؛ فإنَّها اشتمَلَت على ذِكرِ حُجُب ثلاثةٍ مُتواليةٍ، كلٌّ واحدٍ منها كافٍ في فَنِّه: أوَّلُها: الحِجابُ الحائِلُ الخارِجُ؛ فقد شَبَّهوا قُلوبَهم بالشَّيءِ المُحوى المُحاطِ بالغِطاءِ المُحيطِ له، ووَجهُ الشَّبَهِ حَيلولةُ وُصولِ الدَّعوةِ إلى عُقولِهم، كما يَحولُ الغِطاءُ والغِلافُ دُونَ تَناوُلِ ما تَحتَه. ثانيها: حِجابُ الصَّمَمِ؛ فقد شَبَّهوا أسماعَهم بآذانٍ بها صَمَمٌ مِن حيثُ إنَّها تَمُجُّ الحَقَّ، ولا تَميلُ إلى استِماعِه. ثالِثُها: وأقصاها الحِجابُ الَّذي أكَنَّ القَلبَ -والعِياذُ باللهِ- في قَولِه: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾؛ فقد شَبَّهوا حالَ أنفُسِهم مع الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بحالِ شَيئَيْنِ بَيْنَهما حِجابٌ عَظيمٌ يَمنَعُ مِن وُصولِ أحَدِهما إلى الآخَرِ، فلمْ تَدَعْ هذه الآيةُ حِجابًا مُرتَخيًا إلَّا سَدَلَتْه، ولم تُبقِ لِهؤلاءِ الأشقياءِ مَطمَعًا ولا صَريخًا إلَّا استَلَبَتْه، وقد جَمَعوا بيْنَ الحالاتِ الثَّلاثِ في التَّمثيلِ لِلمُبالَغةِ في أنَّهم لا يَقبَلونَ ما يَدعوهم إليه[٢].

- وفائِدةُ ذِكرِ (مِنْ) في قَولِه: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾ مع حُصولِ المَعنى بحَذفِها -كما في قولِه تعالى: ﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٥]-: الدَّلالةُ على أنَّ حِجابًا ابتدَأَ مِنَّا، وابتدَأَ مِنكَ؛ فالمسافةُ المتوسِّطةُ لِجِهتِنا وجِهَتِك مُستوعَبةٌ بالحِجابِ لا فَراغَ فيها،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٣١، ٥٣٢).

وبتَقديرِ حَذفِها يَصيرُ المَعنى: إنَّ الحِجابَ حاصِلٌ في المَسافةِ بيْننا وبيْنَه[١].
وقيل: بلِ الصَّحيحُ أنَّها هاهنا مِثلُ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٩]؛ لِلإشعارِ بأنَّ الجِهةَ المُتوسِّطةَ بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبيْنَهم مَبدأُ الحِجابِ[٢]. وقيل: إنَّ اجتلابَ حَرْفِ (مِن) في قولِه: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾؛ لِتَقويةِ معنى الحِجابِ بيْن الطَّرَفينِ، وتَمكُّنِ لازِمِه الَّذي هو بُعدُ المسافةِ الَّتي بيْن الطَّرَفينِ؛ لأنَّ (مِن) هذه صِلةٌ لِتَأكيدِ مَضمونِ الجُملةِ[٣].

- وعَطفُ ﴿وَبَيْنِكَ﴾ تأكيدٌ؛ لأنَّ واوَ العَطفِ مُغْنيةٌ عنه[٤].

- القَولُ المَحكيُّ عنهم في القُرآنِ بـ(قَالُوا) في قولِه: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يَكونَ القُرآنُ حَكاهُ عنهم بالمَعنى؛ فجَمَع القُرآنُ بإيجازِه وبَلاغَتِه ما أطالوا به الجِدالَ وأطنَبوا في اللَّجاجِ. ويَحتمِلُ أنَّه حكاهُ بلَفظِهم؛ فيَكونُ مِمَّا قاله أحَدُ بُلَغائِهم في مَجامِعِهمُ الَّتي جَمَعتْ بَيْنَهم وبيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ويَحتمِلُ أنْ يَكونوا تَلَقَّفوه مِمَّا سَمِعوه في القُرآنِ مِن وَصْفِ قُلوبِهم وسَمعِهم وتَباعُدِهم، كقَولِه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]؛ فإنَّ سُورةَ (الإسراء) مَعدودةٌ في النُّزولِ قبْلَ سُورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ١٨٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٤). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٥).

(فُصِّلتْ)، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] أيضًا، فجَمَعوا ذلك وجادَلوا به الرَّسولَ؛ فيَكونُ ما في هذه الآيةِ مِنَ البَلاغةِ قدِ اقتَبَسوه مِن آياتٍ أُخرى. وقيلَ: إنَّ قائلَه أبو جَهلٍ في مَجمَعٍ مِن قُرَيشٍ؛ فلذلك أسنَدَ القَولَ إليهم جَميعًا؛ لِأنَّهم مُشايِعونَ له[1].

- وقد جاءَ في حِكايةِ أقوالِهم ما فيه تَفصيلُ ما يُقابِلُ ما ذُكِرَ قَبْلَه مِن صِفاتِ القُرآنِ، وهي ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢، ٣]؛ فإنَّ كَوْنَه تَنزيلًا مِنَ الرَّحمنِ الرَّحيمِ يَستَدعي تَفَهُّمَه والانتِفاعَ بما فيه، فقُوبِلَ بقَولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾، وكَوْنَه فُصِّلتْ آياتُه يَستَدعي تَلَقِّيَها والاستِماعَ إليها، فقُوبِلَ بقَولِهم: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾، أيْ: فلا نَسمَعُ تَفصيلَه، وكَوْنَه قُرآنًا عَرَبيًّا أشَدُّ إلزامًا لهم بفَهمِه، فقُوبِلَ ذلك بما يَقطَعُ هذه الحُجَّةَ وهو ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، أيْ: فلا يَصِلُ كَلامُه إليهم، ولا يَتطَرَّقُ جانِبَهم، فهذه تَفاصيلُ إعراضِهم عن صِفاتِ القُرآنِ[2].

- وقَولُهم: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ تَفريعٌ على تأْييسِهمُ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن قَبولِهم دَعوَتَه، وجُعِلَ قَولُهم هذا مُقابِلَ وَصفِ القُرآنِ بأنَّه بَشيرٌ ونَذيرٌ؛ لِظُهورِ أنَّه تَعَيَّنَ كَونُه نَذيرًا لهم بعَذابٍ عَظيمٍ؛ لِأنَّهم أعرَضوا، فحُكيَ ما فيه تَصريحُهم بأنَّهم لا يَعبَؤونَ بنِذارَتِه، فإنْ كانَ له أذًى فلْيُؤْذِهم به[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٣٦).

- وحُذِفَ مَفعولَا (اعمَلْ) و﴿عَامِلُونَ﴾؛ لِيَعُمَّ كُلَّ ما يُمكِنُ عَمَلُه، كُلٌّ مع الآخَرِ ما يُناسِبُه[١].

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿فَاعْمَلْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّسويةِ، والخَبَرُ في قَولِهم: ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ[٢]. وذلك على قولٍ.

٥- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، هو تَلقينُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُجيبَ قَولَهم: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] المُفَرَّعَ على قَولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] إلى آخِرِه، جَوابَ المُتبَرِّئِ مِن أنْ يَكونَ له حَولٌ وقُوَّةٌ لِيَعمَلَ في إلْجائِهم إلى الإيمانِ لَمَّا أبَوْه؛ إذْ ما هو إلَّا بَشَرٌ مِثلُهم في البَشريَّةِ، لا حَولَ له على تَقليبِ القُلوبِ الضَّالَّةِ إلى الهُدَى، وما عليه إلَّا أنْ يُبَلِّغَهم ما أوْحى اللهُ إليه، وهذا الخَبَرُ يُفيدُ كِنايةً عن تَفويضِ الأمْرِ في العَمَلِ بجَزائِهم إلى اللهِ تَعالى، كأنَّه يَقولُ: وماذا أستَطيعُ أنْ أعمَلَ مَعَكم؛ فإنِّي رَسولٌ مِنَ اللهِ، فحِسابُكم على اللهِ تَعالى؛ فصِيغةُ القَصرِ في ﴿إِنَّمَا﴾ تُفيدُ قَصرًا إضافيًّا[٣]، أيْ: أنا مَقصورٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) القصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما =

على البَشَريَّةِ دُونَ التَّصرُّفِ في قُلوبِ النَّاسِ. وقيلَ: المَعنى: لَستُ مَلَكًا ولا جِنِّيًّا لا يُمكِنُكُمُ التَّلَقِّي منه، ولا أدْعوكم إلى ما تَنبو عنه العُقولُ والأسماعُ، وإنَّما أدعوكُم إلى التَّوحيدِ والاستِقامةِ في العَمَلِ، وقد تدُلُّ عليهما دَلائِلُ العَقلِ وشَواهِدُ النَّقلِ. وقيلَ: المَعْنى: إنِّي لَستُ بملَكٍ، وإنَّما أنا بَشَرٌ مِثلُكم، وقد أُوحيَ إلَيَّ دُونَكم، فصَحَّتْ بالوَحيِ إلَيَّ وأنا بَشَرٌ نُبُوَّتي، وإذا صَحَّتْ نُبُوَّتي وَجَبَ عليكمُ اتِّباعي[١].

- وقدْ بَيَّنَ ممَّا تَمَيَّزَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن المُشرِكينَ على وَجهِ الاحتِراسِ مِن أنْ يَتَلَقَّفوا قولَه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تَلَقُّفَ مَن حَصَل على اعتِرافِ خَصمِه بنُهوضِ حُجَّتِه بما يُثبِتُ الفارِقَ بيْنَه وبيْنَهم في البَشَريَّةِ، وهو مَضمونُ جُملةِ ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾؛ وذلك لِلتَّسجيلِ عليهم إبطالَ زَعمِهمُ المَشهورِ المُكَرَّرِ: أنَّ كَونَه بَشَرًا مانِعٌ مِن إرسالِه عنِ اللهِ تَعالى؛ لِقَولِهم: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، ونحوِه ممَّا تكرَّرَ في القُرآنِ. ومُماثَلتُه لهم: المُماثلةُ في البشريَّةِ؛ فتُفيدُ تأْكيدَ كَونِه بشَرًا[٢].

= هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و (٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٧، ٢٣٨).

- وحِرصًا على إبلاغِ الإرشادِ إليهم بَيَّنَ له ما يُوحى إليه بقَولِه: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾؛ إعادةً لِمَا أبلَغَهم إيَّاه غيرَ مَرَّةٍ، شَأنَ القائِمِ بهَديِ النَّاسِ ألَّا يُغادِرَ فُرصةً لِإبلاغِهِمُ الحَقَّ إلَّا انتَهَزَها، و(أنَّما) مَفتوحةُ الهمزةِ أختُ (إنَّما) المكسورةِ؛ تُفِيدُ القصْرَ؛ فقَولُه: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ إدماجٌ[١] لِلدَّعوةِ إلى الحَقِّ في خِلالِ الجَوابِ؛ حِرصًا على الهَدْيِ، وكذلك التَّفريعُ بالفاءِ في قَولِه: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾؛ فإنَّه إتمامٌ لذلك الإدماجِ بتَفريعِ فائِدَتِه عليه؛ لِأنَّ إثباتَ أنَّ اللهَ إلهٌ واحِدٌ إنَّما يُقصَدُ منه إفرادُه بالعِبادةِ، ونَبذُ الشِّركِ[٢].

- قولُه: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ إنَّما عُدِّيَ بحرْفِ (إلى)؛ لأنَّها كثيرًا ما تُعاقِبُ اللَّامَ، يُقالُ: ذهَبْتُ له وذهَبْتُ إليه، والأحسَنُ أنَّ إيثارَ (إلى) هنا؛ لِتَضمينِ (استَقيموا) مَعنى: تَوَجَّهوا؛ لِأنَّ التَّوحيدَ تَوَجُّهٌ، أيْ: صَرفُ الوَجهِ إلى اللهِ دُونَ غَيرِه، كما حكَى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]،

---

(١) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المُتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -من مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحمدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٨).

أو ضُمِّنَ (استَقيموا) مَعنى: أنيبوا، أيْ: تُوبوا مِنَ الشِّركِ، كما دَلَّ عليه عَطفُ ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾[١].

- قولُه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وَعيدٌ لِلمُشرِكينَ بسُوءِ الحالِ والشَّقاءِ في الآخِرةِ، وتَرهيبٌ وتَنفيرٌ لهم عنِ الشِّركِ إثْرَ تَرغيبِهم في التَّوحيدِ، وهذا التَّهديدُ مِن فَرْطِ جَهالَتِهم، واستِخفافِهم باللهِ[٢].

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ قولُه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ مِن جُملةِ القَولِ الَّذي أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَقولَه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ كَلامًا مُعترِضًا مِن جانبِ اللهِ تعالَى بيْنَ جُملةِ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [فصلت: ٦]، وجُملةِ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، أيْ: أجِبْهم بقَولِكَ: أنا بَشَرٌ مِثلُكم يُوحَى إلَيَّ، ونحن أعْتَدْنا لهم الوَيلَ والشَّقاءَ إنْ لم يَقبَلوا ما تَدعوهم إليه؛ فيَكونَ هذا إخبارًا مِنَ اللهِ تَعالى[٣].

- وذِكرُ (المُشرِكينَ) إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، ويُستَفادُ تَعليقُ الوَعيدِ على استِمرارِهم على الكُفرِ مِنَ الإخبارِ عنِ الوَيلِ بكَونِه ثابتًا لِلمُشرِكينَ والمَوصوفينَ بالَّذين لا يُؤتونَ الزَّكاةَ، وبأنَّهم كافِرونُ بالبَعثِ؛ لِأنَّ تَعليقَ الحُكمِ بالمُشتَقِّ يُؤذِنُ بعِلِّيَّةِ ما مِنه الاشتِقاقُ، ولِأنَّ المَوصولَ يُؤذِنُ بالإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٩).

الخَبَرِ[١].

- قولُه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾

مَعنى ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أنَّهم لا يَفعَلونَ ما يَكونونَ به أزكياءَ، وهو الإيمانُ.

وقيل: خُصَّ مِن بينِ أوصافِ المشركينَ منعُ الزكاةِ مقرونًا بالكفرِ بالآخرةِ؛ لِتَشويهِ كُفرِهم، وتَفظيعِ شِركِهم وكُفرانِهم بالبَعثِ، بأنَّهما يَدعُوانِهم إلى مَنعِ الزَّكاةِ، أيْ: إلى القَسوةِ على الفُقَراءِ الضُّعَفاءِ، وإلى الشُّحِّ بالمالِ، وكَفى بذلك تَشويهًا في حُكمِ الأخلاقِ وحُكمِ العُرفِ فيهم؛ لِأنَّهم يَتَعيَّرونَ باللُّؤمِ، ولكنَّهم يَبذُلونَ المالَ في غَيرِ وَجهِه، ويَحرِمونَ منه مُستَحِقِّيه، وأيضًا لِأنَّ أحَبَّ شَيءٍ إلى الإنسانِ مالُه، وهو شَقيقُ رُوحِه، فإذا بَذَلَه في سَبيلِ اللهِ فذلك أقوى دَليلٍ على ثَباتِه واستِقامَتِه، وصِدقِ نِيَّتِه، ونُصوعِ طَويَّتِه، وهذا ما لم يَفعَلْه الكافِرونَ[٢].

- وقولُه: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ عَطفٌ على ﴿لَا يُؤْتُونَ﴾، وهو داخِلٌ في حَيِّزِ الصِّلةِ، واختِلافُهما بالفِعليَّةِ والاسميَّةِ؛ لِمَا أنَّ عَدَمَ إيتائِها مُتَجدِّدٌ، فعُبِّرَ عنه بالفِعلِ ﴿لَا يُؤْتُونَ﴾، بيْنَما الكُفرُ أمْرٌ مُستَمِرٌّ، فعُبِّرَ عنه بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٣].

- قولُه: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ امتِناعَهم عنِ الزَّكاةِ؛ لِاستِغراقِهم في طَلَبِ الدُّنيا، وإنكارِهم لِلآخِرةِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧).

- و(هم) في ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ ضَميرُ فصْلٍ لا يُفِيدُ هنا إلَّا تَوكيدَ الحُكمِ، ويُشبِهُ أنْ يكونَ هنا تَوكيدًا لَفظيًّا لا ضَميرَ فصْلٍ[(١)].

- وتَقديمُ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على مُتعَلَّقِه وهو ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ لإفادةِ الاهتِمامِ[(٢)].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ نَشَأ عنِ الوَعيدِ الَّذي تُوُعِّدَ به المُشركونَ بَعدَ أنْ أُمِروا بالاستِقامةِ إلى اللهِ، واستِغفارِهم عمَّا فَرَطَ منهم؛ كأنَّ سائلًا يَقولُ: فإنِ اتَّعَظوا وارتَدَعوا فماذا يَكونُ جَزاؤُهم؟ فأُفيدَ ذلك، وهو أنَّهم حِينَئذٍ يَكونونَ مِن زُمرةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾، وفي هذا تَنويهٌ بشَأنِ المُؤمنينَ. وتَقديمُ ﴿لَهُمۡ﴾؛ لِلاهتِمامِ بهم[(٣)].

- قولُه: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ المَمنونُ: مَفعولٌ مِنَ المَنِّ، وهو ذِكرُ النِّعمةِ لِلمُنعَمِ عليه بها، والتَّقديرُ: غَيرُ مَمنونٍ به عليهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وذلك كِنايةٌ عن كَونِهم أُعْطوا أجرَهم شُكرًا لهمْ على ما أسلَفوه من عَمَلٍ صالِحٍ؛ فإنَّ اللهَ غَفورٌ شَكورٌ، يَعني: أنَّ الإنعامَ عليهم في الجَنَّةِ تُرافِقُه الكَرامةُ والثَّناءُ، فلا يُحِسُّونَ بخَجَلِ العَطاءِ؛ فأجْرُهم بمَنزِلةِ الشَّيءِ المَملوكِ لهمُ الَّذي لم يُعطِه إيَّاهم أحَدٌ، وذلك تَفَضُّلٌ مِنَ اللهِ تَعالى[(٤)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٤١).

الآيات (٩-١٢)

﴿ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿أَندَادٗا﴾: أي: أمثالًا ونُظَراءَ وشُرَكاءَ، وحَقيقةُ النِّدِّ: المِثْلُ المُناوِئُ المُخالِفُ، وأصلُه مِن قَولِهم: نَدَّ: إذا نَفَر؛ ولهذا يُقالُ للضِّدِّ: نِدٌّ، ثمَّ استُعمِلَ في المِثْلِ وإن لم يكُنْ هناك مُخالَفةٌ[(١)].

﴿رَوَٰسِيَ﴾: أي: جِبالًا ثوابِتَ، وأصلُ (رسو): يدُلُّ على ثَباتٍ[(٢)].

﴿أَقۡوَٰتَهَا﴾: أي: أرزاقَها، والقُوتُ: ما يُمسِكُ الرَّمَقَ؛ وإنَّما سُمِّيَ قُوتًا لأنَّه مِساكُ البَدَنِ وقُوَّتُه، وأصلُ (قوت): يدُلُّ على إمساكٍ وحِفظٍ، وقُدرةٍ على الشَّيءِ[(٣)].

﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾: أي: علا وارتَفَع. أو: ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ في هذا المَوضعِ بمعنى: عَمَدَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

وأقبَلَ وقَصَد، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ[١].

﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾: أي: أحْكَمَهُنَّ، وفرَغ مِن خَلْقِهنَّ، وأصل (قضي): يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لجِهَتِه[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾

قَولُه تعالى: ﴿سَوَآءً﴾ في نصبِه أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه مَصدَرٌ مُؤَكِّدٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ هو صِفةٌ لـ﴿أَيَّامٍ﴾، أي: استَوَت سَواءً، أي: استِواءً. الثَّاني: أنَّه مَصدَرٌ في مَوضِعِ الحالِ مِنْ ﴿أَرْبَعَةِ﴾؛ لتخَصُّصِه بالإضافةِ إلَى ﴿أَيَّامٍ﴾ على معنى: أنَّها كامِلةٌ لا نَقْصَ فيها ولا زيادةَ. الثَّالثُ: أنَّه حالٌ مِن ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾ على معنى: قَدَّر فيها أقواتَها سَواءً لِسائِليها على ما بهم إليه الحاجةُ وعلى ما يُصلِحُهم.

وقُرِئَ ﴿سَوَاءٍ﴾ بالخَفضِ صِفةً لـ﴿أَرْبَعَةِ﴾ أو لـ﴿أَيَّامٍ﴾ على معنى: في أربعةِ أيَّامٍ مُستَوِياتٍ تامَّاتٍ، فجَعَل المصدَرَ في مَوضِعِ الاسمِ. وقُرِئَ ﴿سَوَاءٌ﴾ بالرَّفعِ[٣] على أنَّه خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: هي سَواءٌ لا تَزيدُ ولا تَنقُصُ.

وقَولُه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ﴿سَوَآءً﴾ بمعنى: مُسْتَوياتٍ للسَّائِلينَ. أو مُتعَلِّقٌ بـ(قَدَّر)، أي: قَدَّر فيها أقواتَها لأجْلِ الطَّالِبينَ لها المحتاجِينَ المُقتاتِينَ. أو يَتعلَّقُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٣).

(٣) ويُنظر ما سيأتي في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التَّفسير (ص: ٥١).

بمَحذوفٍ، كأنَّه قيل: هذا الحَصرُ لأجلِ مَنْ سأل: في كم خُلِقَتِ الأرضُ وما فيها[1]؟

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمرًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بتوبيخ المشركينَ وبيانِ مَظاهِرِ قُدرتِه سبحانَه: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: أإنَّكم لَتَكفُرونَ باللهِ الَّذي خَلَق الأرضَ في يومَينِ، وتَجعَلونَ له نُظَراءَ وأمثالًا تَعبُدونَهم معه؟! ذلك رَبُّ العالَمينَ! وجعَلَ سُبحانَه في الأرضِ جِبالًا مِن فَوقِها، وبارَكَ فيها، وقَدَّرَ اللهُ فيها أرزاقَها، وذلك في يومَينِ آخَرَينِ؛ فهما مع اليَومَينِ السَّابِقَينِ أربعةُ أيَّامٍ استَوت استواءً، فلا زيادةَ على ذلك ولا نقصانَ، بيَّنَّا ذلك لِمَن سأَلَ: في كَمْ خُلِقت الأرضُ بما فيها؟

ثُمَّ ارتفَع اللهُ وعَلا قاصدًا إلى خَلْقِ السَّماءِ وهي دُخَانٌ، فقال سُبحانَه للسَّماءِ والأرضِ بعدَ أنْ خلقَهما: ائتِيَا وانقادَا لِطاعتي اختيارًا أو جبرًا. قالَتا: أتَيْنا طائِعينَ. فأتَمَّ اللهُ خَلْقَهنَّ سَبْعَ سَمواتٍ في يومَين، وأوحَى اللهُ تعالى في كُلِّ سَماءٍ ما أرادَه مِن الخَلقِ والتَّدبيرِ، وزَيَّنَ اللهُ السَّماءَ الدُّنيا بالنُّجومِ المُنيرةِ، وحَفِظَها حِفظًا بهذه النُّجومِ مِن الشَّياطينِ المُستَرِقةِ للسَّمعِ، ذلك الشَّأنُ العَظيمُ تقديرُ العزيزِ القاهِرِ الغالِبِ، العليمِ بكُلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩﴾.

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٣٨١)، ((شرح التسهيل)) لابن مالك (٢/ ٣٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٥٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الآيةِ الأُولى أن يقولَ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت: ٦]؛ أردَفَه بما يدُلُّ على أنَّه لا يجوزُ إثباتُ الشَّركةِ بيْنَه تعالى وبيْنَ هذه الأصنامِ في الإلهيَّةِ والمعبوديَّةِ، وذلك بأنْ بيَّنَ كَمالَ قُدرتِه وحِكمتِه في خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ في مُدَّةٍ قَليلةٍ، فمَنْ هذا صِفتُه كيفَ يجوزُ جَعْلُ الأصنامِ الخَسيسةِ شُرَكاءَ له في الإلهيَّةِ والمعبوديَّةِ(١)؟!

وأيضًا لَمَّا ذَكَر سُبحانَه سَفَهَ الكافِرينَ في كُفرِهم بالآخِرةِ؛ شَرَع في ذِكرِ الأدِلَّةِ على قُدرتِه عليها، وعلى كُلِّ ما يُريدُ بخَلقِ الأكوانِ وما فيها، الشَّامِلِ لهم ولمعبوداتِهم مِن الجماداتِ وغيرِها، الدَّالِّ على أنَّه واحِدٌ لا شريكَ له(٢).

وأيضًا بعدَ أنْ أمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَ المُشرِكينَ بأنَّه بَشَرٌ يُوحَى إليه، فما يَملِكُ إلجاءَهم إلى الإيمانِ؛ أمَرَه عَقِبَ ذلك بمُعاودةِ إرشادِهم إلى الحَقِّ(٣).

﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: أإنَّكم لتَكفُرونَ بالَّذي خَلَقَ الأرضَ على سَعَتِها وعظَمَتِها مِنَ العَدَمِ في يومَينِ(٤)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٥، ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٨، ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).
قال الشوكاني: (قيل: اليومانِ هما يومُ الأحدِ ويومُ الاثنينِ. وقيل: المرادُ: مِقدارُ يومَينِ؛ لأنَّ =

﴿وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾.

أي: وتَجعَلونَ له نُظَراءَ وأمثالًا تتَّخِذونَهم آلهةً معه(١)؟!

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ذلك العَظيمُ الَّذي فَعَل ذلك: هو الخالِقُ الرَّازِقُ، المالِكُ المدَبِّرُ لجَميعِ المخلوقاتِ(٢).

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما هم به مُقِرُّونَ مِن إبداعِ هذه الأرضِ؛ أتْبَعَه بثلاثةِ أنواعٍ مِن الصُّنعِ العَجيبِ والفِعلِ البَديعِ بعدَ ذلك(٣).

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾.

أي: وجَعَل في الأرضِ جِبالًا ثوابِتَ مِن فَوقِ ظَهْرِها(٤).

= اليومَ الحقيقيَّ إنَّما يتحقَّقُ بعدَ وجودِ الأرضِ والسَّماءِ. ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١).
ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٩، ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧].

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾.

أي: وبارَكَ اللهُ في الأرضِ بما خَلَق فيها مِن المنافِعِ والخَيراتِ الكثيرةِ الدَّائِمةِ لأهْلِها(١).

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: وخَلَق اللهُ فيها أرزاقَها للنَّاسِ والدَّوابِّ، وذلك في يومَينِ آخَرَينِ، فهما معَ اليَومَينِ السَّابِقَينِ أربَعةُ أيَّامٍ(٢).

= قال الماوَرْدي: (وفي تسميتِها رواسِيَ وجهانِ؛ أحدُهما: لعُلُوِّ رُؤوسِها. الثَّاني: لأنَّ الأرضَ بها راسيةٌ، أو لأنَّها على الأرضِ ثابتةٌ راسيةٌ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٣٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢، ١٣).

قال الماوَرْدي: (﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ فيه أربعةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: قَدَّر أرزاقَ أهلِها، قاله الحسَنُ. الثَّاني: قدَّر فيها مصالِحَها؛ مِن جبالِها وبحارِها وأنهارِها، وشَجَرِها ودوابِّها، قاله قَتادةُ. الثَّالثُ: قَدَّر فيها أقواتَها مِن المطَرِ، قاله مجاهدٌ. الرَّابعُ: قدَّر في كلِّ بَلدةٍ منها ما لم يجعَلْه في الأُخرَى؛ ليعيشَ بَعضُهم مِن بَعضٍ بالتِّجارةِ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، قاله عِكْرِمةُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٠، ١٧١).

قال ابن جرير: (الصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أخبَرَ أنَّه قَدَّر في الأرضِ أقواتَ أهلِها، وذلك ما يَقوتُهم مِن الغِذاءِ، ويُصلِحُهم مِنَ المعاشِ، ولم يَخصُصْ جَلَّ =

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿سَوَاءٌ﴾ بالرَّفعِ، أي: هي سَواءٌ لا تَزيدُ ولا تَنقُصُ[1].

٢- قراءةُ ﴿سَوَاءٍ﴾ بالخَفْضِ، أي: في أربعةِ أيَّامٍ مُستَوياتٍ[2].

= ثناؤُه بقَولِه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ أنَّه قَدَّر فيها قُوتًا دونَ قوتٍ، بل عَمَّ الخبَرَ عن تقديرِه فيها جميعَ الأقواتِ، وممَّا يَقوتُ أهْلَها ما لا يُصلِحُهم غيرُه من الغذاءِ، وذلك لا يكونُ إلَّا بالمطَرِ والتَّصرُّفِ في البلادِ؛ لِما خَصَّ به بعضًا دونَ بَعضٍ، وممَّا أخرج مِن الجبالِ مِن الجواهِرِ، ومِن البَحرِ مِن المآكِلِ والحُليِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٨).

وقال ابن عاشور: (﴿وَقَدَّرَ﴾ جعَل قَدْرًا، أي: مِقدارًا، قال تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطَّلاق: ٣]. والمِقدارُ: النِّصابُ المحدودُ بالنَّوعِ أو بالكَمِّيَّةِ، فمعنَى «قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا»: أنَّه خَلَق في الأرضِ القُوى الَّتي تَنْشَأُ منها الأقواتُ، وخَلَق أصولَ أجناسِ الأقواتِ وأنواعَها؛ من الحبِّ للحبوبِ، والكلأِ والكمْأَةِ، والنَّوى لِلثِّمارِ، والحرارةِ الَّتي يَتأثَّرُ بها تولُّدُ الحيوانِ من الدَّوابِّ والطَّيرِ، وما يتولَّدُ منه الحيتانُ ودوابُّ البحارِ والأنهارِ. ومِن التَّقديرِ: تقديرُ كلِّ نوعٍ بما يصلُحُ له مِن الأوقاتِ مِن حَرٍّ أو بردٍ أو اعتدالٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤).

وقال البِقاعي: (أي: جعَلَها مع البَرَكةِ على مِقدارٍ لا تتعدَّاه؛ منهاجٌ بَديعٌ دَبَّره في الأزَلِ وارتضاه، وقدَّرَه فأمضاه، ومن ذلك أنَّه خَصَّ بَعضَ البلادِ بشَيءٍ لا يُوجَدُ في غيرِها؛ لتنظيمِ عِمارةِ الأرضِ كُلِّها باحتياجِ بَعضِهم إلى بعضٍ، فكان جميعُ ما تقدَّمَ مِن إبداعِها، وإيداعُها ما ذُكِرَ مِن مَتاعِها دَفعةً واحِدةً لا يَنقُصُ عن حاجةِ المحتاجينَ أصلًا، وإنَّما يَنقُصُ توصُّلُهم أو توصُّلُ بَعضِهم إليه، فلا يجِدُ له حينَئِذٍ ما يكفيه، وفي الأرضِ أضعافُ كِفايتِه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٥٠، ١٥١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٨).

(١) قرأ بها أبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

(٢) قرأ بها يعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

٣- قراءةُ ﴿سَوَآءً﴾ بالنَّصبِ، أي: استَوَت سَواءً، أي: استِواءً[١]، وتقدَّم في مُشكِلِ الإعرابِ توجيهُ هذه القراءاتِ.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

أي: أربعةِ أيَّام استَوت استواءً، فلا زيادةَ على ذلك ولا نُقصانَ، بيَّنَّا ذلك لِمَن سأَلَ في كَمْ خُلِقَت الأرضُ بما فيها[٢].

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).
ممَّن اختار المعنَى المذكورَ في ﴿سَوَآءً﴾، وأنَّها مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعلٍ محذوفٍ هو صفةٌ للأيَّامِ، أي: اسْتَوَتْ سواءً بمعنَى استواءً: الواحديُّ، والزمخشري، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة فصلت)) (ص: ٦٩).
قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿سَوَآءً﴾ يعني: أنَّ هذا الخلْقَ استوعَب الأربعةَ كلَّها، فلم يكُنْ في يومينِ أو ثلاثةٍ، بل في الأيامِ الأربعةِ كلِّها... أي: استوت الأربعةُ استِواءً لا تَزيدُ ولا تَنقُصُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٩).
وقال الرازي: (ما المرادُ مِن كونِ تلك الأيَّامِ الأربعةِ سَواءً؟ فنقولُ: إنَّ الأيَّامَ قد تكونُ متساويةَ المقاديرِ... وقد تكونُ مختلِفةً...، فبَيَّن تعالَى أنَّ تلك الأيَّامَ الأربعةَ كانت متساويةً غيرَ مختلِفةٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٥).
وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لِمَن سأل عن خلْقِ الأرضِ: ابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والواحدي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٦)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٤٨٣، ٦٤٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥)، =

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح اللهُ تعالى كيفيَّةَ تَخليقِ الأرضِ وما فيها؛ أتْبَعَه بكيفيَّةِ تَخليقِ السَّمَواتِ(١).

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٩).

وقولُه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: هذا الحصرُ والبيانُ لأجلِ السَّائلينَ، أو: هذا جوابٌ للسَّائلينَ. أو: بيَّنَّا ذلك للسَّائلينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٩).

وقيل: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: للرِّزقِ، المحتاجينَ للأقواتِ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والرَّسْعَني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٠).

قال الرسعني: (وإنَّما قيل: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾؛ لأنَّ كُلًّا يَطلُبُ القُوتَ ويَسألُه). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٠).

وقولُه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلِّقٌ بـ(قدَّر) على هذا القولِ، أيْ: قَدَّر فيها أقواتَها لأجلِ الطَّالبينَ المُحتاجينَ إليها. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١).

وقال الشوكاني: (قال الفرَّاءُ: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والمعنَى: وقَدَّر فيها أقواتَها سواءً للمُحتاجينَ في أربعةِ أيَّامٍ. واختارَ هذا ابنُ جريرٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٠).

وقال ابن كثير: (قال تعالَى: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أيْ: لِمَن أرادَ السُّؤالَ عن ذلك لِيَعلَمَه... قال ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ في قولِه تعالَى: ﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لِمَنْ أرادَ السُّؤالَ عن ذلك. وقال ابنُ زَيدٍ: معناه ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أيْ: على وَفْقِ مُرادِ مَن له حاجةٌ إلى رِزْقٍ أو حاجةٍ، فإنَّ اللهَ قَدَّر له ما هو مُحتاجٌ إليه. وهذا القولُ يُشْبِهُ ما ذَكَروه في قولِه تعالَى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٦).

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾.

أي: ثمَّ ارتفَع اللهُ وعَلا قاصدًا إلى خَلْقِ السَّماءِ وهي دُخَانٌ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).

ممَّن اختار أن ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ هنا بمعنى ارتفَع: الخليلُ بنُ أحمدَ -كما نسبَه إليه ابنُ عبدِ البَرِّ-، وابنُ جريرٍ، ونسَبه السَّمعاني والبَغوي إلى ابنِ عباسٍ وأكثرِ مفسِّري السَّلفِ في نظيرِ هذه الآيةِ من سورةِ البقرةِ الآيةِ (٢٩)، وهو قولُ أبي العاليةِ، كما في ((صحيح البخاري)) (٩/ ١٢٤). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٦٣)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٠١)، ((التمهيد)) لابن عبد البَرِّ (٧/ ١٣٢).

وممَّن اختار أنَّ ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ هنا بمعنى قصد: السمعانيُّ، وابن جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٧٤).

قال ابن كثير: (﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أَيْ: قَصَدَ إِلَى السَّمَاءِ، والاستواءُ هاهنا تضَمَّن معنَى القصدِ والإقبالِ؛ لأنَّه عُدِّيَ بـ «إلى»). ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٣). ويُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٥٢، ٥٣).

وقال ابنُ القيم: (تقولُ: استوَى إلى كذا، إذا قصَد إليه علوًّا وارتفاعًا، نحو: استوَى إلى السَّطحِ والجبلِ). ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) (١/ ١٩٥).

وقال السعدي: (﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ تَرِدُ في القرآنِ على ثلاثةِ مَعانٍ: فتارةً لا تُعدَّى بالحرفِ، فيَكونُ معناها: الكمالَ والتَّمامَ، كما في قولِه عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]. وتارةً تكونُ بمعنى: عَلا وارتفَعَ، وذلك إذا عُدِّيَتْ بـ «على»، كما في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣]. وتارةً تكونُ بمعنى: قصَدَ، كما إذا عُدِّيَتْ بـ «إلى»، كما في هذه الآيةِ، أي: لَمَّا خلَقَ تعالى الأرضَ، قصَد إلى خلْقِ السَّمواتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨). ويُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٩٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ عن الدُّخَانِ: (قيل: هو البُخارُ الَّذي تصاعَدَ من الماءِ الَّذي كان عليه العَرشُ؛ فإنَّ البُخارَ نَوعٌ من الدُّخَانِ). ((الصفدية)) (٢/ ٧٦). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٦٥). يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦).

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.

أي: فقال اللهُ للسَّماءِ والأرضِ بعدَ أنْ خَلَقَهما: استَجيبا لأَمْري، وانقادا لِطاعَتي اختيارًا أو جَبرًا[1].

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

أي: قالت السَّماءُ والأرضُ: استَجَبْنا لأمْرِك، وانقَدْنا لطاعتِك، فلا نخالِفُ إرادتَك رَبَّنا[2].

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾.

أي: ففرَغ الله مِن خَلْقِهنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ، وأكْمَلهنَّ وأتمَّهنَّ في يومَينِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٣، ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: إنَّ اللهَ تعالى قال: أمَّا أنتِ يا سماءُ، فأطْلِعي شمسَكِ وقمرَكِ ونجومَكِ، وأمَّا أنتِ يا أرضُ، فشقِّقي أنهارَكِ، وأخرجي ثمارَكِ ونباتَكِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٧).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والثعلبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٧).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).

قال القرطبي: (قال أكثَرُ أهلِ العِلمِ: خَلَقَ الله فيهما الكَلامَ، فتكَلَّمَتا كما أرادَ تعالى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٤). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٥)، ((الفتاوى =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (خَلَقَ الأرضَ في يومَينِ، ثمَّ خَلَق السَّماءَ، ثمَّ استوى إلى السَّماءِ فسَوَّاهنَّ في يومَينِ آخَرينِ، ثمَّ دحا الأرضَ؛ ودَحْوُها: أنْ أخرَجَ منها الماءَ والمَرعَى، وخَلَق الجِبالَ والجِمالَ والآكامَ وما بَيْنَهما في يومَينِ آخَرينِ، فذلك قولُه: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، وقولُه: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، فجُعِلت الأرضُ وما فيها مِن شَيءٍ في أربعةِ أيَّامٍ، وخُلِقَت السَّمواتُ في يومَينِ)[١].

﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾.

أي: وأمَرَ اللهُ في كُلِّ سماءٍ مِن السَّمواتِ السَّبعِ بما أرادَه مِنَ الخَلقِ والتَّدبيرِ[٢].

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾.

أي: وزَيَّنَ اللهُ السَّماءَ الدُّنيا بالنُّجومِ المُنيرةِ، وحَفِظَها بهذه النُّجومِ مِن الشَّياطينِ المُستَرِقةِ للسَّمْعِ مِن المَلَأِ الأعلى[٣].

= الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧).

(١) رواه البخاري (٦/ ١٢٧، ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).
قال الشوكاني: (الإيحاءُ قد يكونُ بمعنَى الأمرِ، كما في قولِه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ﴾ [الزلزلة: ٥]، وقولِه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ﴾ [المائدة: ١١١]، أي: أمَرْتُهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۞ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۞ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۞ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ۞ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۞ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۞ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

وقال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

أي: ذلك الشَّأنُ العَظيمُ البَديعُ الَّذي تقدَّمَ ذِكرُه مِن خَلْقِ السَّماءِ والأرضِ والنُّجومِ: هو تَقديرُ العَزيزِ ذي القَدْرِ العَظيمِ، القاهِرِ الغالِبِ لكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعِ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ العَليمِ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بتدبيرِ مَصالحِ خَلْقِه، وعِلمُه بجَميعِ حَرَكاتِهم وسَكَناتِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۞ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۞ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ إنَّ عِلْمَنا بأنَّ اللهَ سبحانه ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ يَستَوجِبُ -مِن النَّاحيةِ المسلكيَّةِ- بالنِّسبةِ للعبدِ: أنْ يَخافَ اللهَ عزَّ وجلَّ، وأنْ يَقومَ بطاعتِه، وأنْ يَدَعَ معصيتَه؛ لأنَّه يَعْلَمُ أنَّ اللهَ تعالى عالِمٌ به، بل إنَّ اللهَ يَعْلَمُ مِن نَفْسِك ما لا تَعْلَمُه أنت؛ فيَعْلَمُ مُستقبلَك ومآلَك وحالَك، وهذا يُوجِبُ للعبدِ أنْ يخافَ ربَّه في السِّرِّ والعَلَنِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ دليلٌ على وُجوبِ إعلانِ المؤمنِ ما عليه الكفَّارُ مِن الكفرِ باللهِ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه لا تجوزُ مُداهَنةُ الكفَّارِ، والمُداهَنةُ: سكوتُ الإنسانِ عن معصيةِ العاصي، قال اللهُ تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]؛ فلا يجوزُ للمؤمنِ أنْ يُداهِنَ، والمُداهَنةُ في الحقيقةِ أشْبَهُ شَيءٍ لها في وقتِنا الحاضرِ ما يُسَمُّونه بالمجاملةِ أو بالعَلْمنةِ؛ فإنَّ العلمانيِّينَ يقولونَ: دَعْ كلَّ إنسانٍ وشأنَه! الدَّولةُ دولةٌ؛ والدِّينُ دِينٌ! فالدَّولةُ لا بُدَّ أنْ تتَّحِدَ؛ وأمَّا الدِّينُ فلِكُلٍّ دينُه! فلا تُنْكِرْ على الكافرِ، ولا على الفاسقِ! دَعْ كلَّ إنسانٍ يَعْمَلُ ما شاء!! فهذه الآيةُ صريحةٌ في أنَّه يجبُ أنْ نُنكِرَ على الكافرين كُفْرَهم؛ وألَّا نُداهِنَهم[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ فيه سُؤالٌ: مَنِ استدَلَّ بشَيءٍ على إثباتِ شَيءٍ، فذلك الشَّيءُ المُستَدَلُّ به يَجِبُ أن يكونَ مُسَلَّمًا عندَ الخَصمِ، حتَّى يَصِحَّ الاستِدلالُ به، وكَوْنُه تعالى خالِقًا للأرضِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٨).

يومَينِ أمرٌ لا يُمكِنُ إثباتُه بالعَقلِ المَحْضِ، وإنَّما يُمكِنُ إثباتُه بالسَّمعِ ووَحيِ الأنبياءِ، والكُفَّارُ كانوا مُنازِعينَ في الوَحيِ والنُّبُوَّة، فلا يُعقَلُ تَقريرُ هذه المقَدِّمةِ عليهم، وإذا امتنَعَ تقريرُ هذه المقَدِّمةِ عليهم امتنَعَ الاستِدلالُ بها على فَسادِ مَذاهِبِهم؟

الجوابُ: أنَّ إثباتَ كَونِ السَّمَواتِ والأرضِ مخلوقةً بطَريقِ العَقلِ مُمكِنٌ، فإذا ثبت ذلك أمكَنَ الاستِدلالُ به على وُجودِ الإلهِ القادِرِ القاهِرِ العظيم، وحينَئذٍ يُقالُ للكافِرينَ: فكيف يُعقَلُ التَّسويةُ بيْنَ الإلهِ الموصوفِ بهذه القُدرةِ القاهِرةِ، وبيْنَ الصَّنَمِ الَّذي هو جمادٌ لا يَضُرُّ ولا ينفَعُ في المعبوديَّةِ والإلهيَّةِ؟ والاستِدلالُ بكَونِه تعالى خالِقًا للأرضِ في يومَينِ أثَرٌ، والظَّاهِرُ أنَّ المشركينَ كانوا قد سَمِعوا مِن أهلِ الكِتابِ هذه المعانيَ[(١)]، واعتَقَدوا في كَونِها حَقَّةً، وإذا كان الأمرُ كذلك فحينَئذٍ يَحسُنُ أن يُقالَ لهم: إنَّ الإلهَ الموصوفَ بالقُدرةِ على خَلقِ هذه الأشياءِ العظيمةِ في هذه المدَّةِ الصَّغيرة، كيف يَليقُ بالعَقلِ جَعلُ الخَشَبِ المَنجُورِ والحَجَرِ المنحوتِ شَريكًا له في المعبوديَّةِ والإلهيَّةِ؟ فظهَر بذلك أنَّ هذا الاستِدلالَ قَويٌّ حسَنٌ[(٢)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر أنَّه خَلَقَ الأرضَ في يومَينِ، وذكَرَ أنَّه جَعَل فيها الرَّواسِيَ والبَرَكةَ وتقديرَ الأقواتِ في أربعةِ أيَّامٍ أُخَرَ، وذكَرَ أنَّه خَلَقَ السَّمواتِ في يومَينِ، فيكونُ المجموعُ ثمانيةَ أيَّامٍ، لكِنَّه ذَكَر في سائِرِ الآياتِ أنَّه خَلَق السَّمواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّامٍ[(٣)]؟

(١) وقيل: إنَّهم تلقَّوْا ذلك خلَفًا عن سلفٍ، فاستفاضَ بيْنَهم. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٤).
(٣) قال السمعاني: (وأجْمَعوا على أنَّ خلقَ الكلِّ كان في سِتَّةِ أيَّامٍ، لا في ثمانيةِ أيَّامٍ). ((تفسير =

والجوابُ: أنَّ يومَيْ خَلقِ الأرضِ مِن جُملةِ الأربعةِ بَعْدَهما، والمعنى: في تَتِمَّةِ أربَعةِ أيَّامٍ، فكأنَّه قيل: في يومَينِ آخَرينِ، فتلك أربَعةُ أيَّامٍ، وهي مع يَومَيْ خَلْقِ السَّمَواتِ سِتَّةُ أيَّامٍ، وهذا كقَولِ القائِلِ: سِرتُ مِن البَصرةِ إلى بغدادَ في عَشَرةِ أيَّامٍ، وسِرتُ إلى الكُوفةِ في خَمْسةَ عَشَرَ يومًا، يريدُ كِلْتا المسافتَينِ[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿مِن فَوْقِهَا﴾، ولِمَ لَمْ يقتَصِرْ على قَولِه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧]، ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ [الأنبياء: ٣١]؟

الجوابُ: أنَّ لذلك فوائِدَ:

منها: استِحضارُ الصُّورةِ الرَّائِعةِ لمناظِرِ الجِبالِ؛ فمنها الجَميلُ المَنظَرِ، المجَلَّلُ بالخُضرةِ، أو المكْسُوُّ بالثُّلوجِ، ومنها الرَّهيبُ المَرأَى؛ مِثلُ جِبالِ النَّارِ (البراكين)، والجِبالِ المَعدِنيَّةِ السُّودِ[2].

ومنها: ظُهورُ هذه الرَّواسي وبيانُها للنَّاسِ؛ حتَّى يَعرِفوا بذلك حِكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ورُبَّما لا تكونُ رواسيَ إلَّا إذا كانت مِن فَوقٍ، بِناءً على أنَّ الأرضَ تَدورُ حتَّى تَحفَظَ تَوازُنَها.

ومنها: أنَّ هذه الرَّواسيَ إذا كانت مِن فَوقٍ حَصَل فيها مِن المنافِعِ في دَرءِ العواصِفِ وفي الملاجِئِ شَيءٌ كثيرٌ، كما هو مَعروفٌ في المغاراتِ، وكما يُعرَفُ مِن سُفوحِ الجِبالِ، وخُدودِ الجِبالِ، ورُؤوسِ الجبالِ: مِن نوابِتَ لا تُوجَدُ

= السمعاني)) (١/ ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤).

لولا هذه المُرتَفعاتُ.

ومنها: أنَّها تُوجِبُ أنْ تَندَفِعَ مياهُ الأمطارِ بشِدَّةٍ حتَّى تَصِلَ إلى أراضٍ صالحةٍ للنَّباتِ؛ لأنَّ بَعضَ الأرضِ سَبِخاتٌ ليس فيها خَيرٌ، وبَعضَها رِياضٌ تُنبِتُ، فإذا نَزَلَ الماءُ على هذه الجبالِ؛ على قِمَمِها وعلى خُدُودِها، نَزَلَ إلى الأرضِ بشِدَّةٍ عَظيمةٍ حتَّى يَصِلَ إلى ما أراد اللهُ إيصالَه.

ومنها: أنَّ في قِمَمِ الجِبالِ مِن المعادنِ الجَيِّدةِ أكثَرَ مِمَّا في الأرضِ السُّفلى[١].

ومنها: أنَّ اللهَ تعالى لو جَعَل فيها رواسيَ مِن تَحتِها لأوهَمَ ذلك أنَّ تلك الأساطينَ التَّحتانيَّةَ هي الَّتي أمسَكَت هذه الأرضَ الثَّقيلةَ عن النُّزولِ، ولكِنَّه تعالى قال: خلَقْتُ هذه الجِبالَ الثِّقالَ فَوقَ الأرضِ؛ لِيَرى الإنسانُ بعَينِه أنَّ الأرضَ والجِبالَ أثقالٌ على أثقالٍ، وكُلُّها مُفتَقِرةٌ إلى مُمسِكٍ وحافِظٍ، وما ذاك الحافِظُ المدَبِّرُ إلَّا اللهُ سُبحانَه وتعالى[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، لم يفعلْ ذلك في أقَلَّ مِن لمحِ البصرِ، معَ تمامِ القدرةِ عليه؛ لأنَّ هذا أدَلُّ على الاختيارِ، وأدخلُ في الابتلاءِ والاختبارِ؛ لِيُضِلَّ به كثيرًا، ويَهديَ به كثيرًا، فيكونَ أعظمَ لأُجورِهم؛ لأنَّه أدَلُّ على تسليمِهم[٣]، ولأنَّ الله تعالى رَبَطَ الأسبابَ والمُسبَّباتِ، وجَعَلها تتفاعلُ شيئًا فشيئًا حتَّى تنتهيَ، وليُعَلِّمَ عبادَه التَّأنِّيَ في الأمورِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أنَّ اللهَ تعالى قَدَّرَ في الأرضِ أقواتَها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥١، ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠٦).

أي: جَعَلَها مُقَدَّرةً بقَدْرٍ مَعلومٍ، ومِن ذلك التَّقديرِ أنْ جَعَل في جِهاتٍ مِن الأرضِ مِن الأقواتِ ما ليس في جِهاتٍ أُخرى؛ حتَّى يَتَبادَلَ النَّاسُ هذه الأقواتَ، وتتحَرَّكَ التِّجارةُ، إلى غيرِ ذلك مِن الفوائِدِ، ولعَلَّه يُشيرُ إلى هذا قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: المطَرَ ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾[1] [الفرقان: ٥٠].

٧- قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، إلى أنْ قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ...﴾ الآيةَ: يدُلُّ على أن خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خلقِ السَّماءِ، وهذا كقولِه تعالى في سُورةِ (البقَرةِ): ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ولكِنْ هذا يُعارِضُه ظاهِرُ قَولِه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٠] فهنا ذَكَر أنَّ الأرضَ دُحِيَتْ بعدَ خَلْقِ السَّماءِ.

فالجوابُ مِن وجهينِ:

الأوَّلُ: أنَّ اللهَ تعالَى خَلَقَ الأرضَ أوَّلًا قبْلَ السَّماءِ غيرَ مَدْحُوَّةٍ، ثُمَّ استوَى إلى السَّماءِ فسوَّاهُنَّ سبْعًا في يومينِ، ثُمَّ دَحا الأرضَ بعدَ ذلك، وجَعَل فيها الرَّواسِيَ والأنهارَ وغيرَ ذلك، فأصلُ خَلْقِ الأرضِ قبْلَ خلقِ السَّماءِ، ودَحْوُها بجِبالِها وأشجارِها ونحوِ ذلك بعدَ خلقِ السَّماءِ، ويدُلُّ لهذا أنَّه قالَ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، ولم يَقُلْ: خَلَقها، ثُمَّ فَسَّر دَحْوَه إيَّاها بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣١]. وهذا هو الجمعُ الَّذي جَمَع به ابنُ عَبَّاسٍ بينَ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١١). =

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، أي: مع ذلك، فلَفظةُ (بعدَ) بمعنى (معَ). ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]؛ وعليه فلا إشكالَ في الآيةِ. ويُستأنَسُ لهذا القَولِ بالقِراءةِ الشَّاذَّةِ، وبها قرأ مجاهِدٌ: (والأرضَ مع ذلك دحاها)(١). وقيل غيرُ ذلك(٢).

= وأثرُ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما الذي فيه الجمعُ بينَ الآيتينِ أخرجه البخاري (٦/ ١٢٧، ١٢٨).
وقال الشنقيطي: (هذا الجَمعُ الَّذي جمَعَ به ابنُ عبَّاسٍ بيْن هاتَينِ الآيتَينِ واضِحٌ لا إشكالَ فيه، مفهومٌ مِن ظاهِرِ القرآنِ العظيمِ، إلَّا أنَّه يَرِدُ عليه إشكالٌ مِن آيةِ «البقرة» هذه، وإيضاحُه أنَّ ابنَ عَبَّاسٍ جَمَع بأنَّ خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ، ودَحْوَها بما فيها بعدَ خَلقِ السَّماءِ. وفي هذه الآيةِ التَّصريحُ بأنَّ جميعَ ما في الأرضِ مخلوقٌ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ؛ لأنَّه قال فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]. وقد مكَثْتُ زَمَنًا طويلًا أُفَكِّرُ في حَلِّ هذا الإشكالِ حتَّى هداني اللهُ إليه ذاتَ يومٍ ففَهِمتُه مِن القُرآنِ العظيمِ، وإيضاحُه أنَّ هذا الإشكالَ مرفوعٌ مِن وَجهَينِ، كُلٌّ منهما تدُلُّ عليه آيةٌ مِن القُرآنِ:
الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بخَلقِ ما في الأرضِ جميعًا قبْلَ خَلقِ السَّماءِ: الخَلقُ اللُّغَويُّ الَّذي هو التَّقديرُ، لا الخَلقُ بالفِعلِ الَّذي هو الإبرازُ مِن العَدَمِ إلى الوُجودِ، والعَرَبُ تُسَمِّي التَّقديرَ خَلقًا ... والدَّليلُ على أنَّ المرادَ بهذا الخَلقِ التَّقديرُ: أنَّه تعالى نَصَّ على ذلك في سُورةِ «فُصِّلَت»؛ حيث قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾، ثمَّ قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ الآيةَ.
الوَجهُ الثَّاني: أنَّه لَمَّا خَلَق الأرضَ غيرَ مَدحُوَّةٍ، وهي أصلٌ لكُلِّ ما فيها، كان كُلُّ ما فيها كأنَّه خُلِقَ بالفِعلِ؛ لوُجودِ أصلِه فعلًا، والدَّليلُ مِن القرآنِ على أنَّ وُجودَ الأصلِ يُمكِنُ به إطلاقُ الخَلقِ على الفَرعِ وإن لم يكُنْ مَوجودًا بالفِعلِ: قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ [الأعراف: ١١]. قَولُه: ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ بخَلْقِنا وتصويرِنا لأبيكم آدمَ الَّذي هو أصلُكم). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ١٢، ١٣).

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩١، ٢٩٢).

قال الشنقيطي: (وجَمَع بعضُهم بأوجهٍ ضعيفةٍ؛ لأنَّها مَبنيَّةٌ على أنَّ خلْقَ السَّماءِ قبْلَ الأرضِ، وهو خلافُ التَّحقيقِ. منها: أنَّ «ثُمَّ» بمعنَى الواوِ. ومنها: أنَّها للتَّرتيبِ الذِّكْريِّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٥).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: لا يخفَى ما يَسبِقُ إلى الذِّهنِ مِن مُنافاةِ هذه الحالِ وصاحِبِها؛ لأنَّها جمعُ مُذكَّرٍ عاقِلٍ، وصاحِبُها ضميرُ تَثنيةٍ لِغَيرِ عاقِلٍ، ولو طابَقَت صاحِبَها في التَّثنيةِ حَسَبَ ما يَسبِقُ إلى الذِّهنِ لَقال: (أتينا طائِعَتَينِ)؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ جَمْعَه للسَّمَواتِ والأرضِ؛ لأنَّ السَّمَواتِ سَبْعٌ، والأَرَضين كذلك، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فالتَّثنيةُ لَفظيَّةٌ تَحتَها أربعةَ عَشَرَ فَردًا، وأمَّا إتيانُ الجَمعِ على صيغةِ جَمعِ العُقَلاءِ فلأنَّ العادةَ في اللُّغةِ العَرَبيَّةِ أنَّه إذا وُصِفَ غيرُ العاقِلِ بصِفةٍ تختَصُّ بالعاقِلِ أُجرِيَ عليه حُكمُه، ومنه قَولُه تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، لَمَّا كان السُّجودُ في الظَّاهِرِ مِن خَواصِّ العُقَلاءِ أجرَى حُكمَهم على الشَّمسِ والقَمَرِ والكواكِبِ؛ لِوَصفِها به. ووَجهُ تذكيرِ الجَمعِ: أنَّ السَّمواتِ والأرضَ تأنيثُها غيرُ حَقيقيٍّ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المعنى: قالَتا: أتَينا بمَن فينا طائِعينَ، فيكونُ فيه تغليبُ العاقِلِ على غَيرِه[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أنَّ كُلَّ جَمادٍ أمامَ اللهِ مُدْرِكٌ وعاقِلٌ ومُريدٌ[٢].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ فيه إثباتُ الطَّواعِيَةِ والكَراهيةِ لِغَيرِ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٤، ٢٠٥). ويُنظر أيضًا: ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٤٧-٤٩).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٢١).

العاقلِ؛ وهذا يعني أنَّ لغيرِ العاقلِ إرادةً؛ لأنَّ الطَّائعَ له إرادةٌ، ومَن يُتصَوَّرُ إكراهُه فلَه إرادةٌ أيضًا، وإرادةُ كلِّ شَيءٍ بحَسَبِه، وقد وَرَدَ أنَّ الصَّحابةَ كانوا يسْمَعون تسبيحَ الطَّعامِ وهو يُؤكَلُ[١]، ولا تَسبيحَ إلَّا بعدَ إرادةٍ، وثَبَتَ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال في أُحُدٍ: ((يُحِبُّنا ونُحِبُّه))[٢]، والمَحبَّةُ أخَصُّ مِن الإرادةِ، وعلى هذا فهذه الجَماداتُ لها إرادةٌ وتُسَبِّحُ اللهَ عزَّ وجَلَّ، ولكنْ لا نَفْقَهُ تَسبيحَها[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ الرَّدُّ على ما أنكَرَتِ الجَهميَّةُ مِن أنَّ اللهَ تعالى كَلَّمَ موسى عليه السَّلامُ؛ حيثُ زَعَموا أنَّ الكلامَ لا يكونُ إلَّا مِن جَوفٍ ولِسانٍ وشَفَتَينِ! ووَجْهُ الرَّدِّ أنَّ اللهَ تعالى قال للسَّمَواتِ والأرضِ: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، أتُراها أنَّها قالت بجَوفٍ وفَمٍ وشفَتَينِ ولِسانٍ؟! وقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، أتُراها أنَّها يُسَبِّحْنَ بجَوفٍ وفَمٍ ولِسانٍ وشفتَينِ؟! ولكِنَّ اللهَ أنطَقَها كيف شاء، وكذلك اللهُ تَكَلَّمَ كيفَ شاء مِن غيرِ أنْ نَقولَ: جَوفٌ ولا فَمٌ، ولا شَفتانِ ولا لِسانٌ[٤].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فيه سؤالٌ: اليومُ عبارةٌ عن النَّهارِ واللَّيلِ، وذلك إنَّما يحصُلُ بسببِ طلوعِ الشَّمسِ وغروبِها، وقبْلَ حدوثِ السَّمواتِ والشَّمسِ والقمرِ كيف يُعقلُ حصولُ اليومِ، فالشَّمسُ والقَمَرُ هما مِن السَّمَواتِ والأرضِ، وحَرَكتُهما بعدَ خَلْقِهما، والزَّمانُ المقَدَّرُ بحَرَكتِهما

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٨٢) من حديث أبي حُمَيدٍ السَّاعِديِّ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٧٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ١٥٣).

-وهو اللَّيلُ والنَّهارُ التَّابِعانِ لحَركتِهما- إنَّما حَدَث بعدَ خَلْقِهما، وقد أخبَرَ اللهُ أنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما في سِتَّةِ أيَّامٍ؟

الجواب: معناه: إنَّه مضَى مِن المُدَّةِ ما لو حصَل هناك فَلَكٌ وشمسٌ، لَكان المِقدارُ مُقَدَّرًا بيَوم، أو أنَّ تلك الأيَّامَ مُدَّةٌ وزمانٌ مُقدَّرٌ بحركةٍ أخرى غيرِ حَركةِ الشَّمسِ والقَمَرِ(١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ أنَّ مدَّةَ خَلْقِ السَّمواتِ أَقَلُّ مِن مدَّةِ خَلْقِ الأرضِ؛ معَ أنَّ السَّمواتِ أعظَمُ، لكنْ لَمَّا كانتِ الأرضُ موضوعةً للأنامِ -كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠]- كان خَلْقُها أكثرَ مدَّةً؛ لبيانِ عنايةِ اللهِ تعالى بهذه الأرضِ الَّتي وَضَعها للأنام، ولِيَعْلَمَ الأنامُ الَّذين على الأرضِ أنَّ العِبرةَ بالإتقانِ لا بالسُّرعةِ(٢). وأيضًا لأجْلِ التَّنبيهِ على ما في المُقَدَّرِ مِن المقدورِ وعجائِبِ الأُمورِ، وليُعلَمَ أيضًا بخَلقِ السَّماءِ -الَّتي هي أكبَرُ جِرمًا، وأتقَنُ جسمًا، وأعظَمُ زينةً، وأكثَرُ مَنافعَ بما لا يُقايَسُ- في أقَلَّ مِن مُدَّةِ خَلقِ الأرضِ: أنَّ خَلْقَها في تلك المدَّةِ ليس للعَجزِ عن إيجادِها في أقَلَّ مِن اللَّمحِ، بل لحِكَمٍ تَعجِزُ عن حَملِها العُقولُ(٣). وقيل غيرُ ذلك(٤).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗا﴾ أنَّ اللهَ تعالى خَلَق هذه النُّجومَ لثَلاثِ فوائدَ؛ الفائدةُ الأُولى: زِينةً للسَّماء. الفائدةُ الثَّانيةُ: لحِفْظِ السَّمَواتِ مِن الشَّياطينِ. والفائدةُ الثَّالثةُ: ذَكَرها اللهُ تعالى في سورةِ (النَّحلِ) في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]؛ ولهذا قال قَتادةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٨)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٩).

-وهو من أئمَّةِ التَّابِعينَ-: (خَلَقَ اللهُ هذه النُّجومَ لثلاثٍ؛ زينةً للسَّماءِ، ورُجومًا للشَّياطينِ، وعَلاماتٍ يُهتَدَى بها)(١).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أنَّ تقديرَ حَرَكاتِ الشَّمسِ والقَمَرِ والأجرامِ العُلْويَّةِ وما نَشَأ عنها كان مِن مُقتضى عِزَّتِه وعِلْمِه، وأنَّه قدَّرَه بهاتَينِ الصِّفتَينِ، وفي هذا تَكذيبٌ لأعداءِ اللهِ الملاحِدةِ الَّذين يَنفُونَ قُدرَتَه واختيارَه وعِلمَه تعالى بالمُغَيَّباتِ(٢)!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أمَر اللهُ سبحانَه نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بمُعاوَدةِ الأمْرِ بإرشادِ الكافِرينَ إلى الحَقِّ على طَريقةِ الاستِفهامِ التَّوبيخيِّ؛ إنكارًا وتَشنيعًا لِكُفرِهم، مُدمِجًا في ذلك تَذكيرَهم بالأدِلَّةِ الدَّالَّةِ على أنَّ اللهَ واحِدٌ، بطَريقةِ التَّوبيخِ على إشراكِهم به، في حينِ وُضوحِ الدَّلائلِ على انفرادِه بالخَلقِ، واتِّصافِه بتَمامِ القُدرةِ والعِلمِ؛ فجُملةُ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ إلى آخِرِها استِئنافٌ ابتدائيٌّ ثانٍ، هو جوابٌ ثانٍ عن مَضمونِ قَولِهم: ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾(٣) [فصلت: ٥].

- قولُه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ (إنَّ) واللَّامُ؛ لِتَأكيدِ الإنكارِ، وتَقديمُ الهَمزةِ لِاقتضائِها الصَّدارةَ، لا لإنكارِ التَّأكيدِ، وإمَّا لِلإشعارِ بأنَّ كُفرَهم مِنَ البُعدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٦).

وأثرُ قَتادةَ علَّقه البخاريُّ في ((صحيحه)) (٤/ ١٣٠) مجزومًا به. والأثر وصله ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ١٢٣) وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (١٦٥٣٦). ويُنظر: ((تغليق التعليق)) لابن حجر (٣/ ٤٨٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤١).

بحيثُ يُنكِرُ العُقَلاءُ وُقوعَه؛ فيَحتاجُ إلى التَّأكيدِ[١].

- قولُه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ هَمزةُ الاستفهامِ المُفتتَحُ بها الكلامُ مُستعمَلةٌ في التَّوبيخِ. والافتِتاحُ بالاستِفهامِ وحَرفَيِ التَّوكيدِ -(إنَّ) واللامِ- تَشويقٌ لِتَلَقِّي ما بَعدَ ذلك؛ لِدَلالةِ ذلك على أنَّ أمرًا مُهِمًّا سَيُلقَى إليهم، وأيضًا تَوكيدُ الخَبَرِ بـ (إنَّ) ولامِ الابتِداءِ بَعدَ الاستِفهامِ التَّوبيخيِّ أو التَّعْجيبيِّ؛ لِيَكونَ الإنكارُ لِأمرٍ مُحَقَّقٍ، وهو هنا مَبنيٌّ على أنَّهم يَحسَبونَ أنَّهم مُهتَدونَ، وعلى تَجاهُلِهم المُلازَمةَ بيْنَ الانفِرادِ بالخَلقِ وبَينَ استِحقاقِ الإفرادِ بالعِبادةِ، فأُعلِموا بتَوكيدِ أنَّهم يَكفُرونَ، وبتَوبيخِهم على ذلك؛ فالتَّوبيخُ المُفادُ مِنَ الاستِفهامِ مُسَلَّطٌ على تَحقيقِ كُفرِهم باللهِ، وذلك مِنَ البَلاغةِ بالمَكانةِ العُليا[٢].

- ومَجيءُ فِعلِ (تَكفُرونَ) بِصيغةِ المُضارِعِ؛ لِإفادةِ أنَّ تَجَدُّدَ كُفرِهم يَومًا فيَومًا، مع سُطوعِ الأدِلَّةِ الَّتي تَقتَضي الإقلاعَ عنه؛ أمْرٌ أحَقُّ بالتَّوبيخِ. ومعنى الكُفرِ به الكُفرُ بانفرادِه بالإلهيَّةِ، فلمَّا أشْرَكوا معه آلِهةً كانوا واقِعينَ في إبطالِ إلَهيَّتِه؛ لأنَّ التَّعدُّدَ يُنافي حَقيقةَ الإلهيَّةِ، فكأنَّهم أنْكَروا وُجودَه؛ لأنَّهم لَمَّا أنْكَروا صِفاتِ ذاتِه، فقدْ تَصوَّرُوه على غيرِ كُنْهِه. وأُدمِجَ في هذا الاستِدلالِ بَيانُ ابتِداءِ خَلقِ هذه العَوالِمِ؛ فمَحَلُّ الاستِدلالِ هو صِلةُ المَوصولِ، وأمَّا ما تَعلَّقَ بها فهو إدماجٌ[٣].

- والتَّعبيرُ عنِ الجَلالةِ بالمَوصولِ ﴿بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ دُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤١، ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٤٢).

وتقدم تعريف الإدماج (ص: ٤١).

الاسمِ العَلَمِ؛ لِتَفخيمِ شَأنِه تعالَى، واستِعظامِ كُفرِهم به، ولِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن تَعليلِ التَّوبيخِ؛ لِأنَّ الَّذي خَلَق الأرضَ هو المُستَحِقُّ لِلعِبادةِ(١).

- وإنَّما ابتُدِئَ بِذِكرِ خَلقِ الأرضِ قبْلَ ذِكرِ خَلقِ السَّمَواتِ؛ لِأنَّ آثارَ خَلقِ الأرضِ أظهَرُ لِلْعِيانِ، وهي في مُتَناوَلِ الإنسانِ، فلا جَرَمَ أنْ كانتِ الحُجَّةُ عليهم بخَلقِ الأرضِ أسبَقَ نُهوضًا، ولِأنَّ النِّعمةَ بما تَحتَوي عليه الأرضُ أقْوى وأعَمُّ، فيَظهَرُ قُبحُ الكُفرانِ بخالِقِها أوضَحَ وأشنَعَ(٢).

- ولعلَّ تَخصيصَ البَيانِ بما يَتعلَّقُ بالأرْضِ وأهْلِها؛ لِمَا أنَّ بَيانَ اعتِنائِه تعالَى بأمْرِ المُخاطَبينَ، وتَرتيب مَبادِي مَعايِشِهم قبْلَ خَلقِهم مِمَّا يَحمِلُهم على الإيمانِ، ويَزجُرُهم عنِ الكُفرِ والطُّغيانِ(٣).

- وعَطْفُ ﴿وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ على ﴿لَتَكۡفُرُونَ﴾ تَفسيرٌ لِكُفرِهم باللهِ، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أنَّه في التَّفسيرِ لا يُعطَفُ؛ فعُدِلَ إلى عَطفِه لِيَكونَ مَضمونُه مُستَقِلًّا بذاتِه(٤).

- وأيضًا قولُه: ﴿وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ المعطوفُ على (تَكفُرُونَ) داخِلٌ في حُكمِ الإنكارِ والتَّوبيخِ. وجَمعُ (الأنداد) باعتِبارِ ما هو الواقِعُ، لا بأنْ يَكونَ مَدارُ الإنكارِ هو التَّعدُّدَ، أيْ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ والحالُ أنَّه لا يُمكِنُ أنْ يَكونَ له نِدٌّ واحِدٌ(٥).

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مُعترِضةٌ بيْن المَعطوفاتِ على الصِّلةِ. وقولُه:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٢، ٢٤٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤).

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى المَوصولِ في قَولِه: ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، باعتبارِ اتِّصافِه بما في حَيِّزِ الصِّلةِ، معَ ما في الإشارةِ مِنْ مَعنى البُعدِ معَ قُربِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزلَتِه في العَظَمةِ. وفي الإشارةِ نِداءٌ على بَلادةِ رَأيِهم؛ إذْ لم يَتَفطَّنوا إلى أنَّ الَّذي خلَقَ الأرضَ هو رَبُّ العالَمينَ؛ لِأنَّه خالِقُ الأرضِ وما فيها، ولا إلى أنَّ رُبوبيَّتَه سُبحانَه تَقتَضي انتِفاءَ النِّدِّ والشَّريكِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ يجوزُ أنْ يُجعلَ ابتِداءَ كلامٍ بِناءً على أنَّه يُصدَّرُ بالواوِ؛ فهو كَلامٌ مُستأنَفٌ، ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ اعتراضيَّةً. وقيلَ: هو عَطفٌ على مُقَدَّرٍ بعدَ ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أيْ: خَلَقها وجَعَل فيها رواسيَ، فكأنَّه ساقَ قولَه تعالَى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أولًا ردًّا عليهم في كُفرِهم، ثمَّ ذكَرَه ثانيًا تتميمًا للقِصَّةِ، وتأكيدًا للإنكارِ. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- والرَّواسي: الثَّوابِتُ، وهو صِفةٌ لِلجبالِ؛ لِأنَّ الجِبالَ حِجارةٌ لا تَنتَقِلُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٥٣).

وقد نصَّ أبو السُّعودِ وابنُ عاشورٍ وغيرُهما على أنَّ قولَه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ ...﴾ معطوفٌ على الفعلِ (خلَقَ) في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، لا على مَعمولِه؛ فجُملةُ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ ...﴾ إلخ، صِلةٌ ثانيةٌ في المَعنَى؛ ولذلك جيءَ بفِعلٍ آخرَ غيرِ فعلِ (خَلَقَ)؛ لأنَّ هذا الجَعْلَ تكوينٌ آخَرُ حَصَلَ بَعْدَ خَلقِ الأرضِ، وهو خَلْقُ أجزاءٍ تَتَّصِلُ بها؛ إمَّا من جِنسِها كالجبالِ، وإمَّا مِن غيرِ جِنسِها كالأقواتِ؛ ولذلك أعقَبَ بقَولِه: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ بَعْدَ قولِه: ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٣)، وقد رَدَّ هذا القولَ الألوسيُّ، والله أعلمُ.

بخِلافِ الرِّمالِ والكُثبانِ، وحُذِفَ المَوصوفُ (جِبالًا)؛ لِدَلالةِ الصِّفةِ عليه[1].

- قولُه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ جَمْعُ الأقواتِ مُضافًا إلى ضَميرِ الأرضِ يُفيدُ العُمومَ، أيْ: جَميعَ أقواتِها، وعُمومُه باعتِبارِ تَعدُّدِ المُقتاتينَ؛ فلِلدَّوابِّ أقواتٌ، ولِلطَّيرِ أقواتٌ، ولِلوحوشِ أقواتٌ، ولِلزَّواحِفِ أقواتٌ، ولِلحَشَراتِ أقواتٌ، وجَعَل لِلإنسانِ جَميعَ تلك الأقواتِ مِمَّا استَطابَ منها، كما أفادَه قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[2] [البقرة: ٢٩].

- وقد فَصَّل مِقدارَ ما خَلَق الأرضَ فيه، ومِقدارَ ما خَصَّ الأقواتَ والمنافِعَ؛ لإحاطةِ العِلمِ بأنَّه يخُصُّ كُلَّ أمرٍ مِن الأمْرَينِ يَومانِ، ونَصَّ على الأوَّلَينِ؛ لِيَكونَ ذلك أدَلَّ على القُدرةِ، فيَحسُنَ مَوقِعُ النَّعيِ عليهم بما فَصَّل به الآيتَينِ مِن اتِّخاذِ الأندادِ، وإنَّما كان أدَلَّ على القُدرةِ؛ لأنَّه إيجادُ ذواتٍ مَحسوسةٍ مِن العَدَمِ قائمةٍ بأنفُسِها، بخِلافِ البَرَكةِ وتقديرِ الأقواتِ؛ فإنَّه أمرٌ لا يقومُ بنَفْسِه، فلَم يُفرِدْ يومَيْه بالذِّكرِ، بل جعَلَهما تابِعَينِ، كما أنَّ ما قَدَّرَ فيهما تابِعٌ[3].

- قولُه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يَتنازَعُه كلٌّ مِن أفعالِ (جعَلَ) و(بارَكَ) و(قدَّرَ)؛ فيكونُ ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ جمْعَ سائلٍ، بمعنى الطَّالبِ للمَعرفةِ، ويجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بمَحذوفٍ، أي: بيَّنَّا ذلك للسَّائلينَ عن مُدَّةِ خلْقِ الأرضِ وما فيها. ويجوزُ أنْ يكونَ لـ ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ مُتعلِّقًا بفِعلِ (قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا)، فيكونَ المُرادُ بالسَّائلينَ الطَّالبينَ للقُوتِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٤٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾

- حَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ لِلتَّرتيب الرُّتبيِّ؛ لِتَفاوُتِ ما بيْنَ الخِلقتَيْن، لا لِلتَّراخي في المُدَّة؛ لِقَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، وهي تدُلُّ على أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المَعطوفةِ أهَمُّ مَرتَبةً مِن مَضمونِ الجُملةِ المَعطوفِ عليها؛ فإنَّ خَلقَ السَّمَواتِ أعظَمُ مِن خَلقِ الأرضِ، وعَوالِمَها أكثَرُ وأعظَمُ؛ فجِيءَ بحَرفِ التَّرتيبِ الرُّتبيِّ بَعدَ أنْ قُضِيَ حَقُّ الاهتِمامِ بذِكرِ خَلقِ الأرضِ حتَّى يُوَفَّى المُقتَضَيانِ حَقَّهما، وتَرقِّيًا مِن الأدْنى إلى الأعلى؛ لأنَّ الكلامَ مع المُعانِدينَ المُتمرِّدينَ. وقيل: (ثُمَّ) لِتَرتيبِ الخبَرِ على الخبَرِ؛ أخبَرَ أوَّلًا بخلْقِ الأرضِ، ثمَّ أخبَرَ بخلْقِ السَّماءِ[1].

- قيل: إنَّما خَصَّ الاستواءَ بالسَّماءِ في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ -مع أنَّ الخِطابَ المُترَتِّبَ عليه مُتوَجِّهٌ إليها وإلى الأرض مَعًا، حَسبَما يَنطِقُ به قولُه تعالَى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾-؛ اكتِفاءً بذِكرِ تَقديرِها وتَقدير ما فيها، كأنَّه قيلَ: فقال لها ولِلأرضِ الَّتي قَدَّرَ وُجودَها ووُجودَ ما فيها: ﴿ٱئْتِيَا﴾[2].

- قولُه: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ كِنايةٌ عن عَدَمِ البُدِّ من قَبولِ الأمْرِ، وتَمكُّنِ القُدرةِ مِن إيجادِهما على وَفقِ إرادةِ اللهِ تَعالى[3]، والمَقصودُ من هذه الآيةِ التَّعبيرُ عن عَظَمةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ ونُفوذِها في المَقدوراتِ دَقَّتْ أو جَلَّتْ، ووُجوبِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٧٧، ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٧).

وُقوعِ مُرادِه تعالى(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾

- قولُه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ تفسيرٌ وتَفصيلٌ لِتكوينِ السَّماءِ المُجمَلِ المُعبَّرِ عنه بالأمْرِ وجَوابِه، لا أنَّه فِعلٌ مُتَرَتِّبٌ على تَكوينِها، أيْ: خَلَقهنَّ خَلقًا إبداعيًّا، وأتقَن أمْرهنَّ حَسبَما تَقتَضيه الحِكمةُ(٢). وهو أيضًا تَفريعٌ على قولِه: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا﴾(٣) [فصلت: ١١].

- وضَميرُ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ عائدٌ إلى السَّمواتِ على اعتِبارِ تَأنيثِ لَفظِها، وهذا تَفَنُّنٌ(٤).

- في قَولِه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ فقد أسنَدَ التَّزيينَ إلى ذاتِه سُبحانَه؛ تَجديدًا لِنَشاطِ السَّامِعينَ؛ لِطُولِ استِعمالِ طَريقِ الغَيبةِ ابتِداءً مِن قَولِه: ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ٩]، مع إظهارِ العِنايةِ بتَخصيصِ هذا الصُّنعِ الَّذي يَنفَعُ النَّاسَ دِينًا ودُنيا، وهو خَلقُ النُّجومِ الدَّقيقةِ والشُّهُبِ بتَخْصيصِه بالذِّكرِ مِن بيْنِ عُمومِ ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾، فما السَّماءُ الدُّنيا إلَّا مِن جُملةِ السَّمواتِ، وما النُّجومُ والشُّهُبُ إلَّا مِن جُملةِ أمْرِها(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٣٨).

- قولُه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ المُرادُ بالمَصابيحِ: النُّجومُ، وعُبِّرَ عنها بذلك؛ لِمَا يَبدو مِن نُورِها كالمَصابيحِ[1].

- وذِكرُ صِفتَي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ لِمُناسَبةِ مَعناهما للتَّعلُّقِ بنِظامِ سَيرِ الكواكبِ؛ فالعِزَّةُ تُناسِبُ تَسخيرَ هذا الكوكبِ العظيمِ، والعِلْمُ يُناسِبُ النِّظامَ البديعَ الدَّقيقَ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢١) و (٢٤/ ٢٥٢).

الآيات (١٢-١٨)

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ١٦ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٧ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ١٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَٰعِقَةٗ﴾: الصَّاعِقةُ: هي الصَّوتُ الشَّديدُ مِن الجوِّ، ثمَّ يكونُ منه نارٌ فقط، أو عذابٌ، أو موتٌ، وقيل: الصَّاعقةُ: كلُّ عَذابٍ مُهلِكٍ، أو: هي اسمٌ للعذابِ على أيِّ حالٍ كان، وأصلُ (صعق): يدُلُّ على شِدَّةِ الصَّوتِ[١].

﴿صَرۡصَرٗا﴾: أي: شَديدةَ البَردِ والصَّوتِ، والصَّرصَرُ: الرِّيحُ العاصِفةُ التي يكونُ لها صَرصَرةٌ، أي: دَوِيٌّ في هُبوبِها؛ مِن شِدَّةِ سُرعةِ تنقُّلِها، مأخوذٌ مِن الصِّرِّ: وهو البَردُ الذي يَصُرُّ، أي: يَجمَعُ ويَقبِضُ[٢].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٠٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤- ٤٨٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣٢).

قال ابن جرير: (وأصْلُ الصَّاعِقةِ: كُلُّ أمْرٍ هائِلٍ رآه أو عايَنَه أو أصابَه، حتى يَصيرَ مِن هَوْلِه وعَظيمِ شَأْنِه إلى هَلاكٍ وعَطَبٍ، وإلى ذَهابِ عَقلٍ وغُمورِ فَهْمٍ، أو فَقْدِ بَعضِ آلاتِ الجِسمِ، صَوتًا كان ذلك، أو نارًا، أو زَلزَلةً، أو رَجْفًا). ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، =

﴿نَّحِسَاتٍ﴾: أي: نَكِداتٍ مَشؤوماتٍ، وأصلُ (نحس): يدُلُّ على خِلافِ السَّعدِ[(١)].

﴿ٱلْخِزْيِ﴾: أي: الهَوانِ والذُّلِّ، وأصلُ الخِزْيِ: الإبعادُ[(٢)].

﴿ٱلْهُونِ﴾: أي: الهَوانِ والخِزْيِ والذُّلِّ، وأصْلُ (هون) هنا: يدُلُّ على الذُّلِّ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُهدِّدًا المشركينَ: فإنْ أعرَضَ مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- عن الحَقِّ الذي دَعوتَهم إليه، فقُلْ لهم: أنذَرْتُكم عَذابًا شَديدًا يَستأصِلُكم، كالعَذابِ الذي أهلَكَ اللهُ به عادًا وثَمودَ حينَ جاءَتْهم رُسُلُ اللهِ مِن كلِّ جانبٍ، واجتَهدوا في تبليغهم مِن كلِّ جِهةٍ بألَّا تَعبُدوا إلَّا اللهَ وَحْدَه لا شَريكَ له. قالوا: لو شاء ربُّنا عِبادَتَه وَحْدَه لأرسَلَ إلينا مَلائِكةً مِن السَّماءِ يأمُرونَنا بذلك، فإنَّا كافِرونَ بتَوحيدِ الله الذي أرسَلَكم به!

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٥/ ٣٣٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٢).

ثمَّ يقولُ تعالى -مُفصِّلًا حالَ كلٍّ مِن عادٍ وثمودَ-: فأمَّا عادٌ فتكَبَّروا في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ، وقالوا: لا أحَدَ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً!

ثمَّ يردُّ اللهُ تعالى عليهم، فيقولُ: أوَلَم يرَوا أنَّ اللهَ الذي خلَقَهم من العَدَمِ هو أشَدُّ منهم قُوَّةً؟! وكان أولئك الكُفَّارُ جاحِدينَ بآياتِ اللهِ.

ويَذكُرُ سبحانَه ما نزَل بهم مِن العذابِ، فيقولُ: فأرسَلْنا عليهم رِيحًا عظيمةً شَديدةَ البَردِ والصَّوتِ في أيَّامٍ مَشؤُوماتٍ عليهم؛ لكي نُذيقَهم العذابَ الذي يُهينُهم ويُذِلُّهم في الحياةِ الدُّنيا، ولَعَذابُ الآخِرةِ أشَدُّ خِزيًا وإهانةً وإذلالًا لهم!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى حالَ ثمودَ وما نزَل بهم مِن العذابِ، فيقولُ: وأمَّا ثَمودُ فأرشَدْناهم إلى طَريقِ الحَقِّ فآثَروا الكُفرَ على الإيمانِ، والضَّلالَ على الهُدى؛ فأهلَكَهم اللهُ بصَيحةِ العَذابِ المُذِلِّ المُهينِ؛ بسَبَبِ ما كانوا يَكسِبونَه مِن الآثامِ، ونجَّينا مِن العَذابِ صالِحًا والمؤمِنينَ معه المتَّقينَ رَبَّهم بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكلامَ إنَّما ابتُدِئَ مِن قَولِه تعالَى: ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [فصلت: ٦]، واحتجَّ عليه بقَولِه تعالَى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، وحاصِلُه أنَّ الإلهَ الموصوفَ بهذه القُدرةِ القاهِرةِ كيف يجوزُ الكُفرُ به، وكيف يجوزُ جَعْلُ هذه الأجسامِ الخَسيسةِ شُرَكاءَ له في الإلهيَّةِ؟! ولَمَّا تَمَّم تلك الحُجَّةَ قال: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾،

وبيانُ ذلك أنَّ وظيفةَ الحُجَّةِ قد تمَّتْ على أكمَلِ الوُجوهِ، فإنْ بَقُوا مُصِرِّينَ على الجَهلِ، لم يَبقَ حينئذٍ عِلاجٌ في حَقِّهم إلَّا إنزالُ العذابِ عليهم(١).

وأيضًا بعدَ أنْ أنكَرَ اللهُ عليهم عِبادةَ الأندادِ والأوثانِ، وطَلَب إليهم ألَّا يَعبُدوا إلَّا اللهَ الَّذي خَلَق السَّمواتِ والأرضَ، إلى غيرِ ذلك مِمَّا ذَكَر مِن دَلائِلِ ألوهيَّتِه ووَحدانيَّتِه، ثمَّ أعرَضوا عن كُلِّ ذلك؛ لم يَبقَ حينئذٍ طَريقٌ للعِلاجِ، ومِن ثَمَّ أمَرَ رَسولَه أن يُنذِرَهم بحُلولِ شَديدِ النِّقَمِ بهم إنْ هم أصَرُّوا على عِنادِهم(٢).

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ١٣﴾.

أي: فإنْ أعرَضَ مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- عن الحَقِّ فلم يُؤمِنوا، وأصَرُّوا على باطِلِهم بعدَ هذا البَيانِ التَّامِّ في هذه الآياتِ التي دَلَّت على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ عِلمِه وقُدرتِه، وغَيرِها مِن صِفاتِ كَمالِه؛ فقُلْ لهم: حَذَّرْتُكم وخَوَّفْتُكم عَذابًا شَديدًا وَقعُه، فيُهلِكُكم ويَستأصِلُكم كالعَذابِ الذي أهلَكَ اللهُ به عادًا وثَمودَ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٤/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٨-١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٨).
ممَّن اختارَ في الجُملةِ أنَّ الـمُرادَ بالصَّاعِقةِ هنا: العَذابُ الشَّديدُ والهَلاكُ: مقاتِل بن سُليمان، والسَّمرقندي، وابن أبي زَمنين، والواحدي، والسمعاني، والبَغوي، والزَّمخشري، وابن الجوزي، والرَّسْعني، والقُرطبي، والبقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي =

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: وذلك حينَ جاءتْ عادًا وثمودَ رُسُلُ اللهِ مِن كلِّ جانبٍ، واجتَهدوا في دَعوتِهم مِن كلِّ جِهةٍ بألَّا تَعبُدوا إلَّا اللهَ وَحْدَه لا شَريكَ له[(١)].

= (١٧/ ١٥٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

قال الشوكاني: (والمرادُ بالصَّاعقةِ العذابُ المُهْلِكُ مِنْ كلِّ شيءٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨).

وذكَر الزمخشري أنَّ الصَّاعِقةَ: العذابُ الشَّديدُ الوقْعِ الَّذي كأنَّه صاعِقةٌ. ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٩).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذكرُه: ...فقُلْ لهم: أنْذَرْتُكم أيُّها النَّاسُ صاعقةً تُهْلِكُكم مِثْلَ صاعقةِ عادٍ وثمودَ، ومعنَى الصَّاعِقَةِ: كلُّ ما أفسَد الشَّيءَ وغيَّرَه عن هَيْئَتِه. وقيل: في هذا الموضعِ عُنِيَ بها وقيعةٌ مِن اللَّهِ وعذابٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٥) بتصرف.

وقال ابنُ عُثَيمين: (الـمِثْليَّةُ هنا لا تَقتَضي -واللهُ أعلَمُ- الـمُماثَلةَ مِن كُلِّ وَجْهٍ، بل مِثليَّةٌ في أصْلِ الهَلاكِ، أو في مَآلِ العَذابِ، ويَحتَمِلُ أنَّ اللهَ تعالى أنذَرَهم مِثلَ صاعِقةِ عادٍ وثَمودَ، وصاعِقةُ عادٍ وثَمودَ نوعان: الرَّجفةُ والرِّيحُ الشَّديدةُ. الذين أُهلِكوا بالرِّيحِ الشَّديدةِ هُم عادٌ، والذين أُهلِكوا بالرَّجفةِ والصَّيحةِ هُم ثَمودُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ في قوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: الزمخشريُّ، والرَّسْعني، والنَّسَفي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣)، ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الرُّسل الَّذين أُرسلوا إلى آبائِهم مِن قَبْلهم، وأنَّ قوله: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني مِن بَعدِ الرُّسلِ الذين أُرسلوا إلى آبائهم، وهُم الرُّسُل الذين =

= أُرسلوا إليهم (هود وصالح، عليهما السلام، وغيرهما): ابن جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٤).

وعلى هذا القولِ فالضميرُ في قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾، لعادٍ وثمودَ، وفي قولِه: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ للرسلِ.

قال ابن عطية: (أما الطبري فقال: الضميرُ في قَولِه: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ عائدٌ على الرسلِ، والضميرُ في قَولِه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ على الأمم، وتابَعه الثعلبيُّ، وهذا غيرُ قويٍّ؛ لأنَّه يُفرِّقُ الضمائرَ ويُشعِّبُ المعنى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨).

وقيل: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يعني: مِن قَبْل عادٍ وثمودَ، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يعني: مِن بَعدِ عادٍ وثمودَ. وممن اختاره مقاتل بن سليمان، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٢١).

قال البيضاوي في بيانِ هذا الوجهِ: (أو: مِن قبلِهم ومِن بعدِهم؛ إذ قد بلَغهم خبرُ المتقدِّمينَ، وأخبَرهم هودٌ وصالحٌ عن المتأخرينَ، داعينَ إلى الإيمانِ بهم أجمعينَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨).

وقال الرازي: (فإنْ قِيلَ: الرُّسلُ الَّذينَ جاؤوا مِن قَبْلِهم ومِنْ بعدِهم، كيفَ يمكنُ وصفُهم بأنَّهم جاؤوهم؟ قُلْنا: قدْ جاءَهم هودٌ وصالحٌ داعِيَيْنِ إلى الإيمانِ بهما وبجَميعِ الرُّسلِ، وبهذا التَّقديرِ فكأنَّ جميعَ الرُّسلِ قدْ جاؤوهم). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥١).

وقيل: المعنى: أنذَرُوهم عَذابَ الدُّنيا وعذابَ الآخِرَةِ، وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمنين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٨).

وقال ابنُ عطية: (قولُه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: قد تقدَّموا في الزَّمنِ، واتَّصلتْ نذارتُهم إلى أعمارِ عادٍ وثمودَ، وبهذا الاتصالِ قامت الحُجَّةُ. وقولُه: «مِنْ خَلْفِهِمْ»، أي: جاءهم رسولٌ بعدَ اكتِمالِ أعمارِهم، وبعدَ تقدُّم وجودِهم في الزمنِ؛ فلذلك قال: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، وجاء مِن مجموعِ العِبارةِ إقامةُ الحُجَّةِ عليهم في أنَّ الرِّسالةَ والنِّذارةَ عمَّتهم خبرًا ومُباشَرةً، ولا يتوجَّهُ أنْ يُجعَلَ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ عِبارةً عمَّا أتَى بعدَهم في الزمنِ؛ لأنَّ ذلك لا يَلحقُهم منه تقصيرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨).

وقال الألوسي: (قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾، والضميرُ المضافُ إليه لعادٍ وثمودَ... وجُوِّز كونُ الضميرِ المضافِ إليه للرُّسلِ، والمرادُ: جاءتهم الرُّسُلُ =

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١].

﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾.

أي: قال كُفَّارُ عادٍ وثَمودَ لِرُسُلِهم حينَ دَعَوهم إلى تَوحيدِ اللهِ تعالى: لو شاء رَبُّنا أنْ يأمُرَنا بعِبادتِه وَحْدَه لأرسَلَ إلينا مَلائِكةً مِن السَّماءِ يأمُرونَنا بذلك، ولم يُرسِلْ إلينا بَشَرًا مِثْلَنا[1]!

كما قال تعالى عن قَومِ نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

= المتقدِّمونَ والمتأخِّرونَ، على تنزيلِ مجيءِ كلامِهم ودعوتِهم إلى الحقِّ منزلةَ مجيءِ أنفسِهم... وقال الطبريُّ: الضميرُ في قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ لعادٍ وثمودَ، وفي قولِه تعالى: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ للرُّسلِ، وتعقَّبه في البحرِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٣).

وقال البيضاوي: (﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أتَوْهُم مِن جميعِ جوانبِهم، واجتَهدوا بهم مِن كلِّ جهةٍ، أو مِن جهةِ الزمنِ الماضي بالإنذارِ عمَّا جرَى فيه على الكُفَّارِ، ومِن جِهةِ المستقبلِ بالتحذيرِ عمَّا أُعِدَّ لهم في الآخِرةِ، وكلٌّ مِن اللفظينِ يَحتمِلُهما، ... ويَحتمِلُ أنْ يكونَ عِبارةً عن الكثرةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٥).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا﴾ [التغابن: ٦].

﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

أي: فإنَّا -إذَنْ- كافِرونَ بتَوحيدِ اللهِ الذي زعَمْتُم أنَّه أرسَلَكم به، ولا نَتَّبِعُكم وأنتم بشرٌ مِثلُنا(١)!

كما قال تعالَى عن عادٍ قَومِ هُودٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وقال سُبحانَه عن ثمودَ قَومِ صالحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعْدَ أنْ حَكَى عن عادٍ وثَمودَ ما اشتَرَكَ فيه الأُمَّتانِ مِن المُكابَرةِ والإصرارِ على الكُفْرِ؛ فصَّلَ هنا بعضَ ما اختَصَّتْ به كلُّ أُمَّةٍ منهما مِن صُورةِ الكُفْرِ، وذكَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩).

مِن ذلك ما له مُناسَبةٌ لِمَا حَلَّ بكلِّ أُمَّةٍ منهما مِن العذابِ[١].

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: فأمَّا عادٌ فتكَبَّروا وتجَبَّروا وعَتَوْا في الأرضِ ظُلمًا دونَ أن يكونَ لهم الحَقُّ في ذلك[٢].

كما قال اللهُ سبحانَه حاكيًا ما قال لهم رسولُهم هودٌ عليه السلامُ: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠].

﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر لهم هذا الذَّنبَ العَظيمَ -وهو الاستِكبارُ- وكان فِعلًا قَلبيًّا؛ ذكَرَ ما ظَهَر عليهم مِن الفِعلِ اللِّسانيِّ المعَبِّرِ عَمَّا في القَلبِ، فقال[٣]:

﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

أي: وقالوا -ظَنًّا منهم أنَّهم يَمتَنِعونَ بقُوَّتِهم مِن عذابِ اللهِ، وأنَّه لا يَغلِبُهم أحَدٌ-: لا أحَدَ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً[٤]!

فقال الله تعالى، ردًّا عليهم[٥]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٨).

(٥) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

أي: أوَلَم يرَ كُفَّارُ عادٍ أنَّ اللهَ الَّذي خَلَقَهم مِنَ العَدَمِ -حيثُ لم يكونوا شَيئًا-، وأعطاهم ما أعطاهم مِنَ القُوَّةِ: هو أشَدُّ مِنهم قُوَّةً[١]؟!

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

أي: وكان كُفَّارُ عادٍ مُصِرِّينَ على الجُحودِ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على صِدقِ رُسُلِه فيما دَعَوْهم إليه مِنَ الحَقِّ[٢].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦)﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾.

أي: فأرسَلْنا عليهم رِيحًا عَظيمةً بارِدةً، شَديدةَ الصَّوتِ والهُبوبِ، في أيَّامٍ مَشؤوماتٍ عليهم، أصابَهم فيها سُوءٌ وعَذابٌ شَديدٌ؛ فأُهلِكوا فيها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٩).

قال السعدي: (فلولا خَلْقُه إيَّاهم لم يُوجَدوا، فلو نَظَروا إلى هذه الحالِ نظَرًا صَحيحًا لم يغتَرُّوا بقُوَّتِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: إنكارُ عَدَمِ عِلمِهم بأنَّ اللهَ أشَدُّ منهم قُوَّةً، حيثُ أعرَضوا عن رِسالةِ رَسولِ رَبِّهم وعن إنذارِه إيَّاهم إعراضَ مَن لا يكتَرِثُ بعَظَمةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّهم لو حَسَبوا لذلك حِسابَه لتوقَّعوا عذابَه، فلأقبَلوا على النَّظَرِ في دلائِلِ صِدقِ رَسولِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٧)، =

كما قال تبارَك وتعالَى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

وقال تعالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٩، ٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي: عَذَّبْناهم بذلك؛ لكي نُذيقَهم العذابَ الذي يُهينُهم ويُذِلُّهم ويَفضَحُهم في الحياةِ الدُّنيا[1].

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦، ١٧).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ: أنَّ تلك الأيَّامَ بخُصوصِها كانت نحسًا، وأنَّ نَحْسَها عليهم دونَ غيرِهم من أهلِ الأرضِ؛ لأنَّ عادًا هم المقصودونَ بالعَذابِ، وليس المرادُ أنَّ تلك الأيَّامَ مِن كُلِّ عامٍ هي أيَّامُ نَحسٍ على البَشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٩). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨).

وقال ابنُ عاشور أيضًا: (وُصِفتْ تِلك الأيَّامُ بأنَّها نَحِساتٌ؛ لِأنَّها لم يَحدُثْ فيها إلَّا السُّوءُ لهم مِن إصابةِ آلامِ الهَشمِ المُحَقَّقِ إفضاؤُه إلى المَوتِ، ومُشاهَدةِ الأمواتِ مِن ذَويهم، ومَوتِ أنعامِهم، واقتِلاعِ نَخيلِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٠١).

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

أي: ولَعذابُ الآخِرةِ أشَدُّ خِزْيًا، وأعظَمُ إهانةً وإذلالًا لهم، ولا يَنصُرُهم مِنَ اللهِ ناصِرٌ؛ فيدفَعَ عنهم عذابَه، أو يُنقِذَهم منه(١)!

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾.

أي: وأمَّا ثَمودُ فأرشَدْناهم ودَلَلْناهم على طَريقِ الحَقِّ(٢).

كما قال تعالَى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

أي: فاختاروا وآثَروا الكُفرَ على الإيمانِ، والضَّلالَ على الهُدَى، مع تَبيُّنِ الحَقِّ لهم(٣)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩).

قال ابنُ عاشور: (لَمَّا كان حالُ الأُمَّتَيْن واحِدًا في عدَمِ قَبولِ الإرشادِ مِن جانبِ اللهِ تعالى، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]، كان الإخبارُ عن ثمودَ بأنَّ اللهَ هداهم مُقتَضيًا أنَّه هدَى عادًا مِثلَما هدَى ثمودَ، وأنَّ عادًا استحَبُّوا العَمى على الهُدى مِثلَما استحبَّت ثمودُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((مفتاح دار =

﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

أي: فأهَلَكهم اللهُ بصَيحةِ عَذابٍ أذَلَّهم وأهانَهم بسَبَبِ ما كانوا يَكسِبونَه مِنَ الآثامِ؛ بكُفرِهم باللهِ، ومَعصيتِهم له، وتَكذيبِهم رَسولَه، وعَقْرِهم النَّاقةَ(١).

كما قال تعالَى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ❁ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللَّهُ سُبحانَه الوَعيدَ أرْدَفه بالوَعدِ(٢)، فقال تعالى:

﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ١٨﴾.

أي: ونَجَّينا مِن العَذابِ صالِحًا والمؤمِنينَ به مِن قَومِه الَّذين كانوا يَعبُدونَ اللهَ وَحْدَه، ويَمتَثِلونَ أمْرَه، ويجتَنِبونَ الشِّركَ به ومَعصيتَه(٣).

= السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩، ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٤، ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١، ٢٣، ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ هنا: نجاةُ المؤمنينَ مِن قومِ ثمودَ؛ صالحٍ عليه السَّلامُ ومَن اتَّبَعه مِن المؤمنينَ: القرطبيُّ، والخازن، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير =

كما قال تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ﴾ [هود: ٦٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قولِ اللهِ تعالَى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ إثباتُ أنَّ العَمَلَ كَسْبٌ للإنسانِ؛ لِقَولِه تعالَى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه إذا كان العَمَلُ كَسْبًا للإنسانِ فإنَّه يَجِبُ عليه بمُقتَضى العَقلِ -كما هو مُقتَضى الشَّرعِ- أنْ يَسعَى إلى الكَسبِ المفيدِ، لا إلى الكَسْبِ الضَّارِّ، كما كان يَفعَلُ في أُمورِ الدُّنيا؛ ولهذا ضَلَّ مَن ضَلَّ في عَقْلِه ودِينِه مَنِ احتجَّ بالقَدَرِ على معاصي اللهِ، ولم يَحتَجَّ بالقَدَرِ على أُمورِ الدُّنيا؛ ففي أمورِ الدُّنيا يَعمَلُ ويَكدَحُ ويَسعَى لِمَا فيه المَنفعةُ والمصلَحةُ، لكنْ في أُمورِ الآخِرةِ يَتكاسَلُ مُحتَجًّا بالقَدَرِ(١)؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَجوزُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُنذِرَ قَومَه مِثلَ صاعِقةِ عادٍ وثَمودَ، مع العِلمِ بأنَّ ذلك لا يَقَعُ في أُمَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقدْ صَرَّح اللهُ تعالَى بذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ [الأنفال:٣٣]، وجاء في الأحاديثِ الصَّحيحةِ أنَّ اللهَ تعالَى رفَعَ عن هذه الأُمَّةِ هذه الأنواعَ مِن الآفاتِ(٢)؟

= السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤).

وقيل: المرادُ بالآيةِ: إنجاءُ المؤمِنينَ مِن عادٍ وثمودَ. وممَّن قال بهذا: البقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ما أخرجه مسلمٌ (٢٨٨٩) من حديث ثوبان، و(٢٨٩٠) من حديث سعدِ بن أبي وقَّاص.=

الجوابُ: أنَّ سورةَ الأنفالِ مَدنيَّةٌ، وهذه مَكِّيَّةٌ(١).

وقيل: إنَّهم لَمَّا عَرَفوا كَونَهم مُشارِكينَ لعادٍ وثَمودَ في الكُفرِ، عَرَفوا كَونَهم مُشارِكينَ لعادٍ وثَمودَ في استِحقاقِ مِثلِ تلك الصَّاعِقةِ، وأنَّ السَّبَبَ المُوجِبَ للعَذابِ واحِدٌ، ورُبَّما يكونُ العَذابُ النَّازِلُ مِن جِنسِ ذلك العَذابِ، وإنْ كان أقَلَّ دَرَجةً منهم، وهذا القَدرُ يَكفي في التَّخويفِ(٢).

ويُمكِنُ القولُ بأنَّ آيةَ الأنفالِ أخبرَتْ عن امتِناعِ العذابِ وهو بيْنَ أَظْهُرِهم، أو وهُمْ يَستغفِرون، فإذا خرَج مِن بيْنَ أظْهُرِهم وانتفَى الاستِغفارُ منهم حَلَّ بهم العذابُ.

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ إثباتُ القِياسِ؛ لأنَّ إنذارَ المكذِّبين إذا لم يكُنِ المرادُ بذلك قِياسَ حالِ المكذِّبين للرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم على حالِ المكذِّبين لهودٍ وصالحٍ؛ لم يكُنْ لهذا الإنذارِ فائدةٌ! إذنْ ففيه جوازُ القِياسِ والاعتبارِ بالنظيرِ والمماثِلِ، ولقدْ قال اللهُ تعالَى في آيةٍ أُخرَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وإثباتُ القِياسِ دليلًا هو مِن محاسِنِ الشَّريعةِ؛ لأنَّ ذلك مُقتضَى العقلِ السَّليمِ؛ إذْ إنَّ العقلَ لا يمكنُ أبدًا أنْ يُفرِّقَ بينَ متماثِلَين، وعلى هذا؛ فالَّذين أنكروا القياسَ؛ وقالوا: لا قِياسَ في الشريعةِ خالفوا الدَّليلَ السَّمعيَّ، والدَّليلَ العَقليَّ(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أنَّ الرُّسُلَ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أتَوْا بتحقيقِ التوحيدِ، وهذا هو

= وما أخرجه أحمد (٢١٠٥٣) والنسائي (١٦٣٨) من حديث خبَّاب بن الأرَتِّ.

(١) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٣).

الأصلُ الأصيلُ الذي دَعَتْ إليه الرُّسُلُ جميعًا[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إنْ قِيل: الرُّسلُ الذين مِن قبْلِهم ومِن بَعدِهم -على قولٍ- كيفَ يُوصَفونَ بأنَّهم جاؤوهم، وكيف يُخاطِبونَهم بقولِهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، أيْ: نَكفُرُ بما جاءَ به كُلُّ الرُّسُلِ، مع أنَّ اللهَ أرسَلَ إليهم هُودًا وصالِحًا فَقَطْ؟

فالجوابُ: أنَّه قد جاءهم هُودٌ وصالِحٌ داعيَيْنِ إلى الإيمانِ بهما وبجَميعِ الرُّسُلِ مِمَّن جاؤوا مِن بَينِ أيديهم، أيْ: مِن قَبلِهم، ومِمَّن يَجيءُ مِن خَلفِهم، أيْ: مِن بَعدِهم، فكأنَّ الرُّسُلَ جَميعًا قد جاؤوهم، وقَولُهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ خِطابٌ منهم لِهُودٍ وصالِحٍ ولسائِرِ الأنبياءِ الذين دَعَوْا إلى الإيمانِ بهم[٢].

٥- أنَّ الملائكةَ يُقِرُّ بها عامَّةُ الأممِ؛ كما ذَكَر اللهُ عن قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ -مع شِرْكِهم وتكذيبِهم بالرُّسُلِ- أنهم كانوا يَعرِفون الملائكةَ، قال قومُ نوحٍ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾[٣].

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ هذه الشُّبهةُ لم تَزَلْ مُتوارَثةً بينَ المكذِّبينَ مِنَ الأُمَمِ، وهي مِن أَوهَى الشُّبَهِ؛ فإنَّه ليس مِن شَرطِ الإرسالِ أنْ يكونَ المُرسَلُ مَلَكًا، وإنَّما شَرطُ الرِّسالةِ أنْ يأتيَ الرَّسولُ بما يدُلُّ على صِدقِه؛ فلْيَقدَحوا إنْ استَطاعوا في صِدْقِهم بقادِحٍ عَقليٍّ أو شَرعيٍّ، ولنْ يَستطيعوا إلى ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣١٩).

سَبيلًا[(١)]! وهذه الشُّبهةُ ليستْ بحُجَّةٍ؛ بدليلِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩]، وحِينئذٍ لو أنزَل اللهُ عزَّ وجلَّ مَلَكًا لَجَعَله رجُلًا ولعادَتِ الشُّبهةُ[(٢)]، فلو بعَثَ اللهُ إلى البشَرِ رسولًا مَلَكيًّا لكان على هيئةِ الرجُلِ؛ لتُمْكِنَهم مُخاطَبَتُه، والانتفاعُ بالأخذِ عنه؛ لأنَّهم لا يستطيعونَ النَّظَرَ إلى الملائكةِ مِن شِدَّةِ النُّورِ، ولو كان كذلك لالْتبَس عليهم الأمرُ، كما هم يَلْبِسون على أنفُسِهم في قَبولِ رِسالةِ الرَّسولِ البشَريِّ. وهذه الآيةُ الكريمةُ مِن سورةِ (الأنعامِ) تدُلُّ على أنَّ الرسولَ يَنبغي أن يكونَ مِن نَوعِ المُرسَلِ إليهم، كما أشار تعالى إلى ذلك أيضًا بقولِه: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[(٣)] [الإسراء: ٩٥].

٧- أنَّ المُقِرَّ بالرُّبوبيَّةِ لا يُعَدُّ مُؤمِنًا حتَّى يُقِرَّ بالأُلوهيَّةِ؛ لقولِهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، وهكذا الكُفَّارُ الَّذين بُعِث فيهم الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانوا مُقِرِّينَ بالرُّبوبيَّةِ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[الزخرف: ٩]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[الزخرف: ٨٧]، ولكنَّ الإيمانَ بالرُّبوبيَّةِ لا يَكفي في كونِ الإنسانِ مُسلِمًا! لا بُدَّ مِن الإيمانِ بالأُلوهيَّةِ إضافةً إلى الإيمانِ بالرُّبوبيَّةِ[(٤)].

٨- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ قَولُه تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هذه ليسَتْ صِفةً مُقيِّدةً، ولكِنَّها صِفةٌ كاشِفةٌ؛ لأنَّ كُلَّ استكبارٍ في

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٧٢) و (٣/ ١٨٦) و (٦/ ٣٣٥-٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٥).

الأرضِ هو بغيرِ الحقِّ؛ فالاستكبارُ لا يَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ، بل هو قِسْمٌ واحِدٌ، ويُسمَّى مِثْلُ هذا القَيدِ صِفةً كاشِفَةً، أي: تَكْشِفُ ما سَبَقَ، وتُبَيِّنُ حَقيقتَه[١].

٩- مَجامِعُ الخِصالِ الحَميدةِ: الإحسانُ إلى الخَلْقِ، والتَّعظيمُ لِلخالِقِ؛ فقَولُه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مُضادٌّ لِلإحسانِ إلى الخَلْقِ، وقَولُه: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ مُضادٌّ لِلتَّعظيمِ لِلخالِقِ، وإذا كان الأمْرُ كذلك، فهُم قدْ بَلَغوا في الصِّفاتِ المَذمومةِ المُوجِبةِ لِلهَلاكِ والإبطالِ إلى الغايةِ القُصْوى؛ فلهذا المعنَى سَلَّطَ اللهُ العَذابَ عليهم، فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ حِكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ بأخْذِهم بالعذابِ، حيثُ أُخِذوا بما هو ألطفُ الأشياءِ، وهو الرِّيحُ، الرِّيحُ اللَّطيفةُ الَّتي يكونُ بها إنعاشُ البَدَنِ وتقويتُه ونشاطُه؛ هي التي أَهْلَكَ بها عادًا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[٣].

١١- قَولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وقَولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فيه الاستِدلالُ بالأثَرِ على المُؤَثِّرِ وأنَّه أكمَلُ، وهكذا كُلُّ ما في المَخلوقاتِ مِن قُوَّةٍ وشِدَّةٍ تَدُلُّ على أنَّ اللهَ أقوى وأشَدُّ، وما فيها مِن عِلمٍ يَدُلُّ على أنَّ اللهَ أعلَمُ، وما فيها مِن حَياةٍ يَدُلُّ على أنَّ اللهَ أَوْلَى بالحَياةِ[٤].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فيه جَوازُ عَقْدِ المفاضَلةِ بينَ الخالقِ والمخلوقِ في مَقامِ المُحاجَّةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ مع أنَّه سُبحانَه أَشَدُّ مِن كلِّ أحدٍ، لكِنَّ المقامَ مَقامُ مُحاجَّةٍ، ومقامُ المُحاجَّةِ لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٥٧).

بأس أنْ تُذكَرَ فيه المفاضَلةُ بين المُفَضَّلِ والمُفَضَّلِ عليه، ونظيرُ هذا -بل أبلغُ منه- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وليس في أصنامِهم خيرٌ، لكنْ هذا مِن بابِ المُحَاجَّةِ، وأنَّ الإنسانَ يُحَاجُّ الخَصْمَ بما يُقِرُّ به(١).

١٣- في قَولِه تعالَى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ إضافةُ النَّحْسِ إلى الأيامِ، وأنَّه لا بأسَ به، كما قال لوطٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، وهذا إذا كان المرادُ به مُجَرَّدَ الخَبرِ، كما هنا، وأمَّا إذا كان المرادُ به العَيبَ والسَّبَّ فإنَّه لا يَجوزُ(٢).

١٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾، وقال أيضًا: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ [القمر: ١٩] ما يَذكُرُه بَعضُ أهلِ العِلمِ مِن أنَّ يَومَ النَّحسِ المُستَمِرِّ هو يومُ الأربعاءِ الأخيرِ مِن الشَّهرِ، أو يَومُ الأربعاءِ مُطلَقًا، حتَّى إنَّ بَعضَ المُنتَسِبينَ لطَلَبِ العِلمِ، وكثيرًا مِن العوامِّ صاروا يتشاءَمونَ بيَومِ الأربعاءِ الأخيرِ مِن كلِّ شَهرٍ، حتَّى إنَّهم لا يُقدِمونَ على السَّفَرِ والتَزَوُّجِ ونحوِ ذلك فيه، ظانِّينَ أنَّه يومُ نَحسٍ وشُؤمٍ، وأنَّ نَحسَه مُستَمِرٌّ على جميعِ الخَلقِ في جميعِ الزَّمَنِ: لا أصلَ له ولا مُعَوَّلَ عليه، ولا يَلتَفِتُ إليه مَن عِندَه عِلمٌ؛ لأنَّ نَحْسَ ذلك اليَومِ مُستَمِرٌّ على عادٍ فقط، الذين أهلَكَهم اللهُ فيه؛ فاتَّصَل لهم عذابُ البَرزخِ والآخِرةِ بعَذابِ الدُّنيا، فصار ذلك الشُّؤمُ مُستَمِرًّا عليهم استِمرارًا لا انقِطاعَ له(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠١).

وينظر ما أخرجه البخاري (٦١٨١) (٦١٨٢) ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في النهي عن سب الدهر.

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨).

١٥- قال اللهُ تعالَى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ هذا هُدًى بعدَ البَيانِ والدَّلالةِ، وهو شَرْطٌ، لا مُوجِبٌ؛ فإنَّه إنْ لم يقترِنْ به هُدًى آخَرُ بَعدَه لم يَحصُلْ به كَمالُ الاهتِداءِ، وهو هُدى التَّوفيقِ والإلهامِ(١)؛ فهدايةُ البيانِ والدَّلالةِ -التي أقام اللهُ بها حُجَّتَه على عِبادِه- لا تَستَلْزِمُ الاهتداءَ التَّامَّ(٢).

١٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ﴾ عِقابُهم كان عِقابًا مُناسِبًا للجُرْمِ؛ لأنَّهم استَحَبُّوا الضَّلالَ الذي هو مِثلُ العَمَى، فمَن يَستَحِبَّه فشَأنُه أن يُحِبَّ العَمَى، فكان جزاؤُهم بالصَّاعِقةِ؛ لأنَّها تُعمي أبصارَهم في حينِ تُهلِكُهم؛ قال تعالَى: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾(٣) [البقرة:٢٠].

١٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ﴾ عبَّرَ عن الهلاكِ الذي أهلَكَ به ثَمودَ بعِباراتٍ مُختَلفةٍ؛ فذَكَرَه هنا باسمِ (الصَّاعِقةِ)، وكذا في قَولِه: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣]، وعَبَّرَ عنه أيضًا بالصَّاعقةِ في قولِه تعالَى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٣، ٤٤]، وعبَّرَ عنه بالصَّيحةِ في آياتٍ أُخرَى مِن كِتابِه، كقَولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۞ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨]، وعَبَّرَ عنه بالرَّجفةِ في قَولِه تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨]، وعبَّرَ عنه بالتَّدميرِ في

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٢).

قولِه سُبحانَه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١]، وعبَّرَ عنه بالطَّاغيةِ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]، وعبَّرَ عنه بالدَّمدَمةِ في قولِه تعالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وعبَّرَ عنه بالعَذابِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الشعراء: ١٥٧، ١٥٨]، ومعنى هذه العِباراتِ كُلِّها راجِعٌ إلى شَيءٍ واحِدٍ، وهو أنَّ الله أرسَلَ عليهم صَيحةً أهلَكَتْهم، والصَّيحةُ: الصَّوتُ المُزعِجُ المُهلِكُ. والصَّاعِقةُ تُطلَقُ أيضًا على الصَّوتِ المُزعِجِ المُهلِكِ، وعلى النَّارِ المُحرِقةِ، وعليهما معًا؛ ولشِدَّةِ عِظَمِ الصَّيحةِ وهَولِها مِن فَوقِهم رَجَفَت بهم الأرضُ مِن تحتِهم، أي: تحَرَّكَت حَرَكةً قَويَّةً؛ فاجتمع فيها أنَّها صَيحةٌ وصاعِقةٌ ورَجفةٌ، وكونُ ذلك تدميرًا واضِحٌ. وقيل لها: طاغِيةٌ؛ لأنَّها واقِعةٌ مُجاوِزةٌ للحَدِّ في القُوَّةِ وشِدَّةِ الإهلاكِ(١).

١٨- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ﴾ فيه الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ الذين قالوا: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه؛ لأنَّ «استحَبُّوا» تدلُّ على اختيارِهم لهذا الشَّيءِ، وأنَّهم آثَرُوه على الهُدى(٢).

١٩- قولُه تعالَى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ؛ والباءُ هنا للسَّببيَّةِ. واعلمْ أنَّ اللهَ تعالَى لن يَحْكُمَ حُكْمًا شرعيًّا ولا حُكْمًا قَدَرِيًّا ولا حُكْمًا جزائيًّا إلَّا لسببٍ، وهذه قاعِدةٌ: لن يَحْكُمَ حُكْمًا شرعيًّا -كالإيجابِ والتحريمِ والإباحةِ-؛ ولا قَدَرِيًّا -كالخَلْقِ والتكوينِ-؛ ولا جزائيًّا إلَّا لسببٍ، نَعْلَمُ ذلك عِلْمَ اليقينِ، ونأخذُه مِن أنَّ اللهَ تعالى حَكيمٌ؛ والحَكيمُ هو الذي يَضَعُ الأشياءَ مواضعَها، لا يمكنُ أنْ يكونَ فِعْلُ اللهِ فَلْتَةً ولا صُدْفَةً، ولا لَغْوًا ولا لَعِبًا، بل لا بُدَّ له مِن سببٍ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١-٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١١).

اقتضاه، لكنْ ليس كلُّ سَبَبٍ اقتضَى حُكْمَ اللهِ يكونُ معلومًا للخَلْقِ! لأنَّ الخَلْقَ أَعْجَزُ مِن أنْ يُدْرِكوا حِكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وكم مِن أحكامٍ شرعيةٍ وكونيةٍ وجزائيةٍ لا نَعْلَمُ حِكْمَتَها؛ لأنَّنا أَقْصَرُ مِن أنْ نُحِيطَ بحكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[١]!

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أنَّ الإيمانَ والتقوَى سببٌ للنَّجاةِ، ومِثلُه قولُه تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزمر: ٦١]، وفيه أيضًا أنَّ الإيمانَ وحدَه لا يكفي؛ بل لا بُدَّ مِن إيمانٍ وتقوَى[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ مُتَّصِلٌ بقَولِه تَعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ ...﴾ إلخ، أيْ: فإنْ أعرَضُوا عنِ التَّدبُّرِ فيما ذُكِر مِن عَظائِمِ الأُمورِ الدَّاعيةِ إلى الإيمانِ، أو عنِ الإيمانِ بَعدَ هذا البَيانِ، فقُلْ لهم: أنْذَرْتُكم[٣].

- وبَعدَ أنْ قَرَعَتْهم الحُجَّةُ التي لا تَترُكُ لِلشَّكِّ مَسرَبًا إلى النُّفوسِ بَعدَها في أنَّ اللهَ مُنفَرِدٌ بالإلهيَّةِ؛ لأنَّه مُنفَرِدٌ بإيجادِ العَوالِمِ كُلِّها، وكانَ ثُبوتُ الوَحدانيَّةِ مِن شَأنِه أنْ يُزيلَ الرِّيبةَ في أنَّ القُرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ؛ لِأنَّهم ما كَفَروا به إلَّا لِأجْلِ إعلانِه بنَفْيِ الشَّريكِ عنِ اللهِ تَعالى، فلَمَّا استَبانَ ذلك كان الشَّأنُ أنْ يَفيئوا إلى تَصديقِ الرَّسولِ والإيمانِ بالقُرآنِ، وأنْ يُقلِعوا عن إعراضِهم المَحكيِّ عنهم بقَولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ...﴾ [فصلت: ٤] إلخ؛ فلذلك جُعِلَ استِمرارُهم على الإعراضِ بَعدَ تلك الحُجَجِ أمْرًا مَفروضًا كما يُفرَضُ المُحالُ؛ فجِيءَ في جانِبِه بحَرفِ (إنْ) الذي الأصْلُ فيه أنْ يَقَعَ في المَوقِعِ الذي لا جَزمَ فيه بحُصولِ الشَّرطِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧).

فمَعنى ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ ﴾: إنِ استَمَرُّوا على إعراضِهم بَعدَما هَدَيتَهم بالدَّلائِلِ البَيِّنةِ وكابَروا فيها؛ فالفِعلُ مُستَعمَلٌ في مَعنى الاستِمرارِ[(١)].

- وفي قَولِه: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ ﴾ التِفاتٌ؛ فقد خاطَبَهم أوَّلًا بقَولِه: ﴿أَئِنَّكُمۡ﴾ بَيْدَ أنَّهم لم يَأْبهوا لخِطابِه، ولم يَستَوعِبُوا نُصحَه؛ فالتَفَتَ مِنَ الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ لأنَّهم فَعَلوا الإعراضَ، فليس له إلَّا أنْ يُعرِضَ عن خِطابِهم؛ لِيَصِحَّ التَّلاؤُمُ، ويُناسِبَ اللَّفظُ المَعنى، وهذا مِن أرفَعِ أنواعِ البَلاغةِ وأرقاها، وكم لِلالتِفاتِ مِن أسرارٍ[(٢)]!

- وعُدِلَ عنِ المُضارِعِ المُستَقبَلِ إلى الماضي في قَولِه: ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ ما يُنذِرُهم به أمْرٌ مُتَحقِّقٌ لا مَندوحةَ عنه[(٣)].

- قَولِه: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾ حَقيقةُ الصَّاعِقةِ: نارٌ تَخرُجُ مع البَرقِ تُحرِقُ ما تُصيبُه، وتُطلَقُ على الحادِثةِ المُبيرةِ - أي: المُهلِكة- السَّريعةِ الإهلاكِ، ولَمَّا أُضيفَتْ ﴿صَٰعِقَةٗ﴾ هنا إلى عادٍ وثَمودَ، وعادٌ لم تُهلِكْهمُ الصَّاعِقةُ وإنَّما أهلَكَهمُ الرِّيحُ، وثَمودُ أُهلِكوا بالصَّاعِقةِ؛ فَقَدِ استعمَلَ الصَّاعِقةَ هنا بالمَعنيَينِ السابقَيْنِ؛ لقَصْدِ الإيجازِ، ولِيَقَعَ الإجمالُ ثم التَّفصيلُ بَعدُ بقَولِه: ﴿ فَأَمَّا عَادٞ ﴾ [فصلت: ١٥] إلى قَولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[(٤)] [فصلت: ١٧].

- وفي قولِه: ﴿مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾ خُصَّ بالذِّكرِ مِنَ الأُمَمِ المُهلَكةِ: عادٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣).

وثَمودُ؛ لِعِلْمِ قُرَيشٍ بحالِهما، ولِوقوعِهم على بِلادِهم في (اليَمَنِ) وفي (الحِجْرِ)(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

- الضَميرُ في ﴿جَآءَتْهُمُ﴾ عائِدٌ إلى عادٍ وثَمودَ باعتِبارِ عَدَدِ كُلِّ قَبيلةٍ منهما. وجَمْعُ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ هنا مِن بابِ إطلاقِ صِيغةِ الجَمعِ على الاثنَيْنِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والقَرينةُ واضحةٌ، وهو استِعمالٌ غيرُ عَزيزٍ، وإنَّما جاءهمْ رَسولانِ: هودٌ، وصالحٌ(٢).

- وقولُه: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ تَمثيلٌ لحِرْصِ رَسولِ كُلٍّ منهم على هُداهم، بحيثُ لا يَترُكُ وَسيلةً يَتوسَّلُ بها إلى إبلاغِهم الدِّينَ إلَّا تَوَسَّلَ بها، فمُثِّلَ ذلك بالمَجيءِ إلى كُلٍّ منهم تارةً مِن أمامِه وتارةً مِن خَلفِه، لا يَترُكُ له جِهةً، كما يَفعَلُ الحَريصُ على تَحصيلِ أمْرٍ أنْ يَتطلَّبَه ويُعيدَ تَطَلُّبَه، ويَستَوعِبَ مَظانَّ وُجودِه أو مَظانَّ سَماعِه. وقيل: أي: أنْذَروهم مِن وَقائعِ اللهِ فيمَن قبْلَهم مِن الأُمَمِ وعَذابِ الآخِرةِ؛ لأنَّ الرُّسُلَ إذا حَذَّروهم مِن وقائِعِ اللهِ فيمَن قَبلَهم مِنَ الأُمَمِ، وحَذَّروهم مِن عَذابِ الآخِرةِ، فقد جاؤوهم بالوَعظِ مِن جِهةِ الزَّمَنِ الماضي، وما جَرى فيه على الكُفَّارِ، ومِن جِهةِ المُستَقبَلِ وما سَيَجْري عليهم. وقيل: ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: تَقدَّموا في الزَّمنِ، واتَّصلَت نِذارتُهم إلى أعمارِ عادٍ وثَمودَ، وبهذا الاتِّصالِ قامَتِ الحُجَّةُ. و(مِنْ خَلْفِهِمْ)، أي: جاءهمْ رسولٌ بعْدَ تَقدُّمِ وُجودِهم في الزَّمنِ، وجاءَ مِن مَجموعِ العِبارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣).

إقامةُ الحُجَّةِ عليهم في أنَّ الرِّسالةَ والنِّذارةَ عَمَّتْهم خَبَرًا ومُباشَرةً[١].

- وهذا التَّمثيلُ نَظيرُ الَّذي في قولِه تعالى حِكايةً عن الشَّيطانِ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٧]. وإنَّما اقتُصِرَ في هذه الآيةِ على جِهتَينِ، ولم تَستوعِبِ الجِهاتِ الأربعَ، كما مُثِّلَ حالُ الشَّيطانِ في وَسوستِه؛ لأنَّ المقصودَ هنا تَمثيلُ الحِرصِ فقطْ، وقد حصَلَ، والمَقصودُ في الحِكايةِ عن الشَّيطانِ تَمثيلُ الحِرصِ مع التَّلهُّفِ؛ تَحذيرًا منه، وإثارةً لِبُغْضِه في نُفوسِ النَّاسِ[٢].

- قولُه: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ حِكايةٌ لِجوابِ عادٍ وثَمودَ لِرَسولَيْهم، وقد كانَ جَوابًا مُتَماثِلًا؛ لأنَّه ناشِئٌ عن تَفكيرٍ مُتَماثِلٍ؛ فإنَّهم يَتصَوَّرونَ صِفاتِ اللهِ تعالَى وأفعالَه على غَيرِ كُنهِها، ويَقيسونَها على أحوالِ المَخلوقاتِ؛ ولذلك يَتَماثَلُ في هذا حالُ أهلِ الجَهالةِ؛ كما قال تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ * أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، أي: بلْ هم مُتماثِلون في الطُّغيانِ، أي: الكُفرِ الشَّديدِ، فتُمْلي عليهم أوهامُهم قَضايا مُتماثِلةً. ولكَونِ جَوابِهم جَرى في سِياقِ المُحاوَرةِ أتَتْ حِكايةُ قَولِهم غيرَ مَعطوفةٍ بأُسلوبِ المُقاوَلةِ؛ فإنَّ قَولَ الرُّسلِ لهم: (لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ) قد حُكِيَ بِفِعلٍ فيه دَلالةٌ على القولِ، وهو فِعلُ ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾؛ فقَولُهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ يَتَضمَّنُ إبطالَ رِسالةِ البَشَرِ عنِ اللهِ تَعالى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٤، ٢٥٥).

- ومَفعولُ ﴿شَآءَ﴾ في قولِه: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ مَحذوفٌ؛ دلَّ عليه السِّياقُ، والتقديرُ: لو شاء ربُّنا أنْ يُرسِلَ إلينا لَأنزَلَ مَلائكةً مِن السَّماءِ مُرسَلين إلينا. أو: لو شاء ربُّنا إنزالَ ملائكةٍ بالرِّسالةِ منه إلى الإنسِ لأنزلَهم بها إليهم، وهذا أبلغُ في الامتِناعِ من إرسالِ البَشرِ؛ إذ عَلَّقوا ذلك بأقوالِ المَلائكةِ، وهو لم يَشأْ ذلك؛ فكيف يشاءُ ذلك في البَشرِ؟! وقيل: التقديرُ: لوْ شاءَ رَبُّنا أنْ نُوحِّدَه، ولا نَعْبُدَ مِن دُونِه شَيئًا غَيرَه، لَأنزَلَ إلينا مَلائِكةً من السماءِ رُسلًا بما تَدْعونَنا أنتُم إليه، ولم يُرسِلْكم وأنتُم بشرٌ مِثلُنا، ولكنَّه رضِيَ عِبادتَنا ما نَعبُدُ؛ فلذلك لم يُرسِلْ إلينا بالنَّهيِ عن ذلك مَلائكةً، وهذا حذْفٌ خاصٌّ هو غيرُ حَذْفِ مَفعولِ فِعلِ المَشيئةِ الشَّائعِ في الكلامِ؛ لأنَّ ذلك فيما إذا كان المَحذوفُ مَدلولًا عليه بجوابِ (لو)، كقولِه تعالى: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، ونُكتتُه: الإبهامُ ثمَّ البَيانُ. وأمَّا الحذْفُ في هذه الآيةِ فهو لِلاعتِمادِ على قَرينةِ السِّياقِ والإيجازِ، وهو حذْفٌ عَزيزٌ لِمَفعولِ فِعلِ المَشيئةِ[1].

- وقَولُهم: ﴿أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ ليس بإقرارٍ بالإرسالِ، وإنَّما هو على كَلامِ الرُّسُلِ، وفيه تَهكُّمٌ، أي: بما أُرسِلْتُم على زَعْمِكم، كما قالَ فِرعَونُ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾[2] [الشعراء: ٢٧].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٤، ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٥).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨).

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤] المُقتضيةِ أنَّهم رَفَضوا دَعوةَ رَسُولَيهم ولم يَقبَلوا إرشادَهما واستِدلالَهما[١].

- وبدأ بِقِصَّةِ عادٍ؛ لأنَّها أقدَمُ زمانًا[٢].

- قولُه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ الاستِكبارُ: المُبالَغةُ في الكِبرِ، أيْ: التَّعاظُمُ واحتِقارُ الناسِ؛ فالسِّينُ والتاءُ فيه لِلمُبالَغةِ، والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لِلعَهدِ، أيْ: أرضِهم المَعهودةِ، وإنَّما ذَكَر مِن مَساويهم الاستِكبارَ؛ لأنَّ تَكبُّرَهم هو الذي صَرَفَهم عنِ اتِّباعِ رَسولِهم، وعن تَوَقُّعِ عِقابِ اللهِ[٣].

- وقولُه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زِيادةُ تَشنيعٍ لِاستِكبارِهم؛ فإنَّ الاستِكبارَ لا يَكونُ بِحَقٍّ؛ إذْ لا مُبَرِّرَ لِلكِبْرِ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ؛ لأنَّ جَميعَ الأُمورِ المُغْرِياتِ بالكِبْرِ، مِن العِلمِ، والمالِ، والسُّلطانِ، والقوَّةِ، وغيرِ ذلك؛ لا تُبلِغُ الإنسانَ مَبلَغَ الخُلوِّ عن النَّقصِ، وليس للضَّعيفِ الناقصِ حقٌّ في الكِبْرِ؛ ولذلك كان الكِبرُ مِن خَصائصِ اللهِ تعالى[٤].

- ولَمَّا كانَ اغتِرارُهم بقُوَّتِهم هو باعِثَهم على الكُفرِ، وكانَ قَولُهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ دَليلًا عليه، خُصَّ بالذِّكرِ، وإنَّما عُطِفَ بالواوِ مع أنَّه كالبَيانِ لِقَولِه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ إشارةً إلى استِقلالِه بكَونِه مُوجِبَ الإنكارِ عليهم؛ لأنَّ قَولَهم ذلك هو بمُفرَدِه مُنكَرٌ مِن القَولِ، فذُكِرَ بالعَطفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على فِعلِ (استَكبَروا)؛ لأنَّ شَأنَ العَطفِ أنْ يَقتَضيَ المُغايَرةَ بيْن المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه، ولِيُعلَمَ أنَّه باعِثُهم على الاستِكبارِ بالسِّياقِ(١).

- وجُملةُ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ، والواوُ اعتِراضيَّةٌ، والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ. والاستِفهامُ إنكاريٌّ، والمَعنى: إنكارُ عَدَمِ عِلْمِهم بأنَّ اللهَ أشَدُّ منهم قُوَّةً؛ حيثُ أعْرَضوا عن رِسالةِ رَسولِ رَبِّهم، وعن إنذارِه إيَّاهم، إعراضَ مَن لا يكترِثُ بعَظَمةِ اللهِ تَعالى؛ لِأنَّهم لو حَسَبوا لذلك حِسابَه، لَتوقَّعوا عَذابَه؛ فلَأقبَلوا على النَّظَرِ في دَلائِلِ صِدقِ رَسولِهم(٢). وقيل: الهَمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، والواوُ حرْفُ عَطفٍ، وجُملةُ (لَمْ يَرَوْا) مَعطوفةٌ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ السِّياقُ، أي: أغفَلُوا وضَلُّوا ولمْ يَرَوْا(٣).

- وإجراءُ وَصْفِ ﴿الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ على اسمِ الجَلالةِ؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإشارةِ إلى وَجهِ الإنكارِ عليهم؛ لِجَهلِهم بأنَّ اللهَ أقوى منهم؛ فإنَّ كَونَهم مَخلوقينَ مَعلومٌ لهم بالضَّرورةِ؛ فكانَ العِلْمُ به كافيًا في الدَّلالةِ على أنَّه أشَدُّ منهم قُوَّةً، وأنَّه حَقيقٌ بأنْ يَحسِبوا لِغَضَبِه حِسابَه؛ فيَنظُروا في أدِلَّةِ صِدقِ رَسولِه إليهم(٤). فأتَى بالموصولِ وصِلَتِه كالتعليلِ والدَّلالةِ على ضعفِهم أمامَ اللهِ عزَّ وجلَّ(٥).

- والضَّميرُ (هو) في قولِه: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ﴾ ضَميرُ فَصلٍ، وهو يُفيدُ تقويةَ الحُكمِ، بمَعنى وُضوحِه، وإذا كانَ ذلك الحُكمُ مُحقَّقًا كانَ عَدَمُ عِلْمِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٧).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير سورة العنكبوت)) لابن عثيمين (ص: ٩٧).

بمُقتَضاه أشنَعَ، وعُذرُهم في جَهلِه مُنتَفيًا[١].

- قولُه: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ دَلَّ فِعلُ (كانوا) على أنَّ التَّكذيبَ بالآياتِ مُتَأصِّلٌ فيهم، ودَلَّتْ صِيغةُ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿يَجْحَدُونَ﴾ على أنَّ الجَحدَ مُتكَرِّرٌ فيهم مُتَجَدِّدٌ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أشارَتِ الفاءُ إلى أنَّ عِقابَهم كانَ مُسَبَّبًا على حالةِ كُفرِهم بصِفَتِها؛ فإنَّ باعِثَ كُفرِهم كانَ اغتِرارَهم بقُوَّتِهم، فأهلَكَهمُ اللهُ بما لا يَترَقَّبُ الناسُ الهَلاكَ به؛ فإنَّ الناسَ يَقولونَ لِلشَّيءِ الذي لا يُؤبَهُ به: هو رِيحٌ؛ لِيُرِيَهم أنَّ اللهَ شَديدُ القُوَّةِ، وأنَّه يَضَعُ القُوَّةَ في الشَّيءِ الهَيِّنِ مِثلَ الرِّيحِ؛ لِيَكونَ عَذابًا وخِزيًا، أيْ: تَحقيرًا، كما قال: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وأيُّ خِزيٍ أشَدُّ مِن أنْ تَتَراماهم الرِّيحُ في الجَوِّ كالرِّيشِ، وأنْ تُلقيَهم هَلْكى على التُّرابِ عن بَكْرةِ أبيهم، فيُشاهِدَهمُ المارُّونَ بدِيارِهم جُثَثًا صَرْعى قد تَقَلَّصتْ جُلودُهم وبَلِيَتْ أجسامُهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[٣] [الحاقة: ٧]؟!

- قولُه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ الصَّرصَرُ: الرِّيحُ العاصِفةُ التي يَكونُ لها صَرصَرةٌ -أيْ: دَويٌّ في هُبوبِها- مِن شِدَّةِ سُرعةِ تَنَقُّلِها، وتَضعيفُ عَينِه (الراء)؛ لِلمُبالَغةِ في شِدَّتِها بيْن أفرادِ نَوعِها[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٩).

- قولُه: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ جمعُ (نَحِسةٍ) بكسرِ الحاءِ، صِفةٌ مشبَّهةٌ مِنْ (نَحِس) إذا أصابَه النَّحْسُ إصابَةَ سُوءٍ أوْ ضُرٍّ شَديدٍ، وقُرِئَ بالسُّكونِ ﴿نَحْسَاتٍ﴾[(١)]، فاحتَمل أنْ يكونَ مصدرًا وُصِف به مبالغةً، واحتَمل أنْ يكونَ صفةً مخفَّفًا مِن (فَعْلٍ)، كـ (صَعْبٍ)[(٢)].

- قولُه: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ اللَّامُ في ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ﴾ للتَّعليلِ، وهي مُتعَلِّقةٌ بـ (أرسَلْنا)[(٣)].

- والخِزْيُ: الذُّلُّ. وإضافةُ ﴿عَذَابَ﴾ إلى ﴿ٱلۡخِزۡيِ﴾ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ؛ بدَليلِ مُقابَلتِه بقَولِه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰ﴾، أي: أشدُّ إخزاءً مِن إخزاءِ عَذابِ الدُّنيا، وذلك باعتِبارِ أنَّ الخِزْيَ وصْفٌ للعَذابِ مِن بابِ الوَصْفِ بالمَصدرِ، أو اسمِ المَصدرِ؛ للمُبالَغةِ في كَونِ ذلك العذابِ مُخزِيًا للذي يُعذَّبُ به. ومعنى كَونِ العذابِ مُخزِيًا: أنَّه سبَبُ خِزْيٍ. ويُقدَّرُ قبْلَ الإضافةِ: لِنُذيقَهم عَذابًا خِزْيًا، أي: مُخزِيًا؛ فلمَّا أُرِيدَت إضافةُ المَوصوفِ إلى صِفَتِه، قِيل: ﴿عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ للمُبالَغةِ أيضًا؛ لأنَّ إضافةَ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ مُبالَغةٌ في الاتِّصافِ، حتَّى جُعِلَت الصِّفةُ بمَنزلةِ شَخصٍ آخَرَ يُضافُ إليه الموصوفُ، وهو قَريبٌ مِن مُحسِّنِ التَّجريدِ[(٤)]؛ فحصَلَت مُبالَغتانِ في

(١) قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو ويعقوبُ ﴿نَحْسَاتٍ﴾ ساكنةَ الحاءِ، وقرأ الباقون ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ بكسرِ الحاءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٠).

(٤) التجريد: هو اعتقادُ أنَّ في الشيءِ مِن نفْسِه معنًى آخَرَ كأنَّه مُباينٌ له، فيخرجُ ذلك إلى ألفاظِه بما اعتقَد ذلك؛ كقولِهم: لئن لقيتَ زيدًا لتلقيَنَّ معه الأسدَ؛ فظاهرُ هذا أنَّ فيه مِن نفْسِه أسدًا، وهو عينُه هو الأسدُ، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

قولِه: ﴿عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾: مُبالغةُ الوَصفِ بالمَصدرِ، ومُبالغةُ إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ(١).

- وجُملةُ ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰ﴾ احتراسٌ؛ لِئَلَّا يَحسَبَ السَّامِعونَ أنَّ حَظَّ أولئك مِنَ العِقابِ هو عَذابُ الإهلاكِ بالرِّيحِ؛ فعَطَفَ عليه الإخبارَ بأنَّ عَذابَ الآخِرةِ أخْزى، أيْ: لهم ولِكُلِّ مَن عُذِّبَ عَذابًا في الدُّنيا؛ لِغَضَبِ اللهِ عليه(٢).

- وجُملةُ ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ تذييلٌ، أيْ: لا يَنصُرُهم مَن يَدفَعُ العَذابَ عنهم، ولا مَن يَشفَعُ لهم، ولا مَن يُخرِجُهم منه بَعدَ مُهلةٍ(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ مَعطوفٌ على قولِه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾، وهما تَفصيلٌ لِمَا أُجمِلَ، ونَشرٌ لِمَا لُفَّ(٤) في قَولِه: ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٣، ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شَيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتملُ على متعدِّدٍ- ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به؛ فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ من السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مِثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجمالي. واللَّفُّ المُفصَّل يأتي النشرُ اللَّاحقُ له على وجهَيْن؛ الوجهُ الأوَّل: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّف، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنشر المرتَّبَ». الوجه الآخَر: =

﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤]؛ فإنَّ قولَه: ﴿فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ في مُقابِلِ ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ [فصلت: ١٤]، وقولَه: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ في مُقابِلِ ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ ...﴾ [فصلت: ١٤]، الآيةَ. والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ فَصيحةٌ تُفصِحُ عن مَحذوفٍ، أيْ: فهَدَيْناهُم فاستكبَروا؛ بدَلالةِ قَرينَتِها[١].

- وإنَّما نَصَّ على ثمودَ وإنْ كان جميعُ الأُمَمِ المُهلَكةِ قد قامتْ عليهم الحُجَّةُ، وحَصَل لهم البيانُ؛ لأنَّ آيةَ ثَمودَ آيةٌ باهِرةٌ قد رآها صَغيرُهم وكَبيرُهم، وذَكَرُهم وأُنثاهم، وكانتْ آيةً مُبصِرةً؛ فلهذا خَصَّهم بزيادةِ البَيانِ والهُدى[٢].

- قولُه: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ معناه: أَحَبُّوا؛ فالسِّينُ والتَّاءُ لِلمُبالَغةِ، أيْ: كانَ العَمى مَحبوبًا لهم[٣].

- وضُمِّنَ (استَحَبُّوا) مَعنى: فَضَّلُوا، وهَيَّأَ لهذا التَّضمينِ اقترانُه بالسِّينِ والتَّاءِ؛ لِلمُبالَغةِ؛ لأنَّ المُبالَغةَ في المَحبَّةِ تَستَلزِمُ التَّفضيلَ على بَقيَّةِ المَحبوباتِ؛ فلذلك عُدِّيَ (استحَبُّوا) بحَرفِ (على)، أيْ: رَجَّحوا باختيارِهم، وتَعليقُ ﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ بفِعلِ (استحَبُّوا)؛ لِتَضمينِه مَعنى: فَضَّلوا وآثَروا[٤].

= أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ«اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٩١، ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قَولِه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ شَبَّهَ الكُفرَ بالعَمى؛ لأنَّ الكافِرَ ضالٌّ عنِ القَصدِ، مُتعسِّفٌ الطَّريقَ كالأعمى، وشَبَّهَ الإيمانَ بالهُدى؛ لأنَّ المُؤمِنَ مُهتَدٍ إلى مَحَجَّةِ القَصدِ وسَواءِ السَّبيلِ، ثُمَّ حَذَفَ المُشَبَّهَ في كِلَيْهما، وأثبَتَ المُشَبَّهَ به[1].

- وقولُه: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ مُفَرَّعٌ على قَولِه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، فعُجِّلت العقوبةُ لهم؛ فالفاءُ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ، هذا وجهٌ، ووجهٌ آخرُ: أنَّ الفاءَ هنا للسَّبَبِيَّةِ؛ والمُسَبَّبُ يَعْقُبُ السَّبَبَ[2].

- وإضافةُ ﴿صَٰعِقَةُ﴾ إلى ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ في قولِه: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّها صاعِقةٌ تُعَرَّفُ بطَريقِ الإضافةِ؛ إذْ لا يُعرَّفُ بها إلَّا ما تُضافُ إليهِ، أيْ: صاعِقةٌ خارِقةٌ لِمُعتادِ الصَّواعِقِ؛ فهي صاعِقةٌ مُسَخَّرةٌ مِنَ اللهِ لِعَذابِ ثَمودَ؛ فإنَّ أصْلَ معنى الإضافةِ أنَّها بتَقديرِ لامِ الاختِصاصِ؛ فتَعريفُ المُضافِ لا طَريقَ له إلَّا بَيانُ اختِصاصِه بالمُضافِ إليه[3].

- قولُه: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ الهُونُ: الهوانُ؛ وُصِفَ العَذابُ بـ ﴿ٱلْهُونِ﴾؛ للمُبالَغةِ، أو أُبْدِلَ منه، ووَجهُ كَونِ العذابِ هَوانًا: أنَّه إهلاكٌ فيه مَذَلَّةٌ؛ إذِ استُؤصِلوا عن بَكرةِ أبيهم، وتُرِكوا صَرْعى على وَجهِ الأرضِ، أيْ: أخَذَتْهمُ الصَّاعِقةُ بسَبَبِ كَسبِهم في اختِيارِهمُ البَقاءَ على الضَّلالِ بإعراضِهم عن دَعوةِ رَسولِهم، وعن دَلالةِ آياتِه[4].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي =

- ويُعلَمُ مِن قَولِه في شَأنِ عادٍ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦] أنَّ لِثَمودَ عَذابًا في الآخِرةِ؛ لأنَّ الأُمَّتَيْنِ تَماثَلَتا في الكُفرِ؛ فلم يُذكَرْ ذلك هنا؛ اكتِفاءً بِذِكرِه فيما تَقدَّمَ، وهذا مُحَسِّنُ الاكتِفاءِ[١]، وهو مُحَسِّنٌ يَرجِعُ إلى الإيجازِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ قيل: إنَّه عَطفٌ على التَّفصيلِ في قَولِه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فصلت: ١٥]، وما عُطِفَ عليه مِن قَولِه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ [فصلت: ١٧]؛ لِأنَّ مَوقِعَ هاتِه الجُملةِ المُتَضمِّنةِ إنجاءَ المُؤمِنينَ مِنَ العَذابِ بَعدَ أنْ ذَكَرَ عَذابَ عادٍ وعَذابَ ثَمودَ؛ يُشيرُ إلى أنَّ المعنَى إنجاءُ الذين آمَنوا مِن قَومِ عادٍ وقَومِ ثَمودَ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ فمَضمونُ هذه الجُملةِ فيه مَعنى استِثناءٍ مِن عُمومِ أُمَّتَيْ عادٍ وثَمودَ، فيَكونُ لها حُكمُ الاستِثناءِ الوارِدِ بَعدَ جُمَلٍ مُتَعاقِبةٍ؛ أنَّه يَعودُ إلى جَميعِها[٣].

- وقَولُه: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، أيْ: كان سُنَّتُهم اتِّقاءَ اللهِ، والنَّظَرَ فيما يُنَجِّي مِن غَضَبِه وعِقابِه، وهو أبلَغُ في الوَصفِ مِن أنْ يُقالَ: والمُتَّقينَ[٤].

= السعود)) (٨/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٣).

(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّة؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذف، على سبيلِ الاكتفاءِ؛ إذِ التَّقْديرُ: تقيكُمُ الْحَرَّ والْبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦٣، ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦٤).

الآيات (١٩-٢٤)

﴿ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ
وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا
ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ
أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا
تَعۡمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ فَإِن
يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يُحۡشَرُ﴾: أي: يُجمعُ ويُساقُ، والحَشرُ: الجمعُ مع سَوْقٍ، وكلُّ جمعٍ حَشْرٌ، وقيل: هو الجمعُ بكثرةٍ، والحشرُ: إخراجُ الجَماعةِ عن مقرِّهم، وإزعاجُهم عنه إلى الحربِ ونحوِها[1].

﴿يُوزَعُونَ﴾: أي: يُدفَعونَ، ويُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، وأصلُ الوَزْعِ: يدُلُّ على الكَفِّ والمَنعِ[2].

﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾: أي: أهلَكَكم، والرَّدَى: الموتُ والهَلاكُ، وأصلُ (ردي): يدُلُّ على رَميٍ وتَرامٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦).

﴿مَثْوًى﴾: أي: مَنزِلٌ ومُقامٌ، وأصلُ الثَّواءِ: يدُلُّ على الإقامةِ مع الاستِقرارِ[١].

﴿يَسْتَعْتِبُوا﴾: أي: يَطلُبوا إزالةَ غَضَبِ رَبِّهم بالتَّوبةِ وصالحِ العَمَلِ؛ مِن الاستِعتابِ: وهو الرُّجُوعُ عَنِ الإساءَةِ، والتَّعَرُّضُ لِطَلَبِ الرِّضا، وأصلُ الكَلِمةِ مِن (العَتْبِ): وهو الغَضَبُ والمَلامةُ، يُقالُ: عتَبَ عليه يَعتِبُ: إذا غَضِبَ عليه ولامَه، وأعتبَه: إذا زالَ عنه عَتْبُه، واستَعْتَبَه: إذا طلَبَ منه الإعتابَ، أي: الرِّضا[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى -مبيِّنًا جانبًا مِن أحوالِ الكافرينَ يومَ القِيامةِ-: واذكُرْ يومَ يَجمَعُ اللهُ أعداءَه الكافِرينَ به، فيُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، فيُساقُونَ إلى النَّارِ سَوقًا عَنيفًا مُهينًا، حتى إذا جاء أولئك الكُفَّارُ النَّارَ شَهِدَ عليهم سَمعُهم وأبصارُهم وجُلودُهم بما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا مِن آثامٍ! وقالوا لجُلودِهم مُنكِرينَ عليهم: لم شَهِدْتُم علينا؟! فقالتْ جلودُهم: أنطَقَنا اللهُ الَّذي أنطَقَ كُلَّ شَيءٍ بقُدرتِه، وهو خَلَقَكم أوَّلَ مَرَّةٍ، وإليه تُرجَعونَ بعدَ مَوتِكم!

وما كُنتُم في الدُّنيا تَستَخْفونَ بتَرْكِ الكُفرِ والمعاصي مخافةَ أنْ يَشهَدَ عليكم سَمعُكم وأبصارُكم وجُلودُكم يومَ القِيامةِ، ولكِنْ ظَنَنتُم أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ كَثيرًا ممَّا تَعمَلونَ!

ثُمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سُوءَ عاقبةِ ظنِّهم، فيقولُ: وذلكم الظَّنُّ السَّيِّءُ الذي ظَنَنْتُموه

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٣).

بربِّكم أهلَكَكم فأصبَحتُم يومَ القِيامةِ مِنَ الخاسِرينَ الهالِكينَ.

فإنْ يَصبِرْ أولئك الكُفَّارُ على النَّارِ فالنَّارُ مُستَقَرٌّ لهم أبدًا، وإن يَطلُبوا مِنَ اللهِ الرِّضا عنهم وقَبولَ تَوبتِهم ومَعذِرتِهم، فلن يَرضَى عنهم، ولنْ يَقبَلَ تَوبتَهم ومَعذِرتَهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالَى كَيفيَّةَ عُقوبةِ أولئك الكُفَّارِ في الدُّنيا، أردَفَه بكَيفيَّةِ عُقوبةِ الكُفَّارِ أولئك وغَيرِهم في الآخِرةِ؛ ليحصُلَ منه تمامُ الاعتبارِ في الزَّجرِ والتَّحذيرِ[١].

وأيضًا لَمَّا فُرِغَ مِن مَوعِظةِ المُشرِكينَ بِحالِ الأُمَمِ المُكَذِّبةِ مِن قَبلِهم، وإنذارِهم بعَذابٍ يَحلُّ بهم في الدُّنيا كما حَلَّ بأولئك؛ لِيكونَ لهم ذلك عِبرةً؛ فإنَّ لاستِحضارِ النَّظائرِ أثَرًا في النَّفْسِ تَعتَبِرُ به ما لا تَعتَبِرُ بتَوصيفِ المَعاني العَقليَّةِ؛ انتُقِلَ إلى إنذارِهم بما سَيحِلُّ بهم في الآخِرةِ[٢].

﴿ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩ ﴾.

أي: واذكُرْ يومَ يَجمَعُ اللهُ أعداءَه الكافِرينَ به، فيُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم حتَّى يجتَمِعوا ويُساقوا إلى النَّارِ سَوقًا عَنيفًا[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤، ٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٦-١١٨). =

كما قال تعالَى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: حتَّى إذا جاء الكُفَّارُ النَّارَ شَهِدَ عليهم سَمعُهم وأبصارُهم وجُلودُهم بما كانوا يَعمَلونَ بها في الدُّنيا مِن آثامٍ(١).

= قال الشوكانيُّ: (ومعنَى حَشْرِهم إلى النَّارِ سَوْقُهم إليها، أوْ إلى موقفِ الحِسابِ؛ لأنَّه يَتَبَيَّنُ عندَه فريقُ الجنَّةِ، وفريقُ النَّارِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٦).

وقال ابنُ عطيةَ: (﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ هم الكفَّارُ المخالِفونَ لأمْرِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠).

وقال ابن عاشور: (و﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾: هم مُشْرِكو قُرَيشٍ؛ لأنَّهم أعداءُ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠).

وقال الشِّنقيطي: (أصلُ معنى ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يُكَفُّ أوَّلُهم عن التقدُّم، وآخِرُهم عن التأخُّرِ، حتى يجتَمِعوا جميعًا، وذلك يدُلُّ على أنَّهم يُساقُونَ سَوقًا عَنيفًا يُجمَعُ به أوَّلُهم مع آخِرِهم... ولعَلَّ الوَزْعَ المذكورَ في الآيةِ يكونُ في الزُّمرةِ الواحِدةِ مِن زُمَرِ أهلِ النَّارِ؛ لأنَّهم يُساقُونَ إلى النَّارِ زُمَرًا زُمَرًا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥).

وقال ابنُ عُثَيمين: (ولها معنًى آخَرُ أيضًا: يُساقون بالتوزيعِ، يعني: أنَّهم طوائفُ وأممٌ، كلَّما دخَلت أمَّةٌ لعَنتْ أختَها، فهُمْ يُوزعونَ بالسِّياقِ، أي: يُساقون، ويُوزَعون أيضًا بالتفريقِ، كلُّ أمَّةٍ وحدَها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

قال ابنُ الجوزي: (وفي المرادِ بالجُلودِ ثلاثةُ أقوالٍ: أحَدُها: الأيدي والأرجُلُ. والثاني: الفُروجُ. رُوِيَا عن ابنِ عبَّاسٍ. والثَّالثُ: أنَّه الجُلودُ نَفسُها. حكاه الماورديُّ) ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٦).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ عُمومُ الجُلودِ مِن جَسَدِ الإنسانِ: ابنُ جرير، واستظهره الماورديُّ، =

كما قال الله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾.

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ عِتابًا لجُلودِهم، وإنكارًا عليهم حينَ شَهِدَت عليهم: لِمَ شَهِدْتُم علينا بما كُنَّا نَعمَلُه مِنَ السَّيِّئاتِ في الدُّنيا[1]؟!

﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾.

أي: فأجابتِ الجُلودُ أصحابَها: أنطَقَنا اللهُ الذي أنطَقَ كُلَّ شَيءٍ بقُدرتِه ومَشيئتِه، فنطَقْنا بغَيرِ اختيارٍ مِنَّا[2]!

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالَى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ

= واختاره ابنُ عاشور، ونَسَبَه ابنُ عطية للجمهور، ونَسَبه القرطبيُّ لأكثرِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالجُلودِ هنا: الفُروجُ: الفَرَّاءُ، وأبو السعود. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠، ١١).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عباسٍ في رِوايةٍ عنه، وعُبَيدُ اللهِ بنُ أبي جَعفَرٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٨).

يَعۡمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥].

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا عِندَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فضَحِكَ، فقال: هل تَدرُونَ مِمَّ أضحَكُ؟! قُلْنا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ! قال: مِن مُخاطَبةِ العَبدِ رَبَّه؛ يقولُ: يا رَبِّ ألَمْ تُجِرْني مِنَ الظُّلمِ؟ قال: يقولُ: بلَى! قال: فيقولُ: فإنِّي لا أُجيزُ على نَفسي إلَّا شاهِدًا مِنِّي! قال: فيقولُ: كفَى بنَفسِك اليومَ عليك شَهيدًا، وبالكِرامِ الكاتِبينَ شُهودًا. قال: فيُختَمُ على فيه، فيُقالُ لأركانِه[1]: انطِقِي. قال: فتَنطِقُ بأعمالِه، ثم يُخلَّى بيْنَه وبيْنَ الكلامِ، قال: فيقولُ: بُعدًا لَكُنَّ وسُحقًا؛ فعَنْكنَّ كنتُ أُناضِلُ[2]!))[3].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في حديثِ الرُّؤيةِ الطَّويلِ، وفي آخِره أنَّ اللهَ يُحاسِبُ المنافِقَ: ((فيَقولُ: يا رَبِّ آمَنتُ بك وبِكتابِك وبرُسُلِك، وصَلَّيتُ وصُمتُ وتصَدَّقتُ، ويُثني بخَيرٍ ما استطاعَ! فيقولُ: ها هنا إذَنْ، ثمَّ يُقالُ له: الآنَ نَبعَثُ شاهِدَنا عليك! ويتفكَّرُ في نَفسِه: مَن ذا الذي يَشهَدُ عَليَّ؟! فيُختَمُ على فيه، ويُقالُ لِفَخِذِه ولَحمِه وعِظامِه: انطِقِي، فتَنطِقُ فَخِذُه ولَحمُه وعِظامُه بعَمَلِه؛ وذلك لِيُعذِرَ[4] من نَفسِه، وذلك المنافِقُ،

(١) لأركانِه: أي: لجوارِحِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٥).

(٢) أناضِلُ: أي: أُدافِعُ وأجادِلُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٥).

(٣) رواه مسلم (٢٩٦٩).

(٤) لِيُعذِرَ: مِنَ الإعذارِ، وهو إقامةُ الحُجَّةِ على أحَدٍ بحيثُ لا يَبقى له عُذرٌ، والمعنى: لِيُزيلَ اللهُ عُذرَه من قِبَلِ نَفسِه بكثرةِ ذُنوبِه وشَهادةِ أعضائِه عليه، بحيثُ لم يَبقَ له عُذرٌ يتمَسَّكُ به. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٢٩).

وذلك الَّذي يَسخَطُ اللهُ عليه))[١].

وعن مُعاويةَ بنِ حَيْدةَ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أوَّلُ ما يُعرِبُ[٢] عن أحَدِكم فَخِذُه))[٣].

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: واللهُ خلَقَكم أوَّلَ مَرَّةٍ ولم تكونوا شيئًا؛ فالذي قَدَر على ذلك قادِرٌ على إنطاقِ الجُلودِ[٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٨).

(٢) يُعرِبُ: أي: يَنطِقُ ويَتكَلَّمُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٠١).

(٣) أخرجه مُطَوَّلًا النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٣١)، وأحمد (٢٠٠١١) واللَّفظُ له.
حَسَّنه البَغَوي في ((شرح السنة)) (٧/ ٥٠٠)، وصَحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مشكل الآثار)) (٤١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٨).
قال الألوسي: (قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن تمامِ كَلامِ الجُلودِ ومَقولِ القَولِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ مُستأنَفًا مِن كَلامِه عزَّ وجلَّ، والأوَّلُ أظهَرُ. والمرادُ على كُلِّ حالٍ: تقريرُ ما قَبلَه بأنَّ القادِرَ على الخَلقِ أوَّلَ مَرَّةٍ قادِرٌ على الإنطاقِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٨). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠).
وممَّن ذهَب إلى أنَّه من كلامِ الجُلودِ: ابنُ عطية، والقرطبيُّ، والبقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٠).
والقَولُ بأنَّه ابتداءُ كلامٍ لله تعالى هو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، وممَّن ذهَب إليه: النَّحَّاسُ، والواحديُّ، والبَغويُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٩)، ((معاني القرآن)) للنَّحَّاس (٦/ ٢٥٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٠).
وذكَر ابنُ عُثَيمين أنَّ جعْلَه مِن كَلامِ الجُلودِ حتَّى يتَّصِلَ الكلامُ بَعضُه ببعضٍ: أقرَبُ مِن حيثُ اللَّفظُ، لكنَّ القولَ الثَّانيَ أقوَمُ للمعنَى، وذَكَر وَجْهَ هذا القَولِ الثاني: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ أنَّ هؤلاء يُحاسَبونَ يومَ القِيامةِ، وتَشهَدُ عليهم جَوارِحُهم وجُلودُهم، بَيَّنَ أنَّه قادِرٌ على الإعادة؛ =

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ تُردُّونَ بعدَ موتِكم، فيُجازيكم على أعمالِكم[1].

كما قال تعالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

وكما قال سُبحانَه: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢)﴾.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (اجتمَعَ عندَ البَيتِ ثَلاثةُ نَفَرٍ؛ قُرَشيَّانِ

= فالقادِرُ على الخَلْقِ أوَّلَ مَرَّةٍ قادِرٌ على الإعادة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ لأنَّ هؤلاء الذين كَذَّبوا يُنكِرونَ البَعثَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٢٢).

وقال السعديُّ: (﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما خلَقكم بذواتِكم، وأجسامِكم، خلَق أيضًا صفاتِكم، ومِن ذلك الإنطاقُ... ويحتمِلُ أنَّ المرادَ بذلك: الاستِدلالُ على البَعثِ بالخَلقِ الأوَّلِ، كما هو طريقةُ القُرآنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

وثَقَفيٌّ، أو ثَقَفيَّانِ وقُرَشيٌّ، قَليلٌ فِقهُ قُلوبِهم، كثيرٌ شَحمُ بُطونِهم، فقال أحَدُهم: أتُرَونَ اللهَ يَسمَعُ ما نقولُ؟ وقال الآخَرُ: يَسمَعُ إنْ جَهَرْنا، ولا يَسمَعُ إنْ أخفَيْنا! وقال الآخَرُ: إنْ كان يَسمَعُ إذا جهَرْنا فهو يَسمَعُ إذا أخفَيْنا! فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ...﴾ [فصلت: ٢٢] الآية)[١].

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾.

أي: وما كُنتُم في الدُّنيا تَستَخْفُونَ بتَرْكِ الكفرِ والمعاصي؛ لِئَلَّا يَشهَدَ عليكم سَمعُكم ولا أبصارُكم ولا جُلودُكم يومَ القِيامةِ[٢]!

---

(١) رواه البخاري (٤٨١٦) ومسلم (٢٧٧٥) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧١).

قال ابنُ عطية: (يحتَمِلُ أنْ يكونَ مِن كَلامِ الجُلودِ ومُحاورتِها، ويحتَمِلُ أنْ يكونَ مِن كَلامِ اللهِ عزَّ وجَلَّ لهم، أو مِن كَلامِ مَلَكٍ يأمُرُه تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١).

وقال البغويُّ: (﴿تَسْتَتِرُونَ﴾، أي: تستَخْفونَ، عِندَ أكثرِ أهلِ العِلمِ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٠).

قيل: المرادُ: وما كنتُم في الدُّنيا تَسْتخفونَ حذرًا مِن شَهادةِ سمْعِكم وأبصارِكم وجلودِكم يومَ القِيامةِ، وذلك بتركِ الكُفرِ والمعاصي. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنَى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كَثير، والشوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

قال الشوكانيُّ: (لَمَّا كانَ الإنسانُ لا يقدِرُ على أنْ يستخفِيَ مِن جوارِحِه عندَ مباشرةِ المعصيةِ كانَ معنَى الاستخفاءِ هنا تركَ المعصيةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٧).

وقيل: معنى ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ﴾ أي: ما كُنتُم تَستَخْفونَ مِن أنْ تَشهَدَ عليكم جَوارِحُكم؛ لِأنَّكم ما كُنتُم تَظُنُّونَ ذلك، فلم تكونوا تَخافون أنْ تَشهَدَ عليكم فتَستَتِروا منها، أو لِأنَّكم لا تَقدِرونَ على الاستِخفاءِ منها. ممَّن قال بهذا المعنَى في الجُملةِ: الواحديُّ، =

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: ولكِنْ ظَنَنْتُم في الدُّنيا أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ كَثيرًا مِنَ السَّيِّئاتِ التي كُنتُم تَعمَلونَها[1].

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: وظَنُّكم السَّيِّئُ هذا قد أهلَكَكم، فأصبَحتُم يومَ القِيامةِ مِنَ الهالِكينَ[2].

= والسمعانيُّ، وابنُ الجوزي، والرَّسعنيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢١).

وقيل: المعنى: أنَّكم كُنتُم تَستَتِرونَ بالحِيطانِ والحُجُبِ عِندَ ارتِكابِ الفَواحِشِ، وما كان استِتارُكم ذلك خِيفةَ أنْ تَشهَدَ عليكم جَوارِحُكم. ومِمَّن ذَهَبَ إلى هذا: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، وأبو السعود، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٢).

قال الرازي: (المعنَى إثباتُ أنَّهم كانوا يستترونَ عندَ الإقدامِ على الأعمالِ القَبيحةِ، إلَّا أنَّ استتارَهم ما كانَ لأجلِ خوفِهم مِن أنْ يشهدَ عليهم سَمْعُهم وأبصارُهم وجُلودُهم؛ وذلك لأنَّهم كانوا منكرينَ للبعثِ والقيامةِ، ولكنَّ ذلك الاستتارَ لأجلِ أنَّهم كانوا يظنُّونَ أنَّ اللَّهَ لا يعلمُ الأعمالَ الَّتي يُقْدِمونَ عليها على سبيلِ الخفيةِ والاستتارِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

قال ابن الجوزي: (﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: كان الكفَّارُ يقولونَ: إنَّ الله لا يَعلمُ ما في أنفُسِنا، ولكنَّه يعلمُ ما يَظهرُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠).

وقال السمعاني: (هو قَولُ مَن قالَ: إنَّ الله يسمعُ إذا جهرْنا، ولا يسمعُ إذا أخْفَيْنا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧).

وقال ابن عاشور: (معنى الآيةِ...: أنَّ اللهَ عليمٌ بأعمالِكم ونيَّاتِكم، لا يخفَى عليه شَيءٌ منها إنْ جهَرْتُم أو سَترْتُم، وليس اللهُ بحاجةٍ إلى شَهادةِ جوارِحِكم عليكم، وما أوقَعَكم في هذا الضُّرِّ إلَّا سُوءُ ظَنِّكم بجلالِ اللهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٢، ٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).

﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤ ﴾.

﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾.

أي: فإنْ يَصبِرْ أولئك الكُفَّارُ على النَّارِ، فالنَّارُ مَسكَنٌ لهم ومُستَقَرٌّ، ولا مَخرَجَ لهم مِنها أبدًا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).

قال الألوسيُّ: (﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾ أي: محلُّ ثواءٍ وإقامةٍ أَبديةٍ لهم بحيثُ لا براحَ لهم منها، وترتيبُ الجزاءِ على الشَّرطِ لأنَّ التقديرَ: إنْ يَصبِروا -والظنُّ أنَّ الصبرَ ينفعُهم؛ لأنَّه مفتاحُ الفرجِ- لا ينفَعْهم صبرُهم إذا لم يصادفْ محلَّه؛ فإنَّ النارَ محلُّهم لا محالةَ. وقيل: في الكلامِ حذْفٌ، والتقديرُ: أو لا يَصبروا كقولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [الطور: ١٦]. وقيل: المرادُ فإنْ يَصبِروا على ترْكِ دِينِك واتِّباعِ هواهم فالنارُ مثوًى لهم، وليس بذاك). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧٠).

وممَّن ذهَب إلى المعنى الأوَّل: الزمخشريُّ، والنسفيُّ، والبقاعيُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٢٧).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المعنى: فإنْ يَصبروا أو لا يَصبروا لا يَنفَعْهم صبرٌ ولا جزَعٌ: مكيٌّ، والسمعانيُّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ كثير. يُنظر: ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٥١١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٣).

قال السعديُّ: (﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾ فلا جَلَدَ عليها ولا صَبرَ، وكُلُّ حالةٍ قُدِّر إمكانُ الصَّبرِ عليها فالنَّارُ لا يمكِنُ الصَّبرُ عليها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّالِث -وهو أنَّ المعنى: فإنْ يصبِروا في الدُّنيا على أعمالِ أهلِ النَّارِ فالنَّارُ مثوى لهم-: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٣).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى...: أنَّ حاصِلَ أمْرِهم أنَّهم قد زُجَّ بهم في النَّارِ؛ فإنْ صَبَروا واستَسلَموا فهم باقُونَ في النَّارِ، وإنْ اعتَذَروا لم ينفَعْهم العُذرُ ولم يُقبَلْ منهم تنَصُّلٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).

كما قال تعالَى -حاكيًا عن أهلِ النَّارِ قولَهم-: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾.

أي: وإنْ طَلَبوا مِنَ اللهِ الرِّضا عنهم، وقَبولَ تَوبتِهم واعتِذارِهم عن أعمالِهم السَّيِّئةِ؛ فلا يُؤاخِذُهم بها؛ فلنْ يَرضَى عنهم، ولن يَقبَلَ تَوبتَهم واعتِذارَهم، ولن يُخرِجَهم مِنَ النَّارِ(١).

كما قال الله تبارك تعالَى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ * قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ * قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ إثباتُ الرُّجوعِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فاستعِدَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣، ٢٧٤).

لهذا الرُّجوعِ، واعلمْ أنَّك مُلاقٍ ربَّك، ولكنْ أبْشِرْ إنْ كنتَ مؤمنًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، يعني: لا يَخافُ المؤمنُ مِن هذه الملاقاةِ؛ بلْ له البشارةُ في الدُّنيا قبْلَ الآخِرةِ، لكنَّ حَقيقةَ هذه البِشارةِ أنَّها للمُؤمنِ خاصَّةً(١).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۞ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ مِن حَقِّ المؤمِنِ ألَّا يَذهَبَ عنه ولا يَزولَ عن ذِهنِه أنَّ عليه مِنَ اللهِ تعالى عَينًا كالِئةً، ورَقيبًا مُهيمِنًا؛ حتَّى يكونَ في أوقاتِه وخَلَواتِه مِن رَبِّه أهيَبَ وأحسَنَ احتِشامًا، وأوفَرَ تحفُّظًا وتصوُّنًا منه مع الملأِ، ولا يَنبَسِطَ في سِرِّه؛ خوفًا مِن التشَبُّهِ بهؤلاءِ الظَّانِّينَ(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ البَصريُّ: (إنَّ قومًا ألهَتْهم الأمانيُّ حتى خَرَجوا مِنَ الدُّنيا وما لهم حَسَنةٌ، ويقولُ أحَدُهم: إنِّي أُحسِنُ الظَّنَّ بربِّي، وكَذَبَ! ولو أحسَنَ الظَّنَّ لأحسَنَ العَمَلَ)(٣).

٤- قالَ اللَّه في حَقِّ مَنْ شَكَّ في تَعَلُّقِ سَمْعِه ببعضِ الجزئِيَّاتِ، وهو السِّرُّ مِنَ القولِ: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فهؤلاءِ لَمَّا ظنُّوا أنَّ اللَّهَ سُبحانَه لا يَعْلَمُ كثيرًا مِمَّا يَعْملونَ، كان هذا إساءةً لظَنِّهم برَبِّهم، فأَرْداهم ذلك الظَّنُّ، وهذا شَأْنُ كُلِّ مَنْ جَحَد صِفاتِ كمالِه، ونُعوتَ جَلالِه، ووَصَفه بما لا يَليقُ به، فإذا ظَنَّ هذا أنَّه يُدْخِلُه الجَنَّةَ كانَ هذا غُرورًا وَخِداعًا مِنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٣).

نَفْسِه، وتَسْويلًا مِنَ الشَّيطانِ، لا إحسانَ ظَنٍّ بربِّه.

فتأمَّلْ هذا الموضعَ، وتأمَّلْ شِدَّةَ الحاجةِ إليه، وكيفَ يَجْتَمِعُ في قلبِ العبدِ تَيَقُّنُه بأنَّه مُلاقٍ اللَّهَ، وأنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ ويَرى مَكانَه، ويَعْلَمُ سِرَّه وعلانِيَتَه، ولا يخفَى عليه خافِيَةٌ مِنْ أمْرِه، وأنَّه مَوْقوفٌ بينَ يَدَيْه، ومَسْؤولٌ عن كُلِّ ما عَمِلَ، وهو مُقيمٌ على مَساخِطِه مُضَيِّعٌ لأوامِرِه، مُعَطِّلٌ لحُقوقِه، وهو معَ هذا يُحْسِنُ الظَّنَّ به، وهلْ هذا إلَّا مِنْ خِدَعِ النُّفوسِ، وغُرورِ الأمانِيِّ[1]؟!

٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ اعلَمْ أنَّ أسبابَ الضَّلالِ في العقائدِ كُلِّها إنَّما تأتي على النَّاسِ مِن فَسادِ التأمُّلِ، وسُرعةِ الإيقانِ، وعَدَمِ التَّمييزِ بينَ الدَّلائِلِ الصَّائِبةِ والدَّلائِلِ المُشابِهةِ؛ وكُلُّ ذلك يُفضِي إلى الوَهمِ المعبَّرِ عنه بالظَّنِّ السَّيِّءِ أو الباطِلِ، وقد ذكَرَ اللهُ مِثْلَه في المُنافِقينَ، وأنَّ ظَنَّهم هو ظَنُّ أهلِ الجاهِليَّةِ، فقال: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ فلْيَحذَرِ المُؤمِنونَ مِن الوُقوعِ في مِثلِ هذه الأوهامِ، فيَبُوؤُوا ببَعضِ ما نُعِيَ على عَبَدةِ الأصنامِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ شَهادةُ جَوارِحِهم وجُلودِهم عليهم: شَهادةُ تَكذيبٍ وافتِضاحٍ؛ لِأنَّ كَونَ ذلك شَهادةً يَقتَضي أنَّهم لَمَّا رَأَوُا النارَ اعتَذَروا بإنكارِ بَعضِ ذُنوبِهم؛ طَمَعًا في تَخفيفِ العَذابِ، وإلَّا فقدْ عَلِمَ اللهُ ما كانوا يَصنَعونَ، وشَهِدتْ به الحَفَظةُ، وقُرِئَ عليهم كِتابُهم، وما أُحضِروا لِلنَّارِ إلَّا وقدْ تَحقَّقتْ إدانَتُهم، فما كانتْ

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).

شَهادةُ جَوارِحِهم إلَّا زِيادةَ خِزيٍ لهم، وتَحسيرًا وتَنديمًا على سُوءِ اعتِقادِهم في سَعةِ عِلْمِ اللهِ[(١)].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ جوازُ استِعمالِ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ، ويُؤخَذُ ذلِك مِنَ استِدلالِ اللهِ تعالى بالمَبدأِ على المَعادِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فإنَّ هذا دَليلٌ عَقليٌّ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارةٌ إلى الحِكمةِ مِن خَلْقِ الخَلْقِ: أنَّهم يُبتَلَوْنَ فيُؤمَرونَ ويُنهَوْنَ، ومآلُهم إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ يُجازيهم بحَسَبِ أعمالِهم التي كَلَّفَهم بها[(٣)].

٤- أصولُ الإحساسِ ثلاثةٌ: السمعُ والبصرُ والمَسُّ؛ قال تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾[(٤)].

٥- قَولُ الله تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هذا نَصٌّ صَريحٌ في أنَّ مَن ظَنَّ باللهِ تعالى أنَّه يَخرُجُ شَيءٌ مِن المعلوماتِ عن عِلمِه، فإنَّه يكونُ مِن الهالِكينَ الخاسِرينَ[(٥)].

٦- أنَّ اللهَ سُبحانَه جعَلَ مُنكِرَ صِفاتِه مُسِيءَ الظَّنِّ به، وتَوعَّدَه بما لم يَتوعَّدْ به غيرَه مِن أهلِ الشِّركِ والكُفرِ والكَبائرِ، فقال تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ٣٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٧).

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ فأخبَرَ سُبحانَه أنَّ إنكارَهم هذه الصِّفةَ مِن صِفاتِه هو مِن سُوءِ ظَنِّهم به، وأنَّه هو الذي أهلَكَهم[١]، فأعظَمُ الذُّنوبِ عندَ اللَّهِ إساءةُ الظَّنِّ به؛ فإنَّ المُسِيءَ به الظَّنَّ قدْ ظَنَّ به خِلافَ كمالِه المُقدَّسِ، وظَنَّ به ما يُناقِضُ أسماءَه وصِفاتِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

- التَّعبيرُ عنهم بـ﴿ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ ﴾ تعالَى؛ لِذَمِّهم، والإيذانِ بعِلَّةِ ما يَحِيقُ بهم مِن ألوانِ العَذابِ[٣].

- قولُه: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ ﴾ مَفعولٌ لِفعلِ (واذْكُرْ) مَحذوفًا، وقيل: جُملةُ ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ... ﴾ الآياتِ، مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً ... ﴾ [فصلت: ١٣] الآياتِ، والتَّقديرُ: وأنذِرْهم يومَ نَحشُرُ أعداءَ اللهِ إلى النارِ، ودَلَّ على هذا المُقدَّرِ قولُه: ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً ... ﴾ [فصلت: ١٣] إلخ، أيْ: وأنذِرْهم يومَ عِقابِ الآخِرةِ[٤].

- ويَتعلَّقُ قولُه: ﴿ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ بـ﴿ يُحْشَرُ ﴾؛ لِتَضمينِ ﴿ يُحْشَرُ ﴾ مَعنى: يُرسَلُ، أيْ: يُرسَلُون إلى النَّارِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦٥).

- قولُه: ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾، أيْ: إلى مَوقِفِ الحِسابِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ إذْ هناك تَتَحَقَّقُ الشَّهادةُ الآتيةُ، لا بِعَدَمِ تَمامِ السُّؤالِ والجَوابِ وسَوْقِهم إلى النَّارِ، والتَّعبيرُ عن مَوقفِ الحِسابِ بالنَّارِ؛ إمَّا للإيذانِ بأنَّها عاقِبةُ حَشرِهم، وأنَّهم على شَرَفِ دُخولِها، وإمَّا لِأنَّ حِسابَهُم يَكونُ على شَفيرِها[١].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ عَطفٌ وتَفريعٌ على ﴿يُحۡشَرُ﴾؛ لأنَّ الحَشرَ يَقتَضي الوَزعَ؛ إذْ هو مِن لَوازِمِه عُرفًا؛ إذ الحَشرُ يَستلزِمُ كَثرةَ عدَدِ المَحشورِين، وكَثرةُ العَدَدِ تَستَلزِمُ الاختِلاطَ، وتَداخُلَ بَعضِهم في بَعضٍ؛ فلا غِنى لهم عنِ الوَزعِ؛ لِتَصفيفِهم، ورَدِّ بَعضِهم عن بَعضٍ. والوَزعُ: كَفُّ بَعضِهم عن بَعضٍ، ومَنعُهم مِنَ الفَوضى، وهو كِنايةٌ وعِبارةٌ عن كَثرةِ المَحشورينَ[٢].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ﴾ قالَه هنا بذِكرِ (ما)، وبحَذفِها في قَولِه في (النَّملِ): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ [النمل: ٨٤]، وفي (الزُّمَرِ): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ [الزمر: ٧١]، وفي (الزُّخرُفِ): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ [الزخرف: ٣٨]؛ لِأنَّ الكَلامَ هنا في أعداءِ اللهِ أبسَطُ وآكَدُ منه في البَقيَّةِ، فناسَبَ ذلك ذِكرَ (مَا)؛ لِلتَّأكيدِ على اتِّصالِ الشَّهادةِ بالحُضورِ، ومَعنى التَّأكيدِ فيها: أنَّ وَقتَ مَجيئِهم النارَ لا مَحالةَ أنْ يَكونَ وَقتَ الشَّهادةِ عليهم، ولا وَجهَ لِأنْ يَخلُوَ منها[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص ٥٠٥، ٥٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٦، ٥٤٧).

- وجُملةُ ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ ...﴾ جوابُ (إذا)؛ قيل: في الكلامِ حذْفٌ، والتَّقديرُ: حتَّى إذا ما جاؤُوها -أي: النارَ- وسُئِلوا عَمَّا أجْرَموا فأنكَروا، شَهِد عليهم سَمْعُهم وأبْصارُهم وجُلودُهم بما اكتَسَبوا مِنَ الجَرائِمِ، وكانوا حَسِبوا أنْ لا شاهِدَ عليهم. وقيل: أحسَنُ مِن ذلك أنْ يكونَ جوابُ (إذا) مَحذوفًا؛ للتَّهويلِ، وحذْفُ مِثلِه كثيرٌ في القرآنِ، وتكونَ جُملةُ ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾ إلى آخِرِها مُستَأنَفةً استِئنافًا بيانيًّا نَشَأ عن مُفادِ (حَتَّى) مِنَ الغايةِ؛ لأنَّ السائِلَ يَتطَلَّبُ: ماذا حَصَلَ بيْن حَشرِهم إلى النَّارِ، وبيْن حُضورِهم عِندَ النارِ؟ فأُجيبَ بأنَّه ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾، إلى قَولِه: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: ٢١]، ويَتضَمَّنُ ذلك أنَّهم حُوسِبوا على أعمالِهم وأنكَروها، فشَهِدتْ عليهم جَوارِحُهم وأجسادُهم. أو أنْ يكونَ جوابُ (إذا) قولَه: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ...﴾ [فصلت: ٢٤]، وجُملةُ ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ وما عُطِفَ عليها مُعترِضةً بيْن الشَّرْطِ وجَوابِه[١].

- وتَخصيصُ السَّمعِ والأبصارِ والجُلودِ بالشَّهادةِ على هؤلاء دُونَ بَقيَّةِ الجَوارِحِ؛ لِأنَّ لِلسَّمعِ اختِصاصًا بتَلَقِّي دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَلَقِّي آياتِ القُرآنِ؛ فسَمْعُهم يَشهَدُ عليهم بأنَّهم كانوا يَصرِفونَه عن سَماعِ ذلك، كما حكَى اللهُ عنهم بقولِه: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥]، ولِأنَّ لِلأبصارِ اختِصاصًا بمُشاهَدةِ دَلائِلِ المَصنوعاتِ الدَّالَّةِ على انفِرادِ اللهِ تعالَى بالخَلقِ والتَّدبيرِ، فذلك دَليلُ وَحدانيَّتِه في إلهيَّتِه، وشَهادةُ الجُلودِ؛ لِأنَّ الجِلدَ يَحوي جَميعَ الجَسَدِ؛ لِتكونَ شَهادةُ الجُلودِ عليهم شَهادةً على أنْفُسِها، فيَظهَرَ استِحقاقُها لِلحَرقِ بالنَّارِ لِبَقيَّةِ الأجسادِ دُونَ اقتِصارٍ على حَرقِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٦).

مَوضِعِ السَّمعِ والبَصَرِ؛ ولذلك اقتَصَروا في تَوجيهِ المَلامةِ على جُلودِهم؛ لأنَّها حاويةٌ لِجَميعِ الحَواسِّ والجَوارِحِ، وبهذا يَظهَرُ وَجهُ الاقتِصارِ على شَهادةِ السَّمعِ والأبصارِ والجُلودِ هنا، بخِلافِ آيةِ سُورةِ (النُّورِ): ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]؛ لِأنَّ آيةَ (النُّورِ) تَصِفُ الذين يَرمونَ المُحصَناتِ، وهمُ الذين اختَلَقوا تُهمةَ الإفْكِ، ومَشَوْا في المَجامِعِ يُشيعونَها بيْن الناسِ، ويُشيرونَ بأيديهم إلى مَنِ اتَّهَموه إفْكًا[١].

وقيلَ: لَمَّا كانتِ الحَواسُّ خَمسًا: السَّمعَ، والبَصَرَ، والشَّمَّ، والذَّوقَ، واللَّمسَ، وكانَ الذَّوقُ مُندَرِجًا في اللَّمسِ؛ إذْ بمُماسَّةِ جِلدةِ اللِّسانِ والحَنَكِ لِلمَذوقِ يَحصُلُ إدراكُ المَذوقِ، وكانَ حِسُّ الشَّمِّ ليسَ فيه تَكليفٌ ولا أمْرٌ ولا نَهيٌ[٢]، وهو ضَعيفٌ؛ اقتُصِرَ مِنَ الحَواسِّ على السَّمعِ والبَصَرِ واللَّمسِ؛ إذْ هذه هي التي جاءَ فيها التَّكليفُ؛ فهذه -واللهُ أعلَمُ- حِكمةُ الاقتِصارِ على هذه الثَّلاثةِ[٣]. أو خَصَّ هذه الأعضاءَ الثَّلاثةَ؛ لأنَّ أكثَرَ الذُّنوبِ إنَّما تقَعُ بها، أو بسَبَبِها[٤].

- وأفرَدَ ﴿سَمْعُهُمْ﴾؛ لِتَقارُبِ النَّاسِ فيه، وجمَعَ (أَبْصارُهُمْ)؛ لِعِظَمِ التَّفاوتِ فيها[٥].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ كِنايةٌ عن مَوصوفٍ -على القولِ بأنَّ المرادَ بالجُلودِ الفُروجُ خاصَّةً-؛ فقد كَنَّى عنِ الفُروجِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٧).

(٢) لكن ذكَر ابنُ القيِّم أنَّ حاسةَ الشمِّ تتعلَّقُ بها العبودياتُ الخمسُ؛ فقد يكونُ الشمُّ واجبًا أو مستحبًّا أو حرامًا أو مكروهًا أو مباحًا. يُنظر: ((مدارج السالكين)) (١/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٤٧).

وتقدَّم في الفوائد أنَّ هذه الثلاثةَ هي أصولُ الإحساسِ.

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٩).

بالجُلودِ. وجَعْلُ الكلامِ كِنايةً أنسَبُ بتَخصيصِ السُّؤالِ بها في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١]؛ فإنَّ ما تَشهَدُ به مِنَ الزِّنا أعظَمُ جِنايةً وقُبحًا وأجلَبُ لِلخِزْيِ والعُقوبةِ مِمَّا يَشهَدُ به السَّمعُ والأبصارُ مِنَ الجِناياتِ المُكتَسَبةِ بتَوسُّطِهما، وعلى القولِ بأنَّه أرادَ بالجُلودِ الجَوارِحَ عامَّةً، والعَطفُ مِن عَطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ فليس في الكَلامِ كِنايةٌ إذَنْ[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ مُستعمَلٌ في المَلامةِ والتَّوبيخِ والتَّعَجُّبِ مِن هذا الأمْرِ، وهم يَحسَبونَ أنَّ جُلودَهم -لِكَونِها جُزءًا منهم- لا يَحِقُّ لها شَهادَتُها عليهم؛ لِأنَّها تَجُرُّ العَذابَ إليها[٢]. وإنَّما قالوا ذلك لِجُلودِهم دُونَ أنْ يَقولوهُ لِسَمْعِهم وأبصارِهم؛ لِأنَّ الجُلودَ مُواجِهةٌ لهم يَتَوجَّهونَ إليها بالمَلامةِ[٣]، أو: لأنَّ عَذابَ الجِلدِ عامٌّ يَشملُ الجَسَدَ كلَّه، لكِنَّ عَذابَ السَّمْعِ والبَصَرِ خاصٌّ بالسَّمْعِ والبَصَرِ، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾[٤] [النساء: ٥٦].

وقيل: لا قصْدَ هنا للسُّؤالِ أصْلًا، وإنَّما القصْدُ إلى التَّعجُّبِ ابتداءً؛ لأنَّ التَّعجُّبَ يكونُ فيما لا يُعلَمُ سَببُه وعِلَّتُه؛ فالسُّؤالُ عن العِلَّةِ المُستلزِمِ لعدَمِ مَعرفتِها جُعِلَ كِنايةً عن التَّعجُّبِ، فقدْ قيل: إذا ظهَرَ السَّببُ بطَلَ العجَبُ، فكأنَّه قِيل: ليْس

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩، ١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣١).

نُطقُنا بعَجَبٍ مِن قُدرةِ اللهِ تعالَى الذي أنْطَقَ كلَّ شَيءٍ[١].

- وإجراءُ ضَمائِرِ السَّمعِ والبَصَرِ والجُلودِ بصِيغَتَيْ ضَميرِ جَمعِ العُقَلاءِ؛ لِأنَّ التَّحاوُرَ معها صَيَّرَها بحالةِ العُقَلاءِ يَومَئِذٍ، ولِوُقوعِها في مَوقِعِ السُّؤالِ والجَوابِ المُختَصَّيْنِ بالعُقَلاءِ[٢].

- قَولُه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ قيل: المَعنى: الذي أنطَقَ كُلَّ شَيءٍ له نُطقٌ مِنَ الحَيَوانِ، واختِلافُ دَلالةِ أصواتِها على وِجدانِها؛ فعُمومُ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مَخصوصٌ بالعُرفِ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ والتي عُطِفتْ عليها مِن تَمامِ ما أنطَقَ اللهُ به جُلودَهم؛ تَشهيرًا بخَطَئِهم في إنكارِهمُ البَعثَ والمَصيرَ إلى اللهِ؛ لِزيادةِ التَّنديمِ والتَّحسيرِ، وهذا ظاهِرُ كَونِ الواوِ في أوَّلِ الجُملةِ واوَ العَطفِ؛ فيَكونَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لاستِحضارِ حالَتِهم؛ فإنَّهم ساعَتَئِذٍ في قَبضةِ تَصَرُّفِ اللهِ مُباشَرةً، وأمَّا رُجوعُهم بمَعنى البَعثِ فإنَّه قدْ مَضى بالنِّسبةِ لِوَقتِ إحضارِهم عِندَ جَهنَّمَ، أو يَكونُ المُرادُ بالرُّجوعِ الرُّجوعَ إلى ما يَنتَظِرُهم مِنَ العَذابِ الخالِدِ المُتَرتِّبِ عِندَ التَّخاطُبِ، على تَغليبِ المُتَوقَّعِ على الواقِعِ، على أنَّ فيه مراعاةَ الفواصلِ. ويَجوزُ أنْ تَكونَ هذه الجُملةُ وما بَعدَها اعتِراضًا بيْن جُملةِ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وجُملةِ ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [فصلت: ٢٤]، وهو كَلامٌ مُوَجَّهٌ مِن جانِبِ اللهِ تعالَى إلى المُشرِكينَ

(١) يُنظَر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٨).

الأحياءِ؛ لِتَذكيرِهم بالبَعثِ عَقِبَ ذِكرِ حالِهم في القِيامةِ؛ انتِهازًا لِفُرصةِ المَوعِظةِ السَّابِقةِ عِندَ تَأثُّرِهم بسَماعِها، وَيكونَ فِعلُ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ مُستَعمَلًا في الاستِقبالِ على أصْلِه. والكَلامُ استِدلالٌ على إمكانِ البَعثِ[١].

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ التَّعبيرُ بِصيغةِ المضارِعِ إذا كان الخِطابُ يومَ القِيامةِ -مع أنَّ الرَّجْعَ فيه مُتحقِّقٌ لا مُستقبَلٌ-؛ لِمَا أنَّ المرادَ بالرجْعِ ليس مجرَّدَ الرَّدِّ إلى الحَياةِ بالبعثِ، بلْ ما يعمُّه وما يَترتَّبُ عليه مِن العذابِ الخالِدِ المرتقَبِ عِندَ التَّخاطُبِ على تَغليبِ المتوقَّعِ على الواقِعِ. وجُوِّزَ أنْ تكونَ لاستحضارِ الصُّورةِ[٢].

- وتَقديمُ مُتعلَّقِ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ عليه؛ لِلاهتِمامِ ورِعايةِ الفاصِلةِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ حِكايةٌ لِمَا سيُقالُ لَهم يَومَئِذٍ مِن جِهَتِه تعالَى بطَريقِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ تَقريرًا لِجَوابِ الجُلودِ -على قولٍ-، أيْ: ما كُنتُم تَستَتِرونَ في الدُّنيا عِندَ مُباشَرَتِكم الفَواحِشَ؛ مَخافةَ أنْ تَشهَدَ عليكم جَوارِحُكم بذلك كما كُنتُم تَستَتِرون مِنَ النَّاسِ؛ مَخافةَ الافتِضاحِ عِندَهم، بلْ كُنتُم جاحِدينَ البَعثَ والجَزاءَ رَأْسًا[٤].

ويَجوزُ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ ...﴾ بتَمامِها مَعطوفةً على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠).

جُملةِ ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...﴾ [فصلت: ٢١] إلخ؛ فتَكونَ مَشمولةً لِلاعتِراضِ، مُتَّصِلةً بالتي قَبلَها. ويَجوزُ أنْ تَكونَ مُستَقِلَّةً عنها: إمَّا مَعطوفةً على جُملةِ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ [فصلت: ١٩] الآياتِ، وإمَّا مُعترِضةً بيْن تلك الجُملةِ وجُملةِ ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [فصلت: ٢٤]، وتَكونَ الواوُ اعتِراضيَّةً، ومُناسَبةُ الاعتِراضِ ما جَرى مِن ذِكرِ شَهادةِ سَمعِهم وأبصارِهم وجُلودِهم عليهم؛ فيَكونَ الخِطابُ لِجَميعِ المُشرِكينَ الأحياءِ في الدُّنيا، أو لِلمُشرِكينَ في يَومِ القِيامةِ[١]؟!

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، أيْ: تَستَتِرونَ بأعمالِكم عن سَمعِكم وأبصارِكم وجُلودِكم -على قولٍ في التفسيرِ-، وذلك تَوبيخٌ؛ كِنايةً عن أنَّهم ما كانوا يَرَوْنَ ما هم عليه قَبيحًا حتى يَستَتِروا منه[٢].

- قولُه: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ الإشارةُ إلى الظَّنِّ المَأخوذِ مِن جُملةِ ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ويُستَفادُ مِنَ الإشارةِ إليه تَمييزُه أكمَلَ تَمييزٍ، وتَشهيرُ شَناعَتِه؛ لِلنِّداءِ على ضَلالِهم[٣]. وما في الإشارةِ مِن مَعنى البُعدِ؛ لِلإيذانِ بغايةِ بُعدِ مَنزِلَتِه في الشَّرِّ والسُّوءِ[٤].

- وأَتْبَعَ اسمَ الإشارةِ بالبَدَلِ بقَولِه: ﴿ظَنُّكُمُ﴾؛ لِزيادةِ بَيانِه؛ لِيَتَمَكَّنَ ما يَعقُبُه مِنَ الخَبَرِ، والخبرُ هو فِعلُ ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ وما تَفَرَّعَ عليه ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١).

ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[١].

- والإتيانُ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ الخَبَرِ، وهو ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ وما تَفرَّعَ عليه، أي: الذي ظَنَنتُم برَبِّكم ظَنًّا باطِلًا[٢].

- والعُدولُ عنِ اسمِ (الله) العَلَمِ إلى ﴿بِرَبِّكُمْ﴾؛ لِلتَّنبيهِ على ضَلالِ ظَنِّهم؛ إذْ ظَنُّوا خَفاءَ بَعضِ أعمالِهم عن عِلْمِه، مع أنَّه رَبُّهم وخالِقُهم؛ فكيف يَخلُقُهم وتَخفَى عنه أعمالُهم؟! وهو يُشيرُ إلى قَولِه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؛ ففي وَصفِ ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ إيماءٌ إلى هذا المَعنى[٣].

- وفي الإتيانِ بالمُسنَدِ ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ فِعلًا، إفادةُ قَصرٍ، أيْ: ما أرْداكم إلَّا ظَنُّكم ذلك، وهو قَصرٌ إضافيٌّ، أيْ: لم تُرْدِكُم شَهادةُ جَوارِحِكم حتى تَلوموها، بلْ أرْداكم ظَنُّكم أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ أعمالَكم، فلم تَحذَروا عِقابَه[٤].

- ونُعِيَ عليهم سُوءُ استِدلالِهم، وفَسادُ قِياسِهم في الأُمورِ الإلهيَّةِ، وقياسِهمُ الغائِبَ على الشَّاهِدِ؛ تلك الأُصولُ الَّتي استَدرَجَتْهم في الضَّلالةِ، فأحالوا رِسالةَ البَشَرِ عنِ اللهِ، ونَفَوُا البعثَ، ثمَّ أثبَتوا شُركاءَ للهِ في الإلهيَّةِ، وتَفرَّعَ لهمْ مِن ذلك كُلِّه قَطعُ نَظَرِهم عمَّا وَراءَ الحياةِ الدُّنيا، وأمْنُهم مِنَ التَّبِعاتِ في الحياةِ الدُّنيا؛ فذلك جِماعُ قَولِه تَعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴾ تفريعٌ على جوابِ ﴿إِذَا﴾ [فصلت: ٢٠]، أو تفريعٌ على جُملةِ ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾ [فصلت: ٢١]، أو هو جَوابُ ﴿إِذَا﴾ [فصلت: ٢٠]، وما بيْنهما اعتِراضٌ، على حَسَبِ ما يُناسِبُ وُجوهَ التَّفسيرِ، والمَعنى على جَميعِ الوُجوهِ: أنَّ حاصِلَ أمْرِهم أنَّهم قد زُجَّ بهم في النارِ، فإنْ صَبَروا واستَسلَموا فهمْ باقونَ في النَّارِ، وإنِ اعتَذَروا لم يَنفَعْهمُ العُذرُ، ولم يُقبَلْ منهم تَنصُّلٌ، وقَولُه: ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ دَليلُ جَوابِ الشَّرطِ؛ لِأنَّ كَونَ النارِ مَثوًى لهم ليسَ مُسَبَّبًا على حُصولِ صَبرِهم، وإنَّما هو مِن بابِ قَولِهم: إنْ قُبِلَ ذلك فذاكَ، أيْ: فهو على ذلك الحالِ، فالتَّقديرُ: فإنْ يَصبِروا فلا يَسَعُهم إلَّا الصَّبرُ؛ لأنَّ النَّارَ مَثوًى لهم[1].

- قولُه: ﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ...﴾ الآيَةَ، فيه -على قولٍ في التَّفسيرِ- إضمارٌ، تَقديرُه: فإنْ يَصبِروا أو لا يَصبِروا، فالنارُ مَثوًى لهم. أو قَيَّدَ ذلك؛ لأنَّه جَوابٌ لِقَولِهم: ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ [ص: ٦]؛ فلا مَفهومَ له[2].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴾ الْتِفاتٌ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ؛ لِلإيذانِ باقتِضاءِ حالِهم أنْ يُعرِضَ عنهم، ويَحكي سُوءَ حالِهم لِغَيرِهم، أو لِلإشعارِ بإبعادِهم عن حَيِّزِ الخِطابِ، وإلقائِهم في غايةِ دَرَكاتِ النَّارِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص ٥٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧٠).

الآيات (٢٥-٢٩)

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَقَيَّضْنَا﴾: أي: هَيَّأْنا وسَبَّبْنا، يُقالُ: قَيَّض اللهُ فُلانًا لِفُلانٍ، أي: جاءَه به، وأتاحَه له[١].

﴿قُرَنَاءَ﴾: جَمعُ قَرينٍ، وهو الصَّاحِبُ المُلازِمُ، والقُرَناءُ هنا: هم المُلازِمونَ لهم في الضَّلالةِ، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٢].

﴿وَحَقَّ﴾: أي: وجَب ولَزِمَ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابَقةُ والموافَقةُ، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[٣].

﴿خَلَتْ﴾: أي: مَضَتْ وذَهبَتْ، مِن خلا الزَّمانُ: إذا مضَى وذهَب[٤].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، =

﴿وَٱلْغَوْاْ﴾: أي: ائتُوا باللَّغْوِ عندَ قِراءتِه؛ لِيَتشَوَّشَ على القارئِ، والمرادُ باللَّغْوِ: ما لا أصْلَ له وما لا مَعنى له، وأصلُ (لغو): يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا الأسبابَ الَّتي أدَّت إلى سوءِ عاقبةِ الكافرينَ: وقَدَّرْنا وسَبَّبْنا للكُفَّارِ قُرَناءَ سُوءٍ، فحَسَّنوا لهم الحياةَ الدُّنيا وشَهَواتِها المُحَرَّمةَ، والتَّكذيبَ بالبَعثِ والجَزاءِ، ووَجَب عليهم عذابُ اللهِ في جُملةِ أُمَمٍ قد مضَت قَبْلَهم مِن كُفَّارِ الجِنِّ والإنسِ؛ إنَّهم كانوا خاسِرينَ.

ثمَّ يَحكي اللهُ تعالى ما تَواصَى به المشركونَ فيما بيْنَهم، فيقولُ: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ خَوفًا مِن تأثيرِ القُرآنِ: لا تُنصِتُوا لهذا القُرآنِ، وعارِضوه بما لا يُفهَمُ مِن التَّصفيقِ والصَّفيرِ وباطِلِ الكَلامِ؛ لعَلَّكم تَغلِبونَ بذلك محمَّدًا وأتْباعَه!

ثمَّ يَرُدُّ اللهُ تعالى عليهم مُهدِّدًا لهم، فيقولُ: فلَنُذيقَنَّ أولئك الَّذين كَفَروا عَذابًا شديدًا، ولَنَجزيَنَّهم أسوَأَ ما كانوا يَعمَلونَ مِنَ السَّيِّئاتِ، ذلك العَذابُ الَّذي نَجزي به الكُفَّارَ هو النَّارُ، لهم فيها دارُ الخُلودِ الدَّائِمِ؛ جزاءً بسَبَبِ كُفْرِهم وتَكذيبِهم بآياتِنا.

ثمَّ يَحكي اللهُ تعالى بعضَ أقوالِهم الَّتي يقولونَها وهم في النَّارِ، فيقولُ: وقال الَّذين كَفَروا: رَبَّنا أرِنَا اللَّذَينِ أضَلَّانا عن الحَقِّ مِن شَياطينِ الجِنِّ والإنسِ نجعَلْهما تحتَ أقدامِنا؛ لِيَكونَا دونَنا، وأشَدَّ مِنَّا في العذابِ!

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر الوَعيدَ الشَّديدَ في الدُّنيا والآخِرةِ على كُفرِ أولئك الكُفَّارِ؛ أردَفَه بذِكرِ السَّبَبِ الَّذي لأجْلِه وَقَعوا في ذلك الكُفرِ[١].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾.

أي: وهيَّأْنا ويَسَّرْنا للكُفَّارِ قُرَناءَ سُوءٍ[٢]، قدَّرْنا عليهم مُلازَمتَهم لهم لِيُضِلُّوهم؛ بسَبَبِ جُحودِهم الحَقَّ، وإعراضِهم عن آياتِ اللهِ[٣].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٧).

(٢) قيل: المرادُ بهم: الشَّياطينُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥).
وقيل: المرادُ: شَياطينُ الجِنِّ وغُواةُ الإنسِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطية، والقرطبي، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٣٤).

﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

أي: فحَسَّنوا لهم الحياةَ الدُّنيا وشَهَواتِها المُحَرَّمةَ، حتَّى افتَتَنوا بها وآثَروها على الآخِرةِ، وحَسَّنوا لهم التَّكذيبَ بالبَعثِ والجَزاءِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦، ٢٧).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦، ٢٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا المعنى مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٢٠).

قال ابنُ عاشور: (﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يُستعارُ للأُمورِ المُشاهَدةِ، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يُستعارُ للأُمورِ المُغَيَّبةِ. والمرادُ بـ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أمورُ الدُّنيا، أي: زَيَّنوا لهم ما يَعمَلونَه في الدُّنيا من الفَسادِ؛ مِثلُ عِبادةِ الأصنامِ، وقَتلِ النَّفْسِ بلا حَقٍّ، وأكْلِ الأموالِ، والعُدوانِ على النَّاسِ باليَدِ واللِّسانِ، والمَيسِرِ، وارتكابِ الفواحِشِ، والوَأْدِ. فعَوَّدوهم باستِحسانِ ذلك كُلِّه لِما فيه مِن مُوافَقةِ الشَّهَواتِ والرَّغَباتِ العارِضةِ القَصيرةِ المدى، وصَرَفوهم عن النَّظَرِ فيما يُحيطُ بأفعالِهم تلك مِنَ المفاسِدِ الذَّاتيَّةِ الدَّائمةِ. والمرادُ بـ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الأُمورُ المُغَيَّبةُ عن الحِسِّ مِن صفاتِ اللهِ، وأُمورِ الآخرةِ مِن البَعثِ والجَزاءِ؛ مِثلُ الشِّركِ باللهِ، ونسبةِ الوَلَدِ إليه، وظَنِّهم أنَّه يَخفَى عليه مَستورُ أعمالِهم، وإحالتِهم بَعثةَ الرُّسُلِ، وإحالتِهم البَعثَ والجَزاءَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٥).

وقيل بعكسِ القولِ السَّابقِ، أي أنَّ المرادَ بـ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: أمرُ الآخِرةِ، أي: زيَّنوا لهم التَّكذيبَ بالبعثِ والجَنَّةِ والنَّارِ، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أمرُ الدُّنيا ولَذَّاتها، فحبَّبوها إليهم، وزيَّنوا لهم جمْعَ المالِ وإمساكَه عن الإنفاقِ في الخَيرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٨).

=

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٩].

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾.

أي: ووَجَب عليهم عذابُ اللهِ الَّذي قدَّره على الكافِرينَ، في جُملةِ أُمَمٍ قد مَضَت قَبْلَهم مِن كُفَّارِ الجِنِّ والإنْسِ(١).

= وقيل: المرادُ بـ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: أعمالُهم الَّتي يَعمَلونَها ويُشاهِدونَها، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما يَعزِمونَ على عَمَلِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٤/ ٣٨٤).
وقيل: المعنى: حَسَّنوا لهم أعمالَهم في الماضي والمُستَقبَلِ، فلم يَرَوا أنفُسَهم إلَّا مُحسِنينَ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ كثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٥، ٢٧٦).
ممَّن اختار أنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجَب عليهم العذابُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٥١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩).
وممَّن اختار في الجملة أنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: سبَق القضاءُ الحتمُ بعذابِهم: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣٥).
قال السعدي: (﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجَب عليهم، ونزَل القضاءُ والقَدَرُ بعذابِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).
وممَّن قال: إنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ هو قولُه تعالى لإبليسَ: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]: جلالُ الدِّينِ المحلِّي، وأبو السعود، =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

أي: إنَّ الأُمَمَ الكافِرةَ الَّتي وَجَب عليها عَذابُ اللهِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ من السَّابِقينَ واللَّاحِقينَ: كانوا مَغبونينَ ببَيعِهم رِضا اللهِ ورَحمتَه بسَخَطِه وعَذابِه،

= والشوكاني، والألوسي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٧).

قال الشنقيطي: (المراد بالقولِ والكلمةِ... هو قولُه تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، كما دلَّت على ذلك آياتٌ مِن كتابِ الله تعالى؛ كقولِه تعالى في آخرِ سورة «هود»: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقولِه تعالى في «السجدة»: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقولِه تعالى في أُخرياتِ «ص»: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ * لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]. ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٧).

وخَسِروا أعمالَهم الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وخَسِروا أنفُسَهم وأهليهم في الآخِرةِ[١].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها حِكايةٌ لِحالٍ أُخرى مِن أحوالِ إعراضِهم عن دعوةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ بَعدَ أنْ وَصَفَ إعراضَهم في أنْفُسِهِمُ انتَقَلَ إلى وَصْفِ تَلقينِهمُ النَّاسَ أساليبَ الإعراضِ[٢].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ خَوفًا مِن تأثيرِ القُرآنِ: لا تُنصِتوا لهذا القُرآنِ فتَنقادُوا له[٣].

﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾.

أي: ائْتُوا باللَّغوِ عندَ قراءتِه، وتكلَّموا بالباطِلِ مِنَ القَولِ إذا سَمِعتُم قارِئَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٤٤، ١٤٥).

قيل: القائِلونَ هم أئِمَّةُ الكُفرِ، يقولونَ ذلك لعامَّتِهم وأتْباعِهم. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧).

وقيل: بَعضُهم يُوصي بعضًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٤٤).

يَقرَؤُه؛ رجاءَ أن تَغلِبوا بذلك مُحمَّدًا وأتْباعَه(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧، ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧، ٢٧٨).

قال ابن عاشور: (معنَى ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ قُولوا أقوالًا لا معنَى لها، أو تَكَلَّموا كلامًا غيرَ مرادٍ منه إفادةٌ، أو المقصودُ إحداثُ أصواتٍ تَغْمُرُ صَوتَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم بالقرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧).

ومِن اللَّغوِ فيه: الصِّياحُ والتَّصفيقُ المانِعُ مِن السَّماعِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤١).

قال القرطبي: (﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: قال أبو جهلٍ: إذا قرَأ محمَّدٌ فصيحوا في وجْهِه حتَّى لا يدري ما يقولُ. وقيل: إنَّهم فعَلوا ذلك لَمَّا أعجَزَهم القرآنُ. وقال مجاهدٌ: المعنى: ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ بالمُكاءِ والتَّصفيقِ والتَّخليطِ في المَنطِقِ حتَّى يَصيرَ لَغْوًا. وقال الضَّحَّاكُ: أكثِروا الكلامَ لِيَختَلِطَ عليه ما يقولُ. وقال أبو العاليةِ وابنُ عبَّاسٍ أيضًا: قِعوا فيه وعَيِّبوه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦).

قيل: المرادُ بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾: تَطمِسون أمْرَ محمَّدٍ عليه السَّلامُ، وتُميتون ذِكْرَه، وتَصرِفون القلوبَ عنه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن عطية، والثعالبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٨).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: لعلَّكم تَغلِبون محمَّدًا على قراءتِه: الثعلبي، والبغويُّ، والبيضاوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٧).

قال القرطبي: (﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ محمَّدًا على قراءتِه، فلا يَظهرُ ولا يستميلُ القلوبَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦).

وقال العُلَيمي: (﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ محمَّدًا على قراءتِه، فيَسكُت). ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٤).

وقيل: المراد: لكيْ تغلبوهم فيَسكتوا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقندي، والواحدي، وابن الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩).
=

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر إعراضَ الكُفَّارِ عن القُرآنِ وتواصِيَهم بذلك ظُلمًا منهم وعنادًا، لم يَبْقَ فيهم مَطمَعٌ للهِدايةِ، فلم يَبْقَ إلَّا عَذابُهم ونَكالُهم؛ لهذا قال الله تعالى[1]:

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

أي: فلَنُذيقَنَّ هؤلاءِ الَّذين كَفَروا بالحَقِّ عَذابًا شَديدًا[2].

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

= وقال البِقاعي: (﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي: لِيَكونَ حالُكم حالَ مَن يُرجَى له أن يَغلِبَ ويَظفرَ بمُرادِه في ألَّا يميلَ إليه أحدٌ، أو يَسكُتَ أو ينسَى ما كان يقولُ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٧٨، ١٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالذين كفروا: مشركو قريش: ابنُ جرير، وابنُ عطيةَ، وأبو حيان، والثعالبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

قال الشوكاني: (هذا وَعيدٌ لجَميعِ الكُفَّارِ، ويَدخُلُ فيهم الَّذين السِّياقُ معهم دُخولًا أوَّلِيًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨).

والمرادُ بالعذابِ الشديدِ: قيل: عذابُ الآخِرةِ؛ النَّارُ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاج، والقرطبي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٤).

وقيل: العَذابُ الشَّديدُ: هو عذابُ الدُّنيا في بَدرٍ وغَيرِها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطية، وأبو حيان، والثعالبي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٣٣).

وقال البقاعي: (﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الدُّنيا بالحِرمانِ وما يَتْبَعُه مِن فُنونِ الهَوانِ، وفي الآخِرةِ بالنِّيرانِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٧٩).

أي: ولَنُثيبَنَّهم جزاءَ أسوَأِ ما كانوا يُواظِبونَ على عَمَلِه مِنَ السَّيِّئاتِ[١].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٢٨﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ذلك العَذابُ الَّذي نَجزي به الكُفَّارَ: هو النَّارُ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: بأسوأِ أعمالِهم، وهو الشِّركُ والكفرُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والبغوي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٤).

وقال القرطبي: (ولَنَجْزيَنَّهم في الآخرةِ جزاءَ قُبْحِ أعمالِهم الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وأسْوَأُ الأعمالِ الشِّركُ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦).

وقال السعدي: (﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وهو الكفرُ والمعاصي؛ فإنَّها أسْوَأُ ما كانوا يَعمَلون؛ لِكَونِهم يَعمَلون المعاصيَ وغيرَها، فالجزاءُ بالعقوبةِ إنَّما هو على عمَلِ الشِّركِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

وقال الرازي: (قال: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، واختلَفوا فيه؛ فقال الأكثَرونَ: المرادُ: جزاءُ سوءِ أعمالِهم. وقال الحسَنُ: بل المرادُ أنَّه لا يُجازيهم على مَحاسنِ أعمالِهم؛ لأنَّهم أحبَطوها بالكفرِ، فضاعتْ تلك الأعمالُ الحسَنةُ عنهم، ولم يَبْقَ معهم إلَّا الأعمالُ القبيحةُ الباطلةُ، فلا جَرَمَ لم يَتحصَّلوا إلَّا على جزاءِ السَّيِّئاتِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٩).

وقال الألوسي: (﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: جزاءَ سَيِّئاتِ أعمالِهم الَّتي هي في أنفُسِها أسْوَأُ، فأفْعَلُ للزِّيادةِ المُطْلَقة). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧١). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

وقال ابنُ جرير، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي، والعُلَيمي: بأقبَحِ جزاءِ أعمالِهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).
=

﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾.

أي: لهم في النَّارِ دارُ الخُلودِ والمُكْثِ الدَّائِمِ إلى غَيرِ نِهايةٍ(١).

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾.

أي: جازَيْناهم بذلك؛ بسَبَبِ أنَّهم كانوا في الدُّنيا يَكفُرونَ ويُكَذِّبونَ بآياتِنا(٢).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾.

أي: وقال الَّذين كَفَروا: يا رَبَّنا أرِنَا مَن أضَلَّانا عن الحَقِّ مِن شَياطينِ الجِنِّ والإنسِ(٣).

= قال ابن عاشور: (الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدَّمَ، وهو الجزاءُ والعذابُ الشَّديدُ على أسوأِ أعمالِهم. وأعداءُ اللهِ: هم المُشرِكونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

قال ابن عاشور: (والخُلدُ: طُولُ البَقاءِ، وأُطلِقَ في اصطِلاحِ القُرآنِ على البَقاءِ المُؤَبَّدِ الَّذي لا نِهايةَ له). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

قال ابنُ جرير: (الدَّارُ الَّتي أخبَرَ جَلَّ ثناؤه أنَّها لهم في النَّارِ: هي النَّارُ، وحَسُنَ ذلك؛ لاختِلافِ اللَّفظَينِ، كما يُقالُ: لك مِن بلدتِك دارٌ صالِحةٌ، ومِنَ الكُوفةِ دارٌ كَريمةٌ، والدَّارُ: هي الكُوفةُ والبَلْدةُ، فيَحسُنُ ذلك لاختِلافِ الألفاظِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٠)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠). =

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـالِمُ عَلَىٰ يَدَيْـهِ يَـقُولُ يَـٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًـا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِي ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ [ق: ٢٧، ٢٨].

﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾.

أي: نَجعَلْ هَذَينِ اللَّذَينِ أضَلَّانا تحتَ أقدامِنا؛ لِيَكونَا دونَنا، وأسفلَ مِنَّا في النَّارِ، وأشَدَّ مِنَّا في العذابِ، فنَشتَفِيَ منهما[1].

= قيل: المرادُ باللَّذَينِ أضَلَّاهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ: جنسُ الجِنِّ والإنسِ، أي: الصِّنفَينِ اللَّذَينِ قاداهم إلى الضَّلالِ والعَذابِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، واستظهره ابنُ عطية، وذهب إليه البِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٢).

وقيل: المرادُ بهما: قابيلُ مِن الإنسِ، وإبليسُ مِن الجِنِّ. وممَّن ذهب إليه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، والواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٢)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، وإبراهيمُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

قال الماوَرْدي: (يحتمِلُ قَولُه: ﴿ مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ وجهَينِ؛ أحَدُهما: مِنَ الأذَلِّينَ. الثَّاني: مِنَ الأشَدِّينَ عَذابًا؛ لأنَّ مَن كان في أسفَلِ النَّارِ كان أشَدَّ عَذابًا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٩). =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ فيه أنَّه على العاقِلِ أن يَجتَهِدَ في اختيارِ أصحابِه وأخدانِه وأحبابِه؛ فإنَّ العاقِبةَ فيهم حَسَنةٌ جَسيمةٌ، أو قبيحةٌ وَخيمةٌ[1]، وإذا أراد اللهُ بعَبدٍ خَيرًا قيَّضَ له قُرَناءَ خَيرٍ يُعينونَه على الطَّاعاتِ، ويَحمِلونَه عليها، ويَدْعونَه إليها، وإذا كانوا إخوانَ سُوءٍ حَمَلوه على المُخالَفاتِ، ودَعَوْه إليها[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ أنَّه لا يجوزُ اللَّغَطُ والضَّوضاءُ حينَ قراءةِ القرآنِ، فإمَّا أنْ يَستمِعَ المرءُ إليه، وإمَّا أنْ

= ممَّن قال بأنَّ المرادَ بالأسفَلِينَ: الَّذين في الدَّركِ الأسفَلِ مِنَ النَّارِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاج، والثعلبي، والواحدي، وابن عطية، والقرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٥).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ بالأسفَلِينَ: الأذَلُّون المُهانُونَ: النيسابوري، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠، ٢٨١).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَين: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٢٥).

يقومَ، أمَّا أنْ يَجلِسَ إلى قارئِ القرآنِ، ويُثِيرَ الأصواتَ واللَّغَطَ والضَّوضاءَ؛ فهذا أَقَلُّ ما فيه أنَّه شبيهٌ بصنيعِ المشركين، ويَتفرَّعُ على ذلك: ما يَفعلُه بعضُ النَّاسِ في مَتاجرِهم ومَساكنِهم مِن تشغيلِ المُسَجِّلِ بقراءةِ القرآنِ، وتَجِدُهم يَصدُرُ منهم الضَّوضاءُ، ويَتكلَّمون بقبيحِ الكلامِ، فمِثلُ هذا يُعَدُّ إهانةً للقرآنِ، وإنْ لم يَقصِدْه الإنسانُ، فإنَّ صورتَه صورةُ الامتِهانِ، فإمَّا أنْ يَستمِعَ الشَّخصُ إلى كلامِ اللهِ؛ وإمَّا أنْ يُغلِقَ المسجِّلَ[1].

٣- أنَّ ما كان مُباحًا في غيرِ حالِ القِراءةِ، مِثلُ المُزاحِ الَّذي جاءتْ به الآثارُ -وهو أنْ يَمزَحَ ولا يَقولَ إلَّا صِدْقًا[2]؛ لا يكونُ في مُزَاحِه كَذِبٌ ولا عُدوانٌ- فهذا لا يُفعَلُ في حالِ قراءةِ القرآنِ، بل يُنَزَّهُ عنه مَجلِسُ القُرآنِ؛ فليس كلُّ ما يُباحُ في حالٍ غيرِ القراءةِ يُباحُ فيها، كما أنَّه ليس كلُّ ما يُباحُ خارجَ الصَّلاةِ يُباحُ فيها، لا سيَّما ما يَشْغَلُ القارئَ والمُستمِعَ عن التَّدَبُّرِ والفَهمِ، مِثلُ كَونِه يُخايِلُ ويَضحَكُ، فكيف واللَّغوُ والضَّحِكُ حالَ القِراءةِ: مِن أعمالِ المُشرِكينَ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[3]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ ذَمُّ المعرِضينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٤٧).

(٢) جاء في الحديث: أنَّ الصَّحابةَ قالوا: يا رسولَ الله، إنَّك تُداعِبُنا، قال: ((إنِّي لا أقولُ إلَّا حقًّا)).
أخرجه الترمذي (١٩٩٠)، وأحمد (٨٧٢٣) من حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وقال الذهبي في ((المهذب)) (٨/ ٤٢٧٠): (إسنادُه صالحٌ)، وجوَّد إسنادَه ابنُ الملقِّنِ في ((شرح البخاري)) (٢٤/ ٦٠٧)، وحسَّنَ إسنادَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٩/ ٢٠)، وشعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤/ ٣٣٩)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٦٠٥).

عن سماعِ القرآنِ[(١)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ أنَّ الإنسانَ يجبُ عليه أنْ يَبتعِدَ عن قُرَناءِ السوءِ، وقد حَذَّر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن جليسِ السوءِ؛ فقال: ((المرءُ على دِينِ خَليله[(٢)]؛ فلْيَنْظُرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ))[(٣)]، وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((مَثَلُ الجليسِ السَّوءِ كنافِخِ الكِيرِ؛ إمَّا أنْ يُحرِقَ ثيابَك، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه رائحةً خبيثةً))[(٤)]، فاحذَرْ قرينَ السُّوءِ لا تَجتَمِعْ به، لا تُصادِقْه، لا تَسْتَأْمِنْه على أيِّ شَيءٍ[(٥)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ في إنكارِهم أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيدِ اللهِ تعالى، وزعمِهم أنَّ أفعالَ العبادِ لا صُنْعَ لله فيها؛ إذْ قد أَخْبَرَ -نصًّا- أنَّ مَن زَيَّنَ لهم مِن قرنائِهم سيِّئَ أعمالِهم هو المُقَيِّضُ لهم، ولا يَخلو

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٥٨٨).

(٢) على دِينِ خَليلِه: أي: على عادةِ صاحِبِه وطريقتِه وسيرتِه. يُنظر: ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمُناوي (٢/ ٤٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٨٤١٧) واللفظُ له من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((رياض الصالحين)) (ص: ١٨٨)، وحسَّن الحديثَ ابنُ حجر في ((الأمالي المطلقة)) (ص: ١٥١)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٣٣)، وصحَّحه ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٣٠٦)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٨٣٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٥).

القولُ الَّذي حَقَّ عليهم مِن أنْ يكونَ سابقًا فيهم قبْلَ العملِ، أو عقوبةً للعملِ الَّذي زَيَّنَه لهم قرناؤُهم، وإذا كان هو مُقَيِّضَ قرنائِهم؛ فأيُّهما كان فالحُجَّةُ عليهم به ظاهرةٌ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ أبْيَنُ دَليلٍ على تَكليفِ الثَّقَلَينِ: الجِنِّ والإنْسِ، وتَعَلُّقِ الأمرِ والنَّهيِ بهم، وكذلك تَعَلُّقُ الثَّوابِ والعِقابِ بهم[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ أنَّ حُجَّةَ اللهِ برُسُله قامتْ بالتَّمَكُّنِ من العِلمِ؛ فليس مِن شَرطِ حُجَّةِ اللهِ تعالى عِلمُ المَدْعُوِّينَ بها؛ ولهذا لم يَكُنْ إعراضُ الكُفَّارِ عن استِماعِ القُرآنِ وتَدَبُّرِه مانعًا مِن قيامِ حُجَّةِ اللهِ تعالى عليهم، وكذلك إعراضُهم عن استِماعِ المنقولِ عن الأنبياءِ، وقراءةِ الآثارِ المأثورةِ عنهم: لا يَمنَعُ الحُجَّةَ؛ إذِ المُكْنةُ حاصِلةٌ[(٣)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ هذه شَهادةٌ مِن الأعداءِ، وأوضَحُ الحَقِّ ما شَهِدَت به الأعداءُ؛ فإنَّهم لم يَحكُموا بغَلَبتِهم لِمَن جاء بالحَقِّ إلَّا في حالِ الإعراضِ عنه، والتَّواصي بذلك، ومَفهومُ كَلامِهم أنَّهم إنْ لم يَلْغَوا فيه، بل استَمَعوا إليه، وألْقَوا أذهانَهم: أنَّهم لا يَغلِبونَ؛ فإنَّ الحَقَّ غالِبٌ غيرُ مَغلوبٍ، يَعرِفُ هذا أصحابُ الحَقِّ وأعداؤُه[(٤)]، وهذا مُشعِرٌ بأنَّهم كانوا يَجِدونَ القُرآنَ غالِبَهم؛ إذْ كانَ الَّذين يَسمَعونَه يُداخِلُ قُلوبَهم

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

فيُؤمِنونَ، أيْ: فإنْ لم تَفعَلوا فهو غالِبُكم[١].

٥- يَقولُ أئِمَّةُ الكُفرِ لِعامَّتِهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾؛ فإنَّهم عَلِموا أنَّ القُرآنَ كَلامٌ هو أكمَلُ الكَلامِ، وأيْقَنوا أنَّ كُلَّ مَن يَسمَعُه وتُداخِلُ نَفْسَه جَزالةُ ألفاظِه وسُمُوُّ أغراضِه، قَضى له فَهْمُه أنَّه حَقُّ اتِّباعُه، وقد أدْرَكوا ذلك بأنْفُسِهم، ولكِنَّهم غالَبَتْهم مَحَبَّةُ الدَّوامِ على سِيادةِ قَومِهم، فتَمالَؤوا ودَبَّروا تَدبيرًا لِمَنعِ النَّاسِ مِنِ استِماعِه، وذلك خَشيةً مِن أنْ تَرِقَّ قُلوبُهم عِندَ سَماعِ القُرآنِ، فصَرَفوهم عن سَماعِه، وهذا مِن شَأنِ دُعاةِ الضَّلالِ والباطِلِ أنْ يَكُمُّوا أفواهَ النَّاطِقينَ بالحَقِّ والحُجَّةِ، بما يَستَطيعونَ مِن تَخويفٍ وتَسويلٍ، وتَرهيبٍ وتَرغيبٍ، ولا يَدَعوا النَّاسَ يَتَجادَلونَ بالحُجَّةِ، ويَتَراجَعونَ بالأدِلَّةِ؛ لِأنَّهم يُوقِنونَ أنَّ حُجَّةَ خُصومِهم أنهَضُ، فهمْ يَستُرونَها ويُدافِعونَها، لا بمِثلِها، ولكِنْ بأساليبَ مِنَ البُهتانِ والتَّضليلِ، فإذا أعيَتْهمُ الحِيَلُ، ورَأَوْا بَوارِقَ الحَقِّ تَخفِقُ، وخَشُوا أنْ يَعُمَّ نُورُها النَّاسَ الَّذين فيهم بَقيَّةٌ مِن خَيرٍ ورَشَدٍ، عَدَلوا إلى لَغوِ الكَلامِ، ونَفَخوا في أبواقِ اللَّغوِ والجَعجَعةِ، لَعَلَّهم يَغلِبونَ بذلك على حُجَجِ الحَقِّ، ويَغمُرونَ القَولَ الصَّالِحَ باللَّغوِ، وكذلك شَأنُ هؤلاء[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عُبِّرَ بالعملِ عن جزائِهم إشارةً إلى أنَّ الجزاءَ بقَدْرِ العملِ، ولهذا قال العلماءُ: (الجزاءُ مِن جنسِ العملِ)، لكنَّه بالنِّسبةِ للسَّيِّئاتِ عَدْلٌ، وبالنِّسبةِ للحسناتِ فَضْلٌ؛ الحسَنةُ بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبعِ مِئةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ؛ والسَّيِّئةُ بمِثلِها[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٥١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ أنَّ التَّكذيبَ بآياتِ اللهِ رِدَّةٌ؛ لأنَّ اللهَ وَصَفَ المكذِّبينَ بأنَّهم أعداءٌ، وأنَّ جَزاءَهم دارُ الخُلدِ، وهذا أمرٌ مُتَّفَقٌ عليه: أنَّ مَن كَذَّبَ اللهَ ورَسولَه فإنَّه مُرتَدٌّ كافِرٌ، يُستتابُ، فإنْ تاب وأقَرَّ، وإلَّا قُتِلَ[1].

٨- قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، لأنَّ الباءَ هنا للسَّببيَّةِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]؛ وذلك أنَّه حُكيَ قولُهم المُقتَضي إعراضَهم عنِ التَّدبُّرِ في دَعوةِ الإيمانِ، ثمَّ ذُكِر كُفرُهم بخالِقِ الأكوانِ بقولِه: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ٩]، ثمَّ ذُكِر مَصيرُهم في الآخِرةِ بقولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [فصلت: ١٩]، ثمَّ عُقِّبَ ذلك بذِكرِ سَبَبِ ضَلالِهمُ الَّذي نَشَأَتْ عنه أحوالُهم بقولِه: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾، وتَخلَّلَ بيْن ما هُنالِك وما هنا أفانينُ مِنَ المَواعِظِ والدَّلائِلِ والمِنَنِ والتَّعاليمِ والقَوارِعِ والإيقاظِ[3].

- قولُه: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم ...﴾ قَيَّضَ، أي: أتاحَ وهَيَّأَ شَيئًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٥٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٤).

لِلعَمَلِ في شَيءٍ، والقُرَناءُ: جَمعُ قَرينٍ، وهو الصَّاحِبُ المُلازِمُ، والقُرَناءُ هنا: همُ المُلازِمونَ لهم في الضَّلالةِ؛ إمَّا في الظَّاهِرِ، مِثلُ دُعاةِ الكُفرِ وأئمَّتِه، وإمَّا في باطِنِ النُّفوسِ، مِثلُ شَياطينِ الوَسواسِ، ومَعنى تَقييضِهم لهم: تَقديرُهم لهم، أيْ: خَلَقَ المُناسَباتِ الَّتي يَتسَبَّبُ عليها تَقارُنُ بَعضِهم مع بَعضٍ؛ لِتَناسُبِ أفكارِ الدُّعاةِ والقابِلينَ، فالتَّقييضُ بمَعنى التَّقديرِ، عِبارةٌ جامِعةٌ لِمُختَلِفِ المُؤَثِّراتِ والتَّجَمُّعاتِ الَّتي تُوجِبُ التَّآلُفَ والتَّحابَّ بيْنَ الجَماعاتِ، ولِمُختَلِفِ الطَّبائِعِ المُكَوَّنةِ في نُفوسِ بَعضِ النَّاسِ، فيَقتَضي بَعضُها جاذبيَّةَ الشَّياطينِ إليها، وحُدوثَ الخَواطِرِ السَّيِّئةِ فيها؛ ولِلإحاطةِ بهذا المَقصودِ أُوثِرَ التَّعبيرُ هنا بلَفظِ (قَيَّضْنَا) دُونَ غَيرِه مِن نَحوِ: بَعَثْنا، وأرسَلْنا[١].

- قولُه: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أيْ: وهو وَعيدُ اللهِ إيَّاهم بالنَّارِ على الكُفرِ؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ للعَهدِ، وفي هذا العَهدِ إجمالٌ؛ لأنَّه وإنْ كانَ قد وَرَدَ في القُرآنِ ما يُعهَدُ منه هذا القَولُ، مِثلُ قَولِه: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [الزمر: ١٩]؛ فإنَّه يُمكِنُ ألَّا تَكونَ الآياتُ المَذكورةُ قد سَبَقتْ هذه الآيةَ[٢].

- وقولُه: ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾، أيْ: حَقَّ عليهم حالةَ كَونِهم في أُمَمٍ أمثالِهم قد سَبَقوهم، و﴿مِنْ﴾ في قَولِه: ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ بَيانيَّةٌ؛ فيَجوزُ أنْ يَكونَ بَيانًا لـ ﴿أُمَمٖ﴾، أيْ: من أُمَمٍ مِنَ البَشَرِ ومِنَ الشَّياطينِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ بَيانًا لـ ﴿قُرَنَآءَ﴾، أيْ: مُلازِمينَ لهمْ مُلازَمةً خَفيَّةً، وهي مُلازَمةُ الشَّياطينِ لهم بالوَسوَسةِ، ومُلازَمةُ أئِمَّةِ الكُفرِ لهم بالتَّشريعِ لهم ما لم يَأذَنْ به اللهُ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧٦).

- وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ قدَّم فيه الأقوى؛ لِتُفهِمَ القُدرةُ عليه القُدرةَ على ما دُونَه مِن بابِ الأَولى؛ فإنَّ الإنسَ كانوا يَعُدُّونَ أنفُسَهم دونَ الجِنِّ، فيَعوذونَ بهم[١].

- ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ بيانًا لِلقَولِ، مِثلَ نَظيرَتِها ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ [الصافات: ٣١]. ويَجوزُ أنْ تَكونَ هذه الجُملةُ مُستَأنَفةً استِئنافًا بيانيًّا ناشِئًا عن جُملةِ ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾؛ تَعليلًا لِاستِحقاقِهمُ العَذابَ، والمَعنيانِ مُتَقارِبانِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ، مَسوقٌ لِتَقريرِ حالِهم ومُكابَرَتِهم عِندَ قِراءةِ القُرآنِ[٣]. أو عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]؛ عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، ومُناسَبةُ التَّخَلُّصِ إليه: أنَّ هذا القولَ ممَّا يَنشَأُ عن تَزيينِ قُرَنائِهم مِنَ الإنْسِ. أو هو عَطفٌ على جُملةِ ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم﴾[٤] [فصلت: ٢٥].

- قَولُهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ تَحذيرٌ واستِهزاءٌ بالقُرآنِ؛ فاسمُ الإشارةِ (هذا) مُستَعمَلٌ في التَّحقيرِ. وتَسميَتُهم إيَّاه بالقُرآنِ حِكايةٌ لِمَا يَجري على ألْسِنةِ المُسلِمينَ مِن تَسميَتِه بذلك. وتَعديةُ فِعلِ ﴿تَسْمَعُوا۟﴾ باللَّامِ؛ لِتَضمينِه مَعنى: تَطمَئِنُّوا أو تَركَنوا[٥].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٦).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٥٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٦، ٢٧٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧٧).

- قولُهم: ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ لَمَّا كان المقصودُ بتَخلُّلِ أصْواتِهم صوتَ القارئِ حتَّى لا يَفقَهه السَّامِعونَ، عُدِّيَ اللَّغوُ بحَرفِ (في) الظَّرفيَّةِ؛ لِإفادةِ إيقاعِ لَغوِهم في خِلالِ صَوتِ القارِئِ وُقوعَ المَظروفِ في الظَّرفِ. وأُدخِلَ حَرْفُ الظَّرفيَّةِ على اسمِ القُرآنِ دُونَ اسمِ شَيءٍ مِن أحوالِه -مِثلَ صَوتٍ أو كَلامٍ-؛ لِيَشملَ كُلَّ ما يُخفي ألفاظَ القُرآنِ، أو يُشَكِّكُ في مَعانيها، أو نَحوَ ذلك، وهذا نَظْمٌ له مَكانةٌ مِنَ البَلاغةِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ[2]، حيثُ لم يقُلْ: (فَلَنُذيقَنَّهم)-؛ لِقَصْدِ ما في المَوصولِ (الَّذين) مِنَ الإشارةِ إلى عِلَّةِ إذاقةِ العَذابِ، أيْ: لِكُفرِهمُ المَحكيِّ بَعضُه فيما تَقدَّمَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧، ٢٧٨).

(٢) وللإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ فوائدُ:

الأُولى: بَيانُ الصِّفةِ أو الوَصفِ الَّذي استَحَقَّ مِن أجْلِه أنْ يُعاقَبَ بهذه العُقوبةِ.

الثَّانية: تَنبيهُ المخاطَبِ؛ لأنَّ الكلامَ إذا كان على نَسَقٍ واحدٍ بضَمائرِه ومُظْهَراتِه؛ فإنَّ الإنسانَ لا يَنتَبِهُ، لكنْ إذا جاء شَيءٌ يُخرِجُ الكلامَ عن سِياقِه، فإنَّه لا بُدَّ أنْ يَنتبِهَ، وقد جَرَتِ العادةُ أنَّ الكلامَ إذا كان السِّياقُ يَقْتضي الإضمارَ فإنَّه يأْتي الإضمارُ، فإذا جاء الإظهارُ موضعَ الضَّميرِ صارَ هذا على خِلافِ العادةِ؛ فسوف يَتوقَّفُ الإنسانُ ويَتساءَلُ: لماذا جاء الظَّاهرُ مَوضعَ الضميرِ؟ فيكونُ في ذلك انتباهٌ له.

الثَّالثةُ: الحُكْمُ على مَرجعِ الضَّميرِ بمُقْتضى هذا الاسمِ الظَّاهرِ؛ ففي الآيةِ الَّتي معنا ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، إذنْ تكونُ الفائدةُ الحُكْمَ عليهم بالكُفْرِ.

الرَّابعةُ: العمومُ، لو قال: (فلَنُذيقَنَّهم) صار هذا الوعيدُ خاصًّا بالَّذين قالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، فإذا قال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ صار عامًّا لهم ولغيرِهم.

الخامسةُ: مُراعاةُ فَواصلِ الآياتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٤٩، ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٨، ٢٧٩).

وقيل: يجوزُ أنْ يُذكَرَ الَّذين كَفَروا عامَّةً؛ فيَدخُلُ فيه هؤلاء اللَّاغون والآمرونَ لهم باللغوِ دُخولًا أوَّليًّا[١].

- قولُه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (أسوَأ): اسمُ تَفضيلٍ مَسلوبُ المُفاضَلةِ هنا، وإنَّما أُريدَ به السَّيِّئُ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فصِيغَ بصِيغةِ التَّفضيلِ لِلمُبالَغةِ في سُوئِه. وإضافَتُه إلى ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من إضافةِ البَعضِ إلى الكُلِّ، وليس مِن إضافةِ اسمِ التَّفضيلِ إلى المُفَضَّلِ عليه[٢].

- ويُمكِنُ أنْ تَجرِيَ إضافةُ (أسوأ) إلى (الَّذي) على ظاهِرِها، ويكونَ عطْفُ قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى﴾ الآيةَ، على قوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ...﴾ الآيةَ، على نَحوِ عطْفِ ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ على ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: ٩٨]، كأنَّه قِيل: فلَنُذيقَنَّ أولئك اللَّاغينَ بما فَعَلوا مِن الشِّركِ والإفسادِ والعِصيانِ عَذابًا شَديدًا، وخُصوصًا لَنَجْزِيَنَّهم أسْوَأَ جَزاءِ أعْمالِهم؛ مِن الاستهزاءِ بآياتِ اللهِ، وتَحقيرِ القرآنِ المَجيدِ، وقولِهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾. والنَّظْمُ يُساعِدُ هذا التَّأويلَ؛ لأنَّه لَمَّا رُتِّبَ على ما سبَقَ، وعُطِفَ عليه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾، بعْدَ إثباتِ الكُفرِ لهم والاستِخفافِ بكِتابِ اللهِ المَجيدِ؛ عُلِّلَ استِحقاقُ العذابِ الشَّديدِ بوَضعِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مَوضعَ الضَّميرِ تَقْريرًا، وعُلِّلَ استِحقاقُ الأسوَأِ بوَضعِ ﴿أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ مَوضعَ (هُمْ) تَلويحًا، وأُشِيرَ إلى الأسوَأِ -وهو قريبٌ- باسمِ الإشارةِ الدَّالِّ على البُعدِ؛ لِيُؤذِنَ بالفرْقِ بيْن الجَزاءينِ، والبَونِ بيْن الكَفرتَينِ، ثمَّ بُيِّنَ بأنَّ هذا الجزاءَ الخاصَّ مُوجِبُه ذلك الاستِخفافُ تَصْريحًا؛ بأنْ خُتِمَ الكلامُ بقولِه: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

وأعاد بذِكرِ الجزاءِ، ووَضعَ الآياتِ مَوضعَ القُرآنِ، وأُوثِرَ صِيغةُ التَّعظيمِ؛ تَربيةً لتلك الفوائدِ، وتَرْشيحًا لها، وعُبِّرَ عن اللَّغْوِ بالجَحْدِ رَدًّا للعَجُزِ على الصَّدْرِ؛ فظهَرَ أنَّ الإضافةَ في الآيةِ ممَّا قُصِدَ بها الزِّيادةُ على ما أُضِيفَ إليه(١).

- والتَّعبيرُ بفِعلِ (الكَون) يدُلُّ على أنَّهم كانوا مَطبوعينَ على ما أوجَبَ لهم النَّارَ مِن الأوزارِ، فقال: ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: يُجدِّدون عمَلَه مُستمِرِّينَ عليه(٢)؛ فعُبِّرَ بالمُضارعِ؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستِمرارِ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ في هذا تَعريضٌ بمَن لا يَكونُ عِندَ كَلامِ اللهِ المَجيدِ خاضِعًا خاشِعًا مُتَفكِّرًا مُتَدبِّرًا، وتَهديدٌ ووَعيدٌ شَديدٌ لِمَن يَصدُرُ عنه عِندَ سَماعِه ما يُشَوِّشُ على القارِئِ ويَخلِطُ عليه القِراءةَ، وإرعادٌ وإبراقٌ لِمَن يُدرَكُ منه قِلَّةُ مُبالاةٍ به؛ فَضلًا عمَّن يَنبِذُه وَراءَه ظِهْرِيًّا، واشتغَلَ بما يُنافيه مِن العُلومِ المَذمومةِ، فانْظُرْ إلى عَظَمةِ القُرآنِ المَجيدِ، وتأمَّلْ في هذا التَّغليظِ والتَّشديدِ، واشهَدْ لِمَن عظَّمَه، وأجَلَّ قَدْرَه، وألْقَى إليه السَّمعَ وهو شَهيدٌ؛ بالفَوزِ العظيمِ، والأجرِ الكبيرِ(٣).

- قولُه: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ دارُ الخُلدِ هنا: النَّارُ، وجاءَ بالظَّرفيَّةِ بتنزيلِ النَّارِ مَنزِلةَ ظَرفٍ لِـ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾، وما دارُ الخُلدِ إلَّا عَينُ النَّارِ، وهذا مِن أُسلوبِ التَّجريدِ(٤)؛ لِيُفيدَ مُبالَغةَ مَعنى الخُلدِ في النَّارِ، وهو مَعدودٌ مِنَ المُحَسِّناتِ البَديعيَّةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠٠، ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠١).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ١٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ أي: جَزاءً بما كانوا يُلْغُون فيها؛ فذَكَر الجُحودَ الَّذي هو سَبَبُ اللَّغوِ، وهذا نَوعٌ مِن أنواعِ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ(١)؛ لِمَا بيْنَ قَولِهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] الآيةَ، وبيْن قَولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ مِنَ التَّوافُقِ المَعنويِّ؛ لِأنَّ مَن يَستَهزِئُ بالقُرآنِ لا بُدَّ أنْ يَكونَ جاحِدًا له(٢).

- وصِيغةُ المُضارِعِ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ دالَّةٌ على تَجدُّدِ الجُحودِ حِينًا فَحِينًا وتَكرُّرِه(٣).

- وعُدِّيَ فِعلُ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ بالباءِ؛ لِتَضمينِه مَعنى: يُكَذِّبونَ(٤).

- وتَقديمُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على ﴿يَجۡحَدُونَ﴾؛ لِلاهتِمامِ، ولِلرِّعايةِ على الفاصِلةِ(٥).

= حيان)) (٩/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٥٢).

(١) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، أو المُلحقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصلةِ آخِرَ كَلِمةٍ في الصَّدرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلِمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨]، أيْ: ويَقولونَ ذلك في جَهنَّمَ...؛ فعُدِلَ عن صِيغةِ الاستِقبالِ إلى صِيغةِ المُضيِّ؛ لِلدَّلالةِ على تَحقيقِ وُقوعِ هذا القَولِ، فالقائلونَ: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ هم عامَّةُ المُشرِكينَ، كما يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾[1].

- ومَعنى ﴿أَرِنَا﴾: عَيِّنْ لنا، وهو كِنايةٌ عن إرادةِ انتِقامِهم منهم، وإنَّما طَلَبوا أنْ يَرَوْهما؛ لِأنَّ المُضِلِّينَ كانوا في دَرَكاتٍ مِنَ النارِ أسفَلَ مِن دَرَكاتِ أتْباعِهم؛ فلذلك لم يَعرِفوا أيْنَ هم[2].

- والتَّعليلُ بقَولِهم: ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ تَوطِئةٌ لاستِجابةِ اللهِ تعالَى لهم أنْ يُرِيَهُموهما؛ لِأنَّهم عَلِموا مِن غَضَبِ اللهِ عليهم أنَّه أشَدُّ غَضَبًا على الفَريقَيْنِ المُضِلَّيْنِ، فتَوَسَّلوا بعَزْمِهم على الانتِقامِ منهم إلى تَيسيرِ تَمكينِهم مِنَ الانتِقامِ منهم[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٠، ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨١).

الآيات (٣٠-٣٦)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ
وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا
مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ
ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ
وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ
عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تَدَّعُونَ﴾: أي: تُريدونَ وتَطلُبونَ وتَتَمَنَّوْنَ، وأصلُ (دعو): هو أنْ تُميلَ الشَّيءَ إليك بصَوتٍ وكلامٍ يَكونُ منكَ[1].

﴿نُزُلًا﴾: أي: ثَوابًا ورِزقًا، والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للنَّازِلِ مِنَ الزَّادِ، ويُهَيَّأُ للضَّيفِ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[2].

﴿وَلِيٌّ﴾: أي: صَديقٌ ناصِرٌ، وأصلُ هذه المادَّةِ يدُلُّ على القُرْبِ؛ سواءٌ مِن حيثُ المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتِقادُ، وكلُّ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٩).

مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[١].

﴿حَمِيمٌ﴾: أي: قَريبٌ مُشفِقٌ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على دُنُوٍّ[٢].

﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: أي: يَستَخِفَّنَّك منه خِفَّةٌ وغضَبٌ وعَجَلةٌ، أو يُحَرِّكَنَّك بالشَّرِّ، وأصلُ (نزغ): يدُلُّ على إفسادٍ بيْنَ اثنَينِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟﴾

قَولُه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾: يجوزُ في (أن) المُدغَمةِ في (لا) أن تكونَ مَصدريَّةً ناصِبةً، و(لا) نافيةٌ، والمضارعُ ﴿تَخَافُوا۟﴾ مَنصوبٌ بـ (أَنْ)، والمصدَرُ المؤَوَّلُ مجرورٌ بحَرفِ جَرٍّ مَحذوفٍ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿تَتَنَزَّلُ﴾، أي: تتنَزَّلُ بانتفاءِ خَوفِهم وحَزَنِهم. ويجوزُ أن تكونَ (أن) مُخفَّفةً مِن الثَّقيلةِ، واسمُها ضميرُ شأنٍ مَحذوفٌ، أو مُفَسِّرةً؛ لأنَّ التَّنَزُّلَ بمعنى القَولِ دُونِ حُروفِه، و (لا) ناهيةٌ على هذين الوَجهَينِ، والفِعلُ المضارِعُ ﴿تَخَافُوا۟﴾ مَجزومٌ بِلا، والتَّقديرُ فيهما: بأنَّه لا تَخافوا، أو: أي لا تَخافوا[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٢٥)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٤/ ٣٠٧).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا حُسْنَ عاقبةِ المؤمنينَ: إنَّ الَّذين قالوا: ربُّنا اللهُ، ثمَّ استقاموا على أمْرِه سُبحانَه تتنزَّلُ عليهم الملائكةُ بأنْ لا تخافُوا ممَّا يُستَقبَلُ، ولا تَحزَنوا على ما مضَى، وأبشِروا بالجنَّةِ الَّتي كُنتُم تُوعَدونَ بدُخولِها، نحن كنَّا أولياءَكم في الحياةِ الدُّنيا، وكذلك نكونُ في الآخِرةِ، ولكم في الآخِرةِ ما تَشتَهيه أنفُسُكم، وما تَطلُبونَه وتتَمَنَّونَه؛ ضيافةً وإكرامًا مِن الغَفورِ الرَّحيمِ سُبحانَه وبِحَمدِه.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه مَنزِلةَ الَّذين يقومونَ بالدَّعوةِ إلى الحقِّ، فيقولُ: ولا أحَدَ أحسَنُ قَولًا مِمَّن دعا النَّاسَ إلى توحيدِ اللهِ وطاعتِه، وعَمِلَ صالِحًا، وقال: إنَّني مِن المُسلِمينَ.

ثمَّ يُرشِدُ اللهُ تعالى إلى ما يُؤدِّي إلى إشاعةِ المحَبَّةِ، فيقولُ: ولا تَستوي الخَصلةُ الحَسَنةُ مع الخَصلةِ السَّيِّئةِ في الجَزاءِ؛ فادفَعْ -يا مُحمَّدُ- السَّيِّئةَ بالخَصلةِ الَّتي هي أحسَنُ؛ فأحسِنْ إلى مَن أساء إليك، وادْعُه بالحِكمةِ والرِّفقِ، واصفَحْ عنه، واصبِرْ على أذاه؛ فإنَّك إنْ فعَلْتَ ذلك صار مَن هو عدوٌّ لك كأنَّه صَديقٌ شَديدُ المحبَّةِ لك.

وما يُعطَى هذه الخَصلةَ الشَّريفةَ إلَّا الَّذين صَبَروا، وما يُعطاها إلَّا ذو نَصيبٍ وافرٍ مِنَ الخَيرِ. ثمَّ يُرشِدُ اللهُ عبادَه إلى ما يَعصِمُهم مِن الشَّيطانِ، فيقولُ: وإنْ يُوَسْوِسْ لك الشَّيطانُ -يا مُحمَّدُ- لِيُفسِدَ بيْنَك وبيْنَ غَيرِك، فالتَجِئْ إلى اللهِ؛ لِيَعصِمَك منه؛ إنَّ اللهَ هو السَّميعُ العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أطنَبَ في الوَعيدِ؛ أردَفَه بهذا الوَعدِ الشَّريفِ، وهذا ترتيبٌ لَطيفٌ مَدارُ كُلِّ القُرآنِ عليه[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾.

أي: إنَّ الَّذين قالوا نُطقًا بألسِنَتِهم، واعتِقادًا بقُلوبِهم: ربُّنا اللهُ وَحْدَه، ثمَّ استَقاموا على تَوحيدِ اللهِ، وامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه، وداوَموا على طاعتِه بإخلاصٍ له، ومُوافَقةٍ لِشَرعِه بلا إفراطٍ ولا تَفريطٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: ١١٢].

وعن سُفْيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعْدَك. قال: قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، فاستَقِمْ))[٣].

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

أي: أولئك المُؤمِنونَ المُستَقيمونَ تَتنَزَّلُ[٤] ....

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢ - ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).
قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أنَّهم صَدَعوا بذلك، ولم يَخشَوا أحدًا بإعلانِهم التَّوحيدَ؛ فقَولُهم تصريحٌ بما في اعتِقادِهم؛ لأنَّ المرادَ أنَّهم قالوا ذلك عن اعتقادٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢).

(٣) رواه مسلم (٣٨).

(٤) قال ابن عثيمين: (﴿تَتَنَزَّلُ﴾ مدلولُها ... أنَّ تَنزُّلَهم يكونُ شيئًا فشيئًا... لا تَتنزَّلُ دَفْعةً واحدةً، والثَّاني أنَّ التَّنزُّلَ أو النُّزولَ مُتكرِّرٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٧). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

عليهم الملائِكةُ[1].

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبدَ المؤمِنَ إذا كان في انقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، وإقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ، بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهم الشَّمسُ، معهم كَفَنٌ مِن أكفانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٥)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

قيل: تَنَزُّلُ الملائكةِ على المؤمِنِ يكونُ عندَ الموتِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: يحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ، وزيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

وقيل: عندَ الموتِ وفي وقتِ البعثِ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٥).

وقيل: عندَ الموتِ، وفي القبرِ، وعند البَعثِ. وممَّن قال بهذا القَولِ: ابنُ القيِّم. يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٩٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: وكيعُ بنُ الجَرَّاحِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٤).

وقيل: تَنَزُّلُ الملائكةِ على المؤمِنِ: في حياتِه؛ لتأييدِه بإلهامِ الطَّاعاتِ، ومُحاربةِ الشَّياطينِ ونَحوِ ذلك، وبذلك تتِمُّ مُقابَلةُ تنَزُّلِهم على المؤمنينَ بذِكرِ تَقييضِ القُرَناءِ للكافِرينَ، المتقَدِّمِ ذِكرُها في الآياتِ السَّابقةِ. وممَّن اختاره: أبو السعود، واستحسَنَه ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٦).

وقيل: المرادُ: العُمومُ؛ فالملائِكةُ تتنَزَّلُ في الحياةِ، وعندَ الموتِ، وفي كُلِّ حالٍ تَقتضي نزولَهم على المؤمِنِ المستقيمِ. وممَّن ذهب إلى هذا العُمومِ في الجُملةِ: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٧، ١٦٨).

الجَنَّة، وحَنُوطٌ[١] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجلِسوا مِنه مَدَّ البَصَرِ[٢]، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ حتَّى يَجلِسَ عندَ رَأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخرُجي إلى مَغفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضوانٍ، فتَخرُجُ تَسيلُ كما تَسيلُ القَطرةُ مِن فِي السِّقاءِ، فيَأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفَةَ عَينٍ حتَّى يَأخُذوها فيَجعَلوها في ذَلِك الكَفَنِ وفي ذَلِك الحَنُوطِ، ويَخرُجُ مِنها كأَطْيَبِ نَفْحةِ[٣] مِسْكٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ، فيَصعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على مَلأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيَستَفتِحون له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنتَهى به إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتُبوا كتابَ عَبدي في عِلِّيِّينَ، وأعيدُوه إلى الأرضِ؛ فإنِّي منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى...))[٤].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن أَحَبَّ لِقاءَ اللهِ أحَبَّ اللهُ لِقاءَه، ومَن كَرِهَ لِقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَه. قُلْنا: يا رَسولَ اللهِ،

---

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتَى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٦).

(٢) مَدَّ البَصَرِ: أي: مَداه، وهي الغايةُ الَّتي يَنتهي إليها البَصَرُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢١٣).

(٣) النَّفحةُ: المرَّةُ من نَفح الطِّيبِ، أي: رائحَته. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

(٤) أخرجه ابنُ أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقاربةٍ.

صحَّحَ إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وصحَّحَ الحديثَ ابنُ القيِّم في ((الروح)) (ص: ٤٦)، والألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحسَّنه المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠).

كُلُّنا نَكرَهُ الموتَ. قال: ليس ذاك كراهيةَ المَوتِ، ولكِنَّ المؤمِنَ إذا حُضِرَ[(١)] جاءَه البشيرُ مِنَ اللهِ بما هو صائِرٌ إليه، فليس شَيءٌ أحَبَّ إليه مِن أن يكونَ قد لَقِيَ اللهَ، فأحَبَّ اللهُ لِقاءَه؛ وإنَّ الفاجِرَ أو الكافِرَ إذا حُضِرَ جاءَه بما هو صائِرٌ إليه مِنَ الشَّرِّ، أو ما يَلقاه مِنَ الشَّرِّ، فكَرِهَ لِقاءَ اللهِ، وكَرِهَ اللهُ لِقاءَه))[(٢)].

﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾.

أي: تتَنَزَّلُ عليهم الملائِكةُ بأنْ لا تخافُوا ممَّا يُستَقبَلُ، ولا تَحزَنوا على ما مَضى[(٣)].

---

(١) حُضِر: أي: دَنا موتُه. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٤٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٠٤٧) واللَّفظُ له، والبزار (٦٦٠٤)، وأبو يعلى (٣٨٧٧).

صحَّحه ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٧/ ١٦٧)، والألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٤٨٥)، وقال المُنْذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٥٤): (رواه أحمد، ورواتُه رواةُ الصَّحيح). وقال البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٢/ ٤٢٩): (رواه أبو يعلى بسندٍ صحيحٍ). وصحَّح إسنادَه على شرطِ الشَّيخَينِ شعيبُ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٩/ ١٠٤).

والحديثُ أصلُه في الصَّحيحَين عن أنسٍ عن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٨).

قيل: المرادُ: لا تخافوا مِنَ الموتِ، ولا تَحزنوا على ما خلَّفتُم وراءَكم في الدُّنيا مِن أهلٍ أو ولدٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

وممَّن ذهب إلى العُمومِ بنَفيِ الخَوفِ مِنَ المُستقبَلِ، والحُزنِ على الماضي: ابنُ عطية، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٨).

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

أي: وأبشِروا بالجَنَّةِ الَّتي كُنتُم تُوعَدونَ بدُخولِها في كُتُبِ اللهِ وعلى ألسِنةِ رُسُلِه؛ جَزاءَ إيمانِكم باللهِ، واستِقامتِكم على دِينِه[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ في هذه الآيةِ الكريمةِ عن الملائِكةِ أنَّهم قالوا للمُؤمِنينَ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١]، وهذا في مُقابَلةِ ما ذكَرَه في وَعيدِ الكُفَّارِ؛ حيث قال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾[2] [فصلت:٢٥].

وأيضًا لَمَّا أثبَتوا للمُؤمِنينَ الخَيرَ، ونَفَوا عنهم الضَّيرَ؛ عَلَّلوه بقَولِهم[3]:

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

قال ابن القيِّم: (وأوَّلُ بِشارةِ الآخِرةِ: عندَ الموتِ). ((الروح)) (ص: ٩٣).

وقال ابنُ كثيرٍ: (قال زيدُ بنُ أسْلَمَ: «يُبشِّرونَه عندَ مَوتِه، وفي قَبرِه، وحينَ يُبعَثُ». رواه ابنُ أبي حاتمٍ. وهذا القَولُ يَجمَعُ الأقوالَ كُلَّها، وهو حَسَنٌ جِدًّا، وهو الواقِعُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٤).

أي: نحن نَتَوَلَّاكم في الحياةِ الدُّنيا، ونتولَّاكم في الآخِرةِ أيضًا(١).

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٠).

ممَّن ذهب إلى أنَّ ذلك يُقالُ للمُؤمِنينَ عندَ الموتِ، والمعنى: كنَّا أولياءَكم في الدُّنيا، وكذلك نكونُ معكم في الآخِرةِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

قال ابنُ كثير: (أي: تقولُ الملائكةُ للمُؤمِنينَ عندَ الاحتِضارِ: نحن كُنَّا أولياءَكم، أي: قُرَناءَكم في الحياةِ الدُّنيا؛ نُسَدِّدُكم ونُوَفِّقُكم، ونَحفَظُكم بأمرِ الله، وكذلك نكونُ معكم في الآخِرةِ؛ نُؤنِسُ منكم الوَحشةَ في القُبورِ، وعندَ النَّفخةِ في الصُّورِ، ونُؤَمِّنُكم يومَ البَعثِ والنُّشورِ، ونُجاوِزُ بكم الصِّراطَ المستقيمَ، ونُوصِلُكم إلى جنَّاتِ النَّعيم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

وقال السعدي: (﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يَحُثُّونَهم في الدُّنيا على الخَيرِ ويُزَيِّنونَه لهم، ويُرَهِّبونَهم عن الشَّرِّ ويُقَبِّحونَه في قُلوبِهم، ويَدْعُونَ اللهَ لهم، ويُثَبِّتونَهم عند المصائبِ والمَخاوِفِ، وخُصوصًا عندَ الموتِ وشِدَّته، والقَبرِ وظُلمته، وفي القيامةِ وأهوالِها، وعلى الصِّراطِ، وفي الجنَّةِ يُهَنِّئونَهم بكرامةِ ربِّهم، ويَدخُلونَ عليهم من كُلِّ بابٍ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨، ٧٤٩).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَتعاقَبونَ فيكم مَلائِكةٌ باللَّيلِ، وملائِكةٌ بالنَّهارِ، ويَجتَمِعونَ في صَلاةِ الفَجرِ وصَلاةِ العَصرِ، ثمَّ يَعرُجُ الَّذين باتُوا فيكم، فيَسألُهم رَبُّهم وهو أعلَمُ بهم: كيف ترَكتُم عِبادي؟ فيَقولونَ: ترَكْناهم وهم يُصَلُّونَ، وأتَيْناهم وهم يُصَلُّونَ))[١].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾.

أي: ولكم في الحياةِ الآخِرةِ ما تَشتَهيه أنفُسُكم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ: أعدَدْتُ لِعبادِيَ الصَّالِحينَ ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ))[٣].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

أي: ولكم فيها ما تَطلُبونَه وتتَمَنَّونَه[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) واللفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٤، ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٠).

(٣) رواه البخاري (٧٤٩٨) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٦).

قال ابنُ عثيمين: (كُلُّ ما اشتهاه الإنسانُ وإن لم يَطلُبْه فإنَّه يَحصُلُ بيْنَ يديه، وكذلك أيضًا كُلُّ ما طَلَبَه فإنَّه يَحضُرُ بيْن يديه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٠).

وقال الماوَرْدي: (﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ فيه وجْهان؛ أحدُهما: ما تمَنَّوْنَ، قاله مُقاتِلٌ. الثَّاني: =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَومًا يُحَدِّثُ وعِندَه رجُلٌ مِن أهلِ الباديةِ: أنَّ رَجُلًا مِن أهلِ الجنَّةِ استأذَنَ رَبَّه في الزَّرعِ، فقال له: ألَسْتَ فيما شِئتَ؟! قال: بلى، ولكِنِّي أُحِبُّ أن أزرَعَ! قال: فبَذَرَ فبادَرَ الطَّرْفَ[1] نباتُه واستِواؤُه واستِحصادُه، فكان أمثالَ الجِبالِ! فيَقولُ اللهُ: دُونَك[2] يا ابنَ آدَمَ؛ فإنَّه لا يُشبِعُك شَيءٌ! فقال الأعرابيُّ: واللهِ لا تَجِدُه إلَّا قُرَشيًّا أو أنصاريًّا؛ فإنَّهم أصحابُ زَرعٍ! وأمَّا نحن فلَسْنا بأصحابِ زَرعٍ. فضَحِكَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[3].

﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

أي: هذا الثَّوابُ العَظيمُ في الآخِرةِ تُعطَونَه ضِيافةً وإكرامًا مِنَ اللهِ الغَفورِ السَّاتِرِ لذُنوبِكم، المُتجاوِزِ عن عُقوبتِكم؛ الرَّحيمِ بكم، الَّذي مِن رَحمتِه أن وفَّقَكم لطاعتِه، وقَبِل حَسَناتِكم[4].

كما قال تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٩].

= ما تَدَّعي أنَّه لك فهو لك بحُكم ربِّك، قاله ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٠). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٢).

(١) فبادَرَ الطَّرْفَ نباتُه: أي: فسابَقَه نباتُه وحَصَل في الحالِ. والطَّرْفُ: هو امتِدادُ لَحْظِ الإنسانِ حيث أدرَكَ. وقيل: طَرْفُ العَينِ: حَرَكتُها، أي: تحَرُّكُ أجفانِها. يُنظر: ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (١٥/ ٢٩٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠٠).

(٢) دُونَك يا ابنَ آدَمَ: أي: خُذْ ما تمنَّيتَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠٠).

(٣) رواه البخاري (٢٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧١، ١٧٣).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الكَلامَ مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ إنَّما ابتُدِئَ حيثُ قال المُشرِكونَ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، ومُرادُهم: ألَّا نَقبَلَ قولَك، ولا نَلتفِتَ إلى دليلِك، ثمَّ ذَكَروا طريقةً أُخرى في السَّفاهةِ، فقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ وأنَّه سُبحانَه ذكَرَ الأجوِبةَ الشَّافيةَ والبَياناتِ الكافيةَ في دَفعِ هذه الشُّبُهاتِ، وإزالةِ هذه الضَّلالاتِ، ثمَّ إنَّه سُبحانَه وتعالى بيَّنَ أنَّ القومَ وإنْ أتَوا بهذه الكَلِماتِ الفاسِدةِ إلَّا أنَّه يَجِبُ عليك أن تُتابِعَ المُواظَبةَ على التَّبليغِ والدَّعوةِ؛ فإنَّ الدَّعوةَ إلى الدِّينِ الحَقِّ أكمَلُ الطَّاعاتِ، ورأسُ العِباداتِ، وعبَّرَ عن هذا المعنى فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(١).

وأيضًا لَمَّا تقدَّمَ قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾؛ ذكَرَ مَن دعا إلى ذلك(٢)؛ فإنَّ مراتِبَ السَّعاداتِ اثنتانِ: التَّامُّ، وفوقَ التَّامِّ؛ أمَّا التَّامُّ: فهو أن يَكتَسِبَ مِن الصِّفاتِ الفاضِلةِ ما لأجْلِها يَصيرُ كامِلًا في ذاتِه، فإذا فَرَغ مِن هذه الدَّرَجةِ اشتغَلَ بَعدَها بتكميلِ النَّاقِصينَ، وهو فوقَ التَّامِّ؛ فقَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت:٣٠] إشارةٌ إلى المرتبةِ الأُولى، وهي اكتِسابُ الأحوالِ الَّتي تُفيدُ كَمالَ النَّفْسِ في جَوهرِها، فإذا حَصَل الفَراغُ مِن هذه المَرتبةِ وَجَب الانتِقالُ إلى المرتبةِ الثَّانيةِ، وهي الاشتِغالُ بتَكميلِ النَّاقِصينَ، وذلك إنَّما يكونُ بدَعوةِ الخَلقِ إلى الدِّينِ الحَقِّ، وهو المرادُ مِن قَولِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٥).

تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[(١)].

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾.

أي: ولا أحَدَ أحسَنُ قَولًا مِمَّن دعا النَّاسَ إلى توحيدِ اللهِ وطاعتِه، وعَمِلَ عَمَلًا صالِحًا بإخلاصٍ لله، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لعَليِّ ابنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه يومَ خَيْبَرَ: ((ادْعُهم إلى الإسلامِ، وأخبِرْهم بما يجِبُ عليهم مِن حَقِّ اللهِ فيه؛ فواللهِ لَأَنْ يَهديَ اللهُ بك رجُلًا واحِدًا خَيرٌ لك من

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥، ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

قال ابنُ كثير: (هذه عامَّةٌ في كُلِّ مَن دعا إلى خيرٍ وهو في نَفْسِه مُهتَدٍ، ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَولى النَّاسِ بذلك... والصَّحيحُ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ في المؤَذِّنينَ وفي غَيرِهم؛ فأمَّا حالَ نُزولِ هذه الآيةِ فإنَّه لم يكُنِ الأذانُ مَشروعًا بالكُلِّيَّة؛ لأنَّها مكِّيَّةٌ، والأذانُ إنَّما شُرِعَ بالمدينةِ بعدَ الهِجرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٩، ١٨٠).

وممَّن ذهب إلى العُمومِ: ابنُ عطية، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥، ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩١).

أنْ يكونَ لك حُمْرُ النَّعَم[(١)]))[(٢)].

﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

أي: وقال: إنَّني مِنَ المُستَسلِمينَ للهِ، المُقِرِّينَ بوَحدانيَّته، الخاضِعينَ له، المُنقادينَ إليه بطاعته[(٣)].

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه لا أحَدَ أحسَنُ مِمَّن دعا إلى اللهِ؛ ذكَرَ ما يَترتَّبُ على ذلك مِن حُسنِ الأخلاقِ، وأنَّ الدَّاعيَ إلى اللهِ قد يُجافيه المَدعُوُّ؛ فيَنبغي أن يَرفُقَ به، ويَتلطَّفَ في إيصالِ الخَيرِ إليه[(٤)].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ الدَّعوةَ إليه مِن أعظَمِ الدَّرَجاتِ، كأنَّ سائِلًا سأَلَ فقال: إنَّ الدَّعوةَ إلى اللهِ وإنْ كانت طاعةً عَظيمةً إلَّا أنَّ الصَّبرَ على سفاهةِ هؤلاء الكُفَّارِ شَديدٌ لا طاقةَ لنا به؛ فعِندَ هذا ذكَرَ اللهُ تعالى ما يَصلُحُ لِأنْ يكونَ دافِعًا لهذا الإشكالِ[(٥)].

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾.

---

(١) حُمْرُ النَّعَمِ: هي الإبِلُ الحُمْرُ، وهي أنفَسُ أموالِ العَرَبِ، يَضرِبونَ بها المَثَلَ في نَفاسةِ الشَّيءِ، وأنَّه ليس هناك أعظَمُ منه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٧٨).

(٢) رواه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٤).

أي: ولا تَستوي الخَصلةُ الحَسَنةُ معَ الخَصلةِ السَّيِّئةِ في الجزاءِ وحُسنِ العاقِبةِ[1].

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

أي: فادفَعْ -يا مُحمَّدُ- سَيِّئةَ النَّاسِ بالخَصلةِ الَّتي هي أحسَنُ الخِصالِ؛ فأحسِنْ إلى مَن أساء إليك، وادعُهم بالحِكمةِ والرِّفقِ، واللِّينِ وحُسنِ الخِطابِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٦).

قال السمعاني: (وأمَّا الحسَنةُ والسَّيِّئةُ ففيهما أقوالٌ؛ أحدُها: أنَّهما التَّوحيدُ والشِّركُ. والآخَرُ: أنَّهما العفوُ والانتِصارُ. والثَّالثُ: أنَّهما المُداراةُ والغلظةُ. والرَّابعُ: أنَّهما الصَّبرُ والجزَعُ. والخامسُ: أنَّهما الحِلمُ عندَ الغضَبِ والسَّفَهُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٢).

وقال الرازي: (المرادُ بالحسَنةِ دَعوةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى الدِّينِ الحقِّ، والصَّبرُ على جهالةِ الكفَّارِ، وتركُ الانتقامِ، وتركُ الالتِفاتِ إليهم، والمرادُ بالسَّيِّئةِ ما أظهروه مِن الجَلافةِ في قَولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥]، وما ذكروه في قَولِهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، فكأنَّه قال: يا محمَّدُ فِعلُك حسَنةٌ وفِعلُهم سَيِّئةٌ، ولا تَستوي الحسنةُ ولا السَّيِّئةُ، بمعنى أنَّك إذا أتيْتَ بهذه الحسَنةِ تكونُ مُستوجبًا للتَّعظيمِ في الدُّنيا والثَّوابِ في الآخرةِ، وهم بالضِّدِّ مِن ذلك، فلا يَنبغي أن يكونَ إقدامُهم على تلك السَّيِّئةِ مانعًا لك مِن الاشتغالِ بهذه الحسَنةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٤).

وقال ابن عاشور: (الحسَنةُ تَعُمُّ جميعَ أفرادِ جنسِها، وأُولاها تَبادُرًا إلى الأذهانِ حسَنةُ الدَّعوةِ إلى الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٠).

و(لا) الثانية هنا صلةٌ (زائدة) لتقويةِ الكلامِ وتوكيدِه، والمعنى: ولا تستوي الحسنةُ والسَّيِّئة. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١١).

وقال جلالُ الدِّينِ المحليُّ: (﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ في جزئيَّاتِهما؛ لأنَّ بعضَهما فوقَ بعضٍ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٤).

قال ابنُ عثيمينَ: (وعلى هذا التَّفسيرِ تكونُ «لا» غيرَ زائدةٍ، تكونُ أصليَّةً، ويكونُ المرادُ بالآيةِ انتفاءَ تساوي الحسناتِ، وانتفاءَ تساوي السَّيِّئاتِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٥).

واحلُمْ عليهم، واصفَحْ عنهم، واصبِرْ على أذاهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ * وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٥ - ١٢٨].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، في وَصفِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التَّوراةِ قال: ((لا يَدفَعُ بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولكِنْ يَعفو ويَغفِرُ))[(٢)].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((لم يكُنْ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فاحِشًا ولا مُتفَحِّشًا، ولا صَخَّابًا[(٣)] في الأسواقِ، ولا يَجْزي بالسَّيِّئةِ مِثلَها، ولكِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٤، ٥٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٢).

قال الرازي: (يعني: ادفَعْ سفاهتَهم وجهالتَهم بالطَّريقِ الَّذي هو أحسَنُ الطُّرُقِ؛ فإنَّك إذا صبَرْتَ على سوءِ أخلاقِهم مرَّةً بعدَ أخرى، ولم تُقابِلْ سفاهتَهم بالغضبِ، ولا إضرارَهم بالإيذاءِ والإيحاشِ؛ استَحيَوا مِن تلك الأخلاقِ المذمومةِ، وترَكوا تلك الأفعالَ القبيحةَ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥).

(٢) رواه البخاري (٢١٢٥).

(٣) صَخَّابًا: أي: صَيَّاحًا، والصَّخَبُ: الضَّجَّةُ، واضطرابُ الأصواتِ للخِصامِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ١٤)، ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٦/ ١٣٣).

يعفو ويَصفَحُ))[١].

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا كانتِ الآثارُ الصَّالحةُ تدُلُّ على صَلاحِ مَثارِها، وأمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالدَّفْعِ بالَّتي هي أحسَنُ؛ أرْدَفَه بذِكْرِ بَعضِ مَحاسنِه[٢]، فقال:

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

أي: فإنَّك إنْ فعَلْتَ ذلك صار مَن هو عدُوٌّ لك كأنَّه صَديقٌ شَديدُ الوَلاءِ لك، يُحِبُّك ويُشفِقُ عليك، ويُحسِنُ إليك ويُناصِرُك[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٦)، وأحمد (٢٥٤١٧) واللفظُ له.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٦٤٤٣)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠١٦)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٢/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

وقيل: الوَليُّ: هو الصَّديقُ، والحَميمُ: هو القَريبُ. وممَّن قال بهذا: الماوَرْدي، والسمعاني، والبغوي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٧).

قال الشنقيطي: (﴿وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: صديقٌ في غايةِ الصَّداقةِ). ((العذب النمير)) (٢/ ١٥١).

وقيل: معنى ﴿وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾: قريبٌ صديقٌ. وممَّن اختاره: الثعلبي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٢).

وقال ابن جرير: (يَصيرُ المُسيءُ إليك الَّذي بيْنَك وبيْنَه عداوةٌ، كأنَّه مِن مُلاطَفتِه إيَّاكَ وبرِّه =

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أرشَدَ اللهُ تعالى إلى هذا الطَّريقِ النَّافِعِ في الدِّينِ والدُّنيا والآخِرةِ؛ عظَّمَه فقال(١):

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾.

أي: وما يُعطَى هذه الخَصلةَ الشَّريفةَ -وهي مُقابَلةُ الإساءةِ بالإحسانِ- ويُوفَّقُ للعَمَلِ بها إلَّا الَّذين صَبَروا على ذلك(٢).

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾.

أي: وما يُعطاها إلَّا ذو نَصيبٍ وافرٍ مِنَ الخَيرِ(٣).

= لك، وَلِيٌّ لك مِن بني أعمامِك، قريبُ النَّسبِ بك. والحميمُ: هو القريبُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٣).

وقال مقاتلٌ: (كأنَّه وَلِيٌّ لك في الدِّينِ، حَميمٌ لك في النَّسَبِ، الشَّفيقُ عليك). ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٧٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٩، ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((قاعدة في الصبر)) لابن تيمية (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٠).

قيل: المرادُ بالحَظِّ العظيمِ: الجَنَّةُ. وممَّن قال به: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٦)، ((قاعدة في الصبر)) لابن تيمية (ص: ٩٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٤).=

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بدَفعِ السَّيِّئةِ بالأحسَنِ، كان قد يَعرِضُ للمُسلِمِ في بَعضِ الأوقاتِ مُقابَلةُ مَن أساء بالسَّيِّئةِ، فأمَرَه إنْ عَرَض له ذلك أن يَستعيذَ باللهِ؛ فإنَّ ذلك مِن نَزْغِ الشَّيطانِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما يُقابَلُ به العَدُوُّ مِن الإنسِ، وهو مُقابَلةُ إساءتِه بالإحسانِ، ذكَرَ ما يُدفَعُ به العَدُوُّ الجِنِّيُّ، وهو الاستِعاذةُ باللهِ، والاحتِماءُ مِن شَرِّه[2].

= وقيل: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: في الخَيرِ والثَّوابِ. وممَّن اختاره: البغوي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٢).

وقيل: ذو حظٍّ عظيمٍ مِن الفضائلِ النَّفْسانيَّةِ وكمالِ النَّفْسِ. وممَّن اختاره: الرازي، وأبو السعود، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥١٨).

وقال ابن عاشور: (أي: ما يحصُلُ دفْعُ السَّيِّئةِ بالحسنةِ إلَّا لصاحِبِ نصيبِ عظيمٍ مِن الفضائلِ، أي: مِن الخُلُقِ الحسَنِ والاهتداءِ والتَّقوَى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٥).

وقال ابن عثيمين: (أي: وما يُلقَّاها إلا ذو نصيبٍ عظيمٍ، ليس مِن الثَّوابِ فحَسْبُ، بل مِن الثَّوابِ والأخلاقِ والرَّزانةِ وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٠). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤١).

وقال الماوَرْدي: (﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: ذو جَدٍّ عظيمٍ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: ذو نصيبٍ وافرٍ مِن الخَيرِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّالثُ: أنَّ الحظَّ العظيمَ: الجنَّةُ. قال الحسَنُ: واللهِ ما عَظُمَ حظٌّ قَطُّ دونَ الجنَّةِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر هذا الطَّريقَ الكامِلَ في دَفعِ الغَضَبِ والانتِقامِ، وفي تَركِ الخُصومةِ، ذَكَر عَقِيبَه طريقًا آخَرَ عَظيمَ النَّفعِ أيضًا في هذا البابِ، فقال[1]:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ﴾.

أي: وإنْ وَجَدْتَ مِنَ الشَّيطانِ وَسوَسةً في نَفْسِك -يا مُحمَّدُ-؛ لِيُفسِدَ بيْنَك وبيْنَ غَيرِك، فيُغريَك بعَداوتِه، والإساءةِ إليه والانتِقام منه؛ فالتَجِئْ إلى الله، واطلُبْ منه أن يَعصِمَك منه، ويَحفَظَك مِن كَيدِه وشَرِّه[2].

كما قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وقال تعالى حكايةً عن يُوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿ ... وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وعن سُلَيمانَ بنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنتُ جالِسًا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ورجُلانِ يَسْتَبَّانِ، فأحدُهما احمَرَّ وَجْهُه، وانتَفَخَت أوداجُه[3]، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنِّي لَأعلَمُ كَلِمةً لو قالها ذَهَب عنه ما يَجِدُ؛ لو قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٦ - ٢٩٨).

(٣) الأَوداجُ: جَمعُ وَدَجٍ: وهو ما أحاطَ بالعُنُقِ مِن العُروقِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٠٤).

أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ، ذَهَب عنه ما يَجِدُ))[١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ الَّذي تَستعيذُ به مِن نَزْغِ الشَّيطانِ: هو السَّميعُ لكُلِّ قَولٍ، ومِن ذلك استِعاذتُك به؛ العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما يُلقِيه الشَّيطانُ في نَفْسِك، فلا يَخفَى عليه كَيدُ عَدُوِّك، وهو يتولَّى أمْرَه وجَزاءَه[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ جَمَع أصلَيِ الكَمالِ الإسلاميِّ؛ فقَولُه: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ مُشيرٌ إلى الكَمالِ النَّفْسانيِّ، وهو مَعرِفةُ الحَقِّ لِلاهتِداءِ به، ومَعرِفةُ الخَيرِ لأجْلِ العَمَلِ به؛ فالكَمالُ عِلْمٌ يَقينيٌّ وعَمَلٌ صالِحٌ، فمَعرِفةُ اللهِ بالإلهيَّةِ هي أساسُ العِلْمِ اليَقينيِّ. وأشار قَولُه: ﴿ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ إلى أساسِ الأعمالِ الصَّالحةِ، وهو الاستِقامةُ على الحَقِّ، أي: أن يكونَ وَسَطًا غيرَ مائِلٍ إلى طَرَفَيِ الإفراطِ والتَّفريطِ؛ قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[٣] [البقرة: ١٤٣].

٢- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ دَليلٌ على أهمِّيَّةِ الاستِقامةِ على دينِ اللهِ؛ بأنْ يكونَ الإنسانُ ثابِتًا لا يَزيدُ ولا يَنْقُصُ، ولا يُبَدِّلُ ولا يُغيِّرُ، فأمَّا مَن غلا في دينِ اللهِ أو

(١) رواه البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠)، واللفظُ للبخاري.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٣).

جَفا عنه أو بَدَّلَ، فإنَّه لا يكونُ مُستَقيمًا على شَريعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والاستقامةُ لا بُدَّ لها مِن الاعتدالِ في كلِّ شيءٍ حتَّى يكونَ الإنسانُ مُستقيمًا على شريعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[1].

٣- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الإشارةُ إلى الإخلاصِ في الدَّعوةِ، نأخُذُها مِن قَولِه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الدَّاعيَ رُبَّما يَدعو النَّاسَ ويَعِظُهم يُريدُ بذلك المكانةَ المرموقةَ بيْنَهم، فهذا في حقيقةِ الأمرِ دعا إلى نفْسِه، فلا بُدَّ للداعي مِن الإخلاصِ[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فيه أنَّه ينبغي للمُسلم أنْ يكونَ عزيزًا بدينِه؛ وأنْ يُعْلِنَ به؛ وأنْ يقولَ: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ وألَّا يَستحيَ إذا قيلَ: إنَّه مسلمٌ[3].

٥- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[القصص: ٥٤]، واسمَعِ الآنَ ما الَّذي يُسَهِّلُ هذا على النَّفْسِ، ويُطَيِّبُه إليها، ويُنَعِّمُها به: اعلَمْ أنَّ لك ذُنوبًا بيْنَك وبيْنَ اللهِ تَخافُ عواقِبَها، وتَرجوه أن يعفوَ عنها، ويَغفِرَها لك، ويَهَبَها لك، ومع هذا لا يَقتَصِرُ على مُجرَّدِ العَفوِ والمُسامَحةِ حتَّى يُنعِمَ -سُبحانَه وتعالى- عليك ويُكرِمَك، ويَجلِبَ إليك مِنَ المنافِعِ والإحسانِ فَوقَ ما تؤمِّلُه! فإذا كنتَ ترجو هذا مِن ربِّك أن يُقابِلَ به إساءتَك، فما أَولاك وأجدَرَك أن تُعامِلَ به خَلْقَه، وتُقابِلَ به إساءتَهم!

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لِيُعامِلَك اللهُ هذه المعامَلةَ؛ فإنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكما تَعمَلُ معَ النَّاسِ في إساءتِهم في حَقِّك يَفعَلُ اللهُ معك في ذُنوبِك وإساءتِك جزاءً وِفاقًا؛ فانتَقِمْ بعدَ ذلك أو اعْفُ، وأحسِنْ أو اترُكْ؛ فكما تَدينُ تُدانُ، وكما تَفعَلُ معَ عبادِه يَفعَلُ معك. فمَن تصَوَّرَ هذا المعنى وشَغَل به فِكرَه هان عليه الإحسانُ إلى مَن أساء إليه، هذا معَ ما يَحصُلُ له بذلك مِن نَصرِ اللهِ ومَعِيَّتِه الخاصَّة، ومع ما يَتعَجَّلُه من ثَناءِ النَّاسِ عليه، ويَصيرونَ كُلُّهم معه على خَصمِه؛ فإنَّه كُلُّ مَن سَمِع أنَّه مُحسِنٌ إلى ذلك الغيرِ وهو مُسيءٌ إليه، وَجَد قَلْبَه ودعاءَه وهِمَّتَه مع المحسِنِ على المُسيءِ، وذلك أمرٌ فِطْرِيٌّ فَطَر اللهُ عِبادَه عليه، فهو بهذا الإحسانِ قد استَخدَمَ عسكرًا لا يَعرِفُهم ولا يَعرِفونَه، ولا يُريدونَ منه إقطاعًا ولا خبزًا، هذا مع أنَّه لا بُدَّ له مع عَدُوِّه وحاسِدِه من إحدى حالتَينِ: إمَّا أن يَملِكَه بإحسانِه فيَستعبِدَه وينقادَ له ويَذِلَّ له، ويَبقَى مِن أحَبِّ النَّاسِ إليه، وإمَّا أن يُفَتِّتَ كَبِدَه ويَقطَعَ دابِرَه إن أقام على إساءتِه إليه؛ فإنَّه يُذيقُه بإحسانِه أضعافَ ما يَنالُ منه بانتِقامِه، ومَن جَرَّب هذا عَرَفه حَقَّ المَعرفةِ[(١)].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فيه الحَثُّ على أنْ تُقابَلَ السَّيِّئةُ بحسنةٍ، وعلى فِعْلِ الحسَناتِ في مقابِلِ السَّيِّئاتِ، وليس الفائدةُ أنْ يَعْلَمَ أنَّ الحسَنةَ لا تُساوي السَّيِّئةَ! لأنَّ هذا أمرٌ معلومٌ[(٢)]. وسُبحانَ اللهِ! إنسانٌ بَيْنَك وبَيْنَه عَداوةٌ أساء إليك، فتُؤمَرُ بـ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فإذا دفَعْتَ بالَّتي هي أحسَنُ يأتيك الثَّوابُ والجَزاءُ مِنَ اللهِ ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، وقولُه: ﴿وَلِيٌّ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٣).

﴿حَمِيمٌ﴾ أي: قَريبٌ صَديقٌ في غايةِ ما يكونُ مِن الصَّداقةِ والقُربِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والَّذي يَقولُ هو اللهُ عزَّ وجَلَّ مُقَلِّبُ القُلوبِ: ((إنَّ قلوبَ بَني آدَمَ كلَّها بيْنَ إصبَعَينِ مِن أصابعِ الرَّحمنِ كقلبٍ واحدٍ يُصَرِّفُه حيثُ يَشاءُ))(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ دليلٌ على أنَّه نُدِبَ إلى الإحسانِ إلى المُسيءِ؛ لِتأتلِفَ الأُمَّةُ، ولا تَفترِقَ، ولا تَتباغَضَ(٢).

٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ لِذِكرِ المُثُلِ والنَّتائِجِ عَقِبَ الإرشادِ شَأنٌ ظاهِرٌ في تقريرِ الحَقائِقِ، وخاصَّةً الَّتي قد لا تَقبَلُها النُّفوسُ لأنَّها شاقَّةٌ عليها، والعَداوةُ مَكروهةٌ، والصَّداقةُ والوَلايةُ مَرغوبةٌ؛ فلَمَّا كان الإحسانُ لِمَن أساءَ يُدنيه مِن الصَّداقةِ أو يَكسِبُه إيَّاها، كان ذلك مِن شَواهِدِ مَصلحةِ الأمرِ بالدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ(٣).

٩- الصَّبرُ ضابِطُ الأخلاقِ المأمورِ بها؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾(٤).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ فيه أنَّه إذا صبَّرَ الإنسانُ نَفْسَه، وامتَثَل أمْرَ رَبِّه، وعَرَف جَزيلَ الثَّوابِ، وعَلِم أنَّ مُقابَلتَه للمُسيءِ بجِنسِ عَمَلِه لا تُفيدُه شَيئًا، ولا تَزيدُ العَداوةَ إلَّا شِدَّةً، وأنَّ إحسانَه إليه ليس بواضِعٍ قَدْرَه، بل مَن تواضَعَ لله رفَعَه: هان عليه الأمرُ، وفَعَل ذلك مُتلذِّذًا

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٨).
والحديث أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبدالله بن عَمرٍو رضي الله عنهما.
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٣).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٥).

مُستَحليًا له[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾، أي: استَجِرْ بالمَلِكِ الأعلَى، واطلُبْ منه الدُّخولَ في عِصمتِه، مُبادِرًا إلى ذلك حينَ يَنخُسُ بالنَّزْغةِ؛ فإنَّه لا يَقدِرُ على الإعاذةِ منه غيرُه، ولا تَذَرِ النَّزغةَ تتكَرَّرُ، بل ارجِعْ إلى المحيطِ عِلمًا وقُدرةً في أوَّلِ الخَطْرةِ؛ فإنَّك إنْ لم تخالِفْ أوَّلَ الخَطْرةِ صارت فِكرةً، فيَحصُلُ العَزمُ، فتَقَعُ الزَّلَّةُ، فتصيرُ قَسوةً، فيَحصُلُ التَّمادي[٢].

ولا يتخَلَّصُ العبدُ مِن نَزَغاتِ الشَّيطانِ إلَّا بصِدقِ الاستِعانةِ وصِدقِ الاستغاثةِ، وبذلك يَنجو مِنَ الشَّيطانِ، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فكلَّما ازداد العَبدُ في تبَرِّيه من حَولِه وقُوَّته، وأخلَصَ بيْنَ يَدَيِ اللهِ بتضَرُّعِه واستِعانتِه واستِعاذتِه؛ زاد اللهُ في حِفظِه، ودَفَع الشَّيطانَ عنه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ فيه أنَّ المُصلِحَ يُيَسِّرُ اللهُ له أولياءَ الخَيرِ من الإنسِ والمَلائكةِ، يُعينونَه ويُحَبِّبونَه في جَميعِ الخَيراتِ، ويُبعِدونَه ويُكَرِّهونَه في جميعِ المَضَرَّاتِ، واللهُ يَتولَّى الصَّالحينَ[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ فمَن كان له أصلُ الاستِقامةِ في التَّوحيدِ أمِنَ من الخُلودِ في النَّارِ، ومَن كان له كَمالُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٥).

الاستِقامةِ في الأُصولِ والفُروعِ أمِنَ الوَعيدَ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ يُفيدُ نَفيَ الخَوفِ والحُزنِ على الإطلاقِ، فيَدُلُّ على أنَّ المؤمِنَ عندَ الموتِ وفي القَبرِ وعندَ البَعثِ: لا يكونُ فازِعًا مِن الأهوالِ ومِن الفَزَعِ الشَّديدِ، بل يكونُ آمِنَ القَلبِ ساكِنَ الصَّدرِ[٢].

٤- نعيمُ القَبرِ وعَذابُه حَقٌّ ثابتٌ؛ لِقَولِه تعالى في آلِ فِرعَونَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقَولِه في المؤمِنينَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٣]، فهذا التَّنزُّلُ يكونُ عندَ الموتِ ويكونُ في القبرِ، ويكونُ عندَ البعثِ[٤]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٥- قال الله تعالى حِكايةً عن قَولِ الملائِكةِ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾، قَولُه: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارةٌ إلى مُقابَلةِ قَولِه في المُشرِكينَ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ [فصلت: ٢٥]، فكما قَيَّض للكافِرِ قُرَناءَ في الدُّنيا قَيَّض للمُؤمِنينَ ملائِكةً يَكونونَ قُرَناءَهم في الدُّنيا، وكما أنطَقَ أتْباعَهم باللَّائِمةِ عليهم أنطَقَ الملائِكةَ بالثَّناءِ على المؤمِنينَ[٥].

٦- قَولُ الملائكةِ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ تعريفٌ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦١).
(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٩٤).
(٤) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٩٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٦).

بأنفُسِهم للمُؤمنينَ؛ تأنيسًا لهم؛ فإنَّ العِلمَ بأنَّ المتلَقِّيَ صاحِبٌ قديمٌ يَزيدُ نفْسَ القادِمِ انشِراحًا وأُنسًا، ويُزيلُ عنه دَهشةَ القُدومِ، ويُخَفِّفُ عنه مِن حِشمةِ الضِّيافةِ، ويُزيلُ عنه وَحشةَ الاغترابِ، أي: نحنُ الَّذين كنَّا في صُحبتِكم في الدُّنيا؛ إذ كانوا يَكتُبونَ حَسَناتِهم، ويَشهَدونَ عندَ اللهِ بصَلاتِهم[١].

٧- في قولِه تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، ذكَر المغفرةَ والرَّحمةَ؛ لأنَّهم إنَّما وَصَلوا إلى ذلك بمغفرةِ اللهِ ورحمتِه، ولولا ذلك ما وَصَلوا إلى ما وَصَلوا إليه، ولهذا أخْبَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه لن يَدْخُلَ الجنَّةَ أحدٌ بعَمَلِه، ((قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا؛ إلَّا أنْ يَتغمَّدنيَ اللهُ برحمتِه))[٢]، فالإنسانُ لا يَصِلُ إلى الجنَّةِ بالعملِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لو قُوبِلَ العملُ بالنِّعمةِ الَّتي أنْعَم اللهُ بها على الإنسانِ لم يكنْ شيئًا! إذْ إنَّ نِعَمَ اللهِ لا تُحصَى ولا تُعَدُّ[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه فضيلةُ الدَّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه مَنزَعٌ عَظيمٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٣).

وهذا لا يعني عدمَ أهميَّةِ العملِ، فالأعمالُ الصالحةُ سببٌ لدخولِ الجنَّةِ وثمنٌ لها، لكن ليس على وجهِ المقابلةِ أو البدلِ، وتلك الأعمالُ الصالحةُ حصَلتْ للعبدِ برحمةِ الله ومِنَّتِه عليه، لا بحَولِه وقوَّتِه. وأيضًا فإنَّ مقتضَى اسمِ الله «الرحيم»: الرحمةُ، فعلى العبدِ أنْ يعملَ العملَ الصالحَ الذي يكونُ جالبًا لرحمةِ الله، ومقتضَى اسمِه «الغفور» المغفرةُ، فعلى العبدِ أنْ يعملَ ما يكونُ سببًا في مغفرةِ ذنوبِه. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٨٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٣).

لفَضيلةِ العُلَماءِ الَّذين بَيَّنوا السُّنَنَ، ووضَّحوا أحكامَ الشَّريعةِ، واجتَهَدوا في التَّوصُّلِ إلى مُرادِ الله تعالى مِن دينِه ومِن خَلْقِه[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ لَمَّا تَفاوَتَت الحَسَنةُ والسَّيِّئةُ أمَرَ أن يَدفَعَ السَّيِّئةَ بالأحسَنِ، وذلك مُبالَغةٌ، ولم يَقُلْ: ادفَعْ بالحَسَنةِ السَّيِّئةَ؛ لأنَّ مَن هان عليه الدَّفعُ بالأحسَنِ، هان عليه الدَّفعُ بالحَسَنِ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ انتِفاءُ تَساوي الحَسَناتِ بَعضِها ببَعضٍ، وانتِفاءُ تساوي السَّيِّئاتِ بَعضِها ببَعضٍ، فيَترتَّبُ على ذلك فائِدةٌ: أنَّ الحَسَناتِ تَتفاوَتُ، والسَّيِّئاتِ تَتفاوَتُ؛ فمِنَ الحَسَناتِ ما هو أصولٌ في الإسلامِ، كالأُصولِ الخَمسةِ، ومنها ما هو دونَ ذلك، ومنها ما هو فرائِضُ، ومنها ما هو نوافِلُ، وكذلك في المُحَرَّماتِ؛ فمنها ما هو شركٌ مُخرِجٌ عن المِلَّةِ، وما هو شِركٌ دونَ ذلك، وكذلك يُقالُ في الكُفرِ؛ فمنه ما هو فُسوقٌ، ومنه ما هو دونَ ذلك، هذا إذا قُلْنا: إنَّ المرادَ بالآيةِ «أنَّ الحَسَناتِ لا تَتساوى، والسَّيِّئاتِ لا تَتساوى»[٣].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إنَّما أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك؛ لأنَّ مُنتهَى الكَمالِ البَشَريِّ خُلُقُه، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما بُعِثْتُ لأُتمِّمَ صالحَ الأخلاقِ))[٤]، وتَخَلُّقُ الأُمَّةِ بهذا الخُلُقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٣).

(٤) رواه أحمد (٨٩٥٢)، والحاكم (٤٢٢١) واللفظ لهما، والبيهقيُّ (٢١٣٠١) بلفظ: ((مكارم)) بدلًا من ((صالح)) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. =

مَرغوبٌ فيه؛ قال الله تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[1] [الشورى: ٤٠].

١٣- لَمَّا كان الشَّيطانُ على نَوعَينِ: نوعٍ يُرَى عِيانًا، وهو شَيطانُ الإنسِ، ونَوعٍ لا يُرَى، وهو شَيطانُ الجِنِّ؛ أمَرَ سُبحانَه وتعالى نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَكتفيَ مِن شَرِّ شَيطانِ الإنسِ بالإعراضِ عنه والعَفوِ، والدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ، ومِن شَيطانِ الجِنِّ بالاستعاذةِ باللهِ منه، وجَمَع بيْن النَّوعَينِ في سُورةِ (الأعرافِ)، وسُورةِ (المُؤمِنينَ)، وسُورةِ (فُصِّلَت). والاستِعاذةُ في القِراءةِ والذِّكرِ أبلَغُ في دَفعِ شَرِّ شَياطينِ الجِنِّ، والعَفوُ والإعراضُ والدَّفعُ بالإحسانِ أبلَغُ في دَفعِ شَرِّ شَياطينِ الإنسِ[2].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أنَّ المُدافَعةَ بالَّتي هي أحسَنُ شاقَّةٌ على النَّفْسِ[3].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾، وفائدةُ هذه الاستِعاذةِ تَجديدُ داعيةِ العِصمةِ المَرْكوزةِ في نفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ الاستِعاذةَ باللهِ مِن الشَّيطانِ استِمدادٌ للعِصْمةِ، وصَقْلٌ لِزَكاءِ النَّفْسِ ممَّا قدْ يَقترِبُ منها مِن الكُدُراتِ. وهذا سِرٌّ مِن الاتِّصالِ بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وربِّه، وقد أشار إليه قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّه لَيُغانُ على قَلْبي، وإنِّي

= صحَّحه الحاكمُ وقال: (على شرطِ مسلمٍ)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٣٣٣)، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٤٥)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤/ ٥١٣)، وجوَّد إسنادَه ابنُ باز في ((مجموع فتاويه)) (٢/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٢/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٤).

لَأستَغْفِرُ اللهَ في اليَومِ مِئةَ مرَّةٍ))(١)، فبذلك تَسلَمُ نفْسُه مِن أنْ يَغْشاها شَيءٌ مِن الكُدُراتِ، ويَلحَقُ به في ذلك صالِحو المؤمنينَ، ثمَّ يَلتحِقُ بذلك بَقيَّةُ المؤمنينَ على تَفاوُتِهم(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بَعدَ استيفاءِ الكَلامِ على ما أصابَ الأُمَمَ الماضيةَ المُشرِكينَ المُكَذِّبينَ مِن عَذابِ الدُّنيا، وما أُعِدَّ لهم مِن عَذابِ الآخِرةِ، مِمَّا فيه عِبرةٌ لِلمُشرِكينَ الذين كَذَّبوا مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطَريقِ التَّعريضِ، ثم أُنذِروا بالتَّصريحِ بما سَيَحِلُّ بهم في الآخِرةِ، ووَصفِ بَعضِ أهوالِه؛ تَشوَّفَ السامعُ إلى مَعرِفةِ حَظِّ المُؤمِنينَ، ووَصفِ حالِهم، فجاءَ قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ...﴾ إلخ، بيانًا لِلمُترقِّبِ، وبُشْرى لِلمُتطَلِّبِ بأنْ يَعرِفَ جَزاءَ المُؤمِنينَ بَعدَ أنْ عَرَفَ جَزاءَ الكافِرينَ؛ فالجُملةُ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عمَّا تَقدَّمَ مِن قَولِه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [فصلت: ١٩]، إلى قَولِه: ﴿مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾(٣) [فصلت: ٢٩].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) مَنظورٌ فيه إلى إنكارِ المُشرِكينَ ذلك؛ ففي تَوكيدِ الخَبَرِ زِيادةُ قَمْعٍ لهم(٤).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ فيه تَعريفُ المُسنَدِ إليه

(١) تقدم تخريجه (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢).

﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالمَوصوليَّةِ دُونَ أنْ يُقالَ: (إنَّ المُؤمنينَ) ونَحوُه؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى أنَّها سَبَبُ ثُبوتِ المُسنَدِ لِلمُسنَدِ إليه؛ فيُفيدُ أنَّ تَنَزُّلَ المَلائِكةِ عليهم بتلك الكَرامةِ مُسَبَّبٌ على قَولِهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ واستِقامَتِهم؛ فإنَّ الاعتِقادَ الحَقَّ والإقبالَ على العَمَلِ الصَّالِحِ هما سَبَبُ الفَوزِ[١].

- وفيه حُسنُ تَرتيبٍ، حيثُ بَدَأ أوَّلًا بالَّذي هو أمكَنُ في الإسلامِ، وهو العِلْمُ برُبوبيَّةِ اللهِ تعالى، ثمَّ أتْبَعَه بالعَمَلِ الصَّالِحِ، وهو الاستِقامةُ[٢].

- وقَولُه: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ يُفيدُ الحَصرَ بتَعريفِ المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ، أيْ: لا رَبَّ لنا إلَّا اللهُ، وذلك جامِعٌ لِأصْلِ الاعتِقادِ الحَقِّ؛ لِأنَّ الإقرارَ بالتَّوحيدِ يُزيلُ المانِعَ مِن تَصديقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما جاءَ به؛ إذْ لم يَصُدَّ المُشرِكينَ عنِ الإيمانِ بما جاءَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا أنَّه أمَرَهم بنَبْذِ عِبادةِ غَيرِ اللهِ، ولأنَّ التَّكذيبَ بالبَعثِ تَلَقَّوْه مِن دُعاةِ الشِّركِ[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ الاستِقامةُ: عَدَمُ الاعوِجاجِ والمَيلِ، والسِّينُ والتَّاءُ فيها لِلمُبالَغةِ في التَّقَوُّمِ، فاستَقامَ: استَقَلَّ غَيرَ مائِلٍ ولا مُنحَنٍ، وتُطلَقُ الاستِقامةُ أيضًا على ما يَجمَعُ مَعنى حُسْنِ العَمَلِ والسِّيرةِ على الحَقِّ والصِّدقِ؛ فـ﴿ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ هنا يَشمَلُ مَعنى الوَفاءِ بما كُلِّفوا به، وأوَّلُ ما يشمَلُ مِن ذلك أنْ يَثبُتوا على أصْلِ التَّوحيدِ، أيْ: لا يُغَيِّروا ولا يَرجِعوا عنه[٤].

- وحَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ لِلتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لِأنَّ الاستِقامةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٢).

زائِدةٌ في المَرتَبةِ على الإقرارِ بالتَّوحيدِ؛ لِأنَّها تَشملُه، وتَشملُ الثَّباتَ عليه، والعَمَلَ بما يَستَدعيه، ولأنَّ الاستِقامةَ دَليلٌ على أنَّ قولَهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ كان قولًا مُنبَعِثًا عنِ اعتِقادِ الضَّميرِ والمَعرِفةِ الحَقيقيَّةِ(١).

- وكذلك في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ إيجازٌ بَليغٌ؛ لِأنَّ الاستِقامةَ كَلِمةٌ شَمِلتْ جَميعَ صِفاتِ التَّقْوى(٢).

- قولُه: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تنزُّلُ الملائكةِ على المؤمنينَ يَحتمِلُ أنْ يكونَ في وقْتِ الحشْرِ، كما دلَّ عليه قولُهم: ﴿ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾، وكما يَقْتضيهِ كَلامُهم لهم؛ فذلك مُقابِلٌ لقَولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]؛ فأولئك تُلاقيهمُ المَلائِكةُ بالوَزعِ، والمُؤمِنونَ تَتنزَّلُ عليهِمُ المَلائِكةُ بالأمْنِ، وذِكرُ التَّنَزُّلِ هنا؛ لِلتَّنويهِ بشَأنِ المُؤمِنينَ أنَّ المَلائِكةَ يَنزِلونَ مِن عُلويَّاتِهم لِأجْلِهم. ولِتَضَمُّنِ ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ مَعنى القَولِ وَرَدتْ بَعدَه (أنْ) التَّفسيريَّةُ، والتَّقديرُ: يَقولونَ: لا تَخافوا ولا تَحزَنوا. ويَجوزُ أنْ يَكونَ تَنَزُّلُ المَلائِكةِ عليهم في الدُّنيا، وهو تَنَزُّلٌ خَفيٌّ يُعرَفُ بحُصولِ آثارِه في نُفوسِ المُؤمِنينَ، ويَكونَ الخِطابُ بـ ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ بمَعنى إلْقائِهم في رُوعِهم عَكسَ وَسوَسةِ الشَّياطينِ القُرَناءِ بالتَّزيينِ، أيْ: يُلقونَ في أنْفُسِ المُؤمِنينَ ما يَصرِفُهم عنِ الخَوفِ والحَزَنِ، ويُذَكِّرُهم بالجَنَّةِ، فتَحِلُّ فيهمُ السَّكينةُ، فتَنشَرِحُ صُدورُهم بالثِّقةِ بحُلولِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٣).

وقال ابن عثيمين: (أتَى بـ «ثُمَّ» الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ بمُهْلَةٍ، يعني أنَّ إيمانَهم لم يكنْ إيمانًا خاطفًا؛ آمَنَ ثمَّ زال! بل إيمانٌ مُستقِرٌّ؛ لأنَّهم استقاموا على دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦٣).

فذلك مُقابِلُ قَولِه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ الآيةَ [فصلت: ٢٥]؛ فإنَّه تَقْييضٌ في الدُّنيا، وهذا يَقتَضي أنَّ المُؤمِنينَ الكامِلينَ لا يَخافونَ غيرَ اللهِ، ولا يَحزَنونَ على ما يُصيبُهم، ويُوقِنونَ أنَّ كُلَّ شَيءٍ بقَدَرٍ، وهم فَرِحونَ بما يَتَرَقَّبونَ مِن فَضلِ اللهِ، وعلى هذا المَعنى فالفِعلِ (كان) في قَولِه: ﴿ٱلَّتِي كُنتُمْ﴾ صِلَةٌ لِلتَّأكيدِ، ويكونُ المُضارِعُ في ﴿تُوعَدُونَ﴾ على أصْلِ استِعمالِه للحالِ والاستِقبالِ، ويَكونُ قَولُهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١]، تأييدًا لهم في الدُّنيا، ووَعدًا بنَفعِهم في الآخِرةِ(١).

- وفي قَولِه: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ قَدَّم الخَوفَ مِن المُسْتقبلِ؛ لأنَّه أهمُّ مِن الحُزْنِ على ما مَضَى؛ لأنَّ مُستقبَلَ الإنسانِ هو الَّذي يَجْعَلُه يَسيرُ أو يَتوقَّفُ؛ فلهذا بَدَأ به قبلَ ذِكْرِ الحُزْنِ(٢). فالخوفُ ممَّا يُتوقَّعُ مِن المكروهِ أعظَمُ مِن الحزنِ على الفائتِ(٣).

- قولُه: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (لا) ناهيةٌ(٤)، والمَقصودُ مِنَ النَّهيِ عنِ الخَوفِ النَّهيُ عن سَبَبِه، وهو تَوَقُّعُ الضُّرِّ، أيْ: لا تَحسَبوا أنَّ اللهَ مُعاقِبُكم؛ فالنَّهيُ كِنايةٌ عنِ التَّأمينِ مِن جانِبِ اللهِ تَعالى؛ لِأنَّهم إذا تَحقَّقوا الأمْنَ زالَ خَوفُهم، وهذا تَطمينٌ مِنَ المَلائِكةِ لِأنْفُسِ المُؤمِنينَ. وألحَقوا بتَأْمينِهم بِشارَتَهم ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ لِأنَّ وَقْعَ النَّعيمِ في النَّفْسِ مَوقعَ المَسَرَّةِ إذا لم يُخالِطْه تَوَقُّعُ المَكروهِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٤).
(٤) على وجهٍ في الإعرابِ، ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ١٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥).

- قولُه: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وَصفُ الجَنَّة بـ ﴿ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ تَذكيرٌ لهمْ بأعمالِهم الَّتي وُعِدوا عليها بالجَنَّة، وتَعجيلٌ لهم بمَسَرَّةِ الفوزِ برِضا اللهِ، وتَحقيقِ وَعدِه، أيْ: الَّتي كُنتُم تُوعَدونها في الدُّنيا. وفي ذِكرِ فِعلِ الكَونِ تَنبيهٌ على أنَّهم مُتَأصِّلونَ في الوَعدِ بالجَنَّة، وذلك مِن سابِقِ إيمانِهم وأعمالِهم[1].

- وفي التَّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿تُوعَدُونَ﴾ إفادةُ أنَّهم قد تَكَرَّرَ وَعدُهم بها، وذلك بتَكرُّرِ الأعمالِ المَوعودِ لِأجْلِها، وبتَكرُّرِ الوَعدِ في مَواقِعِ التَّذكيرِ والتَّبشيرِ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾

- قولُه: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ جِيءَ بهذا القَولِ مُعترِضًا بيْن صِفاتِ الجَنَّةِ؛ لِيَتحقَّقَ المُؤمِنونَ أنَّ بِشارَتَهم بالجَنَّةِ بِشارةُ مُحِبٍّ يَفرَحُ لِحَبيبِه بالخَيرِ، ويَسعى لِيَزيدَه[3].

- قولُه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾، أي: لكم في الجَنَّةِ ما تَشتَهونَه مِمَّا يَقَعُ تَحتَ الحِسِّ، وما تَتَمَنَّونَه في نُفوسِكم مِن كُلِّ ما يَخطُرُ بالبالِ مِمَّا يَجولُ في الخَيالِ، فما يَدَّعونَ غَيرُ ما تَشتَهيه أنْفُسُهم، ولهذه المُغايَرةِ أُعيدَ لَفظُ (لَكُمْ)؛ لِيُؤْذِنَ باستِقلالِ هذا الوَعدِ عن سابِقِه، فلا يُتوهَّمَ أنَّ العَطفَ عَطفُ تَفسيرٍ أو عَطفُ عامٍّ على خاصٍّ، ولِلإشباعِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٥، ٢٨٦).

البِشارةِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ انتصَبَ ﴿نُزُلًا﴾ على الحالِ مِن ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ و﴿مَا تَدَّعُونَ﴾؛ وهي مُفيدةٌ لكَونِ ما يَتمنَّونَه بالنِّسبةِ إلى ما يُعْطَون مِن عَظائمِ الأُجورِ مِمَّا لا يَخطُرُ ببالِهم، كالنُّزُلِ للضَّيفِ[٢].

- وأُوثِرتْ صِفَتا (الغَفورِ الرَّحيمِ) هنا؛ للإشارةِ إلى أنَّ اللهَ غَفَر لهم -أو لِأكثَرِهم- اللَّمَمَ وما تابوا منه، وأنَّه رَحيمٌ بهم؛ لِأنَّهم كانوا يُحِبُّونَه ويَخافونَه ويُناصِرونَ دينَه[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ليس هذا مِن حِكايةِ خِطابِ الملائكةِ للمؤمنينَ في الآخِرةِ، وإنَّما هو مُوجَّهٌ مِن اللهِ؛ فالأظهَرُ أنَّه تَكمِلةٌ لِلثَّناءِ على الَّذين قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [فصلت: ٣٠]، وتَوجيهٌ لاستِحقاقِهم تلك المُعامَلةَ الشَّريفةَ، وقَمعٌ لِلمُشرِكينَ؛ إذْ تَقرَعُ أسماعَهم، أيْ: كيف لا يَكونونَ بتلك المَثابةِ وقد قالوا أحسَنَ القَولِ، وعَمِلوا أحسَنَ العَمَلِ[٤]؟!

- وذِكرُ هذا الثَّناءِ عليهم بحُسنِ قَولِهم عَقِبَ ذِكرِ مَذَمَّةِ المُشرِكينَ ووَعيدِهم على سُوءِ قَولِهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ مُشعِرٌ لا مَحالةَ بأنَّ بيْن الفَريقَيْنِ بَونًا بَعيدًا، طَرَفاه: الأحسَنُ المُصرَّحُ به، والأسوَأُ المَفهومُ بالمُقابَلةِ، أيْ: فلا يَستَوي الَّذين قالوا أحسَنَ القَولِ وعَمِلوا أصلَحَ العَمَلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مع الَّذين قالوا أسْوَأَ القَولِ وعَمِلوا أسوَأَ العَمَلِ؛ ولهذا عُقِّبَ بقَولِه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾[١] [فصلت: ٣٤].

- والاستِفهامُ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ...﴾ مُستعمَلٌ في النَّفيِ، أيْ: لا أحَدَ أحسَنُ قَولًا مِن هذا الفَريقِ[٢].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ تفضيليَّةٌ لاسمِ ﴿أَحْسَنُ﴾، والكلامُ على حَذْفِ مُضافٍ تَقديرُه: مِن قَولِ مَن دَعا إلى اللهِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ثَناءٌ على المُسلِمينَ بأنَّهم افتَخَروا بالإسلامِ، واعتَزُّوا به بيْن المُشرِكينَ، ولم يَتستَّروا بالإسلامِ. والاعتِزازُ بالدِّينِ عَمَلٌ صالِحٌ، ولكِنَّه خُصَّ بالذِّكرِ؛ لِأنَّه أُرِيدَ به غَيظُ الكافِرينَ، وإنَّما لم يُذكَرْ نَظيرُ هذا القَولِ في الصِّلةِ المُشيرةِ إلى سَبَبِ تَنَزُّلِ المَلائِكةِ على المُؤمنينَ بالكَرامةِ، وهي ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠]؛ لِأنَّ المَقصودَ مِن ذِكرِها هنا الثَّناءُ عليهم بتَفاخُرِهم على المُشرِكينَ بعِزَّةِ الإسلامِ، وذلك مِن آثارِ تلك الصِّلةِ؛ فلا حاجةَ إلى ذِكرِه هُنالك، بخِلافِ مَوقِعِه هنا[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ جامِعٌ للمعاني السَّابقةِ، وليس مَحْصورًا في القَولِ المُجَرَّدِ؛ لِمَجيئِه على طَريقةِ التَّذييلِ، وعلى أُسلوبِ قَولِكَ: زَيدٌ مِنَ العُلَماءِ، أيْ: له إسْهامٌ مَعَهم في هذا الوَصفِ، والعِلْمُ له كاللَّقبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٨، ٢٨٩).

المَشهورِ، كأنَّه قال: إنَّني لَمِنَ الَّذين لهمُ القِدْحُ المُعلَّى(١) في التَّسليمِ والتَّفويضِ(٢).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

- جُملةُ ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ سِيقَتْ لِبيانِ مَحاسنِ الأعمالِ الجارِيةِ بيْن العِبادِ، إثْرَ بَيانِ مَحاسِنِ الأعمالِ الجاريةِ بيْن العَبدِ وبيْن الرَّبِّ عزَّ وجلَّ؛ تَرغيبًا لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الصَّبرِ على أذيَّةِ المُشرِكينَ، ومُقابَلةِ إساءَتِهم بالإحسانِ(٣).

- وقيل: هذه الجُملةُ ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ معطوفةٌ، وعَطفُها له مَوقِعٌ عَجيبٌ؛ فإنَّه يَجوزُ أنْ يَكونَ عَطفًا على جُملة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ...﴾ [فصلت: ٣٣] إلخ، تَكمِلةً لها؛ فإنَّ المَعطوفَ عليها تَضَمَّنتِ الثَّناءَ على المُؤمنينَ إثْرَ وَعيدِ المُشرِكينَ وذَمِّهم، وهذه الجُملةُ فيها بَيانُ التَّفاوُتِ بيْن مَرتَبةِ المُؤمِنينَ وحالِ المُشرِكينَ؛ فإنَّ الحَسَنةَ اسمٌ مَنقولٌ مِن الصِّفةِ، فتَلمُّحُ الصِّفةِ مُقارِنٌ له، فالحَسَنةُ حالةُ المُؤمِنينَ، والسَّيِّئةُ حالةُ المُشرِكينَ؛ فيكون المعنى كمَعْنى آياتٍ كَثيرةٍ مِن هذا القَبيلِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

---

(١) القِدْحُ المُعَلَّى: أي: النَّصيبُ الأوفَرُ. والقِدْحُ: السَّهْمُ. والمُعَلَّى: السَّهمُ السَّابعُ في المَيسِرِ، وهو أفضَلُها. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ٩٢)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار عمر (٣/ ١٧٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦١).

﴿وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ﴾ [غافر: ٥٨]، فعطْفُ هذه الجُملةِ على الَّتي قبْلَها على هذا الاعتبارِ يكونُ مِن عطْفِ الجُمَلِ الَّتي يَجمَعُها غرَضٌ واحدٌ، وليس مِن عطْفِ غرَضٍ على غرَضٍ.

ويَجوزُ أنْ تَكونَ عَطفًا على جُملةِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] الواقعةِ بَعدَ جُملةِ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]؛ فإنَّ ذلك مُثيرٌ في نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الضَّجَرَ مِن إصرارِ الكافِرينَ على كُفرِهم، وعَدَمِ التَّأثُّرِ بدَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الحَقِّ، فهو بحالِ مَن تَضيقُ طاقةُ صَبْرِه على سَفاهةِ أولئك الكافِرينَ، فأردَفَ اللهُ ما تَقدَّمَ بما يَدفَعُ هذا الضَّيقَ عن نَفْسِه بقَولِه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ الآيةَ، فالحَسَنةُ تَعُمُّ جَميعَ أفرادِ جِنسِها، وأُولاها تَبادُرًا إلى الأذهانِ حَسَنةُ الدَّعوةِ إلى الإسلامِ؛ لِمَا فيها مِن جَمِّ المَنافِعِ في الآخِرةِ والدُّنيا، وتَشملُ صِفةَ الصَّفحِ عنِ الجَفاءِ الَّذي يَلقَى به المُشرِكونَ دَعوةَ الإسلامِ؛ لِأنَّ الصَّفحَ مِنَ الإحسانِ، وفيه تَركُ ما يُثيرُ حَميَّتَهم لِدينِهم، ويُقَرِّبُ لِينَ نُفوسِ ذَوي النُّفوسِ اللَّيِّنةِ؛ فالعَطفُ مِن عَطفِ غَرَضٍ على غَرَضٍ، وهي تَمهيدٌ وتَوطِئةٌ لِقَولِه عَقِبَها: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الآيةَ[1].

- قولُه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ نفْيُ الاستواءِ مُرادٌ به تَفضيلُ الحَسَنةِ على السَّيِّئةِ؛ فكانَ مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: ولا تَستَوي الحَسَنةُ والسَّيِّئةُ، دُونَ إعادةِ (لا) النَّافيةِ بَعدَ الواوِ الثَّانيةِ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٨]؛ فإعادةُ (لا) النَّافيةِ تأكيدٌ لِأُختِها السَّابقةِ، وأحسَنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٩، ٢٩٠).

مِنِ اعتِبارِ التَّأكيدِ أنْ يَكونَ في الكَلامِ إيجازُ حَذفٍ(١) مُؤْذِنٌ باحتِباكٍ(٢) في الكَلامِ، تَقديرُه: وما تَستَوي الحَسَنةُ والسَّيِّئةُ ولا السَّيِّئةُ والحَسَنةُ؛ فالمُرادُ بالأوَّلِ نَفيُ أنْ تَلتَحِقَ فَضائِلُ الحَسَنةِ بمَساوِئِ السَّيِّئةِ، والمُرادُ بالثَّاني نَفيُ أنْ تَلتَحِقَ السَّيِّئةُ بشَرَفِ الحَسَنةِ، وذلك هو الاستِواءُ في الخَصائِصِ، وفي ذلك تَأكيدٌ وتَقويةٌ لِنَفيِ المُساواةِ؛ لِيَدُلَّ على أنَّه نَفيٌ تامٌّ بيْنَ الجِنسَيْنِ: جِنسِ الحَسَنةِ وجِنسِ السَّيِّئةِ، لا مُبالَغةَ فيه ولا مَجازَ(٣).

(١) الإيجازُ: هو الاختصارُ والجمعُ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ. ويكونُ الإيجازُ محمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصودِ. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغة كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسنُ الإيجازِ. والإيجازُ نوعان؛ الأوَّلُ: إيجازُ القِصَرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغة)، وهو ما ليس بحَذْفٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه، مع أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا علِم أنَّه متى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتال؛ فارتفع بالقتْلِ -الَّذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ النَّاسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم. الثَّاني: إيجازُ الحَذْفِ، وهو حذْفُ ما يُعلَمُ ويُفهَمُ مِن سِياقِ الكلامِ بشرطِ وُجودِ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقد يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. والفرقُ بيْنَ الحذفِ والإيجازِ: أنَّ الحذفَ يكونُ فيه مُقدَّرٌ، بخِلافِ الإيجازِ؛ فإنَّه عبارةٌ عن اللَّفظِ القليلِ الجامعِ للمعاني الجَمَّةِ بنفْسِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشيق (١/ ٢٤٢)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما بعدها)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(٢) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٠، ٢٩١).

- وفي التَّعبيرِ بالحَسَنةِ والسَّيِّئةِ في قولِه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ دُونَ (المُحسِنِ والمُسيءِ) إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ فَريقٍ مِن هذَيْنِ قد بَلَغ الغايةَ في جِنسِ وَصفِه مِن إحسانٍ وإساءةٍ، على طَريقةِ الوَصفِ بالمَصدَرِ، ولِيَتأتَّى الانتِقالُ إلى مَوعِظةِ تَهذيبِ الأخلاقِ في قَولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ فيُشبِهُ أنْ يَكونَ إيثارُ نَفيِ المُساواةِ بيْن الحَسَنةِ والسَّيِّئةِ تَوطِئةً لِلانتِقالِ إلى قَولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لِحُسنِ عاقِبةِ الحَسَنةِ، وإخراجُه مُخرَجَ جَوابِ مَن قالَ: كيف أصنَعُ؟ فقيلَ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ لِلمُبالَغةِ؛ ولذلك وُضِعَ ﴿أَحْسَنُ﴾ مَوضِعَ الحَسَنةِ[(٢)].

- وأيضًا قولُه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ تَخَلُّصٌ مِن غَرَضِ تَفضيلِ الحَسَنةِ على السَّيِّئةِ إلى الأمْرِ بخُلقِ الدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ؛ لِمُناسَبةِ أنَّ ذلك الدَّفعَ مِن آثارِ تَفضيلِ الحَسَنةِ على السَّيِّئةِ؛ إرشادًا مِنَ اللهِ لِرَسولِه وأُمَّتِه بالتَّخلُّقِ بخُلُقِ الدَّفعِ بالحُسْنى. أو واقعةٌ مَوقِعَ النَّتيجةِ مِنَ الدَّليلِ، والمَقصدِ مِنَ المُقَدِّمةِ؛ فمَضمونُها ناشِئٌ عن مَضمونِ الَّتي قَبْلَها. وكِلَا الاعتبارَينِ في الجُملةِ الأُولى مُقتضٍ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ مَفصولةً غيرَ مَعطوفةٍ[(٣)].

- ومَفعولُ ﴿ٱدْفَعْ﴾ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه انحِصارُ المَعنى بيْن السَّيِّئةِ والحَسَنةِ، فلَمَّا أُمِرَ بأنْ تَكونَ الحَسَنةُ مَدفوعًا بها، تَعيَّنَ أنَّ المَدفوعَ هو السَّيِّئةُ؛ فالتَّقديرُ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣، ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩١).

ادفَعِ السَّيِّئَةَ بالَّتي هي أحسَنُ[١].

- ومَعنى ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾ أيْ: بالحَسَنةِ، وإنَّما صِيغَتْ بصِيغةِ التَّفضيلِ؛ تَرغيبًا في دَفعِ السَّيِّئةِ بها؛ لِأنَّ ذلك يَشُقُّ على النَّفْسِ؛ فإنَّ الغَضَبَ مِن سُوءِ المُعامَلةِ مِن طِباعِ النَّفْسِ، وهو يَبعَثُ على حُبِّ الانتِقامِ مِنَ المُسيءِ؛ ولكِنَّ مَن دَفَعَ بالحُسْنى هانَ عليه الدَّفعُ بما هو دُونَها، فلَمَّا أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُجازيَ السَّيِّئةَ بالحَسَنةِ أُشيرَ إلى فَضلِ ذلك[٢].

- وفُرِّعَ على الأمْرِ بالدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ قَولُه: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾؛ لِبَيانِ ما في ذلك الأمْرِ مِنَ الصَّلاحِ؛ تَرويضًا على التَّخَلُّقِ بذلك الخُلُقِ الكَريمِ، وهو أنْ تكونَ النَّفسُ مَصدَرًا لِلإحسانِ[٣].

- و(إذا) لِلمُفاجَأةِ، وهي كِنايةٌ عن سُرعةِ ظُهورِ أثَرِ الدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ في انقِلابِ العَدُوِّ صَديقًا[٤]، وبتأمُّلِ كَونِ الجوابِ بـ (إذا) الفُجائيَّةِ يَتبيَّنُ أنَّ انقلابَ عَداوتِه إلى ولايةٍ حَميمةٍ لا يَتأخَّرُ كثيرًا؛ لأنَّ (إذا) الفُجائيَّةَ تدُلُّ على الفَوريَّةِ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، فلو كان المُخبِرُ بذلك غيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ لَكان الإنسانُ يَتردَّدُ ويَتساءلُ: كيف يَنقلِبُ العَدُوُّ صَديقًا حَميمًا بهذه السُّرعةِ؟! فنقولُ: إنَّ الَّذي أخبَرَ بذلك هو اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[٥] [النساء: ١٢٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٨).

- وعُدِلَ عن ذِكرِ العَدُوِّ مُعرَّفًا بلامِ الجِنسِ إلى ذِكرِه بالاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾؛ لِيتأتَّى تَنكيرُ ﴿عَدَٰوَةٌ﴾ لِلنَّوعيَّةِ، وهو أصلُ التَّنكيرِ؛ فيَصدُقَ بالعَداوةِ القَويَّةِ ودُونِها، كما أنَّ ظَرفَ ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ﴾ يَصدُقُ بالبَينِ القَريبِ والبَينِ البَعيدِ -يعني: مُلازَمةَ العَداوةِ أو طُروءَها- وهذا تَركيبٌ مِن أعلى طَرَفِ البَلاغةِ؛ لِأنَّه يَجمَعُ أحوالَ العَداواتِ؛ فيُعلَمُ أنَّ الإحسانَ ناجِعٌ في اقتِلاعِ عَداوةِ المُحسَنِ إليه لِلمُحسِنِ على تَفاوُتِ مَراتِبِ العَداوةِ قُوَّةً وضَعفًا، وتَمكُّنًا وبُعدًا، ويُعلَمُ أنَّه يَنبَغي أنْ يَكونَ الإحسانُ لِلعَدُوِّ قَويًّا بقَدرِ تَمكُّنِ عَداوَتِه؛ لِيَكونَ أنجَعَ في اقتِلاعِها. ومِنَ الأقوالِ المَشهورةِ: (النُّفوسُ مَجبولةٌ على حُبِّ مَن أحسَنَ إليها)[١].

- والتَّشبيهُ في قَولِه: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ تَشبيهٌ في زَوالِ العَداوةِ، ومُخالَطةِ شَوائِبِ المَحبَّةِ؛ فوَجهُ الشَّبَهِ هو المُصافاةُ والمُقارَبةُ، وهو مَعنًى مُتفاوِتُ الأحوالِ، أيْ: مَقولٌ على جِنسِه بالتَّشكيكِ على اختِلافِ تَأثُّرِ النَّفْسِ بالإحسانِ، وتَفاوُتِ قُوَّةِ العَداوةِ قبْلَ الإحسانِ، ولا يَبلُغُ مَبلَغَ المُشَبَّهِ به؛ إذْ مِنَ النَّادرِ أنْ يَصيرَ العَدُوُّ وَليًّا حَميمًا، فإنْ صارَه فهو لِعَوارِضَ غَيرِ داخِلةٍ تَحتَ مَعنى الإسراعِ الَّذي آذَنَتْ به (إذا) الفُجائيَّةُ[٢].

- الوليُّ هو: الحليفُ والنَّاصِرُ، والحَميمُ: القَريبُ والصَّديقُ، ووَجْهُ الجَمعِ بيْن ﴿وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أنَّه جَمَعَ خَصلَتَيْنِ كِلتاهما لا تَجتَمِعُ مع العَداوةِ، وهُما خَصلَتا الوَلايةِ والقَرابةِ[٣]، وذلك على قولٍ.

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٤).

عطْفٌ على جملةِ ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، أو حالٌ مِن (الَّتي هِيَ أَحْسَنُ)، وضميرُ ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ عائدٌ إلى (الَّتي هي أحسنُ) باعتبارِ تعلُّقِها بفعلِ (ادْفَعْ)، وهذا تَحريضٌ على الارتياضِ بخَصلةِ الدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ؛ بإظهارِ احتياجِها إلى قُوَّةِ عَزمٍ، وشِدَّةِ مِراسٍ لِلصَّبرِ على تَرْكِ هَوى النَّفْسِ في حُبِّ الانتِقامِ، وفي ذلك تَنويهٌ بفَضلِها بأنَّها تُلازِمُها خَصلةُ الصَّبرِ، وهي في ذاتِها خَصلةٌ حَميدةٌ، وثَوابُها جَزيلٌ، كما عُلِمَ مِن عِدَّةِ آياتٍ في القُرآنِ[(١)].

- ومَعنى ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ يُجعَلُ لاقيًا لها، وهو مُعبَّرٌ به هنا عن السَّعيِ لِتَحصيلِها؛ لِأنَّ التَّحصيلَ على الشَّيءِ بَعدَ المُعالَجةِ والتَّخَلُّقِ يُشبِهُ السَّعيَ لِمُلاقاةِ أحَدٍ فيَلقاهُ[(٢)].

- وجِيءَ في ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ بالمُضارِعِ في المَوضِعَيْنِ، باعتِبارِ أنَّ المَأمورَ بالدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ مَأْمورٌ بتَحصيلِ هذا الخُلُقِ في المُستَقبَلِ[(٣)].

- وكرَّر ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ لِوُجوهٍ؛ الأوَّلُ: تأْكيدٌ لهذه الفعلةِ الجَميلةِ الجَليلةِ[(٤)]. الثَّاني: أنَّه كرَّر إظهارَ البناءِ للمَفعولِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه لا قُدْرةَ عليها أصلًا إلَّا بتَوفيقِ الخالقِ بأمْرٍ باطِنيٍّ، يَقْذِفُه اللهُ في القلْبِ قذْفًا وَحْيًا، تَظهَرُ ثَمرتُه على سائرِ البَدنِ[(٥)]. الثَّالثُ: أنَّ في إعادةِ فِعلِ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ دُونَ اكتِفاءٍ بحَرفِ العَطفِ؛ إظهارًا لِمَزيدِ الاهتِمامِ بهذا الخَبَرِ، بحيث لا يَستتِرُ مِن صَريحِه شَيءٌ تحت العاطفِ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٤، ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٥).

- وجيءَ في الصِّلةِ -وهي ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا﴾- بالماضي؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ الصَّبرَ خُلُقٌ سابِقٌ فيهم، هو العَونُ على مُعامَلةِ المُسيءِ بالحُسْنى، ولهذه النُّكتةِ عُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (إلَّا الصَّابِرونَ)؛ لِنُكتةِ كَونِ الصَّبرِ سَجيَّةً فيهم مُتَأصِّلةً، ثمَّ زِيدَ في التَّنويهِ بها بأنَّها ما تَحصُلُ إلَّا لِذي حَظٍّ عَظيم. والحَظُّ: النَّصيبُ مِنَ الشَّيءِ مُطلَقًا، وقيلَ: خاصٌّ بالنَّصيبِ من خَيرٍ، والمُرادُ هنا: نَصيبُ الخَيرِ، بالقَرينةِ أو بدَلالةِ الوَضعِ، أيْ: ما يَحصُلُ دَفعُ السَّيِّئةِ بالحَسَنةِ إلَّا لِصاحِبِ نَصيبٍ عَظيمٍ مِنَ الفَضائِلِ، أيْ: مِنَ الخُلُقِ الحَسَنِ، والاهتِداءِ والتَّقوى، فتَحصَّلَ مِن هذا أنَّ التَّخَلُّقَ بالصَّبرِ شَرْطٌ في الاضطِلاعِ بفَضيلةِ دَفعِ السَّيِّئةِ بالَّتي هي أحسَنُ، وأنَّه ليس وَحْدَه شَرطًا فيها، بلْ وَراءَه شُروطٌ أُخَرُ، يَجمَعُها قَولُه: ﴿حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، أيْ: مِنَ الأخلاقِ الفاضِلةِ -على قولٍ-، والصَّبرُ مِن جُملةِ الحَظِّ العَظيمِ؛ لِأنَّ الحَظَّ العَظيمَ أعَمُّ مِنَ الصَّبرِ، وإنَّما خُصَّ الصَّبرُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أصلُها، ورَأْسُ أمْرِها، وعَمودُها[(١)].

- وأيضًا أفادَ قَولُه: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أنَّ الحَظَّ العَظيمَ مِنَ الخَيرِ سَجيَّتُه ومَلَكَتُه، كما اقتَضَتْه إضافةُ ﴿ذُو﴾[(٢)].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فصلت: ٣٥]؛ فبَعدَ أنْ أرشَدَ القُرآنُ إلى ما هو عَونٌ على تَحصيلِ الخُلُقِ المَأمورِ به، وهو دَفْعُ السَّيِّئةِ بالَّتي هي أحسَنُ، وبعْدَ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

شُرِحَتْ فائدةُ العمَلِ بها بقولِه: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]؛ صُرِفَ العِنانُ هنا إلى التَّحذيرِ من عوائِقِها الَّتي تجتَمِعُ كَثرَتُها في حَقيقةِ نَزْغِ الشَّيطانِ، فأمَرَ بأنَّه إنْ وَجَدَ في نَفْسِه خَواطِرَ تَصرِفُه عن ذلكَ، وتَدْعوه إلى دَفْعِ السَّيِّئةِ بمِثلِها، فإنَّ ذلك نَزْغٌ مِنَ الشَّيطانِ، دَواؤُه أنْ تَستَعيذَ باللهِ منه؛ فقد ضَمِنَ اللهُ له أنْ يُعيذَه إذا استَعاذَه؛ لِأنَّه أمَرَه بذلك، والخِطابُ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- قولُه: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ النَّزْغُ: النَّخسُ، وهو مَسٌّ شَديدٌ لِلجِلدِ بطَرَفِ عُودٍ أو إصبَعٍ، فهو مَصدَرٌ، وهو هنا مُعبَّرٌ به هنا عن اتِّصالِ القُوَّةِ الشَّيطانيَّةِ بخَواطِرِ الإنسانِ تَأمُرُه بالشَّرِّ وتَصرِفُه عنِ الخَيرِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ بالنَّزغِ هنا النَّازِغَ، وهو الشَّيطانُ، وُصِفَ بالمَصدَرِ لِلمُبالَغةِ، و(مِن) بَيانيَّةٌ، أيْ: يَنزَغَنَّكَ النَّازِغُ الَّذي هو الشَّيطانُ، والمُبالَغةُ حاصِلةٌ على التَّقديرينِ، مع اختِلافِ جِهتِها[٢].

- وكذلك في جَعْلِ تَرْكِ الدَّفعِ بالأحسَنِ مِن آثارِ نَزَغاتِ الشَّيطانِ مَزيدُ تَحذيرٍ وتَنفيرٍ عنه[٣].

- قولُه: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ... ﴾ جيءَ في هذا الشَّرطِ بـ (إنْ) الَّتي الأصلُ فيها عَدَمُ الجَزْمِ بوُقوعِ الشَّرطِ؛ تَرفيعًا لِقَدْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ نَزْغَ الشَّيطانِ له إنَّما يُفرَضُ كما يُفرَضُ المُحالُ؛ ألَا تَرى إلى قولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤).

هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]؛ فجاء في ذلك الشَّرطِ بحَرْفِ (إذا) الَّتي الأصْلُ فيها الجزْمُ بوُقوعِ الشَّرطِ أو بغَلَبةِ وُقوعِه[١].

- وضَميرُ الفَصلِ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ لِتَقويةِ الحُكمِ، وهو هنا حُكمٌ كِنائيٌّ؛ لِأنَّ المَقصودَ لازمُ وَصفِ ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، وهو مُؤاخَذةُ مَن تَصدُرُ منهم أقوالٌ وأعمالٌ في أذَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والكَيدِ له، مِمَّن أُمِرَ بأنْ يَدفَعَ سَيِّئاتِهم بالَّتي هي أحسَنُ، والمَعنى: فإنْ سَوَّلَ لكَ الشَّيطانُ ألَّا تُعامِلَ أعداءَكَ بالحَسَنةِ، وزَيَّنَ لكَ الانتِقامَ، وقالَ لكَ: كيف تُحسِنُ إلى أعداءِ الدِّينِ، وفي الانتِقامِ منهم قَطعُ كَيدِهم لِلدِّينِ؟! فلا تَأْخُذْ بنَزْغِه، وخُذْ بما أمَرْناكَ، واستَعِذْ باللهِ مِن أنْ يُزِلَّكَ الشَّيطانُ؛ فإنَّ اللهَ لا يَخفَى عليه أمْرُ أعدائِكَ، وهو يَتوَلَّى جَزاءَهم[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فقالَه هنا بزيادةِ ﴿هُوَ﴾ و(أل)، وفي سُورةِ (الأعرافِ) بدُونِهما، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ ما هنا في (فُصِّلت) مُتَّصِلٌ بمُؤَكِّدَيْنِ: بالتَّكرارِ، وبالحَصرِ في قولِه ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾؛ فناسَبَ التَّأكيدُ بما ذُكِرَ، وما في (الأعرافِ) ليس فيه ذلك؛ فجَرَى على القياسِ مِن كَونِ المُسنَدِ إليه مَعرِفةً، والمُسنَدِ نَكِرةً[٣]. وقيل: الَّذي ذُكِرَ في (الأعراف) أخَفُّ على النَّفْسِ ممَّا ذُكِر في سُورةِ (فُصِّلت)؛ لأنَّ الإعراضَ عن الجاهلِ وترْكَه أخَفُّ على النَّفْسِ مِن الإحسانِ إلى المُسيءِ، فتَتأفَّفُ النَّفْسُ مِن ذلك،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٥).

ولا تَنقادُ له إلَّا بمُعالَجةٍ، ويُساعِدُها الشَّيطانُ في هذه الحالِ، فتَنفعِلُ له وتَسْتعصي على صاحِبِها، فتَحتاجُ إلى مُجاهَدةٍ وقُوَّةِ إيمانٍ؛ فلهذا أُكِّدَ ذلك هاهنا بضَميرِ الفصْلِ والتَّعريفِ باللَّامِ فقال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

وقيل: إنَّما قال هاهنا: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فأكَّد بـ (إنَّ) وبضَميرِ الفصْلِ، وأتَى باللَّامِ في ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقال في (الأعرافِ): ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]؛ لأنَّ سِرَّ ذلك -واللهُ أعلَمُ- أنَّه حيثُ اقتصَرَ على مُجرَّدِ الاسمِ ولم يُؤكِّدْه أُريدَ إثباتُ مُجرَّدِ الوصْفِ الكافي في الاستِعاذةِ، والإخبارِ بأنَّه سُبحانه يَسمَعُ ويَعلَمُ، فيَسمَعُ استِعاذتَك فيُجيبُك، ويَعلَمُ ما تَستعيذُ منه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١).

قال ابن القيم: (تأمَّلْ سِرَّ القُرآنِ الكريمِ؛ يتَّضِحُ كيف أَكَّدَ الوصْفَ بـ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بذِكْرِ صِيغةِ «هو» الدَّالِّ على تأْكيدِ النِّسبةِ واختِصاصِها، وعَرَّفَ الوصْفَ بالألِفِ واللَّامِ في سورة «حم» [فصلت]؛ لاقتِضاءِ المقامِ لهذا التَّأكيدِ، وتَرَكه في سُورةِ «الأعرافِ»؛ لاستِغناءِ المقامِ عنه؛ فإنَّ الأمْرَ بالاستعاذةِ في سورةِ «حم» [فصلت] وَقَعَ بعدَ الأمرِ بأشَقِّ الأشياءِ على النَّفْسِ؛ وهو مُقابَلةُ إساءةِ المُسيءِ بالإحسانِ إليه، وهذا أمْرٌ لا يَقْدِرُ عليه إلَّا الصَّابرون، ولا يُلَقَّاهُ إلَّا ذو حظٍّ عَظيمٍ -كما قال اللهُ تعالى-، والشَّيطانُ لا يَدَعُ العبدَ يَفْعَلُ هذا؛ بلْ يُريه أنَّ هذا ذُلٌّ وعجْزٌ، ويُسَلِّطُ عليه عَدُوَّه فيَدْعُوه إلى الانتقامِ، ويُزَيِّنُه له، فإنْ عَجَز عنه دَعاهُ إلى الإعراضِ عنه؛ وألَّا يُسيءَ إليه ولا يُحسِنَ، فلا يُؤْثِرُ الإحسانَ إلى المُسيءِ إلَّا مَن خالَفَه وآثَرَ اللهَ تعالى وما عِنْدَه على حَظِّه العاجلِ؛ فكان المقامُ مَقامَ تأْكيدٍ وتحريضٍ؛ فقال فيه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وأمَّا في سُورةِ «الأعرافِ»؛ فإنَّه أمَرَه أنْ يُعْرِضَ عن الجاهلين، وليس فيها الأمْرُ بمُقابَلةِ إساءتِهم بالإحسانِ؛ بلْ بالإعراضِ، وهذا سَهْلٌ على النُّفوسِ؛ غيرُ مُستعْصٍ عليها، فليس حِرْصُ الشَّيطانِ وسَعْيُه في دَفْعِ هذا كحِرْصِه على دَفْعِ المُقابَلةِ بالإحسانِ؛ فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٦٧).

فيَدفَعُه عنك، فالسَّمْعُ لِكلامِ المُستعيذِ، والعِلْمُ بالفِعلِ المُستعاذِ منه، وبذلك يَحصُلُ مَقصودُ الاستعاذةِ، وهذا المعنى شاملٌ لِلموضعَينِ، وامتازَ المذْكورُ في سُورةِ (فُصِّلَتْ) بمَزيدِ التَّأكيدِ والتَّعريفِ والتَّخصيصِ؛ لأنَّ سِياقَ ذلك بعْدَ إنكارِه سُبحانه على الَّذين شَكُّوا في سمْعِه لِقَولِهم وعِلْمِه بهم؛ فجاء التَّوكيدُ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في سِياقِ هذا الإنكارِ، أي: هو وحْدَه الَّذي له كَمالُ قُوَّةِ السَّمْعِ وإحاطةِ العِلْمِ، لا كما يَظُنُّ به أعْداؤُه الجاهِلون أنَّه لا يَسمَعُ إنْ أخْفَوا، وأنَّه لا يَعلَمُ كثيرًا ممَّا يَعمَلون! وحسَّنَ ذلك أيضًا: أنَّ المأمورَ به في سُورةِ (فُصِّلت) دفْعُ إساءتِهم إليه بإحْسانِه إليهم، وذلك أشَقُّ على النُّفوسِ مِن مُجرَّدِ الإعراضِ عنهم، ولهذا عقَّبه بقولِه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، فحسُنَ التَّأكيدُ لِحاجةِ المُستعيذِ. وأيضًا فإنَّ السِّياقَ هاهنا لإثباتِ صِفاتِ كَمالِه، وأدِلَّةِ ثُبوتِها، وآياتِ رُبوبيَّته، وشَواهدِ تَوحيدِه، ولهذا عُقِّبَ ذلك بقولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وبقولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]، فأتَى بأداةِ التَّعريفِ الدَّالَّةِ على أنَّ مِن أسمائه (السَّميعَ العليمَ)، كما جاءت الأسماءُ الحُسْنى كلُّها مُعرَّفةً، والَّذي في (الأعرافِ) في سِياقِ وَعيدِ المشركينَ وإخوانِهم مِن الشَّياطينِ، ووَعْدِ المُستعيذِ بأنَّ له ربًّا يَسمَعُ ويَعلَمُ، وآلهةُ المُشركين الَّتي عبَدَوها مِن دُونِه ليس لهم أعيُنٌ يُبصِرون بها، ولا آذانٌ يَسْمَعون بها؛ فإنَّه سَميعٌ عَليمٌ، وآلِهَتُهم لا تَسمَعُ ولا تُبصِرُ ولا تَعلَمُ، فكيف تُسَوُّونَها به في العِبادةِ؟! فعلِمْتَ أنَّه لا يَليقُ بهذا السِّياقِ غيرُ التَّنكيرِ، كما لا يَليقُ بذلك غيرُ التَّعريفِ، واللهُ أعلَمُ بأسرارِ كَلامِه[1].

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٦، ٩٧).

الآيات (٣٧-٣٩)

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يَسْـَٔمُونَ﴾: أي: يَمَلُّونَ ويَفتُرونَ، والسَّآمةُ: المَلالةُ مِمَّا يَكثُرُ لُبثُه فِعلًا كان أو انفِعالًا[1].

﴿خَـٰشِعَةً﴾: أي: هامِدةً يَابِسةً جَدْبةً لا نَباتَ فيها، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[2].

﴿ٱهْتَزَّتْ﴾: أي: تحرَّكتْ بالنَّباتِ، والهزُّ: التَّحريكُ، وأصلُ (هزز): يدُلُّ على اضْطِرابٍ في شيءٍ وحَرَكةٍ[3].

﴿وَرَبَتْ﴾: أي: عَلَت وانتَفَخت؛ لأنَّ النَّبتَ إذا أراد أن يَخرُجَ ارتَفَعتْ له

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) (٦/ ٩)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٩٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٠).

الأرضُ، وأصلُ (ربو): يدُلُّ على الزِّيادةِ والنَّماءِ والعُلُوِّ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ اللهُ تعالى بعضَ الأدلَّةِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه، فيقولُ: ومِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وُجودِه ووَحدانيَّتِه وقُدرتِه سُبحانَه: اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمَرُ، لا تَسجُدوا -أيُّها النَّاسُ- للشَّمسِ ولا للقَمَرِ، واسجُدوا للهِ وَحْدَه الَّذي خلَقَهنَّ إنْ كُنتُم إيَّاه تَعبُدون.

فإنْ تكبَّرَ أولئك المُشرِكونَ عن إفرادِ اللهِ تعالى بالعُبوديَّةِ، فإنَّ له سُبحانَه عِبادًا آخَرينَ -يا مُحمَّدُ- هم الملائِكةُ الَّذين عِندَه، فهم يُنَزِّهونَه لَيلًا ونَهارًا، ولا يَمَلُّونَ مِن ذلك.

ومِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّتِه تعالى وقُدرتِه على إحياءِ الموتى: أنَّك ترَى الأرضَ يابسةً مُجدِبةً لا نَباتَ فيها، فإذا أنزَلْنا عليها الماءَ تحَرَّكَت وارتَفَعت، إنَّ الَّذي أحيا تلك الأرضَ اليابِسةَ بالمطَرِ لَمُحْيي الأمواتِ يومَ القيامةِ، إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن تعالَى أنَّ أحسَنَ الأعمالِ والأقوالِ هو الدَّعوةُ إلى اللهِ؛ أردَفَه بذِكْرِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٨).

الدَّلائلِ العُلْويَّةِ والسُّفليَّةِ على قُدْرتِه الباهرةِ، وحِكْمتِه البالغةِ، وحُجَّتِه القاطعةِ[١]؛ تنبيهًا على أنَّ الدَّعوةَ إلى اللهِ تعالى عِبارةٌ عن تقريرِ الدَّلائِلِ الدَّالَّةِ على ذاتِ اللهِ وصِفاتِه، فهذه تنبيهاتٌ شَريفةٌ مُستفادةٌ مِن تناسُقِ هذه الآياتِ؛ فكان العِلمُ بهذه اللَّطائِفِ أحسَنَ عُلومِ القُرآنِ[٢].

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴾.

أي: ومِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وُجودِه ووَحدانيَّتِه، وقُدرتِه ورَحمتِه بعِبادِه، وغيرِ ذلك مِن صفاتِ كَمالِه: اللَّيلُ والنَّهارُ في تَعاقُبِهما، واختِلافِهما في الظَّلامِ والضِّياءِ، والزِّيادةِ والنُّقصانِ، والاستِواءِ وغيرِ ذلك؛ ومِن آياتِه الشَّمسُ والقَمَرُ في دَوَرانِهما المُستَمِرِّ بانتِظامٍ، وتَقديرِ مَنازِلِهما لِمَصالِحِ الأنامِ، وغيرِ ذلك مِن مَنافِعِهما وعَجائبِهما[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ آيتانِ من آياتِ اللهِ، لا يَنكَسِفانِ لِمَوتِ أحَدٍ ولا لحَياتِه، ولكِنَّ اللهَ تعالى يُخَوِّفُ بها عِبادَه))[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥، ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٧، ١٩٨).

(٤) رواه البخاري (١٠٤٨).

﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾.

أي: لا تَسجُدوا -أيُّها النَّاسُ- للشَّمسِ، ولا تَسجُدوا للقَمَرِ؛ فهما مُدَبَّرانِ مُسَخَّرانِ، واسجُدوا للهِ وَحْدَه الَّذي خلَقَهنَّ[1]، إنْ كنتُم تَعبُدونَ اللهَ وتَذِلُّونَ له بالطَّاعةِ حَقًّا[2].

كما قال تعالى حِكايةً عن هُدهُدِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ * وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ * أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٣ - ٢٦].

﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

---

(١) قال ابنُ عطيَّةَ: (الضَّميرُ في: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ قالت فِرقةٌ: هو عائِدٌ على الآياتِ المتقَدِّمِ ذِكرُها في قَولِه ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ﴾. وقالت فِرقةٌ: الضَّميرُ عائِدٌ على الشَّمسِ والقَمَرِ، والاثنانِ جَمْعٌ، وجَمعُ ما لا يَعقِلُ يُؤَنَّثُ؛ فلذلك قال: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾.

قال القاضي أبو محمد [ابن عطية]: ومن حيثُ يُقالُ شُموسٌ وأقمارٌ لاختِلافِهما بالأيَّامِ، ساغ أن يَعودَ الضَّميرُ مَجموعًا. وقالت فِرقةٌ: هو عائِدٌ على الأربعةِ المذكورةِ [يعني: اللَّيلَ والنَّهارَ، والشَّمسَ والقَمَر]، وشأنُ ضَميرِ ما لا يَعقِلُ إذا كان العَدَدُ أقَلَّ مِن العَشَرةِ أن يجيءَ هكذا، فإذا زاد أُفرِدَ مُؤَنَّثًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).

أي: فإنْ تكبَّرَ المُشرِكونَ وتعاظَموا عن إفرادِ الله بالعِبادةِ والسُّجودِ له وَحْدَه، فله عِبادٌ آخَرُونَ هم الملائِكةُ الَّذين عِندَ رَبِّك -يا مُحمَّدُ-، فهم يُنَزِّهونَه لَيلًا ونَهارًا[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾.

أي: وهم لا يَمَلُّونَ مِن ذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٤، ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٠٠-٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٠).

وهذه السُّورةُ فيها مَوضِعُ سجودٍ كما تقدَّم ذِكرُ ذلك في خصائصِ السُّورةِ (ص: ٧)، لكن اختُلِف في مَوضِعِه؛ فمذهبُ المالكيَّةِ أنَّ مَوضِعَ السُّجودِ هو قولُه: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾، ومذهبُ الجمهورِ -الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ- أنَّ مَوضِعَ السُّجودِ هو قولُه: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾. يُنظر: ((المهذب في فقة الإمام الشافعي)) للشيرازي (١/ ١٦٢)، ((الهداية)) للمَرْغيناني (١/ ٧٨)، ((المغني)) لابن قُدامة (١/ ٤٤٣)، ((الشرح الكبير)) للدردير (١/ ٣٠٩).

وممَّن قال بالقولِ الأوَّلِ مِن السَّلَفِ: ابنُ مسعودٍ، وأصحابُه، والحسَنُ. وممَّن قال بالقولِ الثَّاني: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عُمرَ، وسعيدُ بنُ المُسَيِّبِ، ومَسروقٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير الرَّسْعَني)) (٧/ ٣٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر الآياتِ الأربَعَ الفَلَكيَّةَ، وهي اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمَرُ، أتْبَعَها بذِكرِ آيةٍ أرضيَّةٍ[١].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾.

أي: ومِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّتِه وقُدرته تعالى على إحياءِ الموتى وغَيرِ ذلك: أنَّك[٢] ترَى الأرضَ يابِسةً مُجدِبةً لا نَباتَ فيها ولا زَرْعَ[٣].

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾.

أي: فإذا أنزَلْنا الماءَ على تلك الأرضِ اليابِسةِ تحَرَّكَت وارتَفَعت[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٧).

(٢) قيل: الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٧، ٤٣٨).

وقيل: الخِطابُ لِغيرِ مُعَيَّنٍ؛ لِيَصلُحَ لكُلِّ سامِعٍ، فهو خِطابٌ لكلِّ عاقلٍ، وقدَّره بعضُهم: يا إنسانُ. وممَّن قال بهذا في الجملةِ: مكِّي، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة فصلت)) (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

قال ابنُ رجب: (وصَف اللهُ تعالى في كتابِه الأرضَ بالخشوعِ، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾، فاهتزازُها وربوُّها -وهو ارتفاعُها- مُزيلٌ لخُشوعِها؛ فدلَّ على أنَّ الخشوعَ الَّذي كانت عليه هو سكونُها وانخفاضُها). ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

قال الشوكاني: (معنَى ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾: تَحَرَّكَتْ بالنَّباتِ، يُقالُ: اهتزَّ الإنسانُ: إذا تَحَرَّك... ومعنَى =

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الحج: ٥، ٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾.

أي: إنَّ الَّذي أحيا تلك الأرضَ الخاشِعةَ، فأخرَج منها النَّباتَ والزَّرعَ بالمطَرِ: لَقادِرٌ على إحياءِ الأمواتِ يومَ القيامةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

= «رَبَتْ»: انْتَفَخَتْ وعَلَتْ قبْلَ أنْ تَنْبُتَ، قاله مجاهدٌ وغيرُه، وعلى هذا ففي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، وتقديرُه: رَبَتْ وَاهْتَزَّتْ. وقيل: الاهتِزازُ والرَّبْوُ قد يَكونانِ قبْلَ خروجِ النَّباتِ، وقد يَكونانِ بعدَه، ومعنَى الرَّبوِ لغةً: الارتفاعُ، كما يقالُ للموضعِ المرتفعِ: رَبْوةٌ ورابِيَةٌ،... وقيل: اهتزَّت: استبْشَرتْ بالمطرِ، ورَبَت: انتفَخَتْ بالنَّباتِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٤).

وقال ابن عطية: (اهتزازُ الأرضِ: هو تخلخلُ أجزائِها بالماءِ، وتشقُّقُها للنَّباتِ. ورَبْوُها: هو انتِفاخُها بالماءِ، وعلوُّ سطحِها به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨).

وقال البِقاعي: (﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحرَّكتْ حركةً عظيمةً كثيرةً سريعةً، فكانت كمَن يُعالِجُ ذلك بنفْسِه ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: تشقَّقتْ فارتفَع ترابُها، وخرَج منها النَّباتُ وسما في الجوِّ مُغطيًا لوجهِها، وتشعَّبت عُروقُه، وغَلُظَتْ سُوقُه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٩٧).

وقال ابن عثيمين: (﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: اهتزَّ نباتُها من فوقِها... ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: علَتْ. وهل المرادُ... انتفاخُ الأرضِ عندَما تريدُ الحبَّةُ أن تخرُجَ، فإنَّ الحبَّةَ تنتفخُ في باطنِ الأرضِ، ثمَّ إذا أراد غصنُها أن يخرجَ رفعَ الأرضَ... أو المرادُ: علَتْ بالنَّباتِ؟ الجوابُ: يحتملُ هذا وهذا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما بيْنَ النَّفخَتينِ أربعونَ. قالوا: يا أبا هُرَيرةَ، أربعونَ يومًا؟ قال: أبَيْتُ[١]. قالوا: أربعونَ شَهرًا؟ قال: أبَيتُ. قالوا: أربعونَ سَنةً؟ قال: أبَيتُ. ثمَّ يُنزِلُ اللهُ منَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ، وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلى إلَّا عَظْمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ[٢]، ومنه يُرَكَّبُ الخَلقُ يومَ القيامةِ))[٣].

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو قدرةٍ على كلِّ شيءٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ كائِنًا ما كان[٤].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ فيه إشارةٌ إلى الحَثِّ على صِيانةِ الآدَميِّينَ عن أن يَقعَ منهم سُجودٌ لِغَيرِه تعالى؛ رَفعًا لِمَقامِهم عن أن يَكونوا ساجِدينَ لِمَخلوقٍ بعدَ أن كانوا مَسجودًا لهم؛ فإنَّه سُبحانَه أمَرَ الملائِكةَ الَّذين هم أشرَفُ خَلْقِه بَعْدَهم بالسُّجودِ لآدَمَ وهم في ظَهْرِه، فتكَبَّرَ اللَّعينُ إبليسُ، فأبَّدَ لَعْنَه، فشَتَّانَ ما بيْنَ المقامَينِ[٥].

---

(١) أبَيتُ: أي: امتَنَعْتُ عن تعيينِ ذلك، وأن أقولَ في الخبَرِ ما لم أسمَعْه. والإباءُ: أشَدُّ الامتِناعِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٠)، ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٧/ ٣٢٣).

(٢) عَجْبُ الذَّنَبِ: هو العَظمُ بيْنَ الألْيَتينِ الَّذي في أسفَلِ الصُّلبِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٠٥).

(٣) رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ الشَّمسُ أعظَمُ ما يُرى في عالَمِ الشَّهادةِ، وأعَمُّه نَفعًا وتأثيرًا، فالنَّهيُ عن السُّجودِ لها نَهيٌ عَمَّا هو دُونَها بطَريقِ الأَولى، مِنَ الكواكِبِ والأشجارِ وغَيرِ ذلك[١].

٢- أنَّ مِن بلاغةِ القُرآنِ أنَّه إذا ذُكِرَ الحُكمُ ذُكِرَ الدَّليلُ العقليُّ عليه؛ لِقَولِه: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، فقولُه: (اسْجُدُوا للهِ) أمرٌ شَرعيٌّ، وقولُه: ﴿الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ دَليلٌ كَونيٌّ قَدَريٌّ على أنَّ المُستَحِقَّ للسُّجودِ هو الَّذي خَلَق هذه الأشياءَ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، استُدِلَّ به على صلاةِ الكسوفِ؛ لأنَّه ليس هاهنا صلاةٌ تتعلَّقُ بالشَّمسِ والقمرِ إلَّا صلاةُ الكسوفِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ رَدٌّ على الجَهميَّةِ والمُعتَزِلةِ ومَن يَزعُمُ أنَّ اللهَ ليس بنَفْسِه في السَّماءِ وَحْدَها دونَ الأرضِ؛ فقد قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وهمُ الملائكةُ، لا يَشُكُّ أحَدٌ أنَّهم في السَّماءِ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((المهذب في فقة الإمام الشافعي)) للشيرازي (١/ ١٥٧)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٧٩).

﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: قال هاهنا في صِفةِ الملائكةِ: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، فهذا يدُلُّ على أنَّهم مُواظِبونَ على التَّسبيحِ، لا ينفكُّونَ عنه لحظةً واحِدةً، واشتِغالُهم بهذا العَمَلِ على سَبيلِ الدَّوامِ يمنَعُهم مِنَ الاشتِغالِ بسائِرِ الأعمالِ، ككَونِهم يَنزِلونَ إلى الأرضِ، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١]، وقَولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ [التحريم: ٦]؟

الجَوابُ: أنَّ الَّذين ذكَرَهم اللهُ تعالى هاهنا بكَونِهم مُواظِبينَ على التَّسبيحِ أقوامٌ مُعَيَّنونَ مِن الملائِكةِ، وهم الأشرافُ الأكابِرُ منهم، وهذا لا يُنافي كَونَ طائفةٍ أُخرى مِن الملائِكةِ مُشتَغِلينَ بسائِرِ الأعمالِ[(١)].

٦- قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فقد دَلَّ سُبحانَه عِبادَه بما أراهم مِنَ الإحياءِ الَّذي تحَقَّقوه وشاهَدوه على الإحياءِ الَّذي استَبعَدوه، وذلك قياسُ إحياءٍ على إحياءٍ، واعتبارُ الشَّيءِ بنَظيرِه، والعِلَّةُ المُوجِبةُ هي عُمومُ قُدرتِه سُبحانَه، وكَمالُ حِكمتِه، وإحياءُ الأرضِ دَليلُ العِلَّةِ، ويُسمَّى هذا القياسُ بقياسِ الدَّلالةِ، وهو الجَمعُ بيْنَ الأصلِ والفَرعِ بدَليلِ العِلَّةِ ومَلزومِها[(٢)].

٧- الاستِدلالُ بالعمومِ على الخصوصِ، فاللهُ تعالى استدَلَّ على قدرتِه على إحياءِ الموتَى بدليلَينِ؛ أحدُهما خاصٌّ، والثَّاني عامٌّ؛ الخاصُّ: «يُحيي الأرضَ بعدَ موتِها»، والعامُّ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، ويَنبني على هذه الفائدةِ: أنَّ العامَّ يَتناوَلُ جميعَ أفرادِه[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٢٠).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] الآيةَ، عطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ؛ فإنَّ المقصودَ مِن ذِكرِ خلْقِ العوالِمِ أنَّها دَلائلُ على انفرادِ اللهِ بالإلهيَّةِ؛ فلذلك أُخبِرَ هنا عن المَذْكوراتِ في هذه الجُملةِ بأنَّها مِن آياتِ اللهِ، انتِقالًا في أفانينِ الاستِدلالِ؛ فإنَّه انتِقالٌ مِنَ الاستِدلالِ بذَواتٍ مِن مَخلوقاتِه إلى الاستِدلالِ بأحوالٍ مِن أحوالِ تلك المَخلوقاتِ، فابتُدِئَ ببَعضِ الأحوالِ السَّماويَّةِ، وهي حالُ اللَّيلِ والنَّهارِ، وحالُ طُلوعِ الشَّمسِ وطُلوعِ القَمَرِ، ثمَّ ذَكَر بَعدَه بَعضَ الأحوالِ الأرضيَّةِ بقَولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]. ويدُلُّ لهذا الانتقالِ أنَّه انتَقَلَ مِن أُسلوبِ الغَيبةِ مِن قَولِه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ [فصلت: ١٣]، إلى قَولِه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤]، إلى أُسلوبِ خِطابِهم؛ رُجوعًا إلى خِطابِهمُ الَّذي في قَولِه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ [فصلت: ٩]، والآياتُ: الدَّلائِلُ، وإضافَتُها إلى ضَميرِ اللهِ لِأنَّها دَليلٌ على وَحدانيَّتِه وعلى وُجودِه[1].

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ...﴾ فبَدَأ بذِكرِ الفَلَكيَّاتِ باللَّيلِ والنَّهارِ، وقدَّمَ ذِكرَ اللَّيلِ؛ قيلَ: تَنبيهًا على أنَّ الظُّلمةَ عَدَمٌ، والنُّورَ وُجودٌ، ولأنَّ اللَّيلَ متقدِّمٌ على النَّهارِ، وناسَبَ ذِكرُ الشَّمسِ بَعدَ النَّهارِ؛ لأنَّها سَبَبٌ لِتَنويرِه، ويَظهَرُ العالَمُ فيه، ولأنَّها أبلَغُ في التَّنويرِ مِنَ القَمَرِ، ولأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٨).

القَمَرَ فيما يَقولونَ مُستَفادٌ نُورُه مِن نُورِ الشَّمسِ[(١)].

- ولم يُذكَرْ ما يدُلُّ على بَعضِ أحوالِ الشَّمسِ والقمَرِ -مِثلُ طُلوعٍ أو غُروبٍ، أو فَلَكٍ أو نَحوِ ذلك-؛ لِيَكونَ صالحًا للاستِدلالِ بأحْوالِهما -وهو المَقصودُ الأوَّلُ- وبخَلْقِهما تأكيدًا لِمَا استُفِيدَ مِن قولِه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾؛ توفيرًا للمعاني[(٢)].

- قولُه: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ إمَّا أنْ يكونَ النَّهيُ نَهيَ إقلاعٍ بالنِّسبةِ لِلَّذين يَسجُدونَ لِلشَّمسِ والقمَرِ، أو نَهيَ تَحذيرٍ لِمَن لم يَسجُدْ لهما ألَّا يَتَّبِعوا مَن يَعبُدونَهما، ووُقوعُ قَولِه: ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ بعدَ النَّهيِ عنِ السُّجودِ لِلشَّمسِ والقمَرِ يُفيدُ مُفادَ الحَصرِ؛ لِأنَّ النَّهيَ بمَنزِلةِ النَّفيِ، ووُقوعُ الإثباتِ بَعدَه بمَنزِلةِ مُقابَلةِ النَّفيِ بالإيجابِ؛ فإنَّه بمَنزِلةِ النَّفيِ والاستِثناءِ في إفادةِ الحَصرِ، فكَأنَّه قيلَ: لا تَسجُدوا إلَّا للهِ، أيْ: دُونَ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ فجُملةُ ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ وبيْن جُملةِ ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾[(٣)] [فصلت: ٣٨].

- وأعاد النَّافيَ في قولِه: ﴿وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾؛ تأكيدًا للنَّفيِ، وإفادةً لأنَّ النَّهيَ عن كلٍّ منهما على حِدَتِه[(٤)].

- والضَّميرُ في ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ لِلأربَعةِ -على قولٍ-؛ ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾؛ لأنَّ حُكْمَ جَماعةِ ما لا يَعقِلُ حُكْمُ الأُنثَى أو الإناثِ، أو عُبِّرَ عن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٢).

الأَرْبعِ بضَميرِ الإناثِ، مع أنَّ فيها ثلاثةً مُذكَّرةً، والعادةُ تَغليبُ المُذكَّرِ على المُؤنَّثِ؛ لِأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ فنَظَمَ الأربعَةَ في سِلكِ الآياتِ، صارَ كُلُّ واحِدٍ منها آيةً، فعَبَّرَ عنها بضَميرِ الإناثِ[(١)].

- وأيضًا تَعليقُ الفِعلِ ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ بالكُلِّ، مع كِفايةِ بيانِ مَخلوقيَّةِ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ لِلإيذانِ بكَمالِ سُقوطِهما عن رُتبةِ المَسجوديَّةِ بنَظْمِهما في المَخلوقيَّةِ في سِلكِ الأعراضِ الَّتي لا قيامَ لها بذاتِها[(٢)].

- قَولُه: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تَتميمٌ لِلمَعنى، وتَقريعٌ لِلغافِلينَ[(٣)]، وقَدَّمَ المفعولَ به لإفادةِ الحَصْرِ؛ لأنَّ مِن القواعِدِ المُقرَّرَةِ في علمِ البلاغةِ وغيرِها أنَّ تقديمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحَصْرَ[(٤)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ هذا تَتميمٌ بَعدَ تَتميمٍ، وتَسليةٌ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو مُتَضمِّنٌ لِلذَّمِّ على تَركِ السُّجودِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وُضِعَ مَوضِعَ: فإنْ لم يَسجُدوا؛ إقامةً لِلسَّبَبِ مَوضِعَ المُسَبَّبِ؛ لِلعِلِّيَّةِ[(٥)].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ...﴾ لِلتَّفريعِ على نَهيِهم عنِ السُّجودِ لِلشَّمسِ والقَمَرِ، وأمْرِهم بالسُّجودِ للهِ وَحْدَه، أيْ: فإنِ استَكبَروا أنْ يَتَّبِعوك

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٠، ٦١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١١).

وصَمَّموا على السُّجودِ لِلشَّمسِ والقَمَرِ، أو فإنِ استَكبَروا عن الاعتِرافِ بدَلالةِ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ والقَمَرِ على تَفَرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ، فيَعُمُّ ضَميرُ ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ جَميعَ المُشرِكينَ؛ فاللهُ غَنيٌّ عن عِبادَتِهم إيَّاه[١].

- والاستِكبارُ: قُوَّةُ التَّكَبُّرِ، فالسِّينُ والتَّاءُ لِلمُبالَغةِ، أيْ: عَدُّوا أنْفُسَهم ذَوي كِبرٍ شَديدٍ مِن فَرْطِ تَكَبُّرِهم[٢].

- وجُملةُ ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ دَليلُ جَوابِ الشَّرطِ المَحذوفِ، والتَّقديرُ: فإنْ تَكَبَّروا عنِ السُّجودِ للهِ فهو غَنيٌّ عن سُجودِهم؛ لِأنَّ له عَبيدًا أفضَلَ منهم لا يَفْتُرونَ عن التَّسبيحِ له بإقبالٍ دُونَ سَآمةٍ[٣].

- قولُه: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ذِكْرُ اللَّيلِ والنَّهارِ هنا؛ لِقَصدِ استيعابِ الزَّمانِ، أيْ: يُسَبِّحونَ له الزَّمانَ كُلَّه[٤].

- وجُملةُ ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، وهو أوقَعُ مِن مَحمَلِ العَطفِ؛ لِأنَّ كَونَ الإخبارِ عنهم مُقَيَّدًا بهذه الحالِ أشَدُّ مِن إظهارِ عَجيبِ حالِهم؛ إذْ شَأنُ العَمَلِ الدَّائِمِ أنْ يَسْأمَ منه عامِلُه[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ فيه احتباكٌ[٦]، حيثُ ذكَرَ الاستِكبارَ أوَّلًا دليلًا على حذْفِه ثانيًا، والتَّسبيحَ ثانيًا دليلًا على حذْفِه أوَّلًا؛ وسِرُّ ذلك: أنَّه ذكَرَ أقبَحَ ما لِأعدائِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٠، ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

وأحسَنَ ما لِأوليائِه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وهذا استِدلالٌ بهذا الصُّنعِ العَظيمِ على أنَّه تعالَى مُنفرِدٌ بفِعلِه، فهو دَليلُ إلهيَّتِه دُونَ غيرِه؛ لِأنَّ مَن يَفعَلُ ما لا يَفعَلُه غيرُه هو الإلهُ الحَقُّ، وإذا كان كذلك لم يَجُزْ أنْ يَتعَدَّدَ؛ لِكَونِ مَن لا يَفعَلُ مِثلَ فِعلِه ناقِصَ القُدرةِ، والنَّقصُ يُنافي الإلهيَّةَ، كما قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾[٢] [النحل: ١٧].

- ولَمَّا كان السِّياقُ لِلوَحْدانيَّةِ، عُبِّرَ بما هو أقرَبُ إلى حالِ العابِدِ، بخِلافِ ما مَضى في (الحجِّ): ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج: ٥]، فقال: ﴿خَٰشِعَةً﴾، أي: يابسةً لا نَباتَ فيها؛ فهي بصُورةِ الذَّليلِ الَّذي لا مَنَعةَ عِندَه؛ لأنَّه لا مانعَ مِن المَشْيِ فيها؛ لِكَونِها مُتطامِنةً بعْدَ السَّاترِ لِوَجْهِها، بخلافِ ما إذا كانتْ مُهتزَّةً رابيةً مُتزَخْرِفةً تَختالُ بالنَّباتِ[٣].

- وعُطِفَ ﴿وَرَبَتْ﴾ على ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾؛ لِأنَّ المَقصودَ مِنَ الاهتِزازِ هو ظُهورُ النَّباتِ عليها وتَحَرُّكُه، والمَقصودُ بالرَّبْوِ: انتِفاخُها بالماءِ واعتِلاؤُها[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ إدماجٌ[٥] لإثباتِ البَعثِ في أثناءِ الاستِدلالِ على تَفرُّدِه تعالَى بالخَلقِ والتَّدبيرِ، ووُقوعُه على

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٢).
(٥) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

عادةِ القُرآنِ في التَّفنُّنِ وانتهازِ فُرَصِ الهُدى إلى الحقِّ. والجُملةُ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، والمُناسَبةُ مُشابَهةُ الإحياءَيْنِ(١).

- وحَرفُ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾ لِمُراعاةِ إنكارِ المُخاطَبينَ إحياءَ المَوتى، وتَعريفُ المُسنَدِ إليه بالمَوصوليَّةِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا﴾؛ لِمَا في المَوصولِ مِن تَعليلِ الخَبَرِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ شَبَّهَ إمدادَ الأرضِ بماءِ المَطَرِ الَّذي هو سَبَبُ انبثاقِ البُذورِ الَّتي في باطِنِها الَّتي تَصيرُ نَباتًا بإحياءِ المَيِّتِ، ثمَّ ارتُقِيَ مِن ذلك إلى جَعْلِ ذلك -الَّذي سُمِّيَ إحياءً؛ لِأنَّه شَبيهُ الإحياءِ- دَليلًا على إمكانِ إحياءِ المَوتَى بطَريقةِ قِياسِ الشَّبَهِ، وهو يُفيدُ تَقريبَ المَقيسِ بالمَقيسِ عليه، وليس الاستِدلالُ بالشَّبهِ والتَّمثيلِ بحُجَّةٍ قَطعيَّةٍ، بلْ هو إقناعيٌّ، ولكِنَّه هنا يَصيرُ حُجَّةً؛ لأنَّ المَقيسَ عليه، وإنْ كانَ أضعَفَ مِنَ المَقيسِ؛ إذِ المُشَبَّهُ لا يَبلُغُ قُوَّةَ المُشَبَّهِ به؛ فالمُشَبَّهُ به حيث كان لا يَقدِرُ على فِعلِه إلَّا الخالِقُ الَّذي اتَّصَفَ بالقُدرةِ التَّامَّةِ لِذاتِه، فقد تَساوى فيه قَويُّه وضَعيفُه، وهمْ كانوا يُحيلونَ إحياءَ الأمواتِ استِنادًا لِلاستِبعادِ العاديِّ، فلَمَّا نُظِّرَ إحياءُ الأمواتِ بإحياءِ الأرضِ المُشَبَّهِ، تَمَّ الدَّليلُ الإقناعيُّ المُناسِبُ لِشُبهَتِهمُ الإقناعيَّةِ، وقد أشارَ إلى هذا تَذييلُه بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤٠-٤٦)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ
لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾
مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾
وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا
فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُلْحِدُونَ﴾: أي: يَجُورونَ فيها عن الحَقِّ ويَميلونَ، وأصلُ (لحد): يدُلُّ على مَيلٍ عن الاستِقامةِ[1].

﴿مُرِيبٍ﴾: أي: مُوقِعٍ للتُّهمةِ، والرِّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظَنُّ السوءِ، فهي قِسمٌ مِن الشَّكِّ، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[2].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٨).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مهدِّدًا ومتوعِّدًا الَّذين يُلحِدونَ في آياتِه: إنَّ الَّذين يَميلونَ في آياتِ اللهِ عن الحَقِّ لا يَخفَونَ عليه سُبحانَه وتعالى.

ثُمَّ يُبيِّنُ سبحانَه الفَرقَ الكبيرَ بيْنَ عاقبةِ المؤمنينَ وعاقبةِ الكافرينَ، فيقولُ: أفمَن يُلْقَى في النَّارِ فيُعذَّبُ فيها خَيرٌ أمْ مَنْ يأتي آمِنًا يومَ القيامةِ مِن عَذابِ اللهِ؟! اعمَلوا -أيُّها المُشرِكونَ- ما شِئتُم؛ إنَّ اللهَ بما تَعمَلونَ بَصيرٌ.

ثُمَّ يقولُ تعالى مهدِّدًا أيضًا: إنَّ الَّذين كَفَروا بالقُرآنِ لَمَّا جاءَهم لَخاسِرونَ، وإنَّ هذا القُرآنَ لَكِتابٌ عزيزٌ مُمتَنِعٌ عن الخَلقِ أن يَقولوا مِثلَه، أو يَغلِبوا حُجَجَه، ليس للبُطلانِ إليه مِن سَبيلٍ، وهو تَنزيلٌ مِن حَكيمٍ يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، حَميدٍ مُنَزَّهٍ -سُبحانَه- عن النَّقائِصِ والعُيُوبِ، مَحمودٍ على ذلك.

ثُمَّ يُسلِّي اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابَه مِن أعدائِه، فيقولُ: ما يُقالُ لك -يا مُحمَّدُ- إلَّا ما قد قِيلَ للرُّسُلِ مِن قَبْلِك. إنَّ ربَّك لَذُو مَغفِرةٍ للتَّائِبينَ، وذو عِقابٍ مُؤلِمٍ للمُصِرِّينَ على الكُفرِ والعِصيانِ.

ثُمَّ يرُدُّ سُبحانَه على بعضِ الشُّبهاتِ الَّتي أثاروها حوْلَ القرآنِ الكريمِ، فيقولُ: ولو جعَلْنا هذا القُرآنَ بغَيرِ العَربيَّةِ لَقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: لولا بيَّنَ اللهُ لنا آياتِ كِتابِه بلُغَتِنا؛ لِنَعقِلَ ما فيه! ولو أنزَلْنا هذا القُرآنَ بغيرِ العَربيَّةِ لَقال كُفَّارُ قُرَيشٍ مُتعَجِّبينَ: أقُرآنٌ أعجَميٌّ ورَسولٌ عَرَبيٌّ؟!

ثُمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: هذا القُرآنُ للمُؤمِنينَ هُدًى وشِفاءٌ لهم مِن أمراضِ القُلوبِ والأبدانِ.

ثمَّ يُبيِّنُ موقفَ الكافرينَ مِن القرآنِ، فيقولُ: والَّذين لا يُؤمِنونَ في آذانِهم ثِقْلٌ؛ فلا يَنتَفِعونَ بسَماعِ الحَقِّ، والقُرآنُ عليهم عَمًى؛ فلا يُبصِرونَ الحَقَّ الَّذي فيه، ولَا يَهْتدونَ به، أولئك كأنَّهم لعَمَى قلوبِهم عن فَهمِ ما أُنْزِل في القرآنِ، وعدمِ انتِفاعِهم به- يُنادَونَ مِن مَوضعٍ بعيدٍ منهم، فهُم لا يَسمعونَ النِّداءَ، ولا يَفهمونَه.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى -تسليةً لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم- أنَّ النَّاسَ صنَعوا معه كما صنَعوا معَ موسى عيه السَّلامُ، فيقولُ: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ، فاختَلَف قَومُه فيها؛ فآمَنَ بها بَعضُهم، وآخَرونَ مِنهم لم يُؤمِنوا بها، ولولا كَلِمةٌ سبَقَت مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- بتأخيرِ عذابِهم إلى أجَلٍ مُسَمًّى، لَأهلَكَهم اللهُ في الحالِ، وإنَّهم لَفي شَكٍّ منه مُوقِعٍ في القَلَقِ والاضطِرابِ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ سبحانَه سُنَّةً مِن سُنَنِه الَّتي لا تتخلَّفُ، مقرِّرًا كمالَ عدلِه، فيقولُ: مَن عَمِل صالِحًا فعَمَلُه لِنَفْسِه، ومَن عَمِل سُوءًا فعِقابُ إساءتِه على نَفْسِه، وما ربُّك -يا مُحمَّدُ- بظَلَّامٍ لعِبادِه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن أنَّ الدَّعوةَ إلى دينِه أعظَمُ المناصِبِ وأشرَفُ المراتِبِ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ الدَّعوةَ إنَّما تَحصُلُ بذِكرِ دلائِلِ التَّوحيدِ والعَدلِ، وصِحَّةِ البَعثِ والقيامةِ- عاد إلى تهديدِ مَن يُنازِعُ في تلك الآياتِ، ويُحاوِلُ إلقاءَ الشُّبُهاتِ

فيها؛ فقال[١]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَميلُونَ في آياتِ اللهِ عن الحَقِّ -كأن يُكَذِّبوا بها، أو يَسخَروا منها، أو يُحَرِّفوا مَعانيَها عن الصَّوابِ- لا يَخفَونَ على اللهِ تعالى؛ فهو مُطَّلِعٌ عليهم، وسَوفَ يُجازيهم على إلحادِهم، فيُلقِيهم في النَّارِ يَومَ القيامةِ[٢].

﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.

أي: أفمَن يُلقَى في النَّارِ فيُعَذَّبُ فيها خيرٌ أمْ مَن يأتي يومَ القيامةِ آمِنًا مِن عَذابِ اللهِ؛ لِكَونِه آمَنَ بآياته ولم يُلحِدْ فيها؟ أيَسْتوي هذا وهذا؟ لا يَستَويانِ[٣].

﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَبيَّنَ الحَقُّ مِن الباطِلِ، والطَّريقُ المُنجي مِن عَذابِ الله مِن الطَّريقِ المُهلِكِ، قال[٤]:

﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٠، ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٢١-٢٢٥).

قال ابن عاشور: (الآياتُ تَشملُ الدَّلائلَ الكَونيَّةَ... وتَشملُ الآياتِ القَوليَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٢١، ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

أي: اعمَلوا -أيُّها المُشرِكونَ- ما شِئتُم بعدَ أن عَلِمْتُم عَدَمَ استِواءِ المعذَّبِ في النَّارِ والآمِنِ منها[١].

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بما تعمَلونَ بَصيرٌ، لا يَخفَى عليه -سُبحانَه- شَيءٌ مِن أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه أعقَبَ تَهديدَهم على الإلحادِ في آياتِ اللهِ على وَجهِ العُمومِ، بالتَّعرُّضِ إلى إلحادِهم في آياتِ القُرآنِ[٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾.

أي: إنَّ الَّذين كَفَروا بالقُرآنِ حينَ جاءَهم: هم الخاسِرونَ الأذَلُّونَ الأسفَلونَ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣).

قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ وعيدٌ في صيغةِ الأمرِ بإجماعٍ مِن أهلِ العِلمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٣، ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٢، ٢٤٣).

قال الماوَرْدي: (الذِّكْرُ هنا: القُرآنُ، في قَولِ الجَميعِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٥). =

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بالَغ في تهديدِ الَّذينَ يُلْحِدونَ في آياتِ القرآنِ؛ أَتْبَعه ببيانِ تعظيمِ القرآنِ[١].

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾.

أي: وإنَّ هذا القُرآنَ لَكِتابٌ عزيزٌ أعزَّه اللهُ وحَفِظَه مِن الباطِلِ، ومِن كُلِّ تَبديلٍ وتَحريفٍ، ومُمتَنِعٌ عن الخَلقِ أن يَقولوا مِثْلَه، أو يَغلِبوا حُجَجَه[٢].

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن مَعاني العِزَّةِ أنَّه مُمتَنِعٌ بمَتانةِ رَصفِه، وجَزالةِ نَظْمِه، وجَلالةِ مَعانيه: مِن أن يَلحَقَه تَغييرٌ ما؛ بيَّن ذلك بقَولِه[٣]:

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾.

أي: ليس للبُطلانِ مِن سَبيلٍ إلى القُرآنِ[٤].

= ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

قال الماوَرْدي: (﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ:

أحَدُها: لا يأتيه الباطِلُ مِن كِتابٍ قَبْلَه، ولا يأتيه مِن كِتابٍ بعدَه. قاله قَتادةُ.

الثَّاني: لا يأتيه الباطِلُ مِن أوَّلِ التَّنزيلِ، ولا مِن آخِرِه.

الثَّالِثُ: لا يأتيه الباطِلُ في إخبارِه عمَّا تقدَّمَ، ولا في إخبارِه عمَّا تأخَّر. قاله ابنُ جُرَيجٍ. =

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

أي: تَنزيلٌ مِن حَكيمٍ يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائقِ به، ومِن حَميدٍ بالِغِ الإحاطةِ بأوصافِ الكَمالِ، مُنَزَّهٍ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، مَحمودٍ على

= ويحتمِلُ رابعًا: ما بيْنَ يديه: لَفظُه. وما خَلْفَه: تأويلُه. فلا يأتيه الباطِلُ في لَفظٍ ولا تأويلٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٥، ١٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٤).

وممَّن قال بالوَجهِ الأوَّلِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٦).

وممَّن قال بالوجهِ الثَّالثِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٥). قال ابن عثيمين: (هذا القرآنُ الكريمُ ليس فيه شيءٌ مِن الكذبِ؛ لا في الإخبارِ عمَّا مضَى... ولا في الإخبارِ عمَّا يُستقبَلُ... وإن شئتَ اعكسْ فقُلْ: ما بيْنَ يديه هو المُستقبَلُ، وما خَلْفَه هو الماضي). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٥).

وقيل: معنى ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: لا يستطيعُ ذو باطِلٍ بكَيدِه تَغييرَه وتَبديلَ شَيءٍ مِن معانيه، ومعنى ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾: لا يَستطيعُ المُبطِلُ إلحاقَ ما ليس منه فيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٥).

وقيل: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ معناه: ليس فيما تقَدَّمَه مِن الكُتُبِ ما يُبطِلُ شَيئًا منه. وقوله: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: ليس يأتي بعدَه مِن نظَرِ ناظرٍ وفكرةِ عاقلٍ ما يُبطِلُ أشياءَ منه، فالمرادُ باللَّفظِ على الجملةِ: لا يأتيه الباطلُ مِن جهةٍ مِن الجهاتِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطية، والثعالبي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤٣).

وقيل: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي مِن جهةِ الظَّاهِرِ، مثل ما أخبَر به عمَّا كان قبْلَه، ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ مِن جهةِ العِلمِ الباطنِ، مثل عِلمِ ما لم يشتهِرْ مِن الكائنِ والآتي، سواءٌ كان حُكمًا أو خبرًا؛ لأنَّه في غايةِ الحَقِّيَّةِ والصِّدقِ، فالحاصلُ أنَّه لا يأتيه مِن جهةٍ مِن الجهاتِ؛ لأنَّ ما قُدَّامَ أوضحُ ما يكونُ، وما خَلْفَ أخفى ما يكونُ، فما بيْنَ ذلك مِن بابِ الأَولى. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠١).

ذلك[(١)].

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا هَدَّد المُلْحِدينَ في آياتِ اللهِ، ثمَّ بَيَّنَ شَرَف آياتِ اللهِ، وعُلُوَّ دَرَجةِ كِتابِ اللهِ؛ رَجَع إلى أمرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَصبِرَ على أذى قَومِه، وألَّا يَضيقَ قَلبُه بسَبَبِ ما حكاه عنهم في أوَّلِ السُّورةِ مِن أنَّهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾[(٢)] [فصلت: ٥].

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾.

أي: ما يُقالُ لك -يا مُحمَّدُ- إلَّا ما قد قِيلَ للرُّسُلِ الَّذين بُعِثوا مِن قَبْلِك[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

وذكَر ابنُ عثيمينَ أنَّ ﴿حَمِيدٍ﴾ بمعنى فاعلٍ وبمعنى مفعولٍ، فهو محمودٌ وهو أيضًا حامدٌ، فالله تعالى يُثني كثيرًا على المؤمنينَ وعلى الرُّسلِ وعلى مَن شاء مِن عبادِه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٨). ويُنظر تفصيلُ الكلامِ عن اسمِ (الحميد) (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

قال الماوَرْدي: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: ما يقولُ المُشرِكونَ لك إلَّا ما قالَه مَن قَبْلَهم لأنبيائِهم: إنَّه ساحِرٌ أو مجنونٌ. قاله قَتادةُ. الثَّاني: ما تُخبَرُ إلَّا بما يُخبَرُ الأنبياءُ قَبْلَكَ بـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾. حكاه ابنُ عيسى، وقاله الكَلْبيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، ومكِّي، والسمعاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٨)، =

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لَذُو سَترٍ عَظيمٍ على ذُنوبِ عِبادِه التَّائِبينَ، وتَجاوُزٍ عن مُؤاخَذتِهم بها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: وهو ذو عِقابٍ مُؤلمٍ لِمَن أصَرَّ على كُفرِه ومَعاصيه، ولم يَتُبْ مِن ذُنوبِه قَبْلَ مَوتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

= ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ، والسُّدِّيُّ، وأبو صالحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٣٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الغَزْنَوي. يُنظر: ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٢٧٨).

وذكر ابنُ عاشور أن في الآيات تفسيرَين؛ الأوَّل: أنَّ ما يقولُه المشركونَ في القرآنِ والنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو دأبُ أمثالِهم المعانِدينَ مِن قبْلِهم، فالمعنى أنَّه قد تشابهتْ قلوبُ المكذِّبين فكانت مقالاتُهم مُتماثِلةً. والثَّاني: أنَّ المعنى: ما قُلْنا لك إلَّا ما قُلْناه للرُّسلِ مِن قبْلِك، فأنت لم تكنْ بِدْعًا مِن الرُّسلِ فيَكونَ لقَومِك بعضُ العُذرِ في التَّكذيبِ، ولكنَّهم كذَّبوا كما كذَّب الَّذين مِن قبْلِهم. وحمَل الآيةَ على كِلا المعنيَين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى المُلْحِدينَ في آياتِه وأنَّهم لا يَخفَونَ عليه، والكافِرينَ بالقُرآنِ وما دَلَّ على تَعنُّتِهم وما ظَهَر مِن تَكذيبِهم، وقَولِهم: هلَّا أُنزِلَ بلُغةِ العَجَم! فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: لم يَترُكوا الاعتِراضَ، ولَقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾[1].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾.

أي: ولو جعَلْنا القرآنَ بلُغةٍ أُخرى غيرِ العَرَبيَّةِ لَقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: هلَّا بيَّنَ اللهُ لنا آياتِ كِتابِه بلُغتِنا العَرَبيَّةِ؛ حتى نَعقِلَ ما فيه[2]؟

﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

٤- قِراءةُ ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ بهَمزةٍ واحِدةٍ على الخَبَرِ. قيل: المعنى: لولا فُصِّلَت آياتُه فكان بَعضُها أعجَميًّا تَفهَمُه العَجَمُ، وبَعضُها عَربيًّا يَفهَمُه العَرَبُ. وقيل: المعنى: أنَّهم يَقولونَ مُتعَجِّبينَ: عُجمةٌ وإعرابٌ! إنَّ هذا لَشاذٌّ. وقيل: القراءتانِ بمعنًى واحِدٍ؛ لأنَّ الاستِفهامَ مُقدَّرٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٤، ٣١٥).

(٣) قرأ بها قُنْبُلٌ عن ابن كثير، وهشامٌ عن ابن عامر، ورُوَيسٌ عن يعقوبَ، باختلافٍ عنهم. يُنظر: =

٥- قِراءةُ ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ﴾ بهَمزَتينِ على الاستِفهامِ. قيل: المعنى: يقولونَ مُتعَجِّبينَ: أقُرآنٌ أعْجَميٌّ ورَسولٌ عَرَبيٌّ؟! وقيل: معناه: أبَعضُه أعجَميٌّ وبَعضُه عَرَبيٌّ[1]؟!

﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾.

أي: لو أُنزِلَ القُرآنُ بغَيرِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ لَقال كُفَّارُ قُرَيشٍ مُتعَجِّبينَ ومُنكِرينَ: أقُرآنٌ أَعجَميٌّ ورَسولٌ عَرَبيٌّ؟! كيف يَنزِلُ كَلامٌ أعجَميٌّ على مُخاطَبٍ عَرَبيٍّ لا يَفهَمُه[2]؟!

= ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٦٦).

ويُنظر لِمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٣٠، ٥٣١).

(١) قرأ بها الباقون، وهم على أصولِهم في البَدَلِ، وبَيْنَ بيْنَ، وإدخالِ الألِفِ بيْن الهمزتينِ وعَدَمِه. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٦٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٥٢، ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٣٠، ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥٩).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤).

قال القرطبي: (العَجَميُّ: الَّذي ليس مِنَ العَرَبِ كان فصيحًا أو غيرَ فَصيحٍ، والأعْجَميُّ: الَّذي لا يُفصِحُ كان مِن العَرَبِ أو مِن العَجَمِ؛ فالأعْجَمُ ضِدُّ الفَصيحِ، وهو الَّذي لا يُبِينُ كَلامَه. ويُقالُ للحَيوانِ غيرِ النَّاطِقِ: أعْجَمُ، ومنه: «صلاةُ النَّهارِ عَجْماءُ»، أي: لا يُجهَرُ فيها بالقِراءةِ؛ فكانت النِّسبةُ إلى الأعجَمِ آكَدَ؛ لأنَّ الرَّجُلَ العَجَميَّ الَّذي ليس مِن العَرَبِ قد يكونُ فَصيحًا بالعَرَبيَّةِ، والعَرَبيَّ قد يكونُ غَيرَ فَصيحٍ؛ فالنِّسبةُ إلى الأعجَميِّ آكَدُ في البيانِ. والمعنى: أقُرآنٌ أعْجَميٌّ، =

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ١٩٨ - ٢٠١].

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: القُرآنُ للمُؤمِنينَ هُدًى يُرشِدُهم إلى الحَقِّ، ويُعَلِّمُهم ما يَنفَعُهم، وهو شِفاءٌ لهم مِنَ الجَهلِ والشَّكِّ والشُّبُهاتِ، وأمراضِ القُلوبِ والأبدانِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ ناسًا مِن أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كانوا في سَفَرٍ، فمرُّوا بحَيٍّ مِن أحياءِ العَرَبِ، فاستَضافوهم فلمْ يُضَيِّفوهم، فقالوا لهم: هل فيكم راقٍ؛ فإنَّ سَيِّدَ الحَيِّ لَديغٌ أو مُصابٌ؟ فقال

= ونَبيٌّ عَرَبيٌّ؟! وهو استِفهامُ إنكارٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٨، ٣٦٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٩)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨، ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

رَجُلٌ منهم: نَعَم، فأتاه فَرَقاه بفاتحةِ الكِتابِ، فبَرَأ الرَّجُلُ. فأُعطِيَ قَطيعًا مِن غَنَمٍ، فأبى أن يَقبَلَها، وقال: حتَّى أذكُرَ ذلك للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فأتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَرَ ذلك له؛ فقال: يا رَسولَ اللهِ، واللهِ ما رَقَيْتُ إلَّا بفاتحةِ الكِتابِ، فتبَسَّمَ وقال: وما أدراك أنَّها رُقْيةٌ؟! ثمَّ قال: خُذُوا منهم، واضرِبوا لي بسَهمٍ معكم))[1].

وعن عائشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا اشتكى يَقرأُ على نَفْسِه بالمُعَوِّذاتِ، ويَنفُثُ، فلمَّا اشتَدَّ وَجَعُه كنتُ أقرأُ عليه، وأمسَحُ عنه بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكتِها))[2].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا مَرِضَ أحَدٌ مِن أهْلِه نَفَثَ عليه بالمُعَوِّذاتِ))[3].

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾.

أي: والَّذين لا يُؤمِنونَ في آذانِهم ثِقَلٌ؛ فلا يَنتَفِعونَ بسَماعِ الحَقِّ[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢) واللفظ له.

(٣) رواه مسلم (٢١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

قال الشوكاني: (الموصولُ في قَولِه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: مبتدأٌ، وخَبَرُه: ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾، أو: الموصولُ الثَّاني عَطفٌ على المَوصولِ الأوَّلِ، و﴿وَقْرٌ﴾: عَطفٌ على ﴿هُدًى﴾ عند مَن جَوَّزَ العَطفَ على عامِلَينِ مختلِفَينِ، والتَّقديرُ: هو للأوَّلِينَ هُدًى وشِفاءٌ، وللآخَرينَ وَقرٌ في آذانِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٣).

قيل: المعنى: أنَّ في آذانِهم ما يَمنَعُ عنهم سَماعَ القُرآنِ سَماعَ فَهمٍ وانتِفاعٍ، فجعَلَهم بمَنزِلةِ الصُّمِّ حِينَ لم يَسمَعوا سَماعَ قَبولٍ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، والسمعاني. =

كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾.

أي: والقُرآنُ على قُلوبِهم عَمًى؛ فلا يُبصِرونَ حُجَجَه عليهم، ولا يَهْتَدونَ إلى ما فيه مِن البيانِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

= يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: أنَّ القُرآنَ نَفْسَه وَقْرٌ في آذانِهم؛ لِقَولِه: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾: الرازيُّ، والبيضاويُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

قال الشوكاني: (﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ قال قَتادةُ: عَمُوا عن القرآنِ وصَمُّوا عنه. وقال السُّدِّيُّ: عَمِيَتْ قُلوبُهم عنه. والمعنَى: وهو عليهم ذو عَمًى، أوْ وُصِفَ بالمصدَرِ للمُبالَغةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٦).

قال الشنقيطي: (اللهُ جل وعلا يقولُ: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠]، وفي بعضِ التَّفسيراتِ: تَكادُ أنوارُ القرآنِ تُعمي بقيَّةَ بصائرِهم، واللهُ يقولُ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾؛ لأنَّ النُّورَ السَّاطعَ الشَّديدَ يَقضي على البصرِ الأعشَى الضَّعيفِ). ((العذب النمير)) (٢/ ٢٣٥).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾.

أي: أولئك البُعَداءُ البُغَضاءُ كأنَّهم لِعَمًى قلوبِهم عن فَهمِ ما أُنْزِل في القرآنِ مِن حُجَجِه ومَواعِظِه، وعدمِ انتِفاعِهم به- يُنادَونَ مِن مَوضِعٍ بعيدٍ منهم، فهم لا يَسمَعونَ النِّداءَ، ولا يَفهَمونَه[1].

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ٤٥﴾.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾.

أي: ولقد آتَيْنا مُوسى التَّوراةَ فاختَلَف قَومُه فيها؛ فآمَنَ بها بَعضُهم واتَّبَعوها، وآخَرونَ مِنهم لم يُؤمِنوا بها وأعرَضوا عنها، كما آمَنَ بكِتابِك قَومٌ، وكذَّبَ به قومٌ -يا مُحمَّدُ-؛ فلا تَحزَنْ مِن تكذيبِ المُشرِكينَ بما آتَيْناك مِنَ القُرآنِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

ممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: الثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والزمخشري، والبيضاوي، وابن القيم، والقاسمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٦٤).

عن مجاهدٍ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ قال: (بعيدٍ مِن قلوبِهم). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥١).

وقيل: يُنادَونَ يومَ القيامةِ مِن مَكانٍ بعيدٍ منهم بأشنَعِ أسمائِهم. وممَّن حكى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ بنُ مُزاحِمٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: ولولا كَلِمةٌ سَبَقَت مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- بتأخيرِ العَذابِ إلى أجَلٍ مُسَمًّى، لأهلَكَهم اللهُ في الحالِ، وميَّزَ بيْنَ أهلِ الحَقِّ بنَجاتِهم، وأهلِ الباطِلِ بهَلاكِهم[1].

= (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿فِيهِ﴾ يعودُ إلى الكتابِ: البغويُّ، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والخازن، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى موسى عليه السَّلامُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧).

قال أبو حيَّان في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ هود، الآية (١١٠): (والظَّاهِرُ عَوْدُ الضَّميرِ فيه على الكِتابِ؛ لِقُرْبِه، ويجوزُ أنْ يَعودَ على موسَى عليه السَّلامُ. ويَلْزَمُ مِن الاختلافِ في أحَدِهما الاختلافُ في الآخَرِ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤، ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

والكلمةُ التي سبَقت هي تأخيرُ العذابِ إلى يومِ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٦) ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١).

وقال جلالُ الدينِ المحليُّ: (بتأخيرِ الحسابِ والجزاءِ للخَلائقِ إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٦).

والضَّميرُ في قولِه: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ قيل: يعودُ إلى قومِ موسى. وقيل: يعودُ إلى هذه الأُمَّةِ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٢٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

أي: وإنَّهم[(١)] ....

= قال ابن عاشور: (﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾... هذا مُتعلِّقٌ بالَّذين كذَّبوا بالقرآنِ من العربِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ يقتضي أنَّ اللهَ أخَّر القضاءَ بيْنَهم وبيْنَ المؤمنينَ إلى أجَلٍ اقتَضَتْه حِكمتُه، فأمَّا قومُ موسى فقد قضَى بيْنَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٧، ٣١٨).

لكن قال ابن عثيمين: (المرادُ: القضاءُ التَّامُّ، فلا يُنافي هذا ما وقَع لآلِ فِرعونَ مِن الغرَقِ والهلاكِ لَمَّا كذَّبوا موسى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٢).

(١) قال البيضاوي: (﴿وَإِنَّهُمْ﴾: وإنَّ اليهودَ، أو: الَّذين لا يُؤمنونَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣).
ممن اختارَ أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: المكذِّبينَ بالكتابِ، المبطلينَ من الذين اختلفوا فيه: ابن جرير، ومكي، وجلال الدين المحلي، ومحمد رشيد رضا، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٤١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة فصلت)) (ص: ٢٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١).
قال محمد رشيد رضا في نظير هذه الآية من سورةِ (هود) الآية (١١٠): (الظَّاهرُ أنَّ هذا في قومِ موسَى وكتابِهم التَّوراةِ، أيْ: إنَّهم لمُرْتَكِسونَ في شَكٍّ مِن أمرِ كِتابِهم، موقِعٍ في الرَّيْبِ والاضْطِرابِ، وذَهَب بعضُ كِبارِ المُفسِّرينَ إلى أنَّه في مُشركي مَكَّةَ وأمثالِهم الَّذينَ شكُّوا في القرآنِ، وهو خطأٌ ظاهرٌ في اللَّفظِ والمعنَى والسِّياقِ، وما في معنَى الآيةِ مِنَ السُّوَرِ الْأُخْرَى، وَمِثْلُهَا فِي سورةِ «حم السَّجْدَةِ فُصِّلَتْ» بنَصِّها، وفي معناها مِن سورةِ الشُّورى مَا يُفَسِّرُ =

لَفي شَكٍّ شَديدٍ منه[١]،..

= الإجمالَ في هاتينِ الآيتيْنِ ويُفَصِّلُه). ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٣٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: كفَّار قريشٍ: القرطبيُّ، والنسفي، والخازن، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٧).

(١) قولُه: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ اختلَف فيه المفسِّرونَ؛ فممن اختار أن المرادَ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿مِّنْهُ﴾: الكتابُ، أي: التَّوراةُ: مقاتلِ بنِ سُلَيمانَ، وجلال الدين المحلي، وابنِ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٥).

قال الرَّسْعَنيُّ: (إن كان الضَّميرُ في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائدًا إلى قومِ موسى، فيكون الضَّميرُ في ﴿مِّنْهُ﴾ عائدًا إلى كتابِ موسى، ويكون ذلك حكايةَ حالٍ ماضيةٍ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٢٤٥).

وقال القرطبي: (﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ إنْ حُمِلتْ على قومِ موسى، أي: لفي شكٍّ مِن كتابِ موسَى، فهم في شكٍّ مِن القرآنِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٤).

وقال ابن عطية: (﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ يحتملُ أن يعودَ على موسى، أو على كتابِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١).

وقيل: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: ممَّا قالوا فيه ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: يَريبُهم قولُهم فيه ما قالوا؛ لأنَّهم قالوا بغيرِ ثَبَتٍ، وإنَّما قالوه ظَنًّا. قاله ابنُ جرير، وذكر ابنُ كثير أنَّه محتملٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣، ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: القرآنُ: القرطبيُّ، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٨٢).

وقيل: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِن صِدْقِك. وممَّن اختاره: البغوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٦٤).

وقيل: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِن صِدقِك وكتابِك. وممَّن اختاره: الواحديُّ، وابن الجوزي، والرازي، والخازن. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير =

مُوقعٍ في القَلَقِ، ومُوجِبٍ للاضطِرابِ[١].

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تقرَّر بما مضَى أنَّ المطيعَ ناجٍ، وتحرَّر أنَّ العاصيَ هالكٌ، كانت النَّتيجةُ مِن غيرِ تردُّدٍ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾، كائنًا مَن كان[٢].

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾.

أي: مَن عَمِل في الدُّنيا عَمَلًا صالِحًا بإخلاصٍ لله تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ فثَوابُ ذلك العَمَلِ الصَّالحِ لِنَفْسِه، ونَفعُه له[٣].

كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٤٤، ٤٥].

﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾.

= الرازي)) (٢٧/ ٥٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩١).

وقيل: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِن العذابِ. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ -وقيده بقوله: (بعدَ البَعثِ)-، وابنُ أبي زَمَنين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٥٧).

وقال البِقاعي: (﴿مِّنْهُ﴾ أي: القضاءِ يومَ الفَصلِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٠٩).

وقال ابن عاشور: (وأمَّا ضميرُ ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ فهو خاصٌّ بالمشركينَ الشَّاكِّينَ في البَعثِ، والشَّاكِّينَ في أنَّ اللهَ يَنصُرُ رسولَه والمؤمنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٨، ٢٧٩).

أي: ومَن عَمِل سُوءًا فعِقابُ إساءتِه على نَفْسِه، لا على غَيرِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ [الروم: ٤٤].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

أي: وما ربُّك -يا مُحمَّدُ- بظلَّامٍ لعِبادِه؛ فلا يُعاقِبُ أحَدًا بغَيرِ ذَنْبِه، أو يَزيدُ في سيِّئاتِه أو عِقابِه، أو يَنقُصُ مِن حَسَناتِه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾ تَسليةُ المُصابِ بذِكْرِ المُشارِكِ له؛ لأنَّ الغَرَضَ مِن الإخبارِ بأنَّ اللهَ تعالى آتى موسى عليه السَّلامُ الكِتابَ فاختُلِفَ فيه: تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وعلى هذا فيَنبغي تسليةُ المُصابِ، ومِن ذلك تعزيةُ المصابِ بموتِ قريبٍ له أو صديقٍ -أي: تقويتُه على الصَّبرِ على المصيبةِ-، وتسليةُ المصابِ سُنَّةٌ؛ لِمَا في ذلك مِن رفْعِ أَلَمِ المصيبةِ عن أخيك المسلم[(٣)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾ فيه حَثٌّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ١١)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨١، ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٤).

فِعلِ الخَيرِ، وتَركِ الشَّرِّ، وانتِفاعُ العامِلينَ بأعمالِهم الحَسَنةِ، وضَرَرُهم بأعمالِهم السَّيِّئةِ[١]، فإذا علِم الإنسانُ أنَّ عمَلَه لِنَفْسِه فسوف يجتهدُ فيه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: (هو أن يُوضَعَ الكَلامُ على غَيرِ مواضِعِه)؛ ففيه الرَّدُّ على مَن تعاطى تَفسيرَ القُرآنِ بما لا يَدُلُّ عليه جَوهَرُ اللَّفظِ، كما يَفعَلُه الباطِنيَّةُ والاتِّحاديَّةُ، والملاحِدةُ وغُلاةُ المتصَوِّفةِ[٣].

٢- جوازُ المُفاضَلةِ بيْنَ شيئينِ بيْنَهما من التَّباينِ أكثرُ ممَّا بيْنَ السَّماءِ والأرضِ؛ إفحامًا للخَصْمِ، والدَّليلُ: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾، وهذه فائدةٌ يُنْتَبَهُ لها: أنَّ المُفاضَلةَ بيْنَ شيئينِ -التَّفاوُتُ بيْنَهما ظاهرٌ- لا يُرادُ به المُقارَنةُ! ولكنْ يُرادُ به إفحامُ الخَصمِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾ فيه إثباتُ المشيئةِ للعبدِ؛ فيكونُ في ذلك رَدٌّ على الجَبْريَّةِ[٥].

٤- (افْعَلْ) صيغةُ أمرٍ، وقد تَرِدُ لغيرِ ذلك؛ كالتَّهديدِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٨). وعزا أثرَ ابنِ عبَّاسٍ لابنِ أبي حاتمٍ مِن طريقِ العَوْفي.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٩).

(٦) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٥٧٨)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٢٧).

٥- تخصيصُ الحُكمِ بما فيه النِّزاعُ، وإنْ كان الحُكمُ عامًّا فلَنا أنْ نُخَصِّصَ هذا الحُكمَ بمَحَلِّ النِّزاعِ؛ يُؤخَذُ هذا مِن تقديمِ المَعمولِ في ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، لا نقولُ: هذا الحَصرُ حقيقيٌّ؛ أنَّه لا يَعلَمُ عزَّ وجلَّ إلَّا بما عَمِلوا! بل يَعلَمُ كلَّ شيءٍ، لكنْ لَمَّا كان الكلامُ في عمَلِهم جاء الحُكمُ بصيغةِ الحَصرِ؛ مِن أجْلِ شِدَّةِ التَّحذيرِ، وأنَّهم لن يَفوتوا اللهَ عزَّ وجَلَّ. واللهُ أعلمُ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أنَّ مَن تَمسَّك بالقرآنِ فله العِزَّةُ؛ وجْهُه: أنَّه إذا كان القرآنُ عزيزًا؛ فلا بُدَّ أنْ يَنالَ العِزَّةَ مَن تَمسَّك به؛ وإلَّا لَكان القرآنُ غيرَ عزيزٍ! ويدُلُّ لهذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢) [المنافقون: ٨].

٧- قَولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فيه أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ؛ وجْهُ كَونِه كلامَ اللهِ: أنَّ القُرآنَ صِفةٌ، ليس عَينًا مُستَقِلَّةً مُنفَصِلةً، فإذا كان صِفةً وذَكَرَ اللهُ أنَّه نَزَل منه، لَزِم أنْ يكونَ كلامَه، أمَّا لو كان الشَّيءُ الَّذي ذَكَرَ اللهُ أنَّه أنزَلَه: شَيئًا مُعَيَّنًا مُنفَصِلًا عن اللهِ؛ فهذا لا يدُلُّ على أنَّه مِن صفاتِ اللهِ تعالى، كقَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام: ٩٩] هذا الماءُ مَخلوقٌ، وقَولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] الأنعامُ مخلوقةٌ؛ لأنَّها شَيءٌ مُنفَصِلٌ عن اللهِ، وقَولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥] الحديدُ مَخلوقٌ(٣).

٨- قوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فيه أنَّ القرآنَ الكريمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٩). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٥ - ١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١١٧، ١١٨).

حقٌّ مُنْتَفٍ عنه الباطلُ مِن كلِّ وجهٍ، وهذه الصِّفةُ للقرآنِ مِن صِفاتِ النَّفيِ؛ وتضمَّنتْ بالإثباتِ أنَّه إذا انتفَى الباطلُ منه مِن كلِّ وجْهٍ مِن بيْنِ يديه ومِن خَلْفِه لَزِم مِن ذلك أنْ يكونَ حقًّا مِن كلِّ وجهٍ(١).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فيه سُؤالٌ: أمَا طَعَن في القُرآنِ الطَّاعِنونَ، وتأوَّلَه المُبطِلونَ؟

الجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى حَماه عن تعلُّقِ الباطِلِ به بأن قيَّضَ قومًا عارَضوهم بإبطالِ تأويلِهم، وإفسادِ أقاويلِهم، فلم يُخْلُوا طَعْنَ طاعِنٍ إلَّا مَمحوقًا، ولا قَولَ مُبطِلٍ إلَّا مُضمَحِلًّا، ونحوُ هذا قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾(٢) [الحجر: ٩].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ دَلالةٌ على عُلُوِّه سُبحانَه على خَلقِه، وأنَّ كلامَه نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ مِن عندِه مِن أعلى مَكانٍ إلى رَسولِه(٣).

١١- قولُه تعالى: ﴿حَكِيمٍ﴾ -بمعنى حاكمٍ- فيه أنَّه لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يُشَرِّعَ شرعًا مِن عندِه؛ لأنَّ مِن الحُكْمِ الحُكْمَ بيْنَ النَّاسِ، فالحُكْمُ إمَّا أنْ يكونَ حُكْمًا في النَّاسِ أو أنْ يكونَ حُكْمًا بيْنَ الناسِ، فلا يجوزُ لأحدٍ أنْ يَحْكُمَ بيْنَ الناسِ إلَّا بما أنزَل اللهُ؛ لأنَّ الحُكْمَ لله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وليس لنا أنْ نَتجاوَزَ حَدَّ اللهِ عزَّ وجلَّ في الحُكْمِ على أحدٍ بالفسقِ أو البدعةِ أو الكفرِ أو الإيمانِ وصحَّةِ العقيدةِ إلَّا بدليلٍ مِن الشَّرعِ، يعني: إلَّا إذا عَرَضنا ما عليه على الكتابِ والسُّنَّةِ؛ وإلَّا: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٨، ٢٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٢١).
(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٥).

﴿فِيهِنَّ﴾[1] [المؤمنون: ٧١].

١٢- أنَّ اللهَ تعالى محمودٌ -بناءً على أنَّ ﴿حَمِيدٍ﴾ اسمُ مفعولٍ-، واللهُ عزَّ وجلَّ يُحْمَدُ على كلِّ حالٍ، فعَلَى السَّرَّاءِ واضحٌ أنه يُحمَدُ؛ لأنَّه أحْسَنَ إليك ورَأَف بك، وأمَّا على الضَّرَّاءِ فيُحمَدُ؛ لأنَّه -لا شكَّ- ما قَدَّرَ هذا إلَّا لحكمةٍ، ولأنَّ ما يَتَرَتَّبُ على هذه الضَّرَّاءِ مِن المصالحِ العظيمةِ يَقتضي أنْ يُحْمَدَ اللهُ عليها[2].

١٣- أنَّ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ كاملُ العَدْلِ؛ بحيثُ يَحْمَدُ مَن يَستحقُّ الحمدَ، كما أنَّه يُحمَدُ؛ لأنَّه أهلٌ للحمدِ؛ وهذا بناءً على أنَّ ﴿حَمِيدٍ﴾ بمعنى حامدٍ[3].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أنَّ هذا القُرآنَ مَثانٍ؛ فإذا ذُكِرَ فيه جانبُ التَّرغيبِ ذُكِرَ معه جانبُ التَّرهيبِ؛ لئلَّا تَطمَعَ النَّفْسُ وتَغلوَ في الطَّمعِ فتأمَنَ مِن مَكْرِ اللهِ، ولِئلَّا يَخافَ فيَقنَطَ مِن رَحمةِ اللهِ، وعلى هذا فيَكونُ سَيرُه إلى اللهِ تعالى بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ؛ ولهذا قال الإمامُ أحمدُ رَحِمه اللهُ: «يَنبغي للسَّائرِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يكونَ خَوفُه ورجاؤُه واحِدًا، فأيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحِبُه»[4].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أنَّ الحُجَّةَ لا تقومُ حتَّى يَفْهَمَ الإنسانُ معنى هذه الحُجَّةِ؛ وأنَّ مُجرَّدَ البلاغِ لا يُعَدُّ حُجَّةً قائمةً حتَّى يَفْهَمَها مَن بَلَغَتْه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥٦). ويُنظر أيضًا: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٣٥٩)، ((الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف)) للمرداوي (٦/ ١٠).

قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾[١] [إبراهيم: ٤].

١٦- قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ هناك أمرٌ يَنبغي التَّفَطُّنُ له، وهو أنَّ الأذكارَ والآياتِ والأدعيةَ الَّتي يُستشفَى بها ويُرقَى بها: هي في نَفْسِها نافِعةٌ شافِيةٌ، ولكِنْ تَستدعي قَبولَ المحَلِّ، وقُوَّةَ هِمَّةِ الفاعِلِ وتأثيرِه؛ فمتى تخلَّفَ الشِّفاءُ كان لِضَعفِ تأثيرِ الفاعِلِ، أو لعَدَمِ قَبولِ المُنفَعِلِ، أو لِمانعٍ قَويٍّ فيه يَمنَعُ أن يَنجَعَ فيه الدَّواءُ، كما يكونُ ذلك في الأدوِيةِ والأدواءِ الحِسِّيَّةِ؛ فإنَّ عَدَمَ تأثيرِها قد يكونُ لِعَدَمِ قَبولِ الطَّبيعةِ لذلك الدَّواءِ، وقد يكونُ لمانعٍ قَويٍّ يمنَعُ مِن اقتِضائِه أثَرَه؛ فإنَّ الطَّبيعةَ إذا أخَذَت الدَّواءَ بقَبولٍ تامٍّ كان انتِفاعُ البَدَنِ به بحَسَبِ ذلك القَبولِ، فكذلك القَلبُ إذا أخَذَ الرُّقَى والتَّعاويذَ بقَبولٍ تامٍّ، وكان للرَّاقي نَفْسٌ فَعَّالةٌ وهِمَّةٌ مُؤَثِّرةٌ في إزالةِ الدَّاءِ[٢].

١٧- تَأمَّلْ إخبارَه سُبحانَه وتعالى عن القُرآنِ بأنَّه نَفْسَه شِفاءٌ ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾، وقال عن العَسَلِ ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾، وما كان نَفْسُه شِفاءً أبلَغُ ممَّا جُعِلَ فيه شِفاءٌ[٣]!

١٨- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ فيه أنَّ الإنسانَ كلَّما كان أقوَى إيمانًا كان أهدَى وأشفَى، وهنا قاعدةٌ مفيدةٌ مهمَّةٌ: أنَّ كلَّ حُكْمٍ مُرتَّبٍ على وَصْفٍ فإنَّه يَقْوى بقوَّةِ ذلك الوصفِ، ويَضعُفُ بضَعفِ ذلك الوصفِ[٤].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٦٥).
(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩).
(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٥٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٦٧).

﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ أنَّ الهُدَى في القرآنِ؛ مَنِ التَمَسَه في غيرِه أو في غيرِ ما أَمَر به ضَلَّ[١].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ الرَّدُّ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ المُنكِرينَ أنَّ الهِدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى، وعلى زعمِهم أنَّ أفعالَ العِبادِ لا صُنْعَ لله فيها؛ لِذِكْرِ الوَقْرِ في آذانِ الكُفَّارِ، وتَحويلِ القرآنِ -الَّذي هو هُدًى للمُؤمِنينَ- عَمًى على الكافرينَ[٢].

٢١- قولُه تعالى: ﴿هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ فيه أنَّ القرآنَ شفاءٌ مِن أمراضِ القلوبِ، وأسقامِ الأبدانِ[٣].

٢٢- قولُه تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هذه رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ، وهي تُفيدُ عُلُوَّ مَنزِلةِ المَربوبِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهناك رُبوبيَّةٌ عامَّةٌ، وقد اجتمعَتِ الرُّبوبيَّتانِ -العامَّةُ والخاصَّةُ- في قولِ السَّحَرةِ مِن آلِ فرعونَ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ الأُولى: «رَبِّ الْعَالَمِينَ» عامَّةٌ، والثَّانيةُ: خاصَّةٌ[٤].

٢٣- أنَّ اللهَ تعالى يُكَنِّي عن الشَّرِّ ببناءِ الفعلِ لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لقولِه: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ ولم يَقُلْ: «لَقَضَى بينَهم»! وهذا هو المطَّرِدُ في القرآنِ والغالِبُ، وانظرْ إلى أَدَبِ الجِنِّ حيثُ قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠] أدبٌ عالٍ؛ فقالوا في الشَّرِّ: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم يُضيفوه

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٨٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) للقصاب (٤/ ٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٦٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٥).

إلى اللهِ! وفي الرُّشْدِ قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ولم يقولوا: «أمْ أُريدَ بهم رَشَدٌ»[١]!

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أنَّ الإيمانَ يجبُ ألَّا يُخالِطَه شَكٌّ، وأنَّه إذا وَرَد على القَلبِ شَكٌّ -ولو يَسيرًا- بشَرطِ ألَّا يُدافِعَه، بل يَركَنُ إليه؛ فإنَّ هذا مُحبِطٌ للإيمانِ، أمَّا لو وَرَدَ الشَّكُّ على القَلبِ وطَرَدَه وجاهَدَ نَفْسَه على دَفْعِه، فهذا لا يَضُرُّه؛ ولهذا أخبَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ النَّاسَ يَتساءلونَ مَن خَلَقَ كذا؟ مَن خَلَقَ كذا؟ حتَّى يقولوا: مَن خَلَقَ اللهَ؟ وهذا شكٌّ، ولكِنَّ الرَّسولَ أخبَرَ وقال: ((فإذا بَلَغَه فلْيَستَعِذْ باللهِ ولْيَنتَهِ))[٢]، وأخبرَه الصَّحابةُ أنَّهم يَجِدونَ في نُفوسِهم ما يتعاظَمُ أحدُهم أنْ يَتكلَّمَ به، فقال صلَّى الله عليه وسلَّم[٣]: ((ذاك صَريحُ الإيمانِ))[٤].

٢٥- الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ في قَولِهم: إنَّ الظُّلمَ في حقِّ اللهِ مُحالٌ، فقَولُه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ﴾ يُفيدُ أنَّ الظُّلمَ في حَقِّه مُمكِنٌ، وأنَّه ليس مُحالًا لِذاتِه في حَقِّ اللهِ، بل هو مُحالٌ لكَمالِ عَدْلِ اللهِ، وبهذا يَتحَقَّقُ المدْحُ -مدحُ اللهِ تعالى- بانتفاءِ الظُّلمِ عنه، أمَّا لو كان شَيئًا مُحالًا، فالمُحالُ لا يُمدَحُ به[٥].

٢٦- قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيه إثباتُ العَدْلِ في أعلَى مقاماتِه؛ حيثُ قال: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لِعَبيدِه، فمعَ قدرتِه عليهم، وكونِهم ملكَه وتحتَ تصرُّفِه لا يظلِمُهم، فالإنسانُ إذا قيل له: أنت لا تظلِمُ عبيدَك. كان أبلغَ في إثباتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٠).

عدلِه مِن أنْ يُقالَ له: أنتَ لا تظلمُ النَّاسَ، وذلك لأنَّه لا سيطرةَ له عليهم[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

- قَولُهُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ قُصِدَ به تَهديدُ الَّذين أهْمَلوا الاستِدلالَ بآياتِ اللهِ على تَوحيدِه[٢].

- وحَرْفُ ﴿فِيٓ﴾ مِن قَولِه: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ للظَّرفيَّةِ؛ لإفادةِ تَمكُّنِ إلْحادِهم حتَّى كَأنَّه مَظروفٌ في آياتِ اللهِ حيثما كانَتْ، أو كُلَّما سَمِعوها، ومَعنى نَفيِ خَفائِهم: نَفيُ خَفاءِ إلْحادِهم، لا خَفاءِ ذَواتِهم؛ إذْ لا غَرَضَ في العِلْمِ بذَواتِهم[٣].

- قَولُه: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ مُرادٌ به الكِنايةُ عنِ الوَعيدِ على التَّحريفِ؛ تَذكيرًا لهم بإحاطةِ عِلْمِ اللهِ بكُلِّ كائنٍ[٤].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تَقريعٌ وتَقريرٌ، مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ على تَفاوُتِ المَرتَبتَيْنِ. وقيلَ: الاستِفهامُ لِلتَّقريرِ، كما يُقَرِّرُ المُناظِرُ خَصمَه على وَجهَيْنِ، أحَدُهما فاسِدٌ، يَرجو أنْ يَقَعَ في الفاسِدِ فيَتَّضِحَ جَهلُه[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تَفريعٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦٩).

الوَعيدِ في قَولِه: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾؛ لِبَيانِ أنَّ الوَعيدَ بنارِ جهنَّمَ تَعريضٌ بالمُشرِكينَ بأنَّهم صائِرونَ إلى النَّارِ، وبالمُؤمِنينَ بأنَّهم آمِنونَ من ذلك[1].

- ونُبِّهَ بقَولِه: ﴿يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ على مُستَقَرِّ الآمِنِ، وهو الجَنَّةُ، وبقَولِه: ﴿ءَامِنًا﴾ على خَوفِ الكافِرِ، وطُولِ وَجَلِه[2].

- وكُنِّيَ بقَولِه: ﴿يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ عن أنَّ ذلك الفَريقَ مَصيرُه الجَنَّةُ؛ إذْ لا غايةَ لِلآمِنِ إلَّا أنَّه في نَعيمٍ، وهذه كِنايةٌ تَعريضيَّةٌ بالَّذين يُلحِدونَ في آياتِ اللهِ[3].

- قولُه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لَمَّا تَقدَّمَ ذِكرُ الإلحادِ، ناسَبَ أنْ يَتَّصِلَ به مِنَ التَّقريرِ مَنِ اتَّصَفَ به، ولم يَكُنِ التَّركيبُ: أمْ مَنْ يَأتي آمِنًا يَومَ القيامةِ كمَن يُلقى في النَّارِ، كما قَدَّمَ ما يُشبِهُه في قَولِه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، وكما جاء في سُورةِ (القِتالِ): ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾[4] [محمد: ١٤].

- وفي قولِه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قابَلَ الإلقاءَ في النَّارِ بالإتيانِ آمِنًا؛ مُبالَغةً في إحمادِ حالِ المُؤمِنينَ[5].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ...﴾ الآيةَ، مِن الاحتِباكِ[6]، حيثُ حُذِفَ مُقابِلُ: (مَن يُلقى في النَّارِ) وهو: مَن يَدخُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢).
(٦) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

الجَنَّةَ، وحُذِفَ مُقابِلُ: ﴿مَن يَأْتِيٓ ءَامِنًا﴾ وهو: مَن يأتي خائفًا، وهم أهلُ النَّارِ؛ فذكَرَ الإلقاءَ في النَّارِ أوَّلًا دَليلًا على دُخولِ الجنَّة ثانيًا، والأمْنَ ثانيًا دليلًا على الخَوفِ أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذكَرَ المقصودَ بالذَّاتِ -وهو ما وقَعَ الخوفُ لأجْلِه- أوَّلًا، والأمْنَ -الَّذي هو العَيشُ في الحقيقةِ- ثانيًا(١).

- وجُملةُ ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ...﴾ إلخ، كما دَلَّ عليه قَولُه عَقِبَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [فصلت: ٤١] الآيةَ، أيْ: لا يَخفى علينا إلْحادُهم ولا غَيرُه مِن سَيِّئِ أعمالِهم، وإنَّما خُصَّ الإلحادُ بالذِّكرِ ابتِداءً؛ لِأنَّه أشنَعُ أعمالِهم، ومَصدَرُ أسوائِها(٢).

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ والوَعيدِ، أو في الإغراءِ المُكنَّى به عنِ التَّهديدِ، وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وَعيدٌ بالعِقابِ على أعمالِهم على وَجهِ الكِنايةِ أيضًا، وتَوكيدُه بحَرفِ (إنَّ)؛ لِتَحقيقِ مَعنَيَيْه الكِنائيِّ والصَّريحِ، وهو تَحقيقُ إحاطةِ عِلْمِ اللهِ بأعمالِهم؛ لِأنَّهم كانوا شاكِّينَ في ذلك(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، قدَّم أعمالَهم؛ تنبيهًا على الاهتمامِ بشأنِها جدًّا(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۞ لَّا يَأْتِيهِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٠).

ﱡ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﱠ هو مِن ذِكرِ الخاصِّ بَعدَ العامِّ -فإلحادُهم في آياتِ القُرآنِ داخلٌ في عمومِ الإلحادِ في آياتِ اللهِ-؛ وذلك لِلتَّنويهِ بخِصالِ القُرآنِ، وأنَّه ليس بعُرضةٍ لِأنْ يُكفَرَ به، بلْ هو جَديرٌ بأنْ يُتَقبَّلَ بالاقتِداءِ والاهتِداءِ بهَدْيِه؛ فلِهذه الجُملةِ اتِّصالٌ في المَعنى بجُملةِ ﱡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﱠ [فصلت: ٤٠]، واتِّصالٌ في المَوقِعِ بجُملةِ ﱡ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﱠ[1] [فصلت: ٤٠].

- قولُه: ﱡ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ ﱠ بَدَلٌ مِن قَولِه: ﱡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﱠ [فصلت: ٤٠]، وفي هذا الإبدالِ الإشعارُ بتَغليظِ مَن تأوَّلَ القُرآنَ بالرَّأيِ الباطِلِ والهَوى الزَّائغِ، وتَعظيمٌ لِشَأنِ القُرآنِ المَجيدِ، ونَعْيٌ على المُتَقاعِدينَ عنه، وتَسليةٌ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن مَطاعِنِ القَومِ فيه؛ وذلك أنَّه تعالَى لَمَّا افتَتَحَ السُّورةَ بذِكرِ القُرآنِ المَجيدِ، وأنَّه آيةٌ عَظيمةٌ قاهِرةٌ، وعَقَّبَه بما بَيَّنَ عَجزَهم عنِ المُعارَضةِ بتِلكَ الشُّبهةِ الرَّكيكةِ؛ وهي أنَّ الرِّسالةَ مُنحَصِرةٌ على المَلائِكةِ لا تَتعدَّى إلى البَشَرِ، وذَكَرَ طَعنَهم فيه وقَولَهم: ﱡ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﱠ [فصلت: ٢٦]، وذَيَّلَ المَعنى بوُجوهٍ مِنَ الاستِطراداتِ المُناسِبةِ؛ أتَى بنَوعٍ مِن مَطاعِنِهم، وهو الإلحادُ فيه؛ تَقريرًا لِلعَجزِ والانخِذالِ، وبَيانًا لِتَبكيتِهم عنِ الحُجَّةِ القاهِرةِ، وما يدُلُّ على أنَّ الإبدالَ لِلتَّعظيمِ وَضعُ قَولِه: ﱡ بِٱلذِّكۡرِ ﱠ مَوضِعَ ﱡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﱠ وَضْعًا لِلمُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ مِن غَيرِ لَفظِه السَّابِقِ، وجَعلُه عِلَّةً لابتِناءِ أوصافِ الكَمالِ عليه ﱡ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ... ﱠ إلى آخِرِه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٣).

- وقيل: الأظهَرُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ ...﴾ إلخ واقِعةً مَوقِعَ التَّعليلِ لِلتَّهديدِ بالوَعيدِ في قَولِه: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ [فصلت: ٤٠]، والمَعنى: لِأنَّهم جَديرونَ بالعُقوبةِ؛ إذْ كَفَروا بالآياتِ، وهيَ آيةُ القُرآنِ المُؤَيَّدِ بالحَقِّ، وبشَهادةِ ما أُوصيَ إلى الرُّسُلِ مِن قَولِه. ومَوقِعُ (إنَّ) مَوقِعُ فاءِ التَّعليلِ، وخَبَرُ (إنَّ) مَحذوفٌ، دَلَّ عليه سِياقُ الكَلامِ، والأحسَنُ أنْ يَكونَ تَقديرُه بما تدُلُّ عليه جُملةُ الحالِ مِن جَلالةِ الذِّكرِ ونَفاسَتِه؛ فيَكونَ التَّقديرُ: خَسِروا الدُّنيا والآخِرةَ، أو سَفِهوا أنْفُسَهم، أو نَحوَ ذلك ممَّا تَذهَبُ إليه نَفْسُ السَّامِعِ البَليغِ؛ ففي هذا الحَذفِ تَوفيرٌ للمَعاني، وإيجازٌ في اللَّفظِ يَقومُ مَقامَ عِدَّةِ جُمَلٍ، وحَذفُ خَبَرِ (إنَّ) -إذا دَلَّ عليه دَليلٌ- وارِدٌ في الكَلامِ(١).

- وجملةُ ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ مُفيدةٌ لِغايةِ شَناعةِ الكُفرِ به(٢).

- قولُه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ أيْ: لا يَتطَرَّقُ إليه الباطِلُ مِن جِهةٍ مِنَ الجِهاتِ، وهي صِفةٌ أُخرى لِـ(كِتابٌ)، وقولُه تعالَى: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ خَبرٌ لِمُبتَدأٍ مَحذوفٍ، أو صِفةٌ أُخرى لِـ(كِتابٌ) مُفيدةٌ لِفَخامَتِه الإضافيَّةِ، كما أنَّ الصِّفَتَيْنِ السَّابِقتَيْنِ مُفيدَتانِ لِفَخامَتِه الذَّاتيَّةِ، وقولُه تعالَى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ...﴾ إلخ، اعتِراضٌ عِندَ مَن لا يُجوِّزُ تَقديمَ غيرِ الصَّريحِ مِنَ الصِّفاتِ على الصَّريحِ، كُلُّ ذلك لِتأكيدِ بُطلانِ الكُفرِ بالقُرآنِ(٣).

- وقَولُه: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ تَعليلٌ لاتِّصافِ الكِتابِ بالوَصفَيْنِ؛ فكَونُه حَكيمًا مُوجِبٌ لِأنْ يَكونَ مُنَزِّلُه مُحكِمًا مُتقِنًا رَصينًا يَغلِبُ ولا يُغلَبُ؛ فيَكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥، ١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٦).

عَزيزًا، وكَونُه حَميدًا يَستَدعي أنْ يَكونَ كَلامُه حَقًّا لا باطِلًا عَبَثًا، يَهدي النَّاسَ إلى النِّعمةِ العُظمى(١).

- وكذلك في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ * لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ أُجريَ على القُرآنِ سِتَّةُ أوصافٍ، ما منها واحِدٌ إلَّا وهو كَمالٌ عَظيمٌ: الوَصفُ الأوَّلُ: أنَّه ذِكرٌ، أيْ: يُذَكِّرُ النَّاسَ كُلَّهم بما يَغفُلونَ عنه مِمَّا في الغَفلةِ عنه فَواتُ فَوزِهم. الوَصفُ الثَّاني مِن مَعنى الذِّكرِ: أنَّه ذِكرٌ لِلعَرَبِ، وسُمعةٌ حَسَنةٌ لهم بيْنَ الأُمَمِ، يُخَلِّدُ لهم مَفخَرةً عَظيمةً. الوَصفُ الثَّالثُ: أنَّه كِتابٌ عَزيزٌ، والعَزيزُ: النَّفيسُ، وأصلُه مِنَ العِزَّةِ، وهي المَنَعةُ؛ لِأنَّ الشَّيءَ النَّفيسَ يُدافَعُ عنه ويُحمى عنِ النَّبذِ؛ فإنَّه بَيِّنُ الإتْقانِ وعُلُوِّ المَعاني ووُضوحِ الحُجَّةِ، ومِثلُ ذلك يَكونُ عَزيزًا، والعَزيزُ أيضًا: الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، وكذلك حُجَجُ القُرآنِ. الوَصفُ الرَّابِعُ: أنَّه لا يَتطَرَّقُه الباطِلُ، ولا يُخالِطُه صَريحُه ولا ضِمْنيُّه، أيْ: لا يَشتَمِلُ على الباطِلِ بحالٍ، فمُثِّل ذلك بـ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، والمَقصودُ استيعابُ الجِهاتِ تَمثيلًا لِحالِ انتِفاءِ الباطِلِ عنه في ظاهِرِه وفي تَأويلِه بحالِ طَرِدِ المُهاجِمِ لِيَضُرَّ بشَخصٍ يَأتيه مِن بَينِ يَدَيْه؛ فإنْ صَدَّه خدَعه فأتاهُ مِن خَلفِه، فمَعنى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ لا يُوجَدُ فيه، ولا يُداخِلُه، وليس المُرادُ أنَّه لا يُدعَى عليه الباطِلُ. الوَصفُ الخامِسُ: أنَّه مُشتَمِلٌ على الحِكمةِ، وهي المَعرِفةُ الحَقيقيَّةُ؛ لِأنَّه تَنزيلٌ مِن حَكيمٍ، ولا يَصدُرُ عنِ الحَكيمِ إلَّا الحِكمةُ؛ فإنَّ كَلامَ الحَكيمِ يأتي مُحكَمًا مُتقَنًا رَصينًا لا يَشوبُه الباطِلُ. الوَصفُ السَّادِسُ: أنَّه تَنزيلٌ مِن حَميدٍ، والحَميدُ هو المَحمودُ حمْدًا كَثيرًا، أي: مُستَحِقُّ الحمْدِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٣، ٦١٤).

الكثيرِ، فالكَلامُ المُنَزَّلُ منه يَستَحِقُّ الحَمدَ، وإنَّما يُحمَدُ الكَلامُ إذْ يَكونُ دَليلًا لِلخَيراتِ، وسائقًا إليها، لا مَطعَنَ في لَفظِه ولا في مَعناه، فيَحمَدُه سامِعُه كَثيرًا؛ لأنَّه يَجِدُه مَجلَبةً لِلخَيرِ الكَثيرِ، ويَحمَدُ قائِلَه لا مَحالةَ، خِلافًا لِلمُشرِكينَ. وفي إجْراءِ هذه الأوصافِ إيماءٌ إلى حَماقةِ الَّذين كَفَروا بهذا القُرآنِ، وسَفاهةِ آرائِهم؛ إذْ فَرَّطوا فيه ففَرَّطوا في أسبابِ فَوزِهم في الدُّنيا وفي الآخِرةِ؛ ولذلك جِيءَ بجُملةِ الحالِ مِنَ الكِتابِ عَقِبَ ذِكرِ تَكذيبِهم إيَّاهُ، فقالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ الآياتِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابٌ لِسُؤالٍ يُثيرُه قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [فصلت: ٤١]، وما تَخَلَّلَ ذلك مِنَ الأوصافِ، فيَقولُ سائِلٌ: فما بالُ هؤلاء طَعَنوا فيه؟ فأُجِيبَ بأنَّ هذه سُنَّةُ الأنبياءِ معَ أُمَمِهم؛ لا يُعدَمونَ مُعانِدينَ جاحِدينَ يَكفُرونَ بما جاؤوا به، وهذا تَسليةٌ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطَريقِ الكِنايةِ، وأمْرٌ له بالصَّبرِ على ذلك كما صَبَرَ مَن قَبْلَه مِنَ الرُّسُلِ بطَريقِ التَّعريضِ[٢].

- قولُه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ لِهذا الكَلامِ تَفسيرانِ؛ أحَدُهما: أنَّ ما يَقولُه المُشرِكونَ في القُرآنِ والنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٠).

دَأبُ أمثالِهِمُ المُعانِدينَ مِن قَبلِهم، فمَاصَدَقَ[(١)] ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾ هو مَقالاتُ الَّذين كَذَّبوهم، أيْ: تَشابَهَتْ قُلوبُ المُكَذِّبينَ فكانَتْ مَقالاتُهم مُتَماثِلةً. التَّفسيرُ الثَّاني: ما قُلْنا لكَ إلَّا ما قُلْناه لِلرُّسُلِ مِن قَبلِك، فأنتَ لم تَكُنْ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ، فيَكونَ لِقَومِكَ بَعضُ العُذرِ في التَّكذيبِ، ولكِنَّهم كَذَّبوا كما كَذَّبَ الَّذين مِن قَبلِهم، فمَاصَدَقَ ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾ هو الدِّينُ والوَحيُ، وكِلا المَعنَيَيْنِ وارِدٌ في القُرآنِ؛ فيُحمَلُ الكَلامُ على كِلَيْهما، وفي التَّعبيرِ بـ (مَا) المَوصولةِ، وفي حَذفِ فاعِلِ القَولَيْنِ في قَولِه: ﴿مَّا يُقَالُ﴾ وقَولِه: ﴿مَا قَدْ قِيلَ﴾؛ نَظمٌ مَتينٌ حَمَّلَ الكَلامَ هذَيْنِ المَعنَيَيْنِ العَظيمَيْنِ[(٢)].

- واجتِلابُ المُضارِعِ ﴿يُقَالُ﴾؛ لِإفادةِ تَجَدُّدِ هذا القَولِ منهم، وعَدَمِ ارعِوائِهم عنه، مع ظُهورِ ما شَأنُه أنْ يَصُدَّهم عن ذلك، واقتِرانُ الفِعلِ بـ (قَدْ)؛ لِتَحقيقِ أنَّه قد قيلَ لِلرُّسُلِ مِثلُ ما قال المُشرِكونَ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فهو تَأكيدٌ لِلازِمِ الخَبَرِ، وهو لُزومُ الصَّبرِ على قَولِهم، وهو مَنظورٌ فيه إلى حالِ المَردودِ عليهم؛ إذْ حَسِبوا أنَّهم جابَهوا الرَّسولَ بما لم يَخطُرْ ببالِ غَيرِهم[(٣)].

- وفي قَولِه: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ، والمَعنى: إلَّا مِثلُ ما قد قيلَ لِلرُّسُلِ[(٤)].

- وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ تَسليةٌ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه

(١) الماصَدَق -عند المناطقةِ-: الأفرادُ الَّتي يتحقَّقُ فيها معنى الكلِّيِّ، ويقابلُه: المفهومُ، وهو: مجموعُ الصِّفاتِ والخصائصِ الموضحةِ لمعنًى كلِّيٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحبنكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وسلَّمَ، ووَعدٌ بأنَّ اللهَ يَغفِرُ له، كما أنَّ فيه تَهديدًا بالعِقابِ لِلمُكَذِّبينَ، ووُقوعُ هذا الخَبَرِ عَقِبَ قَولِه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ يُومئُ إلى أنَّ هذا الوَعدَ جَزاءٌ على ما لَقيَه مِنَ الأذى في ذاتِ اللهِ، وأنَّ الوَعيدَ لِلَّذين آذَوْه، وحَرفُ (إنَّ) فيه لإفادةِ التَّعليلِ والتَّسبُّبِ، لا لِلتَّأكيد[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ فيه التَّرجِئةُ بالغُفرانِ، والزَّجْرُ بالعِقابِ، وهو وَعظٌ وتَهديدٌ[2].

- وكَلِمةُ (ذو) مُؤذِنةٌ بأنَّ المَغفِرةَ والعِقابَ كِلَيْهما مِن شَأنِه تَعالى، وهو يَضَعُهما بحِكمَتِه في المَواضِعِ المُستَحَقَّةِ لِكُلٍّ منهما[3].

- ووَصْفُ العِقابِ بأنَّه أليمٌ دُونَ وَصفٍ آخَرَ؛ لِلإشارةِ إلى أنَّه مُناسِبٌ لِمَا عُوقِبوا لِأجْلِه؛ فإنَّهم آلَموا نَفْسَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما عَصَوْا وآذَوْا[4].

- في قَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ مُحَسِّنُ الجَمْعِ ثم التَّقسيمِ؛ فقَولُه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ يَجمَعُ قائِلًا ومَقولًا له، فكانَ الإيماءُ بوَصْفِ (ذو مَغفِرةٍ) إلى المَقولِ له، ووَصْفِ (ذو عِقابٍ أليمٍ) إلى القائِلينَ، وهو جارٍ على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المَعكوسِ[5]، وقَرينةُ المَقامِ تَرُدُّ كُلًّا إلى مُناسِبِه[6].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ١٠٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١١).

عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾

- اتِّصالُ نظْمِ الكلامِ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا وتناسُبِ تَنقُّلاتِه بالتَّفريعِ والبيانِ والاعتراضِ والاستطرادِ يَقتضي أنَّ قولَه: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ ...﴾ إلى آخِره تَنَقُّلٌ في دَرَجِ إثباتِ أنَّ قَصدَ الكافِرينَ العِنادُ فيما يَتَعَلَّلونَ به؛ لِيُواجِهوا إعراضَهم عن القُرآنِ والانتِفاعِ بهَدْيِه بما يَختَلِقونَه عليه مِنَ الطَّعنِ فيه، والتَّكذيبِ به، وتَكَلُّفِ الأعذارِ الباطِلةِ؛ لِيَتَستَّروا بذلك مِنَ الظُّهورِ في مَظهَرِ المُنهَزِمِ المَحجوجِ، فأخَذَ يَنقُضُ دَعاوِيَهم عُرْوةً عُروةً، وإذْ قد كانتِ المُجادَلاتُ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا إبطالًا لِتَعلُّلاتِهم، وكان عِمادُه على أنَّ القُرآنَ عَرَبيٌّ مُفَصَّلُ الدَّلالةِ المَعروفةِ في لُغَتِهم حسبَما ابتُدِئَ الكَلامُ بقَولِه: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، وانتَهى هنا بقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ * لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]؛ فقد نَهَضتِ الحُجَّةُ عليهم، بدَلالَتِه على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من هذه الجِهةِ، فانتَقَلَ إلى حُجَّةٍ أُخرى عِمادُها الفَرضُ والتَّقديرُ أنْ يَكونَ قد جاءَهمُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقُرآنٍ مِن لُغةٍ أُخرى غَيرِ لُغةِ العَرَبِ؛ ولِذلك فجُملةُ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ [فصلت: ٤١]. ومَعنى الآيةِ مُتفَرِّعٌ على ما يَتضَمَّنُه قَولُه: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، وقَولُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، مِنَ التَّحدِّي بصِفةِ الأُمِّيَّةِ، أيْ: لو جِئْناهم بلَونٍ آخَرَ من مُعجِزةِ الأُمِّيَّةِ، فأنزَلْنا على الرَّسولِ قُرآنًا أعجَميًّا، وليس لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِلْمٌ بتلك اللُّغةِ مِن قَبلُ؛ لَقَلَبوا مَعاذيرَهم، فقالوا: لَولا بُيِّنَتْ

آياتُه بلُغةٍ نَفهَمُها، وكيف يُخاطِبُنا بكَلامٍ أعجَميٍّ؟! فالكَلامُ جارٍ على طَريقةِ الفَرْضِ، كما هو مُقتَضى حَرفِ (لَوْ) الامتِناعيَّةِ. وهذا إبانةٌ على أنَّ هؤلاءِ القَومَ لا تُجْدي معهمُ الحُجَّةُ، ولا يَنقَطِعونَ عنِ المَعاذيرِ؛ لأنَّ جِدالَهم لا يُريدونَ به تَطَلُّبَ الحَقِّ، وما هو إلَّا تَعَنُّتٌ لِتَرويجِ هواهم(١).

- وقيل: قولُه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لِلرَّدِّ على تَساؤُلِهم: هلَّا أُنزِلَ القُرآنُ بلُغةِ العَجَمِ(٢)؟

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ إنكاريٌّ مُقرِّرٌ للتَّخصيصِ(٣).

- وأُفْرِد ﴿وَعَرَبِيٌّ﴾ على تَأويلِه بجِنسِ السَّامعِ، والمَعنى: أكِتابٌ أعجميٌّ لِسامِعينَ عَرَبٍ؟! فكانَ حَقُّ (عَرَبيٌّ) أنْ يُجمَعَ، ولكِنَّه أُفرِدَ؛ لِأنَّ مَبنى الإنكارِ على تَنافُرِ حالَتَيِ الكِتابِ والمُرسَلِ إليهم، فاعتُبِرَ فيه الجِنسُ دُونَ أنْ يُنظَرَ إلى إفرادٍ أو جَمْعٍ(٤). وأيضًا في قَولِه: ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ طِباقٌ بَديعٌ(٥)،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١١، ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٢، ٣١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٢).

(٥) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّين مع مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْنَ الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۞ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. =

يَحتَمِلُ مَعنَيَيْنِ؛ أوَّلُهما: أنَّ الإنكارَ واقِعٌ على كَونِ القُرآنِ أعجَميًّا والرَّسولِ عَربيًّا. وثانيهما: أنَّ القُرآنَ أعجَميٌّ والمُرسَلَ إليهم أو إليه عَرَبيٌّ[1].

- وياءُ (أعجَميٌّ) في قولِه: ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ لم تُبْنَ الكَلِمةُ عليها، تَقولُ العَرَبُ: رَجُلٌ أعجَمُ، ورَجُلٌ أعجَميٌّ؛ فالياءُ لِلنِّسبةِ الدَّالَّةِ على المُبالَغةِ في الصِّفةِ، نَحوَ: أحمَريٌّ دَوَّاريٌّ، مُبالَغةً في أحمَرَ ودَوَّارٍ[2]. وحاصِلُ مَعنى الآيةِ أنَّها تُؤذِنُ بكَلامٍ مُقَدَّرٍ داخِلٍ في صِفاتِ الذِّكْرِ، وهو أنَّه بِلِسانٍ عَرَبيٍّ بلُغَتِكم؛ إتمامًا لِهَديكم، فلمْ تُؤمِنوا به وكَفَرتُم وتَعَلَّلتُم بالتَّعلُّلاتِ الباطِلةِ، فلو جَعَلْناه أعجَميًّا لَقُلتُم: هَلَّا بُيِّنت آياتُه لنا حتَّى نَفهَمَه[3]؟!

- وقولُه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ جوابٌ تَضمَّنَه قولُه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، أي: ما يُقالُ من

= ومنه: طِباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّة فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةً، فتَبدو المطابقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا من أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧ - ٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٥).

الطَّعْنِ في القرآنِ، فجوابُه: أنَّ ذلك الذِّكرَ أو الكِتابَ للَّذين آمَنوا هُدًى وشِفاءٌ، أي: أنَّ تلك الخِصالَ العظيمةَ للقُرآنِ حَرَمَهم كُفْرُهم الانتفاعَ بها، وانتفَعَ بها المؤمِنونَ، فكان لهم هَدْيًا وشِفاءً. وهذا ناظرٌ إلى ما حَكاهُ عنهم مِن قولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥]، فهو إلزامٌ لهم بحُكْمِهم على أنفُسِهم(١).

- وفي قَولِه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ؛ جَعَل القُرآنَ نَفْسَ الهُدى ونَفْسَ الشِّفاءِ، يَهديهم إلى سُبُلِ الرَّشادِ، ويَشْفيهم مِن أَوْصابِ الجُنونِ والالتياثِ(٢).

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ ...﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾؛ فهي مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا، أيْ: وأمَّا الَّذين لا يُؤمِنونَ فلا تَتخلَّلُ آياتُه نُفوسَهم؛ لِأنَّهم كَمَن في آذانِهم وَقْرٌ دُونَ سَماعِه، وهو ما تَقدَّمَ في حِكايةِ قَولِهم: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥]، ولِهذا الاعتِبارِ كان مَعنى الجُملةِ مُتعلِّقًا بأحوالِ القُرآنِ مع الفَريقِ غَيرِ المُؤمِنِ، مِن غَيرِ تَكلُّفٍ لِتقديرِ جَعْلِ الجُملةِ خَبرًا عنِ القُرآنِ. ويَجوزُ أنْ تَكونَ الجُملةُ خَبرًا ثانيًا عن ضَميرِ الذِّكرِ، أيْ: القُرآنِ؛ فتكونَ مِن مَقولِ القَولِ، وكذلك جُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾(٣).

- والإخبارُ عن القُرآنِ بأنَّه ﴿وَقۡرٞ﴾ و﴿عَمًى﴾ تَشْبيهٌ بَليغٌ، ووَجْهُ الشَّبَهِ هو عَدَمُ الانتِفاعِ به مع سَماعِ ألفاظِه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٥، ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١٦).

- وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أخبرَ أنَّه ﴿عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ يَمنَعُهم مِن إبصارِ حِكمَتِه، والنَّظَرِ في مَعانيه، والتَّقريرِ لِآياته، وجاءَ بلَفظِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الدَّالِّ على استيلاءِ العَمَى عليهم، وجاءَ في حَقِّ المُؤمِنينَ باللَّامِ الدَّالَّةِ على الاختِصاصِ ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ ضَميرُ (هُوَ) ضَميرَ شَأنٍ؛ تَنبيهًا على فَظاعةِ ضَلالِهم، وجُملةُ ﴿عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ خَبَرَ ضَميرِ الشَّأنِ، أيْ: وأعظَمُ مِنَ الوَقرِ أنَّ علَيهم عَمًى، أيْ: على أبصارِهم عَمًى[2].

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ مِن الاحتِباكِ[3]؛ حيثُ ذكَرَ الهُدى والشِّفاءَ أوَّلًا دَليلًا على الضَّلالِ والدَّاءِ ثانيًا، وذَكَر الوَقْرَ والعَمى ثانيًا دَليلًا على السَّمْعِ والبصائرِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك: أنَّه ذكَرَ أمدَحَ صِفاتِ المؤمنينَ، وأذَمَّ صِفاتِ الكافرينَ؛ لأنَّه لا أحقَرَ من أصَمَّ أعْمَى[4].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ إشارةٌ إلى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾؛ لِقَصدِ التَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم بَعدَ تلك الأوصافِ أحْرياءُ بما سَيُذكَرُ بَعدَها مِنَ الحُكمِ مِن أجْلِها، وما في ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ من مَعنى البُعدِ مع قُربِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزِلَته في الشَّرِّ، مَعَ ما فيه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٦).
(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٧).

مِن كَمالِ المُناسَبةِ لِلنَّداءِ مِن بَعيدٍ[١].

- وفي قَولِه: ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ تَمثيلٌ لِحالِ إعراضِ الكافِرينَ عنِ الدَّعوةِ عِندَ سَماعِها، بحالِ مَن يُنادَى مِن مَكانٍ بَعيدٍ لا يَبلُغُ إليه في مِثلِه صَوتُ المُنادي، يَعني: أنَّهم لا يَقبَلونَ الهُدَى، ولا يُرْعُونَه أسماعَهم، فمَثَلُهم في ذلك مَثَلُ مَن يُصَيَّحُ به مِن مَسافةٍ شاطَّةٍ لا يُسمَعُ مِن مِثلِها الصَّوتُ، فلا يَسمَعُ النِّداءَ، وتَقولُ العَرَبُ لِمَن لا يَفهَمُ: أنتَ تُنادَى مِن مَكانٍ بَعيدٍ، أيْ: كأنَّه يُنادَى مِن مَوضِعٍ بَعيدٍ، فهو لا يَسمَعُ النِّداءَ ولا يَفهَمُه[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ؛ مَسوقٌ لِبَيانِ أنَّ الاختِلافَ في شَأنِ الكُتُبِ عادةٌ قَديمةٌ لِلأُمَمِ، غَيرُ مُختَصٍّ بقَومِك[٣]. وهو اعتراضٌ بتَسليةٍ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَكذيبِ المُشرِكينَ وكُفرِهم بالقُرآنِ بأنَّه ليس بأوحَدَ في ذلك؛ فقد أُوتيَ مُوسى التَّوراةَ، فاختَلَفَ الَّذين دَعاهم في ذلك؛ فمِنهم مَن آمَنَ به، ومنهم مَن كَفَرَ[٤].

- قولُه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ الكَلِمةُ السَّابِقةُ هي العِدَةُ بالقِيامةِ، وأنَّ الخُصوماتِ تُفصَلُ في ذلك اليَومِ، وهذا إشارةٌ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٦، ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٧).

أنَّ هذا القَولَ وارِدٌ على سَبيلِ التَّخَلُّصِ إلى ذِكرِ القِيامةِ، وهو قولُه تعالَى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]، والتَّسليةِ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنِ اختِلافِ قَومِه في القُرآنِ، وطَعنِ الطَّاعِنينَ المُتَعنِّتينَ فيه؛ ولذلك أُتيَ بذِكرِ مُوسى عليه السَّلامُ واختِلافِ قَومِه في كِتابِه[١].

- التَّعبيرُ عنِ الجَلالةِ بلَفظِ ﴿رَبِّكَ﴾ في قولِه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾؛ لِمَا في مَعنى الرَّبِّ مِنَ الرَّأفةِ به، والانتِصارِ له، ولِمَا في الإضافةِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ التَّشريفِ، وكِلا الأمْرَيْنِ تَعزيزٌ لِلتَّسليةِ. ويجوزُ جَعْلُ كَلِمةِ (بينَ) دالَّةً على أُخرى مُقدَّرةٍ، على سَبيلِ إيجازِ الحَذفِ، والتَّقديرُ: بيْنَهم وبيْنَ المُؤمنينَ، أيْ: بما يَظهَرُ به انتِصارُ المُؤمنينَ؛ فإنَّه يَكثُرُ أنْ يُقالَ: بيْنَ كذا وبيْنَ كذا[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَه هنا هكذا، وقاله في سُورةِ (الشُّورى): ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤] بزِيادةِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ لِمُوافَقتِه هناك في (الشُّورَى) لِسياقِ الآيةِ، حيثُ قال في أوَّلِها: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، أي: القرآنُ والآياتُ الَّتي أوقعتِ العِلمَ بصِحَّةِ ما جاءَ به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ و(مِن) لابتداءِ الغايةِ؛ فلمَّا ذَكَر مَبدَأَ كُفرِ الَّذين تَفرَّقوا في الدِّينِ، وهو مَجيءُ العِلْمِ بالتَّوحيدِ؛ حَسُنَ ذِكرُ النِّهايةِ الَّتي أُمْهِلوا

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٨).

إليها؛ ليكُونَ محدودًا مِنَ الطَّرَفَيْنِ، بخِلافِ ما هنا في سُورةِ (فُصِّلت)[(١)].

- و﴿مُرِيبٖ﴾ تأكيدٌ لمعنَى ﴿لَفِي شَكّٖ﴾، والمُريبُ: المُوقِعُ في الرَّيبِ، وهو مرادفُ الشَّكِّ، فوصفُ الشكِّ بالمُريبِ مِن تأكيدِ ماهيَّتِه، ولإفادةِ المبالغةِ، كقولِهم: شعرٌ شاعرٌ، وليلٌ أليلُ، أو ليلٌ داجٍ[(٢)].

٦- قولُه تعالَى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ مِن مُكَمِّلاتِ التَّسليةِ، ومِن مُناسَباتِ ذِكرِ الأجَلِ المُسَمَّى، وفيه مَعنى التَّذييلِ؛ لِأنَّ ﴿مَّنۡ﴾ في المَوضِعَيْنِ مُفيدةٌ لِلعُمومِ، سَواءٌ اعتُبِرتْ شَرطيَّةً أو مَوصولةً، والمَعنى: أنَّ الإمهالَ إعذارٌ لهم؛ لِيَتَدارَكوا أمْرَهم[(٣)].

- وحَرفُ (على) مُؤذِنٌ بمُؤاخَذةٍ، وتَحَمُّلِ أعباءٍ، كما أنَّ اللَّامَ في قَولِه: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦ﴾ مُؤذِنٌ بالعَطاءِ[(٤)].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والتَّعبيرُ عنِ الجَلالةِ بلَفظِ ﴿رَبُّكَ﴾؛ لِمَا في مَعنى الرَّبِّ مِنَ الرَّأفةِ به، والانتِصارِ له، ولِمَا في الإضافةِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ التَّشريفِ، وكِلا الأمْرَيْنِ تَعزيزٌ لِلتَّسليةِ[(٥)].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقَرِّرٌ لِمَضمونِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل)) للإسكافي (ص: ١١٥١)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٦، ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٨) و(٢٤/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١٨، ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما قَبْلَه[١].

- وجاءت صِيغةُ المُبالَغةِ ﴿بِظَلَّـٰمٍ﴾ -مع أنَّ نفْيَ المُبالَغةِ لا يَستلزِمُ نفْيَ الفِعلِ مِن أصلِه، والمرادُ بنَفْيِ المُبالَغةِ هو نفْيُ الظُّلْم مِن أصلِه-؛ لكَثرةِ العَبيدِ؛ فاللهُ جلَّ وعلَا نفَى ظُلْمَه للعبيدِ، والعبيدُ في غايةِ الكثرةِ، والظُّلمُ المنفيُّ عنهم تَستلزِمُ كَثْرتُهم كَثْرتَه؛ فناسَب ذلك الإتيانُ بصِيغةِ المُبالَغةِ؛ للدَّلالةِ على كَثرةِ المَنفيِّ التَّابعةِ لكَثرةِ العبيدِ المنفيِّ عنهم الظُّلمُ؛ إذ لو وقَع على كلِّ عبدٍ ظُلمٌ، ولو قليلًا، كان مجموعُ ذلك الظُّلْمِ في غايةِ الكَثرةِ؛ فالمرادُ بذلك نفْيُ أصْلِ الظُّلمِ عن كُلِّ عَبدٍ مِن أولئك العَبيدِ، الَّذين هم في غايةِ الكثرة، سُبحانَه وتعالى عن أنْ يَظلِمَ أحدًا شيئًا[٢].

وقيل: نفْيُ صِيغةِ المُبالَغةِ إذا دلَّتْ أدِلَّةٌ مُنفصِلةٌ على أنَّ المُرادَ به نفْيُ أصْلِ الفِعلِ؛ فلا إشكالَ؛ لِقيامِ الدَّليلِ على المرادِ، والآياتُ الدَّالَّةُ على نفْيِ الظُّلمِ مِن أصلِه عن اللهِ تعالى كثيرةٌ معروفةٌ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ...﴾ [النساء: ٤٠]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وغيرِ ذلك من الآياتِ. أو يكون المسَوِّغُ لِصيغةِ المُبالَغةِ أنَّ عذابَه تعالَى بالغٌ مِن العِظَمِ والشِّدَّةِ أنَّه لولا استِحقاقُ المعذَّبينَ لذلك العذابِ بكُفرِهم ومَعاصيهم لَكان مُعذِّبُهم به ظَلَّامًا بليغَ الظُّلمِ مُتفاقِمَه، سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلوًّا كَبيرًا. أو يكون المرادُ بالنَّفيِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ نفْيَ نِسبةِ الظُّلمِ إليه؛ لأنَّ صِيغةَ (فَعَّال) تُستعمَلُ مُرادًا بها النِّسبةُ؛ فتُغْني عن ياءِ النَّسبِ؛ فقولُه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: وما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢١) و(٦/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣).

رَبُّكَ بِذِي ظُلمٍ للعَبيدِ(١). وقيل: صِيغةُ المُبالَغةِ (ظلَّام) تَقْتضي بظاهِرِها نَفْيَ الظُّلمِ الشَّديدِ، والمقصودُ: أنَّ الظُّلمَ مِن حَيثُ هو ظُلْمٌ أمْرٌ شَديدٌ؛ فصِيغَتْ له زِنَةُ المُبالَغةِ(٢). وقيل غيرُ ذلك(٣).

- وعبَّر بـ(عبيد) دونَ (عباد)؛ لأنَّه موضعُ إشفاقٍ وإعلامٍ بضَعفٍ وعدَمِ قُدرةٍ على انتصارٍ، و(عباد) يدُلُّ على طاعةٍ وعدمِ حقارةٍ، بل إكرامٍ، هذا أغلبُ الاستعمالِ(٤).

وقيل: مدلولُ (عبيد) هو مدلولُ (عباد) سواءٌ، وحَسُنَ مجيءُ (عبيد) هنا لتَواخي الفواصلِ، ألَا ترى أنَّ قبْلَه ﴿بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وبعدَه: ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾(٥) [فصلت: ٤٧].



(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ١١٧، ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٤٧٠، ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٧٤، ٢٧٥).

الآيات (٤٧-٥١)

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ
إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ
وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ
هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا
بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَكْمَامِهَا﴾: أي: أوعِيَتِها، وأصلُ (كمم): يدُلُّ على غِشاءٍ وغِطاءٍ[1].

﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾: أي: أعلَمْناك، وأصلُ (أذن): يدُلُّ على عِلمٍ[2].

﴿مَّحِيصٍ﴾: أي: مَهرَبٍ، وأصلُ (حيص): يدُلُّ على المَيلِ في جَورٍ[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧، ٨٨٢).

﴿لَا يَسْـَٔمُ﴾: أي: لا يملُّ، والسَّآمةُ: الملَلُ والضَّجرُ(١).

﴿فَيَـُٔوسٌ﴾: أي: يائِسٌ مِنَ الرَّحمةِ، وأصلُ اليأسِ: انتِفاءُ الطَّمَعِ(٢).

﴿قَنُوطٌ﴾: القُنوطُ: اليأسُ مِن الخَيرِ، وقيل: أتمُّ اليأسِ، وقيل: أشَدُّ اليأْسِ، وقيل: القُنوطُ أنْ يَظْهَرَ آثارُ اليأسِ في الوجهِ والأحوالِ الظَّاهرةِ، وأصلُ (قنط): يدُلُّ على اليأسِ مِن الشَّيءِ(٣).

﴿ضَرَّآءَ﴾: أي: شِدَّةٍ وبَلاءٍ وضُرٍّ، والضَّرَّاءُ كذلك: سوءُ الحالِ، والفَقْرُ والقَحْطُ. والضُّرُّ: خِلافُ النَّفْعِ(٤).

﴿وَنَـَٔا﴾: أي: تَباعَدَ، وأصلُ النَّأيِ: يدُلُّ على البُعدِ(٥).

﴿بِجَانِبِهِۦ﴾: أي: بنَفْسِه وناحِيَتِه، وأصلُ (جنب): يدُلُّ على ناحيةٍ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣، ٥٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢، ١٢٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، =

﴿عَرِيضٍ﴾: أي: كَثيرٍ، والعَرَبُ تَستَعمِلُ الطُّولَ والعَرْضَ في الكَثرةِ، يُقالُ: أطالَ فُلانٌ الكَلامَ والدُّعاءَ وأعرَضَ، أي: أكثَرَ، وأصلُ (عرض): يدُلُّ على خِلافِ الطُّولِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى انفرادَه بعِلمِ وقتِ قيامِ السَّاعةِ، ويُقرِّرُ سَعةَ عِلمِه وإحاطتَه، فيقولُ: إلى اللهِ وَحْدَه يُرجَعُ عِلمُ القيامةِ، فلا يَعلَمُ وَقتَها غَيرُه سُبحانَه، وما تَخرُجُ ثَمرةٌ مِن الثَّمَراتِ مِن أوعِيَتِها إلَّا هو يَعلَمُها سُبحانَه، وما تَحمِلُ أُنثى حَملًا ولا تَضَعُه إلَّا بعِلمِ اللهِ سُبحانَه.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ سبحانَه مشهدًا مِن مَشاهِدِ يومِ القيامةِ، فيه يَتبرَّأُ المشركونَ مِن آلهتِهم، فيقولُ: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشركينَ يومَ القيامةِ: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم تَزعُمونَهم؟! فأجاب المُشرِكونَ رَبَّهم: أعلَمْناك اليَومَ رَبَّنا أنْ ليس مِنَّا مَن يَشهَدُ أنَّ لك شَريكًا! وغاب عن المُشرِكينَ يَومَ القيامةِ آلِهتُهم الَّتي كانوا يَدْعُونَها في الدُّنيا، فلم يَنفَعوهم بشَيءٍ، وظَنُّوا أنَّهم لا فِرارَ ولا مَهْرَبَ لهم مِن عَذابِ اللهِ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى أحوالَ الإنسانِ في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ: لا يَمَلُّ الإنسانُ مِن سُؤالِ رَبِّه خَيرًا مِن مالٍ وصِحَّةٍ وغَيرِ ذلك، وإنْ أصابَه شَرٌّ ما فهو يَؤُوسٌ قَنوطٌ مِن رَحمةِ رَبِّه، ولَئِنْ أنعَمْنا عليه بنِعمةٍ بعدَ الشِّدَّةِ والضُّرِّ الَّذي أصابه لَيَقولَنَّ بغُرورٍ: أنا أهلٌ لهذا الخَيرِ مُستَحِقٌّ له، وما أظُنُّ القيامةَ تَقومُ، وعلى فَرْضِ قيامِ

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٧).

القيامةِ ورُجوعي إلى اللهِ فسَيُدخِلُني الجنَّةَ! فلَنُخبِرَنَّ يومَ القيامةِ أولئك الكافِرينَ بما عَمِلوه في الدُّنيا، ولَنُذيقَنَّهم مِن عذابٍ شَديدٍ.

وإذا أنعَمْنا على الإنسانِ بنِعمةٍ ما أعرَض عن عبادةِ رَبِّه وشُكْرِه تعالى، وتكبَّرَ عن الانقيادِ إلى رَبِّه، وإذا أصابه شَرٌّ ما فهو ذو دُعاءٍ كثيرٍ وتضَرُّعٍ إلى اللهِ؛ لِيَكشِفَ عنه ضُرَّه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

كان المُشرِكونَ إذا أُنذِروا بالبَعثِ وساعَتِه، استَهزَؤوا فسَألوا عن وَقتِها، وكان ذلك مِمَّا يتكَرَّرُ منهم؛ فلمَّا جرى ذِكرُ دَليلِ إحياءِ المَوتى، وذِكْرُ إلْحادِ المُشركينَ في دَلالتِه بسُؤالِهم عنها استِهزاءً؛ انتَقَلَ الكَلامُ إلى حِكايةِ سُؤالِهم؛ تَمهيدًا لِلجَوابِ عن ظاهِرِه(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الآيةَ [فصلت: ٤٦]، كان في ذلك دَلالةٌ على الجَزاءِ يومَ القيامةِ، وكأنَّ سائِلًا قال: ومتى ذلك؟ فقيل: لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ تعالى، ومَن سُئِلَ عنها فليس عندَه عِلمٌ بتَعْيينِ وَقتِها، وإنَّما يُرَدُّ ذلك إلى اللهِ تعالى(٢).

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٤).

أي: إلى اللهِ وَحْدَه يُرجَعُ عِلمُ وَقتِ مَجيءِ القِيامةِ؛ فلا يَعلَمُ وَقتَها إلَّا اللهُ وَحْدَه[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه في حَديثِ جِبريلَ الطَّويلِ، قال: متى السَّاعةُ؟ قال: ((ما المَسؤولُ عنها بأعلَمَ مِنَ السَّائِلِ))[٢].

﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾.

أي: وما تَبرُزُ في وَقتٍ مِنَ الأوقاتِ أيُّ ثَمَرةٍ مِنَ الثَّمَراتِ مِن أوعِيَتِها وظُروفِها إلَّا يَعلَمُها اللهُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ [الرحمن: ١١].

﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾.

أي: وما تَحمِلُ أيُّ أُنثى مِن حَمْلٍ إلَّا بعِلمِ اللهِ تعالى، ولا تَضَعُ حَمْلَها إلَّا بعِلم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٣، ٢٩٤).

(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٤، ٢٩٥).

اللهِ تعالى، لا يخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن ذلك[(١)].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾.

أي: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، فيَقولُ لهم: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لي في العبادةِ، وأنَّهم يَشفَعونَ لكم[(٢)]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.

أي: فأجاب المُشرِكونَ رَبَّهم قائِلينَ: أعلَمْناك -رَبَّنا- اليومَ بأنَّه ليس مِنَّا أحَدٌ يَشهَدُ أنَّ لك شَريكًا[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٣، ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٦).

قال ابنُ عطية: (الضَّميرُ في: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ ظاهِرُه والأسبَقُ فيه: أنَّه يُريدُ به الكُفَّارَ عَبَدةَ الأوثانِ. ويحتمِلُ أن يريدَ به كُلَّ مَن عُبِدَ مِن دونِ اللهِ مِن إنسانٍ وغَيرِه، وفي هذا ضَعفٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأول: ابنُ جرير فقال: (ينادي الله هؤلاء المشركينَ به في الدُّنيا الأوثانَ والأصنامَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٥، ٤٥٦).

وممَّن ذكر أيضًا أنَّ الضَّميرَ يعودُ على المشركين، أي: يُنادي اللهُ المشركين: مكِّيٌّ، والواحديُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، وابن كثير. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٥)، ((الوسيط)) =

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قرَّر جهْلَ المشركينَ؛ أتْبَعَه عَجْزَهم(١).

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾.

= للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧١، ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

ممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: آذَنَّاك الآنَ في يومِ القيامةِ: الثعلبيُّ، والواحدي، والزمخشري، والقرطبي، وابن جُزَي، وابن كثير، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

قال البقاعي: (﴿آذَنَّاكَ﴾ أي: أعلَمْناك سابِقًا بألسِنَةِ أحوالِنا، والآنَ بألسِنَةِ مَقالِنا، وفي كِلْتا الحالتَينِ أنت سامِعٌ لذلك؛ لأنَّك سامِعٌ لكُلِّ ما يُمكِنُ أن يُسمَعَ وإنْ لم يَسمَعْه غيرُك). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢١٥).

وقال الرَّسْعَني: (﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلَمْناك بما عَلِمتَ مِن عقائدِنا الآنَ، أو يقولونَ ذلك وقد سبَق إعلامُهم به أوَّلَ ما سُئِلوا، ثمَّ أُعِيد عليهم السَّؤالُ توبيخًا وتقريعًا، فحكَى اللهُ تعالى ذلك عنهم، أو يكونُ ذلك إنشاءً للإيذانِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٣).

وقيل: يحتمِلُ أن يكونَ الشَّهيدُ بمعنى المُشاهِدِ، أي: المُبصِرِ، أي: ما أحَدٌ منَّا يَرى الَّذين كُنَّا ندعوهم شُرَكاءَك الآنَ، أي: لا نرى واحِدًا مِن الأصنامِ الَّتي كنَّا نَعبُدُها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨).

وقيل: القائِلونَ بذلك مَعبوداتُهم، فهم يَتبَرَّؤون منهم فيَقولون: ما مِنَّا مِن أحَدٍ يَشهَدُ بصِحَّةِ ما أضافوا إلينا مِنَ الشِّركةِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١).

قال القرطبي: (﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني: الأصنام. وقيل: المُشرِكونَ. ويحتمِلُ أن يُريدَهم جميعًا: العابِدَ والمَعبودَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٥).

أي: وغاب عن المُشرِكينَ يومَ القيامةِ آلِهتُهم الَّتي كانوا يَدْعُونَها مِن قبْلُ في الدُّنيا، فلم يَنفَعوهم، ولم يَنتَفِعوا بدُعائِهم لهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا * وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣].

﴿وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾.

أي: وظَنُّوا أنَّهم ليس لهم فِرارٌ ولا مَهرَبٌ مِن عَذابِ اللهِ يَحيدُونَ إليه، أو أمرٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٠٠).

قال ابن جُزَي: (﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: ضلَّ عنهم شركاؤُهم، بمعنى أنَّهم لا يرونَهم حينَئذٍ، فـ «ما» على هذا موصولةٌ. أو: ضلَّ عنهم قولُهم الَّذي كانوا يقولونَ مِن الشركِ، فـ «ما» على هذا مَصدريَّةٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾: آلهتُهم، فالمعنى أنَّها غابتْ عنهم فلم يُبصِروها ولم يَجدوها: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨).

قال البقاعي: (ولَمَّا كانت معبوداتُهم إمَّا ممَّن لا يَعقِلُ كالأصنامِ، وإمَّا في عِدادِ ذلك لكَونِهم لا فِعلَ لهم في الحقيقةِ؛ عبَّر عنهم بأداةِ ما لا يَعقِلُ، فقال: ﴿مَا كَانُوا﴾). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢١٥).

وقال ابن عاشور: (فالمرادُ به هنا: غَيْبةُ أصنامِهم عنهم، وعدمُ وُجودِها في تلك الحضرةِ، بقطعِ النَّظرِ عن كَونِها مُلْقاةً في جهنَّمَ، أو بقيتْ في العالَمِ الدُّنيويِّ حينَ فنائِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨).

وقيل: معنى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾: نَسُوا ما كانوا يَقولونَ في الدُّنيا ويَدْعُونَ مِن الآلهةِ والأصنامِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١، ٧٥٢).

يُمَوِّهونَ به ويُراوِغونَ[١].

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى مِن حالِ هؤلاء الكُفَّارِ أنَّهم بعدَ أنْ كانوا مُصِرِّينَ على القَولِ بإثباتِ الشُّرَكاءِ والأضْدادِ لله في الدُّنيا، تبَرَّؤوا عن تلك الشُّرَكاءِ في الآخِرةِ؛ بيَّنَ أنَّ الإنسانَ في جميعِ الأوقاتِ مُتبَدِّلُ الأحوالِ، مُتغَيِّرُ المنهجِ؛ فإنْ أحَسَّ بخَيرٍ وقُدرةٍ انتَفَخ وتعَظَّم، وإن أحسَّ ببَلاءٍ ومِحنةٍ ذَبَلَ، إنْ رأى خيرًا تَدَلَّى، وإن رأى شرًّا تَوَلَّى، فقال[٢]:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾.

أي: لا يَمَلُّ الإنسانُ مِن سُؤالِ رَبِّه المالَ والصِّحَّةَ وغَيرَ ذلك مِن مَطالِبِ الدُّنيا، ولا يَزالُ يَطلُبُ الزِّيادةَ منها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨).

قال ابن عطية: (قوله: ﴿وَظَنُّواْ﴾ يحتملُ أن يكونَ متَّصِلًا بما قبْلَه ويكونَ الوقفُ عليه، ويكونَ قولُه: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ استئنافَ نفيٍ أن يكونَ لهم منجى أو موضعُ روغانٍ... ويكون الظَّنُّ على هذا التَّأويلِ على بابِه، أي: ظنُّوا أن هذه المقالةَ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ منجاةٌ لهم، أو أمرٌ يموِّهون به. ويحتملُ أن يكونَ الوقفُ في قَولِه: ﴿مِن قَبْلُ﴾، ويكونَ: ﴿وَظَنُّواْ﴾ متَّصِلًا بقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: ظنُّوا ذلك، ويكون الظَّنُّ على هذا التَّأويلِ بمعنى اليقينِ، وبه فسَّر السُّدِّيُّ، وهذه عبارةٌ يُطلقُها أهلُ اللِّسانِ على الظَّنِّ، ولستَ تجدُ ذلك إلَّا فيما عُلِم عِلمًا قويًّا، وتقرَّر في النَّفْسِ، ولم يَتلبَّسْ به بعدُ، وإلَّا فمتى تلبَّس بالشَّيءِ، وحصَل تحتَ إدراكِ الحواسِّ؛ فلَسْتَ تَجِدُهم يوقِعونَ عليه لفظةَ الظَّنِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قَلْبُ الشَّيخِ شابٌّ على حُبِّ اثنتَينِ: طُولِ الحياةِ، وحُبِّ المالِ))(١).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لو كان لابنِ آدَمَ وادِيانِ مِن مالٍ لَابْتَغى ثالِثًا، ولا يَملأُ جَوفَ ابنِ آدمَ إلَّا التُّرابُ(٢)، ويَتوبُ اللهُ على مَن تاب))(٣).

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾.

أي: وإن نالَ الإنسانَ شِدَّةٌ وكَربٌ، مِن مَرَضٍ أو فَقرٍ أو غَيرِ ذلك؛ فهو ذو يأسٍ شَديدٍ مِن تفريجِ اللهِ عنه، قَنوطٌ مِن أن يرحَمَه اللهُ(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً

= (٧/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩، ١٠).

(١) رواه البخاري (٦٤٢٠)، ومسلم (١٠٤٦) واللفظ له.

(٢) ولا يَملأُ جَوفَ ابنِ آدمَ إلَّا التُّرابُ: أي: لا يَزالُ حَريصًا على الدُّنيا حتَّى يموتَ، ويَمتلِئَ جَوفُه مِن ترابِ قَبرِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ١٣٩).

(٣) رواه البخاري (٦٤٣٦) واللفظ له، ومسلم (١٠٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠).

وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾.

أي: ولئن مَنَحْنا الإنسانَ نِعمةً وَخيرًا مِنَّا بعدَ الشِّدَّةِ والمحنةِ الَّتي أصابَتْه، لَيَقولَنَّ بغُرورٍ: أنا أهلٌ لهذا الخَيرِ ومُستَحِقٌّ له[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭ﴾ [الزمر: ٤٩].

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾.

أي: وما أظُنُّ القيامةَ كائِنةً؛ فلَستُ على يقينٍ مِن وُقوعِ البَعثِ وحُصولِ الجَزاءِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٤٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).
قيل: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾: لأنَّ اللهَ راضٍ عنِّي برِضاه عن عَمَلي، وما أنا عليه مُقيمٌ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣).
وقيل: المعنى: هذا الخَيرُ حَقٌّ لي حَصَلتُ عليه بعِلْمي وسَعْيي وتَدبيري، ويَنسى فضْلَ اللهِ عليه، ولُطفَه به. وممَّن ذهب إلى هذا القول: ابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).
وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: وعلى فَرْضِ أنِّي رُدِدْتُ إلى ربِّي، وبُعِثتُ بعدَ مَوتي، فستَكونُ لي الجنَّةُ[1]!

كما قال تعالى حِكايةً لِقَولِ صاحِبِ الجنَّتينِ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾.

أي: فلَنُخبِرَنَّ يومَ القيامةِ هؤلاء الكافِرينَ بالَّذي عَمِلوه في الدُّنيا مِنَ السَّيِّئاتِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٠).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالحُسنى الجنَّةُ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والبغويُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٦٦).
قيل: المعنى: كما أعطاني في الدُّنيا سيُعطيني في الآخرةِ. وقيل: إنَّه يقولُ ذلك استهزاءً. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٦٦).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالحُسنى الحالةُ الحسَنةُ: الرَّسْعَنيُّ، وأبو حيَّان، والبِقاعي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢).
وقال ابن جرير: (﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يقولُ: إنَّ لي عندَه غنًى ومالًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩).
وقال ابن كثير: (﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ولَئِنْ كان ثَمَّ مَعادٌ فلَيُحسِنَنَّ إلَيَّ ربِّي، كما أحسَنَ إلَيَّ في هذه الدَّارِ، يَتمَنَّى على الله عزَّ وجلَّ، معَ إساءَتِه العملَ، وعدمِ اليقينِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١١).

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

أي: ولَنُذِيقَنَّهم مِن عذابِ النَّارِ الشَّديدِ الإيلامِ[1].

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى أقوالَ الَّذي أنعَمَ عليه بعدَ وُقوعِه في الآفاتِ؛ حكَى أفعالَه أيضًا[2].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى جَهْلَ الإنسانِ في حالاتٍ مَخصوصةٍ؛ باليأسِ عندَ مَسِّ الشَّرِّ، والأمْنِ عندَ ذَوقِ النِّعمةِ بعدَ الضُّرِّ؛ بيَّنَ حالَه عندَ النِّعمةِ مُطلقًا، ودُعاءَه عندَ الشَّرِّ وإن كان قانِطًا؛ تكريرًا لتقَلُّبِ أحوالِه، وتناقُضِ أقوالِه وأفعالِه، تَصريفًا لذلك على وُجوهٍ شَتَّى؛ لِيَكونَ داعيًا له إلى عَدَمِ الأَنَفةِ مِن الرُّجوعِ عن الكُفرِ إلى الإيمانِ[3].

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾.

أي: وإذا أنعَمْنا على الإنسانِ بنِعمةٍ مِن رِزقٍ أو صِحَّةٍ، أعرَضَ عن عبادةِ اللهِ وشُكْرِه وَحْدَه، وترفَّعَ عن الانقيادِ إلى الحَقِّ وتكَبَّرَ[4]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤، ١٥).

=

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾.

أي: وإذا نال الإنسانَ شَرٌّ مِن مَرَضٍ أو فَقرٍ، تضَرَّعَ إلى اللهِ واستغاثَ به؛ لِيَكشِفَ عنه ضُرَّه، وأطال الدُّعاءَ واستكثَرَ منه[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٣، ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: ١٩، ٢٠].

= وقال ابن عثيمين في قوله تعالى: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: (أعرَض ببدنِه وبقلبِه مفتخرًا متعاظمًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤، ١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٢١، ٣٢٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ دَليلٌ أنَّ على المرءِ أنْ يَصبِرَ عندَ المصائبِ، ولا ييأسَ مِن رَحمةِ ربِّه، ولا يُلهِيَه مَسُّ المُصيبةِ عن الذِّكْرِ والشُّكرِ؛ فإنَّ المصائبَ وإنْ كانت تَشُقُّ عليه فهي كَفَّاراتٌ، وعاقِبتُها كَراماتٌ، ومِن صفةِ المؤمِنِ أنْ يكونَ شَكورًا عندَ الشَّدائِدِ والرَّخاءِ؛ فما مِن شِدَّةٍ إلَّا وفوقَها شِدَّةٌ، فإذا بُلِيَ بأدوَنِها كان عليه الشُّكرُ في صَرفِ أرفَعِها والمعافاةِ منها، فمَن جَعَل موضِعَ الشُّكرِ القُنوطَ واليأسَ قَلَّ تَبَصُّرُه، وساء تَخَيُّرُه[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ وَصَف خُلُقَينِ ذَميمَينِ؛ أحَدُهما: خُلُقُ البَطَرِ بالنِّعمةِ، والغَفلةِ عن شُكرِ اللهِ عليها. وثانيهما: اليأسُ مِن رُجوعِ النِّعمةِ عندَ فَقْدِها[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ قَولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ يعني: أنَّه تيقَّنَ الضَّرَرَ ثمَّ جاءت الرَّحمةُ مِن عندِ اللهِ تعالى، وهذا أبلَغُ في النِّعمةِ: أنْ تأتيَ بعدَ الضَّرَرِ؛ لأنَّ النِّعمةَ الدَّائِمةَ لا يُحَسُّ بها، لكِنَّ النِّعمةَ الطَّارِئةَ بعدَ الضَّررِ هي الَّتي يُحَسُّ بها؛ ولهذا مَن لم يَذُقْ مَرارةَ المَرَضِ، فإنَّه لا يتذوَّقُ حَلاوةَ الصِّحَّةِ[(٣)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ فيه تَنبيهٌ أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يَشرَعَ في الدُّعاءِ عندَ التوقُّعِ، بل قَبْلَه؛ تعرُّفًا إلى اللهِ تعالى في الرَّخاءِ،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٠٨، ٣٠٩).

لِيَعرِفَه في الشِّدَّةِ، وهو خُلُقٌ شَريفٌ لا يَعرِفُه إلَّا أفرادٌ خَصَّهم اللهُ بلُطفِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أنَّ مَن ادَّعى عِلمَ السَّاعةِ فهو كافرٌ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ للهِ ورسولِه، وتكذيبُ اللهِ ورسولِه مِن أسبابِ الرِّدَّةِ، ومَن صَدَّقَه فهو كافرٌ أيضًا؛ لأنَّه صَدَّقَ ما هو تكذيبٌ للقرآنِ؛ ومَن صَدَّقَ ما هو تكذيبٌ للقرآنِ فإنَّه كافرٌ بلا شكٍّ[٢].

٢- قوله: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ وبعدَه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ لا منافاةَ بيْنَهما؛ لأنَّ معناه: يَئوسٌ قَنُوطٌ بالقلبِ، دَعَّاءٌ باللِّسانِ. وقيل: قَنُوطٌ مِن الصَّنمِ، دَعَّاءٌ لله. وقيل: الأوَّلُ في قَومٍ، والثَّاني في آخَرينَ. وقيل: الدُّعاءُ مذكورٌ في الآيتَينِ، وهو ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ في الأوَّلِ، و: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ في الثَّاني[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ سَمَّى النِّعمةَ رَحمةً؛ إذ هي مِن آثارِ رَحمةِ اللهِ تعالى[٤]، ورحمةُ اللهِ تبارك وتعالى نَوعانِ: رحمةٌ خاصَّةٌ، ورحمةٌ عامَّةٌ، فما به قِوامُ البَدَنِ هو مِن الرَّحمةِ العامَّةِ؛ لأنَّه يَشملُ المؤمنَ والكافرَ، والبَرَّ والفاجرَ، والإنسانَ والحيوانَ، وما به قِوامُ الدِّينِ فهو مِن الرَّحمةِ الخاصَّةِ، وهذا يَختصُّ بالمؤمنينَ[٥].

٤- قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٢).

* ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ فأسنَدَ إلى نَفْسِه تعالى الخَيرَ في قَولِه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ بعدَ أنْ ذكَرَ الشَّرَّ ولم يُسنِدْه إليه في قَولِه: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾؛ وأيضًا في قولِه: ﴿ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ تَعليمًا للأدَبِ[1] مع اللهِ، كما قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ...﴾ [الشعراء: ٧٨] إلخ، ثمَّ قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، فلم يَقُلْ: وإذا أمرَضَني[2].

٥- قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ اعْلَمْ أنَّ الإنسانَ مُتفاوِتةٌ أفرادُه في هذا الخُلُقِ المَعزُوِّ إليه هنا، على تَفاوتِ أفرادِه في الغُرورِ، ولَمَّا كان أكثرُ النَّاسِ يَومَئذٍ المُشركينَ، كان هذا الخُلُقُ فاشيًا فيهمْ يَقْتضيهِ دِينُ الشِّركِ. ولا نظَرَ في الآيةِ لِمَن كان يومَئذٍ مِن المسلمينَ؛ لأنَّهمُ النَّادرُ، على أنَّ المُسلِمَ قد يُخامِرُه بعضُ هذا الخُلُقِ، وتَرتسِمُ فيه شِياتٌ منه، ولكنَّ إيمانَه يَصرِفُه عنه انصِرافًا بقَدْرِ قُوَّةِ إيمانِه، ومَعلومٌ أنَّه لا يَبلُغُ به إلى الحدِّ الَّذي يقولُ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، ولكنَّه قد تَجْري أعمالُ بعضِ المُسلمينَ على صُورةِ أعمالِ مَن لا يَظُنُّ أنَّ السَّاعةَ قائمةٌ، مِثلُ أولئك الَّذين يَأْتون السَّيِّئاتِ ثمَّ يَقولونَ: إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ، واللهُ غَنيٌّ عن عَذابِنا، وإذا ذُكِرَ لهم يومُ الجزاءِ قالوا: ما ثَمَّ إلَّا الخيرُ، ونحوَ ذلك، فجَعَل اللهُ في هذه الآيةِ مَذَمَّةً لِلمُشرِكينَ، ومَوعِظةً لِلمُؤمِنينَ؛ كَمَدًا لِلأوَّلينَ، وانتِشالًا لِلآخَرينَ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أنَّ كلَّ شَيءٍ مُقيَّدٌ محفوظٌ على الإنسانِ؛ يُؤخَذُ مِن قوله: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾؛ فإنَّ «ما» اسمٌ موصولٌ تُفيدُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣).

العمومَ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أنَّ الإنسانَ يَعرِفُ مِن نَفْسِه الضَّعْفَ إذا أصابَه الضَّرَرُ، ويَلْجَأُ إلى اللهِ، حتَّى الكافرُ يَعرِفُ مِن نفْسِه الضَّعْفَ، ويَلْجأُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٨- قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ هذا وصْفٌ وتذكيرٌ بضَرْبٍ آخَرَ مِن طُغيانِ النَّفْسِ الإنسانيَّة، غيرِ خاصٍّ بأهلِ الشِّركِ، بل هو مُنبَثٌّ في جميعِ النَّاسِ على تفاوُتٍ، إلَّا مَن عصَمَ اللهُ، وهو توصيفٌ لِنَزَقِ النَّفْسِ الإنسانيِّ وقلَّةِ ثباتِه، فإذا أصابَتْه السَّرَّاءُ طغَى وتكبَّر، ونسِيَ شُكرَ ربِّه نسيانًا قليلًا أو كثيرًا، وشُغِل بلَذَّاته، وإذا أصابَتْه الضَّرَّاءُ لم يَصبِرْ، وجزِع، ولجأ إلى ربِّه، يُلِحُّ بسؤالِ كشفِ الضَّرَّاءِ عنه سريعًا، لم يَتذكَّرِ الإقبالَ على دعاءِ ربِّه إلَّا عندَما يَمَسُّه الشَّرُّ، وكان الشَّأنُ ألَّا يَغفلَ عن ذلك في حالِ النِّعمةِ، فيدعو بدوامِها، ويَشكُرُ ربَّه عليها، وقَبولِ شكرِه؛ لأنَّ تلك الحالةَ أولَى بالعنايةِ مِن حالةِ مسِّ الضُّرِّ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾

- قولُه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فيه تَقديمُ المَجرورِ في ﴿إِلَيْهِ﴾ على مُتعَلَّقِه؛ لِإفادةِ الحَصرِ، أيْ: إلى اللهِ يُفوَّضُ عِلمُ السَّاعةِ، لا إلَيَّ؛ فهو قَصرُ قَلبٍ[٤]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤).

(٤) قصر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامع، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ =

ورَدٌّ على المُستَهزِئينَ بالسَّاعةِ بطَريقِ الأُسلوبِ الحَكيمِ[(١)]، أيْ: الأجدَرُ أنْ تَعلَموا أنَّه لا يَعلَمُ أحَدٌ متى السَّاعةُ، وأنْ تُؤمِنوا بها، وتَستَعِدُّوا لها، والرَّدُّ: الإرجاعُ، وهو مُستعمَلٌ لِتَفويضِ عِلْمِ ذلك إلى اللهِ، والتَّبَرُّؤِ مِن أنْ يَكونَ لِلمَسؤولِ عِلْمٌ به، فكَأنَّه جيءَ بالسُّؤالِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فرَدَّه إلى اللهِ[(٢)]. وهذا التَّقديمُ يَجوزُ أنْ يَكونَ إشارةً إلى جَوابِ مُنكِرٍ يَزعُمُ أنَّ عِلْمَ السَّاعةِ غَيرُ مُختَصٍّ باللهِ، فيُجابُ بالحَصرِ، أيْ: لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ، وأنْ يَكونَ جَوابًا عن مُتَرَدِّدٍ يتَرَدَّدُ في ذلك، ويَشُكُّ فيه، فيُزالُ شَكُّه بقَولِه: اللهُ يَعلَمُ؛ لِإرادَتِه تَقَوِّي الحُكمِ المُستَلزِمِ لِلتَّخصيصِ؛ لِاختِصاصِ ذِكرِ الاسمِ الجامِعِ، وأنَّه تعالَى يَعلَمُه حَقًّا البَتَّةَ، فلا يَعلَمُ غَيرُه[(٣)].

- وعَطفُ جُملةِ ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ وما بَعدَها تَوجيهٌ لِصَرفِ العِلْمِ بوَقتِ السَّاعةِ إلى اللهِ، بِذِكرِ نَظائِرَ لا يَعلَمُها النَّاسُ، وليس عِلْمُ السَّاعةِ بأقرَبَ منها؛ فإنَّها أُمورٌ مُشاهَدةٌ، ولا يَعلَمُ تَفصيلَ حالِها إلَّا اللهُ، أيْ: فليس في عَدَمِ العِلْمِ بوَقتِ السَّاعةِ حُجَّةٌ على تَكذيبِ مَن أنْذَرَ بها؛ لِأنَّهم قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨]، أيْ: إنْ لم تُبَيِّنْ لنا وَقتَه فلَستَ

= أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(١) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو من خلافِ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٠).

بصادِقٍ! فهذا وَجهُ ذِكرِ تلك النَّظائِرِ(١).

- وفي قولِه: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ عُدِلَ عن إعادةِ حَرفِ (ما) مَرَّةً أُخرى في قَولِه: ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾؛ لِلتَّفادي مِن ذِكرِ حَرفٍ واحِدٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ؛ لِأنَّ تَساويَ هذه المَنفيَّاتِ الثَّلاثةِ في عِلْمِ اللهِ تَعالى، وفي كَونِ أزمانِ حُصولِها سَواءٌ بالنِّسبةِ لِلحالِ ولِلاستِقبالِ(٢).

- وحَرفُ (مِنْ) بَعدَ مَدخُولَيْ (ما) في المَوضِعَيْنِ ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾؛ لِإفادةِ عُمومِ النَّفيِ والاستِغراقِ(٣).

- قوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ لَمَّا كانَ ما يَخرُجُ مِن أكمامِ الشَّجَرةِ وما تَحمِلُ الإناثُ وتَضَعُه هو إيجادَ أشياءَ بَعدَ العَدَمِ، ناسَبَ أنْ يُذكَرَ مع عِلْمِ الساعةِ؛ إذْ في ذلك دَليلٌ على البَعثِ، إذْ هو إعادةٌ بَعدَ إعدامٍ، وناسَبَ ذِكرُ أحوالِ المُشرِكينَ في ذلك اليَومِ، وسُؤالُهم سُؤالَ التَّوبيخِ، فقالَ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾، أيْ: الَّذين نَسَبْتُموهم إلَيَّ، وزَعَمْتُم أنَّهم شُرَكاءُ لي، وفي ذلك تَهكُّمٌ بهم وتَقريعٌ(٤).

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ عطْفٌ على الجُملةِ قبْلَها؛ فإنَّه لَمَّا تَضمَّن قولُه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إبطالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥، ٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٤).

شُبْهتِهم بأنَّ عدَمَ بَيانِ وقْتِها يدُلُّ على انتفاءِ حُصولِها، وأُتبِعَ ذلك بنَظائرَ لِوَقتِ السَّاعةِ ممَّا هو جارٍ في الدُّنيا دَومًا؛ عادَ الكَلامُ إلى شَأنِ السَّاعةِ على وَجهِ الإنذارِ، مُقتَضيًا إثباتَ وُقوعِ السَّاعةِ بذِكرِ بَعضِ ما يَلقَوْنَه في يَومِها[1].

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ مَنصوبٌ بـ (اذكُرْ)، أو ظَرفٌ لِمُضمَرٍ مُؤَخَّرٍ قد حُذِف للتَّنبيةِ على كمالِ هَولِه، وفظاعةِ ما فيه، والإيذانِ بقُصورِ العبارةِ عن بيانِه، أي: يومَ يناديهم يكونُ مِن الأحوالِ والأهوالِ ما لا يَفي ببيانِه المقالُ[2].

- وجُملةُ ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ يصِحُّ أنْ تكونَ مَقولَ قولٍ مَحذوفٍ، كما صُرِّحَ به في آيةٍ أُخرى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وحذْفُ القولِ ليس بعَزيزٍ. ويصِحُّ أنْ تكونَ مُبيِّنةً لِمَا تَضمَّنَه ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ مِن معنى الكلامِ المُعلَنِ به[3].

- وفي قولِه: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ تَهكُّمٌ بهم، وتَقريعٌ لهم[4].

- قولُه: ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ جاءَتْ جُملةُ ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ غيرَ مَعطوفةٍ؛ لِأنَّها جاريةٌ على طَريقةِ حِكايةِ المُحاوَراتِ، وقَولُهم: ﴿آذَنَّاكَ﴾؛ إمَّا لِأنَّ هذا التَّوبيخَ مَسبوقٌ بتَوبيخٍ آخَرَ مُجابٍ بهذا الجَوابِ، وهذا يَقتَضي أنَّه تعالَى قد سألَ عنهم بمِثلِ هذا السُّؤالِ قبْلَ ذلك، وأنَّهم أجابوه بمِثلِ هذا الجَوابِ ثمَّ أعادَه عليهم، أو لِأنَّ مَعناهُ أنَّكَ عَلِمتَ مِن قُلوبِنا وعَقائدِنا الآنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨) و (٨/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٤، ٣١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨).

أنَّا لا نَشهَدُ تلك الشَّهادةَ الباطِلةَ؛ لِأنَّه إذا عَلِمَه مِن نُفوسِهم فكأنَّهم أعلَمُوه، أو لِأنَّ مَعناهُ الإنشاءُ، لا الإخبارُ بإيذانٍ قد كان قبْلَ ذلكَ، كما تَقولُ: أعْلِم المَلِكَ إنَّه كان مِنَ الأمْرِ كَيْتَ وكَيْتَ. وقد سُئِلوا مَرَّةً أُخرى؛ لِأنَّه يَجوزُ أنْ يُعادَ عليهم ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾؛ إعادةً لِلتَّوبيخِ، وإعادَتُه في القُرآنِ على سَبيلِ الحِكايةِ: دَليلٌ على إعادةِ المَحكيِّ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

- قولُه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ لِلشُّروعِ في وَصفِ الإنسانِ في حالَتَيْ شِدَّتِه ورَخائِه[2].

- وقولُه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ أجزاءِ الوَعيدِ، وقد كانوا إذا أصابَتْهم نَعماءُ كَذَّبوا بقيامِ الساعةِ؛ فجُملةُ ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَنُوطٌ﴾ تَمهيدٌ لِجُملةِ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ إلخ، ومَوقِعُ هذه الآياتِ عَقِبَ قَولِه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ يَقتَضي مُناسَبةً في النَّظمِ داعيةً إلى هذا الاعتِراضِ؛ فتلك قاضيةٌ بأنَّ الإنسانَ المُخبَرَ عنه بأنَّه لا يَسأَمُ من دُعاءِ الخَيرِ، وما عُطِفَ عليه هو مِن صِنفِ النَّاسِ الَّذين جَرى ذِكرُ قَصَصِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٥).

قبْلَ هذه الآيةِ، وهم المُشرِكونَ، فإمَّا أنْ يكونَ المُرادُ فَريقًا مِن نَوعِ الإنسانِ، فيَكونَ تَعريفُ الإنسانِ تَعريفَ الجِنسِ العامِّ، لكنَّ عُمومَه عُرْفيٌّ بالقَرينةِ. وإمَّا أنْ يكونَ المُرادُ إنْسانًا مُعيَّنًا مِن هذا الصِّنفِ؛ فيَكونَ التَّعريفُ تعريفَ العهْدِ. كما أنَّ الإخبارَ عن الإنسانِ بأنَّه يقولُ: (مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) صَريحٌ أنَّ المُخبَرَ عنه مِن المُشرِكين مُعيَّنًا كان أو عامًّا عُمومًا عُرْفيًّا، وأيًّا ما كان فالإخبارُ عن إنسانٍ كافرٍ. ومَحمَلُ الكَلامِ البَليغِ يُرشِدُ إلى أنَّ إناطةَ هذه الأخبارِ بصِنفٍ مِنَ المُشرِكينَ أو بمُشرِكٍ مُعَيَّنٍ بعُنوانِ إنسانٍ؛ يُومِئُ بأنَّ لِلجِبلَّةِ الإنسانيَّةِ أثَرًا قويًّا في الخُلُقِ الَّذي منه هذه العَقيدةُ، إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ بوازِعِ الإيمانِ[1].

- قَولُه: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ اليَأسُ مِن صِفةِ القَلبِ، وبدَأ بصِفةِ القَلبِ؛ لأنَّها هي المؤثِّرةُ فيما يَظهَرُ على الصُّورةِ مِن الانكِسارِ[2].

- ولم يَذكُرْ هنا أنَّه ذو دعاءٍ لِلَّهِ، كما ذَكَر في قولِه الآتي: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]؛ قيل: لِأنَّ المَقصودَ أهلُ الشِّركِ، وهمْ إنَّما يَنصَرِفونَ إلى أصنامِهم[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾، ولمْ يُقيِّدْ مسَّ الشَّرِّ بلْ أطلَقَه؛ فلمْ يَذكُرْ (إذا) الَّتي تُفيدُ تَحقُّقَ الوُقوعِ، بل اقترَنَ شَرْطُ مَسِّ الشَّرِّ هنا بحَرفِ (إنْ) الَّتي مِن شَأنِها أنْ تَدخُلَ على النَّادِرِ وُقوعُه؛ فإنَّ إصابةَ الشَّرِّ الإنسانَ نادِرةٌ بالنِّسبةِ لِمَا هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠).

مَغمورٌ به مِنَ النِّعَمِ. ولَمَّا قيَّدَه بالبحرِ الَّذي هو مُتحقِّقٌ فيه ذلك أتَى بأداةِ (إذا) ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: ٦٧]؛ لأنَّ مَسَّ الضُّرِّ لهم في البَحرِ مُحقَّقٌ[١].

- وقولُه: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ فيه وَصفٌ لِلجِنسِ بوَصفِ غالِبِ أفرادِه؛ لِمَا أنَّ اليَأْسَ مِن رَحمَتِه تعالَى لا يَتَأتَّى إلَّا مِنَ الكَافِرِ[٢].

- وأيضًا في نَظمِ هذه الآيةِ لَطائِفُ مِنَ البَلاغةِ؛ منها: التَّعبيرُ عن دَوامِ طَلَبِ النِّعمةِ بعَدَمِ السَّآمةِ. ومنها: التَّعبيرُ عن مَحبَّةِ الخَيرِ بدُعاءِ الخَيرِ. ومنها: التَّعبيرُ عن إضافةِ الضُّرِّ بالمَسِّ الَّذي هو أضعَفُ إحساسِ الإصابةِ؛ قالَ تَعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الزمر: ٦١]. ومنها: صِيغَتا المُبالَغةِ في ﴿فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾. ومنها: إتْباعُ (يَؤوسٌ) بـ (قَنوطٌ) الَّذي هو تَجاوُزُ إحساسِ اليَأْسِ إلى ظاهِرِ البَدَنِ بالانكِسارِ، وهو مِن شِدَّةِ يَأْسِه، فحَصَلَتْ مُبالَغَتانِ في التَّعبيرِ عن يَأْسِه بأنَّه اعتِقادٌ في ضَميرِه، وانفِعالٌ في سَحَناتِه؛ فالمُشرِكُ يَتأصَّلُ فيه هذا الخُلُقُ، ويَتزايَدُ باستِمرارِ الزَّمانِ، والمُؤمِنُ لا تَزالُ تَربيةُ الإيمانِ تَكُفُّه عن هذا الخُلُقِ حتَّى يَزولَ منه أو يَكادَ[٣].

- وجاءَ قَولُ المُشرِكِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ على سَبيلِ الاستِهزاءِ مِن إمكانيَّةِ البَعثِ. وذِكرُ إنكارِ البَعثِ هنا إدماجٌ[٤] بذِكرِ أحوالِ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (١/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

الإنسانِ المُشرِكِ في عُمومِ أحوالِ الإنسانِ[١].

- وأيضًا جِيءَ في حِكايةِ قولِه: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ﴾ بحَرْفِ (إن) الشَّرطيَّةِ الَّتي يَغلِبُ وُقوعُها في الشَّرطِ المشكوكِ وُقوعُه؛ لأنَّه جعَلَ رُجوعَه إلى اللهِ أمْرًا مَفروضًا ضَعيفَ الاحتمالِ[٢].

- وأمَّا دُخولُ اللَّامِ المُوطِّئةِ لِلقَسَمِ في ﴿وَلَئِن﴾ فمَورِدُ التَّحقيقِ بالقَسَمِ هو حُصولُ الجَوابِ لو حَصَلَ الشَّرطُ، وكذلك التَّأكيدُ بحَرفِ (إنَّ) ولامِ الابتِداءِ، مَورِدُه هو جَوابُ الشَّرطِ، وكذلك تَقديمُ ﴿لِي﴾ و﴿عِندَهُۥ﴾ على اسمِ (إنَّ) هو لِتَقَوِّي تَرَتُّبِ الجَوابِ على الشَّرطِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ قيل: الحُسْنى: صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ، أيْ: الحالةُ الحُسْنى، أوِ المُعامَلةُ الحُسْنى. وقيل: الحُسْنى صارَتِ اسمًا لِلإحسانِ الكثيرِ؛ أخذًا مِن صِيغةِ التَّفضيلِ[٤].

- قولُه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾ [فصلت: ٤٧] وما اتَّصَلَ بها، أي: فلَنُعْلِمَنَّهم بما عَمِلوا عِلمًا يَعلَمون به أنَّا لا يَخْفَى علينا شَيءٌ ممَّا عَمِلوه، وتَقريعًا لهم، وقَولُه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ هو المَقصودُ مِنَ التَّقريعِ[٥].

- وقولُه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ كِنايةٌ عَن جَزائِهم بأعْمالِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣).

السَّيِّئةِ[١].

- والتَّعبيرُ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (ولَنُنَبِّئَنَّهم بما عَمِلوا)؛ فعُدِلَ إلى المَوصولِ وصِلتِه؛ لِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن عِلَّةِ استِحقاقِهمُ الإنباءَ بما عَمِلوا، وإذاقةَ العَذابِ[٢]، ولبَيانِ العُمومِ، يعني: أنَّ هذا الوعيدَ ليس لهذا الرَّجُلِ وحْدَه؛ بلْ لكلِّ كافرٍ[٣].

- في قولِه: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ كَنَّى بغَليظِ العَذابِ عن شِدَّتِه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ هذا وَصفٌ وتَذكيرٌ بضَرْبٍ آخَرَ مِن طُغيانِ النَّفْسِ الإنسانيَّةِ غَيرِ خاصٍّ بأهلِ الشِّركِ، وهو تَوصيفٌ لِنَزَقِ النَّفْسِ الإنسانيِّ وقِلَّةِ ثَباتِه، وأمَّا ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ إلى قولِه: ﴿لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠]، فهو وَصفٌ لِضَرْبٍ آخَرَ أشَدَّ، وهو خاصٌّ بأهْلِ الشِّركِ؛ لِمَا وقَعَ فيه مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦]؛ فليس قَولُه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ إلخ تَكريرًا مع قَولِه: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [فصلت: ٤٩] الآيةَ؛ فهذا التَّفَنُّنُ في وَصفِ أحوالِ الإنسانِ مع رَبِّه هو الَّذي دَعا إلى ما اشتَمَلَ عليه قَولُه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا﴾ مِن بَعضِ التَّكريرِ لِما ذُكِرَ في الضَّربِ المُتَقدِّمِ؛ لِزيادةِ تَقريرِه، ولِلإشارةِ إلى اختِلافِ الحالَتَيْن؛ باعتِبارِ الشِّركِ وعَدَمِه مع اتِّحادِهما في مَثارِ الجِبِلَّةِ الإنسانيَّةِ، وباعتِبارِ ما قَدَّرَه اللهُ لِلإنسانِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤).

- ومُتعلَّقُ فِعلِ ﴿أَعْرَضَ﴾ مَحذوفٌ؛ لِدَلالةِ السِّياقِ عليه، والتَّقديرُ: أعرَضَ عن دُعائِنا(١).

- قولُه: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ المَعنى: أبْعَدَ جانِبَه، كِنايةً عن إبعادِ نَفْسِه عنِ الدُّعاءِ؛ تَكَبُّرًا وتَعاظُمًا، ووَلَّى مُعرِضًا غيرَ مُلتَفِتٍ بوَجهِه إلى الشَّيءِ الَّذي ابتعَدَ هو عنه(٢).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ كِنايةٌ؛ للتَّعظيمِ إذا أُرِيدَ بالجانبِ النَّفْسُ، أو مِن بابِ الرَّمْزِ إذا أُرِيدَ بالجانبِ العِطْفُ، ويكونُ عبارةً عن الانحرافِ، ومَرْجِعُه أيضًا إلى التَّكبُّرِ والخُيَلاءِ؛ لأنَّ المُتكبِّرَ لا يَخْلو مِن تلك الحَرَكاتِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣] أتَى بـ (إذا) المُشعِرةِ بتَحقيقِ الوُقوعِ المُستلزِمِ لِلياْسِ؛ فإنَّ اليأْسَ إنَّما حصَلَ عندَ تَحقُّقِ مَسِّ الشَّرِّ له؛ فكان الإتيانُ بـ (إذا) هاهنا أدَلَّ على المعنى المقصودِ مِن (إنْ)، بخِلافِ قولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾؛ فإنَّه بقِلَّةِ صَبْرِه وضَعْفِ احتمالِه، متى تَوقَّعَ الشَّرَّ أعرَضَ، وأطال في الدُّعاءِ، فإذا تَحقَّقَ وُقوعَه كان يَؤوسًا(٤).

- وقيل: عَبَّرَ في جانِبِ الشَّرِّ بأداةِ التَّحقيقِ -على غيرِ عادةِ القُرآنِ في الأغلَبِ-؛ لِيَدُلَّ على أنَّه لزيادةِ جَهلِه على الحَدِّ يَلزَمُ الكِبْرَ وإنْ كان يَتوقَّعُ الشَّرَّ، ولا يَزالُ حالُه حالَ الآمِنِ إلى أن يُخالِطَه، وحينَئذٍ تَنحَلُّ عُراه وتَضمَحِلُّ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٤٧، ٤٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٢).

- قولُه: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ شُبِّهَ الدُّعاءُ المُتَكرِّرُ المُلَحُّ فيه بالثَّوبِ أو المَكانِ العَريضِ، وهو أبلَغُ مِن الطَّويلِ؛ إذ الطُّولُ أطولُ الامتدادَينِ، فإذا كان عَرضُه كذلك فما ظَنُّكَ بطُولِه[١]؟!

- وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (فَداعٍ) إلى ﴿فَذُو دُعَآءٍ﴾؛ لِمَا تُشعِرُ به كَلِمةُ (ذو) مِن مُلازَمةِ الدُّعاءِ له، وتَمَلُّكِه منه[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ مِن الاحتباكِ[٣]، حيثُ ذُكِرَ الإنعامُ أوَّلًا دليلًا على الانتقام ثانيًا، وذُكِرَ الشَّرُّ ثانيًا دَليلًا على الخيرِ أوَّلًا، وسِرُّه: تَعليمُ الأدَبِ بنِسبةِ الإنعامِ دونَ الشَّرِّ إليه، وإنْ كان الكلُّ منه[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٢).

الآيات (٥٢-٥٤)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿شِقَاقٍ﴾: أي: عَداوةٍ ومُبايَنةٍ ومُخالَفةٍ، وأصلُ الشِّقاقِ: الانصِداعُ[١].

﴿ٱلْءَافَاقِ﴾: أي: النَّواحي والأطرافِ، وأصلُ (أفق): يدُلُّ على تَباعُدِ ما بيْنَ أطرافِ الشَّيءِ واتِّساعِه[٢].

﴿مِرْيَةٍ﴾: أي: شَكٍّ، والمِرْيةُ كذلك: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهو أخصُّ مِنَ الشَّكِّ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ الباءَ في ﴿بِرَبِّكَ﴾ مَزيدةٌ في الفاعِلِ للتَّأكيدِ، و(ربك) فاعِلُ ﴿يَكْفِ﴾ مرفوعٌ مَحَلًّا مَجرورٌ لَفظًا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤، ٣٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

بالباءِ. والمفعولُ مَحذوفٌ، والمصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِنْ (ربك) فيكونُ مَرفوعَ المحلِّ، مَجرورَ اللَّفظِ مِثلَه، أو يكونُ المَصدَرُ المُؤَوَّلُ في مَحَلِّ جرٍّ بباءٍ محذوفةٍ، والتَّقديرُ عليهما: أولَمَ يَكفِك ربُّك شَهادتُه، أو بأنَّه على كلِّ شَيءٍ شَهيدٌ. الثَّاني: أنَّ الباءَ في ﴿بِرَبِّكَ﴾ مَزيدةٌ في المفعولِ، و (ربك) مَفعولٌ مُقَدَّمٌ لـ ﴿يَكۡفِ﴾ مَنصوبٌ مَحَلًّا مَجرورٌ لَفظًا بالباءِ، والمصدَرُ المؤوَّلُ ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ فاعلٌ مُؤَخَّرٌ، أي: أوَلَم يكْفِ ربَّك شَهادتُه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يوبِّخَ هؤلاءِ الكافرينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: أخبِرُوني إن كان هذا القُرآنُ حَقًّا مِن عندِ اللهِ ثمَّ كَفَرْتُم به، فمَن أشَدُّ ضَلالًا وبُعدًا عن الحَقِّ منكم؟!

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ حِكمتَه قد اقتضَتْ أنْ يُطلِعَ النَّاسَ على دَلائلِ وحدانيَّتِه، وصدقِ رسولِه، وأنَّ القرآنَ حقٌّ، فيقولُ: سنُري أولئك الكافِرينَ آياتِنا في الآفاقِ والنَّواحي، وفي أنفُسِهم؛ حتَّى يَتبيَّنَ لهم أنَّ القُرآنَ حَقٌّ. أوَلَم يَكْفِ بربِّك -يا مُحمَّدُ- أنَّه شاهِدٌ على كُلِّ شَيءٍ؟!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى حقيقةَ أمرِ هؤلاءِ الكافرينَ، فيقولُ: ألَا إنَّ أولئك الكافِرينَ في شَكٍّ مِن بَعثِهم بعدَ مَوتِهم، ولقاءِ رَبِّهم، ألَا إنَّ اللهَ سُبحانَه مُحيطٌ بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا وقُدرةً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ

(١) ينظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٣٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ١٥)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٣٠).

بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر الوَعيدَ العَظيمَ على الشِّرك، وبيَّنَ أنَّ المُشركينَ يَرجِعونَ عن القَولِ بالشِّركِ في يومِ القيامةِ، ويُظهِرونَ مِن أنفُسِهم الذِّلَّةَ والخُضوعَ بسَبَبِ استيلاءِ الخَوفِ عليهم، وبيَّنَ أنَّ الإنسانَ جُبِلَ على التَّبَدُّلِ؛ فإنْ وَجَد لِنَفْسه قُوَّةً بالَغَ في التَّكَبُّرِ والتَّعَظُّمِ، وإنْ أحَسَّ بالفُتورِ والضَّعفِ بالَغَ في إظهارِ الذِّلَّةِ والمَسكَنةِ- ذكَرَ عَقِيبَه كَلامًا آخَرَ يُوجِبُ على هؤلاء الكُفَّارِ ألَّا يُبالِغوا في إظهارِ النفرةِ مِن قَبولِ التَّوحيدِ، وألَّا يُفرِطوا في إظهارِ العَداوةِ مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1]:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: أخبِروني إن كان هذا القُرآنُ حَقًّا مِن عندِ اللهِ، ثُمَّ كَفَرتُم به، فلا أحَدَ أضَلُّ مِنكم لِفَرطِ شِقاقِكم وعِنادِكم وعداوَتِكم؛ لأنَّه تَبيَّنَ لكم الحقُّ والصَّوابُ، ثمَّ عَدلْتُم عنه، فأهْلَكتُم أنفُسَكم[2].

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٠، ٤٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦، ١٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أعقَبَ اللهُ أمْرَ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَقولَ لِلمُشرِكينَ ما فيه تَخويفُهم مِن عَواقِبِ الشِّقاقِ، على تَقديرِ أنْ يَكونَ القُرآنُ من عِندِ اللهِ وهُم قد كَفَروا به، بأنْ وَعَد رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على سَبيلِ التَّسليةِ والبِشارةِ- بأنَّ اللهَ سَيَغمُرُ المُشرِكينَ بطائِفةٍ مِن آياتِه ما يَتبيَّنونَ به أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ حَقًّا؛ فلا يَسَعُهم إلَّا الإيمانُ به[1].

وأيضًا لَمَّا أمَر حبيبَه صلواتُ الله عليه بمُتارَكةِ القَومِ في قَولِه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ إلى قولِه: ﴿مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ دخَل في خَلَدِه اليأسُ مِن إيمانِ القَومِ، وكادَتْ نفْسُه تذهبُ عليهم حَسَراتٍ، فأعلَمه اللهُ تعالى بقولِه: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أنَّه ما عليك إلَّا البلاغُ ومِنَّا الهدايةُ، فأنت قد أدَّيتَ ما عليك مِن البلاغِ، وليس الهدايةَ، ونحن سنَهدي منهم مَن نريدُ هدايتَه بأنْ نَفتحَ قلوبًا غُلْفًا وآذانًا صُمًّا وعيونًا عُمْيًا، فيرَوْن آياتِنا في الآفاقِ وفي الأنفُسِ، ثمَّ قرَّر ذلك بقولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ إنجازًا للموعد، مُسليًا له صلواتُ الله عليه ممَّا اعتراه مِن اليأسِ[2].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى وُجوهًا كثيرةً في تقريرِ التَّوحيدِ والنُّبُوَّةِ، وأجاب عن شُبُهاتِ المُشرِكينَ وتمويهاتِ الضَّالِّينَ، قال[3]:

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾.

أي: سنُري أولئك الكافِرينَ بالقُرآنِ آياتِنا الدَّالَّةَ على أنَّ القُرآنَ حَقٌّ مِن عندِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٣).

اللهِ لا شَكَّ فيه ولا رَيبَ، وذلك بدَلائِلَ خارجيَّةٍ في الآفاقِ والنَّواحي، ودَلائِلَ في أنفُسِهم(١).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٤)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣١-٣٣٤).

قال السمعاني: (الآياتُ في الآفاقِ آياتُ السَّمواتِ والأرَضينَ؛ وذلك مِن رفْعِ السَّماءِ، وخَلقِ الكَواكِبِ، ودوَرانِ الفلَكِ، وإضاءةِ الشَّمسِ والقمرِ، وما أشْبَهَ ذلك، وكذلك بسْطُ الأرضِ، ونصبُ الجبالِ، وتفجيرُ الأنهارِ، وغرسُ الأشجارِ، إلى ما لا يُحصَى. وقولُه: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: مِن السَّمعِ والبصرِ، وخلْقِ سائرِ الجوارِحِ وجميعِ الحواسِّ. وفي بعضِ التَّفاسيرِ: أنَّ مِن الآياتِ في النَّفْسِ دُخولَ الطَّعامِ والشَّرابِ مِن مكانٍ واحِدٍ، وخروجَه مِن مكانَين. وقيل: دخولُ الأطعمةِ على ألوانٍ كثيرةٍ، وخروجُها على لونٍ واحِدٍ. وقال السُّدِّيُّ: الآياتُ في الآفاقِ هي فتحُ الأمصارِ، وفي الأنفُسِ فتحُ الرَّسُولِ مَكَّةَ. ويقالُ: الآياتُ في الآفاقِ هي الفتوحُ الَّتي كانت بعدَ الرَّسولِ، وفي أنفُسِهم هي الَّتي كانت في زمانِ الرَّسولِ. وقيل: الآياتُ في الآفاقِ ما أخبَرَ مِن الأُمَمِ المُتقدِّمةِ وما نزَل بهم، والآياتُ في الأنفُسِ هي ما أنْذَرهم مِن الوعيدِ والعذابِ. وقال مجاهِدٌ: الآياتُ في الآفَاقِ هو إمساكُ المطرِ مِن السَّماءِ، والآياتُ في الأنفُسِ هي البلايا في الأجسادِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٠).

وقال السعدي: (سيُقيمُ اللهُ لكم ويُريكم مِن آياته ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ كالآياتِ الَّتي في السَّماءِ وفي الأرضِ، وما يُحدِثُه اللهُ تعالى من الحوادِثِ العَظيمةِ الدَّالَّةِ للمُستبصِرِ على الحَقِّ. ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ممَّا اشتمَلَت عليه أبدانُهم، مِن بديعِ آياتِ اللهِ وعجائبِ صَنعتِه، وباهِرِ قُدرتِه، وفي حُلولِ العُقوباتِ والمَثُلاتِ في المكَذِّبين، ونَصرِ المؤمنينَ... وقد فَعَل تعالى؛ فإنَّه أرى عِبادَه من الآياتِ ما به تَبيَّنَ لهم أنَّه الحَقُّ، ولكنَّ اللهَ هو الموفِّقُ للإيمانِ مَن شاء، والخاذلُ لِمَن يَشاءُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).

وجوَّز ابنُ عاشور أن يكونَ المرادُ: وفي أُفُقِ أنفُسِهم، أي: مكَّةَ وما حَوْلَها، ثمَّ قال: (والأحسَنُ أن يكونَ في الآفاقِ على عُمومِه الشَّامِلِ لأُفُقِهم، ويكونَ معنى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أنَّهم يرون آياتِ صِدقِه في أحوالٍ تُصيبُ أنفُسَهم، أي: ذواتِهم؛ مِثلُ الجُوعِ الَّذي دعا عليهم به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ... ومِثلُ ما شاهَدوه مِن مَصارِعِ كُبَرائِهم يومَ بَدرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠).
=

كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١].

وقال الله جَلَّ جلالُه: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: سنُري المُشرِكينَ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهم؛ حتَّى يَتبيَّنَ لهم أنَّ القُرآنَ حَقٌّ، فلا يَجِدوا إلى إنكارِ ذلك سَبيلًا[١].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: أوَلَم يَكْفِ برَبِّك -يا مُحمَّدُ- أنَّه شاهِدٌ على كُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك شَهادتُه أنَّ القُرآنَ حَقٌّ نَزَل مِن عِندِه تعالى على رَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢]؟

= قال ابن القيم: (﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: أنَّ القرآنَ حقٌّ، فأخبَرَ أنَّه لا بدَّ مِن أن يُريَهم من آياته المشهودةِ ما يُبيِّنُ لهم أنَّ آياته المَتلوَّةَ حقٌّ). ((الفوائد)) (ص: ٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٤٠٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٦-٣٣٨).

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ قيل: مُوَجَّهٌ للكُفَّارِ، أي: أو لم يَكْفِهم ويُغْنِهم. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشريُّ، والرازي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير الرازي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤)﴾.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: ألَا إنَّ الكافِرينَ بالقُرآنِ في شَكٍّ مِن وُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ؛ ولذلك لا يَرجُونَ في الآخِرةِ ثَوابًا، ولا يَخافونَ فيها عِقابًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].

﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

= (٢٧/ ٥٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).

قيل: معناه: أنَّ هذا الموعودَ مِن إظهارِ آياتِ الله في الآفاقِ وفي أنفُسِهم سيَرَوْنَه ويُشاهِدونه، فيَتبيَّنون عندَ ذلك أنَّ القرآنَ تنزيلُ عالمِ الغَيبِ الَّذي هو على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، أي: مُطَّلعٌ مُهَيْمِنٌ، يَستوي عندَه غَيْبُه وشَهادتُه، فيَكفيهم ذلك دليلًا على أنَّه حقٌّ وأنَّه مِن عندِه، ولو لم يكنْ كذلك لَمَا قَوِيَ هذه القوَّةَ ولَمَا نُصِر حامِلوه هذه النُّصْرةَ. قاله الزمخشري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٧).

وقيل: المعنى: ألم تَكفِهم هذه الدَّلائلُ الكثيرةُ الَّتي أوضحها اللهُ تعالى وقرَّرها في هذه السُّورةِ وفي كلِّ سوَرِ القرآنِ الدَّالَّة على التَّوحيدِ وغيرِه. قاله الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٤).

وقيل: هو مُوَجَّهٌ إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. أي: أو لم يَكْفِك يا مُحمَّدُ. وممَّن قال بهذا: الماوَرْديُّ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٨).

أي: ألَا إنَّ اللهَ مُحيطٌ بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا وقُدرةً وغَيرَ ذلك[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فيَنبغي للإنسانِ أنْ يَتفكَّرَ في آياتِ اللهِ تعالى في الآفاقِ وفي نَفْسِه؛ لأنَّ ذلك طريقٌ إلى أنْ يَتَبيَّنَ له الحقُّ، فأنت كلَّما ازدَدْتَ تأمُّلًا وتدبُّرًا لآياتِ اللهِ الآفاقيَّةِ والآياتِ الَّتي في نفْسِك؛ فإنَّك لا شكَّ تَزدادُ إيمانًا، ويَتَبيَّنُ لك صِدْقُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يُؤخَذُ منه الحذرُ مِن المخالَفةِ، فإذا عَلِمَ العبدُ أنَّ اللهَ شهيدٌ على كلِّ شَيءٍ -على نَفْسِه؛ أفعالِه؛ أقوالِه؛ كلِّ تصرُّفاتِه- وأنَّه شهيدٌ عليه في خَلَواتِه؛ في وَحدتِه؛ في جلوسِه مع أهلِه؛ في جلوسِه مع صَحْبِه؛ فإنَّه سوف يُراقِبُ اللهَ عزَّ وجلَّ، وهذا هو معنى قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((أنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه؛ فإنْ لم تَكُنْ تَراه فإنَّه يَراك))[٣]، ومَن لم يَتَّعِظْ بمِثْلِ هذه الآيةِ فإنَّه لن يَتَّعِظَ[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيه أعظَمُ بِشارةٍ بتَمامِ أمرِ الدِّينِ، وظُهورِه على المُعتَدينَ؛ وذلك لأنَّ كُلَّ أحَدٍ يَجِدُ في نَفْسِه أنَّه إذا أراد ثُبوتَ حَقٍّ يُنكِرُه مَن هو عليه، ولصاحِبِ الحَقِّ مِنَ الشُّهودِ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٩).

(٣) أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٥٠) واللفظ له، ومسلمٌ (٩) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٤١).

يَتحَقَّقُ قَولُهم فيه، ووُصولُه بهم إليه: أنَّه يَكونُ مُطمَئِنًّا لا يَنزعِجُ بالجَحدِ؛ عِلمًا منه بأنَّ حَقَّه لا بُدَّ أن يَظهَرَ، ويُخزَى مُعانِدُه ويُقهَرَ، وفي هذا تأديبٌ لكُلِّ مَن كان على حَقٍّ ولا يَجِدُ مَن يُساعِدُه على ظُهورِه؛ فإنَّ اللهَ شاهِدُه، فلا بدَّ أن يَظهَرَ أمْرُه؛ فتوكَّلْ على اللهِ إنَّك على الحَقِّ المُبينِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ تحقيقُ مراقبةِ اللهِ؛ لأنَّك إذا آمنتَ أنَّ اللهَ بكلِّ شيءٍ محيطٌ؛ فسوف تُرَاقِبُه مراقبةً تامَّةً، بحيثُ لا يَفْقِدُكَ حيثُ أمَرَك، ولا يَرَاك حيثُ نَهاك(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ؛ وَجهُ ذلك: أنَّ القُرآنَ وَصفٌ لأنَّه كَلامٌ، والوَصفُ لا بُدَّ أنْ يقومَ بمَوصوفٍ، وإذا كان مِن عندِ اللهِ لَزِمَ أنْ يكونَ الموصوفُ به هو اللهَ عزَّ وجلَّ، ثمَّ زيادةً على ذلك فوَجهُ الدَّلالةِ: كونُه مِن عندِ اللهِ، وأنَّ الكَلامَ صِفةٌ وليس عَينًا قائِمةً بنَفْسِها حتَّى نَقولَ: إنَّه مَخلوقٌ كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾(٣) [الأعراف: ٢٠٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ أنَّه لا بُدَّ أنْ يُرِيَ اللهُ سُبحانَه أهلَ كلِّ قَرنٍ مِن الآياتِ ما يُبَيِّنُ لهم أنَّه اللهُ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو، وأنَّ رُسُلَه صادِقونَ(٤).

٣- أنَّ القرآنَ قد نَبَّهَ على الطُّرُقِ الاعتباريَّةِ الَّتي بها يُستدَلُّ على مِثلِ ما في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٤٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٦).
(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٠٢).

القرآنِ؛ كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾، فأخْبَر أنَّه يُري عِباده مِن الآياتِ المشهودةِ العِيانيَّةِ في الآفاقِ وفي أنفُسِهم -الَّتي هي أدلَّةٌ عقليَّةٌ- ما يَتبَيَّنُ به أنَّ آياته السَّمعيَّةَ القُرآنيَّةَ حَقٌّ وصِدقٌ؛ فآياتُ الرَّبِّ تعالى العِيانيَّةُ الأُفُقيَّةُ والنَّفْسيَّةُ مُستَلْزِمةٌ لإثباتِ الأدِلَّةِ السَّمعيَّةِ[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فيه طَرَفٌ مِن الإعجازِ بالإخبارِ عن الغَيبِ؛ إذ أخبَرَ بالوَعدِ بحُصولِ النَّصرِ له تعالى ولدِينِه، وذلك بما يسَّرَ اللهُ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولخُلَفائِه مِن بَعدِه في آفاقِ الدُّنيا والمَشرِقِ والمَغرِبِ عامَّةً، وفي باحةِ العَرَبِ خاصَّةً- مِن الفُتوحِ وثَباتِها وانطِباعِ الأُمَمِ بها ما لم تَتيسَّرْ أمثالُها لأحَدٍ مِن مُلوكِ الأرضِ والقياصِرةِ والأكاسِرةِ، على قِلَّةِ المُسلِمينَ إنْ نُسِبَ عَدَدُهم إلى عَدَدِ الأُمَمِ الَّتي فَتَحوا آفاقَها بنَشرِ دَعوةِ الإسلامِ في أقطارِ الأرضِ، والتَّاريخُ شاهِدٌ بأنَّ ما تهَيَّأَ لِلمُسلِمينَ مِن عَجائِبِ الانتِشارِ والسُّلطانِ على الأُمَمِ أمْرٌ خارِقٌ لِلعادةِ، فيَتبَيَّنُ أنَّ دِينَ الإسلامِ هو الحَقُّ، وأنَّ المُسلِمينَ كُلَّما تَمَسَّكوا بعُرَى الإسلامِ لَقُوا مِن نَصرِ اللهِ أمْرًا عَجيبًا، يَشهَدُ بذلك السَّابِقُ واللَّاحِقُ، وقد تَحدَّاهمُ اللهُ بذلك في قَولِه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٤١]، ثمَّ قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2] [الرعد: ٤٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أنَّ الإنسانَ ناقِصُ العِلمِ نقصًا عظيمًا؛

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ١٢)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٧٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨، ١٩).

وجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى يُريه آياتِه في نفْسِه، فالإنسانُ غيرُ عالِمٍ بنَفْسِه إلَّا إذا عَلَّمه اللهُ، ولذلك النَّفْسُ الَّتي هي مادَّةُ الحياةِ لا نَعْرِفُها[1]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ [فصلت: ٤١]، إلى قَولِه: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥]؛ فهذا انتِقالٌ إلى المُجادَلة في شَأنِ القُرآنِ رَجَع به إلى الغَرَضِ الأصليِّ مِن هذه السُّورةِ، وهو بَيانُ حَقِّيَّةِ القُرآنِ وصِدقِه وصِدقِ مَن جاءَ به، وهذا استِدعاءٌ لِيُعمِلوا النَّظَرَ في دَلائِلِ صِدقِ القُرآنِ، مِثلَ إعجازِه وانتِساقِه، وتَأييدِ بَعضِه بَعضًا، وكَونِه مُؤَيِّدًا لِلكُتُبِ قَبْلَه، وكَونِ تلك الكُتُبِ مُؤَيِّدةً له، والمَعنى: ما أنتم عليه مِن إنكارِ صِدقِ القُرآنِ ليس صادِرًا عن نَظَرٍ وتَمحيصٍ يُحَصِّلُ اليَقينَ، وإنَّما جازَفتُم به قبْلَ النَّظَرِ، فلو تَأمَّلتُم لاحتَمَلَ أنْ يُنتِجَ لكمُ التَّأمُّلُ أنَّه من عِندِ اللهِ، وألَّا يَكونَ مِن عِندِه، فإذا فُرِضَ الاحتِمالُ الأوَّلُ فقد أقحَمتُم أنفُسَكم في شِقاقٍ قَويٍّ. وهذا مِنَ الكَلامِ المُنصِفِ، واقتُصِرَ فيه على ذِكرِ الحالةِ المُنطَبِقةِ على صِفاتِهم؛ تَعريضًا بأنَّ ذلك هو الطَّرَفُ الرَّاجِحُ في هذا الإجمالِ، كأنَّه يَقولُ: كما أنَّكم قَضَيتُم بأنَّه ليس مِن عِندِ اللهِ، وليس ذلك مَعلومًا بالضَّرورةِ، فكَذلك كَونُه مِن عِندِ اللهِ، فتَعالَوْا فتَأمَّلوا في الدَّلائِلِ، فهُمْ لَمَّا أنكَروا أنْ يَكونَ مِن عِندِ اللهِ، وصَدُّوا أنْفُسَهم وعامَّتَهم عن الاستِماعِ إليه والتَّدَبُّرِ فيه؛ فقد أعمَلوا شَهواتِ أنْفُسِهم، وأهمَلوا الأخْذَ بالحَيطةِ لهم أنْ يَتدَبَّروه؛ حتَّى يَكونوا على بَيِّنةٍ من أمْرِهم في شأنِه، وهم إذا تَدَبَّروه لا يَلبَثونَ أنْ يَعلَموا صِدقَه، فاستَدعاهمُ اللهُ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٩).

النَّظَرِ بطَريقِ تَجويزِ أنْ يَكونَ مِن عِندِ اللهِ؛ فإنَّه إذا جازَ ذلك وكانوا قد كَفَروا به دُونَ تَأمُّلٍ، كانوا قد قَضَوْا على أنْفُسِهم بالضَّلالِ الشَّديدِ، وإذا كانوا كذلك فقد حَقَّتْ عليهم كَلِماتُ الوَعيدِ(١).

- قولُه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ (إنْ) الشَّرطيَّةُ شَأنُها أنْ تَدخُلَ على الشَّرطِ المَشكوكِ فيه، وهي هنا لإبرازِ الأمْرِ في صُورةِ الاحتِمالِ، أيْ: قُلْ: أرَأيتُم إن كان القُرآنُ مِن عِندِ اللهِ؟ وهو مِن عِندِ اللهِ بلا شَكٍّ، فالإتيانُ بها تَنَزُّلٌ معهم في الخِطابِ، وإرخاءٌ لِلعِنانِ معهم؛ لاستِنزالِ طائِرِ إنكارِهم، حتَّى يُقبِلوا على التَّأمُّلِ في دَلائِلِ صِدقِ القُرآنِ(٢).

- ويُشبِهُ أنْ يَكونَ المَقصودُ بهذا الخِطابِ والتَّشكيكِ أوَّلًا دَهماءَ المُشرِكينَ الَّذين لم يَنظُروا في دَلالةِ القُرآنِ، أو لم يُطيلوا النَّظَرَ، ولم يَبلُغوا به حَدَّ الاستِدلالِ، وأمَّا قادَتُهم وكُبَراؤُهم وأهلُ العُقولِ منهم، فهمْ يَعلَمونَ أنَّه من عِندِ اللهِ، ولكِنَّهم غَلَبَ عليهم حُبُّ الرِّئاسةِ، على أنَّهم مُتَفاوِتونَ في هذا العِلْمِ إلى أنْ يَبلُغَ بَعضُهم إلى حَدٍّ قَريبٍ مِن حالةِ الدَّهماءِ، ولكِنَّ القُرآنَ ألقَى بيْنَهم هذا التَّشكيكَ؛ تَغليبًا ومُراعاةً لِاختِلافِ دَرَجاتِ المُعانِدينَ، ومُجاراةً لهم في ادِّعائِهم أنَّهم لم يَهتَدوا، نَظَرًا لِقَولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾(٣) [فصلت: ٥].

- و(ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ كَفَرۡتُم﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لِأنَّ الكُفرَ بما هو مِن عِندِ اللهِ أمْرُه أخطَرُ مِن كَونِ القُرآنِ مِن عِندِ اللهِ(٤). وقيل: دلَّتْ «ثُمَّ» -وهي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦، ١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧).

للتَّرتيبِ والتَّراخي- على أنَّ كُفْرَهم كان بعدَ أنْ تَبيَّنَ الأمرُ، ممَّا يدُلُّ على أنَّ الكفرَ بعدَ التَّبيُّنِ أشَدُّ قُبْحًا مِن الكفرِ مع الجهلِ[١].

- وفي قولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ...﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَه هنا بحَرفِ ﴿ثُمَّ﴾، وقالَه في سُورةِ (الأحقافِ): ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠] بالواوِ؛ لِأنَّ مَعناها هنا: كان عاقبةُ أمْرِكم بَعدَ الإمهالِ لِلنَّظَرِ والتَّدبُّرِ الكُفرَ؛ فناسَبَ ذِكرُ ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ، وفي (الأحقافِ) لم يُنظَرْ إلى تَرتيبِ كُفرِهم على ما ذُكِرَ، بل عُطِفَ على ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ [الأحقاف: ١٠] بالواوِ، فناسَبَ ذِكرُها؛ لِدَلالَتِها على مُطلَقِ الجَمعِ[٢].

- و(مَن) الأُولى في قولِه: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ لِلاستِفهامِ، وهو مُستَعمَلٌ في مَعنى النَّفيِ، أيْ: لا أضَلُّ مِمَّن هو في شِقاقٍ بَعيدٍ إذا تَحقَّقَ الشَّرطُ. و(مَن) الثَّانيةُ مَوصولةٌ، وماصدَقُها[٣] المُخاطَبونَ بقَولِه: ﴿كَفَرْتُم بِهِۦ﴾؛ فعَدَلَ عن الإضمارِ فلم يَقُلْ: (مَنْ أَضَلُّ مِنكم) إلى طَريقِ المَوصولِ ﴿مِمَّنْ﴾؛ بَيانًا وشَرحًا لِحالِهم وصِفَتِهم، ولِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن تَعليلٍ؛ لِمَزيدِ ضَلالِهم، وأنَّهم أضَلُّ الضَّالِّينَ بكَونِهم شَديدي الشِّقاقِ، وذلك كِنايةٌ عن كَونِهم أشَدَّ الخَلقِ عُقوبةً؛ لِمَا هو مَعلومٌ مِن أنَّ الضَّلالَ سَبَبٌ لِلخُسرانِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٧).

(٣) تقدَّم تعريف الماصَدَق (ص: ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧).

- قولُه: ﴿مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ فيه وُقوعُ الاستِفهامِ مَوقعَ النَّفيِ، وفائدتُه: أنَّه إذا كان بصِيغةِ الاستفهامِ كان مُشْرَبًا بالتَّحدِّي؛ فقولُه: ﴿مَنۡ أَضَلُّ﴾ أبلَغُ مِن قولِه: (لا أَضَلُّ)؛ ففيه بَيانُ بلاغةِ القرآنِ التَّامَّةِ؛ حيثُ يَختارُ في كلِّ تَركيبٍ ما يُناسِبُ الحالَ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ مِن الاحتباكِ[2]، حيثُ ذُكِرَ الكُفرُ أوَّلًا دليلًا على الإيمانِ ثانيًا، وذُكِرَ الضَّلالُ ثانيًا دَليلًا على الهُدى أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّ ذِكرَ المَضارِّ أصْدَعُ للقلْبِ؛ فهو أنفَعُ في الوعْظِ[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ وَعَدَ اللهُ تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على سَبيلِ التَّسليةِ والبِشارةِ بأنَّ اللهَ سَيَغمُرُ المُشركينَ بطائفةٍ مِن آياتِه ما يَتبيَّنونَ به أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ حَقًّا؛ فلا يَسَعُهم إلَّا الإيمانُ به، وفي هذا الوَعدِ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَعريضٌ بهم؛ إذْ يَسمَعونَه، على طَريقةِ: فاسمَعي يا جارةُ؛ فمَوقِعُ هذه الجُملةِ بصَريحِها وتَعريضِها مِنَ الجُملةِ الَّتي قَبْلَها مَوقِعُ التَّعليلِ لِأمْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَقولَ لهم ما أُمِرَ به، والتَّعليلُ راجِعٌ إلى إحالَتِهم على تَشكيكِهم في مَوقِفِهم لِلطَّعنِ في القُرآنِ[4].

- وعَطفُ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ قيل: يَجوزُ أنْ يَكونَ مِن عَطفِ الخاصِّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٠).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨).

العامِّ، أيْ: وفي أُفْقِ أنْفُسِهم، أيْ: مَكَّةَ وما حَوْلَها، على حَذفِ مُضافٍ[(١)].

- وقد سُكِتَ عمَّا يَترَتَّبُ على ظُهورِ الآياتِ في الآفاقِ وفي أنْفُسِهم، المُبيِّنةِ أنَّ القُرآنَ حَقٌّ؛ لِأنَّ ما قَبْلَه مِن قَولِه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٥٢] يُنبِئُ عن تَقديرِه، أيْ: لا يَسَعُهم إلَّا الإيمانُ بأنَّه حَقٌّ، فمَن كانَ منهم شاكًّا مِن قَبْلُ عن قِلَّةِ تَبَصُّرٍ، حَصَل له العِلْمُ بَعدَ ذلك، ومَن كانَ إنَّما يَكفُرُ عِنادًا واحتِفاظًا بالسِّيادةِ، افتَضَحَ بُهتانُه، وسَفَّهَه جيرانُه، وكِلاهما قد فَوَّتَ بتَأخيرِ الإيمانِ خَيرًا عَظيمًا مِن خَيرِ الآخِرةِ بما أضاعَه مِن تَزَوُّدِ ثَوابٍ في مُدَّةِ كُفرِه، ومِن خَيرِ الدُّنيا بما فاتَه مِن شَرَفِ السَّبقِ بالإيمانِ والهِجرةِ، كما قال تَعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[(٢)] [الحديد: ١٠].

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ استِئنافٌ وارِدٌ لِتَوبيخِهم على تَرَدُّدِهم في شَأنِ القُرآنِ، وعِنادِهم المُحوِجِ إلى إراءةِ الآياتِ، وعَدَمِ اكتِفائِهم بإخبارِه تعالَى[(٣)].

- والهمزةُ في ﴿أَوَلَمۡ﴾ للإنكارِ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: ألَمْ يُغْنِ ولم يَكْفِ ربُّك. والباءُ في ﴿بِرَبِّكَ﴾ مَزيدةٌ للتَّأكيدِ[(٤)].

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ عطْفٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إعلامِ الرَّسولِ بما سَيَظهَرُ مِن دَلائلِ صِدقِ القُرآنِ وصِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ زِيادةً لِتَثبيتِ الرَّسولِ، وشَرحِ صَدرِه بأنَّ اللهَ تكَفَّلَ له بظُهورِ دينِه، ووُضوحِ صِدقِه في سائِرِ أقطارِ الأرضِ، على طَريقةِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ التَّقريريِّ؛ تَحقيقًا لِتَيَقُّنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بكَفالةِ رَبِّه، بحيث كانت مِمَّا يُقَرَّرُ عليها كِنايةً عن اليَقينِ بها؛ فالاستِفهامُ تَقريريٌّ. وهنالك وَجهٌ آخَرُ: أنْ يَكونَ مَساقُها مَساقَ تَلقينِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَستَشهِدَ باللهِ على أنَّ القُرآنَ من عِندِ اللهِ؛ فيَكونَ مَوقِعُها مَوقِعَ القَسَمِ بإشهادِ اللهِ، وهو قَسَمٌ غَليظٌ فيه مَعنى نِسبةِ المُقسَمِ عليه إلى أنَّه مِمَّا يَشهَدُ اللهُ به؛ فيَكونَ الاستِفهامُ إنكاريًّا إنكارًا لِعَدَمِ الاكتِفاءِ بالقَسَمِ باللهِ، وهو كِنايةٌ عن القَسَمِ، وعن عَدَمِ تَصديقِهم بالقَسَمِ، وليس مَعنى الآيةِ إنكارًا على المُشركينَ أنَّهم لم يَكتَفوا بشَهادةِ اللهِ على صِدقِ القُرآنِ ولا على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِأنَّهم غَيرُ مُعتَرِفينَ بأنَّ اللهَ شَهِدَ بذلك، فلا يَظهَرُ تَوَجُّهُ الإنكارِ إليهم[1].

- قولُه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ دَلَّ هذا اللَّفظُ المُوجَزُ على مَعانٍ مَبسوطةٍ، وذلك مِن مُقتَضى المَقامِ، والعُدولِ مِنَ الظَّاهِرِ؛ فإنَّ أصْلَ المَعنى: سَنُريهم هذه الآياتِ إظهارًا لِلحَقِّ، وكَفى به دَليلًا على ذلك، وإنَّما أدخَلَ هَمزةَ التَّقريرِ على جُملةِ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ﴾ لِمَزيدِ تَقريرِ حُصولِ المَوعودِ، وأنَّ هذه الآياتِ كافيةٌ في المَطلوبِ، لا مَزيدَ عليها. ووُضِعَ المُظهَرُ في قَولِه: ﴿بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مَوضِعَ ضَميرِ الآياتِ؛ لِلإشعارِ بالعِلِّيَّةِ، وأنَّ هذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠، ٢١).

الآياتِ إنَّما صَلَحَتْ لِلدَّليلِ على حَقِّيَّةِ المَطلوبِ؛ لِأنَّ مُنشِئَها مَن هو على كُلِّ شَيءٍ مُهَيمِنٌ مُطَّلِعٌ، وأُبدِلَ ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ من ﴿بِرَبِّكَ﴾؛ بَيانًا وتَفسيرًا وإيذانًا بأنَّ هذا الوَصفَ مُتَعَيِّنٌ له، وشاهِدٌ بأنَّ الرَّبَّ هو الَّذي يَكونُ على كُلِّ شَيءٍ شَهيدًا. وأمَّا اختِصاصُ الضَّميرِ في ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ بالقُرآنِ، فمِن حيثُ المَقامُ؛ لِأنَّ هذه السُّورةَ الكَريمةَ نازِلةٌ في بَيانِ عَظَمةِ القُرآنِ المَجيدِ، والرَّدِّ على مُنكِريه ومُعانِديه، فكُلُّ ما جُعِل ذِكرُه مَشروعًا لِمَعنًى أتَى بما يُناسِبُه مِنَ المَعاني، فكان قَولُه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ [فصلت: ٥٢] كَلامًا على سَبيلِ إرخاءِ العِنانِ كالخاتِمةِ لِهذه المَعاني؛ فجِيءَ بقَولِه: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ ...﴾ الآيةَ مُسَلِّيًا لِحَبيبِه صَلَواتُ اللهِ عليه، ووَعدًا لِإظهارِ كَلِمَتِه، وقَهرِ أعدائِه، وسُلِكَ فيه مَسلَكُ الدَّليلِ والبُرهانِ؛ لِيَظهَرَ لِلمُوافِقِ والمُخالِفِ حَقِّيَّتُه، وأُدمِجَ في الكَلامِ مَعنى الإخبارِ بالغَيبِ بذِكرِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؛ لِيَكونَ كالشَّاهِدِ على أنَّها بنَفْسِها آيةٌ مُستَقِلَّةٌ من حيثُ إنَّها مُخبِرةٌ عنِ الغَيبِ(١).

- قولُه: ﴿سَنُرِيهِمۡ﴾ صُدِّرَتْ بالسِّينِ الدَّالَّةِ على التَّحقُّقِ والقُرْبِ؛ فدلَّ على أنَّ هذه الإراءةَ قريبةٌ مُحقَّقةٌ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾

- قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ المريةُ هي الشَّكُّ، وأُطلِقَ الشَّكُّ على جَزمِهم بعَدَمِ وُقوعِ البَعثِ؛ لِأنَّ جَزمَهم خَليٌّ عن الدَّليلِ الَّذي يَقتَضيه؛ فكان إطلاقُ الشَّكِّ عليه تَعريضًا بهم بأنَّ الأَوْلَى بهم أنْ يَكونوا في شَكٍّ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٩).

على الأَقَلِّ[١].

- وحَرْفُ الظَّرفيَّةِ (في) مُعبَّرٌ به عن تَمكُّنِ الشَّكِّ بهم، حتَّى كأنَّهم مَظْرُوفون فيه، و(مِن) ابتدائيَّةٌ، وتعدَّى بها أفعالُ الشَّكِّ إلى الأمْرِ المَشكوكِ فيه بتَنزيلِ مُتعلَّقِ الفِعلِ مَنزلةَ مَثارِ الفِعلِ، بتَشبيهِ المفعولِ بالمُنشَأِ، كأنَّ الشَّكَّ جاء مِن مكانٍ هو المَشكوكُ فيه. وفي تَعليقِه بذاتِ الشَّيءِ، مع أنَّ الشَّكَّ إنَّما يَتعلَّقُ بالأحكامِ؛ مُبالَغةً على طَريقةِ إسنادِ الأُمورِ إلى الأعيانِ، والمُرادُ أوصافُها؛ فتَقديرُ ﴿فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾: في مِرْيةٍ مِن وُقوعِ لِقاءِ ربِّهم وعَدَمِ وُقوعِه[٢].

- وقولُه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ تَذييلانِ لِلسُّورةِ وفَذلَكَتانِ[٣]، افتُتِحا بحَرفِ التَّنبيهِ (ألَا)؛ اهتمامًا بما تَضمَّناه، وتَنبيهًا لِلسَّامعِ على ما يُقالُ؛ فأمَّا التَّذييلُ الأوَّلُ فهو جِماعُ ما تَضمَّنَتْه السُّورةُ مِن أحوالِ المُشرِكينَ المُعانِدينَ؛ إذْ كانتْ أحوالُهمُ المَذكورةُ فيها ناشِئةً عن إنكارِهمُ البَعثَ، فكانوا في مَأمَنٍ مِنَ التَّفكيرِ فيما بَعدَ هذه الحياةِ؛ فانحَصَرتْ مَساعيهم في تَدبيرِ الحياةِ الدُّنيا، وانكَبُّوا على ما يَعودُ عليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢).

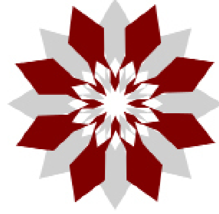
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

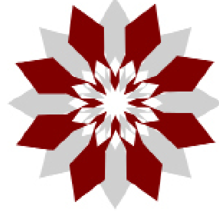
(٣) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذلكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

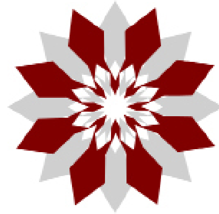
بالنَّفعِ فيها. وأمَّا التَّذييلُ الثَّاني فهو جامِعٌ لِكُلِّ ما تَضَمَّنَتْه السُّورةُ مِن إبطالٍ لِأقوالِهم، وتَقويمٍ لِاعوِجاجِهم؛ لأنَّ ذلك كُلَّه مِن آثارِ عِلْمِ اللهِ تعالَى بالغَيب والشَّهادةِ. وتَأكيدُ الجُملَتَيْنِ بحَرفِ التَّأكيدِ مع أنَّ المُخاطَبَ بهما لا يَشُكُّ في ذلك؛ لِقَصدِ الاهتِمامِ بهما، واستِدعاءِ النَّظَرِ لاستِخراجِ ما تَحويانِه مِنَ المَعاني والجُزئيَّاتِ، وبهاتَيْنِ الفَذلَكَتَيْنِ آذَنَ بانتِهاءِ الكَلامِ؛ فكان مِن بَراعةِ الخِتامِ[1].



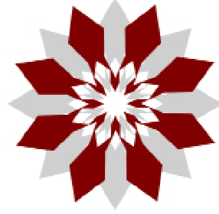
(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١).

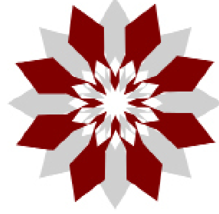


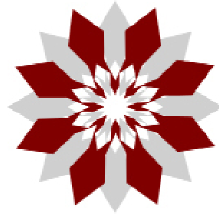




تَفْسِيرُ
سُورَةِ الشُّورى







سورة الشُّورى

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ:

١- الشُّورى(١).

٢- ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾(٢).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الشُّورى مَكِّيَّةٌ(٣)، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك(٤).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

١- بيانُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه(٥).

---

(١) لم يَرِدْ في ذلك نَصٌّ صَريحٌ، وإنَّما اشتَهَرَت بهذا الاسمِ؛ وسُمِّيَت بذلك لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٨).

(٢) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٨).

(٣) وقيل: إلَّا أربعَ آياتٍ منها نزَلَت بالمدينةِ؛ قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾ [الشورى: ٢٣] إلى آخِرِ الآياتِ الأربعِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٨).

قال ابن عثيمين: (الأصلُ أنَّ السُّورةَ المكِّيَّةَ مَكِّيَّةٌ بجَميعِ آياتِها، وأنَّ السُّورةَ المَدَنيَّةَ مَدَنيَّةٌ بجَميعِ آياتِها... فالأصلُ أنَّ هذه السُّورةَ مَكِّيَّةٌ بجميعِ آياتِها حتَّى يقومَ دَليلٌ واضِحٌ على أنَّ هذه الآياتِ [أي: الأربعَ المُستثناةَ]... مَدَنيَّةٌ. ثمَّ اعلَمْ أنَّ جميعَ السُّوَرِ المَبدوءةِ بالحُروفِ الهِجائيَّةِ مَكِّيَّةٌ إلَّا سورتينِ؛ هما: البَقَرةُ وآلُ عِمرانَ، والباقي كُلُّه مَكِّيٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٠).

(٤) ممَّن حكى الإجماعَ: الفيروزابادي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) (١/ ٤١٨).

وقال ابن عطيَّةَ: (هذه السُّورةُ مَكِّيَّةٌ بإجماعٍ مِن أكثَرِ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٩).

٢- إثباتُ كَونِ القُرآنِ وحيًا مِنَ اللهِ تعالى إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلت عليها السُّورةُ:

١- بيانُ أنَّ القُرآنَ وَحيٌ مِنَ اللهِ تعالى، وأنَّه أوحاه إلى نَبيِّه كما أوحَى إلى غَيرِه مِن الأنبياءِ.

٢- الحَديثُ عن بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى وسَعةِ مُلكِه، وأنَّه تعالى قادِرٌ على أن يَجعَلَ النَّاسَ أمَّةً واحِدةً.

٣- الإنكارُ على المُشرِكينَ، وسَوقُ بَعضِ الأدِلَّةِ على بُطلانِ شِرْكِهم.

٤- الأمرُ بالرُّجوعِ إلى حُكمِ اللهِ تعالى عندَ الاختِلافِ.

٥- تقريرُ وَحدةِ الرِّسالةِ، وأنَّ التَّفَرُّقَ الَّذي قد وقَعَ بيْنَ النَّاسِ يَرجِعُ إلى البَغيِ واتِّباعِ الأهواءِ.

٦- أمرُ اللهِ لِرَسولِه بالدَّعوةِ والاستِقامةِ، وإبطالُ حُجَجِ المعانِدينَ، وتوعُّدُهم بالوَعيدِ الشَّديدِ.

٧- ذِكرُ اقتِرابِ السَّاعةِ، ومَوقِفِ الكُفَّارِ والمؤمِنينَ منها في الدُّنيا، وحالِ كُلٍّ منهما يومَ القيامةِ.

٨- ذِكرُ شُبهةِ أنَّ الرَّسولَ افترَى على الله الكَذِبَ، مع الرَّدِّ عليها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٩).

قال الفيروزابادي: (مُعظَمُ مَقصودِ السُّورةِ: بيانُ حُجَّةِ التَّوحيدِ، وتقريرُ نُبوَّةِ الرَّسولِ، وتأكيدُ شَريعةِ الإسلامِ). ((بصائر ذوي التمييز)) (١/ ٤١٨).

٩- ذِكرُ بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ الله تعالى ونِعَمِه على الخَلقِ، وأنَّه يَقبَلُ تَوبةَ التَّائِبينَ، ويَعفو عن سيِّئاتِهم، وأنَّه يُنَزِّلُ الغَيثَ عليهم، وأنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما فيهما مِن دَوابَّ، وأنَّه قادِرٌ على جَمْعِهم، وأنَّ مِن آياتِه السُّفُنَ الجاريةَ في البَحرِ.

١٠- بيانُ بَعضِ صِفاتِ المُؤمِنينَ الصَّادِقينَ.

١١- بيانُ الأحوالِ السَّيِّئةِ الَّتي سيكونُ عليها الظَّالِمونَ يومَ القيامةِ.

١٢- الأمرُ بالاستِجابةِ لله، والاستِسلامِ لحُكمِه.

١٣- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ هو مُتولِّي جزاءِ المكَذِّبين، وما على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا البلاغُ.

١٤- الكَشفُ عن طبيعةِ الإنسانِ حالَ السَّعةِ والنِّعمةِ، وحالَ الضِّيقِ والشِّدَّةِ.

١٥- ذِكرُ مِلْكِ اللهِ للسَّمواتِ والأرضِ، وقُدرتِه وهِبَتِه الأولادَ لِمَن يَشاءُ.

١٦- بيانُ كيفيَّةِ نُزولِ الوَحيِ على الأنبياءِ.

١٧- خُتِمَت السُّورةُ بامتِنانِ اللهِ على رَسولِه بالوَحيِ، وتقريرِ أنَّ مَرجعَ الأُمورِ إلى اللهِ تعالى وَحْدَه.



الآيات (١-٦)

﴿حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٣) لَهُۥ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ (٤) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ
(٥) وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ (٦)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾: أي: يَتشَقَّقْنَ ويَتصدَّعْنَ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[1].

﴿حَفِيظٌ﴾: أي: حافظٌ، ورَقيبٌ، وشاهدٌ، وأصلُ (حفظ): يدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأَتْ هذه السُّورةُ الكَريمةُ ببَعضِ الحُروفِ المُقَطَّعةِ، وقد تقدَّم الكلامُ عنها في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ (فصلت)، ثمَّ يُخبرُ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائِلًا له: مِثلَ ذلك الإيحاءِ يُوحِي إليك -يا مُحمَّدُ- وإلى الَّذين مِن قَبلِك مِنَ الأنبياءِ: اللهُ العَزيزُ الحَكيمُ، له سُبحانَه مُلْكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، وهو العَليُّ العَظيمُ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى بعضَ مظاهرِ كمالِه وجلالِه وعظَمتِه، فيقولُ: تكادُ السَّمَواتُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦، ٣٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢).

يَتشقَّقْنَ مِن فَوقِهنَّ، والملائِكةُ يُنزِّهونَ اللهَ تعالى عمَّا لا يليقُ بجَلالِه وكَمالِه، ويَسألونَ اللهَ المَغفِرةَ لذُنوبِ مَن في الأرضِ، ألَا إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الغَفورُ الرَّحيمُ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سوءَ عاقِبةِ المشركينَ، فيقولُ: والَّذين اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أَولياءَ يُطيعونَهم ويَعبُدونَهم فاللهُ شَهيدٌ ورَقيبٌ على أعمالِهم، وما أنت -يا مُحمَّدُ- بمُوكَّلٍ بحِفظِ أعمالِهم أو هِدايتِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحُروفِ المُقطَّعةِ في تَفسيرِ أوَّلِ سُورةِ (فصلت)[١].

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾.

أي: مِثلَ ذلك الإيحاءِ[٢] يُوحِي إليك -يا مُحمَّدُ- وإلى الَّذين مِن قَبلِك مِنَ

(١) قال ابنُ عثيمين: (هذه الحروفُ ذاتُها ليس لها معنًى... لكِنْ لها مغزًى يقترِنُ بالتَّحَدِّي، وهو أن يُقالَ: إنَّكم -أيُّها العَرَبُ- تُرَكِّبونَ كَلامَكم مِن هذه الحُروفِ، والقرآنُ لم يأتِ بحَرفٍ لم تتكَلَّموا به، بل كُلُّه مِن الحروفِ الَّتي تتكَلَّمون بها، وهذا مِثالُ «ح م ع س ق»، ومع هذا عجَزْتُم أن تأتوا بمِثلِه... ويدُلُّ لهذا المغزى ... أنَّك لا تجدُ سُورةً مَبدوءةً بهذه الحُروفِ إلَّا وبعدَها ذِكرُ القُرآنِ الكريمِ، أو ذِكرُ ما لا يمكِنُ إلَّا بوَحيٍ... ليس هناك إلَّا سورتانِ أو ثلاثٌ، لكِنْ في حقيقةِ الأمرِ أنَّ الَّذي يلي هذه الحروفَ لا يَتأتَّى العِلمُ به إلَّا عن طريقِ الوَحيِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١).

(٢) ممَّن اختار المعنَى المذكورَ، وأنَّ الإشارةَ تعودُ إلى الإيحاءِ: جلالُ الدِّين المحلِّي، والشوكاني، وابن عاشور، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥).

وقال ابن عاشور: (المعنى: مِثلَ هذا الوحيِ يُوحي اللهُ إليك، فالمشارُ إليه: الإيحاءُ المأخوذُ مِن فِعلِ ﴿يُوحِيٓ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦).

وقيل: الإشارةُ بـ(ذلك) تعودُ على ما تَضَمَّنه القرآنُ أو السُّورةُ. =

الأنبياءِ: اللهُ العَزيزُ ذو القَدْرِ العَظيمِ، الغالبُ القاهرُ لِمَن سِواه، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به(١).

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ سُبحانَه أنَّه صاحِبُ الوَحيِ بالشَّرائِعِ دائِمًا قَديمًا وحديثًا؛ عَلَّل ذلك بأنَّه صاحِبُ المُلْكِ العامِّ، فقال(٢):

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: لله مُلكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ؛ فكُلُّ شَيءٍ تحتَ قَهرِه وتَدبيرِه(٣).

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

= ممَّن اختار أنَّ الإشارةَ تعودُ على القرآنِ: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

قال ابن كثير: (كما أنزَل إليكَ هذا القرآنَ، كذلك أنزَل الكُتُبَ والصُّحُفَ على الأنبياءِ قَبْلَك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠).

وممَّن اختار أنَّ الإشارةَ تعودُ على السُّورةِ، وأنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي: مِثلَ ما في هذه السُّورةِ مِن المعاني: الزمخشريُّ، والرازي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧١).

قال أبو السُّعودِ: (على أنَّ مناطَ المُماثَلةِ ما أُشيرَ إليه مِن الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، والإرشادِ إلى الحَقِّ وما فيه صلاحُ العِبادِ، في المعاشِ والمَعادِ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).

وقيل في معنى الآيةِ غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤- ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١، ٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

أي: وهو العَلِيُّ على كُلِّ شَيءٍ بذاتِه وصِفاتِه وقَدْرِه وقَهْرِه؛ فلا شَيءَ أعلَى منه، ذو العَظَمةِ في ذاتِه وصِفاتِه؛ فلا شَيءَ أعظَمُ منه[١].

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان السِّياقُ مُفهِمًا عَظيمَ مُلكِه سُبحانَه وقُدرتِه، بكَثرةِ ما في الأكوانِ من الأجسامِ والمعاني الَّتي هي لِفَظاعتِها لا تُحتَمَلُ، قال مُبيِّنًا لذلك[٢]:

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾.

أي: تُوشِكُ السَّمواتُ أن يَتشَقَّقْنَ مِن فَوقِهِنَّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦-٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩، ٤٠).

قيل: المرادُ: تكادُ السَّمواتُ يَتفَطَّرْنَ؛ تَعظيمًا ومَخافةً لِمَن فَوقَهنَّ، وهو اللهُ تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٣).

وقال الثَّعلبيُّ: (﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: مِن عَظَمةِ الله وجَلاله فَوْقَهُنَّ). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٠٣). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٦).

وقيل: المرادُ: يَتشَقَّقنَ مِن فَوقِ الأرَضينَ؛ مِن عَظَمةِ الرَّحمنِ وجَلالِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ ونسَبه لجميعِ المفسِّرينَ، والسَّمْعانيُّ، وابنُ الجوزي، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٣). =

= ممَّن قال مِن السَّلفِ إنَّ المعنى: مِن عَظَمةِ الله: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ، وكعبُ الأحبارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦، ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠).

وقال البقاعي: (﴿مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ الَّذي جَرَت العادةُ أن يكونَ أصلَبَ ممَّا تحتَه؛ فانفطارُ غَيرِه مِن بابِ الأَولى، وابتداءُ الانفطارِ مِن ثَمَّ؛ لأنَّ جِهةَ الفَوقِ أجدَرُ بتجَلِّي ما يَشُقُّ حَملُه مِن عظيمِ العَظَمةِ والجَلالِ والكِبرياءِ والعِزَّةِ... أو يكونُ انفطارُهنَّ مِن عظيمِ شَناعةِ الكُفرِ بالَّذي خَلَقَ الأرضَ في يومَينِ، وجَعْلِهم له أندادًا... وهذا كنايةٌ عن التَّخويفِ بالعذابِ؛ لأنَّ مِن المعلومِ أنَّ العاليَ إذا انفطر تهيَّأَ للسُّقوطِ، فإذا سَقَط أهلَكَ مَن تحتَه، فكيف إذا كان مِن العُلُوِّ والعِظَمِ وثِقلِ الجِسمِ على صِفةٍ لا يحيطُ بها إلَّا بارِئُها؟! فذِكرُ الفَوقِ تَصويرٌ لِما يترتَّبُ على هذا الانفطارِ مِن البلايا الكِبارِ، وعلى هذا يَحسُنُ أن يعودَ الضَّميرُ على الأراضي الَّتي كَفَروا بفاطِرِها). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٤٢، ٢٤٣).

وقال ابنُ عاشور: (يُوشِكُ إنْ هُنَّ تفَطَّرْنَ أن يَخْرِرْنَ على الأرضِ، أي: يَكادُ يَقَعُ ذلك؛ لِما فشا في الأرضِ مِن إشراكٍ وفَسادٍ، على معنى قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا * لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٠]، ويُرَجِّحُه قَولُه الآتي: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الشورى: ٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠).

وقيل: المعنى: كُلُّ واحدةٍ منها تتفَطَّرُ فوقَ الَّتي تليها؛ بسَبَبِ قَولِ المُشركينَ: اتَّخَذ اللهُ ولَدًا. وممَّن ذهب إليه: الواحديُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٠٣).

قال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّ سببَ مُقارَبةِ السَّمواتِ لِلتَّفطُّرِ في هذه الآيةِ الكريمةِ فيه للعلماءِ وجْهانِ، كِلاهما يدُلُّ له قرآنٌ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ المعنى: تَكادُ السَّمواتُ يَتفطَّرْنَ خَوفًا مِن اللهِ، وهَيْبةً وإجلالًا، ويدُلُّ لهذا الوجهِ قولُه تعالى قبْلَه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]؛ لأنَّ عُلُوَّه وعَظَمتَه سبَّبَ للسَّمواتِ ذلك الخَوفَ والهَيبةَ والإجلالَ، حتَّى كادتْ تَتفطَّرُ. وعلى هذا الوجهِ فقولُه بعدَه: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مُناسَبتُه لِما قبْلَه واضحةٌ؛ لأنَّ المعنى: أنَّ السَّمواتِ في غايةِ الخَوفِ منه تعالى والهَيبةِ والإجلالِ له، وكذلك سُكَّانُها مِن الملائكةِ، فهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: يُنَزِّهونه عن كلِّ ما لا يَليقُ بكمالِه =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٢].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: والمَلائِكةُ يُنَزِّهونَ اللهَ تعالى عمَّا لا يَليقُ به مِنَ النَّقائِصِ، ويَصِفونَه بصِفاتِ الكَمالِ؛ مَحبَّةً له وتَعظيمًا[1].

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: ويَسألونَ اللهَ المَغفِرةَ لذُنوبِ مَن في الأرضِ مِنَ المُؤمِنينَ[2].

= وجَلالِه، مع إثباتِهم له كلَّ كمالٍ وجلالٍ؛ خَوفًا منه وهَيبةً وإجلالًا، كما قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠]. فهُم لِشدَّةِ خَوفِهم مِنَ اللهِ وإجلالِهم له يُسَبِّحون بحمدِ ربِّهم، ويَخافون على أهلِ الأرضِ؛ ولذا يَستغفِرون لهم خَوفًا عليهم مِن سخطِ اللهِ وعِقابِه...

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المعنى: تَكادُ السَّمواتُ يَتفطَّرْنَ مِن شِدَّةِ عِظَمِ الفِريةِ الَّتي افتراها الكفَّارُ على خالقِ السَّمواتِ والأرضِ جلَّ وعلا، مِن كَونِه اتَّخذ ولَدًا سبحانه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا!

وهذا الوجهُ جاء موضَّحًا في سورةِ «مريَم» في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣]... وكِلا الوجهَين حقٌّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (٣٨-٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: ((الملائكةُ تُصَلِّي على أحَدِكُم ما دام في مُصلَّاه الذي صلَّى فيه، ما لم يُحدِثْ، تقولُ: اللَّهُمَّ اغفِرْ له، اللَّهُمَّ ارحَمْه))[(١)].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: ألَا إنَّ اللهَ وَحْدَه هو البالِغُ المَغفرةِ لِذُنوبِ عِبادِه، العَظيمُ الرَّحمةِ بهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: وأمَّا الَّذين اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ يَتوَلَّونَهم بالعِبادةِ والطَّاعةِ، فاللهُ شَهيدٌ ورَقيبٌ على أعمالِهم يُحْصيها عليهم؛ لِيُجازيَهم بها يومَ القيامةِ[(٣)].

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾.

أي: وما أنت -يا مُحمَّدُ- بمُوكَّلٍ بحِفظِ أعمالِهم، أو بقَسْرِهم على الهِدايةِ،

---

(١) رواه البخاري (٤٤٥) واللفظ له، ومسلم (٦٤٩) (١/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٨، ٤٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢ - ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٤٩، ٥٠).

وإنَّما عليك إنذارُهم وتَبليغُهم، وعلى الله حِسابُهم[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فإذا آمَن العبدُ أنَّ الله حكيمٌ في شرعِه، حكيمٌ في خَلقِه، فإنَّه لا يبقَى لديه شكٌّ في أنَّ ما شرَعه خيرٌ، وما قدَّره خيرٌ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أنَّنا إذا عَلِمْنا أنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ؛ فجديرٌ بنا أنْ نسألَه المغفرةَ والرَّحمةَ؛ لأنَّه أهلٌ لذلك، فيكونُ في هذا تربيةٌ للإنسانِ وسلوكِه في وُصولِه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بأنْ يَعلَمَ بأنَّه غفورٌ فيَستغفِرَ؛ وأنَّه رحيمٌ فيَسترحِمَ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تسليةُ الدُّعاةِ إلى اللهِ إذا لم يُطِعْهم النَّاسُ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾ لم تُوصَلِ الميمُ بالعَينِ كما وُصِلَتِ الميمُ بالرَّاءِ في طالعةِ سُورةِ (الرَّعْدِ) ﴿الٓمٓر﴾، وكما وُصِلَتِ الميمُ بالصَّادِ في مُفتتَحِ سُورةِ (الأعرافِ) ﴿الٓمٓصٓ﴾، وكما وُصِلَتِ العَينُ والصَّادُ بما قبْلَهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١).

في مُفتتَحِ سُورةِ (مريمَ) ﴿كٓهيعٓصٓ﴾؛ لأنَّ ما بعْدَ الميمِ في سورةِ (الرَّعدِ) وسورةِ (الأعرافِ) حرْفٌ واحدٌ، وما بعدَ الحرفِ الثَّالثِ في سورةِ (مريمَ) حَرفانِ، فاتِّصالُه بما قبْلَه أَولى، بخِلافِ ما في هذه السُّورةِ؛ فإنَّه ثلاثةُ حُروفٍ تُشبِهُ كلمةً، فكانتْ أَولى بالانفصالِ[(١)]. وقيل: لأنَّها سورةٌ أوائلُها «حم»، فجرَتْ مَجرى نظائرِها، فكان «حم» مُبتدَأً و«عسق» خبرَه، ولأنَّهما عُدَّا آيتَينِ، وأخَواتُها مِثلُ: «كهيعص» و«المص» و«المر» عُدَّتْ آيةً واحدةً. وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيه بَيانُ فَضلِه تعالى بإنزالِ الكُتُبِ وإرسالِ الرُّسُلِ سابقًا ولاحِقًا، وأنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس ببِدْعٍ مِنَ الرُّسُلِ، وأنَّ طَريقتَه طَريقةُ مَن قَبْلَه، وأحوالَه تُناسِبُ أحوالَ مَن قبْلَه مِن المُرسَلينَ، وما جاء به يُشابِهُ ما جاؤوا به؛ لأنَّ الجَميعَ حَقٌّ وصِدقٌ[(٣)].

٣- قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كمالُ عِزَّتِه وكمالُ حكمتِه؛ لأنَّ اللهَ قَرَن بيْنَ العزيزِ والحكيمِ؛ إشارةً إلى أنَّ عِزَّتَه وغَلَبَتَه مَبنيَّةٌ على الحكمةِ، فعِزَّةُ المخلوقِ قد تُوجِبُ أنْ يَتصرَّفَ تصرُّفًا سفيهًا، كما في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، فهنا صار له عِزَّةٌ لكنَّها لم تَنْفَعْه؛ لأنَّها ليست مَقرونةً بالحكمةِ، كذلك أيضًا حكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ مقرونةٌ بعِزَّتِه؛ لأنَّ الحكيمَ قد يكونُ خَوَّارًا ليس عندَه غلَبةٌ؛ فيَفوتُه شَيءٌ كثيرٌ، ويَفوتُه الحَزْمُ مِن أجْلِ أنَّه يقولُ: إنَّ ذلك هو الحكمةُ! لكنَّ حكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ مقرونةٌ بعِزَّتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).

ولهذا نحن نستفيدُ الآنَ مِن قَرْنِ الأسماءِ بعضِها ببعضٍ معنًى زائدًا على ما نستفيدُه مِن مجرَّدِ الاسمِ(١).

٤- قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أنَّ الشَّرائعَ الَّتي أُوحِيَت إلى الرُّسُلِ عِزَّةٌ وحِكمةٌ؛ قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، فمَن تَمسَّكَ بهذه الشَّرائعِ نال الأمْرَينِ جَميعًا وهما مجتَمِعانِ: العِزَّةُ والحِكمةُ، والحُكمُ أيضًا(٢).

٥- قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ اسْتِقْراءُ القرآنِ قد دَلَّ على أنَّ اللهَ -جَلَّ وعَلا- إذا ذَكَر تَنْزيلَه لِكِتابِه أَتْبَع ذلك بعضَ أسمائِه الحسنَى وصِفاتِه العُلْيا(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ أنَّ العُلُوَّ صِفةٌ لازِمةٌ ليست مِن صِفاتِ الأفعالِ الَّتي إنْ شاء فَعَلها وإنْ شاء لم يَفعَلْها. وَجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ العَلِيَّ صِفةٌ مُشبَّهةٌ(٤)، والصِّفةُ المُشبَّهةُ تُفيدُ الثُّبوتَ، وعدَمَ التَّحوُّلِ(٥).

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ فيه التَّصريحُ بالعُلُوِّ المُطلَقِ الدَّالِّ على جَميعِ مَراتِبِ العُلُوِّ؛ ذاتًا وقَدْرًا وشَرَفًا(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨).

(٤) الصِّفةُ المُشَبَّهةُ: ما اشتُقَّ مِن فِعلٍ لازِمٍ لِمَن قام به على معنى الثُّبوتِ. يُنظر: ((الكافية في علم النحو)) للإسنوي (ص: ٤١)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢).

(٦) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٣٠١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ بيانُ عَظَمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وأنَّ هذه السَّمواتِ -على شِدَّتِها وقُوَّتِها- تَكادُ تَتَفطَّرُ مِن عظَمةِ اللهِ تعالى، وهذا كقولِه لَمَّا سأل موسَى أنْ يرَى ربَّه، قال: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، بل إنَّ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ -وهو كلامُه- لو نزَل على جبلٍ ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ففي هذه الآيةِ: بيانُ عظَمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

٩- قولُه تعالى: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ فيه بيانُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ الذَّاتيِّ، ، فلم يقُلْ: (مِن أسفلُ)؛ لأنَّ اللهَ سبحانَه فوقُ، والسَّمواتُ تَكادُ تَنفطِرْنَ مِن فَوقِهنَّ مِن عظَمتِه[٢]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٠- قولُه تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ فيه فَضيلةُ الجَمعِ بيْنَ التَّسبيحِ والتَّحميدِ، وقد ثَبَتَ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قَولُه: ((كَلِمتانِ حَبيبتانِ إلى الرَّحمنِ، خَفيفتانِ على اللِّسانِ، ثَقيلتانِ في الميزانِ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه، سُبحانَ اللهِ العَظيمِ))[٣].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ التَّسبيحُ مُقَدَّمٌ على التَّحميدِ؛ لأنَّ التَّسبيحَ عِبارةٌ عن تنزيهِ اللهِ تعالى عمَّا لا يَنبغي، والتَّحميدَ عِبارةٌ عن وَصفِه بكَونِه مُفيضًا لكُلِّ الخَيراتِ. وكَونُه مُنزَّهًا في ذاتِه عمَّا لا يَنبغي مُقدَّمٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٦).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٧٥٦٣) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

بالرُّتبةِ على كَونِه فيَّاضًا للخَيراتِ والسَّعاداتِ؛ لأنَّ وُجودَ الشَّيءِ مُقَدَّمٌ على إيجادِ غَيرِه، وحُصولَه في نَفْسِه مُقَدَّمٌ على تأثيرِه في حُصولِ غَيرِه؛ فلهذا السَّبَبِ كان التَّسبيحُ مُقَدَّمًا على التَّحميدِ[1].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَصِحُّ أن يَستغفِروا لِمَن في الأرضِ وفيهم الكُفَّارُ، وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ١٦١]، فكيف يكونونَ لاعِنينَ ومُستغفِرينَ لهم؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه ﴿لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يُفيدُ العُمومَ؛ لأنَّه يَصِحُّ أن يُقالَ: إنَّهم استَغفَروا لكُلِّ مَن في الأرضِ، وأن يُقالَ: إنَّهم استَغفَروا لِبَعضِ مَن في الأرضِ دونَ البَعضِ، ولو كان قَولُه: ﴿لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صريحًا في العُمومِ لَما صَحَّ ذلك التَّقسيمُ.

الوَجهُ الثَّاني: هَبْ أنَّ هذا النَّصَّ يُفيدُ العُمومَ، إلَّا أنَّه تعالى حكى عن الملائِكةِ في سورةِ (غافرٍ) فقال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

الوَجهُ الثَّالثُ: يجوزُ أن يكونَ المرادُ مِنَ الاستِغفارِ ألَّا يُعاجِلَهم بالعِقابِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] إلى أن قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

الوَجهُ الرَّابعُ: يجوزُ أن يُقالَ: إنَّهم يَستَغفِرونَ لكُلِّ مَن في الأرضِ، أمَّا في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٨).

حَقِّ الكُفَّارِ فبِواسِطةِ طَلَبِ الإيمانِ لهم، وأمَّا في حَقِّ المؤمِنينَ فبالتَّجاوُزِ عن سَيِّئاتِهم(١).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدُلُّ على أنَّهم لا يَستغفِرونَ لأنفُسِهم، وحيثُ لم يَذكُرِ اللهُ عنهم استِغفارَهم لأنفُسِهم، عَلِمْنا أنَّهم مُبَرَّؤونَ عن كلِّ الذُّنوبِ(٢).

١٤- في قولِه تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أنَّ الأسماءَ الحسنى تكونُ كامِلةً بانفرادِها واجتِماعِها؛ لأنَّه لَمَّا جَمَعَ بيْنَ الغفورِ والرَّحيم تَوَلَّدَ منهما صِفةٌ ثالثةٌ غيرُ المغفرةِ والرَّحمةِ، وهي اجتماعُ هذَينِ الاسمَينِ الدَّالَّينِ على الوصفِ في حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ، فبالمغفرةِ تُمْحَى الذُّنوبُ؛ وبالرَّحمةِ يَحصُلُ المطلوبُ(٣).

١٥- قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في وَصفِه تعالى بهذه الأوصافِ بعدَ أنْ ذَكَر أنَّه أوحى إلى الرُّسُلِ كُلِّهم عُمومًا، وإلى محمَّدٍ -صلَّى الله عليهم أجمعينَ- خُصوصًا: إشارةٌ إلى أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ فيه مِنَ الأدِلَّةِ والبَراهينِ والآياتِ الدَّالَّةِ على كمالِ الباري تعالى، ووَصفِه بهذه الأسماءِ العَظيمةِ المُوجِبةِ لامتِلاءِ القُلوبِ مِن مَعرفتِه ومَحبَّتِه، وتَعظيمِه وإجلالِه وإكرامِه، وصَرفِ جَميعِ أنواعِ العُبوديَّةِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ له تعالى، وأنَّ مِن أكبَرِ الظُّلمِ وأفحَشِ القَولِ اتِّخاذَ أندادٍ لله من دونِه، ليس بيَدِهم نَفعٌ ولا ضَرَرٌ، بل هم مخلوقون مُفتَقِرون إلى اللهِ في جميعِ أحوالِهم(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٨، ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

١٦- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيه بيانُ عُمومِ عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ يَشملُ جميعَ ما يَقومون به مِن عمَلٍ، وهذا يدُلُّ على سَعةِ عِلْمِ اللهِ سُبحانَه واطِّلاعِه[١].

١٧- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَشَرٌ ليس له مِن الأمرِ شَيءٌ؛ فهو لا يَعْلَمُ الغَيبَ، ولا يستطيعُ أنْ يُحصيَ أعمالَ العبادِ، ولا أنْ يَهديَ أحدًا، ولا يَلْزَمُه إلَّا أنْ يُبَلِّغَ، وهذه الآيةُ لها شواهدُ لفظيَّةٌ ومعنويَّةٌ، قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، يعني: لا تستطيعُ، وإذا كان سيِّدُ الدُّعاةِ وإمامُهم لا يَملِكُ أنْ يَهديَهم؛ فما بالُك بمَن سِواه[٢]؟!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ * كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- ابتُدِئتْ هذه السُّورةُ بالحُروفِ المقطَّعةِ ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾؛ لأنَّ ابتداءَها مُشيرٌ إلى التَّحدِّي بعَجْزِهم عن مُعارَضةِ القرآنِ، وأنَّ عجْزَهم عن مُعارَضتِه دَليلٌ على أنَّه كلامٌ مُنزَّلٌ مِن اللهِ تعالى. وخُصَّتْ بزِيادةِ كَلمةِ ﴿عٓسٓقٓ﴾ على أوائلِ السُّورِ مِن (آل حم)؛ ولعلَّ ذلك لحالٍ كانوا عليه مِن شِدَّةِ الطَّعنِ في القُرآنِ وَقتَ نُزولِ هذه السُّورةِ، فكان التَّحدِّي لهم بالمعارَضةِ أشَدَّ؛ فزِيدَ في تَحدِّيهم مِن حُروفِ التَّهجِّي[٣].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ المشارُ إليه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١، ٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦).

الإيحاءُ المأخوذُ مِن فِعلِ ﴿يُوحِيٓ﴾، أي: مِثلَ هذا الوحْيِ يُوحِي اللهُ إليك.
وقولُه: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ إدْماجٌ[١]. والتَّشبيهُ بالنِّسبةِ إليه على أصلِه، أي: مِثلُ وَحْيِ اللهِ إليك وَحْيُه إلى الَّذين مِن قبْلِك، والغرَضُ مِن التَّشبيهِ إثباتُ التَّسويةِ، أي: ليس وحْيُ اللهِ إليك إلَّا على سُنَّةِ وَحْيِه إلى الرُّسلِ مِن قبْلِك؛ فليس وَحْيُه إلى الرُّسلِ مِن قبْلِك بأوضَحَ مِن وَحْيِه إليك، وهذا كقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، أي: ما جاء به مِن الوحْيِ إنْ هو إلَّا مِثلُ ما جاءتْ به الرُّسلُ السَّابِقونَ، فما إعراضُ قَومِك عنه إلَّا كإعراضِ الأُممِ السَّالِفةِ عمَّا جاءتْ به رُسُلُهم؛ فحصَلَ هذا المعنى الثَّاني بغايةِ الإيجازِ معَ حُسنِ مَوقعِ الاستِطرادِ[٢].

- وقيل: قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ واردٌ لِتَحقيقِ أنَّ مَضمونَ السُّورةِ مُوافِقٌ لِمَا في تَضاعيفِ سائرِ الكُتبِ المنزَّلةِ على الرُّسلِ المتقدِّمةِ في الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، والإرشادِ إلى الحقِّ، أو أنَّ إيحاءَها مِثلُ إيحائِها بعْدَ تَنويهِها بذِكرِ اسْمِها، والتَّنبيهِ على فَخامةِ شأْنِها[٣].

- وما في اسمِ الإشارةِ (ذَلِكَ) مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتبةِ المُشارِ إليه، وبُعْدِ مَنزلتِه في الفضْلِ[٤].

- وفي جَعْلِ مَضمونِ السُّورةِ أو إيحائِها مُشبَّهًا به مِن تَفخيمِها ما لا يَخْفى[٥].

- وتَقديمُ المجرورِ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾؛ للاهتِمامِ

(١) تقدم تعريفه (ص: ٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦، ٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالمشارِ إليه، والتَّشويقِ بتَنبيهِ الأذهانِ إليه[١].

- والجارُّ والمجرورُ ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ صِفةٌ لِمَفعولٍ مُطلَقٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿يُوحِيٓ﴾؛ إذ لَمْ يَتقدَّمْ في الكلامِ ما يَحتمِلُ أنْ يكونَ مُشارًا إليه بـ (كذلك)، فعُلِمَ أنَّ المشارَ إليه مُقدَّرٌ مَعلومٌ مِن الفعلِ الَّذي بعْدَ اسمِ الإشارةِ، وهو المصدرُ المأْخوذُ مِن الفِعلِ، أي: كذلك الإيحاءِ يُوحي إليك اللهُ[٢].

- قولُه: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ ﴾ قاله بلَفظِ المضارِعِ، مع أنَّ الوحيَ إلى مَن قبْلَ النَّبيِّ ماضٍ؛ للإيذانِ باستِمرارِ الوحْيِ، وأنَّ إيحاءَ مِثلِه عادتُه وسُنَّتُه، وهذا لا يُوجَدُ في لفظِ الماضي[٣].

- وأيضًا العُدولُ عن صِيغةِ الماضي إلى صِيغةِ المضارِعِ في قولِه: ﴿يُوحِيٓ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيحاءَه إليه مُتجدِّدٌ لا يَنقطِعُ في مدَّةِ حياتِه الشَّريفةِ؛ لِيَيْئَسَ المشركونَ مِن إقلاعِه، بخِلافِ قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾[الشورى: ٥٢]، وقولِه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾ [الشورى: ٧]؛ إذ لا غرَضَ في إفادةِ معنى التَّجدُّدِ هناك، وأمَّا مُراعاةُ التَّجدُّدِ هنا؛ فلأنَّ المقصودَ مِن الآيةِ هو ما أُوحِيَ به إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن القرآنِ، وأنَّ قولَه: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ إدماجٌ[٤]. ويجوزُ اعتبارُ صِيغةِ المضارعِ مَنْظورًا فيها إلى مُتعلَّقَي الإيحاءِ، وهو ﴿إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾، فيَكونُ المضارِعُ لاستِحضارِ الصُّورةِ مِن الإيحاءِ إلى الرُّسلِ؛ حيثُ استبْعَدَ المشركونَ وُقوعَه، فجُعِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

كأنَّه مُشاهَدٌ(١).

- وقولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ على قِراءةِ ﴿يُوحَى﴾ بالبِناءِ للمفعولِ(٢)، على أنَّ ﴿إِلَيۡكَ﴾ نائبُ فاعلٍ؛ فيكونُ اسمُ الجَلالةِ مَرْفوعًا على الابتِداءِ بجُملةٍ مُستأنَفةٍ استِئْنافًا بَيانيًّا، كأنَّه لَمَّا قال: يُوحى إليك، قِيل: ومَن يُوحِيه؟ فقِيل: اللهُ العزيزُ الحَكيمُ، أي: يُوحِيه اللهُ(٣).

- وتأخيرُ الفاعلِ ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لِمُراعاةِ الفواصلِ، مع ما فيه من التَّشويقِ(٤).

- وإجراءُ وَصْفَي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ على اسمِ الجَلالةِ دونَ غيرِهما؛ لأنَّ لِهاتَين الصِّفتَينِ مَزيدَ اختِصاصٍ بالغَرَضِ المقصودِ مِن أنَّ اللهَ يَصْطفي مَن يَشاءُ لرِسالتِه؛ فالعزيزُ: المُتصرِّفُ بما يُريدُ لا يَصُدُّه أحدٌ، والحكيمُ: يَحمِلُ كَلامُه مَعانيَ لا يَبلُغُ إلى مِثلِها غيرُه، وهذا مِن مُتمِّماتِ الغرَضِ الَّذي افتُتِحَتْ به السُّورةُ؛ وهو الإشارةُ إلى تَحدِّي المعانِدينَ بأنْ يأْتوا بسُورةٍ مِثلِ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ(٥).

- وأيضًا في وَصْفِه تعالى بوَصفَيِ العِزَّةِ والحِكمةِ مِن التَّفخيمِ ما لا يَخْفى، وهما صِفتانِ للَفظِ الجلالةِ مُقرِّرتانِ لِعُلوِّ شأْنِ الموحَى به(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧، ٢٨).

(٢) قرأها ابنُ كثيرٍ بفتحِ الحاءِ على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، وقرأها الباقون بكَسرِها. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٩)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).

٢- قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾

- جملةُ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِوَصْفِ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣]؛ لأنَّ مَن كان ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِلكًا له، تَتحقَّقُ له العِزَّةُ؛ لقُوَّةِ ملَكوتِه، وتَتحقَّقُ له الحِكمةُ؛ لأنَّ الحِكمةَ تَقتضي خَلْقَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، وإتقانَ ذلك النِّظامِ الَّذي تَسيرُ به المخلوقاتُ. ولِكَونِ هذه الجُملةِ مُقرِّرةً معنَى الَّتي قبْلَها، كانتْ بمَنزلةِ التَّأكيدِ؛ فلم تُعطَفْ عليها[١].

- وجملةُ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، مُقرِّرةٌ لِما قرَّرَتْه الجُملةُ قبْلَها؛ فإنَّ مَنِ اتَّصَفَ بالعَلاءِ والعظَمةِ لو لم يكُنْ عَزيزًا، لَتخلَّفَ عَلاؤُه وعظَمتُه، ولا يكونُ إلَّا حكيمًا؛ لأنَّ عَلاءَه يَقتضي سُمُوَّه عن سَفاسفِ الصِّفاتِ والأفعالِ، ولو لم يكُنْ عظيمًا لَتعلَّقتْ إرادتُه بسَفاسفِ الأمورِ، ولَتنازَلَ إلى عبَثِ الفِعالِ. وأفادتْ صِيغةُ الجُملةِ (بتعريفِ جُزْأَيْها) معنى القَصْرِ، أي: لا عَليَّ ولا عظيمَ غيرُه؛ لأنَّ مَن عَداهُ لا يَخْلو عن افتقارٍ إليه؛ فلا عُلوَّ له ولا عظَمةَ، وهذا قصْرُ قلْبٍ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مقرِّرةٌ لمعنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩).
وقصرُ القلبِ تقدم تعريفه (ص: ٢٨٦).

جُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]؛ ولذلك لم تُعطَفْ عليها[١].

- قولُه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي: يَتشقَّقْنَ مِن عَظَمةِ اللهِ؛ يَدُلُّ عليه أنَّ الآيَةَ بجُمْلتِها مُبيِّنةٌ لِمَعنى العَظَمةِ والعُلوِّ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، ولذلك تُرِكَ العاطفُ. وقيل: يَتفطَّرْنَ مِنِ ادِّعاءِ الولَدِ له؛ يُؤيِّدُه مَجيءُ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ بعْدَه؛ والآيةُ على الأوَّلِ زيادةُ تَقريرٍ لِعَظَمتِه، وعلى الثَّاني بَيانٌ لِكَمالِ تَقدُّسِه عمَّا نُسِبَ إليه، وأنَّ تَرْكَ مُعاجَلَتِهم بالعِقابِ على تلك الكلمةِ الشَّنْعاءِ بسَببِ استِغفارِ الملائكةِ، وفَرْطِ غُفرانِه ورَحمتِه؛ ففيها رمْزٌ إلى أنَّه تعالى يَقبَلُ استِغفارَهم، ويَزيدُهم على ما طَلَبوه مِن المغفرةِ رَحمةً[٢].

- وقرَأَ الجُمهورُ بالياءِ: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، وأصلُه مُضارِعُ التَّفطُّرِ، وهو مُطاوِعُ التَّفطيرِ الَّذي هو تَكريرُ الشَّقِّ، وقُرِئَ: ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾[٣]، وهو مُضارِعُ (انفطَرَ)، وليس المقصودُ منه على القِراءتَينِ قَبولَ أثَرِ الفاعلِ؛ إذ لا فاعلَ هنا للشَّقِّ؛ وإنَّما المقصودُ الخبرُ بحُصولِ الفعلِ، وهذا كثيرٌ؛ كقولِهم: انشَقَّ ضَوءُ الفَجرِ؛ فلا الْتِفاتَ هنا لِما يُقصَدُ غالبًا في مادَّةِ التَّفعُّلِ مِن تَكريرِ الفعلِ؛ إذ لا فاعلَ للشَّقِّ هنا ولا لِتكرُّرِه، فاستوَتِ القِراءتانِ في بابِ البلاغةِ[٤]. وقيل: الأوَّلُ أبلَغُ؛ لأنَّه مُطاوِعُ (فطَّر)، والثَّاني مُطاوِعُ (فطَرَ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢).

(٣) قرأها أبو عَمْرٍو ويعقوبُ وأبو بكرٍ بالنُّونِ وكسرِ الطَّاءِ، والباقون ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٠)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢).

- ويَجوزُ أنْ يكونَ ضميرُ ﴿فَوۡقِهِنَّ﴾ عائدًا على السَّمواتِ؛ فيكونَ المجرورُ مُتعلِّقًا بفِعلِ ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾؛ بمعنى: أنَّ انشِقاقَهنَّ يَحصُلُ ويُبْتدَأُ مِن أعلاهُنَّ، وذلك أبلَغُ الانشِقاقِ؛ لأنَّه إذا انشَقَّ أعلاهُنَّ كان انشِقاقُ ما دُونَه أَولى. ويَجوزُ أنْ يكونَ الضميرُ عائدًا إلى الأرضِ مِن قولِه: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٤]، على تأويلِ الأرضِ بأرَضينَ؛ باعتبارِ أجزاءِ الكُرةِ الأرضيَّةِ، أو بتأويلِ الأرضِ بسُكَّانِها، وتَكونَ (مِن) زائدةً زِيادتَها مع الظُّروفِ لِتَأكيدِ الفَوقيَّةِ؛ فيُفيدُ الظَّرفُ استِحضارَ حالةِ التَّفطُّرِ وحالةِ مَوقعِه(١).

- وقيل: إنَّما قال: ﴿مِن فَوۡقِهِنَّ﴾؛ لأنَّ أعظَمَ الآياتِ وأدَلَّها على الجَلالِ والعَظَمةِ فَوقَ السَّمواتِ، وهي: العرْشُ، والكُرسيُّ، وصُفوفُ الملائكةِ المرتجَّةُ بالتَّسبيحِ والتَّقديسِ حوْلَ العرْشِ، وما لا يَعلَمُ كُنْهَه إلَّا اللهُ تعالى مِن آثارِ مَلَكوتِه العُظْمى؛ فلذلك قال: ﴿يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾، أي: يَبتدِئُ الانفطارُ مِن جِهَتِهنَّ الفوقانيَّةِ. أو لأنَّ كَلمةَ الكُفرِ جاءتْ مِن الَّذين تحتَ السَّمواتِ؛ فكان القياسُ أنْ يُقالَ: يَتفطَّرْنَ مِن تَحتِهنَّ مِن الجهةِ الَّتي جاءتْ منها الكلمةُ، ولكنَّه بُولِغَ في ذلك، فجُعِلَت مُؤثِّرةً في جِهةِ الفَوقِ، كأنَّه قيل: يَكَدْنَ يَتفطَّرْنَ مِن الجِهةِ الَّتي فَوقَهنَّ، دَعِ الجهةَ الَّتي تَحتَهنَّ، ونَظيرُه في المُبالَغةِ قولُه عزَّ وعلا: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ * يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠]؛ فجُعِلَ الحميمُ مُؤثِّرًا في أجْزائِهم الباطنةِ(٢).

- وعُطِفتْ جُملةُ ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ...﴾ على جُملةِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾؛ لإفادتِها تَقريرَ معنى عظَمةِ اللهِ تعالى وجلالِه، المدلولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١١).

عليهما بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]. وهي أيضًا كالبيانِ لِما في جُملةِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ [الشورى: ٥]؛ لأنَّ مِن أسبابِ مُقارَبةِ تَفطُّرِهنَّ كَثرةَ ما فيهنَّ مِن الملائكةِ، ولولا أنَّها أُريدَ منها زِيادةُ تَقريرِ معنى جملةِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]، لَكانتْ جَديرةً بأنْ تُفصَلَ ولا تُعطَفَ، ولكنْ رُجِّحَ العطفُ مِن أجْلِ الاهتِمامِ بتَقريرِ العُلوِّ والعظَمةِ للهِ تعالى، وأمَّا التَّبيينُ فيَحصُلُ بمُجرَّدِ تعقيبِ جُملةِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾؛ فقولُه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الشورى: ٥] مبتدأٌ، وجُملةُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ [الشورى: ٥] خبرٌ، والمقصودُ الإعلامُ بجَلالِ اللهِ[١].

- ومَفعولُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ مَحذوفٌ؛ دَلَّ عليه مُصاحبتُه ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥]، تَقديرُه: يُسبِّحونَ ربَّهم، والباءُ للمُصاحَبةِ، أي: يُسبِّحونَ تَسبيحًا مُصاحِبًا لحمْدِهم ربَّهم، أي: الثَّناءِ عليه بصِفاتِه الكَماليَّةِ، ومِن الثَّناءِ ما هو شُكرٌ على نِعَمِه عليهم وعلى غيرِهم؛ فالمعنى: يُسبِّحونَ اللهَ ويَحمَدونَه. وهذا تَعريضٌ بالمشركينَ؛ إذ أعرَضوا عن تَسبيحِ ربِّهم وحمْدِه، وشُغِلوا بتَحميدِ الأصنامِ الَّتي لا نِعمةَ لها عليهم، ولا تَنفَعُهم ولا تَضُرُّهم[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ﴾ عدَلَ عن التَّأنيثِ مراعاةً للَّفظِ إلى التَّذكيرِ، وضميرِ الجمعِ؛ إشارةً إلى قوَّةِ التَّسبيحِ، وكثرةِ المسبِّحينَ[٣].

- وفي تَقديمِ التَّسبيحِ على الحمْدِ إشارةٌ إلى أنَّ تَنزيهَ اللهِ عمَّا لا يَليقُ به أهمُّ مِن إثباتِ صِفاتِ الكمالِ له؛ لأنَّ التَّنزيهَ تَمهيدٌ لإدراكِ كَمالاتِه تعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١، ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣).

- وجملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لإبطالِ وَهْمِ المشركينَ أنَّ شُركاءَهم يَشفَعونَ لهم؛ ولذلك جِيءَ في هذه الجُملةِ بصِيغةِ القَصْرِ بضَميرِ الفصْلِ، أي: إنَّ غيرَ اللهِ لا يَغفِرُ لأحدٍ. وصُدِّرَتْ بأداةِ التَّنبيهِ (ألَا)؛ للاهتِمامِ بمُفادِها[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٤]، بعْدَ أنْ أُفيدَ ما هو كالحُجَّةِ على أنَّ للهِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ [الشورى: ٤، ٥] الآيتَينِ؛ فالمعنى: قد نهَضَت حُجَّةُ انفرادِه تعالى بالعِزَّةِ والحِكمةِ والعُلوِّ والعظَمةِ، وعَلِم المؤمنونَ ذلك، فاستَغفَرتْ لهم الملائكةُ، وأمَّا الَّذين لم يُبصِروا تلك الحُجَّةَ، وعَمِيَتْ عليهم الأدِلَّةُ، فلا تَهتمَّ بشَأْنِهم؛ فإنَّ اللهَ حَسْبُهم، وما أنت عليهم بوكيلٍ؛ فهذا تَسكينٌ لحُزنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أجْلِ عدَمِ إيمانِهم بوَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وهذه مُقدِّمةٌ لِما سيُؤْمَرُ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من الدَّعوةِ، ابتداءً مِن قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، ثمَّ قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ الآياتِ [الشورى: ١٣]، ثمَّ قولِه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ﴾ [الشورى: ١٥]، وقولِه: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ الآيةَ[٢] [الشورى: ٢٣].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ كأنَّه صَلواتُ اللهِ عليه -على ما هو دأبُه وعادتُه- يَحرِصُ على إيمانِ المشركينَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١، ٣٢).

فجِيءَ بقولِه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ إنكارًا عليه، ثمَّ بَنى عليه النَّفيَ بقولِه: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ للتَّشديدِ فيه، يعني: أمثالُ هؤلاء المُصرِّين ليس في وُسعِك وقُدرتِك أنْ تَهديَهم، واللهُ وحْدَه هو القادرُ على ذلك، والَّذي عليك هو الإنذارُ فقط. وأيضًا سِيقَ قولُه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ...﴾؛ لِنَهْيِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن شِدَّةِ الحِرْصِ على إيمانِ قَومٍ اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ، ونُزِّلَ لذلك مَنزلةَ مُدَّعٍ أنَّه ولِيُّهم ونَصيرُهم، وهو الوكيلُ على غَرْسِ الإيمانِ في قُلوبِهم، حتَّى رُدَّ بقولِه: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[1].

- قولُه: ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ الحَفيظُ: فَعيلٌ بمعنى فاعلٍ، أي: حافظٌ، وتَختلِفُ مَعانيه، ومَرْجِعُها إلى رِعايةِ الشَّيءِ والعِنايةِ به، ويَكثُرُ أنْ يُستعمَلَ كِنايةً عن مُراقَبةِ أحوالِ المَرقوبِ وأعمالِه، وباختلافِ مَعانيه تَختلِفُ تَعديتُه بنَفْسِه، أو بحَرْفِ جَرٍّ يُناسِبُ المعنى، وقد عُدِّيَ هنا بحَرْفِ (على) كما يُعدَّى الوكيلُ؛ لأنَّه بمَعناهُ. والوكيلُ: فَعيلٌ بمعنى مَفعولٍ، وهو المَوكولُ إليه عمَلٌ في شَيءٍ أو اقتِضاءُ حقٍّ؛ يُقالُ: وكَّلَه على كذا، ومنه الوكالةُ في التَّصرُّفاتِ الماليَّةِ والمُخاصَمةِ، ويَكثُرُ أنْ يُستعمَلَ كِنايةً عن مُراقَبةِ أحوالِ الموكَّلِ عليه وأعمالِه، وقد استُعْمِلَ (حَفيظٌ) و(وكيلٌ) هنا في استِعمالِهما الكِنائيِّ عن مُتقارِبِ المعنى، ومادَّةُ (حفِظ) تَقْتضي قِيامَ الحدَثِ بفاعلٍ وتَعديتَه إلى مَفعولٍ، ومادَّةُ (وكَل) تَقْتضي قِيامَ الحدَثِ بفاعلٍ وتَعديتَه إلى مَفعولٍ، وتُجاوزَه مِن ذلك المفعولِ إلى شَيءٍ آخَرَ هو مُتعلِّقٌ به، وبذلك كان فِعلُ (حَفِظَ) مُفيدًا بمُجرَّدِ ذِكرِ فاعلِه ومَفعولِه دونَ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١-١٤).

احتياجٍ إلى مُتعلَّقٍ آخَرَ، بخِلافِ فِعلِ (وَكَلَ)؛ فإفادتُه مُتوقِّفةٌ على ذِكرِ -أو على تَقديرِ- ما يدُلُّ على شَيءٍ آخَرَ زائدٍ على المفعولِ ومِن علائقِه؛ فلذلك أُوثِرَ وَصْفُ (حَفيظٍ) هنا بالإسنادِ إلى اسمِ الجلالةِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ عن أنْ يُكلِّفَه غيرُه حِفْظَ شَيءٍ، فهو فاعلُ الحِفظِ، وأُوثِرَ وَصْفُ (وكيلٍ) بالإسنادِ إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ المقصودَ أنَّ اللهَ لم يُكلِّفْه بأكثَرَ مِن التَّبليغِ. وإذ قد كان الحَفيظُ والوَكيلُ بمعنًى، كان إثباتُ كَونِ اللهِ حفيظًا عليهم، ونَفْيُ كَونِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وكيلًا عليهم: مُفيدًا قَصْرَ الكَونِ حَفيظًا عليهم على اللهِ تعالى دونَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بطَريقٍ غيرِ أحَدِ طُرقِ القَصْرِ المعروفةِ؛ فإنَّ هذا مِن صَريحِ القَصْرِ ومَنطوقِه لا مِن مَفهومِه، وهو الأصلُ في القصْرِ وإنْ كان قليلًا. والقصرُ قصرُ قلبٍ[١]، كما هو صريحُ طرَفِه الثَّاني في قولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾؛ نُزِّلَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَنزلةَ مَن يَحسَبُ أنَّه وكيلٌ على إيمانِهم، وحصَلَ مِن هذا التَّنزيلِ تَعريضٌ بهم بأنَّهم لا يَضُرُّونَ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا لم يُصدِّقوه[٢].



(١) تقدم تعريفه (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢ - ٣٥).

الآيات (٧-٩)

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾: أي: مكَّةَ، وسُمِّيَت مَكَّةُ أُمَّ القُرى؛ لأنَّها أقدَمُ القُرى وأشهَرُها، وما تقرَّت القُرى في بلادِ العَرَبِ إلَّا بَعدَها، وأصلُ (أمم): يدُلُّ على الأصلِ والمَرجِعِ، وأصلُ (قري): يدُلُّ على جَمعٍ واجتِماعٍ[١].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: لا شكَّ فيه، والرَّيبُ: الشَّكُّ، أو هو الشَّكُّ مع الخَوفِ، ومعَ تُهمةِ المشكوكِ فيه، وتوهُّمُ أمرٍ ما بالشَّيءِ، وهو مصدرُ (رابَني الشَّيءُ): إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وحقيقةُ الرِّيبةِ: قلَقُ النَّفْسِ واضطِرابُها[٢].

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: هو اسْمٌ مِن أسماءِ جهنَّمَ، والسَّعْرُ: التِهابُ النَّارِ، يُقالُ: سعَّرتُ النَّارَ، إذا ألهَبْتَها، وأصلُ (سعر): اشتِعالُ الشَّيءِ واتِّقادُه وارتِفاعُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١) و (٥/ ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

﴿وَلِيّ﴾: كلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبينًا الحكمةَ مِن إنزالِ هذا القرآنِ على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: ومِثْلَ ذلك الإيحاءِ أوحَيْنا إليك -يا مُحمَّدُ- قُرآنًا عَربيًّا لِيَعقِلَ النَّاسُ ما فيه؛ لِتُنذِرَ به أهلَ مَكَّةَ ومَن حَوْلَها في جَميعِ الأرضِ عذابًا شَديدًا إنْ لم يُؤمِنوا، وتُنذِرَ النَّاسَ يومَ القيامةِ الآتيَ لا مَحالةَ؛ فمِنهم فَريقٌ في الجنَّةِ، ومِنهم فَريقٌ في النَّارِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه كمالَ قدرتِه، فيقولُ: ولو شاء اللهُ تعالى لجَمَع النَّاسَ كُلَّهم على دينٍ واحِدٍ، ولكِنَّ اللهَ يُدخِلُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِه في رَحمتِه، والظَّالِمونَ ليس لهم وَليٌّ يَتولَّاهم، ولا نَصيرٌ يَنصُرُهم.

ثمَّ يقولُ تعالى منكِرًا على كلِّ مَن تَولَّى غيرَه: أمِ اتَّخَذ أولئك الظَّالِمونَ أَولياءَ يَتولَّونَهم بطاعتِهم مِن دُونِ الله تعالى؟! فاللهُ هو الوَليُّ، يَتولَّى شؤونَ جميعِ عِبادِه، وهو يُحيي الموتَى بقُدرتِه سُبحانَه، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾.

أي: ومِثْلَ ذلك الإيحاءِ[2] أوحَيْنا إليك -يا مُحمَّدُ- قُرآنًا بلِسانٍ عَربيٍّ؛ ليَفْهَموا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) =

ما فيه، فالَّذين أرسلْتُك إليهم قومٌ عَرَبٌ[(١)].

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

= (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: جلالُ الدِّين المحلِّي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر المصادر السابقة.

قال ابن عاشور: (والقولُ في ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ﴾ كالقولِ في ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥).

وقيل: المعنى: ومِثلَ ذلك أوْحَيْنا إليكَ، و«ذلك» إشارةٌ إلى معنى الآيةِ قبْلَها: مِن أنَّ اللهَ تعالى هو الرَّقيبُ عليهم، وما أنت برقيبٍ عليهم، ولكنْ نذيرٌ لهم؛ لأنَّ هذا المعنى كرَّره اللهُ تعالى في كتابه في مواضعَ جمَّةٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرازي، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٤).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّ كلمةَ «ذلك» للإشارةِ إلى شَيءٍ سبَق ذِكرُه، فقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يَقتضي تشبيهَ وحْيِ اللهِ بالقرآنِ بشَيءٍ هاهنا قد سبَق ذِكرُه، وليس هاهنا شَيءٌ سبَق ذِكرُه يُمكِنُ تشبيهُ وحْيِ القرآنِ به إلَّا قولَه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أوحَيْنا إليك وإلى مَن قَبْلَك هذه المعانيَ فكذلك أوحَيْنا إليك قُرآنًا عَربيًّا بَيَّنَّاه بلُغةِ العَرَبِ. وقيل: أي: أنزَلْنا عليك قرآنًا عربيًّا بلِسانِ قَومِك كما أرسَلْنا كُلَّ رسولٍ بِلِسانِ قَومِه. والمعنى واحِدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ ﴿قُرْءَانًا﴾ مَصدَرٌ يجوزُ أن يكونَ بمعنى اسمِ الفاعِلِ، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى اسمِ المفعولِ؛ فأمَّا الأوَّلُ فيكونُ بمعنى قارئ، أي: جامِعٍ لجميعِ الكَمالاتِ، وجامِعٍ لعُلومِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، ولكُلِّ عِلمٍ نافِعٍ وعَمَلٍ صالحٍ، وأمَّا الثَّاني فلأنَّه مَقروءٌ ومَتْلوٌّ، ولا مُنافاةَ بيْنَ المعنيَينِ؛ فيُحمَلُ عليهما جميعًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٤- ٥٦).

أي: أوحَيْنا إليك قُرآنًا عَربيًّا؛ لِتُنذِرَ به أهلَ مَكَّةَ ومَن حَوْلَها مِن سائِرِ النَّاسِ في جَميعِ الأرضِ عذابًا شَديدًا إنْ لم يُؤمِنوا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ سائِرُ النَّاسِ مِن كُلِّ القُرى في جميعِ الأرضِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابنُ عطية، والقرطبي، والبِقاعي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: مَن حَوْلَها مِن العَرَبِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٧، ٥٨).

قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يقولُ بعضُ العلماءِ: المُعَلَّلُ محذوفٌ ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَنْزَلْنا إليكَ هذا الكتابَ. وبعضُ العلماءِ يقولُ: هو معطوفٌ على معنى ما قبْلَه. والمعنَى: كتابٌ أنزَلْناه إليكَ لأجْلِ البَرَكاتِ المشتملِ عليها؛ ولتصديقِ الَّذي بيْنَ يَدَيه؛ ولِتُنذرَ أُمَّ القرَى. وأكثرُ العلماءِ على أن المُعَلَّلَ محذوفٌ، والمعنَى: ولِتُنذِرَ أُمَّ القرى أنزَلْناه إليكَ). ((العذب النمير)) (١/ ٥٠٦).

وقال الرَّسْعَني: (﴿لِّتُنذِرَ﴾ يُقالُ: أنذَرْتُه كذا، وأنذَرْتُه بكذا، وقد عَدَّى الأوَّلَ -أعني: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾- إلى المفعولِ الأوَّلِ، والثَّانيَ -وهو قَولُه تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾- إلى المفعولِ الثَّاني). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠).

وقال ابن عثيمين: (فتَجِدُ الآيةَ الكريمةَ الجُملةُ الأُولى حُذِفَ منها مفعولٌ، والثَّانيةُ حُذِفَ منها مفعولٌ، لكِنِ الجُملةُ الأُولى حُذِفَ مَفعولُها الثَّاني، والجُملةُ الثَّانيةُ حُذِفَ مَفعولُها الأوَّلُ، وهذا مِن بلاغةِ القُرآنِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٨).

وقال الشوكاني: (لِتُنذِرَ أُمَّ القُرى... والمفعولُ الثَّاني محذوفٌ، أي: لِتُنْذِرَهم العذابَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٣).

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: ولِتُنذِرَ النَّاسَ بالقُرآنِ -يا مُحمَّدُ- فتُخَوِّفَهم وتُحذِّرَهم مِن يومِ القيامةِ الآتي لا مَحالةَ[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥).

قال الرازي: (وفي تسميتِه بيوم الجَمع وُجوهٌ:

الأوَّلُ: أنَّ الخلائقَ يُجمَعونَ فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التَّغابُن: ٩]، فيَجتمعُ فيه أهلُ السَّمواتِ وأهلُ الأرض.

الثَّاني: أنَّه يجمعُ بيْنَ الأرواحِ والأجسادِ.

الثَّالثُ: يجمعُ بيْنَ كُلِّ عامِلٍ وعمَلِه.

الرَّابعُ: يجمعُ بيْنَ الظَّالمِ والمظلومِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠).

وقيل: لاجتِماعِ بني آدَمَ للعَرضِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧).

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩].

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

أي: مِنهم جماعةٌ في الجنَّةِ، وهم المؤمِنونَ باللهِ المتَّبِعونَ لِرَسولِه، ومنهم جماعةٌ في النَّارِ المُلتَهِبةِ المُوقَدةِ، وهم الكافِرونَ باللهِ المُخالِفونَ لِرَسولِه(١).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المرادَ تَقريرُ قَولِه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]، أي: ليس في قُدرتِك أن تَحمِلَهم على الإيمانِ، فلو شاء اللهُ ذلك لَفَعلَه؛ لأنَّه أقدَرُ منك، ولَكِنَّه جَعَلَ البَعضَ مُؤمِنًا والبَعضَ كافِرًا(٢).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

أي: ولو شاء اللهُ أن يَجمَعَ كُلَّ النَّاسِ على دينٍ واحِدٍ لَفَعلَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٠)، ((المفردات)) للراغب الأصفهاني (ص: ٦٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).

قيل: المرادُ أمَّةٌ واحِدةٌ، سواءٌ اجتَمَعوا جميعًا على الهدايةِ، أو اجتَمَعوا على الضَّلالةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البيضاوي، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٦٦). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩].

﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾.

أي: ولكِنَّ اللهَ شاء مَشيئةً أُخرى تَجري على وَفْقِ حِكمتِه، فيُدخِلُ بَعضَ عِبادِه في دينِه، ويَتوَلَّاهم ويَنصُرُهم، ويُدخِلُهم في الآخرةِ في جَنَّتِه[1].

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، فقال: على دينٍ واحدٍ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤٠).

وقيل: المرادُ: أمَّةٌ واحِدةٌ مُجتَمِعةٌ على الهُدى، أي: مِلَّةِ الإسلامِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٦٦، ٦٧).

قيل: المرادُ برَحمةِ الله تعالى هنا: دينُ الإسلامِ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمعاني، والبغوي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٤).

وقيل: المرادُ بها: الجنَّةُ. وهو اختيارُ ابنِ عاشور، وابنِ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) =

﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

أي: وأمَّا الظَّالِمونَ فليس لهم -بسَبَبِ ظُلمِهم- أيُّ وَليٍّ يَتولَّاهم، وليس لهم أيُّ نَصيرٍ يَنصُرُهم، فهم مَحرومونَ مِن الدُّخولِ في رَحمةِ اللهِ تعالى(١).

كما قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الإنسان: ٣١].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى حكَى عن المُشرِكينَ أوَّلًا أنَّهم اتَّخَذوا مِن دُونِه أولياءَ، ثمَّ قال بَعدَه لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لَسْتَ عليهم رَقيبًا ولا حافِظًا، ولا يَجِبُ عليك أن تَحمِلَهم على الإيمانِ شاؤوا أم أبَوْا؛ فإنَّ هذا المعنى لو كان واجِبًا لَفعَلَه اللهُ؛ لأنَّه أقدَرُ منك، ثمَّ إنَّه تعالى أعاد بَعدَه ذلك الكلامَ على سَبيلِ الاستِنكارِ، فقال تعالى(٢):

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾.

أي: أمِ اتَّخَذ الظَّالِمونَ أولياءَ يَتولَّونَهم بطاعتِهم مِن دونِ اللهِ(٣)؟!

= (٢٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٦٧).

قال السمرقندي: (﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ يعني: يُكرِمُ بدينِه مَن يَشاءُ، مَن كان أهلًا لذلك، ويُدخِلُه في الآخرةِ في رحمتِه، أي: في جنَّتِه). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٢، ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣). =

﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾.

أي: فاللهُ هو الوَليُّ الحَقُّ، يَتولَّى شؤونَ جميعِ عبادِه عامَّةً، ويَتولَّى عبادَه المؤمنينَ خاصَّةً بتربيتِهم، وإعانتِهم في جميعِ أمورِهم، ونصرِهم وتأييدِهم، فلْيَتَّخِذوه وَلِيًّا بعبادتِه وطاعتِه، لا ما لا يملِكُ لهم ضَرًّا ولا نفعًا(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أي: واللهُ يُحيي الموتى بقُدرتِه سُبحانَه(٢).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ وحْدَه هو البالغُ القُدرةِ على فِعلِ كُلِّ شَيءٍ، كإحياءِ المَوتى وغَيرِه، لا يَقدِرُ على ذلك سِواه(٣).

= قال ابنُ عطية: (قَولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ كلامٌ مُنقَطِعٌ مِمَّا قَبلَه، وليست مُعادِلةً، ولكِنَّ الكلامَ: كأنَّه أضرَبَ عن حُجَّةٍ لهم أو مقالةٍ مُقرَّرةٍ، فقال: «بَلِ اتَّخذوا»، هذا مَشهورُ قَولِ النَّحْويِّينَ في مِثلِ هذا. وذَهَب بعضُهم إلى أنَّ (أَمْ) هذه هي بمنزلةِ ألِفِ الاستِفهامِ دونَ تقديرِ إضرابٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧).

وقيل: (أم) للإضرابِ الانتقاليِّ، وتُقدَّرُ بعد (أم) همزةُ استِفهامٍ إنكاريٍّ. فالمعنى: بل أتَّخَذُوا مِن دُونِه أولياءَ؟! ومِمَّن قال بذلك: أبو حيَّان، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٤، ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠، ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه حَثُّ الإنسانِ على أنْ يَدعوَ اللهَ بكلِّ ما أراد -ما لم يَعْتَدِ في الدُّعاءِ-، وهذه فائدةٌ تربويَّةٌ: أنْ تَدْعوَ اللهَ بكلِّ شَيءٍ إلَّا ما حَرَّمَ اللهُ عليك الدُّعاءَ به؛ وهذا يَفتحُ للإنسانِ بابَ الرَّجاءِ وبابَ دعاءِ اللهِ واللُّجوءِ إليه، لو كان عندَك مريضٌ مُزْمِنٌ أَيِسْتَ منه؛ فادعُ اللهَ، ولو أنَّ إنسانًا تقطَّعتْ به الأسبابُ؛ طَلَبَ الرِّزقَ في البَيعِ والشِّراءِ فخَسِرَ؛ تقدَّم لوظيفةٍ فلم يَنْجَحْ؛ فلْيَدْعُ اللهَ؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ على كلِّ شيءٍ قديرٌ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ﴾ فيه إثباتُ حكمةِ اللهِ؛ لأنَّ اللَّامَ هنا للتَّعليلِ، وكلَّما وُجِدت لامُ التَّعليلِ في القرآنِ فإنَّ فيها إثباتَ حكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وحينئذٍ نَعلَمُ أنَّ جميعَ ما يَفعَلُه اللهُ عزَّ وجلَّ أو ما يشرعُه فهو لحكمةٍ[(٢)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فيه سُؤالٌ: ظاهِرُ اللَّفظِ يَقتَضي أنَّ اللهَ تعالى إنَّما أوحى إلى النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيُنذِرَ أهلَ مَكَّةَ وأهلَ القُرى المحيطةِ بمكَّةَ، وهذا يَقتَضي أن يكونَ رَسولًا إليهم فقط، وألَّا يكونَ رسولًا إلى كُلِّ العالَمينَ!

الجَوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ شامِلٌ لجَميعِ الأرضِ، وهو مَرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر ما أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ٤٠٣)، وابنُ أبي حاتم في في ((تفسيره)) =

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ التَّخصيصَ بالذِّكرِ لا يدُلُّ على نَفيِ الحُكمِ عمَّا سِواه؛ فهذه الآيةُ على فَرْضِ كَوْنِها تدُلُّ على كَونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رَسولًا إلى هؤلاء خاصَّةً، وأنَّ قَولَه: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ لا يَتناوَلُ إلَّا القريبَ مِن مكَّةَ المكرَّمةِ، كجَزيرةِ العَرَبِ مَثَلًا؛ فإنَّ الآياتِ الأُخَرَ نَصَّت على العُمومِ، كقَولِه تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، فهذا يدُلُّ على كَونِه رَسولًا إلى كُلِّ العالَمينَ. وذِكرُ بَعضِ أفرادِ العامِّ بحُكمِ العامِّ لا يُخَصِّصُه عندَ عامَّةِ العُلَماءِ[(١)].

الوَجهُ الثَّالثُ: لَمَّا ثَبَت كَونُه رَسولًا إلى أهلِ مكَّةَ وَجَب كَونُه صادِقًا، ثمَّ إنَّه نُقِلَ إلينا بالتَّواتُرِ أنَّه كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخبِرُ أنَّه رَسولٌ إلى كُلِّ العالَمينَ[(٢)]، والصَّادِقُ إذا أخبَرَ عن شَيءٍ وَجَب تصديقُه فيه؛ فثَبَت أنَّه رَسولٌ إلى كُلِّ العالَمينَ[(٣)].

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ الاقتِصارَ على إنذارِ أمِّ القُرى ومَن حَولَها لا يَقتَضي تخصيصَ إنذارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأهلِ مكَّةَ ومَن حوْلَها؛ لأنَّ تَعليلَ الفِعلِ بعِلَّةٍ باعِثِه لا يَقتضي أنَّ الفِعلَ المُعلَّلَ مُخَصَّصٌ بتلك العِلَّةِ ولا بمُتعَلَّقاتِها؛ إذ قد يكونُ للفِعلِ الواحِدِ عِلَلٌ باعِثةٌ؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بُعِثَ للنَّاسِ كافَّةً، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرًا

= (٧٦١٤، ٧٦١٨)، والبيهقي في ((الأسماء والصفات)) (٥٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥).

(٢) وفي الحديثِ قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((... وكان النَّبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عامَّةً)). أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠).

وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، والاقتِصارُ هنا على إنذارِ أهلِ مكَّةَ ومَن حَولَها؛ لأنَّهم المقصودُ بالرَّدِّ عليهم؛ لإنكارِهم رسالةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

٣- قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ إنْ قِيل: كيف يَكونونَ مَجموعينَ مُتفرِّقينَ في حالةٍ واحدةٍ؟

فالجواب: أنَّهم مَجموعونَ في ذلك اليومِ، مع افتراقِهم في دارَيِ البؤسِ والنَّعيمِ، كما يَجتمِعُ الناسُ يومَ الجُمعةِ مُتفرِّقينَ في مَسجدَينِ، وإنْ أُريدَ بالجمْعِ جمْعُهم في الموقفِ، فالتَّفرُّقُ على معنى مُشارَفتِهم للتَّفرُّقِ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ رَدٌّ على المُعتزِلةِ والقَدَريَّةِ المُنْكِرينَ أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ إذْ في قَولِه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ دَليلٌ على أنَّه لم يَجعَلْهم، وخَصَّ بالرَّحمةِ مَن شاء منهم، والرَّحمةُ لا محالةَ سَبَبُ الهدايةِ، ومَنعُ الرَّحمةِ سَبَبُ الضَّلالةِ، لولا ذلك ما كان في الكَلامِ فائدةٌ عندَ مَن تَدَبَّرَه(٣)!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ ...﴾ إلخ [الشورى: ٣]، باعتبارِ المُغايَرةِ بيْنَ المعطوفةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٨٨).

والمعطوفِ عليها؛ بما في المعطوفةِ مِن كَونِ الموحَى به قُرآنًا عربيًّا، وما في المعطوفِ عليها مِن كَونِه مِن نوعِ ما أُوحِيَ به إلى الَّذين مِن قبْلِه. وإنَّما أُعيدَ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ﴾؛ ليُبنى عليه قولُه: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ لِما حجَزَ بيْنَهما مِن الفَصْلِ، وأصلُ النَّظمِ: كذلك يُوحِي إليك اللهُ العزيزُ الحكيمُ قُرآنًا عربيًّا، معَ ما حصَلَ بتلك الإعادةِ مِن التَّأكيدِ؛ لتقريرِ ذلك المعنى أفضلَ تقريرٍ[١].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الآيةَ، قيل: مُعترِضةٌ لِتَوكيدِ مَضمونِ الآيتَينِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الشورى: ٦]، و﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾[٢] [الشورى: ٨].

- والعُدولُ عن ضَميرِ الغائبِ في ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الشورى: ٦] إلى ضَميرِ العظَمةِ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ الْتفاتٌ[٣].

- قولُه: ﴿قُرۡءَانًا﴾ القُرآنُ مَصدرُ: قرَأَ، وأُطلِقَ هنا على المقروءِ؛ مُبالَغةً في الاتِّصافِ بالمَقروئيَّةِ؛ لكثرةِ ما يَقرَؤُه القارئونَ، وذلك لِحُسنِه وفائدتِه؛ فقد تَضمَّنَ هذا الاسمُ معنى الكمالِ بيْن المَقروآتِ[٤].

- وقولُه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ تعليلٌ لقولِه: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ لأنَّ كَونَه عربيًّا يَليقُ بحالِ المُنذَرينَ به، وهم أهلُ مكَّةَ ومَن حوْلَها؛ فأولئك هم المخاطَبونَ بالدِّينِ ابتداءً؛ لِما اقتضَتْه الحِكمةُ الإلهيَّةُ مِن اختيارِ الأُمَّةِ العربيَّةِ لتكونَ أوَّلَ مَن يَتلقَّى الإسلامَ، ويَنشُرُه بيْنَ الأُمَمِ، ولو رُوعِيَ فيه جميعُ الأُممِ المخاطَبينَ بدعوةِ الإسلامِ، لَاقتَضى أنْ يَنزِلَ بلُغاتٍ لا تُحصَى؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥).

فلا جَرَمَ اختارَ اللهُ له أفضَلَ اللُّغاتِ، واختارَ إنزالَه على أفضَلِ البَشَرِ[(١)].

- واقتصَر على أحدِ موضوعَيِ الرِّسالةِ وهو الإنذارُ، فقال: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، ولم يَذْكُرِ البِشارةَ! معَ أنَّ اللهَ تعالى في مواضعَ كثيرةٍ يَذكُرُهما، كقولِه: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]؛ وذلك لأنَّ السياقَ معَ قريشٍ -وقريشٌ عُتاةٌ مُعْتَدونَ-؛ فناسَبَ ذِكْرُ الإنذارِ دونَ ذِكْرِ البِشارةِ[(٢)].

- وانتصَبَ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ على المفعولِ به لفِعلِ (تُنذِرَ)؛ بتَنزيلِ الفِعلِ منزلةَ المُعدَّى إلى مَفعولٍ واحدٍ؛ إذ لم يُذكَرْ معه المنذَرُ منه، وهو الَّذي يكونُ مَفعولًا ثانيًا لِفعلِ الإنذارِ؛ لأنَّ (أنذَرَ) يَتعدَّى إلى مفعولَين؛ فالمعنى: لِتُنذِرَ أُمَّ القُرَى ومَن حوْلَها ما يُنذَرونَه مِن العذابِ في الدُّنيا والآخِرةِ[(٣)].

- وقولُه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ عامٌّ في الإنذارِ بأحوالِ الدُّنيا والآخِرةِ، ثمَّ خُصَّ بقولِه: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، وأُعيدَ فِعلُ (تُنذر)؛ لِزيادةِ تَهويلِ أمْرِ يَومِ الجَمْعِ؛ لأنَّ تَخصيصَه بالذِّكرِ بعْدَ عُمومِ الإنذارِ يَقتضي تَهويلَه، ولأنَّ تَعديةَ فِعلِ ﴿وَتُنذِرَ﴾ إلى ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ تَعديةٌ مُخالِفةٌ لإنذارِ أُمِّ القُرى؛ لأنَّ ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ مَفعولٌ ثانٍ لِفعلِ ﴿وَتُنذِرَ﴾، أي: وتُنذِرَ النَّاسَ يومَ الجمْعِ، فمَفعولُ ﴿وَتُنذِرَ﴾ الثَّاني هو المُنذَرُ به، ومَفعولُ (لِتُنْذِرَ) الأوَّلُ هو المُنذَرُ، وانتصَبَ ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ على أنَّه مَفعولٌ ثانٍ لِفعلِ ﴿وَتُنذِرَ﴾، وحُذِفَ مَفعولُه الأوَّلُ؛ لِدَلالةِ ما تَقدَّمَ عليه، أي: وتُنذِرَهم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٣)، ((تفسير =

- وقيل: في الآيةِ احتِباكٌ[(١)]؛ فذِكرُ المُنذَرينَ أوَّلًا دَلالةٌ على إرادتِها ثانيًا، وذِكرُ المُنذَرِ به -وهو يومُ الجَمعِ- ثانيًا دَلالةٌ على المُنذَرِ به مِن عَذابِ الأُمَمِ أوَّلًا؛ لِيَذهَبَ به الوَهمُ في المحذوفِ كلَّ مَذهَبٍ، فيَكونَ أهْوَلَ، وذِكرُ هذا المذكورِ أفخَمُ وأوجَلُ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مُعترِضةٌ بيْن البيانِ والمبيَّنِ، مُقرِّرةٌ لِما قبْلَها، ومعنى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنَّ دلائلَه تَنفي الشَّكَّ في أنَّه سيقعُ، فنُزِّلَ رَيْبُ المُرتابينَ فيه مَنزِلةَ العَدَمِ؛ لأنَّ مُوجِباتِ اليقينِ بوقوعِه بَيِّنةٌ[(٣)].

- وظرفيَّةُ الرَّيبِ المنفيِّ في ضَميرِ اليومِ في قولِه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مِن بابِ إيقاعِ الفِعلِ ونحوِه على اسمِ الذَّاتِ، والمرادُ إيقاعُه على بَعضِ أحوالِها الَّتي يدُلُّ عليها المَقامُ؛ مِثلُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، أي: أكْلُها، أي: لا ريبَ في وُقوعِه[(٤)].

- وجُملةُ ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا، وعُطِفتْ عليها جُملةُ ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾؛ فكان الجُملتانِ جَوابًا لسؤالِ سائلٍ عن شأْنِ هذا الجَمْعِ إنْ كان بمَعنى المصدَرِ، فقيل: فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعيرِ، أي: فَريقٌ مِن المجموعينَ بهذا الجمْعِ في الجنَّةِ، وفَريقٌ في السَّعيرِ. أو لِسُؤالِ سائلٍ عن حالِ هذا الجمْعِ إنْ كان الجمْعُ بمعنى المجموعينَ، والتَّقديرُ: فريقٌ

= أبي السعود)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧).

(١) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).

منهم في الجنَّةِ، وفريقٌ منهم في السَّعيرِ[(١)].

- وجُملةُ ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ ...﴾ إلخ مُعترِضةٌ، و﴿فَرِيقٌ﴾ خبرُ مبتدأٍ مَحذوفٍ على طريقةِ الحذْفِ المُتابَعِ فيه الاستِعمالُ، أي: هم فريقٌ في الجنَّةِ... إلخ[(٢)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، والغرضُ مِن هذا العطْفِ إفادةُ أنَّ كونَهم فَريقينِ أمْرٌ شاءَ اللهُ تَقديرَه، وهذا مَسوقٌ لِتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ على تَمنِّيهم أنْ يكونَ النَّاسُ كلُّهم مُهتدينَ، ويكونَ جميعُهم في الجنَّةِ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ نفْيُ النَّصيرِ كِنايةٌ عن كَونِهم في بُؤسٍ وضُرٍّ ومَغلوبيَّةٍ، بحيثُ يَحتاجونَ إلى نَصيرٍ لو كان لهم نَصيرٌ؛ فيَدخُلُ في (الظَّالِمونَ) مُشرِكو أهلِ مكَّةَ دُخولًا أوَّليًّا؛ لأنَّهم سببُ وُرودِ هذا العمومِ، وأصلُ النَّظمِ: (ويُدخِلُ مَن يَشاءُ في غَضبِه)؛ فعُدِلَ عنه إلى ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).
لكنْ قال أبو السعود: (وأنت خبيرٌ بأنَّ فَرْضَ جعلِ الكلِّ مؤمنينَ يأباهُ تصديرُ الاستدراكِ بإدخالِ بعضِهم في رحمتِه؛ إذِ الكُلُّ حينَئذٍ داخلونَ فيها، فكانَ المناسبُ حينَئذٍ تصديرَه بإخراجِ بعضِهم مِنْ بَيْنِهم وإدخالِهم في عذابِه، فالَّذي يقتضيه سياقُ النَّظمِ الكريمِ وسِباقُه أنْ يُرادَ الاتِّحادُ في الكُفرِ... فالمعنى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُتَّفِقةً على الكُفرِ، بألَّا يُرسِلَ إليهم رسولًا لِيُنذِرَهُم ما ذُكِرَ مِن يومِ الجَمعِ وما فيه مِن ألوانِ الأهوالِ؛ فيَبقَوا على ما هم عليه مِن الكُفرِ، ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣).

في الآيةِ ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ سَببَ إدخالِهم في غَضَبِه هو ظُلمُهم، أي: شِركُهم؛ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، مع إفادةِ أنَّهم لا يَجِدونَ وليًّا يَدفَعُ عنهم غضَبَه، ولا نَصيرًا يَثأرُ لهم. وقيل: لَعلَّ تَغييرَ المُقابَلةِ؛ للمُبالَغةِ في الوعيدِ؛ إذ الكلامُ في الإنذارِ(١).

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ مِن الاحتِباكِ(٢)؛ ذَكَر الرَّحمةَ أوَّلًا دليلًا على اللَّعنةِ ثانيًا، والظُّلْمَ وما معه ثانيًا دَليلًا على أضْدادِه أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذَكَر السَّبَبَ الحقيقيَّ في أهلِ السَّعادةِ؛ لِيَحمِلَهم على مَزيدِ الشُّكرِ، والسَّبَبَ الظَّاهِريَّ في أهلِ الشَّقاوةِ؛ لِيَنْهاهم عن الكُفرِ(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لِما قبْلَها مِن انتفاءِ أنْ يكونَ للظَّالِمينَ وليٌّ أو نَصيرٌ(٤).

- و(أمْ) مُنقطِعةٌ، وما فيها مِن مَعنى (بل)؛ للانتقالِ مِن بَيانِ ما قبْلَها إلى بَيانِ ما بعْدَها، والهمْزةُ لإنكارِ الوُقوعِ ونفْيِه على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه، لا لإنكارِ الواقعِ واستِقباحِه كما قِيل؛ إذ المرادُ بَيانُ أنَّ ما فَعَلوا ليس مِن اتِّخاذِ الأولياءِ في شَيءٍ؛ لأنَّ ذلك فرْعُ كَونِ الأصنامِ أولياءَ، وهو أظهَرُ المُمتنِعاتِ، أي: بل

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤).

أتَّخَذوا مُتجاوِزينَ اللهَ أولياءَ مِن الأصنامِ وغيرِها؟ هَيهاتَ[١].

- وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ جَوابُ شَرْطٍ مقدَّرٍ[٢]؛ كأنَّه قِيل بعدَ إنكارِ كلِّ وليٍّ سِواهُ: إنْ أرادُوا وليًّا بحقٍّ، فاللهُ هو الوليُّ بالحقِّ، لا وليَّ سِواه؛ لأنَّ إنكارَ ذلك يَقتضي أنَّ أولياءَهم ليستْ جَديرةً بالوَلايةِ، وأنَّهم ضَلُّوا في وَلايتِهم إيَّاها[٣].

- وأفاد تَعريفُ المُسنَدِ في قولِه: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ قَصْرَ جِنسِ الوليِّ بهذا الوصْفِ على الله، وإذ قد عبَدوا غيرَ اللهِ تَعيَّنَ أنَّ المرادَ قصْرُ الولايةِ الحقِّ عليه تعالى، وأفاد ضَميرُ ﴿هُوَ﴾ تأْكيدَ القَصرِ وتَحقيقَه، وأنَّه لا مُبالَغةَ فيه؛ تَذْكيرًا بأنَّ الوَلايةَ الحقَّ في هذا الشَّأنِ مُختصَّةٌ باللهِ تعالى، وهذا كلُّه مَسوقٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ تَسليةً وتثبيتًا، وتَعريضًا بالمشركِينَ؛ فإنَّهم لا يَخْلُونَ مِن أنْ يَسمَعوه[٤].

- وعطْفُ ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ على جُملةِ ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ إدماجٌ[٥] لإعادةِ إثباتِ البعثِ؛ تَرْسيخًا لعِلمِ المسلمينَ، وإبلاغًا لمَسامِعِ المُنكِرينَ؛ لأنَّهم أنكَروا ذلك في ضِمنِ اتِّخاذِهم أولياءَ مِن دُونِ اللهِ، فلمَّا أبْطَلَ مُعتقدَهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٩).

(٢) لكن قال أبو حيَّان: (ولا حاجةَ إلى تقديرِ شرطٍ محذوفٍ، والكلامُ يَتِمُّ بدونِه). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

إلهيَّةَ غيرِ اللهِ، أردَفَ بإبطالِ ما هو مِن عَلائقِ شِركِهم، وهو نفْيُ البَعثِ، وليس ذلك استدلالًا عليهم لإبطالِ إلهيَّةِ آلهتِهم؛ لأنَّ وُقوعَ البعثِ مَجحودٌ عِندَهم[١].

- وعطْفُ جُملةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لإثباتِ هذه الصِّفةِ للهِ تعالى؛ تَذكيرًا بانفرادِه بتَمامِ القُدرةِ، ويُفيدُ الاستدلالَ على إمكانِ البعثِ، ويُفيدُ الاستدلالَ على نفْيِ الإلهيَّةِ عن أصنامِهم؛ لأنَّ مَن لا يَقدِرُ على كلِّ شَيءٍ لا يَصلُحُ للإلهيَّةِ، والغرَضُ مِن هذا تَعريضٌ بإبلاغِه إلى مَسامعِ المشرِكين. ولَمَّا كان المقصودُ إثباتَ القُدرةِ للهِ تعالى عُطِفَتِ الجُملةُ على الَّتي قبْلَها؛ لأنَّها مِثلُها في إفادةِ الحُكمِ، وكانتْ إفادةُ التَّعليلِ بها حاصلةً مِن مَوقعِها عَقِبَها، ولو أُريدَ التَّعليلُ ابتداءً لَفُصِلَتِ الجُملةُ ولم تُعطَفْ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٠، ٤١).

الآيات (١٠-١٢)

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا
يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُنِيبُ﴾: أي: أَرجِعُ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إليه(١).

﴿فَاطِرُ﴾: أي: خالِقُ ومُبدِعُ ومُبتَدِئُ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه(٢).

﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾: أي: يَخلُقُكم ويُكَثِّرُكم، والذَّرْءُ: بَثُّ الخَلقِ وتَكثيرُه، وأصلُ (ذرأ) هنا: يدُلُّ على بَذْرٍ وزَرعٍ(٣).

﴿مَقَالِيدُ﴾: أي: مَفاتيحُ، وقيل: خَزائِنُ، ومالكُ المفاتيحِ مالكُ الخزائِنِ، قيل: هو فارسيٌّ معرَّبٌ، ومفردُ مقاليدَ إقليدٌ، وقيل: مُفردُها مِقْليدٌ ومِقْلادٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩، ٢٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٩٥)، ((المفردات)) =

﴿يَبْسُطُ﴾: أي: يُوَسِّعُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتدادِ الشَّيءِ[1].

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونهايتِه[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾

في هذه الآيةِ أوجُهٌ:

أحدُها -وهو المشهورُ عندَ المُعْرِبينَ-: أنَّ الكافَ زائدةٌ في خبرِ ﴿لَيْسَ﴾، و﴿شَىْءٌ﴾ اسمُها. والتَّقديرُ: ليس شَيءٌ مِثلَه. قالوا: ولولا ادِّعاءُ زيادتِها لَلَزِمَ أَنْ يكونَ له مِثْلٌ! وهو مُحالٌ؛ إذ يَصيرُ التَّقديرُ على أصالةِ الكافِ: ليس مِثلَ مِثلِه شَيءٌ، فنفى المُماثَلةَ عن مِثلِه، فثبَتَ أنَّ له مِثْلًا لا مِثلَ لذلك المَثْلِ! وهذا مُحالٌ، تَعالى اللهُ عن ذلك.

والثَّاني: أنَّ مِثْلًا هي الزَّائدةُ، كزيادتِها في قَولِه تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧]. وهذا ليس بجيِّدٍ؛ لأنَّ زيادةَ الأسماءِ ليسَتْ بجائزةٍ، وأيضًا يصيرُ التَّقديرُ: ليس كَهُوَ شَيءٌ، ودخولُ الكافِ على الضَّمائرِ لا يجوزُ إلَّا في شِعرٍ.

الثَّالثُ: أنَّ العربَ تقولُ: «مِثلُكَ لا يَفْعَلُ كذا»، يَعْنُون المُخاطَبَ نفْسَه؛ لأنَّهم

= للراغب (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

يُريدون المُبالَغةَ في نَفْيِ الوصفِ عن المُخاطَبِ، فيَنفونَها في اللَّفظِ عن مِثلِه، فيَثْبُتُ انتِفاؤُها عنه بدليلِها، فالعَرَبُ تُقيمُ المِثْلَ مُقامَ النَّفْسِ، فتقولُ: مِثلي لا يُقالُ له هذا، أي: أنا لا يُقالُ لي هذا.

الرَّابعُ: أَنْ يُرادَ بالمِثْلِ الصِّفةُ، وذلك أنَّ المِثْلَ بمعنى المَثَلِ، والمَثَلُ: الصِّفةُ، كقولِه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الرعد: ٣٥]، فيَكونَ المعنى: ليس مِثْلَ صِفَتِه تعالى شَيءٌ مِن الصِّفاتِ الَّتي لِغَيرِه[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موجِّهًا إلى الاحتكامِ إلى شريعتِه عندَ الاختلافِ: وما تَنازَعتُم فيه -أيُّها النَّاسُ- فحُكمُه إلى اللهِ وَحْدَه، وذلكم اللهُ هو رَبِّي عليه وَحْدَه اعتَمَدتُ، وإليه وَحْدَه أرجِعُ في جَميعِ شُؤوني.

ثُمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى كمالَ قدرتِه، فيقولُ: هو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، جعَل لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن جنسِكم إناثًا، وجعَل لكم مِنَ الأنعامِ ذُكورًا وإناثًا، يَخلُقُكم اللهُ ويُكثِّرُكم -أيُّها النَّاسُ- أنتم وأنعامُكم في هذا الجَعلِ المذكورِ.

ثُمَّ يقولُ منزِّهًا نفْسَه عن النِّدِّ والنَّظيرِ، ومُثبِتًا ما له مِن صفاتِ الكمالِ: ليس مِثلَ اللهِ شَيءٌ مِن خَلْقِه، وهو السَّميعُ البَصيرُ سُبحانَه.

له وَحْدَه مَفاتيحُ خَزائِنِ السَّمَواتِ والأرضِ، يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ منهم، إنَّ اللهَ عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٥١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٤٣-٥٤٦)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٢٣٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾.

أي: وما تَنازَعتُم فيه -أيُّها النَّاسُ- مِن أيِّ شَيءٍ كان، فحُكمُه إلى اللهِ وَحْدَه؛ فهو مَن يَقضي بيْنَكم فيما فيه تَختلِفونَ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (ذلك أنَّ أهلَ مكَّةَ كفَر بعضُهم بالقرآنِ، وآمَن بعضُهم، فقال الله تعالى: إنَّ الَّذي اختلَفْتُم فيه فإنِّي أرُدُّ قضاءَه إلَيَّ، وأنا أحكُمُ فيه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٥).

والمرادُ بهذا القولِ -كما ذكر الواحديُّ- أن يحكمَ يومَ القيامةِ للمؤمنينَ بالقرآنِ بالجنَّةِ، وللمكذِّبينَ به بالنَّارِ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥).

وقيل: المعنى في الجملة: وما اختلَفْتُم فيه أيُّها النَّاسُ مِن تكذيبٍ وتصديقٍ وإيمانٍ وكفرٍ وغيرِ ذلك مِن أمورِ الدِّينِ، فالحُكمُ فيه إلى الله، وهو إثابةُ المُحِقِّينَ فيه مِن المؤمنينَ، ومُعاقَبةُ المُبطِلينَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ أبي زَمَنين، والزمخشري، وابن عطية، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤١).

وقال الواحدي: (﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ ﴾ مِن أمرِ الدِّينِ ﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ لا إليكم، وقد حكم أنَّ الدِّينَ هو الإسلامُ لا غيرُه). ((الوجيز)) (ص: ٩٦١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧).

وممَّن قصَر الاختِلافَ في الآيةِ على أمورِ الدِّينِ أيضًا: القرطبيُّ، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

وقيل: هذا عامٌّ في أمورِ الدِّينِ وغيرِها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرَّسْعَني، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٨٥). =

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

أي: ذلِكم اللهُ العَظيمُ هو رَبِّي، عليه وَحْدَه اعتمَدْتُ، وإليه فوَّضْتُ جميعَ أُموري، وإليه وَحْدَه أرجِعُ في جميعِ شُؤوني، وأُقبِلُ عليه وأتوبُ إليه مِن ذُنوبي[1].

= قال ابن كثير: (﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مهما اختلَفْتُم فيه مِن الأمور، وهذا عامٌّ في جميع الأشياءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣).

وقال ابن عثيمين: (أيُّ شَيءٍ يقعُ بيْنَ النَّاسِ مِن الخلافِ فمَرَدُّه إلى الله عزَّ وجلَّ؛ سواءٌ كان في الأمورِ الدِّينيَّةِ أو في الأمورِ الدُّنيويَّةِ، وسواءٌ كان معَ المسلمينَ... أو كان معَ الكفَّارِ، أيُّ شَيءٍ فحُكمُه إلى الله عزَّ وجلَّ... مَردودٌ إلى الله في الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٨٦-٨٨).

قال البقاعي: (﴿أُنِيبُ﴾ أي: أرجِعُ بالتَّوبةِ إذا قصَّرتُ في شَيءٍ مِن فروعِ شرعِه، وأرجِعُ إلى كتابِه إذا نابَني أمرٌ مِن الأمور، فأعرِفُ منه حُكمَه، فافعلوا أنتم كذلك؛ اجعلوه الحَكَمَ تُفلحوا، ولا تَعدِلوا عنه في شَيءٍ مِن الأشياءِ فتَهلِكوا). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٥٦).

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: هو خالِقُ السَّمَواتِ السَّبعِ والأرضِ وما بَيْنَهما[1].

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾.

أي: جعَلَ اللهُ لكم مِن جنسِكم[2] إناثًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٤).

(٢) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أي: مِن جِنسِكم: الرَّسْعَنيُّ، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٥).

قال ابنُ عاشور: (وكَونُ الأزواجِ مِن أنفُسِهم كَمالٌ في النِّعمةِ؛ لأنَّه لو جَعَل أحَدَ الزَّوجَينِ مِن نَوعٍ آخَرَ لَفاتَ نَعيمُ الأُنسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤).

وقال الواحدي: (قال المفَسِّرون: يعني النِّساءَ، خَلَق حوَّاءَ مِن ضِلَعِ آدَمَ). ((البسيط)) (١٣/ ١٣٤).

وقال ابن جرير: (وإنَّما قال جَلَّ ثَناؤُه: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ لأنَّه خَلَق حَوَّاءَ مِن ضِلَعِ آدَمَ، فهُنَّ مِنَ الرِّجالِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤).

وقال الرازي: (قال بعضُهم: المرادُ أنَّه تعالى خَلَق حَوَّاءَ مِن ضِلَعِ آدَمَ. وهذا ضَعيفٌ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ خِطابٌ مع الكُلِّ، فتَخصيصُه بآدَمَ وحَوَّاءَ خِلافُ الدَّليلِ، بل هذا الحُكمُ عامٌّ في جميعِ الذُّكورِ والإناثِ. والمعنى: أنَّه تعالى خَلَق النِّساءَ لِيَتزوَّجَ بهِنَّ الذُّكورُ). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٤). ويُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ١٤)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾.

أي: وجعَل اللهُ لكم مِنَ الضَّأنِ والمَعْزِ والإبلِ والبَقَرِ ذُكورًا وإناثًا[1].

كما قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

= (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٥).

ممَّن اختار أنَّ المُرادَ بالأزواجِ: الإناثُ: ابنُ أبي زَمَنين، والسمعاني، وابنُ عطية، وابن الجوزي، وابن جُزَي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٥).

وقيلَ: المُرادُ: خلَقكم ذكورًا وإناثًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والماوَرْدي، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: ابنُ جرير، وابن أبي زمنين، والسمعاني، والرسعني، والعليمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٧).

قال ابن جُزَي: (﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ يحتملُ أن يريدَ الإناثَ، أو الأصنافَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٥).

﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾.

أي: يَخلُقُكم اللهُ ويُكثِّرُكم -أيُّها النَّاسُ- أنتم وأنعامُكم في هذا الجَعْلِ المذكورِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

قال ابن جزي: (﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ معنى ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾: يَخلُقُكم نسلًا بعدَ نسلٍ، وقرنًا بعدَ قرنٍ. وقيل: يُكَثِّرُكم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٥).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ معنى ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾: يخلقُكم: السمرقندي، والثعلبي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾: يُكَثِّرُكم: الرازيُّ، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيينِ السَّابقَينِ: ابنُ القيِّم، والبِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٣٠).

قال ابن القيم: (ومعنى الذَّرءِ: الخَلقُ، وهو هنا الخلقُ الكثيرُ، فهو خلقٌ وتكثيرٌ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٢٨٠).

وقال الشنقيطي: (﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ أي: يَخلُقُكم ويَبُثُّكم ويَنْشُرُكم). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٨).

واختُلِف في قوله: ﴿فِيهِۚ﴾؛ فالأكثَرون على أنَّ (في) على أصلِها. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٠).

واختلَف القائلون بهذا القولِ فيما يَعودُ عليه الضَّميرُ في قولِه: ﴿فِيهِۚ﴾؛ فقيل: يعودُ على الجَعلِ، وقيل: يعودُ على التَّدبيرِ، وقيل: يعودُ على الرَّحم، وقيل يعود على التَّزاوُج.

ممَّن ذهب إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿فِيهِۚ﴾ عائدٌ على الجَعلِ الَّذي يتضمَّنُه قولُه: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾: ابنُ عطية، وابن جُزَي، وابن القيِّم، والثعالبي، والشوكاني، وابن عاشور. ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠)، =

= ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

قال ابنُ جرير: (﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ يقولُ: يَخْلُقُكم فيما جَعَل لكم مِن أزواجِكم، ويُعِيشُكم فيما جَعَل لكم مِن الأنعام). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿فِيهِ﴾ يعودُ على التَّدبيرِ: الزمخشريُّ، والرازي، والنسفي، والنيسابوري، والعليمي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤).

قال النسفي: (﴿فِيهِ﴾: في هذا التَّدبيرِ، وهو أنْ جعَل النَّاسَ والأنعامَ أزواجًا حتَّى كان بيْنَ ذُكورِهم وإناثِهم التَّوالدُ والتَّناسُلُ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿فِيهِ﴾ يعودُ على الأرحامِ: القصَّابُ، والسمرقندي، والثعلبي، والرَّسْعَني، والقُرطبي، والخازن. يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٤٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٥).

وقال الشنقيطي: (﴿فِيهِ﴾ أي: فيما ذَكَر مِن الذُّكورِ والإناثِ، أي: في ضِمنِه عن طريقِ التَّناسُلِ، كما هو معروفٌ. ويُوَضِّحُ ذلك في قولِه تعالَى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]؛ فقولُه تعالَى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ يُوَضِّحُ معنَى قولِه: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾.

فإنْ قِيلَ: ما وجهُ إفرادِ الضَّميرِ المجرورِ في قولِه: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ معَ أنَّه على ما ذكرتُم عائِدٌ إلى الذُّكورِ والإناثِ مِن الآدميِّينَ والأنعامِ؟

فالجوابُ: أنَّ مِن أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ الَّتي نَزَل بها القرآنُ رُجوعَ الضَّميرِ أو الإشارةِ بصيغةِ الإفرادِ إلى مُثَنًّى أو مجموعٍ باعتبارِ ما ذُكِر مَثَلًا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٨).

وقال البقاعي: (﴿فِيهِ﴾ أي: في ذلك التَّزاوُجِ، بحيثُ يجعلُكم مُولَعينَ به). ((نظم الدرر)) (١/ ١٧).

وقيل: ﴿فِيهِ﴾ معناه: (بِهِ). وممَّن اختاره: الزَّجَّاج، والفرَّاء، والكرماني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٤٩).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

أي: ليس مِثلَ اللهِ سُبحانَه شَيءٌ من خَلْقِه؛ لا في ذاتِه ولا في أسمائِه، ولا في صِفاتِه ولا في أفعالِه؛ فهو الواحِدُ الأحَدُ الَّذي لا نَظيرَ له[1].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

أي: واللهُ هو السَّميعُ لكُلِّ صَوتٍ، البَصيرُ بكُلِّ ما في الوُجودِ؛ فلا يَغيبُ عن عِلْمِه شَيءٌ[2].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤).

أي: لله وَحْدَه مَفاتيحُ خزائِنِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ فجَميعُ الأشياءِ مِلكُه وبِيَدِه وَحْدَه لا شَريكَ له[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٨، ٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٢٤، ١٢٥).

قال ابن الجوزي: (وللمفسِّرينَ في المقاليدِ قَولانِ؛ أحدُهما: المفاتيحُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. والثَّاني: الخزائنُ، قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمقاليدِ: المفاتيحُ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، وابن جُزَي، والشنقيطي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٦١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٩).

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: مفاتيحُ السَّمواتِ: المطرُ، ومفاتيحُ الأرضِ: النَّباتُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥).

وقال النَّحَّاسُ: (قال الحسَنُ ومجاهدٌ وقَتادةُ: المقاليدُ: المفاتيحُ. قال أبو جعفر [النحاس]: والَّذي يَملِكُ المفاتيحَ يَملكُ الخزائنَ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٢٩٨). ويُنظَر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩١).

وقال الزَّجَّاجُ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ «الزمر» الآية (٦٣): (أي: مفاتيحُ السَّمَواتِ، المعنى: ما كان مِن شَيءٍ مِن السَّمَواتِ والأرضِ فاللهُ خالِقُه وفاتحُ بابِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٦١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: مفاتيحُ خزائِنِ السَّمواتِ والأرضِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والبغوي، والنيسابوري، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٨٦).

قال جلال الدين المحلي: (مفاتيحُ خَزائنِهما، مِن المطرِ والنَّباتِ وغيرِهما). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٩).

وقال الزمخشري: (أي: هو مالكُ أمرِها وحافِظُها، وهو مِن بابِ الكنايةِ؛ لأنَّ حافظَ الخزائنِ ومُدَبِّرَ أمْرِها هو الَّذي يَملكُ مَقاليدَها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٩٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يدُ اللهِ مَلْأَى لا تَغيضُها[١] نَفقةٌ، سَحَّاءُ[٢] اللَّيلَ والنَّهارَ، أرَأَيْتُم ما أنفقَ مُنذُ خَلَقَ السَّماءَ والأرضَ؟ فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَدِه، وكان عَرشُه على الماءِ، وبيَدِه الميزانُ، يَخفِضُ ويَرفَعُ))[٣].

= وقال البيضاوي: (لأنَّ الخزائنَ لا يَدخُلُها ولا يَتصرَّفُ فيها إلَّا مَن بيَدِه مَفاتيحُها). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمقاليدِ: الخرائنُ: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٨).

وقال القاسمي: (مفاتيحُ الأرزاقِ، وخزائنُ المُلكِ والمَلَكوتِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٨).

وقال البِقاعي: (أي: خزائنُهما، ومفاتيحُ خزائنِهما، مِن الأمطارِ والنَّباتِ وغيرِهما). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٦٢).

وقال ابن كثير في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ «الزمر» الآية (٦٣): (قال مجاهدٌ: المقاليدُ هي: المفاتيحُ بالفارسيَّةِ. وكذا قال قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ، وسُفيانُ بنُ عُيَينةَ. وقال السُّدِّيُّ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خزائنُ السَّمواتِ والأرضِ.

والمعنَى على كِلا القولَينِ: أنَّ أزِمَّةَ الأمورِ بيَدِه، له المُلْكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شَيءٍ قديرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢).

وأحال في سورةِ «الشورى» على ما تقدَّم في سورةِ «الزُّمَر»، ثمَّ قال: (وحاصلُ ذلك أنَّه المتصَرِّفُ الحاكِمُ فيهما). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤).

(١) لا تَغيضُها: أي: لا تَنقُصُها. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١٠/ ٣٨٦).

(٢) سَحَّاءُ: أي: دائِمةُ الصَّبِّ والهَطْلِ بالعَطاءِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٣٨٦).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٤) واللَّفظُ له، ومسلم (٩٩٣).

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

أي: يُوسِّعُ اللهُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُحيطٌ عِلمًا بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك مصالِحُ عِبادِه؛ فيَعلَمُ ما يُصلِحُهم ويُفسِدُهم مِن الغِنى والفَقرِ، ويُعطي كُلًّا مِنهم ما يَليقُ بحِكمتِه وتَقتَضيه مَشيئتُه، بما يُناسِبُ أحوالَهم مِن توسيعٍ أو تضييقٍ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أنَّ الواجِبَ عندَ الاختلافِ الرُّجوعُ إلى حُكْمِ اللهِ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٣]، فالآيةُ نَصٌّ صَريحٌ في أنَّ حُكمَ جميعِ ما تنازَعْنا فيه مَردودٌ إلى اللهِ وَحْدَه، وهو الحاكِمُ فيه على لِسانِ رَسولِه، فلو قُدِّمَ حُكمُ العَقلِ على حُكمِه لم يكُن هو الحاكِمَ بوَحيِه وكتابِه[٤]. وتدُلُّ أيضًا على الرُّجوعِ إلى المُحكَمِ مِن كتابِ اللهِ، والظَّاهِرِ مِن سُنَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا اختَلَفوا في تأويلِ آيةٍ واشتَبَه عليهم، وعلى تفويضِ ما لم تَصِلْ إلى دَرَكِه العُقولُ إلى اللهِ تعالى، بأن يُقالَ: اللهُ أعلَمُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٢).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٣).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ هذانِ الأصلانِ كثيرًا ما يَذكُرُهما اللهُ تعالى في كِتابِه؛ لأنَّهما يَحصُلُ بمَجموعِهما كَمالُ العَبدِ، ويَفوتُه الكَمالُ بفَوتِهما أو فَوتِ أحَدِهما، كقَولِه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقَولِه: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾(١) [هود: ١٢٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لَفْتُ نَظَرِ الإنسانِ إلى أنْ لا يَستعينَ إلَّا باللهِ تعالى؛ ولا يَسألَ إلَّا اللهَ تعالى؛ ولا يَتوكَّلَ إلَّا على اللهِ تعالى؛ وجْهُ ذلك: أنَّه هو الَّذي له مَقاليدُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ فإذًا لا تَلتفِتْ إلى غيرِه، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: ((إذا سألْتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاسْتَعِنْ باللهِ))(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ أنَّه لا بُدَّ أنْ يكونَ اختلافٌ بيْنَ النَّاسِ، وهذا هو الواقِعُ، يعني: لا يمكنُ أنْ تَرْفَعَ الاختِلافَ بيْنَ النَّاسِ! لا بُدَّ أنْ يَختلِفوا(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّ اللهَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٥).

والحديث أخرجه الترمذيُّ (٢٥١٦)، وأحمدُ (٢٧٦٣) مطوَّلًا.

صحَّحه الترمذي، وعبدُالحقِّ الإشبيليُّ في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، والقرطبي في ((التفسير)) (٨/ ٣٣٥)، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (١/ ١٦٠)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥١٦)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٤٨٨)، وحسَّنه ابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابن حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (١/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٢).

-تعالى- الحاكمُ بيْنَ عِبادِه بشرعِه في جميعِ أمورِهم(١). وفيه أيضًا تحريمُ الرُّجوعِ إلى القوانينِ البشريَّةِ عندَ الاختلافِ؛ لقولِه: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيرِه(٢)، فالحَلالُ هو ما أحلَّه اللهُ، والحرامُ هو ما حرَّمه اللهُ، والدِّينُ هو ما شَرَعه اللهُ؛ فكُلُّ تَشريعٍ مِن غَيرِه باطِلٌ، والعَمَلُ به بَدَلَ تَشريعِ اللهِ -عندَ مَن يَعتَقِدُ أنَّه مِثلُه أو خَيرٌ منه- كُفرٌ بَواحٌ لا نِزاعَ فيه(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مَفهومُه أنَّ اتِّفاقَ الأُمَّةِ حُجَّةٌ قاطِعةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يأمُرْنا أن نَرُدَّ إليه إلَّا ما اختلَفْنا فيه، فما اتَّفَقْنا عليه يكفي اتِّفاقُ الأُمَّةِ عليه؛ لأنَّها مَعصومةٌ عن الخَطَأِ، ولا بُدَّ أن يكونَ اتِّفاقُها مُوافِقًا لِما في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه(٤).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ فيه سؤالٌ: في ظاهِرِ هذه الآيةِ إشكالٌ؛ فإنَّه يُقالُ: المقصودُ منها نَفيُ المِثْلِ عن اللهِ تعالى، وظاهِرُها يُوجِبُ إثباتَ المِثْلِ لله تعالى؛ فإنَّه يَقتَضي نَفْيَ المَثْلِ عن مِثْلِه لا عنه، وذلك يُوجِبُ إثباتَ المِثْلِ لله تعالى!

الجوابُ: أنَّ العَرَبَ تَقولُ: مِثلُك لا يَبخَلُ، أي: أنت لا تَبخَلُ، فنَفَوُا البُخلَ عن مِثْلِه، وهم يُريدونَ نَفْيَه عنه، ويقولُ الرَّجلُ: هذا الكَلامُ لا يُقالُ لِمِثْلي، أي: لا يُقالُ لي. والمرادُ منه المُبالَغةُ؛ فإنَّه إذا كان ذلك الحُكمُ مُنتَفيًا عمَّن كان مُشابِهًا بسَبَبِ كَونِه مُشابِهًا له، فلَأَنْ يَكونَ مُنتَفيًا عنه كان ذلك أَوْلى(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٢).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٤، ٥٨٥). ويُنظر أيضًا: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ قَطْعُ الشَّبَهِ بيْنَه وبيْنَ الأشياءِ كلِّها، وإبطالٌ للقياسِ فيها[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يُفيدُ الحَصرَ، فما معنى هذا الحَصرِ مع أنَّ العِبادَ أيضًا مَوصوفونَ بكَونِهم سَميعينَ بَصيرينَ؟

الجوابُ: السَّميعُ والبَصيرُ لَفظانِ مُشعِرانِ بحُصولِ هاتَينِ الصِّفَتينِ على سَبيلِ الكَمالِ، والكَمالُ في كُلِّ الصِّفاتِ ليس إلَّا للهِ تعالى، فهذا هو المرادُ مِن هذا الحَصرِ[٢].

٧- تأمَّلْ قَولَه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعدَ قولِه سُبحانَه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: كيف ذَكَر سُبحانَه هذا النَّفيَ تَقريرًا للتَّوحيدِ، وإبطالًا لِمَا عليه أهلُ الشِّركِ مِن تَشبيهِ آلهتِهم وأوليائِهم به حتَّى عَبَدوهم معه، فحَرَّفَها المُحَرِّفونَ وجَعَلوها تُرْسًا لهم في نَفيِ صِفاتِ كَمالِه، وحَقائقِ أسمائِه وأفعالِه[٣]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ لا يَستلزِمُ التَّمثيلَ، ولو كان يَستَلزِمُ التَّمثيلَ لَكان كلامُ اللهِ تعالى مُتناقِضًا[٤]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أنَّه لا يجوزُ إثباتُ اسمٍ أو صِفةٍ للهِ تعالى مع التَّمثيلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٥، ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٣٠).

١٠- أنَّ تَمثيلَ اللهِ بخَلْقِه كُفرٌ؛ لِكَونِه تكذيبًا لِقَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(١)].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه دَليلٌ لِمَذهَبِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ مِن إثباتِ الصِّفاتِ، ونَفيِ مُماثَلةِ المَخلوقاتِ، وفيه رَدٌّ على المُشَبِّهةِ؛ في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وعلى المُعَطِّلةِ؛ في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فأوَّلُ الآيةِ تنزيهٌ مِن غيرِ تعطيلٍ، وآخِرُها إثباتٌ للصِّفاتِ مِن غيرِ تشبيهٍ ولا تمثيلٍ[(٢)]، فالمُمَثِّلُ يَعبُدُ صَنَمًا، والمُعَطِّلُ يَعبُدُ عَدَمًا[(٣)].

١٢- التَّعبيرُ بنفيِ التَّمثيلِ أحسَنُ مِن التَّعبيرِ بنفيِ التَّشبيهِ؛ لأنَّه هو الَّذي نفاه اللهُ في القرآنِ؛ فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(٤)].

١٣- شَمِلَ نفْيُ المُماثَلةِ في قولِه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ إبطالَ ما نسَبوا للهِ البناتِ، وهو مُناسَبةُ وُقوعِه عَقِبَ قولِه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٧١، ٧٢)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ١١١)، ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٠٣)، ((التدمرية)) لابن تيمية (ص: ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (١/ ٣١٧، ٣١٩)، ((الأسماء والصفات نقلًا وعقلًا)) للشنقيطي (ص: ٢٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥١٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٠٦)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٥٢٦)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٨) و (١٠/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣١٨). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٦٦، ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٧).

١٤- بَيَّن الله تعالى في آياتٍ كثيرةٍ صِفاتِ مَن يَستحِقُّ أنْ يكونَ الحُكمُ له، فعلى كُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَتَأَمَّلَها، ويُقابِلَها معَ صفاتِ البشرِ المشرِّعينَ للقوانينِ الوضعيَّةِ، فيَنظُرَ هل تَنطَبِقُ عليهم صِفاتُ مَن له التَّشريعُ؟! سبحانَ اللهِ وتعالَى عن ذلك. فإنْ كانت تنطَبِقُ عليهم -ولن تكونَ- فَلْيَتَّبِعْ تشريعَهم! وإنْ ظَهَر يقينًا أنَّهم أحقرُ وأخسُّ وأذلُّ وأصغرُ مِن ذلك، فَلْيَقِفْ بهم عندَ حَدِّهم، ولا يُجاوِزْه بهم إلى مَقامِ الرُّبوبيَّةِ. سبحانَه وتعالَى أنْ يكونَ له شريكٌ في عبادتِه أو حُكْمِه أو مُلْكِه. ومِن هذه الآياتِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ثمَّ قال مُبيِّنًا صِفاتِ مَن له الحُكمُ والتَّشريعُ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فهل في الكَفَرةِ الفَجَرةِ المُشَرِّعينَ للنُّظُمِ الشَّيطانيَّةِ مَن يَستَحِقُّ أن يُوصَفَ بأنَّه الرَّبُّ الَّذي تُفَوَّضُ إليه الأمورُ، ويُتوَكَّلُ عليه، وأنَّه خالقُ السَّمَواتِ والأرضِ ومُختَرِعُهما على غيرِ مِثالٍ سابِقٍ، وأنَّه هو الَّذي خَلَق للبَشَرِ أزواجًا، وخلَق لهم أزواجَ الأنعامِ الثَّمانيةَ، وأنَّه ليس كمِثْلِه شَيءٌ وهو السَّميعُ البصيرُ، وأنَّه له مَقاليدُ السَّمَواتِ والأرضِ، وأنَّه هو الَّذي يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ، وهو بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ؟! فعليكم -أيُّها المُسلِمونَ- أن تَتفَهَّموا صِفاتِ مَن يَستَحِقُّ أن يُشَرِّعَ ويُحَلِّلَ ويُحَرِّمَ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ هذا تَكملةً

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ٤٤٤، ٤٤٥).

للاعتِراضِ، فيَكونَ كلامًا مُوجَّهًا مِن اللهِ تعالى إلى النَّاسِ. ويجوزُ أن يكونَ ابتِداءَ كلامٍ مُتَّصِلًا بقولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾؛ فتعَيَّنَ أنْ يكونَ مَجموعُ هذا الكلامِ لِمُتكلِّمٍ واحدٍ؛ لأنَّ ضمائرَ (ربِّي، وتوَكَّلْتُ، وأُنِيبُ) ضَمائرُه، وتلك الضَّمائرُ لا تَصلُحُ أنْ تعودَ إلى اللهِ تعالى، ولا حَظَّ في سِياقِ الوحيِ إلى أحدٍ سِوى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فتَعيَّنَ تَقديرُ فِعلِ أمْرٍ بقَولٍ يَقولُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُمَلِ الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وإلى المسلِمينَ، والواوُ عاطفةٌ فِعلَ أمْرٍ بالقولِ، وحذْفُ القولِ شائعٌ في القُرآنِ بدَلالةِ القرائنِ؛ لأنَّ مادَّةَ الاختلافِ مُشعِرةٌ بأنَّه بيْنَ فَريقَينِ، وحالةَ الفَريقَينِ مُشعِرةٌ بأنَّه اختِلافٌ في أُمورِ الاعتقادِ الَّتي أنْكَرَها الكافرونَ مِن التَّوحيدِ والبَعثِ، والنَّفعِ والإضرارِ(١).

- ولَفظةُ ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ تَدُلُّ على العُمومِ، وهي بَيانٌ لإبهامِ (ما)، أيْ: أيُّ شَيءٍ اختَلفتُم فيه، والمرادُ -على قولٍ-: مِن أشياءِ الدِّينِ وشُؤونِ اللهِ تعالى(٢).

- يَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ مَقولَ قَولٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ الآيةَ [الشورى: ٧]، فتكونَ كلامًا مُستأنَفًا؛ لأنَّ الإنذارَ يَقتضي كلامًا مُنذَرًا به. ويجوزُ أنْ تكونَ مُتَّصلةً بجُملةِ ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ تكملةً للكلامِ الموجَّهِ مِن اللهِ، ويكونَ في قولِه: ﴿رَبِّي﴾ الْتفاتٌ مِن الخِطابِ إلى التَّكلُّمِ، والتَّقديرُ: ذلكم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤١).

اللهُ ربُّكم، وتكونَ جُملتا ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ مُعترِضتَينِ[١].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ لِتَمييزِ المشارِ إليه، وهو المفهومُ مِن ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهذا التَّمييزُ لإبطالِ الْتباسِ ماهيَّةِ الإلهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ على المشرِكينَ؛ إذ سَمَّوُا الأصنامَ آلهةً وأربابًا. وأُوثِرَ اسمُ الإشارةِ الَّذي يُستعمَلُ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾؛ لِقَصْدِ التَّعظيمِ بالبُعدِ الاعتباريِّ، اللَّازِمِ للسُّمُوِّ وشَرَفِ القَدْرِ، أي: ذلكم اللهُ العظيمُ، ويُتوصَّلُ مِن ذلك إلى تَعظيمِ حُكمِه، فالمعنى: اللهُ العظيمُ في حُكمِه هو ربِّي الَّذي توكَّلتُ عليه، فهو كافِيني منكم[٢].

- والإنابةُ: الرُّجوعُ، والمرادُ بها هنا في قولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ الكِنايةُ عن تَرْكِ الاعتمادِ على الغيرِ؛ لأنَّ الرُّجوعَ إلى الشَّيءِ يَستلزِمُ عدَمَ وُجودِ المطلوبِ عِندَ غيرِه[٣].

- وجِيءَ في فِعلِ ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ بصِيغةِ الماضي، وفي فِعلِ ﴿أُنِيبُ﴾ بصِيغةِ المضارعِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ توكُّلَه على اللهِ كان سابقًا مِن قَبلِ أنْ يَظهَرَ له تَنكُّرُ قَومِه له، فقد صادَفَ تَنكُّرُهم منه عبْدًا مُتوكِّلًا على ربِّه، وإذا كان تَوكُّلُه قد سبَقَ تَنكُّرَ قَومِه، فاستِمرارُه بعدَ أنْ كَشَّروا له عن أنيابِ العُدوانِ مُحقَّقٌ. وأمَّا فِعلُ ﴿أُنِيبُ﴾ فجِيءَ فيه بصِيغةِ المُضارِعِ؛ للإشارةِ إلى تَجدُّدِ الإنابةِ وطلَبِ المغفرةِ، ويُعلَمُ تَحقُّقُها في الماضي بمُقارنتِها لِجُملةِ ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾؛ لأنَّ المتوكِّلَ مُنيبٌ. ويَجوزُ أن يكونَ ذلك مِن الاحْتِباكِ[٤]، والتَّقديرُ: عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٣).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

تَوكَّلتُ وأتوكَّلُ، وإليه أنَبْتُ وأُنيبُ(١).

- وتَقديمُ المُتعلَّقَينِ في ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: لا أتوكَّلُ إلَّا عليه، ولا أُنيبُ إلَّا إليه(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَبرٌ ثانٍ عن الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ؛ أَعْقَبَ به أنَّه على كلِّ شَيءٍ قديرٌ؛ فإنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ مِن أبرَزِ آثارِ صِفةِ القُدرةِ المنفرِدِ بها(٣).

- قولُه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضميرِ ﴿فَاطِرُ﴾؛ لأنَّ مضمونَها حالٌ مِن أحوالِ فَطْرِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فإنَّ خلْقَ الإنسانِ والأنعامِ مِن أعجَبِ أحوالِ خلْقِ الأرضِ. ويَجوزُ كونُها خَبرًا ثالثًا عن ضَميرِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩]، والمعنى: قدَّرَ في تَكوينِ نوعِ الإنسانِ أزواجًا لأفرادِه، ولَمَّا كان ذلك التَّقديرُ مُقارِنًا لأصلِ تَكوينِ النَّوعِ، جِيءَ فيه بالفعلِ الماضي(٤).

- قولُه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ الخِطابُ في قولِه: ﴿لَكُم﴾ للنَّاسِ كلِّهم، والخِطابُ الْتفاتٌ مِن الغَيبةِ، واللَّامُ للتَّعليلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٣، ٤٤).

وتَقديمُ ﴿لَكُم﴾ على غيرِه مِن مَعمولاتِ ﴿جَعَلَ﴾؛ لِيُعرَفَ أنَّه مَعمولٌ لذلك الفِعلِ، فلا يُتوهَّم أنَّه صِفةٌ لـ﴿أَزْوَٰجًا﴾، ولِيكونَ التَّعليلُ به مُلاحَظًا في المعطوفِ بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾[١].

- وقولُه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ عطفٌ على ﴿أَزْوَٰجًا﴾ الأوَّلِ؛ فهو كمَفعولٍ لـ(جعَلَ)، والتَّقديرُ: وجعَلَ مِن الأنعامِ أزواجًا، أي: جعَلَ منها أزواجًا بعضَها لبعضٍ، وفائدةُ ذِكرِ أزواجِ الأنعامِ دونَ أزواجِ الوَحْشِ: أنَّ في أنواعِ الأنعامِ فائدةً لحياةِ الإنسانِ؛ لأنَّها تَعيشُ معه، ولا تَنفِرُ منه، ويَنتفِعُ بألبانِها وأصوافِها، ولُحومِها ونَسْلِها، وعمَلِها مِن حَمْلٍ وحَرْثٍ؛ فبِجَعْلِها أزواجًا حصَلَ مُعظَمُ نفْعِها للإنسانِ[٢].

- وضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ للمُخاطَبينَ بقولِه: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾، ومُرادُ شُمولِه لجَعْلِ أزواجٍ مِن الأنعامِ المتقدِّمِ ذِكرُه؛ لأنَّ ذِكرَ أزواجِ الأنعامِ لم يكُنْ هَمَلًا؛ بلْ مُرادًا منه زِيادةُ المِنَّةِ؛ فإنَّ ذَرْءَ نَسْلِ الإنسانِ نِعمةٌ للنَّاسِ، وذَرْءَ نَسْلِ الأنعامِ نِعمةٌ أُخرى للنَّاسِ؛ ولذلك اكتَفَى بذِكرِ الأزواجِ في جانبِ الأنعامِ عن ذِكرِ الذَّرءِ؛ إذ لا مَنْفعةَ للنَّاسِ في تَزاوُجِ الأنعامِ سِوى ما يَحصُلُ مِن نَسْلِها، وإذ كان الضَّميرُ ضَميرَ جَماعةِ العقلاءِ، وكان ضَميرَ خِطابٍ، في حينِ أنَّ الأنعامَ ليستْ عُقلاءَ ولا مُخاطَبةً؛ فقد جاء في ذلك الضَّميرِ تَغليبُ العُقلاءِ؛ إذ لم يُذْكَرْ ضَميرٌ صالحٌ للعُقلاءِ وغيرِهم، كأنْ يُقالَ: يَذْراكِ بكسْرِ الكافِ، على تأْويلِ إرادةِ خِطابِ الجَماعةِ، وجاء فيه تَغليبُ الخِطابِ على الغَيبةِ؛ فقد جاء فيه تَغليبانِ، وهو تَغليبٌ دقيقٌ؛ إذ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اجتمَعَ في لفظٍ واحدٍ نَوعانِ مِن التَّغليبِ(١).

- وجِيءَ بالمضارعِ في ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ، والتَّجدُّدُ أنسَبُ بالامتِنانِ(٢).

- ولَفظةُ (ذَرَأَ) -والذَّرْءُ: بَثُّ الخَلقِ وتكثيرُه- تَزيدُ على لفظةِ (خَلَقَ) معنًى آخَرَ ليس في (خلَقَ)، وهو تَوالي الطَّبَقاتِ على مَرِّ الزَّمانِ(٣).

- وحرْفُ (في) مُعبَّرٌ به عن معنى السَّببيَّةِ؛ تَشْبيهًا للسَّببِ بالظَّرفِ في احتوائِه على مُسبَّباتِه؛ كاحتواءِ المنبعِ على مائِه، والمَعدِنِ على تُرابِه، وفيه مُبالَغةٌ لِلْبَثِّ والتَّكثيرِ(٤).

- ومَوقعُ هذه الجُملةِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ كالنَّتيجةِ للدَّليلِ؛ فإنَّه لَمَّا قدَّمَ ما هو نِعَمٌ عَظيمةٌ، تَبيَّنَ أنَّ اللهَ لا يُماثِلُه شَيءٌ مِن الأشياءِ في تَدبيرِه وإنعامِه، ومعنى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: ليس مِثلَه شَيءٌ، فأُقْحِمَت كافُ التَّشبيهِ على (مِثلٍ) وهي بمعناه؛ لأنَّ معنى المِثْلِ هو الشَّبيهُ؛ فتَعيَّنَ أنَّ الكافَ مُفيدةٌ تأكيدًا لِمَعنى المِثلِ، وهو مِن التَّأكيدِ اللَّفظيِّ باللَّفظِ المرادِفِ مِن غَيرِ جِنْسِه، وحسَّنَه أنَّ المؤكَّدَ اسمٌ؛ فأشْبَهَ مَدخولَ كافِ التَّشبيهِ المخالِف لمعنى الكافِ، وإذ قد كان المثلُ واقعًا في حيِّزِ النَّفْيِ، فالكافُ تأْكيدٌ لِنَفْيِه، فكأنَّه نَفى المثلَ عنه تعالى بجُملتَينِ؛ تَعليمًا للمسلمينَ كيف يُبطِلون مُماثَلة

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤، ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

الأصنامِ للهِ تعالى[١].

- قَدَّمَ سُبحانَه نَفْيَ المُماثَلةِ على الإثباتِ مِن أجْلِ أنْ يَرِدَ الإثباتُ على قَلبٍ خالٍ مِن تَوَهُّمِ المُماثَلةِ، ويكونَ الإثباتُ حينَئذٍ على الوَجهِ اللَّائقِ به تعالى، وأنَّه لا يُماثَلُ في صِفاتِه كما لا يُماثَلُ في ذاتِه تعالى[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

- مَوقِعُ هذه الجُملةِ ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ كمَوقعِ الَّتي قبْلَها؛ تَتنزَّلُ مَنزِلةَ النَّتيجةِ لِما تقدَّمَه؛ لأنَّه إذا ثبَتَ أنَّ اللهَ هو الوليُّ، وما تَضمَّنَتْه الجُمَلُ بعدَها إلى قولِه: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١] مِن انفرادِه بالخَلقِ؛ ثبَتَ أنَّه المنفرِدُ بالرِّزق[٣].

- وتقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: هي مِلكُه لا مِلكُ غيرِه[٤].

- وجُملةُ ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ مُبيِّنةٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وبَسْطُ الرِّزقِ: توسِعتُه، وقَدْرُه: كِنايةٌ عن قِلَّتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٨، ٥٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥ - ٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩).

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ هو كالعِلَّةِ لقولِه: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: إنَّ مَشيئتَه جاريةٌ على حسَبِ عِلمِه بما يُناسِبُ أحوالَ المَرزوقينَ مِن بَسْطٍ أو قَدْرٍ. فهذه الجملةُ تعليلٌ لِما قبْلَها، وتَمهيدٌ لِما بعدَها مِن قولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ...﴾، وإيذانٌ بأنَّ ما شرع لهم صادرٌ عن كَمالِ العِلمِ والحِكمةِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩).

الآيات (١٢-١٥)

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ
إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ
إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا
جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ
ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ
كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ
بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ
بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شَرَعَ لَكُم﴾: أي: بيَّن وأوضَح لكم، والشَّرْعُ هو البيانُ والإظهارُ، وقيل: فتَح لكم وعرَّفكم الطَّريقَ، والشَّرْعُ: نهجُ الطَّريقِ الواضح، وأصلُ (شرع): شَيءٌ يُفتَحُ في امتِدادٍ يكونُ فيه(١).

﴿يَجۡتَبِيٓ﴾: أي: يَختارُ ويَصطَفي، والاجتِباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، وأصلُ (جبي): يدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٩٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (٧/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

﴿يُنِيبُ﴾: أي: يَرجِعُ ويَتوبُ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[١].

﴿بَغْيًا﴾: أي: فَسادًا وتَعدِّيًا، وأصلُ البَغيِ هنا: يدُلُّ على جِنسٍ مِنَ الفَسادِ[٢].

﴿أُورِثُوا﴾: أي: استُخْلِفوا، وأُوتوا، وأصلُه: أنْ يكونَ الشَّيءُ لقومٍ ثُمَّ يَصيرَ إلى آخَرينَ بِنَسَبٍ أو سَبَبٍ[٣].

﴿مُرِيبٍ﴾: أي: مُوقِعٍ في الرِّيبةِ، والرِّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قِسمٌ مِن الشَّكِّ، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتِفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا نِعمتَه بما شرَع مِن شرائعِ الدِّينِ: سَنَّ اللهُ لكم -أيُّها المُسلِمونَ- وبيَّن ما وصَّى به نوحًا وما أوحاه إلى مُحمَّدٍ، وما وصَّى به إبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذلك هو إقامةُ دينِ الإسلامِ، وعَدَمُ التَّفَرُّقِ والاختِلافِ فيه.

ثُمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى موقفَ المشركينَ مِن هذا الدِّينِ، فيقولُ: عَظُمَ وشَقَّ على

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١، ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٨).

المُشرِكينَ ما تَدعوهم إليه -يا محمَّدُ- مِن تَوحيدِ اللهِ وَحْدَه.

اللهُ يَصطَفي إليه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويَهدي إليه مَن يُقبِلُ عليه.

ثُمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سببَ اختِلافِ المختلِفينَ في أمرِ الدِّينِ، فيقولُ: وما تَفَرَّقوا إلَّا مِن بَعدِ ما جاءهم العِلمُ مِن اللهِ؛ بسَبَبِ فَسادِهم وعُدوانِ بعضِهم على بعضٍ، ولولا كَلِمةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- بتأخيرِ العذابِ وإمهالِهم إلى وَقتٍ مَعلومٍ، لَعجَّلَ العُقوبةَ لهم، وإنَّ اليهودَ والنَّصارَى الَّذين أُوتُوا الكِتابَ مِن بَعدِ أولئك المختلِفينَ في الحَقِّ: لَفي شَكٍّ مُوقِعٍ في الارتيابِ والاضطِرابِ مِن كتابِهم.

ثُمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالمُضيِّ في دعوتِه، فيقولُ: فلِذلك الدِّينِ الحَقِّ فادْعُ النَّاسَ -يا مُحمَّدُ- واستَقِمْ على الدِّينِ الَّذي أمَرَك اللهُ به، ولا تتَّبِعْ أهواءَهم، وقُلْ: آمَنتُ بما أنزَلَ اللهُ مِن الكُتُبِ كُلِّها، وأمرني ربِّي بأن أعدِلَ بيْنَكم، اللهُ رَبُّنا ورَبُّكم، لنا جَزاءُ أعمالِنا، ولكم جَزاءُ أعمالِكم، وسيُجازي اللهُ كُلًّا بعَمَلِه، لا جِدالَ ولا مُنازَعةَ بيْنَنا وبيْنَكم، اللهُ يَجمَعُ بينَنا وبينَكم يومَ القيامةِ، فيَقضي بينَنا بالحَقِّ، وإليه وَحْدَه مَرجِعُنا جَميعًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عظَّم اللهُ تعالى وحْيَه إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ

يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [الشورى: ٣]؛ ذكر في هذه الآيةِ تفصيلَ ذلك، فقال[١]:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾.

أي: سَنَّ اللهُ لكم وبيَّن -أيُّها المُسلِمونَ- ما وصَّى به نوحًا أن يَعمَلَه، وما أوحاه إلى مُحمَّدٍ، وما وصَّى به إبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذلك هو إقامةُ دينِ الإسلامِ الَّذي شَرَعه اللهُ، بلا تَحريفٍ ولا غُلُوٍّ ولا تَقصيرٍ في العَمَلِ به، مع الاجتِماعِ على ذلك، ونَبْذِ التَّفَرُّقِ والاختِلافِ فيه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٩-٤٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٢-١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٦٣-٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٢٨-١٣٦).

قال الزمخشري: (المرادُ: إقامةُ دينِ الإسلام الَّذي هو توحيدُ اللهِ وطاعتُه، والإيمانُ برُسُله وكُتُبه، وبيَومِ الجزاءِ، وسائِرِ ما يكونُ الرَّجُلُ بإقامتِه مُسلِمًا، ولم يُرِدِ الشَّرائعَ الَّتي هي مصالحُ الأُمَمِ على حَسَبِ أحوالِها؛ فإنَّها مختلِفةٌ مُتَفاوِتةٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٥).

وقال ابنُ العربي: (المعنى: ووصَّيْناك -يا محمَّدُ- ونوحًا دينًا واحِدًا، يعني في الأُصولِ الَّتي لا تختلِفُ فيها الشَّريعةُ، وهي: التَّوحيدُ، والصَّلاةُ، والزَّكاةُ، والصِّيامُ، والحَجُّ، والتَّقَرُّبُ إلى الله تعالى بصالحِ الأعمالِ، والتَّزَلُّفُ إليه بما يَرُدُّ القَلبَ والجارِحةَ إليه، والصِّدقُ، والوَفاءُ بالعَهدِ، وأداءُ الأمانةِ، وصِلةُ الرَّحِم، وتحريمُ الكُفرِ والقَتلِ والزِّنا، والإذايةِ للخَلقِ كيفما تصَرَّفَت، والاعتداءِ على الحيوانِ كيفما كان، واقتِحامِ الدَّناءاتِ، وما يعودُ بخَرمِ المروءاتِ؛ فهذا كُلُّه شُرِعَ دينًا واحِدًا ومِلَّةً مُتَّحِدةً لم يختلِفْ على ألسِنةِ الأنبياءِ... واختَلَفَت الشَّرائعُ وراءَ هذا في مَعانٍ حَسَبَما أراده اللهُ مِمَّا اقتضَتْه المصلحةُ، وأوجبت الحِكمةُ وَضْعَه في الأزمنةِ على الأُمَمِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٨٩، ٩٠). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٧، ١٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (الدِّينُ الَّذي اتَّفَقوا عليه: هو الأُصولُ، فتضَمَّنَ الكلامُ أشياءَ؛ أحَدُها: أنَّه شَرَع لنا الدِّينَ المشتَرَكَ، وهو الإسلامُ والإيمانُ العامُّ، والدِّينَ المختَصَّ بنا، وهو الإسلامُ والإيمانُ =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤، ١٠٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢، ٥٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((... الأنبياءُ إخوةٌ مِن عَلَّاتٍ[(١)]، وأُمَّهاتُهم شَتَّى، ودينُهم واحِدٌ ...))[(٢)].

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

أي: عَظُمَ وشَقَّ على المُشركينَ ما تَدعُوهم إليه -يا مُحمَّدُ- مِن تَوحيدِ اللهِ وطاعتِه، وتَرْكِ عبادةِ ما سِواه[(٣)].

= الخاصُّ. الثَّاني: أنَّه أمَرَنا بإقامةِ هذا الدِّينِ كُلِّه؛ المُشترَكِ والمختَصِّ، ونهانا عن التَّفرُّقِ فيه. الثَّالثُ: أنَّه أمَرَ المرسَلينَ بإقامةِ الدِّينِ المُشترَكِ، ونهاهم عن التَّفرُّقِ فيه). ((مجموع الفتاوى)) (١/ ١٣، ١٤).

وقال ابن عاشور: (الإقامةُ مُجمَلةٌ، يُفَسِّرُها ما في كُلِّ دينٍ مِن الفُروعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٣).

(١) العَلَّاتُ: هم الإخوةُ لأبٍ مِن أمَّهاتٍ شَتَّى، والمرادُ أنَّ إيمانَهم واحِدٌ، وشرائِعَهم مُختَلِفةٌ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٢٩١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١١٩، ١٢٠).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: اللهُ يَصطفي ويَختارُ لِنفْسِه وولايتِه مَن أحَبَّ مِن عبادِه[1].

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

= (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٢).

قال ابن عاشور: (وقد كبُرَ عليهم ذلك مِن ثلاثِ جِهاتٍ: جهةِ الدَّاعي؛ لأنَّه بشَرٌ مِثلُهم ﴿قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، ولأنَّه لم يكُنْ قبْلَ الدَّعوةِ مِن عُظماءِ القريتينِ ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. وجِهةِ ما به الدَّعوةُ؛ فإنَّهم حَسِبوا أنَّ اللهَ لا يُخاطِبُ الرُّسلَ إلَّا بكتابٍ يُنزِلُه إليه دَفْعةً مِن السَّماءِ، فقد قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٨]، والقائلونَ هم المشركونَ. ومِن جِهةِ ما تَضمَّنَتْه الدَّعوةُ ممَّا لم تُساعِدْ أهواؤُهم عليه؛ قالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٣٧).

أي: ويَهدي اللهُ إليه مَن يَتوبُ مِن ذُنوبِه، ويُقبِلُ على طاعتِه[١].

كما الله قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى باجتِماعِ المُسلِمينَ على دينِهم، ونهاهم عن التَّفرُّقِ، أخبَرَهم أنَّكم لا تَغتَرُّوا بما أنزَل اللهُ عليكم مِنَ الكِتابِ؛ فإنَّ أهلَ الكِتابِ لم يَتفرَّقوا حتَّى أنزَلَ اللهُ عليهم الكِتابَ الموجِبَ للاجتِماعِ، ففَعَلوا ضِدَّ ما يأمُرُ به كتابُهم! وذلك كُلُّه بَغْيًا وعُدوانًا منهم، فإنَّهم تباغَضوا وتحاسَدوا، وحصَلَت بيْنَهم المُشاحَنةُ والعَداوةُ، فوقَع الاختِلافُ؛ فاحذَروا -أيُّها المُسلِمونَ- أن تَكونوا مِثلَهم[٢].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن أنَّه أمَرَ كُلَّ الأنبياءِ والأُمَمِ بالأخذِ بالدِّينِ المُتَّفَقِ عليه، كان لِقائِلٍ أن يقولَ: فلماذا نَجِدُهم مُتفرِّقينَ؟ فأجاب اللهُ تعالى عنهم بقَولِه[٣]:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

أي: وما تفرَّقَ أهلُ الأديانِ فصاروا أحزابًا، وحصلَتْ منهم المُخالَفةُ إلَّا

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٨).

مِن بَعدِ ما جاءَهم العِلمُ مِن اللهِ بإقامةِ دِينِه، وعدَمِ التَّفَرُّقِ فيه، وإنَّما حَمَلهم على ذلك بَغْيُ بعضِهم على بعضٍ، وتحاسُدُهم، وطلبُهم للرِّئاسةِ، واشتِغالُهم بالدُّنيا، ولم يكُنْ تَفَرُّقُهم لقُصورٍ في البيانِ والحُجَجِ؛ فقد بلَغهم الحقُّ، وقامَتْ عليهم الحُجَّةُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص ١٤٣، ١٤٤).

ممن اختارَ في الجملةِ أنَّ معنى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أنَّه قد بلَغهم الحقُّ، وأُقيمتْ عليهم الحجةُ: مكي، وابن كثير، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير سورة الشورى- ابن عثيمين)) (ص: ١٤٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٣)

وقيل المعنى: إلا عن علْمٍ بأنَّ الفرقةَ ضلالةٌ وفسادٌ، وممن اختاره: الزجاج، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والرازي، والرسعني، والنسفي، والخازن، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٧).

قال ابن عاشور: (ومجيءُ العلمِ إليهم يُؤذِنُ بأنَّ رسلَهم بيَّنوا لهم مضارَّ التفرُّقِ من عهدِ نوحٍ... ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالعلمِ سببَ العلمِ، أي: إلَّا من بعدِ مجيءِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بصفاتِه الموافقةِ لما في كتابِهم، فتفرَّقوا في اختلاقِ المطاعنِ والمعاذيرِ الباطلةِ؛ لينفوا مطابقةَ الصِّفاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٦).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((تَفرَّقَتِ اليَهودُ على إحدى وسَبعينَ أو اثنَتَينِ وسَبعينَ فِرقةً، والنَّصارى مِثلَ ذلك، وتَفترِقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسَبعينَ فِرقةً))(١).

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾.

أي: ولولا قَولٌ سَبَق مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- بتأخيرِ العذابِ وإمهالِهم إلى وَقتٍ مُحَدَّدٍ، لَعجَّلَ العُقوبةَ لأولئك المتفَرِّقينَ في دينِهم بَغيًا بغَيرِ حَقٍّ(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠) واللفظ له، وابن ماجه (٣٩٩١)، وأحمد (٨٣٩٦).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وقال الشوكاني في ((الفتح الرباني)) (١/ ٢٠٧): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٦/ ١٦٩)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٦٤٠): (حسنٌ صحيح).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٣، ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥).

قال ابنُ عطية: (قال المفسِّرون: هي حَتمُه تعالى القَضاءَ بأنَّ مُجازاتَهم إنَّما تقَعُ في الآخرةِ، فلولا ذلك لَفَصَل بيْنَهم في الدُّنيا، وغَلَب المحِقُّ على المُبطِلِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠).

وقال القرطبي: (﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ قيل: القيامةُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ [القمر: ٤٦]. وقيل: إلى الأجَلِ الَّذي قضَى فيه بعذابِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بالكَلِمةِ: ما أراده اللهُ مِن إمهالِهم وتأخيرِ مُؤاخَذتِهم إلى أجَلٍ لهم اقتَضَتْه حِكمتُه في نظامِ هذا العالَمِ؛ فرُبَّما أخَّرَهم ثمَّ عذَّبَهم في الدُّنيا، ورُبَّما أخَّرَهم إلى عذابِ الآخرةِ، وكُلُّ ذلك يَدخُلُ في الأجَلِ المسَمَّى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٧).

قال الرازي: (واختَلَفوا في الَّذينَ أُريدوا بهذه الصِّفةِ مَن هُمْ؟ فقالَ الأكثرونَ: هم اليهودُ والنَّصارى، والدَّليلُ قولُه تعالَى في «آلِ عمرانَ» ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٩] وقالَ في سورةِ «لَمْ يَكُنْ»: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] ولأنَّ قولَه: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ لائقٌ بأهلِ الكتابِ، وقالَ آخرونَ: إنَّهم همُ العربُ، وهذا باطلٌ للوُجوهِ المَذْكورةِ، لأنَّ قولَه تعالَى =

كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

أي: وإنَّ اليهودَ والنَّصارَى الَّذين أُوتُوا الكتابَ؛ التَّوراةَ والإنجيلَ(١) من بَعدِ

= بعدَ هذه الآيةِ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ لا يليقُ بالعربِ، لأنَّ الَّذينَ أُورِثُوا الكتابَ مِنْ بعدِهم، هم أهلُ الكتابِ الَّذينَ كانوا في عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٨).

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالَّذين أُورِثوا الكتابَ: اليهودُ والنَّصارى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زَمَنين، ومكِّي، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٠/ ٦٥٧١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨).

وهذا القولُ نسَبه الرَّازيُّ للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٩).

وممَّن قصَر المرادَ بالَّذين أُورِثوا الكتابَ على اليهودِ والنَّصارى الَّذين عاصَروا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وصرَّحَ بذلك: ابنُ عطية، والرازي، وابن جزي، وأبو حيان، والعُليمي، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٧).

والمرادُ بالكتابِ على ذلك: التَّوراةُ والإنجيلُ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي =

أسلافِهم المُختَلِفينَ في الحَقِّ[1] لَفي شَكٍّ مُوجِبٍ للارتيابِ والاضطِرابِ مِن

= (١٠/ ٦٥٧١).

وقيل: المرادُ بالكتابِ: القرآنُ، والمرادُ بالَّذين أُورِثوا الكتابَ: اليهودُ والنَّصارى الَّذين أدركوا هذا القرآنَ. واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٥، ١٤٩).

قال ابن عطية: (وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إشارةٌ إلى مُعاصِري محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن اليهودِ والنَّصارى. وقيل: هي إشارةٌ إلى العربِ. والكتابُ: هو القرآنُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠).

وقيل: إنَّ المرادَ بهم: المشركون. وممَّن اختاره: النسفي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٩).

والمرادُ بالكتابِ على ذلك: القرآنُ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٩).

قال محمد رشيد رضا: (هذه الآيةُ ... تفسيرٌ لآيَتَيْ «هُودٍ» و«حم السَّجْدَة فُصِّلَتْ» فإنَّ الَّذينَ أُورِثوا الكتابَ مِن بعدِ مَن ذُكِر في الآياتِ هم اليهودُ والنَّصارَى الَّذينَ جَاؤوا بعدَ أنبيائِهم وقبلَ بعثةِ نَبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهؤلاءِ قَدْ عَرَض لهم مِن الشَّكِّ والرَّيبِ في كُتُبِهم ما لم يَكُنْ في عهدِ سَلَفِهم.

ومِن الغفلَةِ الشَّنيعَةِ والتَّكَلُّفِ البعيدِ أنْ يُفَسِّروا الكتابَ في آيةِ سورةِ «الشُّورَى» مَعَ هذا التَّفصيلِ فيها بالقرآنِ الَّذي وُصِف بأنَّه لا ريبَ فيه، ويَصِفوا الَّذينَ أُورِثوه بأنَّهم في شكٍّ مِنْه مُريبٍ، ولا يَصِحُّ أنْ يُقالَ فيمَنْ لم يُؤْمِنوا به: أُورِثوه، وكذلك الَّذينَ لم يُؤْمِنوا بموسَى وبعيسَى لا يُقالُ: إنَّهم أُورِثوا التَّوراةَ والإنجيلَ، وإنَّما يُقالُ: وَرِثَ الكتابَ مَن آمَن به، سواءٌ منهم مَن أحسَنَ العملَ ومَنْ أساءَ، كما قالَ تعالَى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، ولكنَّ الَّذينَ أخْطؤوا في فهمِ الآيتيْنِ المجملتيْنِ في السُّورتيْنِ حَمَلوا عليهما الآيةَ المُفصَّلَةَ وجَعَلوا تَفسيرَهنَّ واحدًا). ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٣٥).

(١) وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بَعدِ المختلِفينَ في الحقِّ: ابنُ جرير، ومكِّي ابن أبي طالب، والقرطبي، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢)، ((نظم =

كتابِهم[1].

= الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٩).

قال ابن عاشور: (ضميرُ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ عائدٌ إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿تَفَرَّقُوٓاْ﴾، وهم الَّذين خُوطِبوا بقولِه: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]) . ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٩).

وقيل: معنى ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بَعدِ أنبيائِهم. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبغويُّ، وابنُ الجوزي، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٦).

وقيل: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بَعدِ مَن قَبْلَهم مِن اليهودِ والنَّصارى، وبعبارةٍ أخرى: بَعْدَ مَن تقدَّمَهم أو بعدَ أوائلِهم. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زمنين، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨).

وقيل: معنى ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: هم المشركون أُورِثوا القرآنَ مِن بَعدِ ما أُورِث أهلُ الكتابِ التَّوارةَ والإنجيلَ. وممَّن اختاره: النسفي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

قيل: إنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿مِّنۡهُ﴾ يَرجِعُ إلى الكتابِ الَّذي عندَ اليهودِ والنَّصارى. وممَّن اختاره: مقاتلٌ، والزمخشري، والرازي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٤).

وقيل: إنَّ الضَّميرَ في ﴿مِّنۡهُ﴾ يرجعُ إلى القرآنِ. وممَّن اختاره: السمرقندي، وابنُ أبي زمنين، وأبو السعود، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٥).

وقيل: الضَّميرُ في ﴿مِّنۡهُ﴾ يرجعُ إلى محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: الواحدي، وابن الجوزي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٩).

وقيل: المقصودُ: الدِّينُ الَّذي وصَّى اللهُ به نوحًا، وأوحاه إلى مُحمَّدٍ، وأمَرَهما بإقامتِه. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٧١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠] و [فصلت: ٤٥].

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ثَبت بما تقدَّمَ زَيغُهم عن أوامِرِ الكِتابِ الآتي مِنَ اللهِ؛ سَبَّب عنه أمْرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإبلاغِ النَّاسِ ما يَنفَعُهم عن رِسالةِ رَبِّه الَّذي أنزَلَ تلك الكُتُبَ[١].

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾.

أي: فلِلدِّينِ الحَقِّ الَّذي شَرَعه اللهُ لكم، وأمَرَكم بإقامتِه وعَدَمِ التَّفَرُّقِ فيه- فادْعُ النَّاسَ، يا مُحمَّدُ[٢].

﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

أي: واثبُتْ على الدِّينِ الَّذي أمَرَك اللهُ به، فاستَمِرَّ على العَمَلِ به بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ، ولا إفراطٍ ولا تفريطٍ، ولا تَزِغْ عن ذلك[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [هود: ١١٢].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص ١٥١).

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

وعن سُفيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعْدَك. قال: قُلْ: آمَنتُ باللهِ، فاستَقِمْ))(١).

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾.

أي: ولا تَتَّبِعْ -يا مُحمَّدُ- أهواءَ أولئك المُنحَرِفينَ عن الحَقِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانوا قد تفرَّقوا في الكتابِ وشَكُّوا، فآمَنوا ببَعضٍ وكَفَروا ببَعضٍ؛ أمَرَه بما يخالِفُ حالَهم، فقال(٣):

﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: آمَنتُ بما أنزَلَ اللهُ مِنَ الكُتُبِ كُلِّها، فلا أُكذِّبُ بالتَّوراةِ

---

(١) رواه مسلم (٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٧٢).

ولا بالإنجيلِ ولا بالقُرآنِ، ولا بغَيرِ ذلك مِن كُتُبِ اللهِ الَّتي أنزَلَها على رُسُلِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾.

أي: وقُلْ: وأمَرَني ربِّي بأن أعدِلَ بيْنَكم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥، ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٤٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢).

قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ قالت فِرقةٌ: اللَّامُ في ﴿لِأَعْدِلَ﴾ بمعنى: «أن»، والتَّقديرُ: بأن أعدِلَ بيْنَكم. وقالت فِرقةٌ: المعنى: وأُمِرْتُ بما أُمِرْتُ به مِن التَّبليغِ والشَّرعِ؛ لكيْ أعدِلَ بيْنَكم، فحُذِفَ مِن الكلامِ ما يدُلُّ الظَّاهِرُ عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠).

وقال القرطبي: (قال ابنُ عبَّاسٍ وأبو العاليةِ: لِأُسَوِّيَ بيْنَكم في الدِّينِ، فأُومِنَ بكلِّ كتابٍ وبكلِّ رسولٍ. وقال غيرُهما: لِأَعدِلَ في جميعِ الأحوالِ. وقيل: هذا العدلُ هو العدلُ في الأحكامِ. وقيل: في التَّبليغِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ العدلُ في الحُكمِ: الزمخشريُّ، والرازي، والنسفي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦).

وممَّن اختار أنَّه العدلُ في الحُكمِ والتَّبليغِ: البيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨).

وقال الشوكاني: (وأُمِرْتُ لِأَعدِلَ بيْنَكم في أحكامِ اللهِ إذا تَرافَعْتُم إلَيَّ، ولا أَحِيفَ عليكم بزيادةٍ على ما شَرَعه اللهُ، أو بنُقصانٍ منه، وأُبَلِّغَ إليكم ما أمَرني اللهُ بتبليغِه كما هو). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨). =

كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

أي: اللهُ رَبُّنا ورَبُّكم، خالِقُ الجَميعِ ومالِكُهم ومُدَبِّرُ أمورِهم؛ فوجَبَت طاعتُه، وإقامةُ دينِه، وتَركُ التَّفَرُّقِ والاختِلافِ فيه[1].

﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

= وقال ابن القيِّم: (أُمِر بالعدلِ بيْنَهم، وهذا يَعُمُّ العدلَ في الأقوالِ والأفعالِ والآراءِ والمحاكماتِ كلِّها، فنصَبه ربُّه ومُرسِلُه للعدلِ بيْنَ الأُمَم). ((مِفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨).

وقال البِقاعي: (﴿بَيْنَكُمُ﴾ أيُّها المُفَرِّقون في الأديانِ مِن العربِ والعجمِ، مِن الجِنِّ والإنسِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٧٤).

واختار ابنُ تيميَّةَ أنَّ معنى ﴿بَيْنَكُمُ﴾ أي: بيْنَ النَّاسِ كُلِّهم. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٤٢).

وقال ابن عاشور: (وضميرُ ﴿بَيْنَكُمُ﴾ خِطابٌ لِلَّذينَ أُمِر بأنْ يُوَجِّهَ هذا القولَ إليهم، وهم اليهودُ، أي: أُمِرْتُ أنْ أُقيمَ بيْنَكم العدلَ بأنْ أدْعوكم إلى الحقِّ، ولا أظْلِمَكم لأجْلِ عداواتِكم، ولكنِّي أُنَفِّذُ أمرَ اللهِ فيكم، ولا أنْتَمي إلى اليهودِ ولا إلى النَّصارَى. ومعنَى ﴿بَيْنَكُمُ﴾: أنَّني أُقيمُ العدلَ بيْنَكم فلا تَرَوْنَ بيْنَكم جَوْرًا مِنِّي، فـ «بَيْنَ» هنا ظرفٌ مُتَّحِدٌ غيرُ مُوَزَّعٍ، فهو بمعنَى وَسَطَ الجَمعِ وخِلالَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٢).

قال ابنُ القيِّم: (أمَرَه أن يُخبِرَهم بأنَّ الرَّبَّ المعبودَ واحِدٌ، فما الحامِلُ للتَّفَرُّقِ والاختِلافِ وهو ربُّنا ورَبُّكم، والدِّينُ واحِدٌ، ولِكُلِّ عامِلٍ عمَلُه لا يَعدوه إلى غَيرِه؟!). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٥٨).

أي: لنا جَزاءُ أعمالِنا، ولكم جَزاءُ أعمالِكم، وسيُجازي اللهُ كُلًّا بحَسَبِ أعمالِه، ولن يُؤاخَذَ أحَدٌ مِنَّا بذَنْبِ الآخَرِ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾.

أي: لا جِدالَ ولا مُنازَعةَ بَينَنا وبيْنَكم؛ فقد تَبيَّنَ الحَقُّ وظهَرَ، وصِرتُم مَحجوجينَ به، ولم يَبقَ إلَّا الإقرارُ به أو العِنادُ؛ فلا وَجْهَ للجِدالِ والتَّنازُعِ والحالةُ هذه(٢)!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ١١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٣).

قال ابنُ عاشور: (جملةُ ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ دَعوةُ إنصافٍ، أي: أنَّ اللهَ يُجازي كُلًّا بعَمَلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١)، ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣١٦)، ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٣/ ٧١، ٧٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٤٥) و(٢/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا خُصومةَ، والحُجَّةُ هي ما يَحتَجُّ به الخَصمُ وإن كان باطِلًا؛ فليس مِن شَرطِ لَفظِ الحُجَّةِ أن تكونَ حَقًّا، بل إذا كانت حَقًّا سُمِّيَت بَيِّنةً وبُرهانًا ودَليلًا). ((الصفدية)) (٢/ ٣١٦).

قال السعدي: (﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: بعدَما تبيَّنَت الحقائقُ، واتَّضَح الحَقُّ مِنَ الباطِلِ، والهدى مِنَ الضَّلالِ- لم يَبْقَ للجِدالِ والمُنازَعةِ مَحَلٌّ؛ لأنَّ المقصودَ مِن الجدالِ إنَّما هو بيانُ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ؛ لِيَهتديَ الرَّاشِدُ، ولِتَقومَ الحُجَّةُ على الغاوي، وليس المرادُ بهذا أنَّ أهلَ =

كما قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾.

أي: اللهُ يَجمَعُ بيْنَنا وبيْنَكم يومَ القيامةِ، فيَقضي بيْنَنا بالحَقِّ فيما نختَلِفُ فيه، ويَتبَيَّنُ حينَئذٍ المُحِقُّ مِنَ المُبطِلِ[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُنا بعدَ مَوتِنا، فيَحكُمُ بَيْنَنا إذا صِرْنا إليه، ويُجازي كُلًّا مِنَّا بعَمَلِه[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ فيه نَهيٌ عن التَّفرِقةِ في الدِّينِ؛ لأنَّ التَّفَرُّقَ سَبَبٌ للهَلاكِ، والاجتِماعَ والأُلْفةَ سَبَبٌ للنَّجاةِ[3]. ومعنى الآيةِ:

= الكتابِ لا يُجادَلونَ! كيف واللهُ يقولُ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؟! وإنَّما المرادُ ما ذكَرْنا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

وقال الرَّسْعَني: (ذهب أكثَرُ المُفَسِّرينَ إلى نَسْخِ ما اشتمَلَت عليه هذه الآيةُ مِن مُنابَذةِ الكُفَّارِ ومُتارَكتِهم، وذهب جماعةٌ مِن المُفَسِّرينَ إلى أنَّها مُحْكَمةٌ، وأنَّ المعنى: لا حُجَّةَ بيْنَنا وبيْنَكم بعدَ ظُهورِ الحَقِّ ووُضوحِه؛ لأنَّ المُحاجَّةَ بعدَ ظُهورِ الحُجَّةِ لا حاجةَ إليها). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٨).

لِيَحصُلْ منكم الاتِّفاقُ على أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه، واحرِصوا على ألَّا تُفرِّقَكم المسائِلُ وتُحَزِّبَكم أحزابًا، وألَّا يُعادِيَ بَعضُكم بَعضًا، مع اتِّفاقِكم على أصلِ دينِكم[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ هذا السَّبَبُ الَّذي مِنَ العَبدِ يتوصَّلُ به إلى هدايةِ اللهِ تعالى، وهو إنابتُه لِرَبِّه، وانجِذابُ دَواعي قَلبِه إليه، وكَونُه قاصِدًا وَجْهَه؛ فحُسْنُ مَقصَدِ العَبدِ مع اجتِهادِه في طَلَبِ الهِدايةِ: مِن أسبابِ التَّيسيرِ لها[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أمرٌ بالاستِقامةِ، أي الدَّوامِ عليها؛ للإشارةِ إلى أنَّ كَمالَ الدَّعوةِ إلى الحَقِّ لا يَحصُلُ إلَّا إذا كان الدَّاعي مُستَقيمًا في نَفْسِه[٣].

٤- إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ الإنصافَ، بل هو أفضَلُ حِليةٍ تَحَلَّى بها الرَّجُلُ، خُصوصًا مَن نَصَب نَفْسَه حَكَمًا بيْنَ الأقوالِ والمذاهِبِ، وقد قال اللهُ تعالى لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾، فوَرَثةُ الرَّسولِ منصِبُهم العدلُ بيْنَ الطَّوائفِ، وألَّا يَميلَ أحدُهم مع قريبِه وذَوي مذهبِه وطائفتِه ومَتبوعِه، بل يكونُ الحقُّ مَطلوبَه، يَسيرُ بسَيْرِه، ويَنزِلُ بنُزولِه، ويَدينُ بدِينِ العدلِ والإنصافِ، ويُحكِّمُ الحُجَّةَ وما كان عليه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابُه[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ يُوجِبُ أن يَشتَغِلَ كُلُّ واحِدٍ في الدُّنيا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٧٨).

بنَفْسِه؛ فإنَّ اللهَ يَجمَعُ بيْنَ الكُلِّ في يومِ القيامةِ، ويُجازيه على عَمَلِه، والمقصودُ منه المُتارَكةُ، واشتِغالُ كُلِّ أحَدٍ بمُهِمِّ نَفْسِه(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أنَّ المرجِعَ إلى اللهِ خاصَّةً في كلِّ شَيءٍ؛ في الحُكْمِ الشَّرعيِّ، أو الحُكْمِ القَدَرِيِّ، أو الحُكْمِ في الدُّنيا، أو الحُكْمِ في الآخرةِ، ويَتفرَّعُ على هذه القاعدةِ: أنَّ الإنسانَ لا يَرجو، ولا يَخافُ، ولا يَدْعُو إلَّا اللهَ وحْدَه لا شريكَ له، ولا يَستغيثُ إلَّا باللهِ، ولا يَستعينُ إلَّا به(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أنَّ الأصلَ في العِباداتِ المَنعُ إلَّا بدَليلٍ(٣).

٢- قولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ ما لم يُنسَخْ مِن شَرعِ مَن قَبْلَنا شَرعٌ لنا(٤)، فشَرْعُ مَن قَبْلَنا -فيما لم يَرِدْ في شَرعِنا له وِفاقٌ ولا خِلافٌ- هو شَرعٌ لنا؛ لِدَلالةِ شَرعِنا عليه، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾(٥) [الأنعام: ٩٠].

٣- دينُ الأنبياءِ واحِدٌ وإن تنوَّعَت شَرائعُهم؛ قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩١).
وذَكَر أنَّ ما ورَدَت شَريعتُنا بخِلافِه فهذا لا نَعمَلُ به؛ لأنَّ شَريعتَنا ناسِخةٌ لجَميعِ الأديانِ، وما وَرَد شَرْعُنا بوِفاقِه فإنَّنا نَعمَلُ به؛ اتِّباعًا لِشَريعتِنا المُصَدِّقةِ لِما سَبَق من الشَّرائعِ.
ويُنظر: ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ١٩٢).

مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ أنَّ شَريعةَ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم حاويةٌ لفَضائلِ شرائعِ هؤلاء الرُّسُلِ المَخصوصينَ بالفَضلِ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ هذه الشَّرائعَ قِسمانِ: منها ما يمتَنِعُ دُخولُ النَّسخِ والتَّغييرِ فيه، بل يكونُ واجِبَ البَقاءِ في جميعِ الشَّرائِعِ والأديانِ، كالأمرِ بالصِّدقِ والعَدلِ والإحسانِ، والنَّهْيِ عن الكَذِبِ والظُّلمِ والإيذاءِ؛ ومنها ما يختَلِفُ باختِلافِ الشَّرائِعِ والأديانِ. ودَلَّت هذه الآيةُ على أنَّ سَعيَ الشَّرعِ في تقريرِ النَّوعِ الأوَّلِ أقوى مِن سَعْيِه في تقريرِ النَّوعِ الثَّاني؛ لأنَّ المواظَبَةَ على القِسمِ الأوَّلِ مُهِمَّةٌ في اكتِسابِ الأحوالِ المُفيدةِ لحُصولِ السَّعادةِ في الدَّارِ الآخِرةِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ أنَّ جَميعَ رُسُلِ اللهِ وأنبيائِه يُصَدِّقُ بَعضُهم بعضًا، لا يختَلِفونَ مع تَنَوُّعِ شَرائعِهم[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ أنَّ التَّفَرُّقَ في دِينِ اللهِ مُنافٍ للَّذي أَوحى اللهُ إلى رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم ووَصَّى به نوحًا وإبراهيمَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٧، ٥٨٨).

(٤) يُنظر: ((الحسنة والسيئة)) لابن تيمية (ص: ٩٠).

وموسى وعيسى عليهم السَّلامُ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ فيه إثباتُ مشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ لفِعْلِ العبدِ؛ فيكونُ فيها رَدٌّ على القَدَرِيَّةِ؛ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُستقِلٌّ بعَمَلِه، ولا مشيئةَ للهِ تعالى في فِعْلِه! وفي قولِه: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ الرَّدُّ على الجَبْرِيَّةِ؛ فقد أضاف الفِعلَ إلى العَبدِ، والجَبريَّةُ لا يُضيفونَ الأفعالَ إلى العَبدِ؛ بل يقولونَ: إنَّ العبدَ يَفعَلُ بغيرِ إرادةٍ ولا اختيارٍ[٢]!

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ مع قَولِه: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] مع العِلمِ بأحوالِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم، وشِدَّةِ إنابتِهم: دَليلٌ على أنَّ قَولَهم حُجَّةٌ، خُصوصًا الخُلفاءَ الرَّاشِدينَ رَضِيَ اللهُ عنهم أجمعينَ[٣].

١٠- قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ منهم مَن يُجيبُ إلى الدَّعوةِ، أي: اللهُ يَجتلِبُ إلى ما تَدْعُوهم إليه مَن يَشاءُ أنْ يَجْتبيَه إليه، وهو مَن صَرَف اختيارَه إلى ما دُعِيَ إليه، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، أي: يُقبِلُ إليه؛ حيثُ يُمِدُّه بالتَّوفيقِ والألطافِ[٤]. وفيه تسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٥].

١١- قولُه تعالى: ﴿بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ﴾ فيه أنَّ مَن خالفَ الدِّينَ بعدَ مجيءِ العلمِ فإنَّه باغٍ مُعْتَدٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤١، ١٤٢). ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٦).

١٢- البَغيُ إمَّا تضييعٌ للحقِّ، وإمَّا تَعَدٍّ للحدِّ؛ فهو إمَّا تَرْكُ واجبٍ، وإمَّا فِعلُ محرَّمٍ؛ فعُلِم أنَّ مُوجِبَ التَّفرُّقِ هو ذلك، والبغيُ الَّذي هو مجاوزةُ الحدِّ إمَّا تفريطًا وتضييعًا للحقِّ، وإمَّا عدوانًا وفعلًا للظلمِ. والبغيُ تارةً يكونُ مِن بعضِهم على بعضٍ، وتارةً يكونُ في حقوقِ الله، وهما مُتلازِمانِ؛ ولهذا قال: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾؛ فإنَّ كلَّ طائفةٍ بغَتْ على الأُخرَى، فلم تعرِفْ حقَّها الَّذي بأيديها، ولم تَكُفَّ عن العدوانِ عليها، فظهَرَ أنَّ سببَ الاجتِماعِ والأُلْفةِ: جمعُ الدِّينِ والعملُ به كلِّه، وهو عبادةُ الله وَحْدَه لا شريكَ له، كما أمَر به باطنًا وظاهرًا، وسببَ الفُرقةِ: ترْكُ حظٍّ مما أُمِر العبدُ به، والبغيُ بيْنَهم[١].

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ فيه إثباتُ كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا شكَّ أنَّ اللهَ تعالى مَوصوفٌ بالكلامِ؛ لأنَّه كمالٌ، وضِدُّ الكلامِ الخَرَسُ؛ والخَرَسُ نقصٌ، فلو نَفَيْنا الكلامَ؛ لَزِمَ مِن ذلك ثبوتُ الخَرَسِ! وهذا نقصٌ يُنَزَّهُ اللهُ تعالى عنه[٢].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ﴾ في هذه الآيةِ -مع كَونِها نازِلةً في مكَّةَ في زَمَنِ ضَعفِ المُسلِمينَ- إعجازٌ بالغَيبِ، يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سيَكونُ له الحُكمُ على يَهودِ بلادِ العَربِ، مِثلُ أهلِ خَيْبَرَ، وتَيْماءَ، وقُرَيْظةَ، والنَّضيرِ، وبَني قَيْنُقاعٍ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أنَّه يجوزُ تَوجيهُ الأمرِ لِمَن

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٤، ١٦، ١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢، ٦٣).

كان مُتَّصِفًا به مِن قَبْلُ؛ مِن أجْلِ الثَّباتِ عليه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم استقام كما أُمِرَ مِن حينِ ما أُرسِلَ، بل مِن حينِ ما بُعِثَ، لكِنَّ المرادَ بذلك الثُّبوتُ على هذا الشَّيءِ[(١)].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ لم يَقُلْ: «ولا تتَّبعْ دِينَهم»؛ لأنَّ حَقيقةَ دِينِهم الَّذي شَرَعه اللهُ لهم هو دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهم، ولكِنَّهم لم يَتَّبِعوه، بل اتَّبَعوا أهواءَهم، واتَّخَذوا دينَهم لَهْوًا ولَعِبًا[(٢)]!

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عَبْدٌ مأمورٌ؛ يُوَجَّهُ إليه الأمرُ؛ وليس له مِن الأمرِ شَيءٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وفيه ردٌّ على أولئك القَومِ الَّذين يَدَّعون أنَّ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم تَصَرُّفًا في الكَونِ؛ وتدبيرًا له! ومِن بابِ أَولَى أنْ يكونَ فيها رَدٌّ على القائلِينَ بأنَّ مَن دونَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ له تَصَرُّفٌ في الكَونِ؛ كقولِ الرَّافضةِ وبعضِ الصُّوفيَّةِ[(٣)].

١٨- قولُه تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ إشارةٌ إلى كَمالِ القُوَّةِ النَّظَريَّةِ، وقولُه: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ إشارةٌ إلى كَمالِ القوَّةِ العَمَليَّةِ[(٤)].

١٩- قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ اشتَمَلت هذه الآيةُ الكريمةُ على عَشْرِ كَلِماتٍ مُستَقِلَّاتٍ، كُلٌّ منها مُنفَصِلةٌ عن الَّتي قَبْلَها؛ لها حُكمٌ برأسِه، قالوا: ولا نظيرَ لها سِوى آيةِ الكُرسيِّ؛ فإنَّها أيضًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٩).

عَشَرةُ فُصولٍ كهذه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾

- هذا انتقالٌ مِن الامتِنانِ بالنِّعَمِ الجُثمانيَّةِ إلى الامتنانِ بالنِّعمةِ الرُّوحيَّةِ، بطَريقِ الإقبالِ على خِطابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ؛ للتَّنويهِ بدِينِ الإسلامِ، وللتَّعريضِ بالكفَّارِ الَّذين أعرَضوا عنه؛ فالجُملةُ ابتدائيَّةٌ[٢].

- قولُه: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ مُقدَّرٌ فيه مُضافٌ، أي: مِثلَ ما وصَّى به نوحًا، أو هو بتَقديرِ كافِ التَّشبيهِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ؛ مُبالغةً في شِدَّةِ المُماثَلةِ حتَّى صارَ المِثلُ كأنَّه عَيْنُ مِثلِه[٣].

- وتَقديمُ تَوصيةِ نوحٍ عليه السَّلامُ؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ كَونِ المشروعِ لهم دِينًا قديمًا[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فيه تَعقيبُ ذِكرِ دِينِ نوحٍ بما أُوحيَ إلى محمَّدٍ عليهما السَّلامُ؛ للإشارةِ إلى أنَّ دِينَ الإسلامِ هو الخاتَمُ للأديانِ، فعُطِفَ على أوَّلِ الأديانِ؛ جمْعًا بيْنَ طرَفَي الأديانِ، ثمَّ ذكَرَ بعدَهما الأديانَ الثَّلاثةَ الأُخَرَ؛ لأنَّها مُتوسِّطةٌ بيْنَ الدِّينَينِ المذكورَينِ قبْلَها، وهذا نسْجٌ بديعٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥، ٢٦).

مِن نَظْمِ الكلامِ، ولولا هذا الاعتبارُ لَكان ذِكرُ الإسلامِ مُبتدأً به، كما في قوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، وقولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ ...﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٧]. أو السِّرُّ في تَقديمِه على ما بَعدَه مع تَقدُّمِه عليه زَمانًا؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بإيحائِه(١).

- وقولُه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ هو ما سبَقَ نُزولُه قبْلَ هذه الآيةِ مِن القُرآنِ بما فيه مِن أحكامٍ؛ فعَطْفُه على ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾؛ لِما بيْنَه وبيْنَ ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ مِن المُغايَرةِ بزِيادةِ التَّفصيلِ والتَّفريعِ(٢).

- وعُدِلَ مِن (أَوْصينا) إلى ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، وأُتِيَ بكافِ الخِطابِ؛ لِيُؤْذِنَ بالفَرقِ بيْن تَوصيَتِهم وتَوصيَتِه، ولِمُراعاةِ ما وقَعَ في الآياتِ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ﴾ [الشورى: ٧]، وقولِه: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ [النحل: ١٢٣]، وقولِه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الكهف: ١١٠] [فصلت: ٦]، وغيرِ ذلك، ولِما في الإيحاءِ مِن التَّصريحِ برِسالتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ القامعِ لإنكارِ الكفَرةِ(٣).

- وأيضًا ذُكِرَ في جانبِ الشَّرائعِ الأربعِ السَّابقةِ فِعلُ ﴿وَصَّىٰ﴾، وفي جانبِ شَريعةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذُكِرَ فِعلُ الإيحاءِ؛ لأنَّ الشَّرائعَ الَّتي سبَقتْ شَريعةَ الإسلامِ كانتْ شرائعَ مُوَقَّتةً، مُقدَّرًا وُرودُ شَريعةٍ بعدَها؛ فكان العملُ بها كالعملِ الَّذي يَقومُ به مُؤتمَنٌ على شَيءٍ حتَّى يأتيَ صاحبُه، ولِيَقَعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥١، ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥).

الاتِّصالُ بيْنَ فِعلِ ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ وبيْنَ قوله في صَدْرِ السُّورةِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(١) [الشورى: ٣].

- وجِيءَ بالمَوصولِ (ما) في قولِه: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، وقولِه: ﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، أمَّا في قولِه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فجِيءَ بالموصولِ (الَّذي)، وهو تَفنُّنٌ بتَجنُّبِ تَكريرِ الكلمةِ ثلاثَ مَرَّاتٍ مُتوالياتٍ. وهناك فرْقٌ دَقيقٌ في الاستِعمالِ البليغِ لهذه الأسماءِ المَوصولةِ؛ وهو أنَّ (الَّذي) وأخَواتِه هي الأصلُ في المَوصولاتِ؛ فهي مَوضوعةٌ مِن أصلِ الوضعِ للدَّلالةِ على مَن يُعيَّنُ بحالةٍ مَعروفةٍ هي مَضمونُ الصِّلةِ، فاسمُ الموصولِ (الَّذي) يدُلُّ على مَعروفٍ عندَ المُخاطَبِ بصِلتِه، وأمَّا (مَا) المَوصولةُ فأصلُها اسمٌ عامٌّ نكرةٌ مُبهَمةٌ مُحتاجةٌ إلى صِفةٍ؛ فيَكونُ إيثارُ (ما) في مَوضِعَيْها لِمُناسَبةِ أنَّها شَرائعُ بَعُدَ العهدُ بها، فلم تكُنْ مَعهودةً عندَ المخاطَبينَ إلَّا إجمالًا، فكانتْ نَكِراتٍ لا تَتميَّزُ إلَّا بصِفاتِها، وأمَّا إيثارُ الموحَى به إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ باسمِ (الَّذي)؛ فلِأنَّه شرْعٌ مُتداوَلٌ فيهم، مَعروفٌ عِندَهم؛ فناسَبَه الاسمُ الموصولُ المُعرَّفُ، فالتَّقديرُ: شَرَعَ لكم شيئًا وصَّى به نُوحًا، وشيئًا وصَّى به إبراهيمَ ومُوسى وعِيسى، والشَّيءَ الموحَى به إليك. ولعلَّ هذا مِن نُكَتِ الإعجازِ المغفولِ عنها(٢).

وقيل: التَّعبيرُ عن الإيحاء عِندَ نِسبتِه إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بـ (الَّذي)؛ لِزيادةِ تَفخيمِ شأْنِه مِن تلك الحيثيَّةِ(٣).

- وفي العُدولِ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٢، ٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥).

بعدَ قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ الْتِفاتٌ؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتِناءِ بإيحائِه. وتَوجيهُ الخِطابِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بطَريقِ التَّلوينِ؛ للتَّشريفِ والتَّنبيهِ على أنَّه تعالى شرَعه لهم على لِسانِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

- والاقتِصارُ على ذِكرِ دِينِ نوحٍ وإبراهيمَ ومُوسى وعِيسى؛ لِما ذُكِرَ مِن عُلُوِّ شأْنِهم، ولأنَّ نوحًا أوَّلُ رسولٍ أرسَلَه اللهُ إلى النَّاسِ، فدِينُه هو أساسُ الدِّياناتِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، ولأنَّ دِينَ إبراهيمَ هو أصلُ الحَنيفيَّةِ، وانتشَرَ بيْنَ العرَبِ بدَعوةِ إسماعيلَ إليه؛ فهو أشهَرُ الأديانِ بيْنَ العربِ، وكانوا على أثارةٍ منه في الحجِّ والخِتانِ والقِرى والفُتوَّةِ، ودِينُ موسى هو أوسَعُ الأديانِ السَّابقةِ في تَشريعِ الأحكامِ، وأمَّا دِينُ عيسى؛ فلأنَّه الدِّينُ الَّذي سبَقَ دِينَ الإسلامِ، ولم يكُنْ بيْنَهما دِينٌ آخَرُ، ولِيَتضمَّنَ التَّهيئةَ إلى دَعوةِ اليهودِ والنَّصارى إلى دِينِ الإسلامِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ في سُورةِ (الأحزابِ) ذِكرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في التَّفصيلِ في قولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]؛ لبيانِ أفضليَّتِه؛ لأنَّ المَقامَ هنالك لسَردِ مَن أُخِذ عليهم الميثاقُ. وأمَّا هنا في آيةِ سُورةِ (الشُّورى)، فإنَّما أُورِدتْ في مَقامِ وصْفِ دِينِ الإسلامِ بالأصالةِ والاستِقامةِ، فكأنَّ اللهَ قال: شرَعَ لكم الدِّينَ الأصيلَ الَّذي بعَثَ به نوحًا في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥١).

العهدِ القديمِ، وبعَثَ به محمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- في العهدِ الحديثِ، وبعَثَ به مَن توسَّطَ بيْنَهما[١].

- و(أنْ) في قولِه: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مَصدريَّةً، والمصدرُ الحاصلُ منها في مَوضعِ بدَلِ الاشتِمالِ مِن (ما) المَوصولةِ الأُولى أو الأخيرةِ، وإذا كان بدلًا مِن إحداهما، كان في معنى البَدلِ مِن جميعِ أخواتِهما؛ لأنَّها سَواءٌ في المفعوليَّةِ لِفعلِ (شرَعَ) بواسطةِ العطفِ؛ فيكونُ الأمرُ بإقامةِ الدِّينِ والنَّهيُ عن التَّفرُّقِ فيه ممَّا اشتَمَلتْ عليه وِصايةُ الأديانِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ تَفسيريَّةً لمعنى ﴿وَصَّىٰ﴾؛ لأنَّه يَتضمَّنُ معنى القولِ دونَ حُروفِه؛ فالمعنى: أنَّ إقامةَ الدِّينِ، واجتِماعَ الكلمةِ عليه: أَوصَى اللهُ بها كلَّ رسولٍ مِن الرُّسلِ الَّذين سمَّاهم، وهذا الوجهُ يَقتضي أنَّ ما حُكِيَ شَرْعُه في الأديانِ السَّابقةِ هو هذا المعنى، وهو إقامةُ الدِّينِ المشروعِ كما هو، والإقامةُ مُجمَلةٌ يُفسِّرُها ما في كلِّ دِينٍ مِن الفروعِ[٢].

- وضَميرُ ﴿أَقِيمُواْ﴾ مُرادٌ به: أُمَمُ أولئك الرُّسلِ، ولم يَسبِقْ لهم ذِكرٌ في اللَّفظِ، لكنْ دلَّ على تَقديرِهم ما في فِعلِ (وصَّى) مِن معنى التَّبليغِ[٣].

- وقولُه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ شُروعٌ في بَيانِ أحوالِ بعضِ مَنْ شرَع لهم ما شرَعَ مِن الدِّينِ القويمِ[٤]. أو اعتراضٌ بيْن جُملةِ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ وجُملةِ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ [الشورى: ١٤].
ويُمكِنُ أنْ يكونَ استئنافًا بَيانيًّا جَوابًا عن سُؤالِ مَن يَتعجَّبُ مِن إعراضِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦).

المشرِكينَ عن الإسلامِ، مع أنَّه دِينٌ مُؤيَّدٌ بما سبَقَ مِن الشَّرائعِ الإلهيَّةِ! فأُجيبَ إجمالًا بأنَّه كبُرَ على المشركينَ وتَجَهَّموهُ وصعُبَ عليهم[١].

- وفي قولِه: ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ عُبِّرَ عن دَعوةِ الإسلامِ بـ (ما) المَوصولةِ؛ اعتبارًا بنُكرانِ المشركينَ لهذه الدَّعوةِ، واستِغرابِهم إيَّاها، وعَدِّهم إيَّاها من المُحالِ الغريبِ[٢].

- وجِيءَ بالفِعلِ المُضارِعِ في ﴿تَدْعُوهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ الدَّعوةِ واستِمرارِها[٣].

- قولُه: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ جَوابٌ عن سُؤالِ مَن يَسألُ: كيف كبُرتْ على المشرِكينَ دَعوةُ الإسلامِ؟ بأنَّ اللهَ يَجْتبي مَن يَشاءُ؛ فالمشركونَ الَّذين لم يَقترِبوا مِن هُدى اللهِ غيرُ مُجتبَيْنَ إلى اللهِ؛ إذ لم يَشَأِ اجتِباءَهم، أي: لم يُقدِّرْ لهم الاهتداءَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ردًّا على إحدى شُبَهِهم الباعثةِ على إنكارِهم رِسالتَه بأنَّ اللهَ يَجْتبي مَن يَشاءُ، ولا يَلزَمُه مُراعاةُ عَوائدِكم في الزَّعامةِ والاصطفاءِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ تَقديمُ المسنَدِ إليه -وهو اسمُ الجلالةِ- على الخبرِ الفِعليِّ؛ لإفادةِ القَصْرِ؛ ردًّا على المشرِكينَ الَّذين أحالُوا رِسالةَ بَشرٍ مِن عِندِ اللهِ، وحينَ أكبَروا أنْ يكونَ الضَّعفةُ مِن المؤمنينَ خيرًا منهم[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٥).

سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ شُروعٌ في بَيانِ أحوالِ أهلِ الكتابِ عَقِيبَ الإشارةِ الإجماليَّةِ إلى أحوالِ أهلِ الشِّركِ[1]. أو عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ، وفي الكلامِ حذْفٌ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ ﴾، تَقديرُه: فتَفرَّقوا، وضَميرُ ﴿تَفَرَّقُوٓا۟ ﴾ عائدٌ إلى ما عادَ إليه ضميرُ ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ ﴾ [الشورى: ١٣]، وهم أُمَمُ الرُّسُلِ المذكورينَ، أي: أَوْصَيْناهم بواسِطةِ رُسلِهم بأنْ يُقيموا الدِّينَ، دَلَّ على تَقديرِه ما في فِعلِ ﴿وَصَّىٰ ﴾ [الشورى: ١٣] مِن معنَى التَّبليغِ[2].

- قولُه: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ مَجيءُ العِلمِ إليهم يُؤذِنُ بأنَّ رُسلَهم بيَّنوا لهم مَضارَّ التَّفرُّقِ مِن عَهْدِ نُوحٍ عليه السَّلامُ. ويَجوزُ أن يكونَ المرادُ بالعِلمِ هنا سبَبَ العِلمِ، أي: إلَّا مِن بعْدِ مَجيءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بِصفاتِه الموافِقةِ لِما في كِتابِهم، فتَفرَّقوا في اختلاقِ المَطاعِنِ والمعاذيرِ الباطلةِ؛ لِيَنْفُوا مُطابَقةَ الصِّفاتِ. أو المعنى: وما تَفرَّقت أُمَمُهم في أدْيانِهم إلَّا مِن بعْدِ ما جاءهم العِلمُ على لِسانِ رُسلِهم مِن النَّهيِ عن التَّفرُّقِ في الدِّينِ مع بَيانِهم لهم مَفاسدَ التَّفرُّقِ وأضرارِه. وذكَرَ سبَبَ تفرُّقِهم بقولِه: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾، أي: تَفرَّقوا مِن أجْلِ العداوةِ بيْنَهم، أي: بيْنَ المُتفرِّقينَ، أي: لم يُحافِظوا على وَصايا الرُّسلِ، وهذا تَعريضٌ بالمشركينَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٦).

في إعراضِهم عن دَعوةِ الإسلامِ لِعَداوتِهم للمؤمنينَ[١].

- قولُه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ تَحذيرٌ للمؤمنينَ مِن مِثلِ ذلك الاختِلافِ، وتَنكيرُ لفظِ ﴿كَلِمَةٌ﴾ للتَّنويعِ؛ لأنَّ لِكلِّ فريقٍ مِن المتفرِّقينَ في الدِّينِ كلمةً من اللهِ في تأجيلِهم، وتَنْكيرُ كلمةِ ﴿أَجَلٍ﴾ أيضًا للتَّنويعِ؛ لأنَّ لكلِّ أُمَّةٍ مِن المتفرِّقينَ أجَلًا مُسمًّى؛ فهي آجالٌ مُتفاوِتةٌ في الطُّولِ والقِصَرِ، ومُختلفةٌ بالأزمنةِ والأمكنةِ[٢]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ...﴾ تأْكيدُ الخبرِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ، ومُجرَّدِ تَحقيقِه للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ، وهذا الاهتِمامُ كِنايةٌ عن التَّحريضِ للحذَرِ مِن مَكرِهم، وعدَمِ الرُّكونِ إليهم؛ لِظُهورِ عَداوتِهم؛ لئلَّا يَركَنوا إليهم[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للجنسِ؛ لِيَشملَ كتابَ اليهودِ وكتابَ النَّصارى[٤].

- قولُه: ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ شُبِّهَ تمكُّنُ الشَّكِّ مِن نُفوسِهم بإحاطةِ الظَّرفِ بالمظروفِ[٥].

- و(مِن) في قولِه: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ ابتدائيَّةٌ، ووقَعَ حرفُ (مِن) مَوقعَ باءِ المصاحَبةِ أو السَّببيَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ حذَفَ الفاعلَ هنا، وبَنى الفِعلَ للمفعولِ لَمَّا كان في مَعرِضِ الذَّمِّ لهم ونفْيِ العِلمِ عنهم، ولَمَّا كان في سِياقِ ذِكرِ نِعَمِه وآلائِه ومِنَّتِه عليهم قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [غافر: ٥٣]، ونَظيرُ هذه الآيةِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فإنَّه لَمَّا كان الكلامُ في سِياقِ ذمِّهم على اتِّباعِهم شِهواتِهم، وإيثارِهم العَرَضَ الفانيَ على حَظِّهم مِن الآخرةِ، وتَماديهم في ذلك؛ لم يَنسُبِ التَّوريثَ إليه، بل نسَبَه إلى المَحلِّ فقال: ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ولم يقُلْ: أوْرَثْناهُم الكتابَ(١).

- وأيضًا جاء نَظْمُ الآيةِ على أسلوبِ إيجازٍ يَتحمَّلُ معانيَ كثيرةً وما يَتفرَّعُ عنها؛ فجِيءَ بضَميرِ ﴿مِّنْهُ﴾ بعدَ تقدُّمِ ألفاظٍ صالحةٍ لأنْ تكونَ مَعادَ ذلك الضَّميرِ، وهي: لفظُ ﴿ٱلدِّينِ﴾ في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣]، ولفظُ (الَّذي) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣]، و(ما) المَوصولةُ في قولِه: ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وهذه الثَّلاثةُ مَدلولُها الإسلامُ، وهنالك لفظُ (مَا وَصَّيْنَا) [الشورى: ١٣] المتعدِّي إلى موسى وعِيسى، ولفظُ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وهذانِ مَدلولُهما كتابَا أهلِ الكتابِ. وهؤلاء الَّذين أُوتوا الكتابَ هم الموجودونَ في وقْتِ نُزولِ الآيةِ، والإخبارُ عنهم بأنَّهم في شَكٍّ ناشئٍ مِن تلك المَعاداتِ للضَّميرِ، معناه: أنَّ مَبْلَغَ كُفرِهم وعِنادِهم لا يَتجاوَزُ حالةَ الشَّكِّ في صِدقِ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٥، ١٩٦).

الرِّسالةِ المحمَّديَّةِ، أي: لَيسوا مع ذلك بمُوقِنينَ بأنَّ الإسلامَ باطلٌ، ولكنَّهم تَرَدَّدوا ثمَّ أقدَموا على التَّكذيبِ به حَسدًا وعِنادًا؛ فمِنهم مَن بقِيَ حالُهم في الشَّكِّ، ومنهم مَن أيقَنَ بأنَّ الإسلامَ حقٌّ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]. ويَحتملُ أنَّ المعنى: لَفِي شَكٍّ بصِدقِ القرآنِ، أو في شكٍّ ممَّا في كِتابِهم مِن الأمورِ الَّتي تَفرَّقوا فيها، أو ما في كِتابِهم مِن الدَّلالةِ على مَجيءِ النَّبيِّ الموعودِ به وصِفاتِه. فهذه مَعانٍ كَثيرةٌ تَتحمَّلُها الآيةُ، وكلُّها مُنطبِقةٌ على أهلِ الكتابَينِ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

- قولُه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ إلى آخِرِه [الشورى: ١٣]، المفسَّرِ بقولِه: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، المُخلَّلِ بعضُه بجُملٍ مُعترِضةٍ مِن قولِه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى ﴿مَن يُنِيبُ﴾[٢] [الشورى: ١٣].

- واللَّامُ في ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ يجوزُ أن تكونَ للتَّعليلِ، وتكونَ الإشارةُ بذلك إلى المذكورِ، أي: جميعِ ما تَقدَّمَ مِن الأمرِ بإقامةِ الدِّينِ، والنَّهيِ عن التَّفرُّقِ فيه، وتلَقِّي المشركينَ للدَّعوةِ بالتَّجهُّمِ، وتَلقِّي المؤمنينَ لها بالقَبولِ والإنابةِ، وتلقِّي أهلِ الكتابِ لها بالشَّكِّ، أي: فمِن أجْلِ جميعِ ما ذُكِر فادعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٠).

واستقِمْ، أي: مِن أجْلِ جميعِ ما تقدَّمَ مِن حُصولِ الاهتداءِ لِمَن هداهُم اللهُ، ومِن تبرُّمِ المشرِكينَ، ومِن شكِّ أهلِ الكتابِ؛ فادعُ. وتَقديمُ (لذلك) على مُتعلَّقِه -وهو فِعلُ (ادعُ)-؛ للاهتِمامِ بما احتوَى عليه اسمُ الإشارةِ؛ إذ هو مَجموعُ أسبابٍ للأمْرِ بالدَّوامِ على الدَّعوةِ. ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ في قولِه: ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ لامَ التَّقْويةِ، وتكونَ مع مَجرورِها مَفعولَ (ادعُ)، والإشارةُ إلى الدِّينِ مِن قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣]، أي: فادعُ لذلك الدِّينِ، وتَقديمُ المجرورِ على مُتعلَّقِه؛ للاهتمامِ بالدِّينِ(١).

- وفِعلُ الأمْرِ في قولِه: ﴿فَٱدْعُ﴾ مُستعمَلٌ في الدَّوامِ على الدَّعوةِ؛ بقرينةِ قولِه: ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾، وفي هذا إبطالٌ لِشُبهتِهم في الجهةِ الثَّالثةِ المتقدِّمةِ عِندَ قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾(٢) [الشورى: ١٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱدْعُ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مُؤكِّدةً لفاءِ التَّفريعِ الَّتي قبْلَها. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُضمَّنةً معنى الجزاءِ؛ لِما في تَقديمِ المجرورِ مِن مُشابَهةِ معنى الشَّرْطِ(٣).

- ولم يُذكَرْ مَفعولُ (ادعُ)؛ لِدَلالةِ ما تَقدَّمَ عليه، أي: ادعُ المشرِكينَ، والَّذين أُوتوا الكتابَ، والَّذين اهتَدَوْا وأنابُوا(٤).

- قولُه: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ الاستِقامةُ: الاعتدالُ، والسِّينُ والتَّاءُ فيها للمُبالَغةِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٠، ٦١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦١).

- والكافُ في ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ لِتَشبيهِ معنى المماثَلةِ، أي: دَعوةٍ واستِقامةٍ مِثل الَّذي أُمِرتَ به، أي: على وِفاقِه، أي: وافيةٍ بما أُمِرتَ به[١].

- قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ الاتِّباعُ يُطلَقُ على المُجاراةِ والموافَقةِ، وعلى المُحاكاةِ والمُماثَلةِ في العملِ، والمرادُ هنا كِلا الإطلاقَينِ؛ ليَرجِعَ النَّهيُ إلى النَّهيِ عن مُخالَفةِ الأمْرَينِ المأمورِ بهما في قولِه: ﴿فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ﴾[٢].

- وضَميرُ ﴿أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ للَّذين ذُكِروا مِن قبْلُ مِن المشركينَ والَّذين أُوتوا الكتابَ، والمقصودُ: نهْيُ المسلمينَ عن ذلك، مِن بابِ ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ ألا تَرى إلى قولِه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢]. ويَجوزُ أنْ يكونَ معنى ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾: لا تُجارِهم في مُعامَلتِهم، أي: لا يَحمِلْكَ طعْنُهم في دَعوتِك على عَدمِ ذِكرِ فَضائلِ رُسُلِهم، وهدْيِ كُتُبِهم -عدا ما بدَّلوه منها-، فأَعلِنْ بأنَّك مُؤمنٌ بكُتبِهم؛ ولذلك عُطِفَ على قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ قولُه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ الآيةَ، فمَوقعُ واوِ العطْفِ فيه بمَنزلةِ مَوقعِ فاءِ التَّفريعِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ بعدَ قوله: ﴿فَٱدۡعُ﴾ أمرٌ بمُخالَفةِ اليهودِ؛ إذ قالوا: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]؛ يَعْنونَ: التَّوراةَ، ﴿وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]؛ يَعْنونَ: الإنجيلَ والقُرآنَ، فأُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلمونَ بالإيمانِ بالكُتبِ الثَّلاثةِ الموحَى بها مِن اللهِ؛ فالمعنى: وقُلْ لِمَن يُهِمُّه هذا القولُ، وهم اليهودُ. وإنَّما أُمِرَ بأنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦١، ٦٢).

يقولَ ذلك؛ إعلانًا به وإبلاغًا لأسماعِ اليهودِ، وتَعريضًا بقولِهم: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، وجاء مُسْتطرَدًا، كما جاءتِ الآيةُ السَّابقةُ مُستطرَدةً فيهم، فلا يُقابِلُ إنكارَهم حَقِّيَّةَ كِتابه بإنكارِه حَقِّيَّةَ كِتابِهم، وفي هذا إظْهارٌ لِما تَشتمِلُ عليه دَعْوتُه مِن الإنصافِ(١).

- وقولُه: ﴿مِن كِتَابٍ﴾ بيانٌ لِما ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ فالتَّنكيرُ في ﴿كِتَابٍ﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: بأيِّ كِتابٍ أنزَلَه اللهُ، وليس يَومَئذٍ كِتابٌ مَعروفٌ غيرَ التَّوراةِ والإنجيلِ والقُرآنِ(٢).

- وجُملةُ ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ مِن المَأمورِ بأنْ يَقولَه؛ فهيَ مُستأنَفةٌ عن جُملةِ ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾، مُقرِّرةٌ لِمَضمونِها؛ لأنَّ المقصودَ مِن جُملةِ ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ بحَذافيرِها هو قولُه: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾؛ فهي مُقرِّرةٌ لِمَضمونِ ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾، وإنَّما ابتُدِئتْ بجُملتَي: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؛ تَمْهيدًا للغرضِ المقصودِ، وهو ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾؛ فلذلك كانتِ الجُملُ كلُّها مَفصولةً عن جُملةِ ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَابٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾(٣).

- والمقصودُ مِن قولِه: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أنَّنا مُتَّفِقون على تَوحيدِ اللهِ تعالى، أي: فاللهُ الشَّهيدُ علينا وعليكم إذ كذَّبتُم كِتابًا أُنزِلَ مِن عِندِه؛ فالخبرُ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٣).

مُستعمَلٌ في التَّسجيلِ والإلزامِ[(١)].

- وجُملةُ ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ دَعوةُ إنصافٍ، أي: إنَّ اللهَ يُجازي كُلًّا بعمَلِه، وهذا خَبرٌ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ والتَّنبيهِ على الخطأ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾ هي الغرَضُ المقصودُ بعدَ قولِه: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ﴾، أي: أَعدِلَ بيْنَكم، ولا أُخاصِمَكم على إنكارِكم صِدْقي[(٣)].

- والحُجَّةُ: الدَّليلُ الَّذي يدُلُّ المَسوقَ إليه على صِدقِ دَعوى القائم به؛ وإنَّما تكونُ الحُجَّةُ بيْن مُختلفَينِ في دَعوى، ونفْيُ الحُجَّةِ نفْيُ جِنسٍ يَجوزُ أنْ يكونَ كِنايةً عن نفْيِ المُجادَلةِ الَّتي مِن شأْنِها وُقوعُ الاحتجاجِ؛ كِنايةً عن عدَمِ التَّصدِّي لِخُصومتِهم؛ فيكونَ المعنى الإمساكَ عن مُجادَلتِهم؛ لأنَّ الحقَّ ظهَرَ وهم مُكابِرونَ فيه، وهذا تَعريضٌ بأنَّ الجدالَ معهم ليس بذي جَدْوى. ويَجوزُ أنْ يكونَ المنفيُّ جِنسَ الحُجَّةِ المفيدةِ، بمَعونةِ القرينةِ، والمعنى: أنَّ الاستِمرارَ على الاحتِجاجِ عليهم بعدَ ما أظهَرَ لهم مِن الأدِلَّةِ يكونُ مِن العبَثِ، وهذا تَعريضٌ بأنَّهم مُكابِرونَ[(٤)].

- والمرادُ بالجمْعِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾ الحشرُ لِفَصْلِ القضاءِ، فيَوْمَئذٍ يَتبيَّنُ المُحِقُّ مِن المُبطِلِ، وهذا كلامٌ مُنصِفٌ، ولَمَّا كان مِثلُ هذا الكلامِ لا يَصدُرُ إلَّا مِن الواثقِ بحقِّه، كان خِطابُهم به مُستعمَلًا في المُتارَكةِ والمُحاجَزةِ، فهذا تَعريضٌ بأنَّ القضاءَ سيَكونُ له عليهم[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٣، ٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٤).

- وتَقديمُ المسنَدِ إليه على الخبرِ الفِعليِّ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾ للتَّقَوِّي، أي: تَحقيقِ وُقوعِ هذا الجمْعِ، وإلَّا فإنَّ المخاطَبينَ -وهم اليهودُ- يُثبِتونَ البعثَ(١).

- وجُملةُ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾، والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ للاستِغراقِ، أي: مُصيرُ النَّاسِ كلِّهم، فبذلك كانتِ الجُملةُ تذييلًا بما فيها مِن العُمومِ، أي: مَصيرُنا ومَصيرُكم ومَصيرُ الخلْقِ كلِّهم(٢).



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٦-١٨)

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُحَآجُّونَ﴾: أي: يُجادِلونَ ويختَصِمونَ، والمُحاجَّةُ: أن يَطلُبَ كلُّ واحِدٍ أن يَرُدَّ الآخَرَ عن حُجَّتِه، وأصلُ (حجج): يدُلُّ على قَصدٍ[1].

﴿دَاحِضَةٌ﴾: أي: باطِلةٌ ذاهِبةٌ، يُقالُ: دَحَضَتْ حُجَّةُ فلانٍ، إذا لم تَثبُتْ، وأصلُ (دحض): يدُلُّ على زَوالٍ وزَلَقٍ[2].

﴿مُشۡفِقُونَ﴾: أي: خائِفون حَذِرونَ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[3].

﴿يُمَارُونَ﴾: أي: يَشُكُّون ويُجادِلونَ، والمِرْيَةُ: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

مِن الشَّكِّ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى مبيِّنًا سوءَ عاقِبةِ الَّذين يُجادِلونَ بالباطِلِ: والَّذين يُجادِلونَ المؤمِنينَ في شأنِ اللهِ بشُبُهاتِهم مِن بَعدِ دُخولِ النَّاسِ في دِينِه سُبحانَه، فإنَّ جِدالَهم باطِلٌ عندَ رَبِّهم، وعليهم غَضَبٌ مِنَ اللهِ، ولهم عَذابٌ شَديدٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن فضلِه على عبادِه، وحالَ الكافرينَ والمؤمنينَ بالنِّسبةِ ليوم القيامةِ، فيقولُ: اللهُ الَّذي أنزَلَ القُرآنَ على رَسولِه بالحَقِّ، وأنزل العَدْلَ؛ لِيُقضَى بيْنَ النَّاسِ بالإنصافِ، وما يُعلِمُك -يا مُحمَّدُ- لَعَلَّ وقتَ قيامِ القيامةِ قد دنا واقترَب، يَستعجِلُ مَجيئَها الَّذين لا يُؤمِنونَ بقيامِها؛ استِهزاءً وإنكارًا لِوُقوعِها. والَّذين آمَنوا بها خائِفونَ مِن قيامِها، ويَعلَمونَ أنَّها حَقٌّ لا شَكَّ فيه، ألَا إنَّ الَّذين يُجادِلونَ ويَشُكُّونَ في قيامِ السَّاعةِ لَفي ضَلالٍ بَعيدٍ عن الحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها تَقريرٌ لِقَولِه: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، فأخبَرَ هنا أنَّ الَّذين يُحاجُّونَ في اللهِ بالحُجَجِ الباطِلةِ والشُّبَهِ المُتناقِضةِ مِن بَعدِ ما استجابَ لله أولو الألبابِ والعُقولِ لَمَّا بَيَّنَ لهم مِن الآياتِ القاطِعةِ، والبَراهينِ السَّاطِعةِ؛ فهؤلاء

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

المجادِلونَ للحَقِّ مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ: حُجَّتُهُمْ باطِلَةٌ مَدفوعةٌ[(١)].

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: والَّذين يُجادِلونَ ويُنازِعونَ المُؤمِنينَ في شأنِ اللهِ بشُبُهاتِهم وحُجَجِهم -كالمُجادَلةِ في تَوحيدِه أو أسمائِه وصِفاتِه- مِن بَعدِ دُخولِ النَّاسِ في دينِه والإيمانِ به سُبحانَه؛ فإنَّ مُجادَلتَهم باطِلَةٌ عندَ اللهِ، ولا ثَباتَ لها ولا بَقاءَ[(٢)].

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

أي: وعليهم مِنَ اللهِ غَضَبٌ، ولهم مع ذلك عَذابٌ شَديدٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٥، ٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٩، ١٦٠).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: يُخاصِمون في دينِه. قال قَتادةُ: هم اليهودُ؛ قالوا: كتابُنا قبْلَ كتابِكم، ونبيُّنا قبْلَ نبيِّكم، فنحن خيرٌ منكم. وعلى قولِ مجاهِدٍ: هم المشركون؛ طَمِعوا أن تعودَ الجاهليَّةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧-٤٨٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: اليهودُ: الرازي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: المشركون: القرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦١).

قال الشنقيطي: (بيَّن تعالى ... أنَّ مِن أنواعِ جِدالِ الكفَّارِ: جِدالَهم للمؤمنينَ الَّذين استجابوا لله وآمَنوا به وبرسولِه، ليَرُدُّوهم إلى الكفرِ بعدَ الإيمانِ، وبيَّن بُطْلانَ حُجَّةِ هؤلاء، وتوعَّدَهم بغَضَبه عليهم، وعذابِه الشَّديدِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).
=

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ * ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ٨ - ١٠].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ مَن يُحاجُّ في دينِ الإسلامِ؛ صَرَّح بأنَّه تعالى هو الَّذي أنزَلَ الكِتابَ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّ حُجَجَه واضِحةٌ بَيِّنةٌ، بحيثُ استجابَ لها كُلُّ مَن فيه خيرٌ؛ ذَكَر أصلَها وقاعِدتَها، بل جميعُ الحُجَجِ الَّتي أوصَلَها إلى العبادِ تَرجِعُ إليه، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾، فالكِتابُ هو هذا القُرآنُ العَظيمُ، نَزَل بالحَقِّ، واشتَمَل على الحَقِّ والصِّدقِ واليَقينِ، وكُلُّه آياتٌ بَيِّناتٌ، وأدِلَّةٌ واضِحاتٌ، على جميعِ المطالِبِ الإلهيَّةِ، والعقائِدِ الدِّينيَّةِ، فجاء بأحسَنِ المسائِلِ، وأوضَحِ الدَّلائِلِ[2].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾.

= قِيلَ: المُرادُ بالعذابِ هنا: عَذابُ الآخِرةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (لعلَّ المرادَ به عذابُ السَّيفِ في الدُّنيا بالقَتلِ يومَ بَدرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٦).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: قَويٌّ، قد يكونُ في الدُّنيا، وقد يكونُ في الآخرةِ، وقد يكونُ فيهما). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

أي: اللهُ الَّذي أنزَلَ القُرآنَ على رَسولِه مُشتَمِلًا على الحَقِّ، وأنزَلَ العَدلَ؛ لِيُقضَى بيْنَ النَّاسِ بالإنصافِ، ويُحكَمَ فيهم بحُكمِ اللهِ تعالى[١].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

أي: وأيُّ شَيءٍ يُعلِمُك -يا مُحمَّدُ[٢]- لَعَلَّ وَقتَ مَجيءِ القيامةِ قد دنا واقتَرَبَ[٣]؟

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٤، ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٥، ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧).
وقيل: الخِطابُ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ، أي: وما يُدْريكَ أيُّها المُخاطَبُ. وممَّن اختاره: أبو حيَّان، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).
قال السمين الحلبي: (قولُه: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: إنَّما ذَكَّر ﴿قَرِيبٌ﴾ وإنْ كان خبَرًا لمؤنَّثٍ؛ لأنَّ السَّاعةَ في معنى الوَقتِ، أو البَعثِ، أو على مَعنى النَّسَبِ، أي: ذاتُ قُرْبٍ، أو على حَذفِ مُضافٍ، أي: مَجيءَ السَّاعةِ. وقيلَ: للفَرْقِ بيْنَها وبيْنَ قَرابةِ النَّسَبِ). ((الدر المصون)) (٩/ ٥٤٧).

ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾.

أي: يَطلُبُ التَّعجيلَ بمَجيءِ السَّاعةِ الَّذين لا يُؤمِنونَ بقيامِها؛ استِهزاءً مِنهم، أو إنكارًا وتكذيبًا لِوُقوعِها(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [النمل: ٧١، ٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بيوم القيامةِ خائِفونَ مِن مَجيءِ السَّاعةِ خَوفًا عَظيمًا، ويُوقِنونَ أنَّ مَجيئَها حَقٌّ لا شَكَّ فيه(٢).

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٨).

أي: ألَا إنَّ الَّذين يُجادِلونَ ويَشُكُّونَ[١] في قيامِ السَّاعةِ لَفي ذَهابٍ بَعيدٍ عن طَريقِ الحَقِّ والصَّوابِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أنَّ الَّذي يُجادِلُ -ولو فيما له فيه عِلْمٌ- إذا كان قصدُه إبطالَ الحقِّ وإثباتَ الباطِلِ؛ فلا شكَّ أنَّه مذمومٌ[٣].

٢- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾: أي خائِفونَ منها[٤]، وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وخوفُ القيامةِ وسيلةٌ إلى الاستعدادِ لها[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ

---

(١) قال الشَّوكاني: (أي: يُخاصِمونَ فيها مُخاصَمةَ شَكٍّ وريبةٍ، مِنَ المُماراةِ، وهي: المُخاصَمةُ والمُجادَلةُ، أو مِنَ المِرْيةِ: وهي الشَّكُّ والرِّيبةُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٩).

وقال البِقاعي: (يُظهِرونَ شَكَّهم في مَعرِضِ اللَّجاجةِ الشَّديدة؛ طَلبًا لظُهورِ شَكِّ غَيرِهم؛ مِن مَرَيتُ النَّاقةَ: إذا مَسَحْتَ ضَرْعَها بشِدَّةٍ للحَلْبِ؛ لِتَستخرجَ ما عساه يكونُ فيها مِنَ اللَّبَنِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي)) (٧/ ٦٨).

(٥) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٨).

عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ هذه عُقوبةُ كُلِّ مُجادِلٍ للحَقِّ بالباطِلِ[١].

٢- الحُجَّةُ في كتابِ اللهِ يُرادُ بها نوعانِ:

أحدُهما: الحُجَّةُ الحَقُّ الصَّحيحةُ، كقولِه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقولِه تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

والنَّوعُ الثَّاني: حُجَّةٌ يُرادُ بها مُطلَقُ الاحتِجاجِ بحَقٍّ أو بباطِلٍ، كقولِه هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، وقولِه: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقولِه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]، وقولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾[٢] [البقرة: ٢٥٨].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ أنَّ الحقَّ إذا ظَهَر وعُرِف، وكان مَقصودُ الدَّاعي إلى البِدعةِ إضرارَ النَّاسِ؛ قُوبِلَ بالعُقوبةِ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ يُشيرُ إلى الانتِصارِ على أهلِ الرِّدَّةِ، وضَربِهم بكُلِّ شِدَّةٍ؛ لِسُوءِ مَنزِلتِهم عِندَه، كما كَشَف عنه الحالُ، عندَ نَدْبِ الصِّدِّيقِ إليهم بالقِتالِ، رَضِيَ اللهُ عنه وأرضاه[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فيه إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ والمرادُ بالكتابِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٠).

هنا كلامُه عزَّ وجلَّ الَّذي أوحاه إلى رُسلِه؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ النُّزولَ يكونُ مِن الأعلَى إلى الأسفلِ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ فيه إثباتُ القياسِ؛ لأنَّ الميزانَ ما تُوزَنُ به الأشياءُ ويُقارَنُ بيْنَها، ففيه إثباتُ القياسِ في الشَّرائعِ السَّماويةِ[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَعلَمُ متى تقومُ السَّاعةُ؛ لقولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، أي: ما يُعلِمُك؟! وهذا حقٌّ ثابتٌ؛ فإنَّ جبريلَ عليه السَّلامُ سأل النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: متى السَّاعةُ، فقال: ((ما المَسؤولُ عنها بأعْلَمَ مِن السَّائلِ))[٣] يعني: كما أنَّك أنت تَجهَلُها؛ فأنا أجهلُها، ولهذا مَنِ ادَّعَى عِلْمَ السَّاعةِ فإنَّه كاذبٌ، مُكَذِّبٌ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[٤] [الأعراف: ١٨٧].

٨- كلُّ موضعٍ في القرآنِ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد عُقِّب ببيانِه؛ نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ١٠، ١١]، وكلُّ موضعٍ ذُكِر بلَفظِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ لم يُعقَّبْ ببيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).

وقال الفَرَّاءُ: (كلُّ ما كان في القرآنِ مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وما كان مِن قولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يُدْرِه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٨٠).

وأخرج ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧) بسندِه عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أخبَرَه). وأخرجه أيضًا ابنُ المُنذِرِ وابنُ أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٦٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ...﴾ إلخ [الشورى: ١٥]، وهو يَقتضي انتِقالَ الكلامِ؛ فلمَّا استوفَى حظَّ أهلِ الكِتابِ في شأْنِ المُحاجَّةِ معهم، رجَعَ إلى المشركينَ في هذا الشَّأنِ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾. وتَغييرُ الأُسلوبِ بالإتيانِ بالاسمِ الظاهرِ المَوصولِ، وكَونِ صِلتِه مادَّةَ الاحتِجاجِ، مُؤْذِنٌ بتَغييرِ الغَرَضِ في المُتحدَّثِ عنهم، مع مُناسَبةِ ما أُلحِقَ به مِن قولِه: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]، وقولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]؛ فالمقصودُ بـ (الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ) المشرِكونَ؛ لأنَّهم يُحاجُّونَ في شأْنِ اللهِ، وهو الوَحدانيَّةُ[1]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وقيل: إطلاقُ اسمِ الحُجَّةِ على شُبُهاتِهم مُجاراةٌ لهم بطَريقِ التَّهكُّمِ، والقرينةُ قولُه: ﴿دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾[2].

- ومَفعولُ ﴿يُحَآجُّونَ﴾ مَحذوفٌ، دلَّ عليه قولُه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾، والتَّقديرُ: يُحاجُّونَ المسْتَجيبينَ للهِ مِن بَعدِ ما اسْتَجابوا له، أي: اسْتَجابوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٦).
ويُنظر ما تقدَّم مِن القولِ بأنَّ الحُجَّةَ تُطلَقُ على مُطلَقِ الاحتِجاجِ (ص: ٤٣٦).

لِدَعْوتِه على لِسانِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- وأيضًا حُذِفَ فاعلُ ﴿ٱسۡتُجِيبَ﴾ إيجازًا؛ لأنَّ المقصودَ: مِن بَعدِ حُصولِ الاستِجابةِ المعروفةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ لم يُبيِّنْ وَجْهُ دَحضِ حُجَّتِهم؛ اكتِفاءً بما بُيِّنَ في تَضاعيفِ ما نزَلَ مِن القرآنِ مِن الأدِلَّةِ على فَسادِ تَعدُّدِ الآلهةِ، وعلى صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعلى إمكانِ البعْثِ، وبما ظهَرَ للعِيانِ مِن تَزايُدِ المسلمينَ يومًا فيومًا، وأمْنِهم مِن أنْ يُعْتدَى عليهم[٣].

- قولُه: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ الغضبُ: غضَبُ اللهِ، وإنَّما نُكِّرَ للدَّلالةِ على شِدَّتِه، ولم يُحتَجْ إلى إضافتِه إلى اسمِ الجَلالةِ أو ضَميرِه؛ لِظُهورِ المقصودِ مِن قولِه: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ فالتَّقديرُ: وعليهم غضَبٌ منه. وإنَّما قُدِّمَ المسنَدُ على المسنَدِ إليه بقولِه: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾؛ للاهتِمامِ بوُقوعِ الغضَبِ عليهم كما هو مُقتضَى حرْفِ الاستِعلاءِ، وكذلك القولُ في ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ كان مِن جُملةِ مُحاجَّةِ المشركينَ في اللهِ، ومِن أشَدِّها تَشْغيبًا في زَعمِهم: مُحاجَّتُهم بإنكارِ البعْثِ، وقد دحَضَ اللهُ حُجَّتَهم في مَواضِعَ مِن كِتابِه بنفْيِ استِحالتِه، وبدَليلِ إمْكانِه، وأَوْمَأَ هنا إلى مُقتضِي إيجابِه؛ فبيَّنَ أنَّ البعْثَ والجزاءَ حقٌّ وعدْلٌ، فكيف لا يُقدِّرُه مُدبِّرُ الكَونِ ومُنزِّلُ الكتابِ والميزانِ؟! وقد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أشارتْ إلى هذا المعنى آياتٌ كثيرةٌ؛ مِنها قولُه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقولُه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدُّخان: ٣٨- ٤٠]، وأكثرُها جاءَ نَظْمُها على نحوِ التَّرتيبِ الَّذي في نظْمِ هذه الآيةِ؛ مِن الابتِداءِ بما يُذكِّرُ بحِكمةِ الإيجادِ، وأنَّ تَمامَ الحِكمةِ بالجزاءِ على الأعمالِ(١).

- وقولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ استئنافٌ وبيانٌ لحُكمِه المأمورِ به في قولِه: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥]، وهي كالتَّخلُّصِ والتَّمهيدِ إلى ذِكرِ عِنادِهم، وهو استِعجالُهم بالسَّاعةِ بقولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾؛ لأنَّه يُؤذِنُ بمُقدَّرٍ يَقتضيهِ المعنى، تقديرُه: فجُعِلَ الجزاءُ للسَّائرينَ على الحقِّ، والناكِبينَ عنه في يومِ السَّاعةِ، فلا مَحيصَ للعِبادِ عن لِقاءِ الجزاءِ، وما يُدْرِيك لعلَّ السَّاعةَ قريبٌ(٢).

- وقولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ هذه الجُمْلةُ مَوقعُها مِن جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٦] مَوقعُ الدَّليلِ، والدَّليلُ مِن ضُروبِ البَيانِ؛ ولذلك فُصِلَتِ الجُملةُ عن الَّتي قبْلَها -أي: لم تُعطَفْ عليها-؛ لشِدَّةِ اتِّصالِ معناها بمَعنى الأُخرَى(٣).

- والإخبارُ عن اسمِ الجلالةِ باسمِ المَوصولِ الَّذي مَضمونُ صِلَتِه إنزالُه الكتابَ والميزانَ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾؛ مِن أجْلِ ما في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٧).

المَوصوليَّةِ مِن الإيماءِ إلى وَجْهِ بناءِ الخبرِ الآتي، وأنَّه مِن جِنسِ الحقِّ والعدْلِ[١].

- ولامُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ لِتَعريفِ الجنسِ، أي: إنزالُ الكتُبِ، وهو يَنظُرُ إلى قولِه آنِفًا: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾[٢] [الشورى: ١٥].

- والباءُ في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للمُلابَسةِ، أي: أنزَلَ الكتُبَ مُقترِنةً بالحقِّ، بَعيدةً عن الباطلِ[٣].

- والميزانُ هنا معبَّرٌ به عن العدْلِ والهُدى؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿أَنزَلَ﴾؛ فإنَّ الدِّينَ هو المُنزَّلُ، والدِّينُ يدْعو إلى العدْلِ والإنصافِ في المجادَلةِ في الدِّينِ، وفي إعطاءِ الحُقوقِ؛ فشُبِّهَ بالميزانِ في تَساوي رُجحانِ كِفَّتَيْه[٤].

- وجُملةُ ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، والمُناسَبةُ هي إيذانُ تلك الجُملةِ بمُقدَّرٍ، وهو: فجُعِلَ الجزاءُ للسَّائرينَ على الحقِّ والناكِبينَ عنه في يومِ السّاعةِ؛ فلا مَحيصَ للعِبادِ عن لِقاءِ الجزاءِ[٥].

- وكلمةُ ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ جاريةٌ مَجْرَى المَثَلِ، والكافُ منها خِطابٌ لِغَيرِ مُعيَّنٍ -على قولٍ-، و(ما) استفهاميَّةٌ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ والتَّهيئةِ، والمعنى: أيُّ شَيءٍ يُعلِمُك أيُّها السَّامعُ السَّاعةَ قريبًا[٦]؟

- وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾، وفي (الأحزابِ):

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٧، ٦٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٨، ٦٩).

﴿تَكُونُ قَرِيبًا﴾، زِيدَ معه ﴿تَكُونُ﴾؛ مُراعاةً للفواصلِ[(١)].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾

- جُملةُ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ حالًا مِن ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ [الشورى: ١٧]. ويَجوزُ أنْ تكونَ بَيانًا لِجُملةِ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]؛ لِما تَضمَّنتْه مِن التَّنبيهِ والتَّهيئةِ بالنِّسبةِ إلى فَريقَي المؤمنينَ بالسَّاعةِ، والَّذين لا يُؤمِنونَ بها، فذكَرَ فيها حالَ كِلا الفريقَينِ تُجاهَ ذلك التَّنبيهِ؛ فأمَّا المشركونَ فيَتلقَّوْنَه بالاستِهزاءِ والتَّصميم على الجحْدِ بها، وهو المرادُ بقولِه: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، والَّذين آمَنوا بها يَعمَلونَ لِما به الفوزُ عِندَها؛ ولذلك جِيءَ عَقِبَها بجُملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[(٢)].

- والاستِعجالُ: طلبُ التَّعجيلِ، أي: يَطلُبُ الَّذين لا يُؤمِنونَ بالسَّاعةِ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُعجِّلَ اللهُ بحُلولِ السَّاعةِ لِيَبينَ صِدقُه؛ تَهكُّمًا واستِهزاءً، وكِنايةً عن اتِّخاذِهم تأخُّرَها دليلًا على عَدمِ وُقوعِها، وهم آيِسُونَ منها، كما دلَّ عليه قولُه في مُقابِلِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾[(٣)].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾، أي: مُشفِقونَ مِن أهْوالِها، وجُعِلَ الإشفاقُ مِن ذاتِ السَّاعةِ؛ لإفادةِ تَعظيمِ أهوالِها حتَّى كأنَّ أهوالَها هي ذاتُها[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٠).

- والمرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾: المشرِكونَ، وعُبِّرَ عنهم بالمَوصولِ؛ لأنَّ الصِّلةَ تدُلُّ على عِلَّةِ استِعجالِهم بها، والمرادُ بـ (الَّذِينَ آمَنُوا): المسلِمونَ؛ فإنَّ هذا لَقَبٌ لهم، ففي الكلامِ احتِباكٌ[1]، تَقديرُه: يَستعجِلُ بها الَّذين لا يُؤمِنونَ بها فلا يُشفِقونَ منها، والَّذين آمَنوا مُشفِقونَ منها فلا يَستعجِلونَ بها[2].

- وعُطِفتْ على ﴿مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ جملةُ ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾؛ لإفادةِ أنَّ إشفاقَهم منها إشفاقٌ عن يَقينٍ وجَزْمٍ، لا إشفاقٌ عن تَرَدُّدٍ وخَشْيةِ أنْ يَكشِفَ الواقعُ عن صِدقِ الإخبارِ بها، وأنَّه احتمالٌ مُساوٍ عِندَهم[3].

- وتَعريفُ الحَقِّ في قولِه: ﴿أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وهو يُفيدُ قَصْرَ المسنَدِ على المسنَدِ إليه قصْرَ مُبالَغةٍ؛ لِكَمالِ الجنسِ في المسنَدِ إليه، أي: يُوقِنونَ بأنَّها الحقُّ كلَّ الحقِّ؛ وذلك لِظُهورِ دَلائلِ وُقوعِها حتَّى كأنَّه لا حَقَّ غيرُه[4].

- وجُملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ تَذييلٌ لِما قبْلَها بصَريحِها وكِنايتِها؛ لأنَّ صَريحَها إثباتُ الضَّلالِ للَّذين يُكذِّبونَ بالسَّاعةِ، وكِنايتَها إثباتُ الهُدى للَّذين يُؤمِنونَ بالسَّاعةِ، وهذا التَّذييلُ فَذْلَكةٌ[5] للجُملةِ الَّتي قبْلَها[6].

- وافتتاحُ الجُملةِ بحرْفِ (أَلَا) الَّذي هو للتَّنبيهِ؛ لِقَصْدِ العِنايةِ بالكلامِ[7].

---

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدم تعريفها (ص: ٣١٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٠).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧١).

- وفي قولِه: ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ جُعِلَ الضَّلالُ كالظَّرفِ لهم؛ تَشبيهًا لِتَلبُّسِهم بالضَّلالِ بوُقوعِ المظروفِ في ظرْفِه[1].

- ووَصفُ الضَّلالِ بالبَعيدِ كِنايةٌ عن عُسرِ إرجاعِه إلى المقصودِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٩-٢٤)

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ
ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ
مِن نَّصِيبٍ ٢٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا
كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ
مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي
رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي
يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن
يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ٢٣ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ
ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿لَطِيفُۢ﴾: أي: رَفيقٌ أو عالِمٌ بدقائقِ الأمورِ، وأصلُ (لطف): يدُلُّ على رِفْقٍ وعلى صِغَرٍ في الشَّيءِ[1].

﴿حَرۡثَ﴾: أي: عَمَلَ وثَوابَ وكَسْبَ، وأصلُ (حرث): يدُلُّ على جمعٍ وكَسبٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦).
قال السعدي: (واللُّطفُ مِن أوصافِه تعالى معناه: الَّذي يُدرِكُ الضَّمائِرَ والسَّرائِرَ، والَّذي يُوصِلُ عِبادَه -وخُصوصًا المؤمِنينَ- إلى ما فيه الخَيرُ لهم مِن حيثُ لا يَعلَمونَ ولا يَحتَسِبونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٤، ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨).

﴿مُشْفِقِينَ﴾: أي: خائفينَ، والإشفاقُ: عنايةٌ مُختلِطةٌ بخَوفٍ، فإذا عُدِّيَ بـ(مِن) فمعنى الخَوْفِ فيه أظهَرُ، وإذا عُدِّيَ بـ(على) فمعنى العنايةِ فيه أظهَرُ[(١)].

﴿رَوْضَاتِ﴾: جمعُ رَوْضةٍ، وهي المكانُ الَّذي يَكثُرُ نَبْتُه، وأصلُ (روض): اتِّساعٌ[(٢)].

﴿الْمَوَدَّةَ﴾: أي: المَحبَّة، والوُدُّ: محبَّةُ الشَّيءِ، أو هو خالصُ الحُبِّ وألطفُه وأرَقُّه، يُقالُ: وَدِدْتُ الرَّجُلَ وُدًّا: أحببْتُه، وأصلُ (ودد): يدُلُّ على محبَّةٍ[(٣)].

﴿يَقْتَرِفْ﴾: أي: يَكتَسِبْ ويَعمَلْ، والاقتِرافُ: الاكتِسابُ حُسنًا كان أو سُوءًا، وهو في الإساءةِ أكثرُ استِعمالًا، وأصلُ (قرف): يدُلُّ على مُخالَطةِ الشَّيءِ والالتِباسِ به[(٤)].

﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾: أي: يَطْبَعْ على قلبك، فتَنْسَ هذا القرآنَ، وأصلُ (ختم): يدُلُّ على بُلوغِ آخِرِ الشَّيءِ، والطَّبعُ على الشَّيءِ لا يَكونُ إلَّا بعْدَ بُلوغِ آخِرِه[(٥)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٨، ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٣٥)، ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٦، ٤٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٨٧).

﴿وَيَمۡحُ﴾: أي: يُذْهِبُ ويَمحَقُ، والمَحْوُ: إزالةُ الأثَرِ، وأصلُ (محو): يدُلُّ على الذَّهابِ بالشَّيءِ[1].

﴿وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ﴾: أي: ويُثبِتُه ويُعلِيه، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾

قَولُه: ﴿وَيَمۡحُ﴾: كَلامٌ مُستأنَفٌ ليس مَعطوفًا على جزاءِ الشَّرطِ ﴿يَخۡتِمۡ﴾؛ إذ ليس المعنى على: إنْ يَشَأِ اللهُ يَمحُ الباطِلَ، بل هو تحقيقٌ لِمَحْوِه للباطِلِ؛ لأنَّه تعالى يمحو الباطِلَ مُطلقًا. فـ(يَمْحُ) مرفوعٌ بضمَّةٍ مُقَدَّرةٍ على الواوِ المحذوفةِ، لا مجزومٌ بالعَطفِ على ﴿يَخۡتِمۡ﴾، وحَقُّه ظهورُ الواوِ في آخِرِه، ولكِنْ حُذِفَت الواوُ مِنه لفظًا لالتِقاءِ السَّاكِنَينِ، وحُذِفَت خَطًّا حَملًا للخَطِّ على اللَّفظِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وقَولِه تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء: ١١]، وكان القياسُ إثباتَ الواوِ رَسمًا، لكِنْ رَسمُ المُصحَفِ لا يلزَمُ جَريُه على القياسِ، ويُؤَيِّدُ الاستِئنافَ دونَ العَطفِ على ﴿يَخۡتِمۡ﴾ إعادةُ الاسمِ الجَليلِ (اللهُ) في ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ﴾، ورَفعُ المعطوفِ (يُحِقُّ)[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٧).

المعنى الإجماليّ:

يقولُ تعالى مُخبِرًا عن لُطْفِه بخَلْقِه: اللهُ بالِغُ اللُّطفِ بعِبادِه، يَرزُقُ مَن يَشاءُ منهم حَسَبَ ما تَقتَضيه حِكمتُه، وهو القَويُّ العَزيزُ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى سُنَّةً مِن سُننِه الَّتي لا تتخلَّفُ، فيقولُ: مَن كان يريدُ عمَلَ الآخِرةِ والإعدادَ لها نُقَوِّه على الازديادِ مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ، ونُيَسِّرْ له ذلك، ونُضاعِفْ له ثوابَه، ومَن كان يريدُ الدُّنيا دونَ الآخِرةِ نُعْطِه مِن مَتاعِها ما قُسِمَ له، وليس له في الآخِرةِ نَصيبٌ مِن ثَوابِ اللهِ تعالى.

ثمَّ يقولُ تعالى مُوبِّخًا المشركينَ: أمْ لأولئك المُشرِكينَ شُرَكاءُ شَرَعوا لهم مِنَ الدِّينِ ما لم يأذَنْ به اللهُ ولم يأمُرْ به؟! ولولا قَضاءُ اللهِ السَّابِقُ بتأخيرِ العَذابِ عنهم لَعَجَّل لهم العُقوبةَ، وإنَّ الظَّالِمينَ لهم عذابٌ مُؤلِمٌ!

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى عاقِبةَ المشركينَ، مقابِلًا بيْنَها وبيْنَ عاقِبةِ المؤمنينَ، فيقولُ: ترَى الظَّالِمينَ يومَ القيامةِ -يا مُحمَّدُ- خائِفينَ مِن عذابِ اللهِ على ما عَمِلوه في الدُّنيا، وذلك العذابُ نازِلٌ بهم لا مَحالةَ. والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ في الدُّنيا هم في رَوْضاتِ الجنَّاتِ، لهم في الجَنَّةِ ما يَشاؤُونَه عندَ رَبِّهم، ذلك هو الفَضلُ الكبيرُ، ذلك النَّعيمُ العَظيمُ هو الَّذي يُبَشِّرُ اللهُ به عِبادَه الَّذين آمَنوا به وعَمِلوا الصَّالِحاتِ.

قل -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك مِن قُرَيشٍ: لا أسألُكم على تَبليغي رِسالةَ رَبِّي جَزاءً، لكِنِّي أطلُبُ منكم أنْ تَوَدُّوني في قَرابَتي مِنكم، فتَكُفُّوا عنِّي أذاكم، وتمنَعوا عنِّي أذَى غيرِكم.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه جانبًا مِن مَظاهِرِ فضلِه على عِبادِه، فيقولُ: ومَن يَعمَلْ مِنَ المؤمِنينَ عَمَلًا صالِحًا فإنَّ اللهَ تعالى يَزيدُ له ثوابَ عَمَلِه، إنَّ اللهَ غَفورٌ لِذُنوبِ

عبادِه، شَكورٌ أعمالَهم الصَّالِحةَ؛ فيَقبَلُها منهم، ويُضاعِفُها لهم.

ثمَّ يُوبِّخُ اللهُ المشركينَ، فيقولُ: أمْ يَقولُ أولئك المُشركونَ: كَذَب مُحَمَّدٌ على رَبِّه في دعوى الوَحيِ والنُّبُوَّةِ؟! فإنْ يَشأِ اللهُ يَطبَعْ على قَلْبِك -يا مُحمَّدُ- فيُنسِك القُرآنَ. ويُذهِبُ اللهُ الباطِلَ، ويُثَبِّتُ الحَقَّ بكَلِماتِه الكَونيَّةِ والدِّينيَّةِ، إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُكِنُّه الضَّمائِرُ، لا يَخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه أنزَلَ عليهم الكِتابَ المُشتَمِلَ على تلك الدَّلائِلِ اللَّطيفةِ، فكان ذلك مِن لُطفِ اللهِ بعبادِه، فحسُنَ ذِكرُ ذلك هاهنا.

وأيضًا المتفَرِّقون استَوجَبوا العذابَ الشَّديدَ، ثمَّ إنَّه تعالى أخَّر عنهم ذلك العَذابَ، فكان ذلك أيضًا مِن لُطفِ الله تعالى، فلمَّا سَبَق ذِكرُ إيصالِ أعظَمِ المنافِعِ إليهم، ودَفْعِ أعظَمِ المَضارِّ عنهم؛ لا جَرَمَ حَسُنَ ذِكرُه هاهنا[1].

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

أي: اللهُ بالِغُ اللُّطفِ بعِبادِه، فيُيَسِّرُ لهم الخَيرَ، ويَسوقُ لهم الأرزاقَ بطُرُقٍ خَفيَّةٍ مِن حَيثُ لا يَشعُرونَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٠، ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

قال ابن عثيمين: (اللهُ لَطيفٌ بالعِبادِ كُلِّهم؛ البَرِّ والفاجِرِ، لكِنَّ لُطفَه بالبَرِّ لُطفٌ خاصٌّ مُستَمِرٌّ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ، ولُطفَه بالفاجِرِ لُطفٌ عامٌّ يكونُ ابتلاءً وامتِحانًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩١). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٧، ٢٨).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: يَرزُقُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن عبادِه بحَسَبِ ما تَقتَضيه حِكمتُه[1].

﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

أي: وهو المتَّصِفُ بكَمالِ القُوَّةِ؛ فلا يَلحَقُه سُبحانَه ضَعفٌ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ لأحَدٍ مِن المَخلوقينَ إلَّا به، وهو المتَّصِفُ بكَمالِ العِزَّةِ؛ فهو ذو القَدْرِ العَظيمِ، الغالِبُ القاهِرُ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ سُوءٍ ونَقصٍ[2].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن كَوْنَه لَطيفًا بعِبادِه، كثيرَ الإحسانِ إليهم؛ بيَّن أنَّه لا بُدَّ لهم مِن أن يَسعَوا في طَلَبِ الخيراتِ، وفي الاحترازِ عن القبائِحِ[3].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الرِّزقَ؛ ذكَرَ حَديثَ الكَسبِ[4].

وأيضًا لَمَّا بيَّن أنَّ الرِّزقَ ليس إلَّا في يَدِ اللهِ تعالى؛ أتْبَعَه ما يُزَهِّدُ في طَلَبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٢، ١٩٣).
قال ابن عاشور: (المعنى: أنَّه لِلُطفِه بجميعِ عبادِه لا يَترُكُ أحدًا منهم بلا رِزقٍ، وأنَّه فَضَّل بَعضَهم على بَعضٍ في الرِّزقِ؛ جَريًا على مَشيئتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٣- ١٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣١).

رِزقِ البَدَنِ، ويُرَغِّبُ في رِزقِ الرُّوحِ، فقال[١]:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾.

أي: مَن كان يُريدُ عَمَلَ الآخِرةِ والسَّعيَ والإعدادَ لها، فإنَّ اللهَ يُقَوِّيه ويُعينُه، ويُيسِّرُ له ذلك، فيَزدادُ مِن الصَّالحاتِ، ويُضاعِفُ اللهُ له الثَّوابَ، ويَجْزيه بالحسنةِ عَشْرَ أمثالِها إلى سَبعِمئةِ ضِعفٍ[٢].

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾.

أي: ومَن كان يُريدُ عَمَلَ الدُّنيا والسَّعيَ لها دونَ الآخِرةِ، فإنَّ اللهَ يُعطيه مِن مَتاعِها نَصيبَه الَّذي قَسَمَه له، ولا يَحرِمُه مِمَّا شاء له مِنَ رِزقٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٧، ٢٨٨).

قال ابنُ عاشور: (﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ يحتمِلُ مَعنيَينِ: أن تكونَ الزِّيادةُ في ثوابِ العَمَلِ... وأن تكونَ الزِّيادةُ في العَمَلِ، أي: نُقَدِّرْ له العَونَ على الازديادِ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ، ونُيَسِّرْ له ذلك، فيَزداد مِن الصَّالِحاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٥).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: ابنُ جرير، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، وابن جُزَي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٢).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: ابنُ كثير، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٧). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٥).

﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

أي: وليس له في الآخِرةِ نَصيبٌ مِن ثَوابِ اللهِ(١).

كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١، ٤٩٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

قال ابن القيِّم: (وهاهنا أمرٌ يَجِبُ التَّنبُّه له، وهو أنَّه لا يُمكِنُ إرادةُ الدُّنيا وعاجِلِها بأعمالِ البِرِّ دونَ الآخِرةِ مع الإيمانِ باللهِ ورَسولِه ولقائِه، أبدًا؛ فإنَّ الإيمانَ باللهِ والدَّارِ الآخِرةِ يَستلزِمُ إرادةَ العبدِ لرَحمةِ اللهِ والدَّارِ الآخرةِ بأعمالِه؛ فحيث كان مُرادُه بها الدُّنيا فهذا لا يجامِعُ الإيمانَ أبدًا، وإن جامَعَ الإقرارَ والعِلمَ، فالإيمانُ وراءَ ذلك، والإقرارُ والمعرفةُ حاصِلان لِمَن شَهِدَ اللهُ سُبحانَه له بالكُفرِ مع هذه المعرفةِ، كفِرعَونَ وثمودَ، واليهودِ الَّذين شاهَدوا رسولَ اللهِ وعَرَفوه كما عَرَفوا أبناءَهم وهم مِن أكفَرِ الخَلقِ؛ فإرادةُ الدُّنيا وعاجِلِها بالأعمالِ قد تُجامِعُ هذه المعرفةَ والعِلمَ، ولكِنَّ الإيمانَ الَّذي هو وراءَ ذلك لا بدَّ أن يُريدَ صاحِبُه بأعمالِه اللهَ والدَّارَ الآخِرةَ. واللهُ المُستعانُ). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٦٧).

وقال ابن كثير: (﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أيْ: ومَنْ كان إنَّما سَعْيُه لِيَحصُلَ له شَيءٌ مِن الدُّنيا، وليس له إلى الآخرةِ همَّةٌ البتَّةَ بالكلِّيَّةِ؛ حَرَمه اللهُ الآخرةَ، والدُّنيا إنْ شاءَ أعطاه منها، وإنْ لم يَشَأْ لم يَحصُلْ له لا هذه ولا هذه، وفازَ هذا السَّاعي بهذه النِّيَّةِ بالصَّفقةِ الخاسِرةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

والدَّليلُ على هذا أنَّ هذه الآيةَ هاهنا مُقيَّدةٌ بالآيةِ الَّتي في «سُبْحانَ» وهي قولُه تعالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨-٢١]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨).

فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بَشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّناءِ[1] والرِّفْعةِ، والدِّينِ والنَّصرِ، والتَّمكينِ في الأرضِ، فمَن عَمِلَ مِنهم عَمَلَ الآخرةِ للدُّنيا لم يكُنْ له في الآخِرةِ نَصيبٌ))[2].

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه شَرَع للنَّاسِ ما وصَّى به نوحًا... الآيةَ؛ أخَذَ يُنكِرُ ما شَرَع غَيرُه تعالى[3].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن القانونَ الأعظَمَ والقِسْطاسَ الأقوَمَ في أعمالِ الآخِرةِ والدُّنيا؛ أردَفَه بالتَّنبيهِ على ما هو الأصلُ في بابِ الضَّلالةِ والشَّقاوةِ، فقال[4]:

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

---

(١) بالسَّناءِ: أي: بارتِفاعِ المَنزلةِ والقَدْرِ عندَ اللهِ تعالى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٢٢٠) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٤٠٥)، والحاكمُ (٧٨٦٢).

صَحَّحه ابنُ حِبَّان، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٨٢٥)، وصَحَّح إسنادَه الحاكمُ، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٢٢٣): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). ووثَّق رواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٤٨)، وقوَّى إسنادَه شُعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٥/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٢).

أي: أم للمُشرِكينَ شُركاءُ وَضَعوا لهم مِنَ الدِّينِ أمورًا لم يأذَنِ اللهُ بوَضعِها، ولم يأمُرْ بها[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۞ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: ولولا قَضاءُ اللهِ السَّابِقُ بتأخيرِ العَذابِ عنهم لَعَجَّل لهم العُقوبةَ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٢، ٤٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢، ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٠٢، ٢٠٣).

قال الطِّيبي: (﴿أَمْ﴾ في قولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ مُنقطِعةٌ، فيها معنى: «بل» والهمزة، ولا بدَّ مِن سَبْقِ كلامٍ إخبارٍ أو إنشاءٍ يُضرَبُ عنه، حتَّى يُقرَّرَ ما بعدَه، وما سبَق هو قولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣]). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أي: ألَهم. والميمُ صِلةٌ، والهمزةُ للتَّقريعِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٧).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: وإنَّ الظَّالِمينَ لهم -بسَبَب ظُلمِهم- عَذابٌ مُؤلِمٌ(١).

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟﴾.

أي: ترى الظَّالمينَ يَومَ القيامةِ -يا مُحمَّدُ- خائِفينَ خَوفًا عَظيمًا مِن عذابِ اللهِ لهم على ما كَسَبوه في الدُّنيا(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨).

قيلَ: المُرادُ بالعذابِ هنا: عذابُ الآخرةِ. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨).

وقيلَ: المُرادُ: عذابُ الدُّنيا بالقَتلِ أو الأسْرِ والقَهرِ، وعذابُ الآخِرةِ. ومِمَّن قال بهذا: القرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٨٢).

وقيل: الخِطابُ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ. وممَّن اختاره: الكرماني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) =

﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾.

أي: وذلك العَذابُ الَّذي يُشفِقونَ منه نازِلٌ بهم لا مَحالةَ[١].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا في الدُّنيا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه: في رَوْضاتِ الجنَّاتِ مَسرُورون مُنَعَّمونَ[٢].

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: للمُؤمِنينَ في الجنَّةِ عندَ رَبِّهم ما يَشاؤُونَه مِمَّا تَشتَهيه أنفُسُهم[٣].

= (١/ ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٨).

قال الكرماني: (ليس بخِطابٍ لواحدٍ مُعَيَّنٍ، بل هو جارٍ مَجرى قولِ القائلِ: أيُّها الرَّجُلُ، وكلُّكم ذلك الرَّجُلُ، ومِثلُه في القرآنِ كثيرٌ، منه قولُه: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ [الزمر: ٢١] و[الحديد: ٢٠]، ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾، وكذلك في سورةِ الملائكةِ -أي: قولِه: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢]-). ((تفسير الكرماني)) (١/ ٦٠١).

وقال ابن عطية: (قوله: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ هي رؤيةُ بصَرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

قال ابن جرير: (يعني بالرَّوضاتِ: جمْعَ رَوْضةٍ، وهي المكانُ الَّذي يَكثُرُ نَبْتُه... وإنَّما عنى جلَّ ثناؤُه بذلك: الخبرَ عمَّا هم فيه من السُّرورِ والنَّعيم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣، ٤٩٤).

وقال الشوكاني: (رَوضةُ الجنَّةِ: أطيَبُ مَساكِنِها، كما أنَّها في الدُّنيا لأحسَنِ أمكِنَتِها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

أي: ذلك النَّعيمُ العَظيمُ الَّذي يُؤتيه اللهُ للمُؤمِنينَ في الجنَّةِ: هو الفَضلُ الكبيرُ الَّذي لا تَبلُغُ العُقولُ عَظيمَ قَدْرِه، ولا حَقيقةَ صِفَتِه(١).

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: ذلك النَّعيمُ العَظيمُ هو الَّذي يُبَشِّرُ اللهُ به عِبادَه الَّذين آمَنوا به، وعَمِلوا بطاعتِه في الدُّنيا، فهم فائِزونَ به لا مَحالةَ(٢).

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت العادةُ جاريةً بأنَّ البشيرَ لا بدَّ له مِن حِباءٍ(٣) وإن لم يَسألْ؛ لأنَّ بِشارتَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٠).

قال ابن عاشور: (الفضلُ يجوزُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى الشَّرفِ والتَّفوُّقِ على الغيرِ، فيَكونَ في معنى: فَضْلُهم، ويجوزُ أن يكونَ اسمًا لِما يتفضَّلُ به مِن عطاءٍ، فيكونَ في معنى: ذلك فَضْلُنا عليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٠).

وقال البقاعي: (﴿ٱلْفَضْلُ﴾ أي: الَّذي هو أهلٌ لأن يكونَ فاضلًا عن كفايةِ صاحبِه ولو بالغ في الإنفاقِ ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الَّذي ملأ جميعَ جهاتِ الحاجةِ، وصغرَ عندَه كلُّ ما ناله غيرُهم مِن هذا الحُطامِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٤، ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٩).

(٣) الحِباءُ: ما يَحْبُو به الرَّجُلُ صاحِبَه ويُكرِمُه به. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٥/ ١٧٢).

قائمةٌ مَقامَ السُّؤالِ، كان كأنَّه قيل: ماذا تَطلُبُ على هذه البِشارةِ؟ فأُمِر بالجوابِ بقولِه[(١)]:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك مِن قُرَيشٍ: لا أطلُبُ منكم جَزاءً وعِوَضًا تُعطونَني إيَّاه على تبليغي إيَّاكم القُرآنَ ورِسالةَ اللهِ، لَكِنِّي أطلُبُ منكم أنْ تَوَدُّوني في قَرابَتي مِنكم، وتَصِلوا الرَّحِمَ الَّتي بيْني وبيْنَكم، فتَكُفُّوا عنِّي أذاكم، وتَمْنَعوني مِن أذى النَّاسِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٤، ٥٠١، ٥٠٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٢، ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٩، ٧٠).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن القيم، وابن كثير، والقاسمي، وابن عاشور، والشنقيطي ونَسَبه إلى جُمهورِ المفَسِّرينَ، وأكثَرِ عُلَماءِ السَّلَفِ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وأبو مالكٍ، وعطاءُ بنُ دينارٍ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أَسْلَمَ، وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٩).

قيل: المُرادُ بذلك: طَلَبُ الإيمانِ به واتِّباعِه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١).

قال البِقاعي: (فإنَّكم إذا وصَلْتُم ما بيْني وبيْنَكم مِنَ الرَّحِمِ لم تُكَذِّبوني بالباطِلِ، ولم تَرُدُّوا ما جِئتُكم به مِن سَعادةِ الدَّارَينِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٩٦).

وقال الواحدي: (كأنَّه يقولُ: إذا لم تُؤمِنوا بي فاحفَظوا قَرابتي ولا تُؤْذُوني). ((الوجيز)) (ص: ٩٦٤).

وقال السعدي: (يحتمِلُ أنَّ المرادَ: لا أسألُكم عليه أجرًا إلَّا أجرًا واحِدًا هو لكم، وعائِدٌ نَفعُه إليكم، وهو أن تَوَدُّوني وتُحِبُّوني في القَرابةِ، أي: لأجْلِ القَرابةِ. ويكونُ على هذا المَوَدَّةَ الزَّائدةَ على موَدَّةِ الإيمانِ... ويحتمِلُ أنَّ المرادَ: إلَّا مَوَدَّةَ اللهِ تعالى الصَّادقةَ، وهي الَّتي يَصحَبُها =

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: (أنَّه سُئِلَ عن قَولِه: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، فقال سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ: قُرْبَى آلِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فقال ابنُ عبَّاسٍ: عَجِلْتَ؛ إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَكُنْ بَطنٌ مِن قُرَيشٍ إلَّا كان له فيهم قَرابةٌ، فقال: إلَّا أن تَصِلوا ما بيْني وبيْنَكم مِنَ القَرابةِ)[١].

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾.

أي: ومَن يَعمَلْ مِنَ المؤمنينَ حسَنةً مِن الحسناتِ ويَكْتَسِبْها، فإنَّ اللهَ تعالى يَزيدُ له ثوابَ عمَلِه ويُضاعِفُه له[٢].

= التَّقَرُّبُ إلى اللهِ، والتَّوسُّلُ بطاعتِه الدَّالَّةِ على صِحَّتِها وصِدْقِها؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: في التَّقرُّبِ إلى اللهِ. وعلى كِلا القَولَينِ فهذا الاستِثناءُ دَليلٌ على أنَّه لا يَسألُهم عليه أجرًا بالكُلِّيَّةِ إلَّا أن يكونَ شَيئًا يعودُ نَفعُه إليهم، فهذا ليس مِن الأجرِ في شَيءٍ، بل هو مِن الأجرِ منه لهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧، ٧٥٨).

(١) رواه البخاري (٤٨١٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (ابنُ عبَّاسٍ كان من كِبارِ أهلِ البَيتِ وأعلَمِهم بتفسيرِ القُرآنِ، وهذا تفسيرُه الثَّابتُ عنه... ويُبيِّنُ ذلك أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَسألُ أجرًا أصلًا، إنَّما أجرُه على اللهِ. وعلى المُسلمين مُوالاةُ أهلِ البيتِ، لكِنْ بأدِلَّةٍ أخرى غيرِ هذه الآيةِ، وليست مُوالاتُنا لأهلِ البَيتِ مِن أجرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في شَيءٍ. وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ مَكِّيَّةٌ، ولم يكُنْ عَليٌّ بعدُ قد تزوَّج بفاطِمةَ، ولا وُلِدَ له أولادٌ). ((منهاج السنة النبوية)) (٤/ ٢٦، ٢٧). ويُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٥٦٢، ٥٦٣).

وقال ابنُ كثير: (الحَقُّ تَفسيرُ الآيةِ بما فَسَّرَها به الإمامُ حَبْرُ الأمَّةِ وتَرجُمانُ القُرآنِ: عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ، كما رواه عنه البخاريُّ رحمه اللهُ، ولا تُنكَرُ الوَصاةُ بأهلِ البَيتِ، والأمرُ بالإحسانِ إليهم، واحترامُهم وإكرامُهم؛ فإنَّهم مِن ذُرِّيَّةٍ طاهِرةٍ؛ من أشرَفِ بيتٍ وُجِدَ على وَجهِ الأرضِ؛ فَخرًا وحسَبًا ونَسَبًا، ولا سِيَّما إذا كانوا مُتَّبِعينَ للسُّنَّةِ النَّبَويَّةِ الصَّحيحةِ الواضِحةِ الجَلِيَّةِ، كما كان عليه سَلَفُهم؛ كالعبَّاسِ وبَنِيه، وعليٍّ وأهلِ بَيتِه وذُرِّيَّتِه -رَضِيَ اللهُ عنهم أجمعينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٢). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بالِغُ المَغفِرةِ لِذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها وإنْ كَثُرتْ؛ شَكورٌ لحَسَناتِهم، فيَقبَلُها منهم، ويُضاعِفُها لهم وإن قَلَّتْ(1).

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الكلامَ في أوَّلِ السُّورةِ إنَّما ابتُدِئَ في تقريرِ أنَّ هذا الكِتابَ إنَّما حَصَل بوَحيِ اللهِ سبحانه، وهو قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

= وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى: ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾: نَزيدُه أجرًا وثوابًا لعمَلِه الصَّالحِ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال البِقاعي: (﴿وَمَن يَقْتَرِفْ﴾ أي: يَكسِبْ ويُخالِطْ، ويَعمَلْ بجِدٍ واجتِهادٍ، وتعَمُّدٍ وعِلاجٍ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٩٨).

وقال السعدي: (﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ بأنْ يَشرَحَ اللهُ صَدْرَه، ويُيَسِّرَ أمْرَه، وتكونَ سَببًا للتَّوفيقِ لعمَلٍ آخَرَ، ويَزدادَ بها عَمَلُ المؤمِنِ، ويَرتَفِعَ عندَ اللهِ وعندَ خَلْقِه، ويَحصُلَ له الثَّوابُ العاجِلُ والآجِلُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

[الشورى: ٣]، واتَّصل الكَلامُ في تقريرِ هذا المعنى، وتعَلَّق البَعضُ بالبَعضِ حتَّى وَصَل إلى هاهنا، ثمَّ حكى هاهنا شُبهةَ القَومِ، وهي قَولُهم: إنَّ هذا ليس وحيًا مِن الله تعالى، فقال[1].

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

أي: أم يَقولُ المُشرِكونَ: اختَلَق مُحمَّدٌ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه دَعوى الوَحيِ والنُّبُوَّةِ؛ كَذِبًا منه على الله تعالى[2]؟!

﴿فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾.

أي: إنِ افتَرَيتَ عليه كَذِبًا كما يَزعُمُ هؤلاء الجاهِلونَ -يا مُحمَّدُ- فإنَّ اللهَ قادِرٌ على أنْ يَطبَعَ على قَلْبِك، فيَسلُبَك ما آتاك مِنَ القُرآنِ؛ فإنَّ الله تعالى لا يُقِرُّه على افتِرائِه ولا يُمكِّنُه منه؛ فلولا أنَّ اللهَ أنزَلَه على قَلْبِه، ويَسَّرَه بلِسانِه، لَما أمكَنَه أنْ يأتيَهم بشَيءٍ منه[3]!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٠).

قال ابن عطية: (أَمْ هذه ... مُنقطِعةٌ مُضمَّنةٌ إضرابًا عن كلامٍ مُتقدِّمٍ، وتقريرًا على هذه المقالةِ منهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٣)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ١٨٥ - ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٠-٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٠-٢١٢).
=

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾.

أي: ويُذهِبُ اللهُ الباطِلَ ويُزيلُه[1].

= قال ابن عطية: (وقولُه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ﴾ معناه في قولِ قَتادةَ وفِرقةٍ مِن المفسِّرينَ: يُنسِيك القرآنَ، والمرادُ: الرَّدُّ على مَقالةِ الكفَّارِ وبيانُ إبطالِها، وذلك كأنَّه يقولُ: وكيف يَصِحُّ أن تكونَ مُفتريًا وأنت مِن اللهِ بمَرْأًى ومَسمَعٍ، وهو قادرٌ لو شاء على أن يَختِمَ على قلبِك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمر افتراؤُك؟! فمَقصدُ اللَّفظِ هذا المعنى، وحُذِف ما يدُلُّ عليه الظَّاهرُ اختصارًا واقتصارًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤).

وقال الشوكاني: (﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: لو افْتَرى على اللهِ الكذبَ لَشاءَ عدَمَ صُدورِه منه، وخَتَم على قلبِه بحيثُ لا يُخطِرُ بباله شيئًا مِمَّا كَذَب فيه كما تَزْعُمونَ. قالَ قَتادةُ: يَخْتِمْ على قلبِكَ فيُنْسِكَ القرآنَ، فأخْبَرهم أنَّه لو افْتَرى عليه لَفَعَل به ما أخْبَرَهم به في هذه الآيةِ. وقال مُجاهِدٌ ومُقاتِلٌ: إنْ يَشأْ يَربِطْ على قلبِكَ بالصَّبرِ على أذاهم حتَّى لا يَدخُلَ قلبَكَ مَشَقَّةٌ مِن قولِهم. وقيلَ: الخِطابُ له، والمرادُ الكفَّارُ، أي: إنْ يَشَأْ يَخْتِمْ على قلوبِ الكفَّارِ، ويُعاجِلْهم بالعقوبةِ، ذَكَره القُشَيْريُّ. وقيل: المعنَى: لو حدَّثَتْكَ نفْسُكَ أنْ تفتريَ على اللهِ كَذِبًا لَطَبَع على قَلْبِك؛ فإنَّه لا يَجتَرِئُ على الكذبِ إلَّا مَن كانَ مطبوعًا على قلبِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦، ٨٧).

قال الزمخشري: (ومِن عادةِ اللهِ أن يَمحوَ الباطِلَ ويُثَبِّتَ الحَقَّ بكَلِماته بوَحْيِه أو بقَضائِه، كقَولِه تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨]، يعني: لو كان مُفتَريًا كما تزعُمونَ لَكَشَفَ اللهُ افتراءَه ومَحَقَه، وقَذَف بالحَقِّ على باطِلِه فدَمَغَه! ويجوزُ أن يكونَ عِدَةً لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه يمحو الباطِلَ الَّذي هم عليه مِن البَهْتِ والتَّكذيبِ، ويُثَبِّتُ الحَقَّ الَّذي أنت عليه بالقُرآنِ وبقضائِه الَّذي لا مَرَدَّ له من نُصرتِك عليهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨).

كما قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾.

أي: ويُثبِّتُ اللهُ بكَلِماتِه الكَونيَّةِ والدِّينيَّةِ(١) الحقَّ على وَجهٍ لا يُمكِنُ معه زَوالُه(٢).

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ

---

(١) قيلَ: المُرادُ بالكَلِماتِ: القُرآنُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٨).

وفسَّر السَّمعانيُّ الكلماتِ بالمعجزاتِ الَّتي يُظهِرُها، وفسَّرها ابنُ كثيرٍ بالحُجَجِ والبَراهينِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤).

وقيل: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ بوَحْيِه وقَضائِه. ومِمَّن اختاره: العُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦٧).

قال السعدي: (﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ الكونيَّةِ، الَّتي لا تُغيَّرُ ولا تُبَدَّلُ، ووعْدِه الصَّادقِ، وكلماتِه الدِّينيَّةِ الَّتي تُحقِّقُ ما شرَعه مِن الحقِّ، وتُثبِّتُه في القلوبِ، وتُبصِّرُ أُولي الألبابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

وقال ابن عاشور: (والباءُ في ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ للسَّبَبيَّةِ، والكَلِماتُ هي: كَلِماتُ القُرآنِ والوَحيِ، كقَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، أو المرادُ: كَلِماتُ التَّكوينِ المُتعَلِّقةُ بالإيجادِ على وَفْقِ عِلمِه، كقَولِه تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦، ٨٧).

نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ [التوبة: ٤٠].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُكِنُّه الضَّمائِرُ، وتَنطوي عليه السَّرائِرُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، لا يَخفى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن ذلك[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ يُخبِرُ تعالى بلُطفِه بعِبادِه؛ لِيَعرِفوه ويُحِبُّوه، ويَتعَرَّضوا لِلُطفِه وكَرَمِه[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

قال ابن جرير: (يقولُ لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: لو حَدَّثْتَ نَفْسَك أنْ تَفترِيَ علَيَّ كذبًا، لَطَبَعْتُ على قلبِكَ، وأذهَبْتُ الَّذي آتَيْتُك مِن وحْيِي؛ لأنِّي أمحُو الباطلَ فأُذْهِبُه، وأُحِقُّ الحقَّ. وإنَّما هذا إخبارٌ مِن اللهِ الكافرينَ به، الزَّاعِمينَ أنَّ مُحمَّدًا افترَى هذا القرآنَ مِن قِبَلِ نفْسِه، فأخبَرَهم أنَّه لو فَعَلَ ذلك لَفَعَلَ به ما أُخْبِرَ في هذه الآيةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٥).

وقال البقاعي: (ولَمَّا كانوا يَعلَمونَ أنَّه على حَقٍّ وهم على باطِلٍ، وكان مَن أحاط عِلمُه بشَيءٍ قَدَرَ على ما يُريدُه مِن ذلك الشَّيءِ؛ بيَّنَ ذلك بقَولِه مُعَلِّلًا على وَجهِ التَّأكيدِ؛ لأنَّ عَمَلَهم عَمَلُ مَن يَظُنُّ أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ مَكْرَهم: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: ما هو فيها مِمَّا يَعلَمُه صاحِبُه ومِمَّا لا يَعلَمُه، فيُبطِلُ باطِلَه ويُثَبِّتُ حقَّه وإنْ كَرِهَ الخلائِقُ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

عنهما قال: (مَن يُؤثِرُ دُنياه على آخِرتِه لم يُجعَلْ له نَصيبٌ في الآخرةِ إلَّا النَّارُ، ولم يَزْدَدْ بذلك مِنَ الدُّنيا شَيئًا إلَّا رِزقًا قد فُرِغَ منه، وقُسِمَ له)(١)!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ حَثٌّ على أنْ يُريدَ الإنسانُ بعَمَلِه الآخرةَ(٢).

٤- الإشارةُ إلى أنَّ الأعمالَ بالنِّيَّاتِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ﴾، ففيه إشارةٌ إلى حُسنِ النِّيَّةِ، وأنَّ الإنسانَ يجبُ عليه إحسانُ النِّيَّةِ(٣).

٥- قَولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن إرادةِ الدُّنيا فقط(٤).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: لِكُلِّ ذَنْبٍ تابَ منه صاحِبُه، أو كان يَقبَلُ الغُفرانَ وإنْ لم يَتُبْ منه، إنْ شاء؛ فلا يَصُدَّنَّ أحدًا سَيِّئةٌ عَمِلَها عن الإقبالِ على الحَسَنةِ(٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ بأنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بما في قَلبِه فإنَّه سوف يُمسِكُ عن كلِّ إرادةٍ سَيِّئةٍ، ويُقدِمُ على كلِّ إرادةٍ حَسَنةٍ(٦).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أنَّ الطَّبعَ على القَلبِ عُقوبةٌ، سواءٌ كان

(١) أخرجه ابن المنذر كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٧).

طَبعًا على العِلمِ، أو طَبعًا على القَصدِ والإرادةِ؛ فإنَّه عُقوبةٌ بلا شَكٍّ؛ ولهذا كان مِن دُعاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا مُقَلِّبَ القلوبِ، ثبِّتْ قلبي على دينِك))[(١)]، ((اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلوبِ، صَرِّفْ قُلوبَنا على طاعتِك))[(٢)]؛ فالإنسانُ يَجِبُ ألَّا يَعتمِدَ على ما في قَلبِه مِن اليَقينِ؛ فإنَّ هذا رُبَّما يَزولُ، بل عليه أنْ يَسألَ اللهَ دائِمًا التَّثبيتَ؛ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾[(٣)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أنَّه يجبُ على العبدِ أنْ يُصَحِّحَ ما في قَلبِه؛ لأنَّ المدارَ عليه؛ قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[(٤)] [العاديات: ٩، ١٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنْ قِيل: دلَّ قولُه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أنَّ برَّه توصَّلَ إلى جَميعِ العِبادِ، وقولُه: ﴿يَرۡزُقُ﴾ حُكمٌ تَرتَّبَ على ذلك الوصفِ؛ فيَنْبغي الشُّمولُ أيضًا، وقولُه: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ يُنافيه. **والجوابُ**: إنَّما خَصَّ الرِّزقَ -والكلُّ مَرزوقونَ-؛ لأنَّه قد يَختَصُّ أحدٌ بنِعمةٍ، وغيرُه بأُخرى؛ فالعُمومُ لِجنسِ البِرِّ، والخُصوصُ لِنَوعِه[(٥)].

---

(١) أخرجه مِن طُرُقٍ التِّرمذيُّ (٢١٤٠)، وأحمد (١٢١٠٧) واللَّفظُ لهما، وابن ماجه (٣٨٣٤) من حديثِ أنَسِ بن مالكٍ رَضِيَ الله عنه.

حَسَّنه الترمذي، وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢١٤٠)، وقوَّى إسنادَه على شَرطِ مُسلمٍ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٩/ ١٦٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٧).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٨، ٣٩).

قال القرطبي: (في تفضيلِ قَومٍ بالمالِ حِكمةٌ؛ لِيَحتاجُ البَعضُ إلى البَعضِ، كما قال تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فكان هذا لُطفًا بالعبادِ، وأيضًا لِيُمتَحَنَ =

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أنَّ النِّيَّةَ يُعَبَّرُ عنها بلَفظِ الإرادةِ في القُرآنِ كثيرًا[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ إثباتُ كَرَمِ اللهِ، وأنَّه عزَّ وجلَّ أكرَمُ مِن عَبدِه؛ يَعمَلُ العبدُ قليلًا ويُثابُ كثيرًا[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أظهَرَ اللهُ تعالى الفَرقَ في هذه الآيةِ بيْنَ مَن أراد الآخِرةَ وبيْنَ مَن أراد الدُّنيا؛ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه قدَّم مُريدَ حَرثِ الآخرةِ في الذِّكرِ على مُريدِ حَرثِ الدُّنيا، وذلك يدُلُّ على التَّفضيلِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه قال في مُريدِ حَرثِ الآخِرةِ: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾، وقال في مُريدِ حَرثِ الدُّنيا: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، وكَلِمةُ (مِن) للتَّبعيضِ، فالمعنى: أنَّه يُعطيه بعضَ ما يَطلُبُه، ولا يُؤتيه كُلَّه، وقال في سورةِ (الإسراءِ): ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّه تعالى قال في طالِبِ حَرثِ الآخِرةِ: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾، ولم يَذكُرْ أنَّه تعالى يُعطيه الدُّنيا أمْ لا، وأمَّا طالِبُ حَرثِ الدُّنيا فإنَّه تعالى بيَّن أنَّه لا يُعطيه شيئًا مِن نَصيبِ الآخِرةِ على التَّنصيصِ، وهذا يدُلُّ على التَّفاوُتِ العَظيمِ، كأنَّه يقولُ: الآخِرةُ أصلٌ والدُّنيا تَبَعٌ، فواجِدُ الأصلِ يكونُ واجِدًا للتَّبعِ

= الغنيُّ بالفقيرِ، والفَقيرُ بالغَنيِّ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]. ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧، ١٨).

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٠٠).

بقَدْرِ الحاجةِ، إلَّا أنَّه لم يَذكُرْ ذلك؛ تنبيهًا على أنَّ الدُّنيا أخَسُّ مِن أن يُقرَنَ ذِكرُها بذِكرِ الآخِرةِ.

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّه تعالى بَيَّنَ أنَّ طالِبَ الآخرةِ يُزادُ في مَطلوبِه، وبيَّن أنَّ طالِبَ الدُّنيا يُعطَى بعضَ مَطلوبِه مِنَ الدُّنيا، وأمَّا في الآخِرةِ فإنَّه لا يَحصُلُ له نَصيبٌ البتَّةَ؛ فبَيَّنَ بالكَلامِ الأوَّلِ أنَّ طالِبَ الآخِرةِ يكونُ حالُه أبدًا في التَّرَقِّي والتَّزايُدِ، وبيَّن بالكَلامِ الثَّاني أنَّ طالِبَ الدُّنيا يكونُ حالُه في المقامِ الأوَّلِ في النُّقصانِ، وفي المقامِ الثَّاني في البُطلانِ التَّامِّ.

الوَجهُ الخامِسُ: أنَّ الآخِرةَ نَسيئةٌ والدُّنيا نَقدٌ، والنَّسيئةُ مَرجوحةٌ بالنِّسبةِ إلى النَّقدِ؛ لأنَّ النَّاسَ يقولونَ: النَّقدُ خَيرٌ مِن النَّسيئةِ؛ فبَيَّن تعالى أنَّ هذه القضيَّةَ انعكَسَت بالنِّسبةِ إلى أحوالِ الآخِرةِ والدُّنيا؛ فالآخِرةُ وإن كانت نَسيئةً فإنَّها مُتوَجِّهةٌ للزِّيادةِ والدَّوامِ؛ فكانت أفضَلَ وأكمَلَ، والدُّنيا وإن كانت نقدًا فإنَّها مُتوَجِّهةٌ إلى النُّقصانِ، ثمَّ إلى البُطلانِ؛ فكانت أخَسَّ وأرذَلَ، فهذا يدُلُّ على أنَّ حالَ الآخرةِ لا يُناسِبُ حالَ الدُّنيا البتَّةَ، وأنَّه ليس في الدُّنيا مِن أحوالِ الآخِرةِ إلَّا مجرَّدُ الاسمِ.

الوَجهُ السَّادِسُ: الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ منافعَ الآخِرةِ والدُّنيا ليست حاضِرةً، بل لا بُدَّ في البابَينِ مِنَ الحَرثِ، والحَرثُ لا يَتأتَّى إلَّا بتحَمُّلِ المَشاقِّ في البَذرِ، ثمَّ التَّسقيةِ والتَّنميةِ والحَصدِ، ثمَّ التَّنقيةِ، فلمَّا سَمَّى اللهُ كِلا القِسمَينِ حَرثًا عَلِمْنا أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما لا يَحصُلُ إلَّا بتحَمُّلِ المتاعِبِ والمَشاقِّ، ثمَّ بيَّن تعالى أنَّ مصيرَ الآخرةِ إلى الزِّيادةِ والكَمالِ، وأنَّ مصيرَ الدُّنيا إلى النُّقصانِ ثمَّ الفَناءِ؛ فكأنَّه قيل: إذا كان لا بُدَّ في القِسمَينِ جميعًا مِن تحمُّلِ مَتاعِبِ الحِراثةِ والتَّسقيةِ والتَّنميةِ، والحَصدِ والتَّنقيةِ، فلَأنْ تُصرَفَ هذه المتاعِبُ إلى ما يكونُ في التَّزايُدِ والبقاءِ

أَولى مِن صَرفِها إلى ما يكونُ في النُّقصان والانقِضاءِ والفَناءِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا سَعَى للآخرةِ حَصَّل الدُّنيا والآخرةَ، وإذا سَعَى للدُّنيا فقط فاتَتْه الدُّنيا والآخِرةُ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ أنَّ النَّاويَ للفِعلِ، الجازِمَ، الآتيَ بما يُمكِنُ: فإنَّه بمَنزلةِ الفاعلِ التَّامِّ؛ يُوَضِّحُ هذا أنَّ اللهَ سُبحانَه في القرآنِ رَتَّبَ الثَّوابَ والعِقابَ على مُجرَّدِ الإرادةِ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ يُرِيدُ ﴾ فيه الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ؛ لأنَّ الجَبْريَّةَ يقولونَ: إنَّ الإنسانَ لا إرادةَ له[٤]!

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ لا يَتوهَّمَنَّ مُتوهِّمٌ أنَّ هذه الآيةَ ونحوَها تَحجُرُ تَناوُلَ المسلمِ حُظوظَ الدُّنيا إذا أدَّى حقَّ الإيمانِ والتَّكليفِ، ولا أنَّها تَصُدُّ عن خَلْطِ الحُظوظِ الدُّنيويَّةِ مع حُظوظِ الآخرةِ إذا وقَعَ الإيفاءُ بكِلَيْهما، ولا أنَّ الخلطَ بيْن الحظَّينِ يُنافي الإخلاصَ؛ كطلَبِ التَّبرُّدِ مع الوضوءِ، وطلَبِ الصِّحَّةِ مع التَّطوُّعِ بالصَّومِ، إذا كان المَقصَدُ الأصليُّ الإيفاءَ بالحقِّ الدِّينيِّ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩١، ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٥).

٩- قَولُه تعالى: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ فيه أنَّ مَن أراد حَرْثَ الدُّنيا فإنَّه لا يُعطى كلَّ ما أراد؛ ومَن أراد حَرْثَ الآخرةِ يُعطى كلَّ مُرادِه وزيادةً(١).

١٠- قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ مَن كانت الدُّنيا مُرادَه، ولها يَعمَلُ في غايةِ سَعْيِه، لم يكُنْ له في الآخِرةِ نَصيبٌ؛ ومَن كانت الآخِرةُ مُرادَه، ولها يعمَلُ، وهي غايةُ سَعْيِه، فهي له. بَقِيَ أنْ يُقالُ: فما حُكمُ مَن يريدُ الدُّنيا والآخِرةَ؛ فإنَّه داخِلٌ تحت حُكمِ الإرادتَينِ فبأيِّهما يَلحَقُ؟ قيل: من هاهنا نشَأ الإشكالُ، وظَنَّ مَن ظَنَّ مِن المفَسِّرينَ أنَّ الآيةَ في حَقِّ الكافِرِ؛ فإنَّه هو الَّذي يُريدُ الدُّنيا دونَ الآخِرةِ، وهذا غيرُ لازمٍ طَردًا ولا عَكسًا؛ فإنَّ بَعضَ الكُفَّارِ قد يريدُ الآخِرةَ، وبَعضَ المُسلِمينَ قد لا يكونُ مرادُه إلَّا الدُّنيا، واللهُ تعالى قد عَلَّق السَّعادةَ بإرادةِ الآخِرةِ، والشَّقاوةَ بإرادةِ الدُّنيا، فإذا تجَرَّدت الإرادتانِ تجَرَّد مُوجَبُهما ومُقتَضاهما، وإن اجتمَعَتا فحُكمُ اجتِماعِهما حُكمُ اجتماعِ البِرِّ والفُجورِ، والطَّاعةِ والمعصيةِ، والإيمانِ والشِّركِ: في العَبدِ، وقد قال تعالى لخَيرِ الخَلقِ بعدَ الرُّسُلِ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وهذا خِطابٌ للَّذين شَهِدوا معه الوَقعةَ، ولم يكُنْ فيهم مُنافِقٌ، والَّذين أُريدوا في هذه الآيةِ هم الَّذين أخْلَوا مَركزَهم الَّذي أمَرَهم رَسولُ الله بحِفظِه، وهم مِن خيارِ المُسلِمينَ، ولكِنَّ هذه إرادةٌ عارِضةٌ حمَلَتْهم على تَرْكِ المركزِ، والإقبالِ على كَسْبِ الغنائِمِ، بخِلافِ مَن كان مُرادُه بعَمَلِه الدُّنيا وعاجِلَها؛ فهذه الإرادةُ لونٌ، وإرادةُ هؤلاء لونٌ(٢).

ويُنظر أيضًا: ((الفروق)) للقرافي (٣/ ٢٢، ٢٣)، ((الموافقات)) للشاطبي (٢/ ٣٦٢-٣٧٣)، ((مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لرب العالمين)) لعمر بن سليمان الأشقر (ص: ٤٥٠-٤٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٦٦).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ فيه أنَّ الأصلَ الحَجْرُ على كُلِّ أحَدٍ أن يَشرَعَ شَيئًا لم يأتِ عن اللهِ وعن رَسولِه[1].

١٢- بابُ العِباداتِ والدِّياناتِ والتَّقَرُّباتِ مُتَلقَّاةٌ عنِ اللهِ ورَسولِه؛ فليس لأحَدٍ أنْ يَجعَلَ شَيئًا عِبادةً أو قُربَةً إلَّا بدَليلٍ شَرعيٍّ؛ قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾[2]، فالعباداتُ مبناها على التَّوقيفِ والاتِّباعِ؛ لا على الهوَى والابتِداعِ[3]، فمَن تَرَكَ شَرْعَ الأنبياءِ وابتدعَ شرعًا، فشَرْعُه باطِلٌ لا يَجوزُ اتِّباعُه؛ ولهذا كَفَرَتِ اليَهودُ والنَّصارى؛ لأنَّهم تَمَسَّكوا بشَرعٍ مَنسوخٍ، واللهُ أوجَب على جميعِ الخلْقِ أنْ يُؤمِنوا بجميعِ كتبِه ورسلِه، ومحمَّدٌ خاتمُ الرُّسلِ؛ فعلى جميعِ الخلْقِ اتِّباعُه، واتِّباعُ ما شرَعه مِن الدِّينِ هو ما أتَى به مِن الكتابِ والسُّنَّةِ[4].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ أنَّ مَن أطاع الزُّعَماءَ والكِبارَ في تحريمِ شَيءٍ أحَلَّه اللهُ أو تَحليلِ شَيءٍ حَرَّمَه اللهُ أو إيجابِ شَيءٍ لم يُوجِبْه اللهُ؛ فإنَّه قد اتَّخَذَهم شُرَكاءَ، ويَترتَّبُ على هذه الفائدة: أنَّ مُتَّبِعي دُعاةِ البِدَعِ قد اتَّخذوهم شُرَكاءَ[5]، فالرَّسولُ وَجَبَت طاعتُه؛ لأنَّه مَن يُطِعِ الرَّسولَ فقد أطاع اللهَ، فالحَلالُ ما حَلَّلَه، والحَرامُ ما حَرَّمه، والدِّينُ ما شَرَعَه، ومَن سِوى الرَّسولِ مِنَ العُلماءِ والمشايخِ والأُمَراءِ والمُلوكِ:

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣١/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية- المجموعة السابعة)) (ص: ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٠٤).

إنَّما تَجِبُ طاعتُهم إذا كانت طاعتُهم طاعةً لله[(١)].

١٤- قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فمَن نَدَبَ إلى شَيءٍ يُتقَرَّبُ به إلى الله، أو أوجَبَه بقَولِه أو بفِعلِه مِن غيرِ أن يُشَرِّعَه اللهُ؛ فقد شَرَع مِنَ الدِّينِ ما لم يأذَنْ به اللهُ، ومَن اتَّبَعَه في ذلك فقد اتَّخَذه شريكًا لله شَرَع له مِنَ الدِّينِ ما لم يأذَنْ به اللهُ! نعم: قد يكونُ مُتأوِّلًا في هذا الشَّرعِ فيُغفَرُ له؛ مِن أجْلِ تأويلِه إذا كان مُجتَهِدًا الاجتِهادَ الَّذي يُعفَى فيه عن المُخطِئِ، ويُثابُ أيضًا على اجتهادِه، لكِنْ لا يجوزُ اتِّباعُه في ذلك، كما لا يجوزُ اتِّباعُ سائرِ مَن قال أو عَمِلَ قَولًا أو عمَلًا قد عُلِمَ الصَّوابُ في خِلافِه، وإن كان القائِلُ أو الفاعِلُ مأجورًا أو معذورًا، وقد قال سُبحانَه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. فمَنْ أطاع أحدًا في دينٍ لم يأذَنْ به اللهُ مِن تحليلٍ أو تحريمٍ، أو استِحبابٍ أو إيجابٍ؛ فقد لَحِقَه مِن هذا الذَّمِّ نَصيبٌ، كما يَلحَقُ الآمِرَ النَّاهِيَ أيضًا نَصيبٌ، ثمَّ قد يكونُ كلٌّ منهما معفُوًّا عنه لاجتِهادِه، ومُثابًا أيضًا على الاجتهادِ، فيَتخَلَّفُ عنه الذَّمُّ؛ لِفَواتِ شَرطِه أو لوُجودِ مانِعِه، وإن كان المُقتَضي له قائمًا، ويَلحَقُ الذَّمُّ مَن تبيَّنَ له الحَقُّ فترَكه، أو مَن قَصَّر في طَلَبِه حتَّى لم يَتبيَّنْ له، أو أعرَضَ عن طلبِ مَعرفتِه لِهوًى، أو لكَسَلٍ، أو نحوِ ذلك[(٢)].

١٥- قَولُه تعالى: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ فيه أنَّ ما سِوى الأُمورِ الدِّينيَّة فإنَّه خاضِعٌ للأحوالِ العاديَّةِ؛ وعلى هذا لو شَرَعوا قوانينَ ونُظُمًا لا عَلاقةَ لها بالدِّينِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٨٤، ٨٥).

فإنَّ ذلك جائزٌ، ولا تُعَدُّ مُوافَقةُ هذه النُّظُمِ شِركًا، فكيف إذا كانت هذه النُّظُمُ تُؤَيَّدُ بالقَواعِدِ العامَّةِ، وهي: «جَلْبُ المصالحِ، ودَفْعُ المفاسِدِ»[١]؟!

١٦- أنَّ الأُمورَ المشروعةَ الَّتي يَفعلُها الإنسانُ تَدَيُّنًا لا بُدَّ أنْ يكونَ فيها إذنٌ مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى أنكَرَ على هؤلاء الَّذين اتَّخذوا شُركاءَ ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾، وهذا بمعنى قولِنا: «الأصلُ في العباداتِ الحَظرُ والمَنعُ إلَّا إذا قام دَليلٌ على مَشروعيَّتِها»؛ وعليه فمَن تَعَبَّدَ بعبادةٍ غيرِ معروفةٍ يُنكَرُ عليه حتَّى يأتيَ بدَليلٍ؛ لأنَّ الدِّينَ مُتَلَقًّى مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

١٧- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ فيه أنَّ ما قضاه اللهُ أزَلًا في الماضي لا يَتغيَّرُ[٣].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ؛ فالكَلِمةُ هي السَّبَبُ بتأخيرِ العَذابِ، وإثباتُ الأسبابِ أمرٌ لا يُنكِرُه إلَّا الجاحِدُ[٤].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ كلَّ الأشياءِ حاضرةٌ عندَه مُهيَّأةٌ[٥].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ جملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ...﴾ في محَلِّ نَصبٍ حالٌ من ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: تَرَى الظَّالِمينَ في إشفاقٍ في حالِ أنَّ الَّذينَ آمَنوا يَطْمئِنُّونَ في رَوْضاتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٣).

الجنَّاتِ، وفي هذه الحالِ دَلالةٌ على أنَّ الَّذين آمَنوا قد استقَرُّوا في الرَّوضاتِ مِن قَبلِ عَرْضِ الظَّالِمينَ على الحِسابِ، وإشفاقِهم مِن تَبِعاتِه، وهذا مِن تَضادِّ شَأْنَي الفريقَينِ في الآخِرةِ، على عكْسِه بما كانوا عليه في الدُّنيا المتقدِّمِ في قولِه: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨]، أي: فاليومَ انقلَبَ إشفاقُ المؤمنينَ اطمِئنانًا، واطمئنانُ المشرِكينَ إشفاقًا، وشتَّانَ بيْنَ الاطمِئنانَينِ والإشفاقَينِ، وبهذه المُضادَّةِ في الحالتينِ وأسبابِهما صحَّ اعتبارُ كَينونةِ الَّذين آمَنوا في الجنَّةِ حالًا مِن الظالِمينَ(١).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ دَليلٌ على أنَّ في سَجايا البَشَرِ نُفورًا عن مَوعظةِ مَن أخَذَ الدِّينارَ والدِّرهمَ، وأنَّ التَّعَفُّفَ عنهما كان مَرموقًا في الجاهليَّةِ الجَهْلاءِ بعَينِ المَدحِ(٢).

٢٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: الرُّسُلُ عليهم الصَّلواتُ والسَّلامُ لا يأخُذونَ أجرًا على التَّبليغِ، وهناك آياتٌ دالَّةٌ على ذلك، فما وجهُ الجَمعِ بيْنَ تلك الآياتِ وآيةِ سُورةِ (الشُّورى) هذه؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: على القَولِ بأنَّ معنى الآيةِ: إلَّا أن تَوَدُّوني في قَرابتي الَّتي بيْني وبيْنَكم، فتَكُفُّوا عنِّي أذاكم، وتمنَعوني مِن أذى النَّاسِ، كما تَمنَعونَ كُلَّ مَن بيْنَكم وبيْنَه مِثلُ قَرابتي منكم، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له في كُلِّ بَطنٍ مِن قُرَيشٍ رَحِمٌ؛ فهذا الَّذي سألهم ليس بأجرٍ على التَّبليغِ؛ لأنَّه مَبذولٌ لكُلِّ أحَدٍ؛ لأنَّ كُلَّ أحَدٍ يَوَدُّه أهلُ قَرابتِه، ويَنتَصِرونَ له من أذى النَّاسِ، وقد فَعَل له ذلك أبو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٩٨).

طالبٍ، ولم يكُنْ يَسألُ أجرًا على التَّبليغ؛ لأنَّه لم يُؤمِنْ، وإذا كان لا يَسألُ أجرًا إلَّا هذا الَّذي ليس بأجرٍ؛ تحقَّق أنَّه لا يَسألُ أجرًا.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ معنى الآيةِ ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: لا تُؤذُوا قرابتي وعِتْرتي[1]، واحفَظوني فيهم، وعليه فلا إشكالَ؛ لأنَّ المَودَّةَ بيْنَ المُسلِمينَ واجِبةٌ فيما بيْنَهم، وأحرى قرابةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والأحاديثُ في مِثلِ هذا كثيرةٌ جِدًّا، وإذا كان نَفْسُ الدِّينِ يُوجِبُ هذا بيْنَ المسلِمينَ تَبيَّن أنَّه غيرُ عِوَضٍ عن التَّبليغ.

وقيل: الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ على كِلا القَولَينِ[2]، وعليه فلا إشكالَ، فمعناه على القَولِ الأوَّلِ: لا أسألُكم عليه أجرًا لكِنْ أُذَكِّرُكم قَرابتي فيكم. وعلى الثَّاني: لكِنْ أُذَكِّرُكم اللهَ في قَرابتي؛ فاحفَظوني فيهم.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ معنى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلَّا أن تَتودَّدوا إلى اللهِ، وتَتقَرَّبوا إليه بالطَّاعةِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وعليه فلا إشكالَ؛ لأنَّ التَّقرُّبَ إلى اللهِ ليس أجرًا على التَّبليغِ.

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ معنى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلَّا أن تَتودَّدوا إلى قراباتِكم، وتَصِلوا أرحامَكم، وعليه أيضًا فلا إشكالَ؛ لأنَّ صِلةَ الإنسانِ رَحِمَه ليست أجرًا على التَّبليغِ[3].

---

(١) العِتْرَةُ: نَسْلُ الإنسانِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٩١).

(٢) قال ابن عاشور: (الاستثناءُ مُنقطِعٌ؛ لأنَّ المودَّةَ لأجلِ القَرابةِ ليسَت من الجزاءِ على تبليغ الدَّعوةِ بالقرآنِ، ولكِنَّها مِمَّا تَقتَضيه المروءةُ؛ فليسَ استِثناؤُها من عُمومِ الأجرِ المنفيِّ استِثناءً حقيقيًّا. والمعنى: لا أسألُكم على التَّبليغِ أجرًا، وأسألُكم المودَّةَ لأجْلِ القُربى، وإنَّما سألهم المودَّةَ؛ لأنَّ مُعامَلتَهم إيَّاه مُعامَلةَ المودَّةِ مُعِينةٌ على نَشرِ دَعوةِ الإسلام؛ إذْ تَلينُ بتلك المعامَلةِ شَكيمتُهم، فيَترُكونَ مُقاوَمتَه، فيَتمكَّنُ من تَبليغِ دَعوةِ الإسلام على وَجهٍ أكمَلَ؛ فصارت هذه المودَّةُ غرَضًا دينيًّا لا نَفْعَ فيه لِنَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٩-٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٤).

٢٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ فيه وُجوبُ محبَّةِ قرابتِه صلَّى الله عليه وسلَّم -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ- فمَحَبَّتُه أَولى(١).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ أنَّ المُتنبِّئينَ الكَذَّابينَ لا يُطيلُ اللهُ تَمكينَهم، بل لا بُدَّ أن يُهلِكَهم؛ لأنَّ فَسادَهم عامٌّ في الدِّينِ والدُّنيا والآخِرةِ(٢).

٢٥- أنَّ اللهَ سُبحانَه لا يُخْلي الصَّادِقَ ممَّا يدُلُّ على صِدقِه، ولا يُخْلي الكاذِبَ ممَّا يدُلُّ على كَذِبِه؛ إذْ مِن نَعتِه ما أخبَرَ به في قَولِه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، ثمَّ قال خبَرًا مُبتَدَأً: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾؛ فهو سُبحانَه لا بُدَّ أن يَمحَقَ الباطِلَ، ويُحِقَّ الحَقَّ بكَلِماتِه(٣).

٢٦- قَولُه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مَربوبٌ للهِ، يَفعَلُ به ما شاء(٤).

٢٧- قَولُه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ فلا يُمَكِّنْك مِن الباطِلِ: فيه أنَّه لا يُمكِنُ أن يُمَكِّنَ اللهُ تبارك وتعالى لأحَدٍ كافرٍ تَمكينًا مُطلَقًا؛ وقَولُنا: «التَّمكينُ المُطلَقُ» خَرَجَ به تَمكينُ اللهِ تعالى للكافِرِ على وَجهٍ لا يَستَقِرُّ، كما حَصَلَ في غَزوةِ أُحُدٍ؛ فإنَّ المُشرِكينَ هَزموا المُسلِمينَ، لكِنَّه ليس هَزْمًا مُستَقِرًّا، بل هو مِن حِكمةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ أنْ يُمَكِّنَ للكُفَّارِ حتَّى يَتشَجَّعوا على حَربِ المُسلِمينَ، ثمَّ يَقضيَ المُسلِمونَ عليهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٥).

٢٨- قَولُه تعالى: ﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ فيه أنَّ القَلبَ مَحَلُّ الإدراكِ والعَقلِ والتَّصَرُّفِ؛ فدلَّ هذا على أنَّ مَدارَ التَّصَرُّفِ كُلِّه على القَلبِ[(١)].

٢٩- قولُه تعالى: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى لا يُقِرُّ على باطلٍ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ فائدةٌ عظيمةٌ؛ وهي: «ما فُعِل في عهدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولم يُعْلَمْ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم اطَّلَعَ عليه؛ فإنَّنا نَحْكُمُ بجوازِه»؛ لأنَّ اللهَ اطَّلَع عليه وسَكَت عنه، لأنَّ اللهَ تعالى لا يُقِرُّ على باطلٍ؛ والوحيُ ما زال ينزِلُ، ولهذا يُخْطِئُ بعضُ العلماءِ رحمهم اللهُ إذا استُدِلَّ بما وَقَع في عهدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيَقولون: إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يَعْلَمْ! فنقولُ: هَبْ أنَّه لم يَعْلَمْ؛ فإنَّ اللهَ قد عَلِم[(٢)].

٣٠- قَولُه تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ فيه إثباتُ الكَلماتِ للهِ تعالى، واللهُ سُبحانَه وتعالى مُتكَلِّمٌ بكَلامٍ حَقيقيٍّ؛ بحُروفٍ وأصواتٍ مَسموعةٍ، ومُحاوَرةٍ بيْنَه وبيْنَ مَن شاء مِن خَلْقِه، وهذا مَذهَبُ السَّلَفِ الصَّالحِ[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ هذه الجُملةُ تَوطئةٌ لِجُملةِ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠]؛ لأنَّ ما سيُذكَرُ في الجُملةِ الآتيةِ هو أثَرٌ مِن آثارِ لُطفِ اللهِ سبحانه بعِبادِه ورِفقِه بهم، وما يَسَّرَ مِن الرِّزقِ للمؤمنينَ منهم والكفَّارِ في الدُّنيا، ثمَّ ما خَصَّ به المؤمنينَ مِن رِزقِ الآخرةِ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، مُقدِّمةٌ لاستِئنافِ الجُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٦).

الموطِّأ لها، وهي جُملةُ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾[1] [الشورى: ٢٠].

- وعُطِفَ ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ على صِفةِ ﴿لَطِيفُۢ﴾، أو على جُملةِ ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، وهو تَمجيدٌ للهِ تعالى بهاتَينِ الصِّفتينِ، ويُفيدُ الاحتراسَ مِن تَوهُّمِ أنَّ لُطفَه عن عجْزٍ أو مُصانَعةٍ؛ فإنَّه قويٌّ عَزيزٌ لا يَعجِزُ ولا يُصانِعُ، أو عن تَوهُّمِ أنَّ رِزقَه لِمَن يَشاءُ عن شُحٍّ أو قلَّةٍ؛ فإنَّه القويُّ، والقويُّ تَنتفي عنه أسبابُ الشُّحِّ، والعزيزُ يَنْتفي عنه سَببُ الفقرِ، فرِزقُه لِمَن يَشاءُ بما يَشاءُ مَنوطٌ بحِكمةٍ عَلِمَها في أحوالِ خلْقِه عامَّةً وخاصَّةً؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ الآيةَ[2] [الشورى: ٢٧].

- والإخبارُ عن اسمِ الجلالةِ بالمسنَدِ المعرَّفِ باللَّامِ ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ يُفيدُ معنى قصْرِ القوَّةِ والعِزَّةِ عليه تعالى، وهو قصْرُ الجِنسِ للمُبالَغةِ؛ لِكَمالِه فيه تعالى، حتَّى كأنَّ قوَّةَ غيرِه وعِزَّةَ غيرِه عَدَمٌ[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ الفَرْقِ بيْن عمَلَيِ العاملَينِ؛ بأنَّ مَن عَمِلَ للآخرةِ وُفِّقَ في عَمَلِه، وضُوعِفتْ حَسناتُه، ومَن كان عَمَلُه للدُّنيا أُعطِيَ شيئًا منها، لا ما يُريدُه ويَطمَحُ إليه، ولم يكُنْ له نَصيبٌ في الآخرةِ[4].

- وهذه الآيةُ مُتَّصِلةٌ بقولِه: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧).

ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا ﴾ الآيةَ [الشورى: ١٨]؛ لِما تَضمَّنَتْه مِن وُجودِ فَريقَين: فريقِ المؤمنينَ أكبرُ همِّهم حَياةُ الآخرةِ، وفَريقِ الَّذين لا يُؤمِنونَ هِممُهم قاصِرةٌ على حياةِ الدُّنيا؛ فجاء في هذه الآيةِ تَفصيلُ مُعامَلةِ اللهِ الفَريقَين مُعامَلةً مُتفاوِتةً، مع استوائِهم في كَونِهم عَبيدَه، وكَونِهم بمَحَلِّ لُطفٍ منه؛ فكانتْ جُملةُ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩] تَمْهيدًا لهذه الجُملةِ، وكانتْ هاتِه الجُملةُ تَفصيلًا لِحُظوظِ الفَريقينِ في شأْنِ الإيمانِ بالآخِرةِ وعَدمِ الإيمانِ بها، ومِن أجْلِ هذا الاتِّصالِ بيْنَها وبيْن جُملةِ ﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى: ١٨] تُرِك عطْفُها عليها، وتُرِك عطْفُ تَوطئتِها كذلك، ومِن أجْلِ الاتِّصالِ بيْنَها وبيْن جُملةِ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩] اتِّصالَ المقصودِ بالتَّوطئةِ تُرِك عطْفُها على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾[1].

- والحرْثُ في هذه الآيةِ تمثيلٌ للإقبالِ على كسبِ ما يَعُدُّه الكاسبُ نفْعًا له يَرْجو منه فائدةً وافرةً -بإقبالِ الفلَّاحِ على شَقِّ الأرضِ وزَرْعِها؛ لِيَحصُلَ له سنابلُ كثيرةٌ، وثمارٌ مِن شَجَرِ الحرْثِ[2].

- وفي قولِه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ لم يُذكَرْ في معنى عامِلِ الآخِرةِ (وله في الدُّنيا نَصيبٌ)، على أنَّ رِزقَه المقسومَ له واصلٌ إليه لا مَحالةَ؛ للاستِهانةِ بذلك إلى جنْبِ ما هو بصَددِه مِن زَكاءِ عمَلِه وفَوزِه في المآبِ[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٣، ٧٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٨).

وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

- قولُه: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾ حرْفُ (أَمْ) للإضرابِ الانتقاليِّ، وهو انتقالٌ مِن الكلامِ على تفرُّقِ أهلِ الشَّرائعِ السَّالفةِ في شَرائعِهم مَن انقرَضَ منهم، ومَن بَقِيَ؛ كأهلِ الكِتابَينِ، إلى الكلامِ على ما يُشابِهُ ذلك مِن الاختلافِ على أصلِ الدِّيانةِ، وتلك مُخالَفةُ المشركينَ للشَّرائعِ كلِّها، وتَلقِّيهم دِينَ الإشراكِ مِن أئمَّةِ الكُفرِ، وقادةِ الضَّلالِ[١].

- ومعنى الاستِفهامِ الذي تَقضيهِ (أَم) الَّتي للإضرابِ هو هنا للتَّقريعِ والتَّهكُّمِ؛ فالتَّقريعُ راجعٌ إلى أنَّهم شرَعوا مِن الدِّينِ ما لم يَأذَنْ به اللهُ، والتَّهكُّمُ راجعٌ إلى مَن شرَعوا لهم الشِّركَ، فسُئِلوا عمَّن شرَعَ لهم دِينَ الشِّركِ: أهُمْ شركاءُ آخَرونَ اعتقَدوهم شُركاءَ للهِ في الإلهيَّةِ، وفي شَرْعِ الأديانِ كما شرَعَ اللهُ للنَّاسِ الأديانَ؟! وهذا تَهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ هذا النَّوعَ مِن الشُّركاءِ لم يَدَّعِهِ أهلُ الشِّركِ مِن العرَبِ، وهذا المعنى هو الَّذي يُساعدُ تَنكيرَ ﴿ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾ ووَصْفَه بجُملةِ ﴿ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ المسؤولُ عن الَّذي شرَعَ لهم هو الأصنامَ الَّتي يَعبُدونَها، والمقصودُ: فضْحُ فظاعةِ شِركِهم بعُرُوِّهِ عن الانتسابِ إلى اللهِ، أي: إنْ لم يكُنْ مَشروعًا مِن الإلهِ الحقِّ؛ فهو مَشروعٌ مِن الآلهةِ الباطلةِ، وهي الشُّركاءُ، وظاهرٌ أنَّ تلك الآلهةَ لا تَصلُحُ لِتَشريعِ دِينٍ؛ لأنَّها لا تَعقِلُ ولا تَتكلَّمُ، فتعيَّنَ أنَّ دِينَ الشِّركِ دِينٌ لا مُستنَدَ له[٢].

- وأُضيفَتِ الشُّركاءُ إليهم؛ لأنَّهم مُتَّخِذوها شُركاءَ للهِ، ولأنَّها سَببُ ضَلالتِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٦).

وافتِتانِهم، فتارةً تُضافُ إليهم لهذه المُلابَسةِ، وتارةً إلى اللهِ(١).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾، والمقصودُ تَحقيقُ إمْهالِهم إلى أجَلٍ مُسمًّى لا يُفلِتُهم مِن المؤاخَذةِ بما ظلَموا؛ فالعذابُ الأليمُ: عذابُ الآخرةِ لجَميعِهم، وعذابُ الدُّنيا بالسَّيفِ والذُّلِّ للَّذين أُخِّروا إلى إبَّانِ حُلولِه؛ مِثلَ: قتلِهم يومَ بَدْرٍ(٢)، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وتَوكيدُ الخبَرِ بحَرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لأنَّ هذا الخبرَ مُوجَّهٌ إليهم؛ لأنَّهم يَسمَعونَ هذا الكلامَ، ويَعلَمونَ أنَّهم المقصودونَ به(٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾

- قولُه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الشورى: ٢١]؛ بُيِّنَ حالُ هذا العَذابِ ببيانِ حالِ أصحابِه حينَ تَوقُّعِ حُلولِه، وكَفَى بذلك مُنبئًا عن هَولِه(٤).

- والخِطابُ بـ(تَرَى) لِغيرِ مُعيَّنٍ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فيَعُمُّ كلَّ مَن تُمكِنُ منه الرُّؤيةُ يومَئذٍ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ أي: خائفينَ خَوفًا شَديدًا. فإنْ قِيل: إذا كان معنى الخَوفِ: غَمٌّ يَلحَقُ الإنسانَ لِتَوقُّعِ مَكروهٍ؛ فكيف الجمْعُ بيْنَه وبيْنَ قولِه: ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ﴾ استِحضارٌ لِصُورةِ حالِ الظَّالِمينَ في مُشاهَدةِ السَّامعِ؛ لِيَنظُرَ إلى تلك الحالةِ العجيبةِ الشَّأنِ، وهو أنَّهم خائفونَ مُشفِقونَ يُحاوِلونَ الحذَرَ حينَ لا يَنفَعُهم الحذَرُ؛ لأنَّ الخائفَ إذا استَشعَرَ بما يُتوقَّعُ منه المكروهُ، وأخَذَ في الدَّفْعِ؛ رُبَّما تَخلَّصَ منه، ومَن ترَكَ الحذَرَ حتَّى إذا ألَمَّ به المحذورُ زاوَلَ الدَّفعَ؛ كان مَظِنَّةً للتَّعجُّبِ منه والتَّعجيبِ[(١)].

- وضَميرُ ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ﴾ عائدٌ على ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ باعتبارِ تَقديرِ مُضافٍ، أي: جَزاءَ ما كسَبوا، أي: في حالِ أنَّ الجزاءَ واقعٌ عليهم[(٢)].

- قولُه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ خَبرٌ ثانٍ عن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، و(عِندَ) ظَرْفٌ مُتعلِّقٌ بالكَونِ الَّذي تَعلَّقَ به الجارُّ والمجرورُ في ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾. والعِنديَّةُ تَشريفٌ لمعنى الاختِصاصِ الَّذي أفادَتْه اللَّامُ في قولِه: ﴿لَهُم﴾، وعِنايةٌ بما يُعطَونَه مِن رَغْبةٍ، والمعنى: ما يَشاؤونَه حَقٌّ لهم مَحفوظٌ عِندَ ربِّهم. ولا يَنْبغي جَعْلُ (عِندَ) مُتعلِّقًا بفِعلِ (يَشاؤون)؛ لأنَّ (عِندَ) حينَئذٍ تَكونُ ظَرْفًا لِمَشيئتِهم، أي: مَشيئةٌ منهم مُتوجِّهةٌ إلى ربِّهم، فتَؤُولُ المشيئةُ إلى معنى الطَّلَبِ أنْ يُعطِيَهم ما يَطلُبون، فيَفُوتُ قصْدُ التَّشريفِ والعِنايةِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ خبرًا ثالثًا عن (الَّذين آمَنوا)، أي: هم عِندَ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٨، ٧٩).

ربِّهم، أي: في ضِيافتِه وقِراهُ[١]، ويكونَ تَرتيبُ الأخبارِ الثَّلاثةِ جاريًا على نمطِ الارتقاءِ مِن الحسَنِ إلى الأحسَنِ بأنْ: أخبَرَ عنهم بأنَّهم نزَلوا في أحسَنِ مَنزِلٍ، ثمَّ أُحضِرَ لهم ما يَشتهُونَ، ثمَّ ارتَقى إلى ما هو أعظَمُ، وهو كونُهم عِندَ ربِّهم. ومِن لَطائفِ هذا الوجهِ أنَّه جاءَ على التَّرتيبِ المعهودِ في الحُصولِ في الخارجِ؛ فإنَّ الضَّيفَ أو الوافدَ يَنزِلُ أوَّلَ قُدومِه في مَنزِلِ إكرامٍ، ثمَّ يُحضَرُ إليه القِرَى، ثمَّ يُخالِطُه ربُّ المَنزِلِ ويَقترِبُ منه[٢].

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ تَذييلٌ[٣].

- والإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذُكِرَ مِن حالِ المؤمنينَ، وهو مَضمونُ قولِه: ﴿فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ بتَأويلِ: ذلك المذكورُ. وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلةِ المُشارِ إليه في المكانةِ والشَّرفِ[٤].

- وضميرُ الفَصْلِ (هو) يُفيدُ قصْرًا ادِّعائيًّا[٥]؛ للمُبالَغةِ في أعظميَّةِ الفضْلِ، والفضلُ يَصلُحُ لأنْ يُعتبَرَ كالمضافِ إلى المفعولِ، أي: فضْلُ اللهِ عليهم،

---

(١) القِرَى: ضِيافةُ الضَّيفِ والإحسانُ إليه. والقِرَى أيضًا: ما يُقدَّمُ إلى الضَّيفِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٥٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ١٧٩)، ((المعجم الوسيط)) (٢/ ٧٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٩، ٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٠).

(٥) القصرُ الادِّعائي: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاء والمبالَغة، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرُ الشيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

وأنْ يُعتبَرَ كالمضافِ إلى الفاعلِ: فضْلُهم، أي: شرَفُهم وبركَتُهم؛ فيَؤولُ معنى القَصرِ إلى أنَّ الفضلَ الَّذي حصَلَ للَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ أكبرُ فضْلٍ(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُؤكِّدٌ لِنظيرِه الَّذي قبْلَه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]، أي: ذلك المذكورُ الَّذي هو فضْلٌ يَحصُلُ لهم في الجنَّةِ هو أيضًا بُشرَى لهم مِن الحياةِ الدُّنيا(٢).

- والعائدُ مِن الصِّلةِ إلى الموصولِ مَحذوفٌ، تَقديرُه: الَّذي يُبشِّرُ اللهُ به عِبادَه. وحَذْفُه هنا لِتنزيلِه مَنزلةَ الضَّميرِ المنصوبِ باعتبارِ حذْفِ الجارِّ، على طَريقةِ حَذْفِه في نَحْوِ قولِه: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، بتقديرِ: مِن قَومِه، فلمَّا عُومِلَ مُعامَلةَ المنصوبِ حُذِفَ كما يُحذَفُ الضَّميرُ المنصوبُ(٣).

- وجمْعُ العِبادِ المُضافُ إلى اسمِ الجلالةِ أو ضَميرِه: غلَبَ إطلاقُه في القرآنِ في مَعرِضِ التَّقريبِ، وتَرفيعِ الشَّأنِ؛ ولذلك يكونُ مَوقعُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هنا مَوقعَ عطْفِ البَيانِ لـ ﴿عِبَادَهُ﴾(٤).

- وقولُه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ بمُناسَبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٨١).

ذِكرِ ما أُعِدَّ للمُشرِكينَ مِن عذابٍ، وما أُعِدَّ للمؤمنينَ مِن خيرٍ، وضَميرُ جَماعةِ المخاطَبينَ مُرادٌ به المشرِكونَ لا مَحالةَ. وليس في الكلامِ السَّابقِ ما يُتوهَّمُ منه أن يكونَ ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ جوابًا عنه؛ فتعيَّنَ أنَّ جُملةَ ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وكان مَوقعُها هنا لِمُناسَبةِ ما سبَقَ مِن ذِكرِ حِجاجِ المشرِكينَ وعِنادِهم؛ فإنَّ مُناسَبتَها لِما معها مِن الآياتِ مَوجودةٌ؛ إذ هي مِن جُملةِ ما واجَهَ به القرآنُ مُحاجَّةَ المشرِكينَ، ونَفَى به أوهامَهم، واستَفتَح بَصائرَهم إلى النَّظرِ في عَلاماتِ صِدقِ الرَّسولِ؛ فهي جُملةٌ ابتدائيَّةٌ وقَعتْ مُعترِضةً بيْنَ جُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وجُملةِ ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ﴾[(١)].

- وابتُدِئتْ الآيةُ بـ﴿قُل﴾؛ إمَّا لأنَّها جَوابٌ عن كَلامٍ صدَرَ منهم، وإمَّا لأنَّها ممَّا يُهتَمُّ بإبلاغِه إليهم[(٢)].

- والمودَّةُ: المَحبَّةُ والمعامَلةُ الحسَنةُ المُشبِهةُ مُعاملةَ المتحابِّينَ، والكلامُ على تَقديرِ مضافٍ، أي: مُعاملةَ المودَّةِ، أي: المجامَلة؛ بقَرينةِ أنَّ المَحبَّةَ لا تُسأَلُ؛ لأنَّها انبِعاثٌ وانفعالٌ نَفْسانيٌّ، ومعنى الآيةِ على ما يَقتضيهِ نَظْمُها: لا أَسألُكم على القرآنِ جزاءً إلَّا أنْ تَوَدُّوني، أي: أن تُعامِلوني معامَلةَ الوُدِّ، أي: غيرَ معاملةِ العداوةِ، مِن أجْلِ القَرابةِ الَّتي بيْنَنا في النَّسَبِ القُرَشيِّ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والمعنى: وكلَّما عَمِل مُؤمنٌ حَسنةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

زِدْناهُ حُسنًا مِن ذلك الفضْلِ الكبيرِ(١).

- والاقتِرافُ: افتِعالٌ مِن القَرْفِ، وهو الاكتِسابُ؛ فالاقترافُ مُبالَغةٌ في الكسْبِ نَظيرَ الاكتِسابِ، وليس خاصًّا باكتِسابِ السُّوءِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا﴾ لَمَّا كانتِ الحَسَنةُ مَأْخوذةً مِن الحُسنِ؛ جُعِلَتِ الزِّيادةُ فيها مِن الزِّيادةِ في الحُسنِ؛ مُراعاةً لأصلِ الاشتِقاقِ؛ فكان ذِكرُ الحُسنِ مِن الجِناسِ المُعبَّرِ عنه بجِناسِ الاشتِقاقِ(٣)، ويَتعيَّنُ أنَّ الزِّيادةَ فيها زِيادةٌ مِن غَيرِ عَملِه، ولا تَكونُ الزِّيادةُ بعَملٍ يَعمَلُه غيرُه؛ لأنَّها تَصيرُ عمَلًا يَستحِقُّ الزِّيادةَ أيضًا، فلا تَنتهي الزِّيادةُ؛ فتَعيَّنَ أنَّ المرادَ الزِّيادةُ في جَزاءِ أمثالِها عِندَ اللهِ، وهذا معنى قولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾(٤) [الأنعام: ١٦٠].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ تَذييلٌ وتعليلٌ للزِّيادةِ؛ لِقَصْدِ تَحقيقِها بأنَّ اللهَ كثيرةٌ مَغفرتُه لِمَن يَستحِقُّها، كَثيرٌ شُكْرُه للمُتقرِّبينَ إليه، والمقصودُ بالتَّعليلِ هو وَصْفُ (الشَّكورِ)، وأمَّا وَصْفُ (الغفور) فقد ذُكِر للإشارةِ إلى تَرْغيبِ المُقترِفينَ السَّيِّئاتِ في الاستِغفارِ والتَّوبةِ لِيُغفَرَ لهم؛ فلا يَقنَطوا من رَحمةِ اللهِ(٥).

٦- قولُه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) جِناسُ الاشتِقاقِ: هو أن يَجمَعَ بيْنَ اللَّفظَينِ اشتِقاقٌ، فإن توافَقَ اللَّفظانِ في الحروفِ وترتيبِها ولم يَجمَعْ بيْنَهما اشتِقاقٌ فهو الجناسُ المُطْلَقُ. يُنظر: ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٩).

ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

- قولُه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ عطْفًا على قولِه: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]، وهو الكلامُ المُضرَبُ عنه والمُنتقَلُ منه، والمرادُ الانتقالُ إلى تَوبيخٍ آخَرَ؛ فالهمزةُ المُقدَّرةُ بعْدَ (أَمْ) للاستِفهامِ التَّوبيخيِّ وللإنكارِ؛ فإنَّهم قالوا ذلك، فاستحَقُّوا التَّوبيخَ عليه، والمعنى: أم قالوا: افترَى؟ ويقولونَه[١].

- وجِيءَ بفِعلِ ﴿يَقُولُونَ﴾ بصِيغةِ المضارعِ؛ لِيَتوجَّهَ التَّوبيخُ لاستِمرارِهم على هذا القولِ الشَّنيعِ مع ظُهورِ دَلائلِ بُطلانِه، فإذا كان قولُهم هذا شَنِعًا من القولِ، فاستِمرارُهم عليه أشنَعُ[٢].

- وقولُه: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ تَفريعٌ على تَوبيخِهم، وهو تَفريعٌ فيه خَفاءٌ ودِقَّةٌ؛ لأنَّ المُتبادِرَ من التَّفريعِ أنَّ ما بعْدَ الفاءِ إبطالٌ لِمَا نَسَبوه إليه مِن الافتراءِ على اللهِ، وتَوكيدٌ للتَّوبيخِ، وإنَّما يُستفادُ هذا الإبطالُ من الشَّرطِ وجَوابِه المُفرَّعينِ على التَّوبيخِ؛ لأنَّ هذا الشَّرطَ وجَوابَه المُفرَّعينِ في ظاهرِ اللَّفظِ على التَّوبيخِ والإبطالِ هما دَليلٌ على المقصودِ بالتَّفريعِ المناسِبِ لِتَوبيخِهم، وإبطالِ قَولِهم، وتَقديرُ المُفرَّعِ هكذا: فكيف يكونُ الافتراءُ منك على اللهِ واللهُ لا يُقِرُّ أحدًا أنْ يَكذِبَ عليه؟! فلو شاءَ لَخَتَمَ على قلبِك، أي: سلَبَك العقلَ الَّذي يُفكِّرُ في الكَذِبِ، فَتُفْحَمُ عن الكلامِ، فلا تَستطيعُ أنْ تَتقوَّلَ عليه، أي: وليس ثَمَّةَ حائلٌ يَحُولُ دونَ مَشيئةِ اللهِ ذلك لو افترَيتَ عليه؛ فيكونُ الشَّرطُ كِنايةً عن انتفاءِ الافتراءِ؛ لأنَّ اللهَ لا يُقِرُّ مَن يَكذِبُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٥).

كلامًا، فحصَلَ بهذا النَّظم إيجازٌ بَديعٌ. أو أنَّ ما بعْدَ الفاءِ هو المُفرَّعُ على ما قبْلَها، ويكونُ الكَلامُ كِنايةً عن الإعراضِ عن قولِهم: افتَرى على اللهِ كذبًا، أي: أنَّ اللهَ يُخاطِبُ رسولَه بهذا تَعريضًا بالمشركينَ، والمعنى: أنَّ افتراءَه على اللهِ لا يُهِمُّكم حتَّى تُناصِبوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ العداءَ؛ فاللهُ أَولى منكم بأنْ يَغارَ على انتهاكِ حُرمةِ رِسالتِه، وبأنْ يَذُبَّ عن جَلالِه، فلا تَجْعَلوا هذه الدَّعوى همَّكم؛ فإنَّ اللهَ لو شاء لَختَمَ على قلْبِك فسَلَبَك القُدرةَ على أنْ تَنسُبَ إليه كلامًا. وهذانِ الوجهانِ هما المناسِبانِ لموقعِ الآيةِ، ولِفاءِ التَّفريعِ، ولِما في الشَّرْطِ مِن الاستقبالِ، ولِوُقوعِ فِعلِ الشَّرْطِ مُضارِعًا، فالوقْفُ على قولِه: ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، وهو انتهاءُ كَلامٍ[(١)].

- وقيل: المعنى: يَختِمْ على قُلوبِ الكفَّارِ وعلى ألْسِنَتِهم، ويُعاجِلْهم بالعذابِ؛ فيَكونُ الْتِفاتًا مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، ومِن الجمْعِ إلى الإفرادِ، أي: يَختِمْ على قلبِك أيُّها القائلُ أنَّه افترَى على اللهِ كذبًا[(٢)]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، مُرادٌ منه أنَّ اللهَ يَمْحو باطِلَ المشركينَ وبُهتانَهم، ويُحقِّقُ ما جاءَ به رسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وليس عطْفًا على فِعلِ الجزاءِ؛ لأنَّ المُتبادرَ أنَّ هذا وعْدٌ مِن اللهِ بإظهارِ الإسلامِ، ووَعيدُ المشركينَ بأنَّ دِينَهم زائلٌ، والمرادُ بالمحْوِ على هذا: الإزالةُ، والمرادُ بالباطلِ: الباطلُ المعهودُ، وهو دِينُ الشِّركِ، وبالحقِّ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤، ٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦، ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٦).

الحقُّ المعهودُ، وهو الإسلامُ. أو يكونُ المعنى: أنَّ مِن شأْنِ اللهِ تعالى أنْ يُزيلَ الباطلَ ويَفضَحَه بإيجادِ أسبابِ زَوالِه، وأنْ يُوضِّحَ الحقَّ بإيجادِ أسبابِ ظُهورِه؛ حتَّى يكونَ ظُهورُه فاضحًا لِبُطلانِ الباطلِ، فلو كان القُرآنُ مُفترًى على اللهِ لَفضَحَ اللهُ بُطلانَه، وأظهَرَ الحقَّ؛ فالمرادُ بالباطلِ: جنسُ الباطلِ، وبالحقِّ: جنسُ الحقِّ، وتكونُ الجُملةُ كالتَّذييلِ للتَّفريعِ. والمعنى الأوَّلُ أنسَبُ بالاستئنافِ، ولإفادتِه الوعيدَ بإزالةِ ما همْ عليه، ونصْرَ المسلمينَ عليهم. وعلى كِلا المعنيَينِ فقولُه: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ ليس مَعطوفًا على جَزاءِ الشَّرْطِ؛ إذ ليس المعنى على: إنْ يَشأِ اللهُ يَمْحُ الباطلَ؛ بلْ هو تَحقيقٌ لِمَحْوِه للباطلِ[1].

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ في قولِه: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ دونَ أنْ يقولَ: ويَمْحُ الباطلَ؛ لِتَقْويةِ تَمكُّنِ المُسنَدِ إليه مِن الذِّهنِ، ولإظهارِ عِنايةِ اللهِ بمَحْوِ الباطلِ[2].

- وإنَّما عُدِلَ عن الجُملةِ الاسميَّةِ في صَوغِ ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾، فلم يقُلْ: (واللهُ يَمْحو الباطلَ)؛ لأنَّه أُريدَ أنَّ ما في إفادةِ المضارعِ مِن التَّجدُّدِ والتَّكريرِ إيماءٌ إلى أنَّ هذا شأْنُ اللهِ وعادتُه لا تَتخلَّفُ، ولم يَقصِدْ تَحقيقَ ذلك وتَثبيتَه؛ لأنَّ إفادةَ التَّكريرِ تَقتضي ذلك بطَريقِ الكِنايةِ، فحصَلَ الغرَضانِ[3].

- وجاء الرَّدُّ عليهم بأُسلوبِ الخِطابِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦، ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٨٧، ٨٨).

أقْوى في الاعتِناءِ بتَلقينِه جَوابَ تَكذيبِهم؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ تَفظيعٍ لِبُهتانِهم، وهذا وَجْهُ التَّخالُفِ بيْنَ أُسلوبِ هذه الآيةِ وأُسلوبِ قولِه تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس: ١٦]؛ لأنَّ ذلك لم يكُنْ مَسوقًا لإبطالِ كَلامٍ صدَرَ منهم[(١)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تَعليلٌ لِمَجموعِ جُملتَيْ ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ إلى قولِه: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾، أي: لأنَّه لا يَخفَى عليه افتِراءُ مُفترٍ، ولا صِدقُ مُحِقٍّ[(٢)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٥-٢٨)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٢٥ وَيَسۡتَجِيبُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ٢٦ ۞ وَلَوۡ
بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧
وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَبَغَوۡاْ﴾: أي: لَطَغَوْا وأفسَدوا، وأصلُ (بغي) هنا: يدُلُّ على جِنسٍ مِن الفَسادِ[1].

﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾: أي: المطرَ النَّازِلَ مِن السَّماءِ، وسُمِّي غَيْثًا؛ لأنَّه يُغيثُ الخلْقَ[2].

﴿قَنَطُواْ﴾: أي: يَئِسوا، والقُنوطُ: اليَأسُ مِنَ الخَيرِ، وقيل: هو أشدُّ اليأسِ، وأصلُ (قنط): يدُلُّ على اليأسِ مِن الشَّيءِ[3].

﴿ٱلۡوَلِيُّ﴾: فَعيلٌ بمعنَى فاعِلٍ، أي: المُتَوَلِّي لأُمورِ العالَمِ والخَلائِقِ، القائِمُ بها، والوليُّ: الناصرُ، فهو يَنْصُرُ عِبادَه المؤمنينَ، ويَتولَّى أُمورَهم، وكلُّ مَن وَلِي أمْرَ آخَرَ فهو وليُّه، والوَلايَةُ: تَوَلِّي الأمرِ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨).

قال القرطبيُّ: (والغيثُ ما كان نافعًا في وقْتِه، والمطرُ قدْ يكونُ نافعًا وضارًّا، في وقتِه وغيرِ وقْتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(٤) يُنظر: ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فاس (٦/ ١٤١)، =

﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾: أي: المحمودُ على كلِّ حالٍ، وفي جميعِ أفعالِه وأقوالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والمحمودُ على ما له مِن الكَمالِ، وعلى نِعَمِه التي أنْعَمها على خلْقِه، المستحِقُّ لكلِّ حمْدٍ، والحمدُ إخبارٌ عن مَحاسنِ المحمودِ مع حُبِّه وإجلالِه وتَعظيمِه، وأصلُ (حمد): يَدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾

قَولُه: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محَلِّ نَصبٍ

= ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٠)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٧٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨، ٧٥٨).

قال ابنُ القيِّم: (الحَميدُ فَعيلٌ مِن الحَمْدِ، وهو بمعنى مَحمودٍ، وأكثرُ ما يَأتي فَعيلًا في أسمائِه تعالَى، بمعنى فاعِلٍ، كـ: سَميع، وبَصير، وعَليم، وقَدير، وعَليٍّ، وحَكيم، وحَليم، وهو كثيرٌ ... وأمَّا الحميدُ فلمْ يأتِ إلَّا بمعنى المحمودِ، وهو أبلغُ مِن المحمودِ؛ فإنَّ فَعيلًا إذا عُدِلَ به عن مَفعولٍ، دلَّ على أنَّ تِلك الصِّفةَ قد صارتْ مِثلَ السَّجيَّةِ والغَريزةِ والخُلُقِ اللَّازمِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٣١٥).

لكنْ قال ابنُ عُثَيمين: (كَلِمةُ «حميد» يَصِحُّ أن تكونَ اسمَ فاعلٍ، ويصِحُّ أنْ تكونَ بمعنى اسمِ المفعول؛ اسمُ الفاعِلِ: لأنَّه سُبحانَه وتعالَى حامِدٌ يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه؛ ولهذا يُثني على رسُلِه وأنبيائِه وعِبادِه الصَّالحين، والثناءُ عليهم هو الحَمدُ. وهو أيضًا المحمودُ على أمْرينِ: على ما له مِن كَمالِ الصِّفاتِ، وعلى ما له من كَمالِ الإنعامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣). ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤).

مَفعولٌ به، والفاعِلُ مُضمَرٌ يَعودُ على اللهِ تعالَى، بمعنى: ويُجيبُ اللهُ الذين آمَنوا. وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ مَوصولٌ مَبنيٌّ على الفَتحِ في مَحلِّ رَفعِ فاعِلٌ، أي: يُجيبون ربَّهم إذا دعاهُمْ، واستجابَ كـ (أَجابَ) مَعنًى، ويجوزُ أنْ تكونَ السِّينُ في (يَسْتَجيبُ) للطَّلبِ على بابِها، بمعْنى: ويَستَدعي الذين آمَنوا الإجابةَ مَن رَبِّهم بالأعمالِ الصَّالحةِ. وقيل: ثَمَّ لامٌ مُقدَّرةٌ، أي: ويَستجيبُ اللهُ للَّذين آمَنوا(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مُمتنًّا على عِبادِه، ومُبيِّنًا كَمالَ كَرمِه، وسَعةَ جُودِه، وتَمامَ لُطفِه: اللهُ وَحْدَه هو الذي يَقبَلُ تَوبةَ عِبادِه إذا تابوا، ويَعفو عن سَيِّئاتِهم، ويَعلَمُ اللهُ ما تَفعَلونَ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، ويُجيبُ اللهُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ إذا دَعَوْه، ويُعْطيهم إذا سأَلوه، ويَزيدُهم مِن فَضلِه، والكافِرونَ لهم عَذابٌ شَديدٌ.

ثَمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه جانبًا ممَّا اقتضَتْه حِكمتُه في تَدبيرِ أُمورِ عِبادِه، فيَقولُ: ولو وسَّع اللهُ الرِّزقَ لعِبادِه لَأفسَدوا في الأرضِ، واعتدَى بعضُهم على بعضٍ، ولكِنْ يُنَزِّلُ اللهُ ما يَشاءُ بمِقدارٍ مُعَيَّنٍ حَسَبَ حِكمتِه سُبحانَه، إنَّ اللهَ خَبيرٌ بأحوالِ عبادِه، بَصيرٌ بهم.

ثَمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالَى جانبًا مِن نِعَمِه على عبادِه، فيقولُ: واللهُ هو الذي يُنزِّلُ الماءَ مِن السَّماءِ فيُغيثُ به عِبادَه من بعْدِ انقِطاعِ رَجائِهم مِن نُزولِه، ويَنشُرُ رَحمتَه، وهو الوَليُّ الذي يَتولَّى عِبادَه، المحمودُ على ما أوصَلَه إلى خَلْقِه مِن أصنافِ النِّعَمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٢٥﴾.

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٥٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى: ٢٤]، ثمَّ برَّأ رَسولَه مِمَّا أضافوه إليه مِن هذا، وكان مِن المعلومِ أنَّهم قدِ استحَقُّوا بهذه الفِريةِ عِقابًا عَظيمًا؛ لا جرَمَ ندَبَهم اللهُ إلى التَّوبةِ، وعَرَّفهم أنَّه يَقبَلُها مِن كُلِّ مُسيءٍ، وإنْ عَظُمَت إساءتُه[١].

وأيضًا لَمَّا جرَى وَعيدُ الذين يُحاجُّونَ في اللهِ لِتَأييدِ باطِلِهم مِن قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦]، ثمَّ أُتبِعَ بوَصْفِ سُوءِ حالِهم يومَ الجزاءِ بقولِه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ [الشورى: ٢٢]، وقُوبِلَ بوَصْفِ نَعيمِ الذين آمَنوا بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ [الشورى: ٢٢]، وكان ذلك مَظِنَّةً أنْ يَكسِرَ نُفوسَ أهلِ العِنادِ والضَّلالةِ؛ أُعقِبَ بإعلامِهم أنَّ اللهَ مِن شَأنِه قَبولُ تَوبةِ مَن يَتوبُ مِن عِبادِه، وعفْوُه بذلك عمَّا سلَفَ مِن سيِّئاتِهم[٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الذي يَقبَلُ تَوبةَ عِبادِه إذا تابوا ورَجَعوا إليه[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٨-٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٣).

قيل: تضمَّن ﴿يَقْبَلُ﴾ معْنى (يعفو)، أي: يَقبَلُ التَّوبةَ فيَعفو عن عِبادِه. ومِمَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٣). =

عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((لَلَّهُ أشَدُّ فَرَحًا بتَوبةِ عَبدِه حينَ يَتوبُ إليه مِن أحَدِكم كان على راحِلتِه بأرضِ فَلاةٍ[1]، فانفلَتَتْ[2] منه وعليها طَعامُه وشَرابُه، فأَيِسَ منها، فأتَى شَجَرةً فاضْطَجَعَ في ظِلِّها قدْ أيِسَ مِن راحِلتِه، فبَيْنا هو كذلك إذا هو بها قائِمةً عنده، فأخَذَ بخِطامِها، ثمَّ قال مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أنت عَبْدي وأنا رَبُّك! أخطأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ!))[3].

وعن أبي مُوسى رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَبسُطُ يَدَه باللَّيلِ لِيَتوبَ مُسيءُ النَّهارِ، ويَبسُطُ يَدَه بالنَّهارِ لِيَتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ، حتى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها))[4].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ

= قال الألوسي: (قيل: القَبولُ مُضمَّن هنا معنى التَّجاوُزِ، والكلامُ على تَقديرِ مُضافٍ: أي يَقبَلُ التَّوبةَ مُتجاوزًا عن ذُنوبِ عبادِه، وهو تَكلُّف). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٦).

وقيل: قبِلْتُه عنه، أي: عزَلْتُه عنه وأبنْتُه عنه. فمعنى ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾: أي يُزيلُ الرُّجوعَ عن المعاصي. ومِمَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: الزمخشريُّ، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٧).

ومِمَّن ذهَب إلى أنَّ ﴿عَنْ﴾ هنا بمعنى: «مِن»: ابنُ قُتَيبة، وابن جزي، وجلالُ الدِّين المحلِّي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٢).

وقال ابنُ عَطيةَ: (قوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ بمعنى: من عبادِه، وكأنَّه قال: التَّوبةُ الصادرةِ عن عبادِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥).

(١) بأرضٍ فَلاةٍ: أي: صَحْراءَ خاليةٍ مِن النَّباتِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٧).

(٢) فانفلَتَت: أي: نَفَرَت وفرَّت. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٧).

(٣) رواه مسلمٌ (٢٧٤٧) بهذا اللَّفظِ، ورواه البخاريُّ (٦٣٠٩) مختصَرًا.

(٤) رواه مسلمٌ (٢٧٥٩).

يَقبَلُ تَوبةَ العَبدِ ما لم يُغرغِرْ[(١)]))[(٢)].

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

أي: ويَعفو اللهُ عن سَيِّئاتِ أعمالِ عِبادِه، فيَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[(٣)].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت التَّوبةُ مِن الأعمالِ العَظيمةِ التي قدْ تكونُ كامِلةً بسَبَبِ تَمامِ

---

(١) ما لم يُغَرْغِرْ: أي: ما لم تَبلُغْ رُوحُه حُلقومَه، فيكونُ بمنزلةِ الشَّيءِ الذي يَتغَرغَرُ به المريضُ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣٦٠).

(٢) رواه الترمذيُّ (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد (٦١٦٠).

قال الترمذيُّ: (حسنٌ غريبٌ). وقال ابنُ القَطَّان في ((بيان الوهم والإيهام)) (٥/ ٤١٢): (محتمِلٌ أن يُقالَ فيه: صحيحٌ). وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٩/ ١٨)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٣).

قال ابنُ جُزي: (العَفوُ دونَ التَّوبةِ على أربعةِ أقسامٍ: الأوَّلُ: العَفوُ عن الكُفرِ، وهو لا يكونُ أصلًا. والثَّاني: العَفوُ عن مَظالمِ العِبادِ، وهو كذلك. والثالثُ: العَفوُ عن الذُّنوبِ الصَّغائرِ إذا اجتُنِبَت الكبائرُ، وهو حاصِلٌ باتِّفاقٍ. والرَّابعُ: العَفوُ عن الكبائرِ، فمَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ أنَّها في المَشيئةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (العَفوُ عن السَّيِّئاتِ يكونُ بسَبَبِ التَّوبةِ؛ بأنْ يَعفوَ عن السَّيِّئاتِ التي اقتَرَفها العاصي قبْلَ توبتِه، ويكونُ بدون ذلك؛ مِثلُ العَفوِ عن السَّيِّئاتِ عَقِبَ الحَجِّ المبرورِ، ومِثلُ العَفوِ عن السَّيِّئاتِ لأجْلِ الشَّهادةِ في سبيلِ اللهِ، ومِثلُ العَفوِ عن السَّيِّئاتِ لكَثرةِ الحَسَناتِ، بأنْ يُمحَى عن العاصي مِن سَيِّئاتِه ما يُقابِلُ مِقدارًا مِن حَسَناتِه على وَجهٍ يَعلَمُه اللهُ تعالَى، ومِثلُ العَفوِ عن الصَّغائرِ باجتِنابِ الكبائرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠).

الإخلاصِ والصِّدقِ فيها، وقدْ تَكونُ ناقِصةً عندَ نَقصِهما، وقدْ تكونُ فاسِدةً إذا كان القَصدُ منها بُلوغَ غَرَضٍ مِن الأغراضِ الدُّنيويَّةِ، وكان محَلُّ ذلك القَلبَ الذي لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى؛ خَتَم هذه الآيةَ بقَولِه تعالى[1]:

﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ ما تَفعَلونَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، لا يَخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن ذلك[2].

﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ٢٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا رغَّب اللهُ تعالَى بالعفْوِ؛ زاد الإكرامَ فقال[3]:

﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: ويُجيبُ اللهُ الذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ للهِ تعالَى ومُوافَقةٍ لِشَرعِه؛ إذا دَعَوْه، ويُعْطيهم ما طلَبوه منه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٧- ٢٣٢).

قال ابن جُزَيٍّ: (﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه ثَلاثةُ أقوالٍ: =

= أحدُها: أنَّ معنى «يَستجيبُ»: يُجيبُ. و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: مفعولٌ، والفاعِلُ ضَميرٌ يعودُ على اللهِ تعالى، أي: يُجيبُهم فيما يَطلُبونَ منه. وقال الزَّمخشريُّ: أي: أصلُه: يَستجيبُ لِلَّذين آمنوا، فحَذَف اللَّامَ.

والثَّاني: أنَّ معناه: يُجيبُ. و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فاعِلٌ، أي: يَستجيبُ المؤمِنونَ لِرَبِّهم باتِّباعِ دِينِه.

والثَّالثُ: أنَّ معناه: يَطلُبُ المؤمِنونَ الإجابةَ مِن رَبِّهم، واستَفعَلَ هذا على بابِه مِنَ الطَّلَبِ، والأوَّلُ أرجَحُ؛ لِدَلالةِ قَولِه: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، ولأنَّه قَولُ ابنِ عبَّاسٍ ومُعاذِ بنِ جَبَلٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٣).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجُملةِ: ابنُ جَريرٍ، والثَّعلبيُّ، والسَّمعاني، والبَغوي، والرَّسْعني، والقُرْطبي، وابن جُزَي، وابن تيْميةَ، وابن كثير، والعُلَيمي، والشَّوكاني، وابن عاشور، وابن عُثَيمين، وغيرهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٧).

قال ابنُ تيْميةَ: (قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي يَستجيبُ لهمْ، وهو مَعروفٌ في اللُّغةِ؛ يُقال: استَجابَه واستجابَ له). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٢٣٩).

وذكَر ابنُ عُثَيمينَ أنَّ ممَّا يدُلُّ على هذا التَّفسيرِ قولُه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾[آل عمران: ١٩٥]، وقولُه تعالى بعْد ذلك: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، والأصلُ أنْ تكونَ الضَّمائرُ واحدةً، وحرْفُ العطْفِ يَقْتضي تَساويَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وأيضًا لو أراد أنَّ الذين آمَنوا همُ الذين استَجابوا، لَقال: فيَزيدُهم: أي بسَببِ استجابَتِهم يَزيدُهم مِن فضْلِه. يُنظَر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٧- ٢٢٨).

قال الزَّمخشريُّ: (أي: يُثيبُهم على طاعتِهم ويَزيدُهم على الثَّوابِ تفضُّلًا، أو إذا دعَوه استجابَ دُعاءَهم وأعطاهُم ما طلَبوا وزادَهم على مَطلوبِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٣).

وقال ابنُ جَرير: (ويُجيبُ الَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وعَمِلوا بما أمَرهم اللهُ به، وانتهَوْا عمَّا نَهاهم عنه لبَعضِهم دُعاءَ بعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٦).

وقال القُرطبيُّ: (أي: يَقبَلُ عِبادةَ مَن أخلَص له بقلْبِه وأطاع ببَدنِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦). =

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ...﴾ [آل عمران: ١٩٥].

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: ويَزيدُ اللهُ المُؤمنينَ مِن فَضْلِه في الدُّنيا، فيُعطيهم ما لم يَسألُوه، أو يَزيدُهم ثَوابًا على ما عَمِلوه(١).

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣].

= وقيل: المعنى: ويَستجيبُ المؤمنونَ لِربِّهم، فيُؤمِنونَ به ويُطيعونَه. وممَّن ذهَب إلى هذا القَولِ: ابنُ أبي زَمنين، ومكِّيُّ بن أبي طالب، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير مكي)) (١٠/ ٦٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣).

قال الشَّوكانيُّ: (﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يَزيدُهم على ما طَلَبوه منه، أو على ما يَستَحِقُّونَه من الثَّوابِ تفضُّلًا منه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣).

ومِمَّن ذهَب إلى المعنى الأوَّلِ -وهو إعطاؤُهم ما لم يَسْألوه-: ابنُ جرير، والرازي، وابن جُزَي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٧).

ومِمَّن ذهَب إلى المعنى الثَّاني -وهو زيادةُ ثَوابِ أعمالِهم-: الواحديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٢).

وممَّن جمَع بين القولين: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩١).

وقال السعديُّ: (فإذا استَجابوا له شَكَرَ اللهُ لهم، وهو الغَفورُ الشَّكورُ، وزادهم مِن فَضلِه توفيقًا ونَشاطًا على العَمَلِ، وزادَهم مُضاعَفةً في الأجرِ زيادةً عمَّا تَستَحِقُّه أعمالُهم مِنَ الثَّوابِ والفَوزِ العَظيمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

وقال السَّمعانيُّ: (وقولُه: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: الثَّناءَ الحسَنَ فِي الدُّنيا، وقيل: الشَّفاعَةَ فِي الآخرةِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٦).

﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

أي: وأمَّا الكافِرونَ باللهِ فلهم عَذابٌ قَوِيٌّ؛ جَزاءَ كُفرِهم باللهِ[1].

﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا قال في الآيةِ الأُولى: إنَّه يُجيبُ دُعاءَ المُؤمِنينَ، ورَدَ عليه سُؤالٌ؛ وهو: أنَّ المؤمِنَ قدْ يكونُ في شِدَّةٍ وبَلِيَّةٍ وفَقرٍ، ثمَّ يَدْعو فلا يُشاهِدُ أثَرَ الإجابةِ؛ فكيْف الحالُ فيه مع ما تقَدَّمَ مِن قَولِه: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟ فأجاب تعالَى عنه بقَولِه: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[2].

وأيضًا لَمَّا كان المُتبادِرُ مِن الاستجابةِ إيجادَ كُلِّ ما سَألوه في هذه الدُّنيا على ما أرادوه، وكان الموجودُ غيرَ ذلك، بلْ كان أكثَرُ أهلِ اللهِ مُضَيَّقًا عليهم، وكانت الإجابةُ إلى كُلِّ ما يُسألُ بأنْ يكونَ في هذه الدَّارِ يُؤدِّي في الغالِبِ إلى البَطَرِ المؤدِّي إلى الشَّقاءِ، فيُؤدِّي ذلك إلى عَكسِ المرادِ -قال تعالَى[3]:

﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٢).

ممَّن اختار أنَّ العذابَ المذكورَ هنا واقِعٌ يومَ القيامةِ: ابن جَرير، والنَّسفي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦).

وقيل: العَذابُ واقِعٌ في الدُّنيا والآخِرةِ. وممَّن قال بهذا: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٧-٣٠٨).

أي: ولو وسَّع اللهُ الرِّزقَ لعِبادِه، وكثَّرَه لهم فَوقَ حاجتِهم، لَأفضَى ذلك إلى أنْ يُفسِدوا في الأرضِ، ويُقدِموا على المعاصي ويَبْطَروا النِّعمةَ، ويَعتديَ بعْضُهم على بَعضٍ؛ ظُلمًا واستِكبارًا واستِعلاءً بغَيرِ حَقٍّ(١).

كما قال تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وعن عَمرِو بنِ عَوفٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((واللهِ ما الفَقرَ أخْشى عليكم، ولكِنِّي أخشَى عليكم أنْ تُبسَطَ الدُّنيا عليكم كما بُسِطَت على مَن كان قَبلَكم، فتَنافَسُوها كما تَنافسوها، وتُهلِكَكم كما أهلَكَتْهم))(٢).

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾.

أي: ولكِنَّ اللهَ تعالَى يُنَزِّلُ ما يَشاءُ تَنزيلَه مِن أرزاقِ العِبادِ بمِقدارٍ مُعَيَّنٍ، بحَسَبِ ما تَقتَضيهِ حِكمتُه سُبحانَه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٤-٢٣٥).

(٢) رواه البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١)، واللفظ له.

قال البقاعي: (﴿لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لصاروا يُريدونَ كُلَّ ما يَشتَهونَه، فإنْ لم يُفعَلْ سَعَوا في إنفاذِه -كالمُلوكِ بما لهم مِن المُكْنةِ- بكُلِّ طَريقٍ يُوصِلُهم إليه؛ فيَكثُرُ القَتلُ والسَّلبُ، والنَّهبُ والضَّربُ، ونحوُ ذلك مِن أنواعِ الفَسادِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٠٨).

وقال السعديُّ: (أي: لغَفَلوا عن طاعةِ اللهِ، وأقبَلوا على التمَتُّعِ بشَهَواتِ الدُّنيا؛ فأوجَبَت لهم الإكبابَ على ما تَشتَهيه نفوسُهم، ولو كان مَعصيةً وظُلمًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٨-٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٣).

كما قال تعالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالَى خَبيرٌ بأحوالِ عِبادِه الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وطِباعِهم وعَواقِبِ أُمورِهم، وهو بَصيرٌ بهم؛ يَراهم ويَعلَمُ ما يُصلِحُهم مِن تَوسيعِ الرِّزقِ أو تَضييقِه بحَسَبِ حِكمتِه البالِغةِ[(١)].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن تعالَى أنَّه لا يُعطي عِبادَه ما زاد على قَدْرِ حاجتِهم؛ لأجْلِ أنَّه عَلِمَ أنَّ تلك الزِّيادةَ تضُرُّهم في دِينِهم؛ بيَّنَ أنَّهم إذا احتاجوا إلى الرِّزقِ فإنَّه لا يَمنَعُهم منه، فقال[(٢)]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾.

أي: واللهُ هو الَّذي يُنَزِّلُ الماءَ الذي تَحصُلُ به إعانةُ النَّاسِ، وإزالةُ الشِّدَّةِ عنهم، فيُغيثُهم به مِن بعدِ انقِطاعِ رَجائِهم مِن نُزولِه، ويَنشُرُ اللهُ تعالى رَحمتَه ويَبسُطُها؛ فتَحيا البِلادُ، ويَنتَفِعُ العِبادُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٥)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالَى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم: ٤٨ - ٥٠].

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الوَليُّ الذي يَتولَّى عِبادَه بإحسانِه وفَضلِه، ويَتصَرَّفُ لهم بما يَنفَعُهم؛ الحَميدُ على هذه الوَلايةِ، والمُستَحِقُّ للثَّناءِ والشُّكرِ مِن جَميعِ خَلقِه على ما له مِنَ الكَمالِ، وعلى تَدبيرِه وما أوصَلَه إلى خَلقِه مِن أصنافِ النِّعَمِ، المحمودُ العاقِبةِ في جَميعِ ما يُقَدِّرُه ويَفعَلُه[1].

= كثير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٦، ٢٤٢).

قِيلَ: المُرادُ بالرَّحمةِ هنا: الغَيثُ. ومِمَّن ذهَب إلى هذا: ابنُ جرير، والسَّمرقندي، والثَّعلبي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٥).

وقِيلَ: المُرادُ بالرَّحمةِ: آثارُ الغَيثِ وبَرَكاتُه، كإخراجِ الأقواتِ للنَّاسِ ولِبَهائِمِهم. ومِمَّن قال بهذا المعنى: الزَّمخشريُّ، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٩).

وقال ابنُ عطيةَ: (وقالت فِرقةٌ: الرَّحمةُ في هذا الموضعِ الشَّمسُ، فذلك تَعديدُ نِعمةٍ غيرِ الأُولَى؛ وذلك أنَّ المطرَ إذا ألَمَّ بعْدَ القَنَطِ حسُنَ مَوقعُه، فإذا دام سُئِم، فتَجيءُ الشمسُ بعْدَه عَظيمةَ الموقعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٩-٢٤٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ هذا لَيْس مُجرَّدَ خبَرٍ أنَّ اللهَ تعالَى يَقبَلُ التَّوبةَ، بلْ هو حَثٌّ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ نَتوبَ إليه(١).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ فيه إثباتُ عُمومِ عِلْمِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى لكُلِّ ما نَفعَلُ؛ ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ فقولُه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ يعني: فاحذَروا أنْ تَفعَلوا شيْئًا يُغضِبُه؛ فإنَّه عالِمٌ بكم(٢)، وفي هذا لُطفٌ، وحَثٌّ على لُزومِ الحذَرِ منه تعالَى، والإخلاصِ له سُبحانه في إمْحاضِ التَّوبةِ(٣).

٣- مَن استجابَ لربِّه بامتثالِ أمْرِه ونَهيِه؛ حصَلَ مَقصودُه مِن الدُّعاءِ، وأُجيبَ دُعاؤه، كما قال تعالَى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾؛ فقدْ جعَلَ اللهُ تعالَى الإيمانَ والعمَلَ الصَّالحَ سَببًا لإجابةِ الدُّعاءِ(٤).

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّ كُلَّ ما يَنالُ الإنسانَ مِن خيرٍ فبِفَضلِ اللهِ، وعلى هذا يَجِبُ على الإنسانِ أنْ يَقطَعَ عن نَفسِه الإعجابَ، ويجِبُ عليه ألَّا يقولَ: هذا مِن عِندي، أو أنا جديرٌ به، أو ما أشبَهَ ذلك مِن الكَلِماتِ التي يَفخَرُ بها على اللهِ عزَّ وجَلَّ(٥)!

٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٣).

﴿مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ فيه أنَّ الرِّزقَ لو جاء على اقتراحِ البَشَرِ، لكان سَبَبَ بَغْيِهم وإفسادِهم، ولكِنَّه تعالَى أعلَمُ بالمَصلحةِ؛ فرُبَّ إنسانٍ لا يَصلُحُ ولا يُكَفُّ شَرُّه إلَّا بالفَقرِ، وآخَرَ بالغِنى[1].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أنَّ طَبيعةَ الإنسانِ أنَّه لا يَصْبِرُ؛ فيَسْتولي عليه اليأْسُ والقُنوطُ مِن رَحمةِ اللهِ! والذي يَجِبُ على المرْءِ ألَّا يَقْنَطَ مِن رَحمةِ اللهِ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالَى حِكايةً عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، إنَّما الواجبُ على المرءِ إذا مَسَّه السُّوءُ أنْ يَصْبِرَ ويَحتسِبَ، ودوامُ الحالِ مِن المُحالِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى يُعطي المؤمنينَ العاملينَ الصَّالحاتِ أكثرَ مِمَّا عَمِلوا، وهذه الزِّيادةُ بَيَّنَها اللهُ تعالَى في مَواضِعَ أُخرى مِن كتابِه؛ فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وربَّما يُقالُ أيضًا بزيادةٍ أُخرى غيرِ العدَدِ، وهي: أنَّه يَزيدُهم مِن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ لأنَّه كُلَّما عَمِلَ الإنسانُ عَمَلًا صالِحًا ازدادَ يَقينُه؛ ولهذا كان مِن قَولِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ أنَّ الأعمالَ داخِلةٌ في الإيمانِ[3].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى يُنذِرُ النَّاسَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٣).

عن المعاصي والكُفرِ بذِكرِ العِقابِ، أخَذَ العُلَماءُ مِن هذا أنَّه إذا ذَكَرَ اللهُ تعالَى عِقابًا في عَمَلٍ مِن الأعمالِ دلَّ ذلك على تحريمِه، وإذا ذَكَرَ ثوابًا في عَمَلٍ مِن الأعمالِ دلَّ ذلك على مَشروعيَّته[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ دَليلٌ على أنَّ كَثرةَ المالِ سَببٌ لفَسادِ الدِّينِ إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ عزَّ وجلَّ، فلمْ يَجعَلْه فِتنةً عليه[2]؛ فالغِنَى مَظِنَّةُ البَطَرِ والأَشَرِ إذا صادَفَ نفْسًا خَبيثةً، فأمَّا الفقرُ فقلَّما كان سَببًا للبغْيِ إلَّا بَغيًا مَشُوبًا بمَخافةٍ؛ كبَغْيِ الجائعِ بالافتكاكِ بالعُنفِ، فذلك لِنُدرتِه لا يُلتفَتُ إليه، على أنَّ السِّياقَ لِبَيانِ حِكمةِ كَونِ الرِّزقِ بقَدَرٍ، لا لِبَيانِ حِكمةٍ في الفقرِ؛ فالتَّلازُمُ بيْنَ الشَّرطِ وجَوابِه في قولِه: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ﴾ حاصلٌ بهذه السَّببيَّةِ، بقطْعِ النَّظَرِ عن كَونِ هذا السَّببِ قد يَخلُفُه ضِدُّه أيضًا، على أنَّ بيْنَ بَسْطِ الرِّزقِ وبيْنَ الفقرِ مَراتبَ أُخرى من الكَفافِ، وضِيقِ الرِّزقِ، والخَصاصةِ، والفقرِ، وهي مُتفاوتةٌ؛ فلا إشكالَ في التَّعليلِ[3].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُ﴾ دليلٌ على أنْ لا سَبيلَ إلى الازديادِ في الرِّزقِ بالحِيَلِ والمكاسِبِ؛ لأنَّ اللهَ وَعَدَ الأرزاقَ وضَمِنَها بقَولِه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]؛ فرِزقُ كلِّ عبْدٍ مَجموعٌ عندَه، يُنَزِّلُ عليه بمَقدارِ ما يَصلُحُ له[4].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ بيانٌ للواقِعِ وليْس تَقريرًا للقُنوطِ؛ لأنَّ القُنوطَ حُكمُه الشَّرعيُّ أنَّه لا يَجوزُ، بلْ هو من كَبائرِ الذُّنوبِ؛ فالإخبارُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٢).

بالواقِعِ أو عن الواقِعِ لا يَعني إقرارَه(١).

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾ أنَّ الرَّحمةَ صِفةٌ مِن صِفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وتُطلَقُ على نِعَمِه؛ لأنَّها مِن آثارِ رَحمتِه(٢).

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أنَّ وَلايةَ اللهِ تعالَى مَحمودةٌ على كلِّ حالٍ، ولو قارنْتَ بيْن هذا وبيْن قَولِه: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦] تَجِدُ التَّناسُبَ التَّامَّ؛ فالغَنيُّ الحَميدُ: الذي يُحمَدُ على غِناه التامِّ بحيثُ يُغني به ما شاء، والوَليُّ الحَميدُ: الذي يُحمَدُ على وَلايتِه بحيثُ يَختَصُّ بالوَلايةِ الخاصَّةِ مَن شاء ويَمنَعُها عمَّن شاء، وعلى كلِّ حالٍ فوَلايتُه حَميدةٌ، وغِناه حَميدٌ عزَّ وجلَّ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾

- هذا الإخبارُ تَعريضٌ بالتَّحريضِ على مُبادَرةِ التَّوبةِ؛ ولذلك جيءَ فيه بالفِعلِ المضارعِ الصَّالحِ للاستِقبالِ، وهو أيضًا بِشارةٌ للمُؤمنينَ بأنَّه قَبِلَ تَوبتَهم ممَّا كانوا فيه مِن الشِّركِ والجاهليَّةِ؛ فإنَّ الذي مِن شَأنِه أنْ يَقبَلَ التَّوبةَ في المستقبلِ يكونُ قدْ قَبِلَ توبةَ التَّائبينَ مِن قبْلُ، بدَلالةِ لَحْنِ الخِطابِ أو فَحْواه(٤)، وأنَّ مِن شَأنِه الاستجابةَ للذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مِن عِبادِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٤٣).
(٤) ينقسِمُ المفهومُ مِن الكلامِ إلى مَفهومِ موافَقةٍ، ومفهومِ مُخالَفةٍ؛ فمَفهومُ الموافَقةِ هو ما يُوافِقُ حُكْمُه المنطوقَ؛ فإنْ كان أَوْلى سُمِّيَ فَحْوى الخِطابِ، كدَلالةِ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣] على تَحريمِ الضَّربِ؛ لأنَّه أشَدُّ، وإنْ كان مُساوِيًا سُمِّيَ لَحْنَ الخِطابِ، أي: معناه، كدَلالةِ =

وكلُّ ذلك جَرْيٌ على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ وعكْسِه، وهذا كلُّه يَتضمَّنُ وَعْدًا للمُؤمنينَ بقَبولِ إيمانِهم، وللعُصاةِ بقَبولِ تَوبتِهم[1].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١] وما اتَّصَلَ بها ممَّا تَقدَّمَ ذِكرُه، وخاصَّةً جُملةَ ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]. وابتناءُ الإخبارِ بهذه الجُملةِ على أُسلوبِ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ لإفادتِها ثَباتَ حُكمِها، ودَوامَه[2].

- ومَجيءُ المسنَدِ اسمَ مَوصولٍ ﴿ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ...﴾؛ لإفادةِ اتِّصافِ اللهِ تعالَى بمَضمونِ صِلتِه، وأنَّها شأنٌ مِن شُؤونِ اللهِ تعالَى عُرِف به، ثابتٌ له لا يَتخلَّفُ؛ لأنَّه المُناسِبُ لِحِكمتِه، وعظَمةِ شَأنِه، وغِناهُ عن خلْقِه. وإيثارُ جُملةِ الصِّلةِ بصِيغةِ المضارعِ ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟﴾؛ لإفادةِ تَجدُّدِ مَضمونِه وتَكرُّرِه؛ ليَعلَموا أنَّ ذلك وعْدٌ لا يَتخلَّفُ ولا يَختلِفُ[3].

- وفِعلُ (قَبِلَ) يَتعدَّى بحَرْفِ (مِن) الابتدائيَّةِ تارةً -كما في قولِه: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقولِه: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ

= ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] على تَحريمِ الإحراقِ؛ لأنَّه مُساوٍ للأكْلِ في الإتلافِ. وعُرِّف لَحْنُ الخِطابِ أيضًا بأنَّه دَلالةٌ للاقتِضاءِ، وهو دَلالةُ اللفظِ الْتزامًا على ما لا يَستقِلُّ الحكمُ إلَّا به، وإنْ كان اللفظُ لا يَقتضيه وضْعًا. يُنظر: ((شرح تنقيح الفصول)) للقرافي (ص: ٥٣)، ((الذخيرة)) للقرافي (١/ ٦٢)، ((البحر المحيط في أصول الفقه)) للزركشي (٥/ ١٢٤)، ((الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع)) للكوراني (١/ ٤٣٨ - ٤٤٠)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ﵟٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗاﵞ [آل عمران: ٩١]- فيُفيدُ مَعْنى الأخْذِ للشَّيءِ المقبولِ صادرًا مِن المأخوذِ منه. ويُعدَّى بحَرْفِ (عَنْ)، فيُفيدُ معْنى مُجاوَزةِ الشَّيءِ المقبولِ أو انفِصالِه عن مُعطيهِ وباذِلِه، وهو أشدُّ مُبالغةً في معْنى الفعلِ مِن تَعْديتِه بحَرْفِ (مِن)؛ لأنَّ فيه كِنايةً عن احتِباسِ الشَّيءِ المبذولِ عِندَ المبذولِ إليه بحيثُ لا يُرَدُّ على باذِلِه، فحصَلَتْ في هذه الجُملةِ أربعُ مُبالَغاتٍ: بِناءُ الجُملةِ على الاسميَّةِ، وعلى الموصوليَّةِ، وعلى المُضارعيَّةِ، وعلى تَعديةِ فِعلِ الصِّلةِ بحَرْفِ (عَنْ) دونَ (مِنْ)[1].

- وفي ذِكرِ اسمِ (العِبادِ) دونَ نحْوِ (النَّاسِ)، أو (التَّائبينَ)، أو غيرِ ذلك: إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ رَفيقٌ بعِبادِه لمَقامِ العُبوديَّةِ؛ فإنَّ الخالقَ والصَّانعَ يُحِبُّ صَلاحَ مَصنوعِه[2].

- والتَّعريفُ في (السَّيِّئاتِ) تَعريفُ الجِنسِ المرادُ به الاستِغراقُ، وهو عامٌّ مَخصوصٌ بغيرِ الشِّركِ؛ قال تعالَى: ﵟإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦﵞ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ويجوزُ أنْ يكونَ عِوَضًا عن المُضافِ إليه، أي: عن سَيِّئاتِ عِبادِه؛ فيَعُمَّ جَميعَ العِبادِ عُمومًا مَخصوصًا بالأدلَّةِ لهذا الحُكمِ[3].

- وجُملةُ ﵟوَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَﵞ مُعترِضةٌ بيْن المُتعاطِفاتِ، أو في مَوضعِ الحالِ، والمقصودُ: أنَّه لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِ عِبادِه خيْرِها وشَرِّها[4].

- وعُبِّرَ بقولِه: ﵟتَفۡعَلُونَﵞ بتاءِ الخِطابِ على طَريقةِ الالْتفاتِ[5]، والالتفاتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٩، ٩٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن الغَيبةِ إلى المخاطَبِ فيه نوعٌ مِن تَنشيطِ ذِهنِ السَّامِعِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الخِطابَ لكمْ أنتُمْ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الاستجابةُ: مُبالَغةٌ في الإجابةِ، وخُصَّتِ الاستجابةُ في الاستِعمالِ بامْتثالِ الدَّعوةِ أو الأمرِ[٢].

- ولَمَّا كانتِ الاستجابةُ والزِّيادةُ كَرامةً للمؤمنينَ، أُظهِرَ اسمُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وجِيءَ به مَوصولًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإيمانَ هو وَجْهُ الاستجابةِ لهم، والزِّيادةِ لهم[٣].

- وجُملةُ ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ اعتِراضٌ عائدٌ إلى ما سبَقَ مِن قولِه: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢]؛ تَوكيدًا للوعيدِ، وتَحذيرًا مِن الدَّوامِ على الكُفْرِ بعْدَ فتْحِ بابِ التَّوبةِ لهم[٤].

- وفي هذه الآيةِ احتِباكٌ[٥]؛ فقدْ ذَكَر الاستجابةَ أوَّلًا؛ دَليلًا على ضِدِّها ثانيًا، والعذابَ ثانيًا؛ دَليلًا على ضِدِّه أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذَكَر الحامِلَ على الطَّاعةِ والصَّادَّ عن المعصيةِ[٦].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا

(١) يُنظر: ((لمسات بيانية لسور القرآن الكريم)) لفاضل السامرائي (١/ ١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٩١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٧).

يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ أنَّ بَسْطَ الرِّزقِ مَفسَدةٌ للخَلْقِ(١). أو عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ ﴾ [الشورى: ٢٦]، أو على المجموعِ مِن جُملةِ ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [الشورى: ٢٦] ومِن جُملةِ ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ ﴾، ومَوقِعُ معناها مَوقعُ الاستِدراكِ والاحتراسِ؛ فإنَّها تُشيرُ إلى جَوابٍ عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ في نفْسِ السَّامعِ إذا سَمِعَ أنَّ اللهَ يَستجيبُ للذين آمَنوا، وأنَّه يَزيدُهم مِن فضْلِه؛ أنْ يَتساءَلَ في نفْسِه: إنَّ ممَّا يَسألُ المؤمنونَ سَعةَ الرِّزقِ والبَسطةَ فيه؛ فقدْ كان المؤمنونَ أيَّامَ صَدْرِ الإسلامِ في حاجةٍ وضِيقِ رِزقٍ؛ إذ منَعَهم المشرِكونَ أرزاقَهم، وقاطَعوا مُعاملتَهم، فيُجابُ بأنَّ اللهَ لو بسَطَ الرِّزقَ للنَّاسِ كلِّهم، لكان بسْطُه مُفسِدًا لهم؛ لأنَّ الَّذي يَستغني يَتطرَّقُه نِسيانُ الالْتجاءِ إلى اللهِ، ويَحمِلُه على الاعتداءِ على النَّاسِ، فكان مِن خَيرِ المؤمنينَ الآجِلِ لهم ألَّا يُبسَطَ لهم في الرِّزقِ، وكان ذلك مَنوطًا بحِكمةٍ أرادَها اللهُ مِن تَدبيرِ هذا العالَمِ تَطَّرِدُ في النَّاسِ مُؤمنِهم وكافرِهم، وقدْ كان في ذلك للمُؤمنِ فائدةٌ أُخرى؛ وهي ألَّا يَشغَلَه غِناهُ عن العَمَلِ الذي به يَفوزُ في الآخِرةِ، فلا تَشغَلَه أمْوالُه عنه.

وقد ورَدتْ هذه الآيةُ مَوردًا كُلِّيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿لِعِبَادِهِۦ ﴾ يَعُمُّ جميعَ العبادِ، ومِن هذه الكُلِّيَّةِ تَحصُلُ فائدةُ المسؤولِ عليه الجُزئيِّ الخاصِّ بالمؤمنينَ، مع إفادةِ الحِكمةِ العامَّةِ مِن هذا النِّظامِ التَّكوينيِّ؛ فكانتْ هذه الجُملةُ بهذا الاعتبارِ بمَنزلةِ التَّذييلِ؛ لِما فيها مِن العُمومِ، أي: إنَّ اللهَ أسَّسَ نِظامَ هذا العالَمِ على قَوانينَ عامَّةٍ، وليْس مِن حِكمتِه أنْ يخُصَّ أولياءَه وحِزبَه بنِظامٍ تَكوينيٍّ دُنيويٍّ،

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٤).

ولكنَّه خَصَّهم بمَعاني القُربِ والرِّضا والفوْزِ في الحياةِ الأبديَّةِ، وربَّما خَصَّهم بما أرادَ تَخصيصَهم به ممَّا يَرجِعُ إلى إقامةِ الحقِّ(١).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ واقعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ للتي قبْلَها. وافتُتِحتْ بحَرْفِ (إنَّ) التي لم يُرَدْ منها تأْكيدُ الخبرِ، ولكنَّها لِمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخبرِ، والإيذانِ بالتَّعليلِ؛ لأنَّ (إنَّ) في مِثلِ هذا المَقامِ تَقومُ مَقامَ فاءِ التَّفريعِ، وتُفيدُ التَّعليلَ والرَّبطَ؛ فالجُملةُ في تَقديرِ المعطوفةِ بالفاءِ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ أي: مُحيطٌ بخَفيَّاتِ أُمورِهم وجَلاياها، فيُقدِّرُ لكلِّ واحدٍ منْهم في كلِّ وقْتٍ مِن أوقاتِهم ما يَليقُ بشأْنِه؛ فيُفقِرُ ويُغْني، ويَمنَعُ ويُعْطي، ويَقبِضُ ويَبسُطُ حسْبما تَقتضيهِ الحِكمةُ الرَّبَّانيَّةُ(٣). وقيل: جمَع بيْن وَصفَيْ ﴿خَبِيرُۢ﴾ و﴿بَصِيرٞ﴾؛ لأنَّ وَصْفَ (خَبير) دالٌّ على العِلمِ بمَصالحِ العبادِ وأحوالِهم قبْلَ تَقديرِها، وتَقديرِ أسبابِها، أي: العِلمِ بما سيَكونُ، ووَصْفَ (بَصير) دالٌّ على العِلمِ المتعلِّقِ بأحوالِهم التي حصَلتْ، وفرْقٌ بيْن التَّعلُّقينِ للعِلمِ الإلهيِّ(٤).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّهُۥ﴾ بالضَّميرِ و﴿خَبِيرُۢ﴾، وقال في سُورةِ (فاطر): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [فاطر: ٣١] بلَفظِ الجَلالةِ الصَّريحِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وبزِيادةِ اللَّامِ في ﴿لَخَبِيرُۢ﴾؛ لأنَّ الآيةَ المُتقدِّمةَ في هذه السُّورةِ لم يَكُنْ فيها ذِكرُ اللهِ، فصَرَّحَ باسمِه سُبحانَه. وبزِيادةِ اللَّامِ؛ مُوافقةً لِقولِه بعْدُ: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٢، ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٤).

وقالَه هنا بالضَّميرِ؛ لِتقدُّمِ لَفظِ (الله)، وبحَذفِ اللَّامِ؛ لِعَدَمِ ما يَقتَضي ذِكرَها؛ فهو مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ﴾، فخُصَّ بالكِنايةِ -أي: الضَّميرِ[(١)].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧]؛ فإنَّ الغيثَ سَببُ رِزقٍ عَظيمٍ، وهو ما يُنزِّلُه اللهُ بقَدَرٍ هو أعلَمُ به، وفيه تَذكيرٌ بهذه النِّعمةِ العَظيمةِ على النَّاسِ، الَّتي منها مُعظَمُ رِزقِهم الحقيقيِّ لهم ولأنْعامِهم. وخَصَّها بالذِّكرِ دونَ غيرِها مِن النِّعمِ الدُّنيويَّةِ؛ لأنَّها نِعمةٌ لا يَختلِفُ النَّاسُ فيها؛ لأنَّها أصلُ دَوامِ الحياةِ بإيجادِ الغذاءِ الصَّالحِ للنَّاسِ والدَّوابِّ؛ وبهذا يَظهَرُ وَقْعُ قَولِه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [الشورى: ٢٩] عقِبَ قولِه هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾[(٢)].

- واختيارُ التَّعبيرِ بصِيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿يُنَزِّلُ﴾؛ لإفادةِ تَكرُّرِ التَّنزيلِ وتَجديدِه[(٣)].

- والتَّعبيرُ بالماضي في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾؛ للإشارةِ إلى حُصولِ القُنوطِ وتَقرُّرِه بمُضيِّ زمانٍ عليه[(٤)].

- وتَقييدُ تَنزيلِ الغيثِ بقولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ مع تَحقُّقِه بدونه أيضًا؛

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لِتَذكُّرِ كَمالِ النِّعمةِ[(١)].

- وصِيغةُ القَصْرِ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ -المستفادِ من تَعريفِ جُزأي الجُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾- تُفيدُ قَصْرَ القلْبِ؛ لأنَّ في السَّامعينَ مُشركينَ يَظُنُّونَ نُزولَ الغَيثِ مِن تَصرُّفِ الكواكبِ، وفيهم المسلمونَ الغافِلونَ، نُزِّلوا مَنزلةَ مَن يَظُنُّ نُزولَ الغيثِ مَنوطًا بالأسبابِ المعتادةِ لِنُزولِ الغَيثِ؛ لأنَّهم كانوا في الجاهليَّةِ يَعتقِدونَ أنَّ المطرَ مِن تَصرُّفِ أَنْواءِ[(٢)] الكواكبِ؛ فهذا القَصْرُ بالنِّسبةِ للمُشرِكينَ قصْرُ قلْبٍ أصلِيٌّ[(٣)]، وهو بالنِّسبةِ للمُسلِمينَ قصْرُ قلْبٍ تَنزيليٌّ[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ...﴾ الآيةَ: ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بصِحَّةِ التَّفسيرِ؛ وهو أنْ يأتيَ المتكلِّمُ في أوَّلِ كلامِه بمعنًى لا يَستقِلُّ الفَهمُ بمَعرفةِ فَحْواهُ؛ إمَّا أنْ يكونَ مُجمَلًا يَحتاجُ إلى تَفصيلٍ، أو مُوجَّهًا يَفتقِرُ إلى تَوجيهٍ، أو مُحتمِلًا يَحتاجُ المرادُ منه إلى تَرجيحٍ لا يَحصُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٢).

(٢) الأنواءُ: مَنازِلُ القَمَرِ، وكانت العَرَبُ تَزعُمُ أنَّ عندَ كُلِّ نَوءٍ مَطَرًا، ويَنسُبونَه إليه، فيقولون: مُطِرْنا بنَوءِ كذا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٨٩٥).

(٣) قصرُ القلْبِ الأصليُّ: المقصودُ به قصرُ القلْبِ الحقيقيُّ، وهو تخصيصُ أمرٍ بأمْرٍ مكانَ آخَر، ويُخاطَب به مَن يَعتقدُ العكسَ، كقولك: جاءني زيدٌ لا عمرٌو، مخاطبًا مَن يَعتقِد أنَّ عمرًا هو الذي جاءَك دون زيدٍ؛ فأنت تَعكِس وتَقلِب ما يَعتقِدُه؛ ولذا سُمي قصْرَ قلْبٍ، ومنه قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]؛ لأنَّ المنافقين يَعتقدون أنَّ المؤمنين هم السفهاءُ دونهم؛ فقَلَب اللهُ عزَّ وجلَّ اعتقادَهم وبيَّن أنَّ المنافقين هم السفهاءُ ولكنْ لا يَعلَمون. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٥)، ((بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح)) لعبد المتعال الصعيدي (٢/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٥، ٩٦).

إلَّا بتَفسيرِه وتَبْيينِه، ووُقوعُ التَّفسيرِ يَأتي في الكلامِ على أنحاءٍ؛ منها أنْ يأتيَ بعْدَ الجارِّ والمجرورِ، كما في هذه الآيةِ، وقد جاءتْ صِحَّةُ التَّفسيرِ فيها مُؤْذِنةً بمَجيءِ الرَّجاءِ بعْدَ اليأسِ، والفرَجِ بعْدَ الشِّدَّةِ، والمَسرَّةِ بعدَ الحُزنِ؛ لِيَكونَ ذلك أَحْلى مَوقعًا في القلوبِ(١).

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ذكَرَ صِفتَيِ الوليِّ الحَميدِ دونَ غيرِهما؛ لمُناسَبتِهما للإغاثةِ؛ لأنَّ الوليَّ يُحسِنُ إلى مَواليهِ، والحَميدَ يُعطِي ما يُحمَدُ عليه، ووَصْفُ حَميدٍ: فَعيلٌ بمعْنى مَفعولٍ، أي: هو مَحمودٌ(٢).



(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٦).

الآيات (٢٩-٣٥)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا
يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ
﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ
ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ
فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بَثَّ﴾: فرَّق ونشَرَ، وأصلُ (بثث): يدُلُّ على تَفريقِ الشَّيءِ وإظهارِه[١].

﴿ٱلْجَوَارِ﴾: جمعُ جاريةٍ، وهي السُّفُنُ الجارِيةُ في البَحرِ، وأصلُ (جري): يدُلُّ على انسياحِ شَيءٍ[٢].

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: أي: كالجِبالِ، واحِدُها عَلَمٌ، وأصلُ (علم): يدُلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ يَتميَّزُ به عن غَيرِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣، ٤٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣، ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).

﴿رَوَاكِدَ﴾: أي: سَواكِنَ وثَوابِتَ، وأصلُ (ركد): يدُلُّ على سُكونٍ[1].

﴿يُوبِقْهُنَّ﴾: أي: يُهلِكْهنَّ ويُغرِقْهنَّ، وأصلُ (وبق) هنا: يدُلُّ على هَلاكٍ[2].

﴿مَّحِيصٍ﴾: أي: مَهرَبٍ، وأصلُ (حيص): يدُلُّ على المَيلِ في جَورٍ[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ * وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾

- قَولُه تعالى: ﴿يُسْكِنِ﴾ جَوابُ الشَّرطِ مَجزومٌ، و﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ مَعطوفٌ على جَوابِ الشَّرطِ مَبنيٌّ في مَحلِّ جَزمٍ لاتِّصالِه بنُونِ النِّسوةِ، وكذلك ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ ﴿وَيَعْفُ﴾ مَجزومانِ عَطفًا على جوابِ الشَّرطِ أيضًا. وجُملةُ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ المتعاطِفَينِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧، ٨٨٢).

- وأمَّا قولُه: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ -بالنَّصب- ففيه أوجُهٌ؛ الأوَّلُ: أنَّه مَنصوبٌ على إضمارِ (أنْ) بعْدَ (واوِ المَعيَّةِ)؛ لأنَّ قَبْلَه شَرطًا وجَزاءً، وكلُّ واحدٍ منهما غيرُ مُثبَتٍ؛ فصَحَّ النَّصبُ في جَوابِه؛ تقولُ: ما تَصنَعْ أصنَعْ مِثلَه وأُكْرِمَكَ. وهذه الواوُ عاطِفةٌ مَصدرًا مُقَدَّرًا على مَصدَرٍ مُتصَيَّدٍ مِنَ الكَلامِ السَّابِقِ. والثاني: أنَّ الفِعلَ مَنصوبٌ على الصَّرفِ[١]، والواوُ في ﴿وَيَعْلَمَ﴾ سَمَّاها الكوفيُّونَ (واوَ الصَّرفِ)، وهذه الواوُ ناصِبةٌ بنَفسِها عِندَهم، ومعناها: أنَّ الفِعلَ (يَعلَم) كان يَستَحِقُّ وَجهًا مِن الإعرابِ غيرَ النَّصبِ -وهو الجَزمُ عَطفًا على ما قَبْلَه- فصُرِفَ بدُخولِ هذه الواوِ عليه عن ذلك الإعرابِ إلى النَّصبِ. والثَّالِثُ: أنَّ الفعلَ (يَعلَمَ) منصوبٌ عَطفًا على تَعليلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: لِينتقِمَ منهم ويَعلَمَ الذين.

وعلَى قِراءةِ ﴿وَيَعْلَمُ﴾ بالرَّفعِ على الاستِئنافِ[٢]، ولا يكونُ داخِلًا في جَوابِ الشَّرْطِ[٣].

---

(١) الصَّرْفُ هنا: هو الإتيانُ بالواوِ مَعطوفًا على كَلامٍ في أوَّلِه حادثةٌ لا تَستقيمُ إعادتُها على ما عُطِفَ عليها، ويُنصَبُ على الصَّرفِ عندَ الكوفيِّين في الأفعالِ حين يَفسُدُ معْنى العطْفِ. ويكونُ في الأسماءِ عندما تُعْطَفُ الأسماءُ الظَّاهرةُ على ضَميرِ رفْعٍ مُتَّصلٍ دونَ تَوكيدِه أو فصْلِه، كقولِهم: (لو تُرِكْتَ والأسدَ لَأكَلَك)؛ فمُقْتَضى العطفِ أنْ يُرفَعَ (الأسد)، لكنِ انصَرَفَت العربُ عن الرَّفعِ إلى النَّصبِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٣٣- ٣٤)، و(١/ ١١٥)، ((الأصول في النحو)) لابن السراج (٢/ ١٨٩).

(٢) قرَأ ابنُ عامرٍ والمَدَنِيان -نافعٌ وأبو جعفرٍ- برفْعِ الميم، وقرَأ الباقون بنصْبِها. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٥٧)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ٢٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجَّاج (٤/ ٣٩٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٢٢٥)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٧)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٤٠).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا كَمالَ قُدرتِه وعظَمتِه: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على عَظَمةِ اللهِ تعالَى وقُدرتِه: خَلقُ السَّمَواتِ والأرضِ، وما نَشَر اللهُ فيهما مِن مَخلوقاتٍ، واللهُ تعالَى قَديرٌ على جَمعِ مَخلوقاتِه إذا شاء أنْ يَجمَعَها.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالَى جانبًا مِن عدْلِه وفَضلِه، فيقولُ: وما أصابَكم -أيُّها النَّاسُ- من مُصيبةٍ فبِما عَمِلتُموه مِن سَيِّئاتٍ، ويَعفو اللهُ عن كَثيرٍ مِن ذُنوبِكم، فلا يُعاقِبُكم عليها.

ثمَّ يقولُ مُحذِّرًا مِن عُقوبتِه: وما أنتُم بمُعجِزينَ اللهَ في الأرضِ، وليْس لكم مِن دُونِه سُبحانَه وَليٌّ ولا نَصيرٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُبيِّنًا جانبًا آخَرَ مِن قُدرتِه: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على كَمالِ قُدرتِه سُبحانَه: السُّفُنُ الجاريةُ في البَحرِ كالجِبالِ، إنْ يَشَأِ اللهُ ألَّا تَجريَ تلك السُّفُنُ في البَحرِ يُسكِنِ الرِّيحَ التي تُسَيِّرُ تلك السُّفُنَ، فيَثْبُتْنَ في مَواضِعِهنَّ على سَطحِ الماءِ -إنَّ في ذلك لعَلاماتٍ يَستَدِلُّ بها كُلُّ صَبَّارٍ شَكورٍ- أو يُغرِقِ اللهُ تلك السُّفُنَ بذُنوبِ أهلِها، ويَتجاوَزْ عن كَثيرٍ مِن الذُّنوبِ، فلا يُعاقِبْ عليها.

ثمَّ يقولُ سُبحانَه: ويَعلَمَ الذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ تعالَى أنَّه لا مَهْرَبَ لهم مِن عِقابِ اللهِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان إنزالُ الغيثِ جامعًا بيْنَ كَونِه نِعمةً، وكونِه آيةً دالَّةً على بَديعِ صُنعِ اللهِ تعالَى، وعَظيمِ قُدرتِه المُقتضيةِ انفرادَه بالإلهيَّةِ؛ انتُقِلَ مِن ذِكرِه إلى ذِكرِ آياتٍ دالَّةٍ على انفِرادِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ، وهي آيةُ خلْقِ العوالِمِ العَظيمةِ، وما فيها ممَّا هو مُشاهَدٌ للنَّاسِ دونَ قصْدِ الامتنانِ(١).

وأيضًا أنَّه لَمَّا كان ما مضَى مِن بَسطِ الرِّزقِ وقَبْضِه، وإنزالِ الغَيثِ وحَبْسِه: مِن الآياتِ العَظميةِ؛ عَمَّم بذِكرِ ما ذلك بَعضٌ منه، وهو دالٌّ على جَميعِ ما خُتِمَ به الآيةُ السَّالِفةُ مِن الحَمدِ الذي هو الاتِّصافُ بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ، فقال(٢):

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖ ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الباهِرةِ الدَّالَّةِ على عَظَمةِ اللهِ تعالى، وعَظيمِ مُلكِه وقُدرتِه، وغيرِ ذلك مِن صِفاتِ كمالِه: أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ، وفرَّقَ ونَشَرَ فيهما مَخلوقاتٍ مُتنوِّعةً(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

قال ابنُ كَثير: (هذا يَشمَلُ الملائكةَ والجِنَّ والإنسَ وسائِرَ الحيواناتِ، على اختِلافِ أشكالِهم وألوانِهم ولُغاتِهم، وطِباعِهم وأجناسِهم، وأنواعِهم، وقد فَرَّقَهم في أرجاءِ أقطارِ الأرضِ والسَّمَواتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧).

قال البِقاعيُّ: (لَمَّا كانت الأرضُ بناءً، والسَّماءُ سقْفَه، فمَن كان في أحدِهما صحَّ نِسبتُه إلى أنَّه في كلٍّ منهما: الأسفل بالإقلالِ، والأعلى بالإظلالِ؛ قال تعالى: ﴿فِيهِمَا﴾ أي: السَّمَواتِ والأرضِ، ولا سيَّما وقد جعَل لكلٍّ منهما تَسبُّبًا في ذلك بما أودَعَهما مِن الجواهرِ، وأنشَأ عنهما مِن العناصرِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣١٢-٣١٣). =

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ على جَمعِ مَخلوقاتِه التي بَثَّها في السَّمَواتِ والأرضِ -إذا شاء أن يَجمَعَها- ذو قُدرةٍ بالغةٍ عَظيمةٍ؛ فلا يُعجِزُه إحياؤُهم بعدَ مَوتِهم، وجَمعُهم يومَ القِيامةِ(١).

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَّرَهم سُبحانَه بنِعَمِه، وكان السِّياقُ لِتَعدادِ ما ناسَبَ مَقصودَ هذه السُّورةِ منها؛ كان الفِكرُ جَديرًا بأنْ يَخطُرَ له ما في الدُّنيا مِن الأمراضِ والأنكادِ،

= وقال ابنُ عاشور: (قد يكونُ المرادُ مِن الظَّرفيَّةِ في قَولِه: ﴿فِيهِمَا﴾ ظَرفيَّةَ المَجموعِ لا الجَميعِ، أي: ما بَثَّ في مجموعِ الأرضِ والسَّماءِ مِن دابَّةٍ؛ فالدَّابَّةُ إنَّما هي على الأرضِ، ولَمَّا ذُكِرَت الأرضُ والسَّماءُ مُقترِنَتينِ، وجاء ذِكرُ الدَّوابِّ؛ جُعِلَت الدَّوابُّ مَظروفةً فيهما؛ لأنَّ الأرضَ مَحوطةٌ بالسَّمَواتِ ومُتَخَيَّلةٌ منها كالمظروفِ في ظَرفِه، والمظروفُ في ظَرفٍ مَظروفٌ في ظَرفِ مَظروفِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧).

وقال ابنُ عُثَيمين: (ظاهِرُ الآيةِ الكَريمةِ أنَّ السَّمَواتِ فيها دوابُّ كالأرضِ، وإذا سألَنَا السَّائِلُ: ما هذه الدوابُّ؟ قُلْنا: إمَّا الملائِكةُ أو غيرُها. اللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦٩-٣٧٠)، ((تفسير المنار)) محمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٦٠-٢٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٣-٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

والهُمومِ والغُمومِ بالإشقاءِ فيها والإسعادِ؛ قال شافيًا لِعِيِّ[١] سُؤالِه عن ذلك، ببَيانِ ما فيه مِن نِعمتِه على وَجهٍ دالٍّ على تَمامِ قُدرتِه، عاطِفًا على ما هو مَضمونُ ما مضَى بما تَقديرُه: فهو الذي خلَقَكم ورزَقكم، وهو المتصَرِّفُ فيكم بعْدَ بَثِّكم بالعافيةِ والبلاءِ تَمامَ التَّصَرُّفِ؛ فلا نِعمةَ عندَكم ولا نِقمةَ إلَّا منه، ولا يَقدِرُ أصحابُها على رَدِّها ولا رَدِّ شَيءٍ منها؛ فهو وَليُّكم وَحْدَه[٢].

وأيضًا لَمَّا تَضمَّنَتِ المِنَّةُ بإنزالِ الغَيثِ بعْدَ القُنوطِ أنَّ القومَ أصابَهم جَهدٌ مِن القَحطِ بلَغَ بهم مَبلَغَ القُنوطِ مِن الغَيثِ؛ أُعقِبَ ذلك بتَنبيهِهم إلى أنَّ ما أصابَهم مِن ذلك البُؤسِ هو جَزاءٌ على ما اقتَرَفوه مِن الشِّركِ؛ تَنبيهًا يَبعَثُهم ويَبعَثُ الأُمَّةَ على أنْ يُلاحِظوا أحوالَهم نحْوَ امتِثالِ رِضا خالِقِهم، ومُحاسَبةِ أنفُسِهم؛ حتَّى لا يَحسَبوا أنَّ الجزاءَ الذي أُوعِدوا به مَقصورٌ على الجزاءِ في الآخِرةِ، بلْ يَعلَموا أنَّه قدْ يُصيبُهم اللهُ بما هو جَزاءٌ لهم في الدُّنيا[٣].

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.

أي: وما أصابَكُم -أيُّها النَّاسُ- مِن مَصائِبَ ومِحَنٍ، فهو بسَبَبِ ما عَمِلتُموه مِن سَيِّئاتٍ[٤].

كما قال تعالَى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا

(١) العِيُّ: الجَهْلُ، وخِلافُ البيانِ. والعيُّ بالأمْرِ: عدمُ الاهتداءِ لوجهِه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٤٤٢)، ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (٣/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٤-٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٥٠-٢٥١).

نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر سُبحانَه عدْلَه؛ أتْبَعَه فضْلَه، فقال[١]:

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾.

أي: ويَعفو اللهُ عن كثيرٍ مِن ذُنوبِكم؛ فلا يُعاقِبُكم عليها بالمَصائِبِ والشَّدائِدِ في الدُّنيا[٢].

كما قال تعالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر: ٤٥].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ، وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما يُصيبُ المُسلِمَ مِن نَصَبٍ ولا وَصَبٍ[٣]، ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ، ولا أذًى ولا غَمٍّ، حتَّى الشَّوكةُ يُشاكُها؛ إلَّا كفَّرَ اللهُ بها مِن خَطاياه))[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

(٣) النَّصَبُ: التَّعَب. والوَصَبُ: المرَضُ الدَّائِمُ المُلازِمُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٨/ ٣٤٠).

(٤) رواه البخاري (٥٦٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣).

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١﴾.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ولَستُم تُعجِزونَ اللهَ في الأرضِ؛ فلا يُمكِنُكم الفِرارُ فيها مِن المصائِبِ والعُقوباتِ إنْ أرادَ إنزالَها بكم[١].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أفادَ قولُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ نَفْيَ أنْ يكونَ لهم مَنجًى مِن سُلطةِ اللهِ؛ أُتْبِعَ بنَفْيِ أنْ يكونَ لهم مَلجأٌ يَلجَؤونَ إليه لِيَنصُرَهم ويَقِيَهم مِن عَذابِ اللهِ[٢].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

أي: وليس لكم مِمَّا سِوى اللهِ أيُّ وَليٍّ يَتولَّاكم، ولا أيُّ نَصيرٍ يَنصُرُكم مِن دُونِ اللهِ؛ فاتَّقُوا مَعصيتَه، واحذَروا عِقابَه[٣].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

قال ابنُ عاشور: (أي: يَعفو عن قُدرةٍ؛ فإنَّكم لا تُعجِزونَه ولا تَغلِبونَه، ولكِنْ يَعفو تفضُّلًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَر تعالَى مِن دَلائِلِ وَحدانيَّتِه أنواعًا، ذكَرَ بَعْدَها العالَمَ الأكبَرَ، وهو السَّمَواتُ والأرضُ، ثمَّ العالَمَ الأصغَرَ، وهو الحيوانُ، ثمَّ أتْبَعَه بذِكرِ المَعادِ؛ أتبعَه بذِكرِ السُّفُنِ الجاريةِ في البَحرِ؛ لِما فيها مِن عَظيمِ دَلائِلِ القُدرةِ(١).

وأيضًا لَمَّا دَلَّ سُبحانَه على تَمامِ قُدرتِه واختيارِه، وخَتَم بنَفيِ الشَّريكِ اللَّازِمِ للوَحدانيَّةِ التي اعتِقادُها أساسُ الأعمالِ الصَّالحةِ؛ دَلَّ عليها بأعظَمِ الآياتِ عِندَهم، وأوضَحِها في أنفُسِهم، وأقرَبِها إلى أفهامِهم؛ لِما لهم مِن الإخلاصِ عندَها، فقال تعالَى(٢):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الباهِرةِ الدَّالَّةِ على عَظيمِ سُلطانِ اللهِ ومُلكِه، وكَمالِ قُدرتِه وغَيرِ ذلك مِن صِفاتِ كَمالِه: السُّفُنُ الجاريةُ في البَحرِ، التي هي كالجِبالِ(٣).

قال تعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤].

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٥، ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٧-٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٣).

قال الرازي: (اتَّفقوا على أنَّ المرادَ بالأعلامِ الجِبالُ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٦).

والرِّوايةُ الثانيةُ عن مجاهدٍ أنَّ الأعلامَ هنا بمعنى: القُصورِ. ذكَره الثَّعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢١).

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾.

أي: إنْ يَشَأِ اللهُ تعالَى ألَّا تجريَ تلك السُّفُنُ في البَحرِ يَمنَعْ هُبوبَ الرِّيحِ التي تُسَيِّرُها، فَيثبُتْنَ في مَواضِعِهنَّ على سَطحِ الماءِ، فلا يَتقدَّمْنَ ولا يَتأخَّرْنَ[1].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

أي: إنَّ في ذلك[2] لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ يَستَدِلُّ بها ويَعتَبِرُ كُلُّ مَن كان كَثيرَ الصَّبرِ، كثيرَ الشُّكرِ للهِ تعالَى[3].

كما قال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١].

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾.

أي: أو إنْ يَشَأِ اللهُ يُغرِقْ تِلك السُّفُنَ بسَببِ ذُنوبِ أهلِها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٦).

(٢) قيل: المشارُ إليه بقَولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ جَرْيُ هذه الجواري في البَحرِ بقُدرةِ اللهِ، حيثُ سَخَّر لها البحرَ، وأجرَى لها الهواءَ. ومِمَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملة: ابنُ جَرير، وابن كَثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٧١).

وقِيلَ: المُرادُ: ما ذُكِرَ من حالِ السُّفُنِ في سَيرِها ورُكودِها. ومِمَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملة: مقاتِلُ بنُ سليمان، والبقاعيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾.

أي: ويَتجاوَزِ اللهُ عن كَثيرٍ مِن الذُّنوبِ، فلا يُعاقِبْ عليها[1].

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٣٥﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالَى: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ الرَّفعِ: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ على الاستئنافِ إمَّا بجُملةٍ فِعليَّةٍ، ويكونُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾

= (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٦).

قال ابنُ كَثير: (قال بعضُ عُلَماءِ التَّفسيرِ: معنى قَولِه: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي: لو شاء لَأرسَلَ الرِّيحَ قويَّةً عاتيةً، فأخَذَت السُّفُنَ وأحالَتْها عن سَيرِها المُستقيم، فصَرَفَتْها ذاتَ اليمينِ أو ذاتَ الشِّمالِ آبِقةً لا تَسيرُ على طَريقٍ ولا إلى جِهةٍ مَقصِدٍ. وهذا القَولُ يتضَمَّنُ هَلاكَها، وهو مُناسِبٌ للأوَّلِ؛ وهو أنَّه تعالى لو شاء لسَكَّن الرِّيحَ فوقَفَت، أو لقَوَّاه فشَرَدَت وأَبَقَت وهَلَكَت). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩، ٢١٠).

ومِمَّن ذهَب إلى هذا المعنى: القُرطبي، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٥، ٢٦٨).

قال أبو حيَّانَ: (لا يتعيَّنُ أنْ يكونَ التقديرُ: أو يَعصِفْها فيَغرَقْنَ؛ لأنَّ إهلاكَ السُّفنِ لا يَتعيَّنُ أنْ يكونَ بعصْفِ الرِّيحِ، بل قدْ يُهلِكُها تعالى بسَببٍ غيرِ الرِّيحِ، كنُزولِ سطْحِها بكَثرةِ الثِّقَل، أو انكسارِ اللَّوحِ يكونُ سَببًا لإهلاكِها، أو يَعرِضُ عدوٌّ يُهلِكُ أهْلَها). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩).

قال الزمخشريُّ: (أو إنْ يَشَأْ يُهلِكْ ناسًا، ويُنجِ ناسًا على طَريقِ العَفوِ عنهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٧).

وقال ابنُ عُثَيمين: (يعني: حتَّى مع إغراقِ السُّفُنِ يَعفو اللهُ تبارَك وتعالَى عن كثيرٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٨).

فاعِلًا، قِيل: مَعناها: وسيَعلَمُ الذين يُجادِلون في آياتِنا...، وإمَّا بجُملةٍ اسميَّةٍ، أي: وهو يَعلَمُ الذين... ويكونُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مَفعولًا[1].

٢- قِراءةُ النَّصبِ: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ على العَطفِ على تَعليلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: لِيَنتقِمَ منْهم ويَعلَمَ الذين يُجادِلون... وقيل غيرُ ذلك[2].

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: ويَعلَمَ الذين يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ تعالَى لِدَفعِها وإبطالِها أنَّه لا مَفَرَّ لهم ولا مَهرَبَ يَحيدونَ إليه مِن عِقابِ اللهِ تعالَى[3].

---

(١) قرَأ بها ابنُ عامرٍ ونافعٌ وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٥٨).

(٢) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

قال ابنُ الجَوْزيُّ: (للمُفَسِّرين في معنى الآيةِ قولانِ: أحَدُهما: ويَعلَمَ الذين يُخاصِمونَ في آياتِ اللهِ حينَ يُؤخَذونَ بالغَرَقِ أنَّه لا مَلجأَ لهم. والثَّاني: أنَّهم يَعلَمونَ بعْد البَعثِ أنَّه لا مَهرَبَ لهم مِنَ العَذابِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٧).

ومِمَّن ذهَب إلى نَحوِ القَولِ الأوَّلِ: الرَّسْعَني، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣).

وقال ابنُ تَيميةَ: (ومَعنى آيةِ الشُّورى: أنَّه سُبحانَه إنْ شاء أسكَنَ فيَظْلَلْنَ رواكِدَ على ظَهْرِه، وإنْ شاء أوبَقَهنَّ بما كَسَبوا، ويَعفو عن كَثيرٍ، ويَعلَمَ الذين يجادِلونَ في آياتِنا، وهذا كُلُّه في جَوابِ: ﴿إِن يَشَأْ﴾ أي: وإن يشأْ يُهلِكْهنَّ بذُنوبِهم ويَعْفُ أيضًا عن كثيرٍ منها، ويجتَمِعَ مع ذلك عِلمُ المجادِلينَ في آياتِنا بأنَّهم ما لهم مِن محيصٍ؛ فهو إنْ شاء جَمَع بيْنَ أنْ يُهلِكَ بَعضًا، ويَعفوَ =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أنَّ هذه المخلوقاتِ هي مِن آياتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ العَظيمةِ، ولكِنْ لا يُتبيَّنُ أنَّها مِن آياتِ اللهِ إلَّا بالتَّأمُّلِ والتَّدَبُّرِ؛ لأنَّنا اعتَدْنا هذه المخلوقاتِ؛ اعتَدْنا طُلوعَ الشَّمسِ وغُروبَها، وطُلوعَ القَمَرِ وغُروبَه، فلم يَكُنْ ذلك مُحَرِّكًا لقُلوبِنا؛ لأنَّه شَيءٌ مُعتادٌ، ولكِنْ لو أنَّنا تَدبَّرْنا هذه المخلوقاتِ لَتبيَّنَ لنا أنَّها مِن آياتِ اللهِ العَظيمةِ[1]!

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ داعٍ لكُلِّ أحَدٍ إلى المبادَرةِ عندَ وُقوعِ المُصيبةِ إلى مُحاسَبةِ النَّفسِ؛ لِيَعرِفَ مِن أينَ جاء تَقصيرُه، فيُبادِرَ إلى التَّوبةِ عنه، والإقبالِ على اللهِ تعالَى؛ لِيُنقِذَ نَفْسَه مِنَ الهَلَكةِ[2]. قيل لأبي سُلَيمانَ الدَّارانيِّ: (ما بالُ العُقَلاءِ أزالوا اللَّومَ عمَّن أساءَ لهم؟! قال: إنَّهم عَلِموا أنَّ اللهَ إنَّما ابْتَلاهم بذُنوبِهم، وقرَأَ هذه الآيةَ)[3]، وفي هذا تَبشيرٌ وتَحذيرٌ؛ إذ أعلَمَنا أنَّ مَصائِبَ الدُّنيا عُقوباتٌ لِذُنوبِنا، وهو أرحَمُ أنْ يُثَنِّيَ العُقوبةَ على عَبدِه بذَنْبٍ قدْ عاقَبَه به في الدُّنيا[4]!

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أنَّه لا مَلجَأَ

= عن بعضٍ، وبيْنَ عِلمِ المجادِلينَ في آياتِه حينئذٍ أنَّه ما لهم مِن مَحيصٍ). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٤/ ٥٢٩).

ومِمَّن ذهَب إلى القَولِ الثاني: الواحديُّ، والبَغوي، والخازن. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٥-٣١٦).

(٣) يُنظر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٢/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٥٥).

للبَشَرِ في جَلبِ المنافعِ ودَفعِ المَضارِّ إلَّا إلى اللهِ تعالَى، وأنَّهم مهْما استغاثوا بغَيرِه فإنَّهم خائبونَ[(١)].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ المؤمِنَ يَجِبُ ألَّا يَكونَ غافِلًا عن دَلائِلِ مَعرفةِ اللهِ البتَّةَ؛ لأنَّه لا بدَّ أن يكونَ إمَّا في البَلاءِ، وإمَّا في الآلاءِ؛ فإنْ كان في البَلاءِ كان مِن الصَّابرينَ، وإنْ كان في النَّعماءِ كان مِن الشَّاكِرينَ، وعلى هذا التَّقديرِ فإنَّه لا يكونُ البتَّةَ مِن الغافِلينَ[(٢)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ فيه التَّحذيرُ مِن المعاصي، وأنَّها سَببٌ للعُقوباتِ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَجوزُ إطلاقُ لَفظِ (الدَّابَّةِ) على الملائِكةِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّه قدْ يُضافُ الفِعلُ إلى جماعةٍ وإنْ كان فاعِلُه واحِدًا منهم؛ يقالُ: (بَنو فُلانٍ فعَلوا كذا)، وإنَّما فعَلَه واحِدٌ منهم، ومنه قَولُه تعالَى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] على قولٍ في تَفسيرِها.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ الدَّبيبَ هو الحَركةُ، والملائِكةُ لهم حَركةٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٨).

الوَجهُ الثَّالِثُ: لا يَبعُدُ أن يُقالَ: إنَّه تعالَى خَلَق في السَّمَواتِ أنواعًا مِن الحيواناتِ يَمشُونَ مَشْيَ الأناسيِّ على الأرضِ(١).

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ الدَّابَّةَ: ما يَدِبُّ على الأرضِ، أي: يَمْشي، فيَشمَلُ الطَّيرَ؛ لأنَّ الطَّيرَ يَمشي إذا نَزَل، وهو ممَّا أُريدَ في قَولِه هنا: ﴿فِيهِمَا﴾ أي: في الأرضِ وفي السَّماءِ، أي: بَعضِ ما يُسَمَّى بالسَّماءِ، وهو الجَوُّ، وهو ما يَلوحُ للنَّاظِرِ مِثلَ قُبَّةٍ زَرقاءَ على الأرضِ في النَّهارِ؛ قال تعالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل: ٧٩]؛ فإطلاقُ الدَّابَّةِ على الطَّيرِ باعتِبارِ أنَّ الطَّيرَ يَدِبُّ على الأرضِ كَثيرًا؛ لالتِقاطِ الحَبِّ وغَيرِ ذلك. وأمَّا الموجوداتُ الَّتي في السَّمَواتِ العُلا مِن الملائِكةِ والأرواحِ فلا يُطلَقُ عليها اسمُ دابَّةٍ(٢).

الوَجهُ الخامسُ: أنْ يكونَ على حذْفِ مُضافٍ، أي: وما بَثَّ في أحَدِهما(٣).

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ أنَّ البهائمَ جميعَها يَحْشُرُها اللهُ سُبحانَه، فحَرْفُ (إذا) إنَّما يكونُ لِمَا يَأتي لا مَحالةَ، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقالَ تعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، والأحاديثُ في ذلك مَشهورةٌ؛ فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يومَ القِيامةِ يَحْشُرُ البهائمَ ويَقْتَصُّ لبعضِها مِن بعضٍ، ثُمَّ يقولُ لها: كُوني تُرابًا، فتَصيرُ تُرابًا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٤٨).

ويُنظر ما أخرَجه ابنُ جَرير في ((التفسير)) (٢٤/ ١٨٠)، وابنُ أبي حاتم في ((التفسير)) (٧٢٦٢)، والحاكم (٣٢٣١) موقوفًا على أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه. =

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ أنَّ أفعالَ اللهِ سُبحانَه وتعالَى اختياريةٌ؛ فالمعنى: إذا شاء جمْعَهم، فهو قَديرٌ عليه[١].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ وَجهُ ذلك: أنَّ الباءَ هنا للسَّببيَّةِ؛ ففيه إثباتُ الأسبابِ، وإثباتُ الأسبابِ ثابتٌ شَرعًا وعَقلًا وحِسًّا، وإنكارُه ضَلالٌ في الدِّينِ، وسَفَهٌ في العَقلِ[٢].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ أنَّ المعاصيَ سَببُ المصائبِ؛ فسَيِّئاتُ المصائبِ والجزاءُ هو مِن سَيِّئاتِ الأعمالِ[٣]، وكُلُّ نَكَدٍ لاحِقٍ إنَّما هو بسَبَبِ ذَنبٍ سابِقٍ، أقلُّه التَّقصيرُ[٤].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى إذا عاقبَ المؤمنَ في الدُّنيا لم يُعاقِبْه في الآخِرةِ؛ فلنْ يَجمَعَ اللهُ له بين عُقوبتَينِ[٥]؛ فالمصائبُ كفَّاراتٌ للذُّنوبِ بالنِّسبةِ للمُؤمنِ، فإنَّه إذا كان ذلك بما كسَبتْ أيدِينا دلَّ هذا على أنَّها مُكَفِّرةٌ لِمَا عَمِلْناه منها وما كَسَبْناه[٦].

= صَحَّحه الحاكِمُ على شرْط مُسلم، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٧٢).

وأخرَجه من طريقٍ آخَرَ: ابنُ جرير في ((التفسير)) (٢٤/ ١٨٠)، والحاكم (٨٧١٦) موقوفًا على عبدِ الله بن عمرٍو رَضِي اللهُ عنهما.

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٤).

(٦) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٦١٧).

٧- قولُه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ دلَّ على أنَّ مِن المصائبِ التي تُصيبُ النَّاسَ في الدُّنيا ما سلَّطَه اللهُ عليهم جَزاءً على سُوءِ أعمالِهم، وإذا كان ذلك ثابتًا بالنِّسبةِ لأُناسٍ مُعيَّنينَ، كان فيه نِذارةٌ وتَحذيرٌ لِغَيرِهم ممَّن يَفعَلُ مِن جِنسِ أفعالِهم أنْ تَحُلَّ بهم مَصائبُ في الدُّنيا جَزاءً على أعمالِهم زِيادةً في التَّنكيلِ بهم، إلَّا أنَّ هذا الجزاءَ لا يَطَّرِدُ؛ فقدْ يُجازي اللهُ قومًا على أعمالِهم جَزاءً في الدُّنيا مع جَزاءِ الآخرةِ، وقدْ يَترُكُ قومًا إلى جَزاءِ الآخرةِ، فجَزاءُ الآخرةِ في الخيرِ والشرِّ هو المطَّرِدُ الموعودُ به، والجزاءُ في الدُّنيا قدْ يَحصُلُ وقدْ لا يَحصُلُ، كما قال تعالَى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[1].

٨- قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾، أي: ليْس لكم وليٌّ يَتولَّاكُم فيَمنَعَكم مِن سُلطانِ اللهِ، ولا نَصيرَ يَنصُرُكم على اللهِ إنْ أرادَ إصابتَكم فتَغلِبوه؛ فجمَعَتِ الآيةُ نفْيَ ما هو مُعتادٌ بيْنَهم مِن وُجوهِ الوِقايةِ[2].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ قُرِئ ﴿الرِّيَاحَ﴾ بلَفظِ الجمْعِ، وقُرِئ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بلَفْظِ المفْردِ[3]، وفي القِراءةِ بلَفظِ المفرَدِ ما يدُلُّ على أنَّ الرِّيحَ قدْ تُطلَقُ بصِيغةِ الإفرادِ على رِيحِ الخيرِ، وما قيل: إنَّ (الرِّياحَ) للخيرِ و(الرِّيحَ) للعذابِ في القُرآنِ، هو غالبٌ لا مُطَّرِدٌ، وقدْ قُرِئ في آياتٍ أُخرى (الرِّياحُ) و(الرِّيحُ) في سِياقِ الخيرِ دونَ العذابِ[4].

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ أنَّ ذِكرَ النِّعَمِ يَدعو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٠٤).

(٣) قرَأها أبو جعفرٍ ونافعٌ: ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالجمعِ، والباقونَ بالإفرادِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٥).

إلى الشُّكرِ، وذِكرَ النِّقَمِ يَقْتضي الصَّبرَ على فِعلِ المأمورِ وإنْ كَرِهَته النَّفْسُ، وعنِ المحظورِ وإنْ أحَبَّته النَّفسُ؛ لئلَّا يُصيبَه ما أصاب غيْرَه مِن النِّقمةِ[١].

١١- الإيمانُ نِصفانِ: نِصفٌ صَبرٌ، ونِصفٌ شُكرٌ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾[٢]، وفيه فَضيلةُ الصَّبرِ والشُّكرِ، فالصَّبرُ على الضَّرَّاءِ، والشُّكرُ على الرَّخاءِ، والإنسانُ دائمًا مُصابٌ بهاتَينِ الآفتَينِ؛ إمَّا ضَرَّاءَ وإمَّا سَرَّاءَ[٣]، وإنَّما يَنْتَفِعُ بآياتِ اللهِ المشهودةِ العِيانيَّةِ أهلُ الصَّبرِ والشُّكرِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ انتقالٌ مِن ذِكرِ إنزالِ الغيثِ الجامعِ بيْنَ كَونِه نِعمةً، وكونِه آيةً، إلى ذِكرِ آياتٍ دالَّةٍ على انفِرادِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ، وهذا الانتقالُ استِطرادٌ واعتراضٌ بيْنَ الأغراضِ التي سِياقُ الآياتِ فيها[٥].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ مُعترِضةٌ في جُملةِ الاعتراضِ؛ لإدماجِ إمكانِ البَعثِ في عُرْضِ الاستِدلالِ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وعلى تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ، والمعنى: أنَّ القادِرَ على خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما مِن عدَمٍ قادرٌ على إعادةِ خلْقِ بعضِ ما فيهما للبَعثِ والجزاءِ؛ لأنَّ ذلك كلَّه سَواءٌ في جَوازِ تَعلُّقِ القُدرةِ به، فكيْف تعُدُّونَه مُحالًا[٦]؟!

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٩٨).

- وقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ ولم يَقُلْ: (على جَمعِها)؛ لأجْلِ أنَّ المَقصودَ مِن هذا الجَمعِ المحاسَبةُ، فكأنَّه تعالى قال: وهو على جَمعِ العُقَلاءِ إذا يَشاءُ قَديرٌ[١].

- و(إذا) ظَرْفٌ للمُستقبَلِ، وهو هنا مُجرَّدٌ عن تَضمُّنِ الشَّرْطيَّةِ؛ فالتَّقديرُ: حِينَ يَشاءُ في مُستقبَلِ الزَّمانِ، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿جَمْعِهِمْ﴾، وهذا الظَّرْفُ إدْماجٌ[٢] ثانٍ؛ لإبطالِ استِدلالِهم بتأخُّرِ يوْمِ البعْثِ على أنَّه لا يَقَعُ، كما حُكِي عنهم في قولِه تعالَى: ﴿مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾[٣] [سبأ: ٢٩، ٣٠].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ لَمَّا كان ما أصابَ قُريشًا مِن القَحْطِ والجُوعِ استِجابةً لِدَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليهم، وكانتْ تلك الدَّعوةُ ناشئةً على ما لاقَوْه به مِن الأذَى؛ لا جَرَمَ كان ما أصابَهم مُسبَّبًا على ما كَسَبتْ أيديهم؛ فالجُمْلةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾[٤] [الشورى: ٢٨].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ للمُشرِكينَ ابتداءً؛ لأنَّهم المقصودُ مِن سِياقِ الآياتِ كلِّها، وهمْ أَوْلى بهذه المَوْعظةِ؛ لأنَّهم كانوا غيْرَ مُؤمنينَ بوَعيدِ الآخرةِ، ويَشمَلُ المؤمنينَ بطَريقِ القِياسِ، وبما دَلَّ على شُمولِ هذا الحُكمِ لهم مِن الأخبارِ الصَّحيحةِ ومِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٠).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٩٨، ٩٩).

آياتٍ أُخرَى[(١)].

- والباءُ في ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: سَببُ ما أصابَكم مِن مُصيبةٍ هو أعمالُكم السيِّئةُ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، وضَميرُ (يَعْفُو) عائدٌ إلى ما عادَ إليه ضَميرُ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٩]، وهذا يُشيرُ إلى ما يَتراءَى لنا مِن تَخلُّفِ إصابةِ المُصيبةِ عن بعضِ الَّذين كسَبتْ أيديهم جَرائمَ، ومِن ضِدِّ ذلك ممَّا تُصيبُ المصائبُ بعضَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، وهو إجمالٌ يُبيِّنُه على الجُملةِ: أنَّ ما يَعلَمُه اللهُ مِن أحوالِ عِبادِه، وما تَغلَّبَ مِن حَسناتِهم على سيِّئاتِهم، وما تَقتضيهِ حِكمةُ اللهِ مِن إمْهالِ بَعضِ عِبادِه، أو مِن ابتلاءِ بعضِ المُقرَّبينَ، وتلك مَراتبُ كثيرةٌ، وأحوالٌ مُختلفةٌ، تَتعارَضُ وتَتساقَطُ، والموفَّقُ يَبحَثُ عن الأسبابِ، فإنْ أَعجَزتْه فوَّضَ العِلمَ إلى اللهِ[(٣)].

- وقولُه: ﴿كَثِيرٖ﴾ صِفةٌ لِمَحذوفٍ، أي: عن خلْقٍ أو ناسٍ[(٤)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، وهو احتِراسٌ، أي: يَعْفو عن قُدرةٍ؛ فإنَّكم لا تُعجِزونَه ولا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَغلِبونَه، ولكنْ يَعْفو تَفضُّلًا[١].

- وتَقْييدُ النَّفْيِ بقولِه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لإرادةِ التَّعميمِ، أي: في أيِّ مَكانٍ مِن الأرضِ؛ لئلَّا يَحسَبوا أنَّهم في مَنَعةٍ بحُلولِهم في مكَّةَ التي أمَّنَها اللهُ تعالَى؛ وذلك أنَّ العرَبَ كانوا إذا خافوا سَطوةَ مَلِكٍ أو عَظيمٍ سكَنوا الجِهاتِ الصَّعبةَ[٢].

- وجِيءَ بالخَبرِ جُملةً اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ الخَبرِ ودوامِه، أي: نَفْيُ إعجازِهم ثابتٌ لا يَتخلَّفُ، فهمْ في مُكْنةِ خالِقِهم[٣].

- و﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ظَرفٌ مُستقَرٌّ[٤]، هو خبرٌ ثانٍ عن (وَليٍّ ونَصيرٍ)، والخبرُ الأوَّلُ هو (لكم)، وتَقديمُ الخبرَينِ للاهتِمامِ بالخبرِ، ولِتَعجيلِ يأْسِهم مِن ذلك[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فقطْ ولم يَذكُرِ (في السَّماء)، وقال في سُورةِ (العنكبوتِ): ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢] بزيادةِ ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ وذلك لأنَّه لَمَّا تقدَّمَ في سُورةِ (العنكبوتِ) قولُه تعالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]، وهذا مِن أشدِّ الوَعيدِ؛ إذ حاصِلُه أنَّه لا يَفوتُه سُبحانه أحدٌ، ولا مَهرَبَ منه تعالَى إلَّا إليه؛ ناسَبَ هذا قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، كما قال: ﴿أَيْنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٤).

مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وذلك تَناسُبٌ بيِّنٌ، ولَمَّا لم يَرِدْ هنا في سُورةِ الشُّورى مِن أوَّلِها إلى الآيةِ مِثْلُ هذا الوَعيدِ الشَّديدِ، ولا كان فيها ما يَسْتدعي هذا التَّعميمَ والاستيفاءَ الوَعيديَّ؛ ورَدَتِ الآيةُ مُناسِبةً لذلك، فقال تعالَى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾، ولم يكُنِ التَّعميمُ هنا لِيُناسِبَ؛ فورَدَ كلٌّ على ما يجِبُ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ * إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴾ لَمَّا جَرَى تَذكيرُهم بأنَّ ما أصابَهم مِن مُصيبةٍ هو مُسبَّبٌ عن اقترافِ أعْمالِهم، وتَذكيرُهم بحُلولِ المصائبِ تارةً، وكشْفِها تارةً أُخرى بقولِه: ﴿ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وأَعقَبَ بأنَّهم في الحالتَينِ غيْرُ خارجينَ عن قَبْضةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ؛ سِيقَ لهم ذِكرُ هذه الآيةِ جامعةً مِثالًا لإصابةِ المصائبِ، وظُهورِ مَخايِلِها المُخيفةِ المُذكِّرةِ بما يَغفُلونَ عنه مِن قُدرةِ اللهِ، والَّتي قدْ تَأْتي بما أُنذِروا به، وقدْ تَنكشِفُ عن غَيرِ ضُرٍّ، ودَليلًا على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالَى، وأنَّه لا مَحيصَ عن إصابةِ ما أرادَه، وإدماجًا للتَّذكيرِ بنِعمةِ السَّيرِ في البحرِ، وتَسخيرِ البحرِ للنَّاسِ؛ فإنَّ ذلك نِعمةٌ؛ قال تعالَى: ﴿ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فكانتْ هذه الجُملةُ اعتِراضًا مِثلَ جُملةِ ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[٣] [الشورى: ٢٩].

- قولُه: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴾ الجَواري: جمْعُ جاريةٍ، صِفةٌ لِمَحذوفٍ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص ١٠٠٥-١٠٠٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص١٩٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦١-٣٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٥).

دلَّ عليه ذِكرُ البَحرِ، أي: السُّفنُ الجَواري في البَحرِ. وعُدِلَ عن (الفُلكِ) إلى ﴿ٱلْجَوَارِ﴾؛ إيماءً إلى مَحلِّ العِبرةِ؛ لأنَّ العِبرةَ في تَسخيرِ البحرِ لِجَرْيِها، وتَفكيرِ الإنسانِ في صُنعِها. والمرادُ بالجَواري: السُّفنُ العظيمةُ التي تسَعُ ناسًا كثيرينَ، والعِبرةُ بها أظهَرُ، والنِّعمةُ بها أكثَرُ[١].

- قولُه: ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، أي: فتَسبَّبَ عن ذلك أنَّهنَّ يَظلَلْنَ -أي: يُقمْنَ- ليلًا كان أو نهارًا، ولعلَّه عبَّرَ بـ (يَظْلَلْنَ) مع أنَّ أصلَه الإقامةُ نهارًا؛ لأنَّ النَّهارَ مَوضعُ الاقتدارِ على الأشياءِ، وهو المُنتظَرُ عِندَ كلِّ مُتعسِّرٍ للسَّعيِ في إزالةِ عُسرِه، وتَيسُّرِ أمْرِه[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ جُعِلتْ أحوالُ الفُلكِ في البحرِ آياتٍ لكلِّ صبَّارٍ شُكورٍ؛ لأنَّ في الحالتَينِ خَوفًا ونَجاةً، والخوفُ يَدْعو إلى الصَّبرِ، والنَّجاةُ تَدْعو إلى الشُّكرِ، والمرادُ: أنَّ في ذلك آياتٍ لكلِّ مُؤمنٍ مُتخلِّقٍ بخُلُقِ الصَّبرِ على الضَّرَّاءِ والشُّكرِ للسَّرَّاءِ؛ فهو يَعتبِرُ بأحوالِ الفُلكِ في البحرِ اعتبارًا يُقارِنُه الصَّبرُ أو الشُّكرُ. وإنَّما جُعِل ذلك آيةً للمؤمنينَ؛ لأنَّهم الَّذين يَنتفِعونَ بتلك الآيةِ، فيَعلَمونَ أنَّ اللهَ مُنفرِدٌ بالإلهيَّةِ، بخِلافِ المشركينَ؛ فإنَّها تمُرُّ بأعيُنِهم فلا يَعتبِرونَ بها[٣]؛ فوَجهُ الجَمعِ بيْن الصَّبرِ والشُّكرِ: أنَّ هذه السُّفُنَ إنْ جَرَت على ما يَنْبغي فوَظيفةُ الإنسانِ الشُّكرُ، وإنْ جَرَت على ما لا يَنْبغي فوَظيفتُه الصَّبرُ[٤].

- وقولُه: ﴿صَبَّارٍ﴾، أي: على بَلاءِ اللهِ، ﴿شَكُورٍ﴾، أي: لِنَعمائِه، وهما صِفتا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٥).

المؤمِنِ المُخلِصِ؛ فجعَلَهما كِنايةً عنه، وهو الذي وكَّل هِمَّته بالنَّظرِ في آياتِ اللهِ، فهو يَسْتملي منها العِبَرَ. وحسَّنَ مَوقعَ هذه الكِنايةِ في هذا المقامِ: أنَّ مَواجِبَ الصَّبرِ والشُّكرِ لم تَتبيَّنْ في سائرِ الحالاتِ ظُهورَها في حالَتَي الرُّكوبِ في البحرِ والخُروجِ منه(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ فيه إيقاعُ الإيباقِ على السُّفنِ الجَواري مع أنَّه حالُ أهلِهنَّ؛ للمُبالَغةِ والتَّهويلِ(٢).

- قولُه: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ عطْفٌ على ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾؛ فهو في معْنى جَزاءٍ للشَّرطِ المقدَّرِ، أي: وإنْ يَشَأْ يَعْفُ عن كَثيرٍ فلا يُوبِقْهُم مع استِحقاقِهم أنْ يُوبَقُوا. وهذا العطْفُ اعتراضٌ(٣).

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ على قِراءةِ الرَّفعِ ﴿وَيَعْلَمُ﴾(٤)؛ فهو استئنافٌ فيه تَهديدٌ للمشرِكينَ بأنَّهم لا مَحيصَ لهم مِن عَذابِ اللهِ تعالَى؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ﴾ [الشورى: ٣٢]، صار المعنَى: ومِن آياتِ انفرادِه بالإلهيَّةِ الجَواري في البحرِ، والمشرِكونَ يُجادِلونَ في دَلائلِ الوحدانيَّةِ بالإعراضِ والانصرافِ عن سَماعِها، فهدَّدَهم اللهُ بأنْ أَعلَمَهم أنَّهم لا مَحيصَ لهم، أي: مِن عَذابِه؛ وحُذِف مُتعلَّقُ المحيصِ إبهامًا له تَهويلًا للتَّهديدِ؛ لِتذهَبَ النَّفسُ كُلَّ مَذهبٍ مُمكنٍ، فيَكونُ قولُه: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ خبرًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٧).

(٤) تقدمت الإشارة إلى هذه القراءة في مشكل الإعراب (ص: ٥١٨).

مُرادًا به الإنشاءُ والطَّلبُ، فهو في قوَّةِ: ولْيَعلَمِ الَّذين يُجادِلونَ، أو اعلَموا يا مَن يُجادِلونَ، وليْس خبرًا عنهم؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بذلك حتى يَعلَموه. وأمَّا قِراءةُ النَّصبِ فهي على العَطْفِ على فِعلٍ مَدخولٍ لِلَامِ التَّعليلِ، وتُضمَّنُ (أنْ) بعْدَه، والتَّقديرُ: لِيَنتقِمَ منْهم ويَعلَمَ الذين يُجادِلون... إلخ. أو الواوُ واوُ المعيَّةِ التي يُنصَبُ الفِعلُ المضارِعُ بعْدَها بـ(أنْ) مُضمَرةً. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ الخبرُ مُستعمَلًا في مُقارَبةِ المُخبَرِ به؛ كقولِهم: قدْ قامَتِ الصَّلاةُ، فلمَّا كان عِلمُهم بذلك يُوشِكُ أنْ يَحصُلَ، نُزِّلَ مَنزلةَ الحاصلِ، فأَخبَرَ عنهم به، وعلى هذا الوجْهِ يَكونُ إنذارًا بعِقابٍ يَحصُلُ لهم قَريبٍ، وهو عَذابُ السَّيفِ والأَسْرِ يومَ بَدْرٍ، وذُكِر فِعلُ (يَعلَم)؛ للتَّنويهِ والاعتِناءِ بالخبرِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٧، ١٠٨).

الآيات (٣٦-٤٣)

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ
ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ
ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا
يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى
ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ
وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَمَتَٰعُ﴾: أي: تمتُّعٌ وانتِفاعٌ، وأصْلُ (متع): يدُلُّ على المنفعةِ[١].

﴿ٱلْإِثْمِ﴾: الإثمُ والأثامُ: اسمٌ للأفعالِ المُبَطِّئةِ عن الثَّوابِ، أو الذَّنْبُ الَّذي يَستحِقُّ العقوبةَ عليه، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتأخُّرِ، والإثمُ مُشتَقٌّ من ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخيرِ، متأخِّرٌ عنه[٢].

﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾: جمعُ فاحِشةٍ، والفُحْشُ والفَحْشاءُ والفاحِشَةُ: ما عظُم قُبحُه مِن الأفعالِ والأقوالِ، وأصلُ (فحش): يَدُلُّ على قُبحٍ وشَناعةٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٢٦).

﴿شُورَىٰ﴾: الشُّورَى: مَصدرٌ بمعنى التَّشاوُرِ، والتَّشاوُرُ والمُشاوَرةُ والمَشورَةُ: استخراجُ الرَّأيِ بمُراجعةِ البعضِ إلى البعضِ، مِن قولِهم: شِرْتُ العَسلَ: إذا اتَّخذتَه مِن مَوضعِه، واستَخْرجتَه منه، فكأنَّ المستشيرَ يَأخذُ الرَّأيَ مِن غيرِه، وأصلُ (شور) هنا: أخذُ شَيءٍ[1].

﴿ٱلْبَغْىُ﴾: أي: الظُّلمُ والعُدوانُ، وأصلُ البَغْيِ: مُجاوَزةُ الحدِّ؛ يُقالُ: بَغَى الجرحُ: تجاوَزَ الحدَّ في فَسادِه، وأصلُ (بغي) هنا: جِنْسٌ مِن الفسادِ[2].

﴿عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: أي: حَقِّها وحَزْمِها وما أمَرَ اللهُ به مِنها، وأصلُ (عزم): يدُلُّ على عَقدِ القَلبِ على إمضاءِ الأمرِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مُبيِّنًا حَقيقةَ الدُّنيا ومَتاعِها بالنِّسبةِ للآخِرةِ: فما أُوتيتُم مِن شَيءٍ في الدُّنيا فإنَّما هو مَتاعٌ زائِلٌ تتمَتَّعونَ به في حَياتِكم الدُّنيا، وما عِندَ اللهِ في الآخِرةِ خَيرٌ مِن مَتاعِ الدُّنيا وأبقَى للَّذين آمَنوا وعلى رَبِّهم يَعتَمِدونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى صِفاتِ عِبادِه المؤمنينَ، فيقولُ: والَّذين يَجتَنِبونَ كَبائِرَ الإثمِ والفواحِشَ، وإذا غَضِبوا يَصفَحونَ، والَّذين استَجابوا لرَبِّهم وانْقادوا لطاعتِه، وأقاموا الصَّلاةَ، وأمرُهم شُورى بيْنَهم، ومِمَّا رزَقَهم اللهُ يُنفِقونَ، والَّذين إذا اعتدَى عليهم أحَدٌ يَنتَصِرونَ منه.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٦، ٢٢٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٣٧)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

ثمَّ يقولُ تعالَى مُرغِّبًا في العَفوِ والصَّفحِ: وجَزاءُ سَيِّئةِ المُسيءِ عُقوبتُه بمِثلِ جِنايتِه، فمَن عفا عمَّن أساء إليه وأصلَحَ فأجرُه على اللهِ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الظَّالِمينَ، ومَن انتَصَر مِمَّن ظَلَمه فلا عُقوبةَ ولا إثمَ عليه، إنَّما العُقوبةُ والإثمُ على الَّذين يَعتدُونَ على النَّاسِ ظُلْمًا، ويُفسِدونَ في الأرضِ بغَيرِ الحَقِّ، أولئك لهم عَذابٌ مُؤلِمٌ.

ومَن صَبَر على أذَى النَّاسِ وصَفَح عن إساءتِهم، فإنَّ ذلك مِن الأمورِ التي نَدَب اللهُ إليها عِبادَه، وعَزَم عليهم العَمَلَ بها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا ذكَرَ دَلائِلَ التَّوحيدِ؛ أردَفَها بالتَّنفيرِ عن الدُّنيا، وتَحقيرِ شَأنِها؛ لأنَّ الذي يَمنَعُ مِن قَبولِ الدَّليلِ إنَّما هو الرَّغبةُ في الدُّنيا؛ بسَبَبِ الرِّياسةِ، وطَلَبِ الجاهِ، فإذا صَغُرَت الدُّنيا في عيْنِ الرَّجُلِ لم يَلتَفِتْ إليها، فحينئذٍ ينتَفِعُ بذِكرِ الدَّلائِلِ[١].

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾.

أي: فالَّذي أُوتيتُموه[٢] مِن نِعَمٍ دُنيويَّةٍ، فإنَّما هي أُمورٌ زائِلةٌ فانيةٌ تتمَتَّعونَ بها

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٣).

(٢) قيل: الخِطابُ للنَّاسِ مُطلقًا. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والبقاعي، واستَظْهَره الألوسيُّ، واختاره ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٢). =

في حياتِكم الدُّنيا[١].

كما قال تعالَى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

وعن المُستَورِدِ بنِ شَدَّادٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقولُ: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يَجعَلُ أحَدُكم إصبَعَه هذه في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟!))[٢].

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

أي: وما عِندَ اللهِ مِن الثَّوابِ والجَزاءِ في الآخِرةِ للَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به: خَيرٌ مِن مَتاعِ الدُّنيا وأدوَمُ؛ فهو باقٍ لا يَنفَدُ[٣].

= وقيل: الخِطابُ للمُشرِكينَ. وممَّن ذهَب إلى هذا: ابنُ أبي زَمنين، والقرطبيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٩).

قال ابن عاشور: (والخطابُ في قولِه: ﴿أُوتِيتُم﴾ للمشركينَ جرْيًا على نَسَقِ الخِطابِ السَّابِقِ... ويَنسَحِبُ الحُكمُ على المؤمنينَ بلَحنِ الخِطابِ، ويجوزُ أن يكونَ الخِطابُ لجَميعِ الأمَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا * وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓ﴾[الأعلى: ١٦، ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

أي: ويَعتَمِدونَ على رَبِّهم وَحْدَه، ويُفَوِّضونَ إليه جَميعَ أُمورِهم(١).

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان كُلٌّ مِن الإيمانِ والتَّوكُّلِ أمرًا باطِنًا، فكان لا بُدَّ مِن دَلائِلِه مِن ظواهِرِ الأعمالِ، وكانتْ تَخْليات مِن الرَّذائلِ، وتَحْليات بالفَضائلِ، وكانت التَّخْلياتُ -لكَوْنِها دَرْءًا للمفاسِدِ- مُقدَّمةً على التَّحْلياتِ التي هي جلْبٌ للمَصالحِ؛ قال(٢):

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾.

أي: والذين يَجتَنِبونَ كَبائِرَ الذُّنوبِ، ويَجتَنِبونَ الفَواحِشَ كالقتْلِ والزِّنا(٣).

= (٧/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٣- ٢٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢٧-٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٤- ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢٨-٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٩، ٢٨١). =

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ...﴾ [النجم: ٣١، ٣٢].

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان كَثيرٌ مِن كَبائرِ الإثمِ والفواحشِ مُتسبَّبًا على القوَّةِ الغضَبيَّةِ؛ مِثلَ: القتلِ والجراحِ، والشَّتْمِ والضَّرْبِ؛ أَعقَبَ الثَّناءَ على الَّذين يَجتنِبونَها، فذكَرَ أنَّ مِن شِيمتِهم المَغفرةَ عِندَ الغضبِ، أي: إمساكَ أنفُسِهم عن الاندفاعِ مع داعيةِ الغضبِ[1].

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

أي: وإذا غَضِبوا على مَن أساءَ إليهم يَصفَحونَ عنه، ويَتغاضَونَ عن إساءتِه، ويَستُرونَها عليه ولا يَنتَقِمونَ لأنفُسِهم[2].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أتمَّ ما منه التَّخلِّي؛ أتبَعه ما به التَّحلِّي[3].

= قال الشَّوكاني: (والمرادُ بكبائرِ الإثمِ: الكبائِرُ مِن الذُّنوبِ... والفواحشُ هي مِن الكبائرِ، ولكنَّها معَ وصْفِ كونِها فاحشةً كأنَّها فوقَها، وذلك كالقتلِ، والزِّنا، ونحوِ ذلك. وقال مُقاتِلٌ: الفواحشُ مُوجِباتُ الحدودِ. وقال السُّدِّيُّ: هي الزِّنا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٠، ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٣- ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣١).

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾.

أي: والذين أجابوا رَبَّهم إلى كُلِّ ما دَعاهم إليه، فلَبَّوا دَعوتَه، وانقادُوا لطاعتِه[1].

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

أي: وأدَّوُا الصَّلَواتِ على الوَجهِ التَّامِّ المُستقيمِ الذي أُمِروا به[2].

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

أي: وشَأنُهم العامُّ شُورى بيْنهم؛ فهمْ يَتداوَلونَ الرَّأيَ فيما نَزَل بهم، ولا يَستبِدُّ أحَدٌ منهم برَأيِه دونَ الآخَرينَ في الأُمورِ المُشتَرَكةِ بيْنهم[3].

كما قال تعالَى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

أي: ومِمَّا رزَقَهم ربُّهم يَتصَدَّقونَ ويَبذُلونَ في سَبيلِه[4].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩)﴾.

أي: والذين إذا بَغَى عليهم باغٍ، واعتدَى عليهم مُعْتدٍ؛ فإنَّهم يَنتَصِرونَ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠).

قال ابنُ عُثَيمين: («مِنْ» هنا للتَّبعيضِ، ويَحتَمِلُ أن تكونَ للجِنسِ، وهي للجِنسِ أَوْلى؛ لِيَشمَلَ القَليلَ والكَثيرَ والكُلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٧) بتصرف.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالَى: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]؛ أردَفَه بما يدُلُّ على أنَّ ذلك الانتِصارَ يَجِبُ أنْ يكونَ مُقَيَّدًا بالمِثْلِ؛ فإنَّ النُّقصانَ حَيفٌ، والزِّيادةَ ظُلمٌ، والتَّساويَ هو العَدلُ، وبه قامت السَّمَواتُ والأرضُ؛ فلهذا السَّبَبِ قال(١):

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾.

أي: وجَزاءُ سَيِّئةِ المُسيءِ هو عُقوبتُه بمِثْلِ جِنايتِه، بلا زِيادةٍ(٢).

كما قال تعالَى: ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٤].

= عاشور)) (٢٥/ ١١٣-١١٤).

قال ابنُ الجَوْزي: (اختَلَفوا في هذا البَغْيِ على ثَلاثةِ أقوالٍ: أحدُها: أنَّه بَغْيُ الكُفَّارِ على المُسلِمينَ... والثَّاني: أنَّه بَغْيُ المُسلِمينَ على المُسلِمينَ خاصَّةً. والثَّالِثُ: أنَّه عامٌّ في جميعِ البُغاةِ، سواءٌ كانوا مُسلِمينَ أو كافِرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٧).

وقولُه: ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ أي: يَنتقِمونَ ويقْتَصُّونَ مِن ظالميهم مِن غيرِ تَعَدٍّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٢).

وقيل: ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ أي: يَتناصَرون، فيَنصُرُ بَعضُهم بعضًا لرفْعِ البَغْيِ، وهو مِن بابِ الحِسبةِ، يَنتصِرونَ بالأمرِ بالمعروفِ. قاله السَّمعاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٤، ٥٢٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٩٣).

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ يهوديًّا رضَّ[١] رأسَ جاريةٍ بيْنَ حَجَرين. قيل: مَن فَعَل هذا بكِ؟ أفلانٌ؟ أفُلانٌ؟ حتى سُمِّي اليَهوديُّ، فأومَأَتْ برأسِها، فأُخِذَ اليَهوديُّ فاعترَف، فأمَر به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فرُضَّ رأسُه بيْن حَجرينِ))[٢].

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: فمَن عَفا عمَّن أساءَ إليه وأصلَحَ، فثَوابُه على اللهِ لا مَحالةَ، ولنْ يُضيعَ اللهُ ثَوابَه[٣].

---

(١) الرَّضُّ: الكَسرُ والدَّقُّ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٤/ ١٩٥).

(٢) رواه البخاري (٢٤١٣) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٢).

قال الماورْديُّ: (﴿وَأَصْلَحَ﴾ فيه وَجهانِ: أحَدُهما: أصلَحَ العَمَلَ. قاله سعيدُ بنُ جُبير. الثاني: أصلَحَ بيْنَه وبيْنَ أخيه. قاله ابنُ زيادٍ. وهذا مَندوبٌ إليه في العَفوِ عن التَّائِبِ دونَ المُصِرِّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٠٧).

وممَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: مقاتلُ بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٣).

وممَّن قال بالقَولِ الثَّاني -أي: أصْلَح بيْنَه وبيْن خَصْمِه الذي ظلَمه بالعفْوِ-: السَّمرقنديُّ، والواحدي، والسمعانيُّ، والبغوي، والرازيُّ، والبيضاوي، والنَّسَفي، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٠).

وظاهِرُ اختيارِ البقاعي الجَمعُ بين القَولَين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٦).

قال البقاعي: (﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: أوقَعَ الإصلاحَ بينَ النَّاسِ بالعفوِ والإصلاحِ لنفْسِه؛ ليُصلِحَ اللهُ ما بيْنَه وبينَ الناسِ، فيكونَ بذلك منتصِرًا مِن نفْسِه لنفْسِه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٣٦). =

كما قال تعالَى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما نَقَصتْ صَدَقةٌ مِن مالٍ، وما زاد اللهُ عَبدًا بعَفوٍ إلَّا عِزًّا، وما تواضَعَ أحَدٌ للهِ إلَّا رَفَعه اللهُ))(١).

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الَّذين يَعتَدونَ على النَّاسِ فيَظلِمونَهم ابتِداءً، أو يُجاوِزونَ الحَدَّ في الاقتِصاصِ مِمَّن ظَلَمَهم(٢).

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان قولُه سبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سادًّا لبابِ الانتِصارِ؛ لِما يُشعِرُ

= وقال ابنُ عثيمين: (المرادُ: أصلحَ في عَفوِه، أي: صار عَفوُه مُشتَمِلًا على الإصلاحِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٠). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠).

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٠).

به مِن أنَّه ظُلمٌ على كُلٍّ، قال مُؤكِّدًا نَفيًا لهذا الإشعارِ[١]:

﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

أي: ومَن انتصَرَ مِن ظالمٍ له بعْدَ تَحقُّقِ وُقوعِ ظُلمِه، فأولئك المُنتَصِرونَ لا عُقوبةَ عليهم، ولا لَومَ ولا حَرَجَ إذا أخَذوا حَقَّهم دونَ زيادةٍ[٢].

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

أي: إنَّما العُقوبةُ والإثمُ على الَّذين يَعتَدونَ على النَّاسِ في دِمائِهم أو أموالِهم، أو أعراضِهم أو غيرِ ذلك مِن حُقوقِهم، ويَتجاوَزونَ الحَدَّ بالفَسادِ في الأرضِ بالكُفرِ أو المعاصي، أو التَّكبُّرِ على النَّاسِ، وطَلَبِ الاستِعلاءِ عليهم بغيرِ حَقٍّ[٣].

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: الَّذين يَظلِمونَ النَّاسَ، ويَبغُونَ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ: أولئك لهم مِنَ اللهِ عَذابٌ مُوجِعٌ مُؤلِمٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٦، ٥٢٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٧-٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٤، ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٨-٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٧-٣٠٨).

قال ابنُ عاشور: (حُكمُ هذه الآيةِ يَشمَلُ ظُلمَ المُشرِكينَ للمُسلِمينَ، ويَشمَلُ ظُلمَ المُسلِمينَ بَعضِهم بعضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: ومَن صبَرَ على ما يَنالُه من أذى النَّاسِ، وستَرَ ذَنْبَهم، وتَغاضَى عن إساءتِهم وتسامَحَ، فلم يَنتَصِرْ لِنفسِه مع قُدرتِه على ذلك: فإنَّ صَبْرَه وغُفرانَه هذا مِنَ الأُمورِ المَشكورةِ الحَميدةِ التي حَثَّ اللهُ عليها وأكَّدَها وعَزَم على عِبادِه العمَلَ بها، وجَعَل عليها ثوابًا جَزيلًا وثَناءً جميلًا(١).

كما قال تعالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ * وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فيها من خِصالِ الدِّينِ: التَّوكُّلُ، واجتِنابُ الكبائِرِ والفواحِشِ، والحِلمُ عندَ القُدرةِ، وإقامُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، والمشاوَرةُ، والانتِصارُ مِن الباغي(٢)، وفيه فَضيلةُ الجمْعِ بيْنَ هذه الصِّفاتِ المذكورةِ؛ لأنَّ كلَّ صِفةٍ منها صِفةُ مَدْحٍ لا شكَّ؛ لكنَّ اجتماعَها

= (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص ٣١٠، ٣١١).

قال ابنُ عُثَيمين: (يعني: لَدليلٌ على أنَّ الرَّجُلَ مِن ذَوِي العَزمِ؛ لأنَّه تحمَّلَ وسَتَر؛ تحمَّلَ فصبَرَ، وعفا فغَفَر). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٣٠).

يكونُ أكملَ[(١)]، ولَمَّا حَمِدَهم على هذه الصِّفاتِ كان هذا دَليلًا على أنَّ ضِدَّ هذه الصِّفاتِ ليْس مَحمودًا، بل مَذمومٌ؛ فإنَّ هذه الصِّفاتِ مُستلزِمةٌ لِعَدَمِ ضِدِّها، ولأنَّ حَمْدَها والثَّناءَ عليها طَلَبٌ لها وأمرٌ بها، ولو أنَّه أمرُ استِحبابٍ، والأمرُ بالشَّيءِ نَهيٌ عن ضِدِّه قَصدًا أو لُزومًا[(٢)].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ التَّزهيدُ في الدُّنيا، والتَّرغيبُ في الآخِرةِ[(٣)].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أنَّ التَّوكُّلَ عِبادةٌ يَجِبُ إفرادُ اللهِ بها، وجْهُ الدَّلالةِ: تَقديمُ المعمولِ -الَّذي هو الجارُّ والمجرورُ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾-؛ هذا دَليلُ وُجوبِ إفرادِ اللهِ به، وأمَّا الدَّليلُ على أنَّه عِبادةٌ؛ فلأنَّ اللهَ تعالَى ذَكَره في مَقامِ الثَّناءِ؛ ولا ثَناءَ إلَّا في عِبادةٍ[(٤)].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ فيه حَضٌّ على كَسرِ الغَضَبِ[(٥)].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ أنَّ العَفوَ عن المُسيءِ وغُفرانَ سيِّئاتِه مَمْدوحٌ عندَ اللهِ، مَرضِيٌّ لَدَيه[(٦)].

٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ فيه تَرْغيبٌ في العَفوِ والصَّبرِ على الأذى، وذلك بيْن الأمَّةِ الإسلاميَّةِ ظاهِرٌ، وأمَّا مع الكافِرينَ فتَعْتريه أحوالٌ تختَلِفُ بها أحكامُ الغُفرانِ، ومِلاكُها أنْ تترجَّحَ المصلحةُ في العَفوِ أو في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٣).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٨).

المؤاخَذةِ(١).

٧- إنَّ الغضبَ إذا ملَك ابنَ آدمَ كان الآمرَ والنَّاهيَ له، فإذا لم يمتثِلْ ما يأمرُه به غضبُه، وجاهَد نفسَه على ذلك، اندفَع عنه شرُّ الغَضبِ، وربَّما سكَن غضبُه، وذهَب عاجِلًا، فكأنَّه حينئذٍ لم يغضَبْ، وإلى هذا المعنى وقعَت الإشارةُ في القرآنِ بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾، وبقولِه: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٤]، فعلى الإنسانِ ألَّا يعمَلَ بمقتضَى الغضبِ إذا حصَل له، وأنْ يجاهِدَ نفسَه على تركِ تنفيذِه، والعملِ بما يأمرُ به(٢).

٨- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ كَفَلت هذه الجُمَلُ بالدُّعاءِ إلى أمَّهاتِ الفَضائلِ الثَّلاثِ: العِلمُ، والعِفَّةُ، والشَّجاعةُ؛ فالمدحُ بالاستِجابةِ والصَّلاةِ دُعاءٌ إلى العِلمِ، وبالنَّفَقةِ إلى العِفَّةِ، وبالانتِصارِ إلى الشَّجاعةِ(٣).

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ دَليلٌ على أنَّ التَّشاورَ طاعةٌ للهِ، واقترابٌ إليه؛ إذْ قدْ جعَلَه جلَّ وتعالَى في جُملةِ ما مَدَحَ به القَومَ(٤). وعن الحَسَنِ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (ما تشاوَرَ قومٌ قطُّ إلَّا هُدُوا لأرشَدِ أُمورِهم)(٥)، وقد كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُشاوِرُ أصحابَه في الأُمورِ المُتعَلِّقةِ بمَصالحِ الحُروبِ، وذلك في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٨).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٢٦٢٧٥)، وابن جرير في ((تفسيره)) (٦/ ١٩٠)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (٢/ ٤٦٧)، وابن أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٥٧).

الآثارِ كَثيرٌ، ولم يُشاوِرْهم في الأحكام؛ لأنَّها مُنَزَّلةٌ مِن عندِ اللهِ تعالَى، فأمَّا الصَّحابةُ بعْدَ استِئثارِ اللهِ به علينا -أي: بعدَ موتِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- فكانوا يَتشاوَرونَ في الأحكامِ، ويَستَنبِطونَه مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ(١).

١٠- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فيه أمرٌ بتَرْكِ الاختِلافِ، والتَّوفُّرِ على الائتِلافِ(٢)، فهذا لا يكونُ إلَّا فَرعًا عن اجتِماعِهم وتَوالُفِهم، وتَوادُدِهم وتَحابُبِهم، وكَمالِ عُقولِهم: أنَّهم إذا أرادوا أمرًا مِن الأمورِ التي تَحتاجُ إلى إعمالِ الفِكرِ والرَّأيِ فيها، اجتَمَعوا لها وتَشاوَروا وبَحَثوا فيها، حتى إذا تبَيَّنَت لهم المَصلحةُ انتَهَزوها وبادَروها، وذلك كالرَّأيِ في الغَزْوِ والجِهادِ، وتَوليةِ المُوظَّفينَ لإمارةٍ أو قَضاءٍ، أو غيرِه، وكالبَحثِ في المسائِلِ الدِّينيَّةِ عُمومًا؛ فإنَّها مِن الأُمورِ المُشتَرَكةِ، والبَحثُ فيها لبَيانِ الصَّوابِ: مِمَّا يُحِبُّه اللهُ، وهو داخِلٌ في هذه الآيةِ(٣).

١١- قال تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فذَكَر أوصافًا أربعةً هي قَواعِدُ النَّصَفةِ، الفاعِلونَ لها كالجَسَدِ الواحِدِ لا تَأخُذُهم نازِلةٌ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ(٤).

١٢- قال تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، ذَكَر سُبحانَه هؤلاء المنتَصِرينَ في مَعرِضِ المَدحِ، كما ذكَرَ المَغفِرةَ عندَ الغَضَبِ في مَعرِضِ المدحِ؛ لأنَّ التذَلُّلَ لِمَن بَغى ليْس مِن صِفاتِ مَن جَعَل اللهُ له العِزَّةَ، حيثُ قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ فالانتِصارُ عندَ البَغيِ فَضيلةٌ، كما أنَّ العَفوَ عندَ

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٩١-٩٢).
(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ١٢٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣١).

الغَضَبِ فَضيلةٌ[(١)]. فمِن صِفاتِ الَّذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون: أنَّهم لا يَرضَوْنَ بالذُّلِّ والانخناسِ عن الأخْذِ بحقِّهم، وليْس مِن لازمِ الانتصارِ أنْ يَقْتَصَّ؛ لأنَّ مَن عَفا عن قُدرةٍ وعِزَّةٍ فإنَّه لا شكَّ أنَّه مُنتصِرٌ، ومَن أخَذ بحقِّه فهو مُنتصِرٌ[(٢)].

١٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ فيه وُجوبُ العَدلِ في الجزاءِ، وعَدَمُ الاعتداءِ فيه[(٣)].

١٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في جَعْلِ أجْرِ العافي على اللهِ ما يُهيِّجُ على العَفوِ، وأنْ يُعامِلَ العَبدُ الخَلقَ بما يُحِبُّ أنْ يُعامِلَه اللهُ به، فكما يُحِبُّ أنْ يَعفوَ اللهُ عنه فلْيَعفُ عنهم، وكما يُحِبُّ أنْ يُسامِحَه اللهُ فلْيُسامِحْهم؛ فإنَّ الجَزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ[(٤)]. وكان الحَسَنُ البَصريُّ يَدْعو ذاتَ ليلةٍ: (اللَّهُمَّ اعفُ عمَّن ظلَمَني! فأكثَرَ في ذلك، فقال له رجُلٌ: يا أبا سَعيدٍ، لقد سَمِعتُك اللَّيلةَ تَدْعو لِمَن ظلَمَك حتى تمنَّيتُ أنْ أكونَ فيمَن ظلَمَك! فما دعاكَ إلى ذلِك؟ قال: قولُه تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾)[(٥)].

١٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ شَمِلَ أُصولَ الإرشادِ إلى ما في الانتِصارِ مِن الظَّالمِ، وما في العَفوِ عنه: مِن صَلاحِ الأمَّةِ؛ ففي تَخويلِ حَقِّ انتصارِ المظلوم مِن ظالِمِه رَدعٌ للظَّالمينَ عن الإقدامِ على الظُّلمِ؛ خَوفًا مِن أنْ يَأخُذَ المظلومُ بحَقِّه؛ فالمُعتدي يَحسَبُ لذلك حِسابَه حينَ الهَمِّ بالعُدوانِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٦٠).

(٥) يُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٦/ ٥٧٥).

وفي التَّرغيبِ في عَفوِ المظلومِ عن ظالِمِه حِفظُ آصِرةِ الأُخُوَّةِ الإسلاميَّةِ بيْنَ المظلومِ وظالِمِه؛ كيْلَا تَتثَلَمَ في آحادِ جُزئيَّاتِها، بل تَزدادُ بالعَفوِ مَتانةً، كما قال تعالَى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، على أنَّ اللهَ تعالَى لم يُهمِلْ جانِبَ رَدعِ الظَّالمِ؛ فأنْبأَ بتحقيقِ أنَّه بمَحَلٍّ مِن غَضَبِ اللهِ عليه؛ إذ قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولا يَنحَصِرُ ما في طَيِّ هذا مِن هَولِ الوَعيدِ(١).

١٦- قولُه تعالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ فيه الحَثُّ على العَفوِ إذا كان إصلاحًا(٢).

١٧- قولُه تعالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ فيه الحَثُّ على الصَّبرِ(٣)، فهذا إخبارٌ مِن اللهِ تعالَى بأنَّ أهلَ الصَّبرِ هم أهلُ العزائمِ(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أخبَرَ سُبحانَه أنَّ ما عِندَه خيرٌ لِمَن آمَنَ به وتَوكَّلَ عليه، وهذا هو التَّوحيدُ، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾؛ فهذا اجتنابُ داعي القُوَّةِ الشَّهوانيَّةِ، ثمَّ قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾؛ فهذا مُخالفةُ القُوَّةِ الغَضَبيَّةِ؛ فجَمَع بيْنَ التَّوحيدِ والعِفَّةِ والعَدلِ: التي هي جِماعُ الخيرِ كُلِّه(٥).

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ سَمَّاه مَتاعًا؛ تَنبيهًا على قِلَّتِه وحَقارتِه؛ ولأنَّ الحِسَّ شاهِدٌ بأنَّ كُلَّ ما يَتعلَّقُ بالدُّنيا فإنَّه يكونُ سَريعَ الانقراضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٦-١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١١).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨١).

والانقِضاءِ[١].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ ﴾ أنَّ في الآثامِ صَغيرًا وكبيرًا[٢].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ أنَّ اجتِنابَ كَبيرِ الإثمِ يُكَفِّرُ الصَّغيرَ، ويُؤيِّدُه قَولُه تعالى: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾[النساء: ٣١][٣]، وليْس المرادُ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ فتْحَ البابِ لارتكابِ صَغائرِ الآثامِ والذُّنوبِ، بلِ المرادُ بَيانُ فضْلِ اللهِ تعالَى على عِبادِه، ورَحمتِه بهم[٤].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ أنَّ صَغائرَ الذُّنوبِ لا تَنْقُصُ مِن كَمالِ الإيمانِ؛ لأنَّها تَقَعُ مَغفورةً باجتِنابِ الكبائرِ، كما قال اللهُ تبارَك وتعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾[النجم: ٣٢]، يعني: إلَّا الصَّغائرَ؛ فإنَّها لا تَضُرُّ، وأخبَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ((أنَّ الصَّلواتِ الخَمسَ، والجُمُعةَ إلى الجُمُعةِ، ورمَضانَ إلى رَمَضانَ: مُكَفِّراتٌ لِما بيْنَهنَّ إذا اجتُنِبَتِ الكبائِرُ))[٥].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ وقَولِه سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾ أنَّه سُبحانَه حَمِدَهم على أنَّهم يَنتَصِرونَ عندَ البَغيِ عليهم، كما أنَّهم يَعفُونَ عندَ الغَضَبِ؛ فليْسوا مِثْلَ الذي ليْس له قُوَّةُ الانتِصارِ وفِعْلُه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط للقرآن الكريم)) لطنطاوي (١٣/ ٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٤).
والحديثُ أخرجه مسلمٌ (٢٣٣) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه.

لِعَجْزِهم أو كَسَلِهم، أو وَهْنِهم أو ذُلِّهم أو حُزْنِهم؛ فإنَّ أكثرَ مَن يَترُكُ الانتِصارَ بالحقِّ إنَّما يَترُكُه لهذه الأمورِ وأشباهِها، وأيضًا هم ليْسوا مِثلَ الذي إذا غَضِبَ لا يَغفِرُ ولا يَعفُو، بلْ يَتعدَّى أو يَنتقِمُ حتى يُكَفَّ مِن خارجٍ، كما عليه أكثرُ النَّاسِ إذا غَضِبوا أو قَدَروا، فلا يَقِفُون عندَ العَدلِ، فَضلًا عن الإحسانِ! فحَمِدَهم على أنَّهم يَنتَصِرونَ وعلَى أنَّهم يَعفُونَ[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ (بينهم) هذا الظَّرفُ صِفةٌ لـ﴿شُورَىٰ﴾، والتَّشاوُرُ لا يكونُ إلَّا بيْن المُتشاوِرينَ؛ فالوَجهُ أنْ يكونَ هذا الظَّرفُ إيماءً إلى أنَّ الشُّورى لا يَنْبغي أنْ تَتجاوَزَ مَن يُهِمُّهم الأمرُ مِن أهلِ الرَّأيِ، فلا يَدخُلُ فيها مَن لا يُهِمُّه الأمرُ، وإلى أنَّها سِرٌّ بيْن المُتشاوِرينَ[٢].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ أنَّ هؤلاء لا يَنتَصِرونَ لأنفُسِهم إلَّا إذا تَحقَّقوا البَغيَ عليهم، وأمَّا مُجرَّدُ التُّهمةِ فلا يَعتَبِرونَها؛ يُؤخَذُ ذلك مِن قَولِه: ﴿إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾ فلو اتَّهموا أحدًا أنَّه ظَلَمَهم فإنَّهم لا يَتحرَّكونَ، لكنْ إذا أصابَهم البَغيُ حينئذٍ يَنتَصِرونَ[٣].

٩- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ مُشكِلةٌ؛ لِوَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّه لَمَّا ذَكر قَبلَه ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ فكيْف يَليقُ أنْ يُذكَرَ معه ما يَجْري مَجرَى الضِّدِّ له، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾؟

الثَّاني: أنَّ جميعَ الآياتِ دالَّةٌ على أنَّ العَفوَ أحسَنُ؛ قال تعالى: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٩٢).

﴿أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، فهذه الآياتُ قدْ يُتوهَّمُ أنَّها تُناقِضُ مَدلولَ هذه الآيةِ؟

والجوابُ أنَّ العَفوَ على قِسمَينِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ العَفوُ سَببًا لِتَسكينِ الفِتنةِ وجِنايةِ الجاني ورُجوعِه عن جِنايتِه.

والثَّاني: أنْ يَصيرَ العَفوُ سَبَبًا لِمَزيدِ جَراءةِ الجاني، ولقُوَّةِ غَيظِه وغَضَبِه، والآياتُ في العَفوِ مَحمولةٌ على القِسمِ الأوَّلِ. وهذه الآيةُ مَحمولةٌ على القِسمِ الثَّاني، وحينَئذٍ يَزولُ ما يُتوهَّمُ مِنَ التَّناقُضِ(١).

وقيل: إنَّ المقصودَ مِن قَولِه: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ مُعاملةُ المُسلمينَ بَعضِهم مع بَعضٍ، فلا يُعارِضُه قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾؛ لأنَّ ذلك في مُعامَلتِهم معَ أعداءِ دِينِهم؛ إذ هو لِدَفْعِ البَغْيِ اللَّاحقِ بهم لأجْلِ أنَّهم مُؤمِنونَ، فالانتصارُ لأنفُسِهم رادعٌ للباغينَ عن التَّوغُّلِ في البَغْيِ على أمثالِهم، وذلك الرَّدْعُ عَونٌ على انتشارِ الإسلامِ؛ إذ يَقطَعُ ما شَأنُه أنْ يُخالِجَ نُفوسَ الرَّاغبينَ في الإسلامِ مِن هَواجسِ خَوفِهم مِن أنْ يُبغَى عليهم، وبهذا تَعلَمُ أنْ لَيس بيْن قولِه هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ وبيْن قولِه آنفًا: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] تعارُضٌ؛ لاختلافِ المَقامينِ؛ فهو مِن بابِ التَّكميلِ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١١، ١١٣، ١١٤).

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ على القولِ بأنَّه ذكَرَ الانتصارَ بلَفظِ الإباحةِ، إنْ قِيل: كيْف ذُكِرَ الانتصارُ في صِفاتِ المدْحِ، والمباحُ لا مدْحَ فيه ولا ذَمَّ؟

فالجوابُ: مِن أوجُهٍ:

منها: أنَّ المباحَ قدْ يُمدَحُ؛ لأنَّه قِيامٌ بحقٍّ لا بباطلٍ.

ومنها: أنَّ مدْحَ الانتصارِ لكَونِه كان بعْدَ الظُّلمِ، تَحرُّزًا ممَّن بدَأ بالظُّلمِ، فكأنَّ المدْحَ إنَّما هو بترْكِ الابتداءِ بالظُّلمِ(١).

١١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ أصلٌ كَبيرٌ في عِلمِ الفِقهِ؛ فإنَّ مُقتَضاها أنْ تُقابَلَ كُلُّ جِنايةٍ بمِثلِها؛ وذلك لأنَّ الإهدارَ يُوجِبُ فَتْحَ بابِ الشَّرِّ والعُدوانِ؛ لأنَّ في طَبعِ كُلِّ أحَدٍ الظُّلمَ والبَغيَ والعُدوانَ، فإذا لم يُزجَرْ عنه أقدَمَ عليه ولم يَترُكْه، وأمَّا الزِّيادةُ على قَدرِ الذَّنْبِ فهو ظُلمٌ، والشَّرعُ مُنَزَّهٌ عنه؛ فلم يَبْقَ إلَّا أنْ يُقابَلَ بالمِثْلِ(٢). فيَجِبُ أنْ تكونَ المُقاصَّةُ على وَجهِ العَدلِ؛ فيكونَ جَزاءُ السَّيِّئةِ سَيِّئةً مِثلَها، فلا يجوزُ أنْ يُعتَدى في القِصاصِ لا القَوليِّ ولا الفِعليِّ؛ فلو أنَّ رجُلًا سَبَّكَ بوَصفَينِ وسَبَبْتَه بثَلاثةِ أوصافٍ، فلا يَجوزُ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، ولو أنَّ رجُلًا قَطَعَ يَدَ إنسانٍ، وطُلِبَ القِصاصُ، فقال الجاني: أنا أُريدُ تَخديرَ يَدي؛ حتَّى لا أُحِسَّ بالألَم، وقال المجنيُّ عليه: لا؛ فالقَولُ قولُ المجنيِّ عليه؛ لأنَّ الجانيَ أتَى مَفسدتَينِ: الإيلامَ، وفَقْدَ العُضوِ؛ فلا تَتِمُّ المُقاصَّةُ إلَّا إذا حَصَل هذانِ الأمرانِ بالنِّسبةِ للجاني(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠١).

١٢- تَفَضُّلُ اللهِ تَبارَك وتعالَى على عِبادِه، حيثُ أوجَبَ على نَفسِه أجرَ العافي المُصلِحِ؛ يُؤخَذُ ذلك مِن قَولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ فقدْ ضَمِنَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهذا العافي المصلِحِ الأجرَ[1].

١٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ شَرَط اللهُ في العَفوِ الإصلاحَ فيه -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لِيَدُلَّ ذلك على أنَّه إذا كان الجاني لا يَليقُ العَفوُ عنه، وكانت المَصلحةُ الشَّرعيَّةُ تَقتَضي عُقوبتَه؛ فإنَّه في هذه الحالِ لا يكونُ مأمورًا به[2]؛ فلو أنَّ الجانيَ مَعروفٌ بالشَّرِّ والفَسادِ، فاعتدَى على شَخصٍ فإنَّه لا يُعفَى عنه؛ لأنَّنا لو عَفَونا عنه في هذه القضيَّةِ المعيَّنةِ؛ فَعَل مِثلَها أو أشدَّ بعْدَ ذلك؛ لاعتِمادِه على العفوِ في كلِّ فِعلٍ. وعلى ذلك فقَولُه تَبارك وتعالَى: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] مُقيَّدٌ بهذه الآيةِ، بل كلُّ نَصٍّ فيه الحثُّ على العَفوِ فإنَّه مُقيَّدٌ بهذه الآيةِ؛ وهو أنَّه لا بُدَّ أنْ يكونَ العَفوُ إصلاحًا[3].

١٤- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثُبوتُ صِفةِ المحبَّةِ للهِ عزَّ وجَلَّ؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّه لَمَّا نَفى مَحبَّتَه للظَّالِمينَ دلَّ ذلك على أنَّه يُحِبُّ العادِلينَ ذَوي القِسطِ، وهذا الاستِدلالُ يُشابِهُ استِدلالَ الإمامِ الشَّافعيِّ رَحِمه اللهُ على أنَّ المُؤمِنينَ يَرَونَ اللهَ؛ لِقَولِه تعالَى في الفُجَّارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فقال: (لو كان مُحتَجِبًا عن الجَميعِ مَثَلًا، فلا فائدةَ للنَّفيِ)[4].

١٥- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن الظُّلمِ؛ وجْهُه: أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٥)، ويُنظر: ((شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة)) للالكائي (٣/ ٥١٩).

في الظُّلمِ انتفاءَ مَحبَّةِ اللهِ للعَبدِ(١).

١٦- قال تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] لَمَّا كان النَّاسُ عندَ مُقابَلةِ الأذى ثَلاثةَ أقسامٍ: ظالِمٌ يَأخُذُ فوقَ حَقِّه، ومُقتَصِدٌ يَأخُذُ بقَدْرِ حَقِّه، ومُحسِنٌ يَعفو ويَترُكُ حَقَّه؛ ذكَرَ الأقسامَ الثَّلاثةَ في هذه الآيةِ؛ فأوَّلُها للمُقتَصِدينَ، ووَسَطُها للسَّابِقينَ، وآخِرُها للظَّالِمينَ(٢)، فأمَرَ بالعَدلِ، ونَدَب إلى الفَضلِ، ونَهَى عن الظُّلمِ(٣).

١٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يَقتَضي إباحةَ الانتِصارِ(٤)، وأنَّ العَفوَ ليْس بواجِبٍ(٥).

١٨- قَولُه تعالَى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ المظلومُ وإنْ كان مأذونًا له في دَفعِ الظُّلمِ عن نَفسِه، فذلك مَشروطٌ بشَرطينِ؛ أحدُهما: القُدرةُ على ذلك. والثَّاني: ألَّا يَعتديَ. فإذا كان عاجِزًا، أو كان الانتِصارُ يُفضي إلى عُدوانٍ زائدٍ: لم يَجُزْ(٦).

١٩- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أنَّ انتِفاءَ السَّبيلِ عمَّن انتصرَ لِنَفسِه مَشروطٌ بتحَقُّقِ الظُّلمِ، أمَّا الأخذُ بالتُّهَمِ فإنَّه لا يجوزُ؛ فلا بُدَّ أنْ تَتحقَّقَ أنَّك مَظلومٌ حتَّى تَنتصِرَ لنَفسِك(٧)؛ ففيه تَنبيهٌ على أنَّ هذا الانتصارَ يكونُ بعْدَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٥).
(٢) يُنظر: ((قاعدة في الصبر)) لابن تيمية (ص: ٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٩).
(٦) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٤٠).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٦).

أنْ تحقَّقَ أنَّهم ظُلِموا، فأمَّا في غيرِ الحروبِ، فمَن يَتوقَّعُ أنَّ أحدًا سيَعتدي عليه ليْس له أنْ يُبادِرَ أحدًا بأذًى قبْلَ أنْ يَشرَعَ في الاعتداءِ عليه، ويقولَ: ظنَنتُ أنَّه يَعتدي علَيَّ، فبادَرتُه بالأذى اتِّقاءً لاعتدائِه المتوقَّعِ؛ لأنَّ مِثلَ هذا يُثيرُ التَّهارُجَ والفسادَ، فنبَّهَ اللهُ المسلمينَ على تَجنُّبِه مع عَدوِّهم إنْ لم تكُنْ بيْنهم حرْبٌ[١].

٢٠- قال تعالَى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾، وقبْلَه قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، وبيانُ الجمْعِ بيْنهما: أنَّ آيةَ العَفوِ واردةٌ في شأْنِ المظلومِ، وإرشادٌ له إلى مَكارمِ الأخلاقِ، وإيثارُ طَريقِ المرسَلينَ، وهذه خِطابٌ للوُلاةِ والحُكَّامِ وتَعليمُ فِعلِ ما يَنْبغي فِعلُه؛ بدَليلِ قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الشورى: ٤٢]، حيثُ أعادَ (السَّبيلَ) المُنكَّرَ بالتَّعريفِ، وعلَّقَ به ﴿يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾، وفسَّرَه بقولِه: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[٢].

٢١- ذَكَر سُبحانَه الأصنافَ الثَّلاثةَ في بابِ الظُّلمِ الذي يكونُ بغيرِ اختيارِ المظلومِ، وهم: العادِلُ، والظَّالِمُ، والمُحسِنُ؛ فالعادِلُ مَن انتَصَر بعد ظُلْمِه، وهذا جَزاؤُه أنَّه ما عليه مِن سَبيلٍ، فلم يكُنْ بذلك مَمْدوحًا، ولكنْ لم يكُنْ بذلك مَذْمومًا، وذَكَر الظَّالمَ بقَولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢] فهؤلاء عليهم السَّبيلُ للعُقوبةِ والاقتِصاصِ، وذَكَر المُحسِنينَ، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[٣] [الشورى: ٤٣].

٢٢- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أنَّ الأمورَ تَختلِفُ في العَزَماتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٨، ١١٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٣٠/ ٣٦٧-٣٦٨).

وما دونَها، ولا شَكَّ أنَّها تختَلِفُ؛ فبَعضُها يكونُ المُقدِمُ عليه ذا عَزيمةٍ صادقةٍ ومُروءةٍ تامَّةٍ، وبَعضُها دونَ هذا(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٖ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٞ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٖ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تفريعٌ على جُملةِ ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ﴾ [الشورى: ٢٧] إلى آخِرِها؛ فإنَّها اقتَضَتْ وُجودَ مُنعَمٍ عليه ومَحرومٍ، فذُكِّروا بأنَّ ما أُوتُوهُ مِن رِزقٍ هو عرَضٌ زائلٌ، وأنَّ الخيرَ في الثَّوابِ الذي ادَّخَرَه اللهُ للمؤمنينَ، مع المناسَبةِ لِما سبَقَه مِن قولِه: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٤] مِن سَلامةِ النَّاسِ مِن كَثيرٍ مِن أهوالِ الأسفارِ البَحْريَّةِ؛ فإنَّ تلك السَّلامةَ نِعمةٌ مِن نِعَمِ الدُّنيا، ففُرِّعتْ عليه الذِّكرى بأنَّ تلك النِّعمةَ الدُّنيويَّةَ نِعمةٌ قَصيرةُ الزَّمانِ، صائرةٌ إلى الزَّوالِ، فلا يَجعَلُها الموفَّقُ غايةَ سَعْيِه، ولْيَسْعَ لِعَملِ الآخِرةِ الَّذي يأْتي بالنَّعيمِ العَظيمِ الدَّائمِ، وهو النَّعيمُ الذي ادَّخَرَه اللهُ عِندَه لِعِبادِه المؤمنينَ الصَّالحينَ(٢).

- قولُه: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أُتْبِعتْ صِلةُ (الذين آمَنوا) بما يَدُلُّ على عَمَلِهم بإيمانِهم في اعتقادِهم، فعُطِف على الصِّلةِ أنَّهم يَتوكَّلونَ على ربِّهم دونَ غيرِه، وهذا التَّوكُّلُ إفرادٌ للهِ بالتَّوجُّهِ إليه في كلِّ ما تَعجِزُ عنه قُدرةُ العبْدِ؛ فإنَّ التَّوجُّهَ إلى غيرِه في ذلك يُنافي التَّوحيدَ؛ لأنَّ المشركينَ يَتوكَّلونَ على آلهتِهم أكثَرَ مِن تَوكُّلِهم على اللهِ، ولكونِ هذا مُتمِّمًا لمعنَى (الذين آمَنوا)؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٩).

عُطِف على الصِّلةِ، ولم يُؤتَ معه باسمٍ مَوصولٍ، بخِلافِ ما ورَدَ بعْدَه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ فيه إتْباعُ الموصولِ السَّابقِ (الذين آمنوا) بمَوصولاتٍ مَعطوفٍ بعضُها على بعضٍ كما تُعطَفُ الصِّفاتُ للمَوصوفِ الواحدِ، فكذلك عطْفُ هذه الصِّلاتِ ومَوصولاتِها، أصحابُها مُتَّحِدونَ، وهم الذين آمَنوا باللهِ وَحْدَه، والمقصودُ مِن ذلك: هو الاهتمامُ بالصِّلاتِ، فيُكرَّرُ الاسمُ الموصولُ؛ لِتَكونَ صِلتُه مُعتنًى بها، حتى كأنَّ صاحبَها المتَّحِدَ مُنزَّلٌ مَنزلةَ ذواتٍ مُتعدِّدةٍ، فالمقصودُ: ما عِندَ اللهِ خيرٌ وأبْقى للمُؤمنينَ الَّذين هذه صِفاتُهم، أي: أَتْبَعوا إيمانَهم بها، وهذه صِفاتٌ للمُؤمنينَ باختِلافِ الأحوالِ العارضةِ لهم؛ فهي صِفاتٌ مُتداخِلةٌ قدْ تَجتمِعُ في المؤمنِ الواحدِ إذا وُجِدتْ أسبابُها، وقدْ لا تَجتمِعُ إذا لم تُوجَدْ بعضُ أسبابِها[٢].

- وقولُه: ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ بصِيغةِ الجمْعِ، وقُرِئ أيضًا: ﴿كَبِيرَ﴾ بالإفرادِ[٣]؛ فكَبائرُ الإثمِ: الفَعَلاتُ الكَبيرةُ مِن جِنسِ الإثمِ، وهي الآثامُ العَظيمةُ التي نَهى الشَّرعُ عنها نَهْيًا جازمًا، وتَوعَّدَ فاعِلَها بعِقابِ الآخِرةِ؛ مِثلُ: القذْفِ والاعتداءِ والبَغْيِ. وعلى قِراءةِ ﴿كَبِيرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ مُرادٌ به معنَى ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾؛ لأنَّ المفردَ لَمَّا أُضيفَ إلى مُعرَّفٍ بلامِ الجِنسِ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، كان له حُكمُ ما أُضيفَ هو إليه[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ جِيءَ بكَلمةِ (إذا) المُضمَّنةِ معنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٩)

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١١٠).

(٣) قرَأها حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿كَبِيرَ﴾، وقرَأ الباقون ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ بفتْحِ الباءِ وألِفٍ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٠).

الشَّرطِ، والدَّالَّةِ على تَحقُّقِ الشَّرْطِ؛ لأنَّ الغضَبَ طَبيعةٌ نفْسيَّةٌ لا تكادُ تَخْلو عنه نفْسُ أحدٍ على تَفاوُتٍ؛ لإفادةِ التَّقوِّي. وتَقييدُ المسنَدِ بحَرْفِ (إذا) المفيدةِ معْنى الشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ الغُفرانِ كلَّما غَضِبوا[1].

- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ قدَّم الغَضَبَ؛ إشارةً إلى الاهتِمامِ بإطفاءِ جَمْرِه، وتَبْريدِ حَرِّه[2].

- وقُدِّم المسنَدُ إليه على الخَبرِ الفِعليِّ في جُملةِ ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم الأخِصَّاءُ بالمغفرةِ حالَ الغضبِ[3].

- وخَصَّ الغَضَبَ بلَفظِ الغُفرانِ؛ لأنَّ الغَضَبَ على طَبعِ النَّارِ، واستِيلاؤُه شَديدٌ، ومُقاومتُه صَعبةٌ؛ فلهذا السَّبَبِ خَصَّه بهذا اللَّفظِ[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ هذا مَوصولٌ آخَرُ وصِلَةٌ أُخرَى، ومَدلولُهما مِن أعمالِ الَّذين آمَنوا التي يدْعوهم إليها إيمانُهم، والمقصودُ منها ابتداءً هم الأنصارُ، ومعنى ذلك أنَّهم مِن المؤمنينَ الَّذين تَأصَّلَ فيهم خُلُقُ الشُّورى[5].

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ السِّينُ والتَّاءُ في ﴿اسْتَجَابُوا﴾؛ للمُبالَغةِ في الإجابةِ، أي: هي إجابةٌ لا يُخالِطُها كَراهيةٌ ولا تَردُّدٌ[6].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أثنى اللهُ عليهم بإقامةِ الصَّلاةِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ ذلك تَنْويهًا بمَكانةِ الصَّلاةِ بأعْمالِ الإيمانِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ إقامةً خاصَّةً(١).

- وجُعِلتْ ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ عطفًا على الصِّلةِ، وقدْ عُرِف الأنصارُ بذلك؛ إذ كان التَّشاوُرُ في الأمورِ عادتَهم، فإذا نزَلَ بهم مُهِمٌّ اجتمَعوا وتَشاوَروا، وكان مِن تشاوُرِهم الذي أَثْنى اللهُ عليهم به تَشاوُرُهم حينَ ورَدَ إليهم نُقباؤُهم، وأخبَروهم بدَعوةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعْدَ أنْ آمَنوا هم به لَيلةَ العقَبةِ، فلمَّا أبلَغوهم ذلك اجتمَعوا في دارِ أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ رَضيَ اللهُ عنه، فأَجمَعَ رأيُهم على الإيمانِ به والنَّصرِ له، وإذ قد كانتِ الشُّورى مُفضِيةً إلى الرُّشدِ والصَّوابِ، وكان مِن أفضَلِ آثارِها أنِ اهتَدى بسَببِها الأنصارُ إلى الإسلامِ؛ أَثْنى اللهُ بها على الإطلاقِ دونَ تَقييدٍ بالشُّورى الخاصَّةِ التي تَشاوَرَ بها الأنصارُ في الإيمانِ، وأيُّ أمرٍ أعظَمُ مِن أمْرِ الإيمانِ(٢)؟!

- قولُه: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ جُملةٌ اسميَّةٌ عُطِفتْ على الفِعليَّةِ، وعُطِفتْ عليها الفِعليَّةُ، فآذَنَ بأنَّ مَضمونَها مُستمِرٌّ منهم، وهو دَأْبُهم وعادتُهم قبْلَ استجابتِهم لربِّهم، وقبْلَ إقامةِ الصَّلاةِ والإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ؛ لاستِحداثِهم إيَّاها بعْدَ المشورةِ(٣).

- وأيضًا أفرَدَ هذه الجُملةَ بالذِّكرِ ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ لِمَزيدِ الاهتمامِ بالشُّورى، وتَنويهًا بها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١١٢).
(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣).

- و(الأمرُ): اسمٌ مِن أسماءِ الأجناسِ العامَّةِ، مِثلُ شَيءٍ وحادِثٍ، وإضافةُ اسمِ الجِنسِ قدْ تُفيدُ العُمومَ بمَعونةِ المَقامِ، أي: جَميعُ أُمورِهم مُتشاوَرٌ فيها بيْنهم. والإخبارُ عن الأمرِ بأنَّه شُورَى مِن قَبيلِ الإخبارِ بالمصدرِ للمُبالَغةِ[١].

- وقولُه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إدْماجٌ[٢] للامتنانِ في خلالِ المدحِ، وإلَّا فليس الإنفاقُ مِن غيرِ ما يُرزَقُه المُنفِقُ[٣].

- مِن الاستِجابةِ لله: إقامةُ الصَّلاةِ وإيتاءُ الزَّكاةِ، وعطفُهما عليها مِن بابِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ، الدَّالِّ على شَرفِه وفَضلِه[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ هذا مَوصولٌ رابعٌ، وصِلتُه خُلُقٌ أرادَه اللهُ للمُسلِمينَ، والبغْيُ: الاعتداءُ على الحقِّ؛ فمعنَى إصابتِه إيَّاهم أنَّه سُلِّط عليهم، أي: بَغَى غيرُهم عليهم[٥].

- والبَغيُ بغيرِ الحَقِّ هو نوعٌ مِن أنواعِ الظُّلمِ، خَصَّه بالذِّكرِ؛ تَنبيهًا على شِدَّتِه، وسُوءِ حالِ صاحِبِه[٦].

- وأُدخِلَ ضَميرُ الفَصلِ (هُم) بقولِه: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ الذي فصَلَ بيْنَ الموصولِ وبيْنَ خَبرِه؛ لإفادةِ تقوِّي الخبرِ، أي: لا يَنْبَغي أنْ يَترَدَّدوا في الانتِصارِ لِأنفُسِهم[٧].

- ودلَّ هذا التَّركيبُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ على مَزيدِ اختِصاصِهم بالانتصارِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٢).
(٢) تقدم تعريفه (ص: ٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٥).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٤).

وذلك لِمَجيءِ الضَّميرِ وإيقاعِه مُبتدأً، وإسنادِ ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ إليه[١].

- وأُوثِرَ الخَبرُ الفِعليُّ ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ هنا دونَ أن يُقالَ: (مُنتصِرون)؛ لإفادةِ معنى تَجدُّدِ الانتصارِ كلَّما أصابَهم البَغْيُ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثَلاثُ جُملٍ مُعترِضةٌ الواحدةُ تِلْوَ الأُخرى بيْن جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ ...﴾ إلخ [الشورى: ٣٩] وجُملةِ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ [الشورى: ٤١]، وفائدةُ هذا الاعتراضِ تَحديدُ الانتصارِ والتَّرغيبُ في العفْوِ، ثمَّ ذمُّ الظُّلمِ والاعتداءِ[٣].

- و﴿سَيِّئَةٞ﴾ صِفةٌ لِمَحذوفٍ، أي: فِعلةٌ تَسُوءُ مَن عُومِلَ بها، ووَزْنُ (سيِّئة) فَيْعِلةٌ؛ مُبالَغةً في الوصفِ، أي: إنَّ المُجازيَ يُجازي مَن فعَلَ معه فِعلةً تَسُوؤُه بفِعلةٍ سيِّئةٍ مِثلِ فِعْلته في السُّوءِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ جِناسُ المُزاوَجةِ اللَّفظيُّ[٥]؛ فإنَّ السَّيِّئةَ الثَّانيةَ ليْستْ بسَيِّئةٍ؛ وإنَّما هي مُجازاةٌ عن السَّيِّئةِ، سُمِّيت باسمِها؛

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٧٥، ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١١٥).

(٥) جِناسُ المُزاوَجة -ويُسمَّى المشاكَلةَ-: هو ذِكرُ الشَّيءِ بلَفظِ غَيرِه؛ لوُقوعِه في صُحبتِه، تَحقيقًا أو تَقْديرًا؛ فالتَّحقيقُ مِثلُ قولِه تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فجعَلَ سُبحانَه الجزاءَ على السَّيِّئةِ سَيِّئةً، وهو ليْس كذلك، وإنَّما لمناسَبةِ السيِّئةِ الَّتي سبقَتْه. والتقديرُ مِثلُ قولِه سُبحانه: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]، ومُقابِلُ الصِّبغةِ مُقدَّرٌ، تَقديرُه: صِبغةَ اللهِ لا صِبْغتَكم. يُنظر: ((عروس الأفراح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٣٧ - ٢٣٩)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٠٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩/ ٤٥).

لِقَصْدِ المزاوَجةِ[(١)]، وقيل: كِلتا الفِعلتَينِ -الأُولَى وجَزاؤُها- سيِّئةٌ؛ لأنَّها تَسوءُ مَن تَنزِلُ به[(٢)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ...﴾ الآيةَ: ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّهذيبِ؛ فإنَّها سَلِمَتْ مِن المحذورِ الذي يَقتضي تَهذيبَها، وتَفصيلُ ذلك: أنَّه عِندَما يُسنَدُ الفعلُ إلى اللهِ تعالَى يَنبغي العدولُ عن إسنادِ الإساءةِ إليه، كما في قولِه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١]؛ فإنَّ صِحَّةَ المقابَلةِ في هذا النَّظمِ أنْ يُقالَ: لِيَجزيَ الَّذين أساؤوا بالإساءةِ؛ حتَّى تَصِحَّ مُقابَلتُه بقولِه: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾، لكنْ منَعَ مِن ذلك الْتزامُ الأدبِ مع اللهِ سُبحانَه في إسنادِ فِعلِ الإساءةِ إليه. أمَّا الآيةُ التي نحن بصَددِها، فقدْ أُمِنَ فيها ذلك المحذورُ، فأتَى النَّظمُ على مُقتضَى البلاغةِ مِن مَجيءِ تَجنيسِ الازدواجِ فيه على وَجْهِه مِن غيرِ تَغييرٍ؛ إذ لا ضَرورةَ تدْعو إلى تَغييرِه[(٣)].

- وكذلك في قولِه: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ تَهذيبٌ؛ فإنَّ الانتصارَ لا يَكادُ يُؤمَنُ فيه تَجاوُزُ السَّيِّئةِ والاعتداءُ، خُصوصًا في حالةِ الفَورانِ والغلَيانِ والْتهابِ الحَمِيَّةِ، وفي هذا جَوابٌ لِمَن يَتساءلُ: ما معنى ذِكرِ الظُّلمِ عَقِبَ العفوِ معَ أنَّ الانتصارَ ليس بظُلمٍ[(٤)]؟

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥).

قال أبو حيَّانَ: (مَجيءُ الشَّيءِ على سبيلِ المقابلةِ، وإنْ لم يَكُنْ مِن جِنسِ ما قُوبِل به؛ شائعٌ في لِسانِ العربِ، ومنه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾). ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٤٥، ٤٦).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ لِكلامٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، فيُقدَّرُ: إنَّه يُحِبُّ العافينَ، ونصْرُه على ظالمه مَوكولٌ إلى اللهِ، وهو لا يُحِبُّ الظالمينَ، أي: فيُؤْجِرُ الذين عَفَوْا ويَنتصِرُ لهم على الباغينَ؛ لأنَّه لا يُحِبُّ الظالمينَ؛ فلا يُهمِلُ الظَّالمَ دونَ عِقابٍ، وقد استُفيدَ حُبُّ اللهِ العافينَ من قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وعلى هذا؛ فمَاصَدَقَ[(١)] الظَّالمينَ: هم الَّذين أصابُوا المؤمنينَ بالبَغْي. ويَجوزُ أيضًا أنْ يكونَ التَّعليلُ مُنْصرِفًا لمفهومِ جُملةِ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾، أي: دونَ تَجاوُزِ المماثَلةِ في الجزاءِ؛ فيكونُ مَاصَدَقَ الظَّالمينَ: الذين يَتجاوَزونَ الحَدَّ في العُقوبةِ من المؤمنينَ، على أنْ يكونَ تَحذيرًا من مُجاوَزةِ الحدِّ[(٢)].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على جُملةِ ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ فيكونَ عُذرًا للَّذين لم يَعْفُوا. ويَجوزُ أنَّه عطْفٌ على جُملةِ ﴿هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]، وما بيْن ذلك اعتراضٌ، فالجُملةُ إمَّا مُرتبِطةٌ بغرَضِ انتصارِ المسلِمِ على ظالمِه من المسلِمينَ تَكملةً لِجُملةِ ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وإمَّا مُرتبِطةٌ بغرَضِ انتصارِ المؤمنينَ مِن بَغْيِ المشرِكينَ عليهم، وهو الانتصارُ بالدِّفاعِ، سَواءٌ كان دِفاعَ جَماعاتٍ، وهو الحربُ؛ فيَكونُ هذا تَمْهيدًا للإذنِ بالقِتالِ الذي شُرِع مِن بعْدُ، أم دِفاعَ الآحادِ إنْ تَمكَّنوا منه؛ فقدْ صار المسلمونَ بمكَّةَ يَومئذٍ ذَوي قوَّةٍ يَستطيعونَ بها الدَّفْعَ عن أنفُسِهم آحادًا، كما قِيل في عزِّ

---

(١) المَاصَدَق -عِندَ المناطِقة-: الأفرادُ التي يَتحقَّقُ فيها معنى الكُليِّ، ويُقابلُه: المفهومُ، وهو: مجموعُ الصِّفاتِ والخَصائصِ الموضِّحةِ لمعنًى كُلِّيٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحَبنَّكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٦).

الإسلامِ بإسلامِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ[(١)].

- وجِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في صَدْرِ جَوابِ الشَّرْطِ؛ لِتَمْييزِ الفريقِ المذكورِ أتَمَّ تَمْييزٍ، وللتَّنبيهِ على أنَّ سَببَ عَدمِ مُؤاخَذتِهم هو أنَّهم انتَصَروا بعْدَ أنْ ظُلِموا، ولم يَبدؤوا النَّاسَ بالبَغْيِ[(٢)].

- والمرادُ بالسَّبيلِ مُوجِبُ المؤاخَذةِ باللَّائمةِ بيْنَ القَبائلِ، واللَّمزِ بالعُدوانِ، والتَّبعةِ في الآخِرةِ على الفَسادِ في الأرضِ بقتْلِ المسالمينَ، سُمِّي ذلك سَبيلًا؛ لأنَّه أشبَهَ الطَّريقَ في إيصالِه إلى المطلوبِ، وكثُرَ إطلاقُ ذلك[(٣)].

- قولُه: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ رفَعَ سُبحانه كلَّ حرَجٍ وضِيقٍ بتَنكيرِ ﴿سَبِيلٍ﴾؛ لِشُيوعِه، فضْلًا عن الظُّلمِ[(٤)].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ فإنَّه لَمَّا جرَى الكلامُ السَّابقُ كلُّه على الإذنِ للَّذين بُغِيَ عليهم أنْ يَنتصِروا ممَّن بَغَوْا عليهم، ثمَّ عُقِّبَ بأنَّ أولئك ما عليهم مِن سَبيلٍ؛ كان ذلك مَثارَ سُؤالِ سائلٍ عن الجانبِ الذي يَقَعُ عليه السَّبيلُ المنفيُّ عن هؤلاء[(٥)].

- والقَصرُ المُفادُ بحَرْفِ (إنَّما) تأْكيدٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١١٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٧٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٠).

سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: ٤١]؛ لأنَّه كان يَكفِي لإفادةِ مَعنى القصْرِ أنْ يُقابَلَ نفْيُ السَّبيلِ عن الَّذين انتَصَروا بعْدَ ظُلْمِهم بإثْباتِ أنَّ السَّبيلَ على الظَّالمينَ؛ لأنَّ إثباتَ الشَّيءِ لِأحَدٍ ونَفْيَه عمَّن سِواه يُفيدُ معْنى القصْرِ، وهو الأصلُ في إفادةِ القصْرِ بطَريقِ المساواةِ أو الإطنابِ، وأمَّا طُرقُ القَصْرِ المعروفةُ في عِلمِ المعاني فهي مِن الإيجازِ[1]، فلمَّا أُورِدتْ أداةُ القَصرِ هنا حصَلَ نفْيُ السَّبيلِ عن غَيرِهم مرَّةً أُخرى بمُفادِ القصرِ، فتَأكَّدَ حُصولُه الأوَّلُ الذي حصَلَ بالنَّفيِ[2].

- والمرادُ بـ﴿ٱلسَّبِيلُ﴾ عَينُ المرادِ به في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]؛ بقَرينةِ أنَّه أُعيدَ مُعرَّفًا باللَّامِ بعْدَ أنْ ذُكِر مُنكَّرًا؛ فإنَّ إعادةَ اللَّفظِ النَّكرةِ مُعرَّفًا بلامِ التَّعريفِ يُفيدُ أنَّ المرادَ به ما ذُكِر أوَّلًا، وهذا السَّبيلُ الجزاءُ والتَّبِعةُ في الدُّنيا والآخِرةِ[3].

- وشَمِل عمومُ ﴿ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ﴾ وعُمومُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ كلَّ ظالمٍ، وبمَقدارِ ظُلمِه يكونُ جَزاؤُه، ويَدخُلُ ابتداءً فيه الظَّالمونَ المُتحدَّثُ عنهم، وهم مُشرِكو أهلِ مكَّةَ، والنَّاسُ المتحدَّثُ عنهم، وهم المسلمونَ يومئذٍ[4].

- قولُه: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ مُتعلِّقٌ بـ (يَبْغُونَ)، وهو لِكَشْفِ حالةِ البَغْيِ؛ لإفادةِ

---

(١) الأصلُ في الكلامِ أنْ يكونَ تأديةً لِلْمَعاني بألْفاظٍ على مِقْدارِها، أي: بأن يكونَ لِكُلِّ معنًى قصَدَه المتكلِّمُ لفظٌ يدُلُّ عليه، ظاهرٌ أو مُقدَّرٌ، وتُسمَّى دَلالةُ الكلام بهاته الكَيفيَّة: (مُساواةً)؛ لأنَّ الألفاظَ كانت مُساويةً للمَدْلولاتِ. فإذا نقَصَتِ الألفاظُ عن عددِ المعاني مع إيفائِها بجميعِ تلك المعاني، فذلك (الإيجازُ). وإذا زادَتِ الألفاظُ على عددِ المعاني مع عدَمِ زيارةِ المعاني، فذلك (الإطنابُ). يُنظر: ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٠٨، ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَذمَّته؛ إذ لا يكونُ البغيُ إلَّا بغيرِ الحقِّ؛ فإنَّ مُسمَّى البغْيِ هو الاعتداءُ على الحقِّ، وأمَّا الاعتداءُ على المُبطِلِ لأجْلِ باطلِه، فلا يُسمَّى بَغْيًا، ويُسمَّى اعتداءً؛ قال تعالَى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1] [البقرة: ١٩٤].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بيانُ جُملةِ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ﴾ إنْ أُريدَ بـ (السَّبيلِ) في قولِه: ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١] سَبيلُ العِقابِ في الآخِرةِ. أو بدَلُ اشتمالٍ منها إنْ أُريدَ بالسَّبيلِ هنالك ما يَشمَلُ المَلامَ في الدُّنيا، أي: السَّبيلُ الَّذي عليهم هو أنَّ لهم عَذابًا أليمًا جَزاءَ ظُلمِهم وبَغْيِهم، وحُكمُ هذه الآيةِ يَشمَلُ ظُلمَ المشرِكينَ للمُسلِمينَ، ويَشمَلُ ظُلمَ المسلِمينَ بعضِهم بعضًا؛ لِيَتناسَبَ مَضمونُها مع جَميعِ ما سبَقَ[2].

- وجِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أَحْرياءُ بما يُذكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ لأجْلِ ما ذُكِر قبلَه، مع تَمْييزِهم أكمَلَ تَمْييزٍ بهذا الوعيدِ[3].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، ومَوقعُ هذه الجُملةِ مَوقعُ الاعتراضِ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [الشورى: ٤٢] وجُملةِ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [الشورى: ٤٤]، وهذه الجُملةُ تُفيدُ بيانَ مَزيَّةِ المؤمنينَ الَّذين تَحمَّلوا الأذى مِن المشرِكينَ، وصبَروا عليه، ولم يُؤاخِذوا به مَن آمَنَ ممَّن آذَوْهم، ومَزيَّةِ المؤمنينَ الَّذين يَصبِرونَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ظُلمِ إخوانِهم، ويَغفِرونَ لهم، فلا يَنتصِفونَ منهم، ولا يَسْتَعْدُونَ عليهم[١].

- قولُه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ اشتمَلَ هذا الخبَرُ على أربعةِ مُؤكِّداتٍ، هي: اللَّامُ، و(إنَّ)، ولامُ الابتِداءِ، والوَصْفُ بالمصدرِ في قولِه: ﴿عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾؛ تَنْويهًا بمَضمونِه، وزِيدَ تَنويهًا باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾؛ فصار فيه خَمسةُ اهتماماتٍ[٢].

- والعَزْمُ: عَقْدُ النِّيَّةِ على العمَلِ، والثَّباتُ على ذلك، والوَصفُ بالعَزْمِ مُشعِرٌ بمدْحِ الموصوفِ؛ لأنَّ شأنَ الفضائلِ أنْ يكونَ عمَلُها عَسيرًا على النُّفوسِ؛ لأنَّها تُعاكِسُ الشَّهواتِ، ومِن ثَمَّ وُصِفَ أفضَلُ الرُّسلِ بـ(أُولي العزمِ)[٣].

- وإضافةُ ﴿عَزْمِ﴾ إلى ﴿ٱلْأُمُورِ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: مِن الأُمورِ العزْمِ. ووَصْفُ الأمورِ بـ(العزم) مِن الوصفِ بالمصدرِ؛ للمُبالَغةِ في تَحقُّقِ المعنى فيها. والإشارةُ بـ(ذلك) إلى الصَّبرِ والغُفرانِ المأخوذَينِ من ﴿صَبَرَ وَغَفَرَ﴾، والمُتحمِّلينِ لِضَميرِ (مَن) الموصولةِ؛ فيَكونُ صَوغُ المصدرِ مُناسِبًا لِمَا معه مِن ضَميرٍ، والتَّقديرُ: إنَّ صبْرَه وغَفْرَه لَمِن عَزْمِ الأمورِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال قبلَه في سُورةِ (لُقمانَ): ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]؛ فأكَّدَ الخبرَ باللَّامِ في سُورةِ (الشُّورى) في قولِه: ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، وترَكَه في سُورةِ (لُقمانَ)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٢، ١٢٣).

ووجْهُ هذه المُناسَبةِ: أنَّ الصَّبرَ على مَكروهٍ حدَثَ بظُلمٍ -كقتْلِ ولَدٍ- أشَدُّ مِن الصَّبرِ على مَكروهٍ حدَثَ بلا ظُلمٍ، كمَوتِ ولَدٍ، كما أنَّ العزْمَ على الأوَّلِ أَوكَدُ منه على الثَّاني، وما هنا مِن القَبيلِ الأوَّلِ؛ فكان أنسَبَ بالتَّوكيدِ، وما في (لُقمانَ) مِن القَبيلِ الثَّاني؛ فكان أنسَبَ بعدَمِه. كما أنَّ ما رغَّبَ اللهُ تعالَى فيه عبْدَه مِن الصَّبرِ على ما آلَمَ قلْبَه مِن جِنايةِ جانٍ عليه حتَّى يَغفِرَ لمَن ظلَمَه، ويَهَبَ له مِن القِصاصِ حقَّه؛ تَرغيبٌ فيما يَشُقُّ على الإنسانِ فِعلُه، إلَّا أنَّ اللهَ حسَّنَه بما وعَدَ مَن عَفا عمَّا يَجِبُ له مِن الأجرِ الذي ضَمِنَه؛ ففيه مع جَزيلِ الثَّوابِ إصلاحُ ما بيْن عَشيرتِه وعَشيرةِ الجاني عليه بإطفاءِ الثَّائرةِ عنهما، وإذا كان ذا مِن أصعبِ ما يَتحمَّلُه الإنسانُ، وجَبَ مِن تَوكيدِ الكلامِ فيه ما لا يجِبُ في غيرِه، فأُدخِلَتِ اللَّامُ على ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، على معنى: أنَّه من الأمورِ التي يَحتاجُ إلى تَوطينِ النَّفْسِ عليها، وتخيُّرِ أرفَعِها وأَعْلاها، وليْس كذلك ما في سُورةِ (لُقمانَ)، فأمَّا الموضعُ الَّذي أُبيحَ فيه الانتصافُ؛ فالصَّبرُ فيه أشَقُّ، وكَظْمُ الغَيظِ معه أشَدُّ، والكلامُ فيه إلى التَّوكيدِ أحوَجُ(١).



(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٥٨-١١٦٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٣-٢٢٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٩-٤٢٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٩-٥١٠).

الآيات (٤٤-٤٦)

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَرَدٍّ﴾: أي: رجْعةٍ أو رجوعٍ أو مرجِعٍ، وأصلُ (ردد): رَجْعُ الشَّيءِ[1].

﴿خَٰشِعِينَ﴾: أي: خاضِعينَ مُتذَلِّلينَ، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[2].

﴿طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾: أي: لا يَرفَعونَ أبصارَهم، بل يُسارِقونَ النَّظَرَ استِكانةً وذُلًّا. وطَرْفُ العَينِ: نَظَرُها. والعَرَبُ تَصِفُ الذَّليلَ بغَضِّ الطَّرْفِ، وأصلُ (طرف): يدُلُّ على حَدِّ الشَّيءِ وحَرْفِه، وأصلُ (خفي): يدُلُّ على سَترٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُقرِّرُ اللهُ تعالى أنَّه المنفردُ بالهدايةِ والإضلالِ، فيقولُ: ومَن يُضلِلْه اللهُ فليس

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٣)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ١٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٦)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٤٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٢) و(٣/ ٤٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٧١).

له وَليٌّ يَتولَّاه مِن بَعدِ إضلالِ اللهِ إيَّاه.

ثمَّ يخبِرُ عن حالِ الظَّالمينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: وترَى الظَّالمينَ -يا مُحمَّدُ- حينَ رُؤيةِ العَذابِ يومَ القيامةِ يَقولونَ: هل لنا وَسيلةٌ للرُّجوعِ إلى الدُّنيا لِنُطيعَ اللهَ؟!

وترَى الظَّالمينَ يومَ القيامةِ يُعرَضونَ على النَّارِ خاضِعينَ ذَليلينَ، يُسارِقونَ النَّظَرَ إلى النَّارِ مِن شِدَّةِ خَوفِهم وذُلِّهم!

وقال المُؤمِنونَ: إنَّ الخاسِرينَ هم الَّذين خَسِروا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ، ألَا إنَّ الظَّالِمينَ في عذابٍ دائِمٍ، وما كان لهم يومَ القيامةِ أولياءُ يَمنَعونَهم مِن عذابِ اللهِ.

ومَن يُضلِلْه اللهُ فما له مِن طَريقٍ للوُصولِ إلى الحَقِّ في الدُّنيا، ولا الجنَّةِ في الآخرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

أي: ومَن يُضلِلْه اللهُ عن طَريقِ الحَقِّ بسَبَبِ ظُلمِه، فليس له أيُّ وليٍّ يَتوَلَّاه فيَهديَه أو يَنصُرَه بعدَ إضلالِ اللهِ إيَّاه(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٣).
قال البِقاعي: (﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بَعدِ مُعامَلةِ اللهِ له مُعامَلةَ البَعيدِ، مِن وَكْلِه إلى نَفْسِه وغَيرِه مِن الخَلقِ في شَيءٍ مِن زَمانِ البُعدِ ولو قَلَّ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٤٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٤).

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾.

أي: وترى الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم -يا مُحمَّدُ- يقولونَ حينَ رُؤيةِ العَذابِ يومَ القيامةِ: هل لنا طريقٌ أو وسيلةٌ للرُّجوعِ إلى الدُّنيا؛ لِنَعمَلَ بطاعةِ اللهِ(١)؟

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ٤٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أثبَتَ رُؤيتَهم العذابَ؛ أثبَتَ دُنُوَّهم من مَحَلِّه، وبَيَّنَ حالَهم في ذلك الدُّنُوِّ(٢).

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾.

أي: وترَى الظَّالِمينَ يومَ القيامةِ يُعرَضونَ على النَّارِ قبْلَ دُخولِهم فيها ساكِنينَ خاضِعينَ في غايةِ الضَّعَةِ؛ لِما اعتراهم مِنَ الذُّلِّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩، ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٤، ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٣، ٣١٤).

قال ابن عاشور: (الخِطابُ في «تَرَى» لغيرِ مُعَيَّنٍ، أي: تناهتْ حالُهم في الظُّهورِ، فلا يختصُّ به مُخاطَبٌ، أو الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تسليةً له على ما لاقاه منهم مِن التَّكذيبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩).

والمرادُ بالظَّالِمينَ: المشركونَ باللهِ. ذكَره ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٩)، ((تفسير الرازي)) =

﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

أي: يُسارِقونَ النَّظَرَ إلى النَّارِ حينَ يُعرَضونَ عليها؛ مِن شِدَّةِ ذُلِّهم وخَوفِهم[(١)].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: وقال المُؤمِنونَ[(٢)]: إنَّ الخاسِرينَ في الحقيقةِ هم الَّذين خَسِروا أنفُسَهم

= (٢٧/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٤).

قال السعدي: (أي: ترى أجسامَهم خاشِعةً؛ للذُّلِّ الَّذي في قُلوبِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٢، ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٥).

قال ابن الجوزي: (﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ وفيه أربعةُ أقوالٍ:

أحدُها: مِن طَرْفٍ ذليلٍ، رواه العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال مجاهِدٌ. وقال الأخفَشُ: يَنظُرونَ مِن عَينٍ ضعيفةٍ. وقال غيرُه: «مِنْ» بمعنى «الباءِ».

والثَّاني: يُسارِقونَ النَّظَرَ، قاله قَتادةُ، والسُّدِّيُّ.

والثَّالثُ: يَنظُرون ببعضِ العَيْنِ، قاله أبو عُبَيدةَ.

والرَّابعُ: أنَّهم يَنظُرونَ إلى النَّارِ بقلوبِهم؛ لأنَّهم قد حُشِروا عُمْيًا، فلم يَرَوها بأعيُنِهم، حكاه الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٩). ويُنظر: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٥١٢)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٠١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٢).

وقال ابنُ عطيَّةَ عن القولِ الرَّابعِ: (وفي هذا التَّأويلِ تكلُّفٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣١).

(٢) قال القرطبي: (أي: يقولُ المؤمِنونَ في الجنَّةِ لَمَّا عايَنوا ما حَلَّ بالكُفَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦).

وقال ابن كثير: (أي: يقولونَ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥).

وقال ابن عاشور: (الظَّاهِرُ أنَّ المؤمِنينَ يَقولونَ هذا بمَسمَعٍ مِن الظَّالِمينَ، فيَزيدُ الظَّالِمينَ =

يومَ القيامةِ بحِرْمانِها مِن دُخولِ الجنَّةِ، واستِحقاقِها دُخولَ النَّارِ، وخَسِروا أهليهم بفِقْدانِهم في الآخِرةِ[(١)].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

أي: ألَا إنَّ الظَّالِمينَ في عَذابٍ مُستَمِرٍّ في النَّارِ، فلا يَنقَطِعُ ولا يُخفَّفُ عنهم أبَدًا[(٢)].

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ۝٤٦﴾.

= تَلهيبًا لِنَدامتِهم ومَهانتِهم وخِزْيِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

وخَسارةُ الأهلِ: قيل: معناها أنَّهم حُرِموا مِن أهليهم في الجنَّةِ، فصاروا لِغَيرِهم، فلو دَخَلوا الجنَّةَ أصابوا الأهلَ، فلمَّا دخلوا النَّارَ حُرِموا منهم. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤).

وقيل: خَسِروا أهليهم؛ لأنَّ الأهلَ إن كانوا في النَّارِ فلا انتِفاعَ بهم، وإن كانوا في الجنَّةِ فقد حِيلَ بيْنَه وبيْنَهم. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٤).

قال ابن عطية: (خُسرانُ الأهلِينَ: يحتمِلُ أن يُرادَ به أهلوهم الَّذين كانوا في الدُّنيا، ويحتمِلُ أن يُرادَ به أهلوهم الَّذين كانوا يَكونونَ لهم في الجنَّةِ لو دخَلوها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٩).

قيل: القائلُ هو اللهُ تعالى. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٩).

وقيل: يحتمِلُ أن يكونَ مِن قَولِ المؤمنينَ يومَئذٍ، فحكاه اللهُ عنهم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: هم في عَذابٍ دائمٍ، لا يَجِدونَ منه نَصيرًا، وهو ردٌّ لِمَزاعِمِهم أنَّ آلهتَهم تَنفَعُهم عندَ اللهِ[١].

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وما كان لهم يومَ القيامةِ أيُّ أولياءَ يَنصُرونَهم مِن عَذابِ اللهِ تعالى[٢].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾.

أي: ومَن يُضْلِلْه اللهُ عن طَريقِ الحَقِّ فما له مِن طَريقٍ للوُصولِ إلى الحقِّ في الدُّنيا، ولا الجنَّةِ في الآخرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦).

مِمَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: الثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٥).

ومِمَّن قال بأنَّ المعنى: ما له مِن خلاصٍ ونجاةٍ: النسفي، وابن كثير، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٠).

وقيل: المعنى: ليس له طريقٌ تَحصُلُ به الهدايةُ للحَقِّ. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابن جرير، والسمرقندي، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٧٢)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٦١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يُلِحَّ على اللهِ دائمًا أنْ يَهديَه مِن الضَّلالِ؛ فما دام الإضلالُ والهدايةُ بيدِ اللهِ فلْنَرجِعْ إليه، ولْنَلجَأْ إليه، ولْنسَألْه الهدايةَ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أنَّ العاصيَ قد خَسِرَ نفْسَه، وعلى حسَبِ مَعصيتِه تكونُ الخَسارةُ؛ لأنَّه لم يَستَفِدْ مِن وُجودِه في الدُّنيا شيئًا، ويتفرَّعُ على هذا أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يُحاسِبَ نفْسَه، ويَنظُرَ ماذا صَنَع، فإنْ رأى أنَّه قد مَلَأَ زمَنَه مِن الخَيرِ المقصودِ والوَسيلةِ فلْيَحمَدِ اللهَ، وإنْ رأى أنَّه أضاعَه فلْيَستَعتِبْ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ﴾ أنَّ مَن هداه اللهُ فقد تَوَلَّاه؛ لأنَّه لَمَّا نفَى الوَلايةَ عنِ الظَّالِمينَ دَلَّ على أنها تَثبُتُ للمُؤمِنينَ، وبذلك جاء التَّصريحُ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3] [البقرة: ٢٥٧].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ صَريحٌ في جوازِ الإضلالِ مِنَ الله تعالى، وفي أنَّ الهدايةَ ليست في مَقدورِ أحدٍ سِوى اللهِ تعالى[4]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٠، ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٨).

وفيه حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والقَدَريَّةِ المُنْكِرينَ أنَّ الهِدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ حيث أخبَرَ سُبحانَه بالإضلالِ عن نَفْسِه لهم، وأمَرهم على إثْرِ ذلك بالاستِجابةِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ أنَّ المُستكبِرينَ على الحَقِّ المُعانِدينَ يُجازَونَ بعِقابٍ يُناسِبُ مَعصيتَهم؛ وَجْهُ ذلك: أنَّهم يُعرَضونَ على النَّارِ خاشِعينَ ذَليلينَ، ومَعلومٌ أنَّ العُقوبةَ بالذُّلِّ مُناسِبةٌ للمَعصيةِ بالاستِكبارِ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ فيه سؤالٌ: أليس قد قال اللهُ تعالى في صِفةِ الكفَّارِ: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا﴾، فكيف قال هاهنا: إنَّهم يَنظُرونَ مِن طَرْفٍ خفِيٍّ؟

والجوابُ عن هذا مِن أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذا العمَى يكونُ في مبدأِ الأمرِ، ثُمَّ يَرُدُّ اللهُ تعالى إليهم أبصارَهم، فيَرَوْنَ النَّارَ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالعمَى أنَّهم لا يرَوْنَ شيئًا يَسُرُّهم، كما أنَّهم كانوا في الدُّنْيا لا يَسْتَبْصِرونَ، فنُزِّل ما يُبْصِرونَه مَنزِلةَ العَدَمِ؛ لعَدَمِ الانتِفاعِ به.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ هذه الآيةَ في قومٍ، وتلك في قومٍ آخَرينَ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الكُفَّارَ يومَ القيامةِ يَنظُرونَ بعُيونٍ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٨)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨).

خَفيَّةٍ ضَعيفةِ النَّظَرِ، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يُتوهَّمُ منها خِلافُ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق: ٢٢]!

الجوابُ مِن وجهَين:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ قَولَه: ﴿فَبَصَرُكَ﴾ أي: عِلمُك ومعرفتُك بها قَويَّةٌ، مِن قَولِهم (بَصُرَ بكذا) أي: عَلِمَ، وليس المرادُ رؤيةَ العَينِ، ويدُلُّ على ذلك قَولُه تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾[(١)].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ قَولَه: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ أي: تُدرِكُ به ما عَميتَ عنه في دارِ الدُّنيا، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا﴾ الآيةَ [السجدة: ١٢]، وقَولُه تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ الآيةَ [الكهف: ٥٣]، وقَولُه: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[(٢)] [مريم: ٣٨].

٦- أنَّ الظَّالِمينَ يَلحَقُهم الذُّلُّ ظاهِرًا وباطِنًا؛ الباطِنُ في قَولِه تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾، والظَّاهِرُ في قَولِه تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ بعْدَ أنْ حَكى أصنافًا مِن كُفرِ المشرِكينَ، وعِنادِهم وتَكذيبِهم، ثمَّ ذكَّرَهم بالآياتِ الدَّالَّةِ على انفِرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ وما في مَطاوِيها مِن النِّعَمِ، وحذَّرَهم مِن الغُرورِ بمَتاعِ الدُّنيا الزائلِ؛ أَعقبَه بقولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، وهو مَعطوفٌ على قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢١).

يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ [الشورى: ٤٢]، والمعنى: أنَّ فيما سمِعْتُم هِدايةً لِمَن أراد اللهُ له أنْ يَهتدِيَ، وأمَّا مَن قدَّرَ اللهُ عليه بالضَّلالِ فما له مِن وَليٍّ غيرُ اللهِ يَهْديه أو يُنقِذُه، كقولِه: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴾ [الكهف: ١٧]، فالمرادُ نفْيُ الوليِّ الَّذي يُصلِحُه ويُرشِدُه؛ فالمرادُ هنا ابتداءً مَعنًى خاصٌّ مِن الوَلايةِ(١).

- قولُه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ نفْيُ الوليِّ كِنايةٌ عن نَفيِ أسبابِ النَّجاةِ عن الضَّلالةِ وعَواقبِ العُقوبةِ عليها؛ لأنَّ الوليَّ مِن خَصائصِه نفْعُ مَوْلاهُ بالإرشادِ والانتشالِ، فنَفْيُ الوليِّ يدُلُّ بالالتزامِ على احتياجٍ إلى نَفعِه مَوْلاه، وذلك يَستلزِمُ أنَّ مَوْلاه في عَناءٍ وعَذابٍ، فهذه كِنايةٌ تلويحيَّةٌ، وقد جاء صريحُ هذا المعنى في قولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ الآتي في هذه السُّورةِ(٢).

- وفيه تَحقيرٌ لأمْرِ الكفَرةِ(٣).

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ صِلةٌ للتَّوكيدِ. و(بَعْد) هنا بمعنى (دونَ) أو (غير)، عُبِّر بلفظِ (بعد) لمعنى (دون)؛ لأنَّ (بعد) مَوضوعٌ لِمَن يَخلُفُ غائبًا في مكانِه أو في عَملِه؛ فشَبَّهَ ترْكَ اللهِ الضَّالَّ في ضلالِه بغَيبةِ الوليِّ الَّذي يَترُكُ مَوْلاه دونَ وصيٍّ ولا وكيلٍ لِمَوْلاه(٤).

- وقولُه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ﴾، وبعدَه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٢٣، ١٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٤).

سَبِيلٍ﴾[الشورى: ٤٦]، ليس بتَكرارٍ؛ لأنَّ المعنى: ليس له مِن هادٍ ولا مَلْجأٍ[(١)].

- وكذلك قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾، وهذا تَفصيلٌ وبيانٌ لِما أُجمِلَ في الآيتَينِ المعطوفِ عليهما، وهما قولُه: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ [الشورى: ٣٥]، وقولُه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾، والمعنى: أنَّهم لا يَجِدونَ مَحيصًا ولا وَليًّا، فلا يَجِدونَ إلَّا النَّدامةَ على ما فات، فيقولوا: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾[(٢)].

- والخِطابُ في ﴿وَتَرَى﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ، أو الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمقصودُ: الإخبارُ بحالِهم أوَّلًا، والتَّعجيبُ منه ثانيًا، فلم يقُلْ: والظالمونَ لَمَّا رأَوُا العذابَ يقولونَ، وإنَّما قيل: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للاعتبارِ بحالِهم[(٣)].

- ومَجيءُ فِعلِ ﴿رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ بصيغةِ الماضي؛ للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِه[(٤)].

- والاستِفهامُ بحَرْفِ ﴿هَلۡ﴾ إنكاريٌّ في معنى النَّفيِ[(٥)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٥).

- قولُه: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ فيه إعادةُ فِعلِ (تَرى)؛ للاهتمامِ بهذه الرُّؤيةِ وتَهويلِها[١].

- والعَرْضُ: أصلُه إظهارُ الشَّيءِ وإراءَتُه للغَيرِ، وعُبِّرَ بلفظِ (يُعرَضونَ) لمعنى: يُمَرُّ بهم مَرًّا عاقبتُه التَّمكُّنُ منهم، والحُكمُ فيهم، فكأنَّ جهنَّمَ إذا عُرِضوا عليها تَحكُمُ بما أعَدَّ اللهُ لهم مِن حريقِها[٢].

- وبُنِي فِعلُ ﴿يُعْرَضُونَ﴾ للمَجهولِ؛ لأنَّ المقصودَ حُصولُ الفعلِ، لا تَعيينُ فاعِلِه[٣].

- قولُه: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ حرْفُ ﴿مِنَ﴾ للتَّعليلِ، أي: خاشعينَ خشوعًا ناشئًا عن الذُّلِّ، أي: ليس خشوعُهم لِتَعظيمِ اللهِ والاعترافِ له بالعُبوديَّةِ؛ لأنَّ ذلك الاعتقادَ لم يكنْ مِن شأنِهم في الدُّنيا[٤].

- وفي قولِه: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ تَجسيدٌ بارعٌ، وتَصويرٌ رائعٌ لحالتِهم الفظيعةِ، لِمَن يقِفُ أمامَ الموتِ الَّذي يَنتظِرُه والسَّيفُ مُصْلَتٌ على رأسِه، يُرأْرِئُ -أي: يُحرِّكُ الحَدَقَةَ، أو يَقلِبُها ويُحدِّدُ النَّظَرَ- بأجْفانِه ويُحرِّكُها تحريكًا ضعيفًا خَفيًّا يُمكِّنُه مِن مُسارَقةِ النَّظرِ؛ فإنَّ مَن يَنظُرُ إلى أمْرٍ مَكروهٍ يَستهوِلُ أمْرَه، ويَزْوي ناظِرَه عنه، بَيْدَ أنَّه لا يَتمالَكُ دونَ أنْ يَرمُقَ ما يَكرَهُه وما يَتوقَّعُ حُدوثَه رَمْقًا سَريعًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٩).

- وحُذِف مَفعولُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ للتَّعميمِ، أي: يَنظُرونَ العذابَ، ويَنظُرونَ أهوالَ الحشرِ، ويَنظُرونَ نَعيمَ المؤمنينَ مِن طَرْفٍ خفيٍّ[(١)].

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ يَترجَّحُ أنَّ الواوَ للحالِ لا للعطْفِ، والجُملةُ حالٌ مِن ضَميرِ الغَيبةِ في (تَراهم)، أي: تَراهُم في حالِ الفظاعةِ الملتبِسينَ بها، وتراهُم في حالِ سَماعِ الكلامِ الذَّامِّ لهم الصَّادرِ مِن المؤمنينَ إليهم في ذلك المَشهَدِ، وحُذِفتْ (قد) مع الفعلِ الماضي؛ لِظُهورِ قَرينةِ الحالِ[(٢)].

- وصيغةُ الماضي ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِه[(٣)].

- وهذا الخبرُ مُستعمَلٌ في إظهارِ المَسَرَّةِ والبَهجةِ بالسَّلامةِ ممَّا لَحِقَ الظَّالِمينَ، أي: قالوه تَحدُّثًا بالنِّعمةِ، واغتباطًا بالسَّلامةِ، يقولُه كلُّ أحدٍ منهم، أو يقولُه بعضُهم لبعضٍ[(٤)].

-وإنَّما جيءَ بحرْفِ (إنَّ) معَ أنَّ القائلَ لا يَشُكُّ في ذلك، والسَّامعَ لا يشُكُّ فيه؛ للاهتِمامِ بهذا الكلامِ؛ إذ قد تَبيَّنتْ سَعادتُهم في الآخرةِ، وتَوفيقُهم في الدُّنيا، بمُشاهَدةِ ضِدِّ ذلك في مُعانِديهم[(٥)].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أي: لا غيرُهم، والمعنى: أنَّهم الأكمَلونَ في الخُسرانِ، وتُسمَّى (أل) هذه دالَّةً على معنى الكَمالِ، وهو مُستفادٌ مِن تَعريفِ الجُزأينِ المُفيدِ للقَصرِ الادِّعائيِّ[(٦)]؛ حيثُ نُزِّلَ خُسرانُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) تقدم تعريفه (ص: ٤٨٩).

غيرِهم مَنزِلةَ عَدمِ الخُسرانِ؛ فالمعنى: لا خُسرانَ يُشبِهُ خُسرانَهم، فليس في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ كما تُوُهِّمَ[1].

- قولُه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿خَسِرُوٓا۟﴾، واختِصاصُ ذِكرِ القِيامةِ للتَّهويلِ، وأنَّ هذا الخَسارَ لا خَسارَ بعدَه[2].

- وجُملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ تَذييلٌ للجُمَلِ الَّتي قبْلَها مِن قولِه: ﴿وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [الشورى: ٤٤] الآياتِ؛ لأنَّ حالةَ كَونِهم في عذابٍ مقيمٍ أعَمُّ مِن حالةِ تلهُّفِهم على أنْ يُرَدُّوا إلى الدُّنيا، وذُلِّهم وسماعِهم الذَّمَّ[3].

- وإعادةُ لفظِ ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، اقتَضاهُ أنَّ شأنَ التَّذييلِ أن يكونَ مُستقِلَّ الدَّلالةِ على معناهُ؛ لأنَّه كالمَثَلِ[4].

- وافتُتِحَتِ الجُملةُ بحرفِ التنبيهِ ﴿أَلَآ﴾؛ لكثرةِ ذلك في التَّذييلاتِ لأهَمِّيَّتِها[5].

- و(المقيم): الَّذي لا يَرتحِلُ، ووُصِف به العذابُ تشبيهًا للمُستمِرِّ الدَّائمِ بالَّذي اتَّخَذ دارَ إقامةٍ لا يبرَحُها[6].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٨، ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٤٥]، أي: هم في عَذابٍ دائمٍ لا يَجِدونَ منه نصيرًا، وهو ردٌّ لِمَزاعِمِهم أنَّ آلهتَهم تَنفَعُهم عِندَ اللهِ[1].

- وجُملةُ ﴿يَنصُرُونَهُم ﴾ صِفةٌ لـ﴿أَوْلِيَآءَ ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المرادَ هنا وَلايةٌ خاصَّةٌ، وهي وَلايةُ النَّصرِ[2].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ صِلةٌ في النَّفْيِ؛ لِتَأكيدِ نفْيِ الوليِّ لهم[3].

- وقولُه: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ لـ﴿أَوْلِيَآءَ ﴾، وهي صِفةٌ كاشفةٌ. و﴿مِّن ﴾ أيضًا صِلةٌ لِتأكيدِ تعلُّقِ ظرفِ ﴿دُونِ ﴾ بالفعلِ[4].

- وقولُه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم ﴾[5].

- و﴿سَبِيلٍ ﴾ نَكرةٌ في سِياقِ النفيِ؛ فيَعُمُّ كلَّ سَبيلٍ مُخلِّصٍ مِن الضَّلالِ ومِن آثارِه، والمقصودُ هنا ابتِداءً هو سبيلُ الفِرارِ مِن العذابِ المُقيمِ كما يَقتضيه السِّياقُ، وبذلك لم يكُنْ ما هنا تأكيدًا لِما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾[6] [الشورى: ٤٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤٧-٥٠)

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ
يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ
إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ
لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ
عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾: أي: لا ردَّ له، فلا شَيءَ يَرُدُّ مجيئَه، ولا يَقدِرُ أحدٌ على دَفْعِه، والرَّدُّ: صرفُ الشَّيءِ بذاتِه، أو بحالةٍ مِن أحوالِه، وأصلُ (ردد): رَجْعُ الشَّيءِ[(١)].

﴿نَّكِيرٍ﴾: أي: مُنكِرٍ يُغيِّرُ ما بكم، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرفةِ[(٢)].

﴿حَفِيظًا﴾: أي: رَقيبًا عليهم، تَحفَظُ عليهم أعمالَهم، وتُحصيها، وتُحاسِبُهم عليها، وأصلُ (حفظ): يدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ[(٣)].

﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾: أي: يَقرِنُهم، فيَجعَلُ بعضَهم بَنينَ وبعضَهم بناتٍ، وأصلُ (زوج):

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٥).

يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[1].

﴿عَقِيمًا﴾: أي: لا يُولدُ له مِن رَجُلٍ أو امرأةٍ، والعُقْمُ أصلُه القطعُ، ومنه قيل: المُلكُ عقيمٌ؛ لأنَّه يُقطَعُ فيه الأرحامُ بالقتلِ والعقوقِ، وأصلُ (عقم): يدُلُّ على غموضٍ وضيقٍ وشدَّةٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى بالاستِجابةِ له قبْلَ مجيءِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: استَجيبوا -أيُّها النَّاسُ- لرَبِّكم فيما يَدْعوكم إليه رُسُلُه مِن قبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الَّذي لا شَيءَ يَمنَعُ مَجيئَه بعدَ أن حكَم اللهُ به، وليس لكم يومَئذٍ مَكانٌ تَلجَؤون إليه، وليس لكم يومَئذٍ مُنكِرٌ يُنكِرُ ما نَزَل بكم، ويَدفَعُه عنكم، وما لكم مِن إنكارٍ لِما جُوزيتُم به.

ثمَّ يُسلِّي الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: فإنْ أعرَضَ المُشرِكونَ فما أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- رَقيبًا عليهم؛ فما عليك إلَّا البلاغُ.

ثمَّ يذكرُ سبحانَه حالَ الإنسانِ في النِّعمةِ والبلاءِ، فيقولُ: وإنَّا إذا أصَبْنا الإنسانَ بنِعمةٍ مِنَّا فَرِحَ بها واطمأنَّ، وإنْ تُصِبْهم شِدَّةٌ وبَلاءٌ بسَبَبِ ذُنوبِهم، فإنَّ الإنسانَ جَحودٌ لنِعَمِ اللهِ عليه.

ثمَّ يختِمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ بذِكرِ مَظاهِرِ قُدرتِه، ونفاذِ مشيئتِه، وكمالِ حكمتِه، فيقولُ: لله وَحْدَه مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، يَخلُقُ اللهُ ما يَشاءُ، ويُعطي

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه إناثًا، ويُعطي لِمَن يَشاءُ ذُكورًا، أو يَقرِنُ لهم بيْنَ الذُّكورِ والإناثِ، ويَجعَلُ اللهُ مَن يَشاءُ منهم عَقيمًا لا يُولَدُ له؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، قَديرٌ على كُلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالَى ما يكونُ في يومِ القيامةِ مِن الأهوالِ والأمورِ العِظامِ الهائلةِ؛ حَذَّر مِنه، وأمَر بالاستِعدادِ له[١].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أطنَبَ في الوَعدِ والوَعيدِ؛ ذكَرَ بَعدَه ما هو المقصودُ، فقال[٢]:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أَجيبوا -أيُّها النَّاسُ- ربَّكم، فآمِنوا به وأطيعوه واتَّبِعوا رَسولَه مِن قبْلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الَّذي لا شَيءَ يَرُدُّه ويَمنَعُ مَجيئَه بعدَ أن حكَم اللهُ به[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۞ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧، ٨].

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣١).

أي: ليس لكم أيُّ مَكانٍ تلجؤونَ إليه هَرَبًا مِن عَذابِ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢].

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

أي: وما لكم مِن إنكارٍ لِما جُوزيتُم به، بل تَعترِفونَ بذُنوبِكم، ولا أحدَ يُنكِرُ ما نزَل بكم، ويَدفَعُه عنكم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٦).

قال الرَّسْعَني: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ يحتملُ وجهَين:

أحدهما: مِن مُنكِرٍ يُنكِرُ ويُغيِّرُ ما بكم. قاله ابنُ السَّائب.

الثَّاني: ما لكم مِن إنكارٍ، أي: لا تَقدِرونَ أن تُنكِروا شيئًا. قاله جماعةٌ، منهم الزَّجَّاجُ. ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٩١).

ممَّن اختار الوجهَ الأوَّلَ: البغويُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرَّازي، واختاره ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٦).

قال ابن جرير: (﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ يقولُ: ولا أنتم تَقْدِرونَ لِما يَحِلُّ بكم مِن عِقابِه يَومَئذٍ على تغييرِه، ولا على انتِصارٍ منه إذا عاقَبَكم بما عاقَبَكم به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٥).

وممَّن اختار الوجهَ الثَّانيَ: الزَّجَّاجُ، والسمعاني، والزمخشري، والشوكاني، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٢).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: البِقاعي، فقال: (﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: مِن إنكارٍ يمكنُكم به مِن النَّجاةِ؛ لأنَّ الحَفَظةَ يَشهَدون عليكم، فإن صدَّقْتُموهم وإلَّا شَهِدتْ عليكم أعضاؤُكم =

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أنهَى ما قدَّمه في قَولِه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ نهايتَه، ودَلَّ عليه وعلى كُلِّ ما قادَتْه الحِكمةُ في حَيِّزِه، حتَّى لم يَبقَ لأحدٍ شُبهةٌ في شَيءٍ مِن الأشياءِ؛ كان ذلك سَبَبًا لِتَهديدِهم على الإعراضِ عنه، وتسليةِ رَسولِهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال مُعرِضًا عن خِطابِهم؛ إيذانًا بشَديدِ الغَضَبِ[١]:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾.

أي: فإنْ أعرَضَ المُشرِكونَ عن الاستِجابةِ لِرَبِّهم فما أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- رَقيبًا عليهم تَحفَظُ أعمالَهم، وتُحاسِبُهم عليها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

= وجُلودُكم، ولا لكم مِن أحدٍ يُنكِرُ شيئًا ممَّا تُجازونَ به؛ لِيُخلِّصَكم منه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٤٧، ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٦).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: فإنْ أعرَضوا فلَسْتَ مُقصِّرًا في دَعوتِهم، ولا عليك تَبِعةُ صَدِّهم؛ إذ ما أرسَلْناك حفيظًا عليهم... قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ دلَّ على نَفيِ التَّبِعةِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن إعراضِهم، وأنَّ الإعراضَ هو الإعراضُ عن دَعوتِه، فاستُفيدَ أنَّه قد بلَّغ الدَّعوةَ، ولولا ذلك ما أثبَتَ لهم الإعراضَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٣).

﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾.

أي: ما عليك -يا مُحمَّدُ- إلَّا أن تُبلِّغَ النَّاسَ ما أمَرَك اللهُ بتَبليغِه مِن الرِّسالةِ، وليس عليك هدايتُهم ولا حِسابُهم(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [المائدة: ٩٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾.

أي: وإنَّا إذا أعطَيْنا الإنسانَ نِعمةً مِنَّا -كالغِنَى والصِّحَّةِ وغيرِ ذلك- فَرِح بها واطمأَنَّ، وأعرَض عن اللهِ المُنعِمِ بها، فلم يَشكُرْه عليها(٢)!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣١).

قال ابن عاشور: (اختَلَفت مَحامِلُ المفَسِّرين للآيةِ؛ فمِنهم مَن حمَلَها على خُصوصِ الإنسانِ الكافِرِ باللهِ مِثلُ الزمخشريِّ والقرطبيِّ والطِّيبي. ومنهم مَن حمَلَها على ما يَعُمُّ أصنافَ النَّاسِ مِثلُ الطَّبَريِّ والبَغَويِّ والنَّسَفيِّ وابنِ كثير. ومنهم مَن حمَلَها على إرادةِ المعنيَين؛ على أنَّ أوَّلَهما هو المقصودُ، والثَّاني مُندَرِجٌ بالتَّبَعِ، وهذه طريقةُ البَيضاويِّ وصاحبِ «الكشف». ومنهم مَن عَكَس، وهي طريقةُ الكَوَاشي في «تلخيصِه»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤).

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ [الروم: ٣٦].

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾.

أي: وإنْ تُصِبِ النَّاسَ شِدَّةٌ وبَلاءٌ بسَبَبِ ذُنوبِهم، فإنَّ الإنسانَ جَحودٌ لِما تقدَّمَ مِن نِعَمِ الله عليه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إذاقةَ الإنسانِ الرَّحمةَ، وإصابتَه بضِدِّها؛ أتْبَع ذلك بقَولِه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والمقصودُ منه ألَّا يَغتَرَّ الإنسانُ بما مَلَكَه مِن المالِ والجاه، بل إذا عَلِمَ أنَّ الكُلَّ مِلكُ اللهِ ومُلكُه، وأنَّه إنَّما حَصَل ذلك القَدْرُ تحتَ يَدِه لأنَّ اللهَ تعالى أنعَمَ عليه به؛ فحِينَئذٍ يَصيرُ ذلك حامِلًا له

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٢).
قال ابن عاشور: (شمِل وَصْفُ ﴿كَفُورٌ﴾ ما يَشملُ كُفرانَ النِّعمةِ، وهما [أي: الكفرُ بالله وكفرُ النِّعمةِ] مُتلازِمانِ في الأكثرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٦).

على مَزيدِ الطَّاعةِ والخِدمةِ، وأمَّا إذا اعتَقَد أنَّ تلك النِّعَمَ إنَّما تَحصُلُ بسَبَبِ عَقْلِه وَجِدِّه واجتِهادِه، بَقِيَ مَغرورًا بنَفْسِه، مُعرِضًا عن طاعةِ اللهِ تعالى(١).

وأيضًا لَمَّا قدَّم اللهُ سُبحانَه في هذه السُّورةِ أنَّ له التَّصَرُّفَ التَّامَّ في عالَمِ الخَلقِ، بالأجسامِ المَرئيَّةِ، وفي عالَمِ الأمرِ، بالأرواحِ الحِسِّيَّةِ والمعنويَّةِ القائمةِ بالأبدانِ والمُدَبِّرةِ للأديانِ، وغيرِ ذلك مِن بَديعِ الشَّأنِ؛ فقال في افتِتاحِ السُّورةِ: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٣]، وأتْبَعَه أشكالَه، إلى أنْ قال: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾ [الشورى: ٢٤] الآيةَ، ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا ﴾ [الشورى: ١١] الآيةَ، ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الزمر: ٦٣]، ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ١٩]، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [الشورى: ٢٠]الآيةَ، ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الشورى: ٢٧]، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴾ [الشورى: ٣٢] الآيةَ، إلى أنْ ذَكَر أحوالَ الآخِرةِ في قَولِه: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ ﴾[الشورى: ٤٤] الآياتِ، وخَتَم بتصَرُّفِه المُطلَقِ في الإنسانِ مِن إنعامٍ وانتقامٍ، وما له مِنَ الطَّبعِ المُعْوَجِّ مع ما وَهَبه له مِنَ العَقلِ المُقيمِ في أحسَنِ تقويمٍ، فدَلَّ ذلك على أنَّ له التَّصَرُّفَ التَّامَّ مِلكًا ومَلَكوتًا، خَلْقًا وأمرًا- أتْبَعَه الدَّليلَ على أنَّ تصَرُّفَه ذلك على سَبيلِ المِلكِ والقَهرِ إيجادًا وإعدامًا، إهانةً وإكرامًا، فقال(٢):

﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: للهِ وَحْدَه مُلْكُ السَّمواتِ ومُلكُ الأرضِ، وله وَحْدَه التَّصَرُّفُ في سُلطانِه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥١، ٣٥٢).

الواسِعِ بما يَشاءُ[١].

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: يَخلُقُ اللهُ ما يَشاءُ خَلْقَه[٢].

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾.

أي: يُعطي اللهُ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه إناثًا فقط[٣].

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾.

أي: ويُعطي اللهُ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه ذُكورًا فقط[٤].

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٩).

قال السعدي: (هذه الآيةُ فيها الإخبارُ عن سَعةِ مُلكِه تعالى، ونُفوذِ تصَرُّفِه في المُلكِ في الخَلقِ لِما يشاءُ، والتَّدبيرِ لجَميعِ الأُمورِ، حتَّى إنَّ تدبيرَه -تعالى- مِن عُمومِه أنَّه يَتناوَلُ المخلوقةَ عن الأسبابِ الَّتي يُباشِرُها العِبادُ؛ فإنَّ النِّكاحَ مِن الأسبابِ لِوِلادةِ الأولادِ، فاللهُ تعالى هو الَّذي يُعطيهم مِنَ الأولادِ ما يَشاءُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٩، ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٨)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

أي: أو يَقرِنُ اللهُ لِمَن يشاءُ مِن خَلقِه بيْنَ الذُّكورِ والإناثِ[١].

﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾.

أي: ويَجعَلُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن الأزواجِ عَقيمًا لا يُولَدُ له[٢].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بالِغُ العِلمِ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه تعالى بما يَخلُقُه، وعِلمُه بمَن يَستحِقُّ كُلَّ قِسمٍ مِن الأقسامِ المتقَدِّمِ ذِكرُها؛ بالِغُ القُدرةِ على كُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك قُدرتُه على خَلْقِ ما يَشاءُ[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ فيه ذَمُّ الأمَلِ، والأمرُ بانتِهازِ الفُرصةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨، ١٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٤٠، ٣٤١).

قال القرطبي: (قال مجاهِدٌ: هو أن تَلِدَ المرأةُ غُلامًا ثمَّ تَلِدَ جاريةً، ثمَّ تَلِدَ غُلامًا ثمَّ تَلِد جاريةً. وقال محمَّدُ ابنُ الحَنَفيَّةِ: هو أن تَلِدَ تَوْءَمًا؛ غلامًا وجاريةً). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٨).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: البِقاعي، فقال: (﴿ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا﴾ مُجتَمِعَينِ في بَطنٍ ومُنفرِدَينِ). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٩).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ خَلْقَه ما يشاءُ ليس خَلقًا مُهمَلًا عَريًّا عن الحِكمةِ؛ لأنَّه واسِعُ العِلمِ، لا يَفوتُه شَيءٌ مِن المعلوماتِ؛ فخَلْقُه الأشياءَ يجري على وَفقِ عِلمِه وحِكمتِه، وهو قديرٌ نافِذُ القُدرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٩).

في كُلِّ عَمَلٍ يَعرِضُ للعَبدِ؛ فإنَّ للتَّأخيرِ آفاتٍ[١]، فالإنسانُ لا يَدْري متى يُفاجِئُه الموتُ، وإذا فاجَأه الموتُ انقطعَ كلُّ عملٍ، كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إذا مات الإنسانُ انقطعَ عمَلُه))[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾ تسليةٌ للدُّعاةِ مِن بَعدِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فالدَّاعي عليه البلاغُ، وليس عليه أنْ يَهديَ النَّاسَ -ولا يُمكِنُه ذلك-، لكنَّ بعضَ الدُّعاةِ إذا لم يَجِدْ مُجيبًا لدعوتِه أُصيبَ باليأسِ، واستحسرَ، وتَرَكَ الدَّعوةَ! وهذا غلَطٌ، فعلى الدَّاعي أنْ يَدعوَ إلى الله وإن لم يَستجِبْ له أحدٌ، وألَّا ييأسَ، وإذا كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أخبَرَنا بأنَّه رأى النَّبيَّ وليسه معه أحدٌ[٣]؛ فإذا كان الأنبياءُ قد لا يُستجابُ لهم؛ فكيفَ بنا نحن[٤]؟!

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ يُبيِّنُ أنَّ الإنسانَ إذا فاز بهذا القَدرِ الحَقيرِ الَّذي حَصَل في الدُّنيا، فإنَّه يَفرَحُ بها، ويَعظُمُ غُرورُه بسَبَبِها، ويقَعُ في العُجبِ والكِبْرِ، ويَظُنُّ أنَّه فاز بكُلِّ المُنى، ووصَل إلى أقاصي السَّعاداتِ! وهذه طريقةُ مَن يَضعُفُ اعتِقادُه في سَعاداتِ الآخِرةِ، وهذه الطَّريقةُ مُخالِفةٌ لِطَريقةِ المؤمنِ الَّذي لا يَعُدُّ نِعَمَ الدُّنيا إلَّا كالوُصْلةِ إلى نِعَمِ الآخِرةِ[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فيه أنَّ الأولادَ هِبةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، والهِبةُ: هي العَطِيَّةُ بلا عِوَضٍ، وأنَّه لا اختيارَ للمرءِ بالنِّسبةِ للأولادِ؛ حيثُ جُعِل الأمرُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر ما أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩).

راجعًا إلى مشيئتِه تبارَك وتعالَى[١]، فالأولادُ جميعًا مِن الذُّكورِ والإناثِ مواهِبُ اللهِ تعالى وهداياه، فيَجِبُ أن يَقبَلوها منه قَبولَ الهدايا والهِباتِ على الشُّكرِ له والمِنَّةِ[٢]، فما قَدَّره اللهُ بيْنَ الزَّوجينِ مِن الوَلَدِ فقد وهَبَهما إيَّاه، وكفَى بالعَبدِ تعرُّضًا لِمَقتِه أن يَتسَخَّطَ ما وَهَبه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ رأفةُ اللهِ تبارك وتعالى بعِبادِه؛ حيثُ يُنذِرُهم بعذابِه قبْلَ الوُقوعِ، ولا شَكَّ أنَّ هذا مِن رَحمتِه ورأفتِه بهم، وإلَّا لَتَركهم يَفعَلونَ ما يَشاؤُونَ حتَّى يَنزِلَ بهم العَذابُ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ليس حفيظًا على الأُمَّةِ؛ لا في حياتِه ولا بعدَ مماتِه، وعلى هذا فلا يُستَغاثُ به بعدَ مَوتِه، ولا يُطلَبُ منه الهِدايةُ، وإنَّما الهدايةُ مِن عندِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٥].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ عبَّرَ سُبحانَه فيهنَّ بلَفظِ (الهِبةِ)؛ لأنَّ الأوهامَ العاديَّةَ قد تكتَنِفُ العَقلَ، فتَحجُبُه عن تأمُّلِ محاسِنِ التَّدبيراتِ الإلهيَّةِ، وتَرمي به في مَهاوي الأسبابِ الدُّنيويَّةِ، فيَقَعُ المُسلِمُ مع إسلامِه في مُضاهاةِ الكُفَّارِ في كراهةِ البَناتِ، وفي وادي الوَأدِ بتَضييعِهنَّ أو التَّقصيرِ في حُقوقِهنَّ، وتنبيهًا على أنَّ الأُنثَى نِعمةٌ، وأنَّ نِعمَتَها لا تَنقُصُ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٥).

نِعمةِ الذِّكرِ، ورُبَّما زادَتْ، وإيقاظًا مِن سِنَةِ الغَفلةِ(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال في إعطاءِ الإناثِ وَحْدَهنَّ، وفي إعطاءِ الذُّكورِ وَحْدَهم بلَفظِ (الهِبةِ)، فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، وقال في إعطاءِ الصِّنفَينِ معًا: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾؟

الجَوابُ: أنَّ كُلَّ شَيئَينِ يُقرَنُ أحَدُهما بالآخَرِ فهما زَوجانِ، وكُلُّ واحِدٍ منهما يُقالُ له: (زَوجٌ)، والكِنايةُ في ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾ عائِدةٌ على الإناثِ والذُّكورِ الَّتي في الآيةِ الأُولى، والمعنى: يَقرِنُ الإناثَ والذُّكورَ، فيَجعَلُهم أزواجًا(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ تمامُ قُدرةِ اللهِ تبارك وتعالى؛ حيثُ خَلَقَ مِن هذه النُّطفةِ وهي واحِدةٌ؛ خَلَقَ منها ذُكورًا خُلَّصًا، وإناثًا خُلَّصًا، وأصنافًا ذُكورًا وإناثًا، مع أنَّ الماءَ واحِدٌ، ولكِنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى على كلِّ شيءٍ قَديرٌ(٣)، وأيضًا لَمَّا استوى البَشَرُ في الإنسانيَّةِ والنِّكاحِ الَّذي هو سببُ الولادةِ، واختلفتْ أصنافُ أولادِهم؛ كان ذلك أدَلَّ دليلٍ على أنَّه لا اختيارَ لأحَدٍ معه، وأنَّ الأسبابَ لا تؤثِّرُ أصلًا إلَّا به(٤).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا﴾ قيل: عبَّرَ في الذَّكرِ بما هو أبلَغُ في الكَثرةِ؛ تَرغيبًا في سُؤالِه، والخُضوعِ لديه رجاءَ نَوالِه(٥).

٧- قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٥٥).

عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ هذا المقامُ شَبيهٌ بقَولِه تعالى عن عيسى عليه السَّلامُ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] أي: دَلالةً لهم على قُدرتِه تعالى وتقَدَّس؛ حيث خَلَق الخَلْقَ على أربعةِ أقسام؛ فآدَمُ عليه السَّلامُ مخلوقٌ مِن تُرابٍ لا مِن ذَكَرٍ ولا أُنثَى، وحوَّاءُ عليها السَّلامُ مخلوقةٌ مِن ذَكَرٍ بلا أُنثى، وسائِرُ الخَلقِ سِوى عيسى عليه السَّلامُ مِن ذَكَرٍ وأنثى، وعيسى عليه السَّلامُ مِن أُنثَى بلا ذَكَرٍ؛ فتَمَّت الدَّلالةُ بخَلقِ عيسى بنِ مَريمَ عليهما السَّلامُ؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، فهذا المقامُ في الآباءِ، والمقامُ الأوَّلُ في الأبناءِ، وكُلٌّ منهما أربعةُ أقسامٍ؛ فسُبحانَ العليمِ القَديرِ(١). فهذه القِسمةُ الرُّباعيَّةُ في الأُصولِ كالقِسمةِ الرُّباعيَّةِ في الفُروعِ؛ فتَمَّت الدَّلالةُ على أنَّه ما شاء كان ولا رادَّ له، وما لم يَشأْ لم يكُنْ ولا مُكوِّنَ له، ولا مانِعَ لِما أعطى، ولا مُعطِيَ لِما مَنَع سبحانَه(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ بعدَ أنْ قطَعَ خِطابَهم عَقِبَ قولِه: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦] بما تَخلَّصَ به إلى الثَّناءِ على فِرَقِ المؤمنينَ، وما استَتْبَعَ ذلك مِن التَّسجيلِ على المشركينَ بالضَّلالةِ والعذابِ، ووَصْفِ حالِهم الفظيعِ؛ عادَ الكلامُ إلى خِطابِهم بالدَّعوةِ الجامعةِ لِما تَقدَّمَ؛ طَلبًا لِتدارُكِ أمْرِهم قبْلَ الفَواتِ، فاستُؤنِفَ الكلامُ استئنافًا فيه معنى النَّتيجةِ للمَواعظِ المتقدِّمةِ؛ لأنَّ ما تَقدَّمَ مِن الزَّواجِرِ يُهيِّئُ بعضَ النُّفوسِ لِقَبولِ دَعوةِ الإسلامِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٠، ١٣١).

- قولُه: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ الاستِجابةُ: إجابةُ الدَّاعي، والسِّينُ والتَّاءُ للتَّوكيدِ. واللَّامُ في ﴿لِرَبِّكُمْ﴾ لتأكيدِ تعديةِ الفِعلِ إلى المفعولِ؛ مِثْلُ: حَمِدتُ له، وشكَرتُ له، وتُسمَّى لامَ التَّبليغِ، ولامَ التَّبيينِ(١).

- وفي قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ * ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٦، ٤٧] مُناسَبةٌ حسَنةٌ، ففي سُورةِ (الرُّوم): ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم: ٤٣]؛ فاختَلَفَ ما انقطَعَ إليه قولُه: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، فجاءَ في هذه السُّورةِ: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾، وفي (الرُّوم): ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾؛ ووجْهُ هذه المناسَبةِ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ معناهُ: استقِمْ أنت ومَن معك مِن المؤمنينَ على الدِّينِ المستقيمِ مِن قبْلِ أنْ يَجِيءَ يومٌ لا يَنفَعُ فيه الإيمانُ؛ فكأنَّه خاطَبَ النَّاسَ بالاجتماعِ على الإيمانِ، والتَّآلُفِ على الإسلامِ قبْلَ يومِ القيامةِ الَّذي تَتفرَّقُ فيه الجُموعُ؛ ففريقٌ في الجنَّةِ، وفريقٌ في السَّعيرِ، فلمَّا كان قولُه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ أمْرًا للنَّاسِ كلِّهم بالاجتماعِ على الحقِّ ورفضِ الباطلِ، حذَّرَهم التَّفرُّقَ في الآخِرةِ، ومَصيرُ المطيعِ إلى دارِ الثَّوابِ، والعاصي إلى دارِ العقابِ؛ فكان هذا مُلائمًا لِما قبْلَه.

أمَّا الآيةُ الَّتي هنا في سُورةِ (الشُّورى) فجاءتْ بعدَ قولِه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ...﴾ إلى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٥ - ٤٧]، فلمَّا قال: إنَّ الظَّالِمينَ لا وليَّ لهم يَنصُرُهم مِن دونِ اللهِ، قال عِندَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣١).

ذِكرِ اليومِ الَّذي لا مَرَدَّ له مِن اللهِ: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾، فاقتَضى ما تَقدَّمَ مِن ذِكرِ أنَّه لا ناصرَ لهم يَدفَعُ عذابَ اللهِ تعالى عنهم؛ سَدَّ طُرقِ النَّجاةِ دونَهم بأنَّه لا ملجَأَ لهم، ولا ذابَّ عنهم، ومَن دهَمَه الخَطْبُ العظيمُ الَّذي لا يُطيقُ احتمالَه، فلم يَجِدْ مَهرَبًا ولا ناصرًا، لم يَبقَ له إلَّا الاستِسلامُ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾

- قولُه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ فيه تَلْوينٌ للكلامِ، وصَرْفٌ له عن خِطابِ النَّاسِ بعْدَ أمرِهم بالاستِجابةِ، وتَوجيهٌ له إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: فإنْ لم يَسْتجيبوا وأعرَضوا عمَّا تَدْعوهم إليه، فما أرسَلْناك رقيبًا ومُحاسِبًا عليهم[٢].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا ...﴾ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾ الآيةَ [الشورى: ٤٧]، وهو جامعٌ لِما تَقدَّم؛ إذ أمَرَ اللهُ نَبيَّه بدَعْوتِهم للإيمانِ مِن قولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، ثمَّ قولِه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ﴾ [الشورى: ١٥]، وما تَخلَّلَ ذلك واعترَضَه مِن تَضاعيفِ الأمْرِ الصَّريحِ والضِّمْنيِّ إلى قولِه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾ الآيةَ [الشورى: ٤٧]، ثمَّ فُرِّعَ على ذلك كلِّه إعلامُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمَقامِه وعمَلِه إنْ أعرَضَ مُعرِضونَ مِن الَّذين

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٦١-١١٦٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٥، ٤١٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٦، ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦).

يَدْعوهم، وبمَعذِرتِه فيما قام به، وأنَّه غيرُ مُقصِّرٍ، وهو تَعريضٌ بتَسليتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما لاقاهُ مِن المشرِكينَ، والمعنى: فإنْ أعرَضوا بعدَ هذا كلِّه، فما أرسَلْناك حفيظًا عليهم، ومُتكفِّلًا بهم؛ إذ ما عليك إلَّا البلاغُ. وإذ قد كان ما سبَقَ مِن الأمْرِ بالتَّبليغ والدَّعوةِ مُصدَّرًا بقولِه أوائلَ السُّورةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الشورى: ٦]، لا جَرَمَ ناسَبَ أنْ يُفرِّعَ على تلك الأوامرِ بعدَ تَمامِها مِثلَ ما قدَّمَ لها، فقال: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾، وهذا الارتباطُ هو نُكتةُ الالْتفاتِ مِن الخِطابِ الَّذي في قولِه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ الآيةَ [الشورى: ٤٧]، إلى الغَيبةِ في قولِه هنا: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾، وإلَّا لَقيل: فإنْ أعرَضتُم[(١)].

- قولُه: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا﴾ ليس هو جَوابَ الشَّرْطِ في المعنى، ولكنَّه دَليلٌ عليه، وقائمٌ مَقامَه؛ إذِ المعنَى: فإنْ أعْرَضوا فلَسْتَ مُقصِّرًا في دَعوتِهم، ولا عليك تَبِعةُ صَدِّهم؛ إذ ما أرْسَلْناك حَفيظًا عليهم، بقَرينةِ قولِه: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ بيانٌ لِجُملةِ ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا﴾؛ باعتبارِ أنَّها دالَّةٌ على جَوابِ الشَّرطِ المقدَّرِ[(٣)].

- وهذه الجُملةُ: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ تتَّصِلُ بقولِه: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾؛ لِما تَضمَّنَتْه هذه مِن التَّعريضِ بتَسليةِ الرَّسولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٢، ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما لاقاهُ مِن قَومِه، ويُؤذِنُ بهذا الاتِّصالِ أنَّ هاتَينِ الجُملتَينِ جُعِلتَا آيةً واحدةً هي ثامنةٌ وأربعونَ في هذه السُّورةِ؛ فالمعنى: لا يَحزُنْك إعراضُهم عن دَعْوتِك؛ فقد أعرَضوا عن نِعمتي وعن إنذاري بزِيادةِ الكُفْرِ؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا﴾[1].

- وابتداءُ الكلامِ بضَميرِ الجلالةِ المنفصِلِ ﴿وَإِنَّآ﴾ مُسنَدًا إليه فِعلُ ﴿أَذَقۡنَا﴾، دونَ أنْ يُقالَ: (وإذا أذَقْنا الإنسانَ... إلخ)، مع أنَّ المقصودَ وَصْفُ هذا الإنسانِ بالبَطَرِ بالنِّعمةِ، وبالكُفرِ عِندَ الشِّدَّةِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن مَوقعِ هذه الجُملةِ هنا تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن جَفاءِ قَومِه وإعراضِهم؛ فالمعنى: أنَّ مُعامَلتَهم ربَّهم هذه المعاملةَ تُسَلِّيك عن مُعاملتِهم إيَّاك؛ ولهذا لا تَجِدُ نَظائرَ هذه الجُملةِ في مَعْناها مُفتتَحًا بمِثلِ هذا الضَّميرِ؛ لأنَّ مَوقعَ تلك النَّظائرِ لا تُماثِلُ مَوقعَ هذه، وإنْ كان مَعناهما مُتماثِلًا، فهذه الخُصوصيَّةُ خاصَّةٌ بهذه الجُملةِ. ولكنْ نَظْمُ هذه الآيةِ جاءَ صالحًا لإفادةِ هذا المعنى، ولإفادةِ معنًى آخَرَ مُقارِبٍ له؛ وهو أنْ يكونَ هذا حِكايةَ خُلُقٍ للنَّاسِ كلِّهم مُرتكِزٍ في الجِبِلَّةِ، لكنَّ مَظاهِرَه مُتفاوِتةٌ بتَفاوُتِ أفرادِه في التَّخلُّقِ بالآدابِ الدِّينيَّةِ، فيُحمَلُ (الإنسانُ) في الموضعَينِ على جِنسِ بَني آدمَ، ويُحمَلُ الفرَحُ على مُطلَقِه المَقولِ عليه بالتَّشكيكِ حتَّى يَبلُغَ مَبلَغَ البَطَرِ، وتُحمَلُ السَّيِّئةُ الَّتي قدَّمَتْها أيديهِم على مَراتبِ السَّيِّئاتِ إلى أنْ تَبلُغَ مَبلَغَ الإشراكِ، ويُحمَلُ وَصْفُ ﴿كَفُورٞ﴾ على ما يَشملُ اشتِقاقُه مِن الكُفْرِ بتَوحيدِ اللهِ، والكُفرِ بنِعمةِ اللهِ. والمرادُ بـ (الإنسان) في الموضعِ الأوَّلِ والموضعِ الثَّاني معنًى واحدٌ، وهو تَعريفُ الجِنسِ المرادُ به الاستِغراقُ، أي: إذا أذَقْنا النَّاسَ، وأنَّ النَّاسَ كَفُورونَ، ويكونُ استغراقًا عُرْفيًّا أُرِيدَ به أكثَرُ جِنسِ الإنسانِ في ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٣).

الزَّمانِ والمكانِ؛ لأنَّ أكثَرَ نَوعِ الإنسانِ يومَئذٍ مُشرِكون، وهذا هو المناسِبُ لِقَولِه: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾، أي: شَديدُ الكُفرِ قَوِيُّه، ولقولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: مِن الكُفرِ. وإنَّما عُدِلَ عن التَّعبيرِ بـ(النَّاسِ) إلى التَّعبيرِ بـ(الإنسانِ)؛ للإيماءِ إلى أنَّ هذا الخُلُقَ المُخبَرَ به عنهم هو مِن أخلاقِ النَّوعِ، لا يُزيلُه إلَّا التَّخلُّقُ بأخلاقِ الإسلامِ، فالَّذين لم يُسلِموا باقُونَ عليه، وذلك أدْخَلُ في التَّسليةِ؛ لأنَّ اسمَ (الإنسانِ) اسمُ جِنسٍ يَتضمَّنُ أوصافَ الجِنسِ المُسمَّى به على تَفاوُتٍ في ذلك؛ وذلك لِغَلَبةِ الهوَى[١].

- قولُه: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ...﴾ فيه تأْكيدُ الخبرِ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لِمُناسَبةِ التَّسليةِ بأنْ نُزِّلَ السَّامعُ الَّذي لا يَشُكُّ في وُقوعِ هذا الخبرِ مَنزِلةَ المتردِّدِ في ذلك؛ لاستِعظامِه إعراضَهم عن دَعوةِ الخَيرِ[٢].

- وتَصديرُ الشَّرطيَّةِ الأُولى ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ بحرفِ (إذا)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إيصالَ النِّعمةِ مُحقَّقُ الوُجودِ، كثيرُ الوُقوعِ، كما أنَّ تَصديرَ الثَّانيةِ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ بـ(إنْ)؛ للإيذانِ بنُدرةِ وُقوعِها[٣]، وأنَّ ما يَعْفُو اللهُ تعالى عنه أكثرُ[٤]، وفي نسبةِ الرَّحمةِ إليه تعالى دونَ السَّيِّئةِ تعليمٌ للعبادِ ألَّا يُضافَ إليه سبحانَه الشَّرُّ[٥].

- وأتَى في الرَّحمةِ بالفعلِ الماضي ﴿أَذَقْنَا﴾ الدَّالِّ على تحقيقِ الوُقوعِ؛ وأتَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٣ - ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٣).

بفعلِ الإذاقةِ الدَّالِّ على مباشرةِ الرَّحمةِ لهم؛ وأنَّها مَذُوقةٌ لهم -والذَّوقُ هو أَخَصُّ أنواعِ الملابَسةِ وأشَدُّها، وأمَّا في حصولِ السَّيِّئةِ فأتَى بالمستقبَلِ ﴿تُصِبْهُمْ﴾ الدَّالِّ على أنَّه غيرُ مُحقَّقٍ ولا بُدَّ[1].

وقيل: عبَّرَ بالذَّوقِ؛ لأنَّ نِعَمَ اللهِ في الدُّنيا وإنْ كانت عَظيمةً فإنَّها بالنِّسبةِ إلى السَّعاداتِ المُعَدَّةِ في الآخِرةِ كالقَطرةِ بالنِّسبةِ إلى البَحرِ[2]. وقيل: استَعمَلَ في الرَّحمةِ الإذاقةَ، وفي مُقابَلتِها الإصابةَ، فقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ الإنسانَ بأدنى ما يُعطى مِنَ النَّعمةِ يَأشَرُ ويَبطَرُ؛ إشارةً إلى قَولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[3] [العلق: ٦، ٧].

- وأُفرِدَ الضَّميرُ في ﴿فَرِحَ﴾، وجُمِع في ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾، وعَمَّ في (إِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ)، لِمَفهومٍ واحدٍ على التَّرقِّي في معنى: ليس ببِدْعٍ مِن هذا الإنسانِ المعهودِ الإصرارُ؛ لأنَّ هذا الجنسَ مَوسومٌ بكُفرانِ النِّعمِ، فجعَلَ ذمَّ «الإنسانِ» الثَّاني المُطلَقِ دليلًا على ذمِّ هذا المقيَّدِ[4].

- وقولُه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما قدَّموا مِن المعاصي، وعُبِّرَ بالأيدي؛ لأنَّ أكثَرَ الأفعالِ تُزاوَلُ بها؛ فالأيدي أكثَرُ عمَلًا مِن الأرجُلِ، كما أنَّ حَرَكةَ اليَدِ -وإن كانتْ مِن جِنسٍ واحدٍ هي وحَركةُ الرِّجْلِ- أكثَرُ أنواعًا فضْلًا عن أفرادِها؛ فالأعمالُ حَقيقةً إنَّما تُزاوَلُ باليَدِ؛ لأنَّها أكثَرُ مِن أيِّ عُضوٍ في البدنِ مُزاولةً للأعمالِ. حتَّى لو قال قائلٌ: اللِّسانُ أكثَرُ حركةً من اليَدِ؛ مَن يُحصي كَلماتِ اللِّسانِ؟ فالجوابُ: أنَّها وإنْ كانتْ مِن جِنسٍ واحدٍ أيضًا،

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩).
(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٣).
(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٣، ٨٤).

لكنَّ اليَدَ تَبطِشُ، تضْرِبُ، تَكتُبُ، تَمْحو، يعني لا تُحصى أنواعُها؛ فلذلك عُبِّرَ بالأيدي عن النَّفْسِ(١).

- وقولُه: ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ مِن وضْعِ المُضمَرِ مَوضعَ المظْهَرِ، ولم يقُلْ: (فإنَّه كَفورٌ)؛ لِيُسجِّلَ على أنَّ هذا الجنسَ مَوسومٌ بكُفرانِ النِّعمِ، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ [العاديات: ٦]، والمعنى أنَّه يَذكُرُ البلاءَ، ويَنسى النِّعمَ ويَغمِطُها، وهذا وإنِ اختَصَّ بالمجرمينَ، جازَ إسنادُه إلى الجنسِ؛ لِغَلَبتِهم واندراجِهم فيه(٢). وأيضًا لم يَقُلْ (فإنَّه كفورٌ)؛ لِيُبيِّنَ أنَّ طَبيعةَ الإنسانِ تقتَضي هذه الحالةَ، إلَّا إذا أدَّبَها الرَّجُلُ بالآدابِ الَّتي أرشدَ اللهُ إليها(٣).

- والحُكمُ الَّذي تَضمَّنتْه جُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ هو المقصودُ مِن جُملةِ الشَّرطِ كلِّها؛ ولذلك أُعيدَ حَرْفُ التَّأكيدِ فيها بعدَ أنْ صُدِّرتْ به الجُملةُ المُشتمِلةُ على الشَّرْطِ؛ لِيُحيطَ التَّأكيدُ بكِلْتا الجُملتَينِ، فغلَبَ على نَوعِ الإنسانِ الكُفرُ باللهِ على الإيمانِ به؛ ولذلك عقَّبَ هذا الحُكمَ على النَّوعِ بقولِه: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٤٩]، ولم يَخرُجْ عن هذا العمومِ إلَّا الصَّالحونَ مِن نوعِ الإنسانِ، على تَفاوُتٍ بيْنَهم في كَمالِ الخُلُقِ(٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٦).

إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۞ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾

- قولُه: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما سبَقَه مِن عَجيبِ خُلُقِ الإنسانِ الَّذي لم يُهذِّبْه الهدْيُ الإلهيُّ، يُثيرُ في نفْسِ السَّامعِ سُؤالًا عن فَطْرِ الإنسانِ على هذَينِ الخُلُقينِ اللَّذَينِ يَتلقَّى بهما نِعمةَ ربِّه وبَلاءَه، وكيف لم يُفطَرْ على الخُلُقِ الأكملِ؛ لِيَتلقَّى النِّعمةَ بالشُّكرِ، والضُّرَّ بالصَّبرِ والضَّراعةِ؟ وسُؤالًا أيضًا عن سَببِ إذاقةِ الإنسانِ النِّعمةَ مَرَّةً والبؤسَ مرَّةً، فيَبْطَرُ ويَكفُرُ، وكيف لم يُجعَلْ حالُه كَفافًا لا لَذَّاتِ له ولا بلايا كَحالِ العَجْماواتِ؟ فكان جَوابُه: أنَّ اللهَ المتصرِّفُ في السَّمواتِ والأرضِ يَخلُقُ فيهما ما يَشاءُ مِن الذَّواتِ وأحوالِها، وهو جَوابٌ إجماليٌّ إقناعيٌّ يُناسِبُ حضْرةَ التَّرفُّعِ عن الدُّخولِ في المجادَلةِ عن الشُّؤونِ الإلهيَّةِ(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ واردٌ على نَمطِ الآياتِ السَّابقةِ، وهي: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ [الشورى: ٢٨]، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [الشورى: ٢٩]، ولَمَّا ذكَرَ بَثَّ الحيوانِ، وأراد أنْ يُبيِّنَ كيفيَّةَ البَثِّ قدَّمَ استِبدادَه بالمُلكِ، واستِقلالَه بالملَكوتِ، ثمَّ ثنَّى بأنَّه خالقٌ لِما يشاءُ، فاعلٌ لِما يُريدُ، له التَّصرُّفُ في مُلكِه ما يشاءُ كيف يشاءُ، ثمَّ ثلَّثَ بقولِه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ فترَقَّى مِن ذلك العامِّ إلى ذِكرِ الإناثِ، ثمَّ إلى إفرادِ الذُّكورِ، ثمَّ إلى جمْعِهما، فلا يَدخُلُ في الكلامِ إرادةُ الإنسانِ وكَراهتُه، وأمَّا قولُه: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فهو كالاستِدراكِ وتَتميمِ معنى الاستِبدادِ بالخلْقِ؛ ولذلك غيَّرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٦، ١٣٧).

العبارةَ إلى ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ﴾[(١)].

- وفي قولِه: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إجمالٌ يَبعثُ المتأمِّلَ المُنصِفَ على تَطلُّبِ الحِكمةِ في ذلك، فإنْ تَطلَّبَها انقادَتْ له، كما أومَأَ إلى ذلك تَذييلُ هذه الجُملةِ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾، فكأنَّه يقولُ: عليكم بالنَّظَرِ في الحِكمةِ في مَراتبِ الكائناتِ وتَصرُّفِ مُبدِعِها؛ فكما خلَقَ الملائكةَ على أكمَلِ الأخلاقِ في جميعِ الأحوالِ، وفطَرَ الدَّوابَّ على حدٍّ لا يَقبَلُ كَمالَ الخُلُقِ، كذلك خلَقَ الإنسانَ على أساسِ الخَيرِ والشَّرِّ، وجعَلَه قابلًا للزِّيادةِ منهما، على اختلافِ مَراتبِ عُقولِ أفرادِه وما يُحيطُ بها مِن الاقتِداءِ والتَّقليدِ، وخلَقَه كاملَ التَّمييزِ بيْنَ النِّعمةِ وضِدِّها؛ لِيَرتفعَ دَرَجاتٍ ويَنحَطَّ دركاتٍ ممَّا يَختارُه لِنَفْسِه[(٢)].

- قولُه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ بَدَلٌ من جُملةِ ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ بدَلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّ خلْقَه ما يشاءُ يَشتمِلُ على هِبَتِه لِمَن يَشاءُ ما يشاءُ، وهذا الإبدالُ إدماجُ مَثَلٍ جامعٍ لِصُوَرِ إصابةِ المحبوبِ، وإصابةِ المكروهِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ هو مِن المكروهِ عِندَ غالبِ البشرِ، ويَتضمَّنُ ضَرْبًا مِن ضُروبِ الكُفرانِ، وهو اعتقادُ بعضِ النِّعمةِ سيِّئةً في عادةِ المشركينَ مِن تَطيُّرِهم بوِلادةِ البَناتِ لهم[(٣)].

- وتَنكيرُ ﴿إِنَٰثٗا﴾؛ لأنَّ التَّنكيرَ هو الأصلُ في أسماءِ الأجناسِ، وتَعريفُ ﴿ٱلذُّكُورَ﴾ باللَّامِ؛ لأنَّهم الصِّنفُ المعهودُ للمُخاطَبينَ، فاللَّامُ لِتَعريفِ الجنسِ، وإنَّما يُصارُ إلى تَعريفِ الجنسِ لِمَقصَدٍ، أي: يَهَبُ ذلك الصِّنفَ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٥، ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣٨).

الَّذي تَعهَدونَه، وتَتحدَّثونَ به، وتَرغَبونَ فيه[١]. وقيل: نكَّرهنَّ وعرَّف الذُّكورَ؛ لانحِطاطِ رُتبَتِهنَّ، لئلَّا يُظنَّ أنَّ التَّقديمَ كان لأحقِّيَّتِهنَّ به[٢].

- وفي قولِه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ قدَّمَ الإناثَ مع أنَّ جِهتَهنَّ التَّأخيرُ؛ لأنَّ الآيةَ سِيقَتْ لبيانِ عظَمةِ مُلكِه سُبحانَه ومشيئتِه، وأنَّه فاعلٌ ما يشاءُ، لا ما يشاؤُه عبيدُه، ولَمَّا كان الأبَوانِ لا يُريدانِ إلَّا الذُّكورَ غالبًا قدَّمَهنَّ في الذِّكرِ؛ لبيانِ نفوذِ إرادتِه ومشيئتِه، وانفرادِه بالأمرِ. وقيل: تقديمُ الإناثِ لأنَّهنَّ أكثرُ لتكثيرِ النَّسلِ. وقيل: بُدِئَ في هذه الآيةِ بذكرِ الإناثِ؛ تأنيسًا بهنَّ، وتشريفًا لهنَّ؛ لِيُهتمَّ بصَونِهنَّ، والإحسانِ إليهنَّ. وقيل: جبرًا لهنَّ؛ مِن أجْلِ استِثقالِ الوالدينِ لِمَكانِهنَّ.

وقيل: قدَّمَ الإناثَ في الذِّكرِ على الذُّكورِ في قولِه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، ثمَّ في الآيةِ الثَّانيةِ قدَّمَ الذُّكورَ على الإناثِ، فقال: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا﴾؛ وذلك لِوُجوهٍ؛ الأوَّلُ: أنَّ الكريمَ يَسعى في أن يقَعَ الخَتْمُ على الخَيرِ والرَّاحةِ والسُّرورِ والبَهجةِ، فإذا وهَبَ الولدَ الأُنثى أوَّلًا، ثمَّ أعطى الذَّكَرَ بعدَه، فكأنَّه نقَلَه مِن الغمِّ إلى الفرَحِ، وهذا غايةُ الكرمِ، أمَّا إذا أعطى الولدَ الذَّكَرَ أوَّلًا، ثمَّ أَعطى الأُنثى ثانيًا، فكأنَّه نقَلَه مِن الفرَحِ إلى الغمِّ، فذكَرَ تعالى هِبةَ الولدِ الأُنثى أوَّلًا، وثانيًا هبةَ الولدِ الذَّكَرِ؛ حتَّى يكونَ قد نقَلَه من الغمِّ إلى الفرحِ، فيكونَ ذلك أليَقَ بالكرمِ. الثَّاني: أنَّه إذا أعطى الولدَ الأُنثى أوَّلًا، عَلِم أنَّه لا اعتراضَ له على اللهِ تعالى، فيَرْضى بذلك، فإذا أعطاهُ الولدَ الذَّكَرَ بعدَ ذلك، عَلِم أنَّ هذه الزِّيادةَ فضلٌ مِن اللهِ تعالى وإحسانٌ إليه، فيَزدادُ شُكرُه وطاعتُه، ويَعلَمُ أنَّ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن)) للأنصاري (ص: ٥١٠).

إنَّما حصَلَ بمَحْضِ الفضلِ والكرَمِ. الثَّالثُ: الأُنثى ضَعيفةٌ ناقصةٌ عاجزةٌ، فقدَّمَ ذِكرَها تَنبيهًا على أنَّه كلَّما كان العجزُ والحاجةُ أتَمَّ، كانتْ عِنايةُ اللهِ به أكثَرَ. الرَّابعُ: كأنَّه يُقالُ: أيَّتُها المرأةُ الضَّعيفةُ العاجزةُ، قدَّمتُكِ في الذِّكرِ؛ لِتَعْلَمي أنَّ المُحسِنَ المُكرِمَ هو اللهُ تعالى -فمِنَ الآباءِ والأُمَّهاتِ مَن يَكرَهُ وُجودَها- فإذا عَلِمَتِ المرأةُ ذلك، زادتْ في الطَّاعةِ والخِدمةِ والبُعدِ عن مُوجِباتِ الطَّعْنِ والذَّمِّ.

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه ذكَرَ البلاءَ في آخِرِ الآيةِ الأُولى، وكُفرانَ الإنسانِ بنِسيانِه الرَّحمةَ السَّابقةَ عِندَه، ثمَّ عقَّبَه بذِكرِ مُلكِه ومَشيئتِه، وذِكرِ قِسمةِ الأولادِ، فقدَّمَ الإناثَ؛ لأنَّ سِياقَ الكلامِ أنَّه فاعلٌ ما يَشاؤُه، لا ما يَشاؤُه الإنسانُ، فكان ذِكرُ الإناثِ اللَّاتي مِن جُملةِ ما لا يشاؤُه الإنسانُ أهَمَّ، والأهمُّ واجبُ التَّقديمِ، ولِيَلِيَ الجنسُ الَّذي كانتِ العربُ تَعُدُّه بلاءً ذِكرَ البلاءِ، وأخَّرَ الذُّكورَ، فلمَّا أخَّرَهم لذلك، تَدارَكَ تأْخيرَهم -وهم أَحِقَّاءُ بالتَّقديمِ- بتَعريفِهم؛ فجبَرَ نقْصَ الأُنُوثَة بالتَّقديمِ، وجبَرَ نقصَ التَّأخيرِ بالتَّعريفِ؛ لأنَّ التَّعريفَ تَنويهٌ وتَشهيرٌ، كأنَّه قال: ويَهَبُ لِمَن يَشاءُ الفُرسانَ الأعلامَ المذكورينَ الَّذين لا يَخْفَوْنَ عليكم، ثمَّ أَعطَى بعدَ ذلك كِلا الجِنْسينِ حقَّه مِن التَّقديمِ والتَّأخيرِ، لِيُعلَمَ أنَّ تقديمَهنَّ لم يكنْ لِتَقَدُّمِهنَّ، بل لمُقتضًى، فقال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾، كما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾[1] [القيامة: ٣٩].

- كما أنَّ تقديمَ الإناثِ فيه تعريضٌ بالمشرِكينَ الَّذين كانوا يَتطيَّرونَ بإنجابِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٨)، ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٠، ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

البناتِ، على عكسِ العادةِ في تَقديمِ الذُّكورِ على الإناثِ حيثُما ذُكِرا في القرآنِ، فهذا مِن دَقائقِ هذه الآيةِ(١).

- وتغييرُ العاطفِ في الثَّالثِ، إذ عُطِف بـ﴿ أَوْ ﴾ في قولِه: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّه قسيمُ المشترَكِ بيْنَ القِسمينِ، ولم يَحتَجْ إليه الرَّابعُ؛ لإفصاحِه بأنَّه قسيمُ المشترَكِ بيْنَ الأقسامِ المتقدِّمةِ، فلو عُطِف بالواوِ تُوهِّم أنَّه قِسمٌ لكلٍّ مِن القِسمينِ دونَ المشتركِ بيْنَهما(٢).

- وفي قولِه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بصِحَّةِ التَّقسيم، وهو استيفاءُ المتكلِّمِ جميعَ أقسامِ المعنى الَّذي هو شارعٌ فيه بحيثُ لا يُغادِرُ منه شيئًا؛ فإنَّه سبحانَه إمَّا أنْ يُفرِدَ العبدَ بهِبةِ الإناثِ، أو بهبةِ الذُّكورِ، أو بهِما جميعًا، أو لا يَهَبَه شيئًا؛ فقد وقَعتْ صحَّةُ التَّقسيمِ في هذه الآيةِ على التَّرتيبِ الَّذي تَستدعيه البلاغةُ، وهو الانتقالُ في نَظمِ الكلامِ ورَصْفِه مِن الأدْنَى إلى الأعْلَى؛ فقدَّمَ هِبةَ الإناثِ، وانتقَلَ إلى هبةِ الذُّكورِ، ثمَّ إلى هِبةِ المجموعِ، وجاء في كلِّ قِسمٍ مِن أقسامِ العَطيَّةِ بلَفظِ الهبةِ، وأفرَدَ معنى الحِرمانِ بالتَّأخيرِ؛ لأنَّ إنعامَه على عِبادِه أهَمُّ عِندَه، وتَقديمُ الأهمِّ واجبٌ في كلِّ كلامٍ بليغٍ، والآيةُ إنَّما سِيقتْ للاعتِدادِ بالنِّعمِ، وإنَّما أتَى بذِكرِ الحِرمانِ ليَتكمَّلَ التَّمدُّحُ بالقُدرةِ على المنعِ كما يُمدَحُ بالعطاءِ، فيُعلَمَ أنَّه لا مانعَ لِما أَعطَى، ولا مُعطيَ لِما منَعَ، وعُدِلَ مِن لفظِ الحِرمانِ والمنعِ إلى لفظٍ هو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٧)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٢٧).

رِدْفُه وتابِعُه، وهو لفظُ الجَعْلِ[(١)].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ تَذييلٌ وعِلَّةٌ لِما قبْلَه؛ لِيَكونَ ذريعةً إلى ذِكرِ فضْلٍ مِن فَضائلِ هذا النَّوعِ مِن المخلوقِ، ومُنتهَى كَمالِه، وغايةِ دَرجاتِه؛ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾؛ ليُؤذِنَ بأنَّ المقصودَ مِن الخلْقِ: البَثُّ والدَّعوةُ إلى اللهِ، والتَّوجُّهُ إليه، والعِبادةُ له[(٢)].

- وأيضًا جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ للمُبدَلِ منه، وهو ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. ومَوقعُ (إنَّ) هنا مَوقعُ فاءِ التَّفريعِ، والمعنى: أنَّ خلْقَه ما يَشاءُ ليس خلْقًا مُهمَلًا عَرِيًّا عن الحِكمةِ؛ لأنَّه واسعُ العِلمِ لا يَفُوتُه شَيءٌ مِن المعلوماتِ، فخلْقُه الأشياءَ يَجري على وَفقِ عِلمِه وحِكمتِه، وهو قَديرٌ نافذُ القُدرةِ، فإذا عَلِمَ الحِكمةَ في خلْقِ شَيءٍ أرادَه، فجَرى على قدَرِه، ولَمَّا جمَعَ بيْنَ وصْفَيِ العِلمِ والقُدرةِ تَعيَّنَ أنَّ هنالك صِفةً مَطويَّةً، وهي الإرادةُ؛ لأنَّه إنَّما تَتعلَّقُ قُدرتُه بعدَ تعلُّقِ إرادتِه بالكائنِ[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٩).

الآيات (٥١-٥٣)

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ۝٥١ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥٣﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿حِجَابٍ﴾: أي: سِترٍ. وكُلُّ ما يَستُرُ المطلوبَ ويَمنَعُ مِنَ الوُصولِ إليه فهو حِجابٌ، وأصلُ (حجب): يدُلُّ على المَنعِ مِن الوُصولِ(١).

﴿رُوحٗا﴾: أي: قرآنًا، وتُطلَقُ الرُّوحُ كذلك على الوَحيِ، وعلى جِبريلَ عليه السَّلامُ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ وفُسحةٍ(٢).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾

- قَولُه: ﴿لِبَشَرٍ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، خَبَرُ (كان) مُقَدَّمٌ، والمصدَرُ المُؤوَّلُ ﴿أَن يُكَلِّمَهُ﴾: اسمُ كان مُؤَخَّرٌ. ﴿إِلَّا﴾: للحَصرِ، والاستِثناءُ مُفَرَّغٌ. ﴿وَحۡيًا﴾: مَفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ مَحذوفٍ، أو مَصدَرٌ في موضِعِ الحالِ، والتَّقديرُ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩).

إلَّا أن يُوحِيَ إليه وَحيًا، أو إلَّا مُوحِيًا. ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بِفِعلٍ مُقَدَّرٍ مَعطوفٍ على (يُوحيَ) العامِلِ في ﴿وَحۡيًا﴾، أي: أوْ أن يُكَلِّمَه مِن وَراءِ حِجابٍ، أو مُتعَلِّقٌ بحالٍ مَحذوفةٍ مَعطوفةٍ على ﴿وَحۡيًا﴾، والتَّقديرُ: إلَّا مُوحِيًا أو مُكَلِّمًا مِن وراءِ حِجابٍ. ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ﴾: في نَصبِه أوجُهٌ؛ الأوَّلُ: أنَّ المُضارِعَ مَنصوبٌ بـ (أن) مُضمَرةٍ جَوازًا بعدَ (أو)، و(أن والفِعلُ) في تأويلِ مَصدَرٍ في محَلِّ نَصبٍ مَعطوفٌ على ﴿وَحۡيًا﴾، أي: إلَّا وَحْيًا أو إرسالًا. الثَّاني: أنَّ المصدرَ (أن يُرسِلَ) مَعطوفٌ على معنى ﴿وَحۡيًا﴾؛ فإنَّه مَصدرٌ مُقَدَّرٌ بـ (أنْ والفعلِ)، والتَّقديرُ: إلَّا بأن يُوحِيَ إليه أو بأن يُرسِلَ. الثَّالثُ: أنَّ ﴿يُرۡسِلَ﴾ مَعطوفٌ على الفِعلِ الَّذي تَعلَّقَ به ﴿مِن وَرَآيِٕ﴾؛ إذ تقديرُه: أو يُكَلِّمَه مِن وراءِ حِجابٍ أو يُرسِلَ. والمعنى: إلَّا بوَحيٍ، أو تكليمٍ مِن وَراءِ حِجابٍ، أو إرسالِ رَسولٍ.

ولا يجوزُ أن يُعطَفَ ﴿يُرۡسِلَ﴾ على ﴿يُكَلِّمَهُ﴾؛ لفَسادِ المعنى؛ إذ يصيرُ التَّقديرُ: وما كان لبَشَرٍ أن يُرسِلَ اللهُ رَسولًا؛ فيَفسُدَ لَفظًا ومَعنًى.

وقُرِئَ ﴿أَوْ يُرْسِلُ﴾ بالرَّفعِ على الاستِئنافِ[1]، أي: أو هو يُرسِلُ. أو بالرَّفعِ عَطفًا على ﴿وَحۡيًا﴾ على تأويلِه بالحالِ، كأنَّه قال: إلَّا مُوحيًا أو مُرسِلًا. أو عَطفًا على ما يتعلَّقُ به ﴿مِن وَرَآيِٕ﴾ على تقديرِه بالحالِ كذلك، والتَّقديرُ: إلَّا مُوحيًا أو مُكَلِّمًا مِن وراءِ حِجابٍ، أو مُرسِلًا[2].

---

(١) قرأها نافعٌ برفعِ اللَّامِ، وقرأها الباقون بالنَّصبِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٤)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((شرح كتاب سيبويه)) للسيرافي (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٦٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ٦٠)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٤٤).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى طُرُقَ تكليمِه للمُختارينَ مِن عِبادِه، فيقولُ: ما كان لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَه اللهُ في الدُّنيا إلَّا وَحيًا، أو يُكَلِّمَه اللهُ جَهرًا مِن وَراءِ حِجابٍ فيَسمَعَ كلامَه ولا يَراه، أو يُكَلِّمَه اللهُ تعالى بواسِطةِ مَلَكٍ يُرسِلُه اللهُ بما يَشاءُ وَحْيَه، إنَّ اللهَ عَلِيٌّ حَكيمٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ بعضَ مظاهِرِ فَضلِه على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: ومِثلَ ذلك الإيحاءِ أوحَيْنا إليك القُرآنَ مِن أمْرِنا -يا مُحمَّدُ- ما كُنتَ تَعلمُ مِن قبْلِ ذلك ما القُرآنُ وما الإيمانُ، ولكِنْ جعَلْنا هذا القُرآنَ نُورًا للنَّاسِ نَهدي به مَن نَشاءُ هِدايتَه مِن عِبادِنا.

وإنَّك -يا مُحمَّدُ- لَتُرشِدُ النَّاسَ إلى طريقٍ مُستقيمٍ؛ طَريقِ اللهِ الَّذي له مُلكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، ألَا إلى اللهِ وَحْدَه تَرجِعُ جميعُ الأمورِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن كَمالَ قُدرتِه وعِلمِه وحِكمتِه؛ أتبَعَه ببَيانِ أنَّه كيف يَخُصُّ أنبياءَه بوَحْيِه وكَلامِه[1].

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾.

أي: وما يَنبغي لبَشَرٍ أن يُكَلِّمَه اللهُ في الدُّنيا إلَّا وَحْيًا[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).
=

﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾.

أي: أو يُكَلِّمَه اللهُ جَهرًا مِن وَراءِ حِجابٍ، بحيثُ يَسمَعُ كَلامَ اللهِ ولا يَراه، كما كلَّمَ اللهُ تعالى موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٣، ١٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ

= قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يقولُ: ليس لنبيٍّ مِن الأنبياءِ أن يُكَلِّمَه اللهُ ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ فيَسمَعَ الصَّوتَ فيَفْقَه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٥).

وقال ابن جرير: (وما ينبغي لبشَرٍ مِن وَلَدِ آدمَ أن يُكَلِّمَه رَبُّه إلَّا وَحيًا يُوحي اللهُ إليه كيف شاء؛ إمَّا إلهامًا، وإمَّا غيرَه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٠).

وقال البِقاعي: (﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ أي: كَلامًا خَفيًّا يُوجِدُه فيه بغيرِ واسِطةٍ بوَجهٍ خَفيٍّ لا يَطَّلِعُ عليه أحَدٌ إلَّا بخارقِ العادةِ؛ إمَّا بإلهامٍ، أو برؤيا مَنامٍ، أو بغيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٥٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ يتناوَلُ وَحيَ الأنبياءِ وغَيرِهم، كالمُحَدَّثينَ المُلْهَمينَ). ((النبوات)) (٢/ ٦٩١).

ومِمَّن قال: المرادُ: الوَحيُ في المنامِ، أو الإلهامُ: الواحدي، والزمخشري، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٤٧).

مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠].

وعن أبي موسى الأشْعَريِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((حِجابُه النُّورُ، لو كشَفَه لأحرَقَت سُبُحاتُ[١] وَجهِه ما انتهى إليه بَصَرُه مِنْ خَلْقِه))[٢].

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: أو يُكَلِّمَه اللهُ تعالى بواسِطةِ مَلَكٍ يُرسِلُه اللهُ، فيُوحِيَ إلى المُرسَلِ إليه ما يَشاءُ اللهُ وَحْيَه، كجِبريلَ الَّذي كان يَنزِلُ بكَلامِ اللهِ تعالى على أنبيائِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣].

﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سُبحانَه عَليٌّ بذاتِه فوقَ خَلْقِه، وعَليٌّ بصِفاتِه عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، قد قهَر كلَّ شيءٍ، ودانَتْ له المخلوقاتُ، حَكيمٌ في شَرعِه وصُنعِه، وفي تَدبيرِ خَلْقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[٤].

(١) سُبُحاتُ وَجهِه: نُورُه وجَلالُه وبَهاؤه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٤).

(٢) رواه مسلم (١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

قال ابن كثير: (كان جبريلُ يأتي إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في صِفاتٍ مُتعدِّدةٍ؛ فتارةً يأتي في صورةِ دِحْيَةَ بنِ خليفةَ الكَلْبيِّ، وتارةً في صورةِ أعرابيٍّ، وتارةً في صورتِه الَّتي خُلِق عليها له سِتُّمِئةِ جَناحٍ ما بيْنَ كلِّ جَناحَينِ كما بيْنَ المَشرِقِ والمغربِ، كما رآه على هذه الصِّفةِ مرَّتَينِ؛ مرَّةً مُنْهَبِطًا مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، وتارةً عندَ سِدرةِ المُنتهَى عندَها جنَّةُ المأْوى). ((البداية والنهاية)) (١/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥١، ٣٥٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾.

أي: ومِثلَ ذلك الإيحاءِ[1] أوحَيْنا إليك القُرآنَ[2] مِن أمْرِنا[3] -يا مُحمَّدُ[4].

(١) قال أبو حيَّان: (﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ﴾: أي: مِثلَ ذلك الإيحاءِ الفَصلِ أوحينا إليك؛ إذ كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ اجتَمَعت له الطُّرُق الثَّلاثُ: النَّفْثُ في الرُّوعِ، والمنامُ، وتكليمُ اللهِ له حقيقةً ليلةَ الإسراءِ، وإرسالُ رَسولٍ إليه، وهو جِبريلُ. وقيل: كما أوحَيْنا إلى الأنبياءِ قَبْلَك أوحَيْنا إليك رُوحًا من أمْرِنا). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥١).

ومِمَّن قال بالمعنى الأوَّلِ أيضًا: ابنُ عطية، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٧٦).

ومِمَّن قال بالمعنى الثَّاني: مكِّي، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٩٥).

قال ابن جرير: (وكما كنَّا نُوحي إلى سائرِ رُسُلِنا، كذلك أوحَيْنا إليك يا مُحمَّدُ هذا القرآنَ ﴿رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤١).

وقال الزَّجَّاجُ: (أي: فَعَلْنا في الوحيِ إليك كما فَعَلْنا بالرُّسلِ مِن قَبْلِك). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤٠٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦١).

(٢) قال مكِّي: (قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ يعني: القرآنَ، في قَولِ جَميعِ المفَسِّرينَ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٤١٢).

(٣) قال ابنُ عطية: (قولُه تعالى: ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ أي: واحِدٍ مِن أُمورِنا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤).

وقال ابن عثيمين: (قَولُه: ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ قال المفَسِّر [جلال الدِّين المحلِّي] رحمه الله: «الَّذي نوحيه إليك» يعني: ممَّا نأمُرُ به، ويحتمِلُ أن يكونَ الأمرُ هنا واحِدَ الأمورِ لا واحِدَ الأوامِرِ، أي: مِن شَأنِنا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٤، ٣٥٥).

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾.

أي: ما كُنتَ تَعلَمُ -يا مُحمَّدُ- مِن قبْلِ نُزولِ الوَحيِ عليك أيَّ شَيءٍ القُرآنُ، وأيَّ شَيءٍ الإيمانُ وشَرائِعُه على وَجهِ التَّفصيلِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٦٢، ٣٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٥).

قال ابنُ عثيمين: (﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بها ما الكِتابةُ، ويحتمِلُ أن يُرادَ بذلك... القُرآنُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٥).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ بالكِتابِ هنا القُرآنُ: ابنُ جرير، والسمعاني، والزمخشري، وابن الجوزي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٨).

قال السعدي: (أي: ليس عندَك عِلمٌ بأخبارِ الكُتُبِ السَّابِقةِ، ولا إيمانٌ وعَمَلٌ بالشَّرائعِ الإلهيَّةِ، بل كُنتَ أُمِّيًّا لا تَخُطُّ ولا تَقرَأُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

وقال ابن عاشور: (ومعنى عَدَمِ دِرايةِ الكِتابِ: عدَمُ تعَلُّقِ عِلمِه بقِراءةِ كِتابٍ أو فَهْمِه. ومعنى انتِفاءِ درايةِ الإيمانِ: عدَمُ تعَلُّقِ عِلْمِه بما تحتوي عليه حَقيقةُ الإيمانِ الشَّرعيِّ مِن صِفاتِ اللهِ وأُصولِ الدِّينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٢).

ولا يَقتضي معنى الآيةِ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَكُنْ مؤمِنًا بوجودِ اللهِ ووحدانيَّةِ إلهيَّتِه قبْلَ نُزولِ الوحيِ عليه! قال ابن عاشور: (إذِ الأنبياءُ والرُّسلُ معصومونَ مِن الشِّركِ قبْلَ النُّبُوَّةِ، فهم موحِّدونَ للهِ، ونابذونَ لعبادةِ الأصنامِ، ولكنَّهم لا يَعلَمونَ تفاصيلَ الإيمانِ، وكان نبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في عهدِ جاهليَّةِ قَومِه يَعلَمُ بُطْلانَ عبادةِ الأصنامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥١).

وقال سُبحانَه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال جَلَّ جَلالُه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

أي: ولكِنْ جعَلْنا هذا القُرآنَ نُورًا للنَّاسِ تَزولُ به ظُلُماتُ الكُفرِ والشِّركِ، والشَّكِّ والجَهلِ، والأهواءِ والمعاصي؛ فنَهدي به إلى الحَقِّ مَن نَشاءُ هِدايتَه مِن عِبادِنا(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٢، ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٩، ٨٠).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائِدٌ إلى الكتابِ، وهو القُرآنُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾، أي: ولكِنْ جعَلْنا الكِتابَ نُورًا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزجاج، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٣).

وقيل: عائِدٌ إلى الرُّوحِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ تيميَّة، وابن القيِّم، والشنقيطي. يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢٠٠)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٨٧، ٨٨)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٩).

وقيل: عائِدٌ إلى الإيمانِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٦).

وقال أبو حيَّان: (يحتمِلُ أن يعودَ إلى قَولِه: ﴿رُوحًا﴾، وإلى ﴿الْكِتَابُ﴾، وإلى ﴿الْإِيمَانُ﴾، وهو أقرَبُ مذكورٍ. وقال ابنُ عطية: عائِدٌ على الكتابِ. انتهى. وقيل: يعودُ إلى الكتابِ والإيمانِ معًا؛ لأنَّ مَقصدَهما واحِدٌ، فهو نظيرُ: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]. ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ * يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أي: وإنَّك -يا مُحمَّدُ- لَتُرشِدُ النَّاسَ وتَدْعوهم إلى طَريقٍ مُستَقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه[1].

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾.

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: تَدْعوهم إلى طَريقٍ مُستَقيمٍ؛ طَريقِ اللهِ الموصِلِ إليه وإلى جنَّتِه، الَّذي له مُلكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، المتصَرِّفِ فيهما وَحْدَه لا شَريكَ له[2].

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

أي: ألا إلى اللهِ وَحْدَه تَرجِعُ جَميعُ الأُمورِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٣، ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٨، ٣٦٣).

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا﴾ بيانُ أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ رُوحٌ تحيا به القُلوبُ، وعلى هذا فإذا وجدْتَ قلبَك مَيِّتًا، أو وجَدْتَه مَريضًا، أو وجَدْتَه قاسيًا؛ فعليك بالقُرآنِ، اقرأْه عن محبَّةٍ وتَدَبُّرٍ فسيتغيَّرُ القَلبُ مِن مَرَضٍ إلى صِحَّةٍ، ومِن مَوتٍ إلى حَياةٍ، ومِن قَسوةٍ إلى لِينٍ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى جَعَل الكتابَ نورًا يَهدي به مَن يشاءُ، ويَنبني على هذه الفائدةِ: أنَّك إذا أردْتَ أنْ يَستنيرَ قلبُك؛ فعليك بالقُرآنِ، وقراءتِه قراءةَ تَدَبُّرٍ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ إثباتُ تكليمِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ استَدَلَّ به مالِكٌ -رحمه الله- على أنَّ مَن حَلَف لا يُكَلِّمُ زَيدًا، فأرسَلَ إليه رَسولًا أو كِتابًا، يحنَثُ؛ لأنَّه تعالى استثناه مِنَ الكلامِ، فدَلَّ على أنَّه منه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣١). ويُنظر أيضًا: ((البيان والتحصيل)) لابن رشد =

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ استدَلَّت به عائِشةُ -رَضِيَ اللهُ عنها- على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَرَ ربَّه(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ دَلَّ على انتِفاءِ أن يكونَ إبلاغُ مُرادِ اللهِ تعالى لأُمَمِ الرُّسُلِ بغَيرِ أحَدِ هذه الأنواعِ الثَّلاثةِ -أعني: خُصوصَ نَوعِ إرسالِ رَسولٍ- بدَلالةِ فَحوى الخِطابِ(٢)؛ فإنَّه إذا كان الرُّسُلُ لا يخاطِبُهم اللهُ إلَّا بأحَدِ هذه الأنحاءِ الثَّلاثةِ، فالأُمَمُ أَولى بألَّا يُخاطَبوا بغيرِ ذلك مِن نحوِ ما سأله المُشرِكونَ مِن رُؤيةِ اللهِ يُخاطِبُهم، أو مَجيءِ الملائِكةِ إليهم، بل لا يتوجَّهُ إليهم خِطابُ اللهِ إلَّا بواسِطةِ رَسولٍ مِنهم يَتلقَّى كلامَ اللهِ بنَحوٍ مِن الأنحاءِ الثَّلاثةِ(٣).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ...﴾ يُؤخَذُ مِن هذه الآيةِ أنَّ النَّبيَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد أُعطِيَ أنواعَ الوحيِ الثَّلاثةَ، وهو أيضًا مُقتضَى الغَرَضِ مِن مَساقِ هذه الآياتِ(٤).

= الجد (٦/ ٩٦). وهو مذهبُ الحنابلةِ، خلافًا للحنفيَّةِ والشَّافعيَّة. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٣/ ٧٩٢)، ((المجموع شرح المهذب)) للنووي (١٨/ ٨٩)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣١).

قال ابن القيِّم: (وهي مسألةُ خِلافٍ بيْنَ السَّلفِ والخلَفِ، وإن كان جمهورُ الصَّحابةِ بل كلُّهم مع عائشةَ كما حكاه عثمانُ بنُ سعيدٍ الدَّارِميُّ إجماعًا للصَّحابةِ). ((زاد المعاد)) (١/ ٧٩). ويُنظر: ((النقض على المريسي)) للدارمي (ص: ٢٨٧)، ((الرد على الجهمية)) للدارمي (ص: ١٢٤)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (١/ ٢٢).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٠، ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥١). =

٦- في قَولِه تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾ إثباتُ الحِكمةِ في شَرعِه وخَلْقِه، وإثباتُ الحُكْمِ الكَونيِّ والشَّرعيِّ؛ لأنَّ كَلِمةَ «حكيم» تعني: الحُكْمَ والحِكمةَ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ سمَّى سُبحانَه الوَحيَ رُوحًا؛ لِمَا يَحصُلُ به مِن حياةِ القُلوبِ والأرواحِ[٢]، ولأنَّه تحيا به مَصالحُ الدُّنيا والدِّينِ؛ لِما فيه مِنَ الخَيرِ الكثيرِ والعِلمِ الغَزيرِ، وهو مَحضُ مِنَّةِ اللهِ سُبحانَه على رَسولِه وعبادِه المؤمنينَ مِن غَيرِ سَبَبٍ منهم[٣]، وسمَّاه نورًا؛ لِما يَحصُلُ به مِن الهدَى واستِنارةِ القلوبِ والفرقانِ بيْنَ الحقِّ والباطلِ[٤]، ولِما يَحصُلُ به مِنَ الإشراقِ والإضاءةِ، وهما

= قال ابن القيِّم: (كمَّل اللهُ له [أي: للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ] مِن مراتبِ الوحيِ مراتبَ عديدةً:
إحداها: الرُّؤْيا الصَّادقةُ، وكانت مَبدأَ وحْيِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وكان لا يَرى رؤيا إلَّا جاءتْ مِثلُ فَلَقِ الصُّبحِ.
الثَّانيةُ: ما كان يُلْقِيه المَلَكُ في رُوعِه وقلبِه مِن غيرِ أن يَراه.
الثَّالثةُ: أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم كان يَتمثَّلُ له المَلَكُ رجُلًا فيُخاطِبُه حتَّى يَعيَ عنه ما يقولُ له، وفي هذه المرتبةِ كان يَراه الصَّحابةُ أحيانًا.
الرَّابعةُ: أنَّه كان يأتيه في مِثلِ صَلْصَلةِ الجَرَسِ، وكان أشَدَّه عليه، فيَتلبَّسُ به المَلَكُ حتَّى إنَّ جَبينَه لَيَتفَصَّدُ عَرَقًا في اليومِ الشَّديدِ البَرْدِ، وحتَّى إنَّ راحلتَه لَتَبْرُكُ به إلى الأرضِ إذا كان راكِبَها.
الخامسةُ: أنَّه يَرى المَلَكَ في صورتِه الَّتي خُلِق عليها، فيُوحي إليه ما شاء اللهُ أن يُوحيَه، وهذا وقَع له مرَّتَينِ.
السَّادسةُ: ما أوحاه اللهُ وهو فوقَ السَّمواتِ لَيلةَ المِعراجِ مِن فَرضِ الصَّلاةِ وغيرِها.
السَّابعةُ: كلامُ اللهِ له منه إليه بلا واسِطةِ مَلَكٍ، كما كلَّمَ اللهُ موسى بنَ عِمْرانَ، وهذه المرتبةُ هي ثابتةٌ لموسى قَطعًا بنصِّ القرآنِ، وثُبوتُها لنبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم هو في حديثِ الإسراءِ). ((زاد المعاد)) (١/ ٧٧-٧٩). ويُنظر: ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٣).
(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).
(٤) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤١).

متلازِمانِ؛ فحيث وُجِدَت هذه الحياةُ بهذا الرُّوحِ وُجِدَت الإضاءةُ والاستِنارةُ، وحيث وُجِدَت الاستِنارةُ والإضاءةُ وُجِدَت الحياةُ، فمَن لم يَقبَلْ هذا الرُّوحَ فهو مَيِّتٌ مُظلِمٌ(١)؛ فيَجِبُ على كُلِّ مُسلمٍ أن يَستضيءَ بنُورِه، فيَعتَقِدَ عقائِدَه، ويُحِلَّ حلالَه، ويُحَرِّمَ حرامَه، ويمتَثِلَ أوامِرَه، ويجتَنِبَ ما نهى عنه، ويعتَبِرَ بقَصَصِه وأمثالِه(٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أنَّ القُرآنَ غيرُ مَخلوقٍ؛ فقد جَعَله اللهُ تعالى مُوحًى إلى الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولو كان مخلوقًا ما صحَّ أن يكونَ مُوحًى. فإذا كان وَحْيًا لَزِمَ ألَّا يكونَ مخلوقًا؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذي تَكَلَّمَ به(٣).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ أنَّ القُرآنَ رُوحٌ تحصُلُ به الحياةُ، ونورٌ تحصُلُ به الهِدايةُ؛ فأتْباعُه لهم الحياةُ والهِدايةُ، ومُخالِفوه لهم الموتُ والضَّلالُ(٤).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ أنَّ القُرآنَ هو مِن أمرِ اللهِ تعالى، ويَنبني عليه أنَّه ليس بمخلوقٍ؛ وجْهُ ذلك: قولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففَصَل الخَلْقَ عن الأمرِ، وجَعَلَه قَسيمًا له؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الأمرَ ليس مِن الخَلقِ، وهذا هو المرادُ، فهذه الآيةُ ممَّا يُستَدَلُّ بها على طائِفَتَي المُعتزِلةِ والأشعريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ(٥)!

---

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٧٧).

(٥) يُنظر: ((معارج القبول بشرح سلم الوصول)) لحافظ حكمي (١/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن =

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ متعبِّدًا قبلَ النُّبوَّةِ بشَرعٍ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان أُمِّيًّا لا يَقرأُ ولا يَكتبُ، فيَكونُ فيه إبطالٌ لدعوَى أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم كاذِبٌ؛ لأنَّه لا يَستطيعُ أنْ يأتيَ بهذا القُرآنِ مِن عِندِه[٢].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يدُلُّ على الصِّراطِ المُستقيمِ؛ فإنْ قال قائلٌ: ما الجَمعُ بيْنَ هذه الآيةِ وقَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦]؟

فالجَوابُ: الهدايةُ في الآيةِ الثَّانيةِ هدايةُ التَّوفيقِ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَملِكُ أنْ يَهديَ أحدًا، وأمَّا الهدايةُ في الآيةِ الَّتي هنا فهي هدايةُ الدَّلالةِ والإرشادِ، كما في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] هَدَيْناهم هِدايةَ دَلالةٍ، يعني: بَيَّنَّا لهم الحَقَّ ودَلَلْناهم عليه، ولكنَّهم -والعياذُ باللهِ- استحَبُّوا العَمَى على الهُدَى، فلم يَهتَدوا[٣]، فالهدَى المنفيُّ عنه

= عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٣).

قال السمين الحلبي في الردِّ على مذهبِ مَن يرَى أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكُنْ مُتعبدًا قبْلَ المبعَثِ: (وهو مذهَبٌ ساقِطُ الاعتبارِ؛ لأنَّ الأحاديثَ الصَّحيحةَ ترُدُّه، وهي: أنَّه كان يَتحنَّثُ، كان يتعَبَّدُ، كان يصومُ، كان يطوفُ، كان يَقِفُ، ولم يَقُلْ بخلافِ ذلك إلَّا شذوذٌ من النَّاسِ، وفي الجُملةِ فالمسألةُ خِلافيَّةٌ، وإذا كان مُتعَبِّدًا فبأيِّ شَرعٍ كان يتعَبَّدُ به؟ ...). ((الدر المصون)) (١١/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦١).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو منحُ التوفيقِ، والهدَى المُثبَتُ له هو إبانةُ الطَّريقِ(١).

١٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ حُجَّةٌ في قَبولِ السُّنَنِ، وزَوالِ الارتيابِ في أنَّ قَولَ الرَّسولِ كُلَّه حَقٌّ مِن عندِ اللهِ، وهادٍ إلى سَبيلِ اللهِ(٢).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أنَّ هَدْيَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هَدْيٌ مُستقيمٌ لا اعوِجاجَ فيه؛ فليس فيه اعوِجاجٌ في الخَبَرِ -والاعوجاجُ في الخَبَرِ هو الكَذِبُ-، وليس فيه اعوِجاجٌ في الشَّرائعِ، بل كلُّها مَبنيَّةٌ على العَدلِ والفَضلِ. والحَمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ(٣).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ هنا أُضيفَ الصِّراطُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وقد أُضيفَ في سورةِ (الفاتحةِ) إلى غيرِ اللهِ، فقال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، ولا تَعارُضَ بيْنَ الإضافتَينِ؛ فإنَّ إضافتَه إلى اللهِ تعالى هي باعتبارِ أنَّه هو الَّذي وَضَعَه لعِبادِه، وأنَّه مُوصِلٌ إليه، وإضافتَه إلى النَّاسِ في قَولِه تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ باعتبارِ أنَّهم أهلُه وسالِكوه، فالإضافةُ مختَلِفةٌ؛ فلهذا صَحَّ أنْ تُضافَ إلى هذا تارةً، وإلى هذا تارةً(٤).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ بيانُ أنَّ الأمورَ كلَّها تصيرُ إلى اللهِ؛ أي: تَرجِعُ إليه خَلْقًا ومُلْكًا وتدبيرًا وحُكْمًا، كلُّ شيءٍ يَرجِعُ إلى اللهِ، إذا اختَلَفْنا في حُكْمٍ في مسألةٍ مِن مسائلِ العلمِ نَرجِعُ إلى اللهِ، إذا كان يومُ القيامةِ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((شرح مقدمة التفسير)) لابن عثيمين (ص: ٢٠).

يُبعَثُ الخلائقُ ويَرجِعون إلى اللهِ، فهو سُبحانَه منه المُبتدَأُ، وإليه المنتهَى، تبارك وتعالى(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ عطْفٌ على ما سبَقَ مِن حكايةِ تُرَّهاتِهم عطْفَ القِصَّةِ على القصَّةِ، وهو عَوْدٌ إلى إبطالِ شُبَهِ المشرِكينَ الَّتي أشارَ إليها قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣]، وقولُه تعالَى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى:١٣]، ويَزيدُ الأمرَ وضوحًا قولُه عَقِبَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وهذه الآيةُ تُبطِلُ الشُّبهةَ الثَّانيةَ مِن شُبُهاتِهم في كَونِ القرآنِ وحيًا مِن اللهِ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ زعَموا أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لو كان مرسَلًا مِن اللهِ لَكانتْ معه ملائكةٌ تُصدِّقُ قولَه، أو لأُنزِلَ عليه كتابٌ جاهزٌ مِن السَّماءِ يُشاهِدونَ نُزولَه(٢)!

- وإذ قد كان أهمُّ غرَضِ هذه السُّورةِ إثباتَ كَونِ القرآنِ وحيًا من اللهِ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كما أُوحِيَ مِن قبْلِه للرُّسلِ، كان العَوْدُ إلى ذلك مِن قبيلِ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ(٣)، فبيَّنَ اللهُ للمكذِّبينَ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في خِطابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٠).

(٣) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، =

رُسلِه لا تَعْدو ثلاثةَ أنحاءٍ مِن الخِطابِ، منها ما جاء به القرآنُ؛ فلمْ يكُنْ ذلك بِدْعًا ممَّا جاءتْ به الرُّسلُ الأوَّلونَ، وما كان اللهُ لِيُخاطِبَ رُسلَه على الأنحاءِ الَّتي اقترَحَها المشركونَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فجيءَ بصيغةِ حَصْرٍ مُفتتَحةٍ بصيغةِ الجُحودِ المفيدةِ مُبالَغةَ النَّفيِ، وهي ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: لم يَتهيَّأْ لأحدٍ مِن الرُّسلِ أن يأتيَه خِطابٌ مِن اللهِ إلَّا بنَوعٍ مِن هذه الثَّلاثة[1].

- والاستِثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ استِثناءٌ مِن عمومِ أنواعِ التَّكلُّمِ الَّتي دلَّ عليها الفعلُ الواقعُ في سياقِ النَّفيِ، وهو ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾، فانتِصابُ ﴿وَحۡيًا﴾ على الصِّفةِ لمصدرٍ محذوفٍ دلَّ عليه الاستثناءُ، والتَّقديرُ: إلَّا كلامًا وحيًا، أي: مُوحًى به، كما تقولُ: لا أُكلِّمُه إلَّا جهرًا، أو إلَّا إخفاتًا؛ لأنَّ الجهرَ والإخفاتَ صِفَتانِ للكلامِ[2].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ يُفيدُ التَّعليلَ لِما سبَقَ، أي: ما صحَّ لأحدٍ مِن البشرِ أنْ يُكلِّمَه اللهُ إلَّا على هذه الأوجُهِ[3].

= أو المُلحقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلِمةٍ في الصَّدرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]. والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلِمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٠، ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

- ومِن لطائفِ نَسْجِ هذه الآيةِ تَرْتيبُ ما دلَّ على تكليمِ اللهِ الرُّسلَ بدَلالاتٍ؛ فجيءَ بالمصدرِ أوَّلًا في قولِه: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾، وجيءَ بما يُشبِهُ الجملةَ ثانيًا، وهو قولُه: ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾، وجيءَ بالجِملةِ الفعليَّةِ ثالثًا بقولِه: ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾[(١)].

- وكلُّ هذه الأقسامِ الثَّلاثةِ يَصْدُقُ عليها أنَّها وحْيٌ، وخُصَّ الأوَّلُ باسمِ الوحيِ هنا؛ لأنَّ ما يَقَعُ في القلبِ على سبيلِ الإلهامِ يقعُ دَفْعةً واحدةً، فكان تخصيصُ لفظِ الوحيِ به أَولى[(٢)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ...﴾ الآيةَ [الشورى: ٥١]، وهذا دليلٌ عليهم أنَّ القرآنَ أُنزِلَ مِن عِندِ اللهِ، أعقَبَ به إبطالَ شُبهتِهم الَّتي تَقدَّمَ لإبطالِها قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ الآيةَ، أي: كان وحْيُنا إليك مِثلَ كلامِنا الَّذي كلَّمْنا به مَن قبْلَك، والمقصودُ مِن هذا هو قولُه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[(٣)].

- والإشارةُ إلى سابقٍ في الكلامِ، وهو المذكورُ آنِفًا في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٠).

يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ الآيةَ [الشورى: ٥١]، أي: ومِثلُ الَّذي ذُكِر مِن تكليمِ اللهِ وحْيُنا إليك رُوحًا مِن أمْرِنا. ويَجوزُ أن تكونَ الإشارةُ إلى ما يأتي مِن بعدُ، وهو الإيحاءُ المأخوذُ مِن ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: مِثلَ إيحائِنا إليك أوحَيْنا إليك، أي: لو أُريدَ تشبيهُ إيحائِنا إليك في رِفعةِ القَدرِ والهُدى، ما وُجِد له شبيهٌ إلَّا نفْسُه، على طريقةِ قولِه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والمعنى: إنَّ ما أوحَيْنا إليك هو أعَزُّ وأشرَفُ وحيٍ بحيثُ لا يُماثِلُه غيرُه[١].

- واختتِامُ السُّورةِ بهذه الآيةِ مع افتتاحِها بقولِه: (كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) الآيةَ؛ فيه مُحسِّنُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ[٢].

- وجُملةُ ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿أَوْحَيْنَآ﴾، أي: أوحَيْنا إليك في حالِ انتفاءِ عِلمِك بالكِتابِ والإيمانِ، أي: أفَضْنا عليك مَوهبةَ الوحْيِ في حالِ خُلُوِّك عن عِلمِ الكتابِ وعِلمِ الإيمانِ، وهذا تَحَدٍّ للمُعانِدينَ؛ لِيَتأمَّلوا في حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيَعلَموا أنَّ ما أُوتيَه مِن الشَّريعةِ والآدابِ الخلُقيَّةِ هو مِن مَواهبِ اللهِ تعالى الَّتي لم تَسبِقْ له مُزاوَلتُها، ويَتضمَّنُ امتِنانًا عليه وعلى أُمَّتِه المسلِمينَ[٣].

- وإدخالُ (لا) النَّافيةِ في قولِه: ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ تأكيدٌ لِنَفْيِ دِرايتِه إيَّاه، أي: ما كنتَ تَدري الكتابَ ولا الإيمانَ؛ للتَّنصيصِ على أنَّ المنفيَّ دِرايةُ كلِّ واحدٍ منهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥٣).

- وقولُه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وضَميرُ ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ عائدٌ إلى الكتابِ في قولِه: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾، والتَّقديرُ: وجعَلْنا الكتابَ نورًا، وأُقحِمَ في الجُملةِ المعطوفةِ حرفُ الاستِدراكِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مضمونَ هذه الجُملةِ عكْسُ مَضمونِ جُملةِ ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾، والاستِدراكُ بـ(لكنْ) ناشئٌ على ما تَضمَّنتْه جُملةُ ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ لأنَّ ظاهرَ نفْيِ درايةِ الكتابِ أنَّ انتفاءَها مُستمرٌّ، فاستُدْرِك بأنَّ اللهَ هَداهُ بالكتابِ، وهَدَى به أُمَّتَه؛ فالاستدراكُ واقعٌ في المَحزِّ[1]، والتَّقديرُ: ما كنتَ تَدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ، ثمَّ هدَيْناك بالكِتابِ ابتداءً، وعرَّفْناك به الإيمانَ، وهدَيتَ به النَّاسَ ثانيًا، فاهْتَدى به مَن شِئْنا هِدايتَه، أي: وبقِيَ على الضَّلالِ مَن لم نشَأْ له الاهتِداءَ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾ شُبِّهَ الكِتابُ بالنُّورِ؛ لِمُناسَبةِ الهَدْيِ به؛ لأنَّ الإيمانَ والهُدى والعِلمَ تُشبَّهُ بالنُّورِ، والضَّلالَ والجَهلَ والكُفرَ تُشبَّهُ بالظُّلْمةِ، وإذا كان السَّائرُ في الطَّريقِ في ظُلمةٍ ضَلَّ عن الطَّريقِ، فإذا استنارَ له اهْتَدى إلى الطَّريقِ، فالنُّورُ وَسيلةُ الاهتِداءِ، ولكنْ إنَّما يَهتدي به مَن لا يكونُ له حائلٌ دونَ الاهتِداءِ، وإلَّا لم تَنفَعْه وَسيلةُ الاهتِداءِ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾[3].

- قولُه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تَقريرٌ لِهدايتِه تعالى، وبَيانٌ لكيفيَّتِها، فلمَّا أثبَتَ الهَدْيَ إلى اللهِ، وجعَلَ الكتابَ سببًا لِتَحصيلِ الهِدايةِ، عطَفَ عليه

(١) المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ، أي: القَطعِ. وأصابَ المحَزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٣، ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥٤).

وساطةَ الرَّسولِ في إيصالِ ذلك الهَديِ؛ تَنويهًا بشَأنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

- وأيضًا جُملةُ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، وفي الكلامِ تَعريضٌ بالمشركينَ؛ إذ لم يَهتَدوا به، وإذ كبُرَ عليهم ما يَدْعوهم إليه معَ أنَّه يَهديهِم إلى صِراطٍ مُستقيمٍ(٢).

- وحُذِف مَفعولُ ﴿لَتَهْدِيٓ﴾ للعُمومِ، أي: لَتَهدي جميعَ النَّاسِ، أو هو مَحذوفٌ ثِقةً بغايةِ الظُّهورِ، أي: نَهدي به مَن نَشاءُ بدعْوتِك وواسطتِك(٣).

- وتأْكيدُ الخبرِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به؛ لأنَّ الخبرَ مُستعمَلٌ في تَثْبيتِ قلْبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالشَّهادةِ له بهذا المَقامِ العظيمِ، فالخبَرُ مُستعمَلٌ في لازمِ معناه، على أنَّه مُستعمَلٌ أيضًا للتَّعريضِ بالمُنكِرينَ لِهَدْيِه، فيَكونُ في التَّأكيدِ مُلاحَظةُ تَحقيقِه، وإبطالُ إنكارِهم(٤).

- وتَنكيرُ ﴿صِرَٰطٍ﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّ التَّنكيرَ أنسَبُ بمَقامِ التَّعريضِ بالَّذين لم يَأبَهوا بهِدايَتِه(٥).

- وعُدِل عن إضافةِ ﴿صِرَٰطٍ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ ابتِداءً؛ لِقَصْدِ الإجمالِ الَّذي يَعقُبُه التَّفصيلُ؛ بأنْ يُبدَلَ منه بعدَ ذلك ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾؛ لِيَتمكَّنَ بهذا الأسلوبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٤، ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المعنى المقصودُ فضْلَ تمكُّنٍ[١].

- وإضافةُ ﴿صِرَٰطِ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ (الله) باسمِ المَوصولِ وصِلتِه، ووَصْفُه بقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لِتَفْخيمِ شأنِه، وتَقريرِ استقامتِه، وتأْكيدِ وُجوبِ سُلوكِه؛ فإنَّ كَونَ جميعِ ما فيهما مِن الموجوداتِ له تعالى خَلْقًا ومِلْكًا وتصرُّفًا ممَّا يُوجِبُ ذلك أتمَّ إيجابٍ. وللإيماءِ إلى أنَّ سَببَ استقامةِ الصِّراطِ الَّذي يَهْدي إليه النَّبيُّ أنَّه صِراطُ الَّذي يَملِكُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، فلا يَعزُبُ عنه شَيءٌ ممَّا يَليقُ بعِبادِه، فلمَّا أرسَلَ إليهم رسولًا بكِتابٍ لا يُرتابُ في أنَّ ما أَرسَلَ لهم فيه صلاحُهم[٢].

- وقولُه: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ تَذييلٌ وتَنْهيةٌ للسُّورةِ بخِتامِ ما احتوَتْ عليه مِن المجادَلةِ والاحتجاجِ بكلامٍ قاطعٍ جامعٍ، مُنذِرٍ بوَعيدٍ للمُعرِضينَ فاجِعٍ، ومُبشِّرٍ بالوعدِ لكلِّ خاشعٍ، ففيه مِن الوعدِ للمُهتدينَ إلى الصِّراطِ المستقيمِ والوعيدِ للضَّالِّينَ عنه ما لا يَخْفى[٣].

- وافتُتِحَتِ الجُملةُ بحَرْفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَآ﴾؛ لاستِرعاءِ أسماعِ النَّاسِ[٤].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: إلى اللهِ، لا إلى غيرِه[٥].

- وأخبَرَ بالمضارعِ ﴿تَصِيرُ﴾، والمرادُ به الدَّيمومةُ؛ كقولِه: زيدٌ يُعطي ويَمنَعُ، أي: مِن شأنِه ذلك، ولا يُرادُ به حقيقةُ المُستقبَلِ، أي: تُرَدُّ جميعُ أمورِ الخلْقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر ان السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥٦).

إليه تعالى يومَ القيامةِ فيَقضي بيْنَهم بالعدلِ. وخُصَّ ذلك بيومِ القِيامةِ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ لأحدٍ أنْ يَدَّعيَ فيه لِنَفْسِه شيئًا[١].

- وفي تَنْهيةِ هذِه السُّورةِ الجَليلةِ بهذه الآيةِ العَظيمةِ مُحسِّنُ حُسنِ الخِتامِ[٢].



تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الحادي والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الثَّاني والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الزُّخْرُفِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٦).









الفهرس







الفهرس

تـم الـصـف والإخـــراج فــي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠